

الذخائر والأعلاق

في آداب النفوس ومكارم الأخلاق

تأليف

أبي الحسن سلام بن عبدالله بن سلام الباهلي الإشبيلي

للتوفيق سنة ٥٤٤ هـ

باعتناء

الذكتور احسان ذنون الشامري

دار طائر

بيروت

الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق

تأليف
أبي الحسن سلام بن عبدالله بن سلام الباهلي الإشبيلي
للتوقف سنة ٥٤٤ هـ

باعتناء
الدكتور إحسان ذنون الشامي

دار طائر
بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾

صدق الله العظيم

سورة فاطر، من الآية ١٠

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

1432 هـ - 2011 م

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهرومستانية، أو أشرطة ممغنطة، أو وسائل ميكانيكية، أو الاستنساخ الفونوغرافي، أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من الناشر.



تأسست سنة 1863

ص. ب. ١٠ بيروت، لبنان

© DAR SADER Publishers

P.O.B. 10 Beirut, Lebanon

Fax: (961) 4.910270 Tel: 910340

e-mail: dsp@darsader.com

http: www.darsader.com

Al-Zakhā'ir wal-A'lāq
(Sallām al-Bāhīlī al-Ishbīlī)

p. 576 - s. 17.5 x 25 cm

ISBN 978-9953-13-710-0



9 789953 137100

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ذي الإحسان العميم، مادِح حبيبه المصطفى بقوله جلّ وعلا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَّ خَلْقَ عَظِيمٍ﴾^(١).

والصلاة والسلام على رسوله الكريم، الذي أدبه ربّه فأحسن تأديبه^(٢)، وجعله أسوة حسنة^(٣) للعالمين، وقدوة نستنّ بها إلى يوم الدين . أما بعد:

فإن الأخلاق، والفضائل، والمكارم، وحسن الأدب، موضوعٌ كان محطّ اهتمام المفكرين والفلاسفة والعلماء والأدباء وذوي الأقلام الراقية . بالإضافة إلى كونه رُكناً هاماً من أركان الأديان السماوية، والشرائع الوضعية . فما من نبيّ ولا مفكّر ولا مُصلح ولا معلّم، إلا وكان داعيةً إلى مكارم الأخلاق، والتحليّ بالفضائل .

وعلى الرغم من الجهالة الدينية التي عاشها العرب قبل الإسلام، إلا أنهم عرفوا خصالاً وفضائل، قال رسول الله ﷺ بسببها: "إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق"^(٤).

وسمّو موضوع الأخلاق جعل الكتاب يخوضون فيه من جهات شتى، فهو مترامي الأطراف، بعيد السواحل والحدود . وتندرج تحته فروع كثيرة، كانت مشارّ نقاشٍ وحوارٍ بين المفكرين؛ فموضوع الأخلاق يتّصل بالحكمة، والطبيعة الإنسانية،

(١) سورة القلم، الآية (٤) .

(٢) من قوله ﷺ: 'أدبني ربي فأحسن تأديبي' .

(٣) من قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ سورة الأحزاب، من الآية: (٢١) .

(٤) الخرائطي، مكارم الأخلاق، ص ٢٦ .

والغرائز، والشهوات، والنفس، والمَلَكَاتِ، والتعلّم، والمزاج، والفِطْرَة، ومكامن الخير والشرّ، والتخيير والتسيير، والجَبْر والقَدْر، واللذة، والزهد، والسلوك، والعقاب والثواب، والبِرّ والإثم، وما يتعلق بالمنازل النفسية الخمس في الإنسان: الحسّ والخيال والعقل والقلب والروح .

ولعلّ من أبداع ما فُتّرت به معاني الأخلاق، ما قاله صاحب (مفتاح السعادة)، فقد عرّف علم الأخلاق باعتدال القوى الثلاث في الإنسان: النظرية، والغضبية، والشهوية .

فالحكمة هي كمال القوة النظرية، والشجاعة هي كمال القوة الغضبية، والعفة هي كمال القوة الشهوية . وجعل علم الأخلاق ثمرة كل العلوم^(١).

وقد حاول كثيرٌ من المؤلفين الإلمام بجانب أو أكثر من موضوع الأخلاق؛ فأبدعوا مؤلفاتٍ في هذا المجال لا حصرَ لها . ومن الاطلاع على أسماء بعض تلك المؤلفات، يتّضح لنا صدق هذا القول، حيث قدّموا صوراً مختلفة لكل ما يتعلق بالأخلاق وتقويمها، والرذائل والابتعاد عنها، منطلقين - في ذلك - من قيم عربية وإسلامية، وإنسانية، وطبيعية، ونفسية، ومنطقية، وهي تعبّر عمّا في حضارتنا العربية الإسلامية من قيم إنسانية فاضلة، واتّساع روح البحث، وأفق حضاري كبير . وتعبّر في الوقت ذاته عن معتقدات أولئك المؤلفين وآرائهم، ونتائج تمعّنه في التفكير .

وهناك قائمةٌ طويلةٌ جداً في مخزون التراث العربي الإسلامي، من الكتب التي تبحث في موضوع الأخلاق، لا نستطيع الإحاطة بها . نذكر منها:

- (أخلاق النبي ﷺ) لأبي بكر بن عبدالله الوّراق (ت ٢٤٩هـ).

(١) طاش كبري زاده، مفتاح السعادة، ج ١، ص ٣٨٣ .

- (أخلاق الشطّار) للجاحظ (ت ٢٥٥ هـ).
- (أخلاق الأمم) لأبي حنيفة الدّينوري (ت ٢٨١ هـ).
- (أدب النفوس الجيدة والأخلاق النفيسة) لأبي جعفر الطبري (٣١٠ هـ).
- (مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها ومرضيها) لمحمد بن جعفر بن محمد الخرائطي السامرّي (ت ٣٢٧ هـ).
- (مساوئ الأخلاق ومذمومها) لمحمد بن جعفر بن محمد الخرائطي (ت ٣٢٧ هـ).
- (أخلاق النبي ﷺ) لأبي حاتم محمد بن جَبان البُستي (ت ٣٥٤ هـ).
- (أخلاق العلماء) لأبي بكر محمد بن الحسين الأجرّي (ت ٣٦٠ هـ).
- (تهذيب الأخلاق) لابن عدي التكريتي (ت ٣٦٤ هـ).
- (أخلاق النبي ﷺ) لأحمد بن فارس (ت ٣٦٩ هـ).
- (إصلاح الأخلاق) لعلي بن نصر النّصراني (ت ٣٧٧ هـ).
- (أخلاق الوزيرين) لأبي حيان التّوحّيدي (ت ٤٠٠ هـ).
- (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق) لأبي علي مسكويه (ت ٤٢١ هـ).
- (أخلاق الشيخ الرئيس) لأبي علي ابن سينا (ت ٤٢٧ هـ).
- (الأخلاق والسّير في مداواة النفوس) لابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ).
- (الأخلاق) ويُسَمّى (أخلاق الراغب) لأبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ).
- (أخلاق الأبرار والنّجاة من الأشرار) لأبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ).
- (أخلاق الكرام وأخلاق اللثام) لسليمان بن بنين بن خلف الدقيقي (ت ٦١٣ أو ٦١٤ هـ).

- (أخلاق الصوفية) ليحيى بن حميد بن ظافر الحلبي المعروف بابن أبي طي (ت في حدود ٦٣٠هـ).
 - (شجرة الأخلاق الرضية والأفعال المرضية) لعز الدين بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ).
 - (الوصية في الأخلاق المرضية) لأبي المعالي أسعد بن عز الدين المظفري (ت ٦٧٢هـ).
 - (أخلاق عضد الدين) لعبد الرحمن بن أحمد الإيجي (ت ٧٥٦هـ).
 - (أخلاق الأخيار في مهات الأذكار) لمحمد بن محمد الأسدي القديسي (ت ٨٠٨هـ).
 - (أخلاق الأتقياء وصفات الأصفياء) لمظفر بن عثمان البرمكي الشهير بخضر المنشي (ت ٩٦٤هـ).
 - (أخلاق الرؤساء) لمحمد بن أحمد الهاشمي .
 - (أخلاق النفس) لعلي بن أحمد بن سعيد .
 - (مكارم الأخلاق) لأبي جعفر البرقي .
 - (مذامم الأخلاق) لأبي جعفر البرقي .
- كما إن قائمة الكتب التي تبحث في الأخلاق، ولا تحمل في عناوينها لفظة الأخلاق أو الخلق، مثل (أدب النفس) أو (تهذيب النفوس)، من الكثرة بحيث لا يمكن أن نحصيها . والأكثر من ذلك، ما وضعه المؤلفون من فصول ومباحث في كتبهم تتعلق بالأخلاق، كأبي الفتح الحلبي (ت بعد ٦٢٥ هـ) الذي جعل الفصل السابع من كتابه في (مكارم الأخلاق والكرم ومحاسن الأخلاق والشيم) (١).

(١) الحلبي، أنس المسجون، ص ٢١٤ .

ومن خاض في هذا الموضوع أيضاً، أبو الحسن سلام بن عبد الله الباهلي الإشبيلي، صاحب هذا الكتاب^(١). ولا يوجد بين أيدينا ما يُجلي الغموض الذي يكتنف سيرة هذا الرجل، فلم يترجم له غير ابن عبد الملك المراكشي (ت ٧٠٣هـ). ومن خلاله عرفنا أن اسمه سلام بن عبد الله بن سلام الباهلي. وهو إشبيلي، وكنيته أبو الحسن.

روى عن أبي الحجاج الأعمش الشَّتَمَري (ت ٤٧٦هـ) صاحب شروح دواوين الشعراء الجاهليين^(٢)، وأبي الحسين بن عبد الله الباجي.

وروى عنه أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي (ت ٥٧٥هـ)^(٣)، وأبو الحسن بن مؤمن^(٤)، وأبو عبد الله بن المجاهد (ت ٥٧٤هـ)^(٥).

قال عنه المراكشي: كان شيخاً جليلاً أديباً كاتباً شاعراً، عاكفاً على الخير، مائلاً إلى الزهد، من بيت نباهة شهير الذكر.

وكان أبوه قد وزر للمعتمد بن عباد الذي كان صاحب إشبيلية وقرطبة بين عامي ٤٦١-٤٨٤هـ ودخل أبو الحسن على المعتمد مادحاً، وهو في سنِّ دون العشرين، فاستحسن المعتمد قوله، وأجزل صلته، وألحقه في ديوان الشعراء.

ومن خلال كتابه (الذخائر)، عرفنا أنه كان موجوداً بإشبيلية وقت دخول المرابطين وسقوط دولة ابن عباد^(٦).

(١) ذكره حاجي خليفة، دون إعطاء أية معلومات غير اسمه وعنوان كتابه. كشف الظنون، ج ١، ص ٨٢٢؛ وكذلك البغدادي، هدية العارفين، ج ١، ص ٣٩٣.

(٢) عنه، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٤، ص ٧٢.

(٣) انظر: كتابه فهرسة ما رواه عن شيوخه، ص ٣٨٦، ص ٤١٧، ص ٤٥٠. وعنه، انظر: مقدمة المحقق لكتابه، ص ي.

(٤) عنه، انظر: المراكشي، الذليل والتكملة، ج ٥، ص ١٥٢، ص ٢٠٩، ص ٢١٠، ص ٢٢٢، ص ٢٥٧، ص ٢٦١، ص ٢٦٢، ص ٢٦٤، ص ٢٧٩.

(٥) عنه، انظر: ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٦، ص ٤١١.

(٦) الذخائر والأعلاق، ص ٢٢٩.

تُوفِّي بِشَلْبٍ غَرَبِيٍّ قَرطبة منتصف رجب من سنة ٥٤٤ هـ وهو ابن ثمانين سنة .
وكان قد نظم خمسة عشر بيتاً أوصى بكتابتها على قبره، منها:

يا ذا الذي مَرَّ بي اجتيازاً سألتك الله قف قلباً قليلاً
واسْتَغْفِرِ الله لي عَساه يكون من عَثرتي مَقبلاً
وقل عفا الله عن سَلامٍ فكم عصى الله والرسولاً^(١)

لكنَّ عدداً من المؤلفين الفضلاء قرروا أنه توفي بعد سنة ٨٣٩هـ وهو التاريخ الذي
وُجد في نهاية النسخة الخطية (على ما يبدو) وكذلك المطبوعة من كتابه (الذخائر)^(٢). فقد
جاء في نهاية الكتاب: "وقد نجز بحمد الله وعونه وحسن توفيقه، وفرغ منه يوم الخميس
رابع عشر ذي القعدة عام تسعة وثلاثين وثمانمائة من الهجرة". فما كان من أولئك
الفضلاء إلا أن وثقوا بهذا القول وركنوا إليه . وهو أمرٌ يجانب الصواب، حيث إن الكتاب
ومؤلفه ذُكرا في مؤلفاتٍ وُضعت قبل هذا التاريخ بكثير، فقد ورد ذكرُ اللباهلي في كتاب
(المغرب في حل المغرب) وهو كتاب اكتمل تأليفه قبل سنة ٦٨٥هـ^(٣)، وكان والد المؤلف
الأخير وهو المتوفى سنة ٦٤٠هـ قد عرفه، وضبط اسمه^(٤)، وأغلب الظن أنه كان من
مصادر المراكشي صاحب (الذيل والتكملة) .

(١) المراكشي، الذيل والتكملة، ج٤، ص٤٨-٥٥ .

(٢) سركيس، معجم المطبوعات، ج١، ص٥٢٢؛ فنديك، اكتفاء القنوع، ص١٢٠٣؛ الزركلي،
الأعلام، ج٣، ص١٠٦ .

(٣) تتابع على تأليف كتاب (المغرب) ستة من المؤلفين في مائة وخمسين سنة، أولهم محمد بن إبراهيم
الحجاري، وآخرهم علي بن سعيد (ت٦٨٥هـ). انظر: المغرب، ج١، مقدمة المحقق.

(٤) ابن سعيد، المغرب، ج١، ص٤٣٤ .

كما أن النويري (ت ٧٣٣هـ) كان قد اطلع على كتابه، وصرّح بالنقل عنه^(١). وكذلك محيي الدين القرشي وهو المتوفى سنة ٧٧٥هـ، الذي رأى الكتاب وأخذ عنه، وذكر ذلك صراحةً، حيث قال في فصل (كنية النبي عليه أفضل الصلاة والسلام): "أما كنيته بأبي الأرامل، فقد ذكر الإمام أبو عبدالله سلام بن عبدالله الباهلي الإشبيلي في كتاب (الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق) أن كنية النبي ﷺ في التوراة أبو الأرامل"^(٢).

فالأمر ببساطة شديدة، لا يعدو عن أن تكون تلك العبارة الموجودة في نهاية الكتاب، هي من وضع الناسخ وليس من المؤلف، فولدت لبساً على أولئك الفضلاء .
ومن أفاد من الكتاب أيضاً، محمد بن يوسف الدمشقي الصالحى المتوفى سنة ٩٤٢هـ حيث أخذ منه بعض المعلومات حينما وضع كتابه (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد وذكر فضائله وإعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد) المعروف بالسيرة الشامية^(٣).

وأوصَلنا البحث أيضاً إلى أن المقرئ وهو المتوفى سنة ١٠٤١هـ، كان قد عرف الكتاب واطّلع عليه، وقد أورد بيتين من شعر الباهلي مُصرِّحاً بأنه نقلهما من كتابه هذا .
وأردف ذلك بقوله إن والد الباهلي كان وزيراً للمعتمد بن عباد^(٤).

-
- (١) النويري، نهاية الأرب، ج ١٦، ص ١٣؛ وانظر: الباهلي، الذخائر والأعلاق، ص ٤٢١ .
 - (٢) القرشي، الجواهر المضية، ج ١، ص ٣٢؛ وانظر: الباهلي، الذخائر والأعلاق، ص ٤١٥ .
 - (٣) انظر: الصالحى، سبل الهدى والرشاد، ج ١، ص ٢٨٦، ج ٣، ص ٢٩٠؛ الباهلي، الذخائر والأعلاق، ص ٤١٥، ص ٤٢١ . وكان برهان الدين الحلبي (ت ١٠٤٤هـ) قد استوعب كتاب الصالحى في كتابه (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون) المعروف بالسيرة الحلبية .
 - (٤) المقرئ، نفع الطيب، ج ٤، ص ٣٣٣؛ وانظر: الباهلي، الذخائر والأعلاق، ص ٣١ .

ولا أعلم من القدماء مَنْ عرف الكتاب أو اطلع عليه غير هؤلاء الذين جعلونا
نطمئن إلى صحة نسبه لمؤلفه الباهلي الإشبيلي .

ومن كتابي (المغرب) و(الذيل والتكملة) عرفنا أن اسمه (سلام) باللام المخففة،
وليس بالمشددة كما ضبطه مُحَقِّقا (الجواهر المضية)، (ونهاية الأرب) . ومما يؤكد ذلك،
الوزن الشعري للبيت الثالث من الأبيات التي أوصى بكتابتها على قبره، والتي مرّت قبل
قليل^(١) . وعنه صاحب (المغرب) من أدباء مالقة، وهي بين إشبيلية وغرناطة^(٢) .

وللباهلي شعرٌ كثيرٌ أوردَ هو نفسه عدداً منه في كتابه هذا (الذخائر والأعلاق) . وقد
أشاد المراكشي بأبياته التي واصل بها يتي الحريري صاحب المقامات، وهما اللذان قال
فيهما: أسكتنا كل نافث، وأمنا أن يُعزّزا بثالث، وهما:

سِمَ سَمَةٌ تَحْسُنُ آثَارَهَا واشكر لمن أعطى ولو سَمِسِمَةً
والمكر مهما اسطعت لا تأتبه لتقتني السؤدد والمكرمة
فزاد أبو الحسن سلام عليهما:

والمهرمة لا تغليه أو ترى شديدة البعد من المهرمة
والمس لهوى القرط منها الذي يحل للمسلم والمسلمة
والمحرم اهجرة فإتيائهُ يدعو إلى الشقوة والمحرمة

كما إن له نثراً^(٣) لا يقل جودة عن شعره، قال المراكشي: " له خطبٌ منوعة
المقاصد، ومقاماتٌ سبع تصرّف فيها أبرع تصرّف، وأجاد في رصفها، وتصانيف في

(١) ص ي من هذه المقدمة .

(٢) ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٤٣٤، وانظر: ص ٤٢٢ .

(٣) انظر بعض نثره الفتي في ص ٢٦٥ من هذا الكتاب .

الآداب والزهد والحكم، منها كتابٌ حَسَنٌ وَسَمَّهَ بِـ (الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق) أَحْسَنَ انتقاء ما ضَمَّنَه، وأودَعَه جملَةً وافرةً من شعره " .

والكتاب عبارة عن أربعة عشر باباً - استعرضها المؤلف في مقدمته - تدورُ حول فضيلة الأخلاق وعلاقتها بالعقل والعلم والحلم والزهد والتصوّف والعدل وغيرها من الفضائل، كما تشرح عناصر مكارم الأخلاق، وما جاء فيها - شعراً ونثراً - على لسان السلف والعلماء والأدباء . وساق في الباب الثالث عشر بعض ما يتعلّق بالنُظُم الإسلامية، وما يدور حولها من أدب سياسي، وحكمة وأخبار . في حين أنهى الكتاب بباب يختص ببعض سيرة ومآثر النبي ﷺ، ولُغ من كلامه الشريف . فكأنه أراد أن يكون كتابه شاملاً، لا يُحتاج بعده لأي كتاب في الأخلاق . وفي الكتاب من المواعظ، ومن أدب التعلّم، والعلاقة بين العالم والمتعلّم الشيء الكثير . فهو موسوعة أخلاقية حكمية ميسرة .

ولأنه أدرك أن " الشعر ديوان العرب، وإلى إحكامه وأحكامه كانت ترجع في جميع أحوالها، وبه كانت تأخذ في جميع أفعالها وأقوالها، وبه كانت تقيّد مفاخرها، وتخلّد محاسنها ومآثرها " (١)، فقد شَحَن كتابه بشعرٍ كثيرٍ استشهاداً وتمثيلاً .

وجعل في كل باب من الأبواب عدّة فصول تسيّر مع سياق عنوان الباب، وذلك كي يسهل عليه شرح الفكرة والمادة، ويسهل على القارئ القراءة والفهم، أي أن تقسيمه تقسيم منهجي .

وجعل جُمَلَه وعباراته قصيرةً مسجوعةً محكمة السبّك، تسيّر مسار الحكّم والأمثال، ليسهل وَقَعُها على القارئ والسامع فتكون قوية المعنى، مؤثرة في وجدان متلقيها .

(١) الذخائر والأعلاق، ص ٣٥٨ .

وقد بين في مقدمته سبب تأليفه للكتاب، بأجل ما يكون من وضوح المعاني، وسهولة الأسلوب . وذكر في خاتمته^(١) أن هدفه المرجو من تأليف الكتاب قد تم وفق الشرط الذي وضعه على نفسه .

واستشهد بعدد كبير من نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام الأولياء والحكام والبلغاء، ما يدل على اتساع ثقافته . وهو يعتمد - بالإضافة إلى محفوظه - على مصادر مختلفة تراوح بين رواية شفوية، وكتب سماوية، وتصانيف دينية، وتآليف أدبية، ودواوين شعرية . وهي - وإن لم يذكرها بعناوينها صراحة - واضحة الوجود والشخص، وقد ذكر منها عدداً محدوداً جداً، هي: (الموطأ) لمالك^(٢)، و(التزهة والأخبار) لأبي حفص عمر بن أحمد بن عثمان بن شاهين^(٣) (ت ٣٨٥هـ) وهو صاحب التصانيف الكثيرة، منها تفسير ومسند وتاريخ^(٤) .

كما استقى ما يقرب من عشرة أقوال من أبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) الذي ذكره باسمه دون أن يحدد عنوان كتابه^(٥) .

كما إن قوله: "قرئ في بعض الكتاب السالفة..."^(٦) يدل على اطلاعه على عدد من المصادر، وإن لم يذكر عناوينها.

(١) الذخائر والأعلاق، ص ٤٨٧ . وانظر: ص ٣٢٨ .

(٢) الذخائر والأعلاق، ص ٤٦٦ .

(٣) الذخائر والأعلاق، ص ٣٨٩ .

(٤) عنه، انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٤، ص ٣٧٨؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ ج ٣، ص ٩٨٧؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٤، ص ٤٥٤ .

(٥) الذخائر والأعلاق، ص ٤٠، ص ١٦٧، ص ١٧٥، ص ١٨٢، ص ٢٤٠، ص ٢٤٧، ص ٢٦٥، ص ٣٥٢ .

(٦) الذخائر والأعلاق، ص ٢٨٤ .

إضافة إلى ذلك، أخذ عمّن أطلع على (الزبور)^(١)، و(التوراة)^(٢) و(الإنجيل)^(٣)، فقد قال: "رُوي أنه وُجد في بعض الكتب المترلة...."^(٤)، "قال كعب الأحبار: إني وجدت في الكتب المترلة..."^(٥). ولعله أطلع على بعض كتب الفرس القديمة، كما يظهر من الكتاب، حيث قال: "وُجد في بعض كتب الفرس....."^(٦).

لقد كان الباهلي محققاً حين أطلق على كتابه اسم (الذخائر والأعلاق) فالذخيرة هي كل ما يدخره الإنسان من نفيس وثمين^(٧)، والأعلاق جمع (عَلِق) وهو النَّفِيس من كلِّ شيء^(٨). فالعنوان - فيما أرى - جاء معبراً عما في الكتاب، وملائماً لما فيه من نفائس وأقوال وآداب.

وقد طُبِع هذا الكتاب - على حدّ علمي - مرةً واحدةً، تلك هي الطبعة انصدارة عن المطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م، باعتناء طه محمود الدمياطي، جزاه الله خير الجزاء.

ولستُ بحاجة إلى شرح أهمية هذا الكتاب، وأهمية إعادة نشره بعد أن أصبح عزيزاً جداً، بل إن بعض كلماته وحروفه قد غيّبتها عوامل الزمن، وظروف الرطوبة، وحشرات الكتب؛ فأصبح مخروماً في بعض المواضع، ومن المتعذّر قراءته بسهولة ويُسر.

(١) الذخائر والأعلاق، ١٦٥، ١٨٣.

(٢) الذخائر والأعلاق، ص ٢٣٩، ص ٣٠٠، ص ٣٤٣، ص ٤١٥

(٣) الذخائر والأعلاق، ص ٢٩٨.

(٤) الذخائر والأعلاق، ص ١٦٥.

(٥) الذخائر والأعلاق، ص ١٨٠.

(٦) الذخائر والأعلاق، ص ١٠٦.

(٧) ابن منظور، لسان العرب، ج ٤، ص ٣٠٢ (ذخر).

(٨) ابن منظور، لسان العرب، ج ١٠، ص ٢٦٨ (علق).

لقد اعتمدتُ تلك الطبعة أصلاً لنشرتي هذه، حيث عجزتُ عن الحصول على نسخة خطية، رغم محاولاتي المتكررة والكثيرة لمعرفة أماكن وجودها . فأثبتتُ نصَّ الكتاب على هذه الصورة^(١)، وخدمته بكثير من وجوه الضبط والتدقيق والتحقيق والإصلاح والتخريج والترقيم والفهرسة، بُغية تقديمه بشكلٍ يُرضي مَنْ يطلع عليه . فخرَّجتُ الآيات بين معقوفين [] بعد كل آية مباشرة لئلاّ تزدحم الهوامش . أما الحديث، فتختلف درجة صحته من حديث إلى آخر ، بين صحيح وموضوع! فالمؤلف ليس من رجال الحديث، وإنما هي أحاديث كانت معروفة ومتداولة بين الناس، سواء كانت صحيحة أو غير ذلك . أي أنها من ثقافة الناس، وذات معانٍ مقبولة لديهم .

وأنا أنشره اليوم حفاظاً عليه من الضياع، وخدمةً لتراث الأمة، ومساهمةً في توفير مادة للباحثين في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وهديةً للمربين الأفاضل، واعتزازاً بباطيننا المشرق وثقافتنا السمحاء المتهمة بالباطيل . والرجاء أولاً وأخيراً، مرضاة الله جلّ وعلا، إنه ناصر الحق، وناصر المؤمنين، لا رب غيره .

احساناً من عبد اللطيف النوري

(١) في حال صححت كلمة، وضعتها في المتن، ووضعت الكلمة الحاطفة في الهامش بعد حرف (م)، والمقصود به: المطبوع.

الذخائر والأعلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن خير ما افتتح به كتاب، واستمنح به طلاب، واستجزل به ثواب، واستدفع به عذاب، واعتمد به صواب، حمد الله العزيز الوهاب، الهادي المرشد الثواب، الذي صير عيون الأفكار عن تصوّر كُنْه جلاله مغموضَةً، وجعل أيدي العقول عن الوصول إلى معنى كماله مقبوضَةً، وأثبت العلم بوجود ربوبيته حتمًا، وأوجب التواضع لعزّته والخضوع لكبريائه حكمًا، فتعالى الله الملك المعبود الواحد الفرد الصّمد المجيد، القادر على ما يشاء، الفعّال لما يريد، الذي خلق الإنسان من علق، ثم صورّه من مضغة فانظم واتسق، أخرجّه طفلاً فتنفس ونطق، ثم أهداه إلى ما تقدّم له في علمه وسبق، فمن شاء خذل، ومن شاء وفق، فتبارك الله أحسن من خلق، وأكرم من رزق، ﴿لَا يُسْقَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْقَلُونَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية ٢٣]، ﴿وَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة البقرة، من الآية ١١٧]، ﴿فَسُبْحٰنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة يس، الآية ٨٣]. أحمده على ترادف آلائه، وحسن بلائه، وأسأله الصلاة على خاتم أنبيائه، ومبلغ أنبائه، وصفوة أوليائه، ونخبة أحبائه، محمد نبي الرحمة، وكاشف الغمّة، وشفيع الأمتة، وتمام النعمة، المؤيّد بالعصمة، الناطق بالحكمة، إمام الهدى، وقامع العدى، ودافع الردى، الذي لا ينطق عن الهوى، وعلى أهل بيته الطاهرين، وصحابته المنتخبين، وعلى جميع النبيين والمرسلين، وعلى أهل الطاعة أجمعين من أهل السموات والأرضين .

أما بعد:

أيها الوليِّ الحميم، والصفويِّ الكريم، أعزَّك الله بالطاعة، واستعملني وإياك بالرضا والقناعة، فإنني لما رأيت الأمور الشرعية، والأحوال الدينية، والمعاني العقلية، والأسباب المرضية، قد نصَّ الله عزَّ وجل عليها في كتابه العزيز المجيد، الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۗ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [سورة فصلت، الآية ٤٢]، ثم أنطق بها أنبياءه حكمةً بالغةً، وأرسلها بوحيه على ألسنتهم مواعظاً نابغةً، ونعماً سابغةً، ثم شرح لها هندور أولي النهى، ونور بها قلوب مَنْ آمن به واهتدى؛ فصدرت عنهم بها حكم مرفوعة، وأمثال موضوعة، ونوادير مجموعة، وفقر مسموعة، خشعت لسماها قلوب العارفين، وأقرت بتصديقها أفئدة المطيعين، ودانت بتحقيقها نفوس المتقين، وشهد بصحتها عقول العابدين، فاستنارت بأنوارها القلوب، وابتهجت لحسن آثارها النفوس، ولهجت بها الألسن، وقرت بها الأعين، واستظهرت بحكمها النحل، وانتهجت إلى الخيرات بوضوحها السبل، واستمرت بتقييد شواردها العناية، واستقرت على علم شواهدا المحافظة والرعاية، وعظم بها اشتغال أهل المعرفة والدراية، وكثر لها استعمال أهل التقى والهداية، فجعلوها نصب عيونهم، وحديث نفوسهم، وشغل جواهرهم، ومواقع مواردهم ومصادرهم، لدلالاتها على سبيل الخير، وحملها على أحوال الطاعة والبرِّ، فسارت لذلك مسير الرياح في الآفاق، وزادت على وضوح النيرات في الإشراق .

فأردتُ - مستمداً بعون الله عزَّت قوَّته، وجلَّت قدرته - أن أجمع من معلومها ومأثورها، وأثبت من مذكورها ومشهورها، وأورد من منظومها ومنثورها، مع ما أندب إليه من مكارم الأخلاق ودواعيها، وأحمل عليه من الرفض لمذامها ومسائرها، ما يكسب في العاجل جمالاً، ويحسن في الآجل مآلاً، ويبعث لي إرادة المزيد، ويزيد في حرص المستزيد، فلعلِّي أفوز بأجر المرشد المفيد، بفضل الله الحميد المجيد .

ولقد كاد أن يقعدني على مذهبي، ويصدني عن بغيتي منه ومطلبي، قولٌ بعض المتقدّمين: عقل المرء مدوّن في كتبه، مترجم بخط يده . وقال أيضاً بعضهم: مَنْ صنّف فقد استُهدف، فإن أحسن فقد استُعطف، وإن أساء فقد استُعدف^(١) .

لكنه نهض بي حرص المدلّ، أن أبذل الجهد المقلّ، على أنني شرعت فيه عند استيفاء الكبر، ومكابدة الغير، ومشاهدة العبر، فأنيّ ذهن يتخلّص إلى صواب، وأي قلب يدعو إلى الاقتضاب! والله يسلك بنا أوضح سبيل، ويصرفنا عن مواقع التغيير والتبديل، بعزّته .

ولا يعدم كتابنا هذا أن ينظر فيه عالم عاقل، أو جاهل متحامل . فأما الجاهل فقد كفانا الكلام في شأنه، والتهمّم بمكانه، لقصور علمه، وعطول فهمه . وأما العالم العاقل فإذا عرف بعلمه الأغراض والمقاصد، وكشف بفهمه الناقص والزائد، لا يرى أن يعيبه لنقص ظهر إليه، أو خلل أطلع عليه، فإنه لا يصحّ الكمال لمخلوق على حال، وإنما خصّ به نفسه ذو الجلال .

ولا بدّ للنّاظر فيه أن يستفيد منه ما لم يكن عنده، فلا يسكت، أن ينسب إلى المتعدي فيها لم يكن عندي، فإن للعلوم آيات لا يدركها المخلوق، وللمعارف آيات لا بدّ فيها من سابق ومسبوق . والله وليّ التسديد والتوفيق، والهادي إلى سواء الطريق . وبه أستعين على صدق اليقين، وعليه أعتد فيما أعتقد وإليه آوي فيما أنوي، ومنه أستهدي بما يهدي، وبه اعتصم مما يصم . له المنّة والطول، وعنده القوّة والحول، لا ربّ سواه .

ولما رأيت من شرط هذه التاكيف، وضبط هذه التصانيف، القصد بها إلى التهذيب والترتيب، والاعتدال فيها على التفصيل والتبويب، ليتصل الخبر بمثله، ويقترن الأثر بشكله، ويوازن الشيء بعدله، ويضاف الفرع إلى أصله، فلا يبعد على طالبه مكانه، ولا يتعذر على من

(١) أكل . لسان العرب (عدف) .

ناداه إتيانه؛ قسمته على أربعة عشر باباً يقتضي كل باب التحلي بالسَّجِيَّة الكريمة، والتخلي عن الخلة الذميمة . وبالله التوفيق ومنه العون، وهو وليّ الكلاءة والصَّون:

الباب الأول: في ترجيح العقل وخصائصه، وتجويع^(١) الهوى ونقائصه .

الباب الثاني: في اكتساب العلم وفضائله، واجتناب الجهل وحامله .

الباب الثالث: في استصحاب الطاعة لكمالها، واجتناب المعاصي ومآلها .

الباب الرابع: في حسن الصبر وعواقبه، وقبح الجزع ومعايبه .

الباب الخامس: في إثارة الزهد والورع، والإقصار عن الرغبة والجشع .

الباب السادس: في حبِّ العدل وفضله، وبغض الجور وأهله .

الباب السابع: في استنجاح الحلم ومصالحه، وإطراح السَّفَه ومقابحه .

الباب الثامن: في إظهار الصدق ومنافعه، وإنكار الكذب ومصارعه .

الباب التاسع: في مدح الكرم وأربابه، وذمِّ البخل وأسبابه .

الباب العاشر: [في الوفاء بالعهد والأمانة، والانتفاء عن النكث والخيانة .

الباب الحادي عشر: ^(٢)يشتمل على خمسة فصول تتعلق بالأفعال الشرعية، وتومي

إلى الأفعال المرضية .

الباب الثاني عشر: يحتوي على خمسة فصول لا يقتضيها^(٣) الشرع، وقد ورد فيها

النهي والمنع .

الباب الثالث عشر: يشتمل على أنواع الأدب، وفنون من حكم النظم والنثر .

الباب الرابع عشر: يختص بلمع من كلام رسول الله ﷺ وأخباره، وجمل من مآثره

الحميدة وآثاره، ﷺ، وشرف وكرم، ومجد وعظم .

(١) استئصال . لسان العرب (جوح).

(٢) ساقط في الأصل .

(٣) يقصد: لا يرتضيها.

الباب الأول

في ترجيح العقل وخصائصه، وتجويع الهوى ونقائصه

العقل - أيدك الله - سلطان القرائح، ومصباح الجوانح، ومفتاح المصالح، ورأس العلوم، وسبب إدراك المعلوم، ومادة الفهم، وينبوع الحكمة، وهو القطب الذي عليه هذه الخليقة، ورأس مبانيهم في الحقيقة، وأصل التفرقة بين أحوالهم المعلوم، واختلاف مذاهبهم المحمودة والمذمومة، وبه وقع التكليف للآدميين، وهو الموصل إلى صلاح الدنيا والدين، وهو سبب إلهي، وسر من أسرار تدبيره شريف، يضعه الله تعالى عند مَنْ أراد كرامته من عباده، وقضى له بحسن العاقبة في معاده . رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "العقل نور في القلب يفرّق بين الحق والباطل" .

وأهل العقل هم المخاطبون، وهم المكلفون، قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة آل عمران، الآية ١٩٠] إلى قوله: ﴿ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة البقرة، من الآية ١٦٤]، وقال عزّ من قائل: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ [سورة طه، من الآية ٥٤]، وقال: ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ [سورة الفجر، الآية ٥]. وهذا كثير في كلام الله يضمن غير ما آية من كتاب الله . وبالعقل استظهر المؤمن على كثير مما غاب عنه، واستطلع على جمل مما يججب عنه، كما يمكن عرفانه، ولا يتعذر على أرباب البصائر بيانه، من غير حركة جارحة، ولا حاجة إلى اقتراب ولا مماسة؛ لأن الجوارح لعلها كلها مفترقة فيما خلقت وجعلت سبب

الوصول إليه والقرب والمهاسة، فالمحتاج منها إلى القرب: السمع والبصر والأنف،
والمحتاج منها إلى المهاسة: أعضاء المباشرة والذوق، فسبحان الخالق المدبّر، القاسم
المقدّر! لا ربّ سواه.

فجّل

وقد تفاوض الناس في تسمية العقل وماهيته ومحلّه، وأطالوا في ذلك الكلام،
وكشفوا فيه عن مواطن الأفهام، وخطبوا فيه خبط عشواء، وأكثروا فيه النجوى، وما
بلغوا الاستيعاب، وبسطوا القول فيه على مقادير أفهامهم، وانتهوا من الخوض في
أفعاله إلى مبلغ إدراكهم، فما تخلّص فيه كلام عن الاعتراض، ولا سلّمت مبانيه من
الانتقاض، وذلك لدقّته عن الأوهام، وبُعد مراقبه عن الأفهام، فإنه أمر لا يصل أحد
إلى معرفة حقيقته من ذات نفسه، ولا يدرك كشف سريره بالاقتباس من علم غيره؛ إذ
ليس من العلوم المدركة بالتعلم، الملحوقّة بالتدبّر والتفهم، وإنما ما أدرك من العقل
بالعقل، فهو من الأسباب اللطيفة، والأسرار الخفية الشريفة، وضعه الله تعالى عند مَنْ
شاء من عباده، فشهد له به، ثم علمه العبد بالمشاهدة من نفسه بما أظهره الله عليه من
منافعه ومضارّه وحسن نظره لدينه ودنياه، واستظهار ذلك كله بالقول والعمل،
واستجلابه إلى نفسه وإلى غيره بحسن التدبير وصحة النظر، فعلم بذلك أنه عاقل .

فصل

فأما اشتقاقهم لأسمائه وهي: العقل، واللَّب، والحِجاء، والحِجْر، والنُّهى، فقالوا: سُمِّي عقلاً؛ لأنه يعقل صاحبه عن ركوب شهواته، ومنه أخذ عقال الناقة، فكما يمنعها عن الشرود والنفار، كذلك العقل يمنع صاحبه عن إتيان المكاره والمضارّ . وقال عامر بن عبد القيس: إذا عَقَلَك عَقْلُك عما لا ينبغي فأنت عاقل . وقال بعض العلماء: العاقل مَنْ عَقَلَ لسانه إلا عن ذكر الله، والجاهل من جهل قدر نفسه . وقيل: عقل المرء عقاله، وعمله كماله . وقيل: العقل يمسك أَعْنَةَ الشهوات، فمن لم يعقله عقله عن شهوته لم ينفعه علمه . وقيل: العقل هو عقال النفس .

وقيل: سُمِّي لُبًّا؛ لأنه صفة الروح، ولُبَّابه، وخالصة، ولَبَّ كل شيء: خالصة ومحضه . وقالوا: سُمِّي الحِجاء لإصابة الحِجَّة به، والاستظهار على جميع المعاني بصحته، ومنه يقال: حاجيته فحجوته: إذا ناظرته فأبكتته^(١) . ويقال: يحج أن يفعل هذا، أي: خليق به . وما أحجاه، أي: ما أخلقه .

وقالوا: سُمِّي حِجراً لأنه يحجر عن ركوب المناهي، ومنه يقال: حجر الحاكم على فلان، وحجر الوالد على ولده: إذا منعه . ويقال: الإنسان إذا كان ضابطاً لنفسه رابطاً لجأشه مالكاً لأدبه: إنه لذو حِجْر . وكذلك يقال للحصن: حِجْر؛ لأنه يُتحصن به من الطوارق . والحاجور: الملاذ الذي يلاذ به . والحجر: الحرم .

وقالوا: يُسَمَّى النُّهى جمع نهيّة، وهو العقل؛ لأنه إليه ينتهي الذكاء والمعرفة والنظر، وهو نهاية ما يمنح العبد من الخير المؤدي إلى صلاح الدنيا والآخرة، ولذلك قيل: نهى الوادي ونهيه، وهو مبلغ ما ينتهي إليه السيل منه .

(١) بَكَتَهُ بِالْحِجَّةِ وَبَكَتَهُ: غلبه . لسان العرب (بكت).

فصل

وأما اختلافهم في كُنْه العقل وماهيّته، فقال بعضهم: هو جوهر لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات، ويفرق بين الأمور المشتبهات . وهذا غير مقنع؛ لأن الجوهر عند أهل الكلام ما قام بنفسه وإن كان أقلّ الأجزاء . وقد سُئل بعض أهل العلم عن الجوهر والجسم، فقال: هما على الحقيقة اسمان متعاوران لمسمى واحد . والعقل لا يكون جسماً، وإنما هو عَرَض تحمله النفس يُعبّر به عن المعرفة الصحيحة التي توجب التزام الفضائل، وتقتضي حمل المكارم، وترفض المكاره، وتجتنب المآثم، وتبعث على فعل الخير، وتهدّي إلى طريق البر . وقد قال أفلاطون: ما ليس له غاية ليس له شخص، وما ليس له شخص ليس له صورة، وما ليس له صورة ليس له تقدير . وهذه من صفات الكمال، فشبّه بها العقل؛ لأنه سبب لكمال المرء، والله أعلم .

وقالوا: العقل هو إدراك العلوم الضرورية من وجهين: أحدهما: ما يكون علمه ثابتاً في النفس، مثل أن يكون عالماً بوجود نفسه، وأنه لا يخلو من وجود وعدم وحدوث وقدم، وأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الفوق ضدّ الأسفل، وأن الظلمة خلاف النور، وما شاكل هذا . والثاني: ما يُدرك بالحواس كالمربيات المدركة بالبصر، والأصوات المدركة بالسمع، والروائح المدركة بالشمّ، والمطعمات المدركة بالذوق، والملموسات المدركة بالمباشرة، وهذا الوجه ظاهر الاستحالة؛ فإن هذه الحواس كلها مجموعة في البهائم وقد حجبت عن العقل جملة . وأيضاً فإن الله سبحانه قد خلق الأكمه والأبرص، ومنع من شاء حاسة الشم، ولا يمتنع من ذلك أن يكون عاقلاً .

وقالوا: هو إدراك الأشياء على ما هي عليه من حقائق معانيها، وصحة مبانيها .
وهذه صفة حسنة كاملة، ومرتبة شريفة عالية تدل على كمال العقل واجتماع شمل
المعرفة، غير أنها حال لا تقتضي لصاحبها النقص منها، ولا توجب لحاملها التأخر
عنها؛ لأن إدراك الأشياء على ما هي عليه من حقائق معانيها، وصحة مبانيها، لا يصح له
إدراك البعض منها دون استيفاء جميعها، وعند ذلك تصح المعرفة، ويثبت العلم، ويستوفي
حقيقة الإدراك . والعقل إنما هو درجات ينقص ويزيد، ويذهب ويعود، وقد قال الله تعالى
لنبيه ﷺ: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [سورة طه، من الآية ١١٤] هذا الوجه والله أعلم .

وقالوا: هو إصابة الرأي وإدراك البيان لقول الله عز وجل: ﴿ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ
ثُمَّ يَخْرُجُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة، من الآية ٧٥]، وقوله تبارك
وتعالى: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة آل عمران، من الآية ١١٨] وقال عز
وجل من قائل: ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ [سورة طه، من الآية ١٣] أي: اعقل ما تسمع وتقول
إن تكلمت أعقلت ما أعقلت لك، أي: فهمت ما أوردته عليك . ولا محالة أن المفهوم من
كل شيء ما قيده العقل .

وقالوا: هو معرفة تكون في الإنسان تزيد باكتساب العلوم، وتظهر عند إفادة
المعلوم . وليس كذلك؛ لأن المعرفة إنما تكون عنه وتنبعث منه، فهو أسسها لا نفسها،
وسببها لا عينها .

فصل

وأما اختلافهم في محله، وتحديد مستقره، فمنهم من قال: محله الدماغ لإشرافه على
البدن، ولأن الرأس مقر الحواس . واحتج أنه متى حدث في الدماغ حادث، بطل

العقل، واختل بمقدار الحادث فيه . وهذا شيء نجد أن جميع الأعضاء إذا أفرط الألم الحادث النازل بها، وأخرج صاحبها عن حدّ الاحتمال، ذهل العقل، واختلّ الذهن بقدر حال العرض وقوّته، وإن وجدنا ذلك في الرأس أشدّ منه في سائر الأعضاء لما ذكرنا من شرفه وإشرافه، ومع هذا فقد رأينا معانيه وتأولنا مشاهدته ممن ذهب عقله لمصاب عظيم نزل به، وخطب جسيم جرى عليه، كذهاب المال، وفقد الحبيب، وعند إفراط الحب، أو انعكاس حال من غير تدريج يخرج صاحبها من العافية إلى البلاء، أو لمنظر بشيع، ومشهد كربه فظيع، مثل الذي يفعل بأهل الجرائم إذا جاوزوا بهم النكال حدّ القصاص، كالصلب، والرمي بالسهام، والتمثيل بقطع الأوصال، وسمل العين، وخلع الألسن، فلقد رأينا من فقد عقله عند مصابه بهذه النوائب وما لحق الدماغ شيء يغيّره، ولا وصل إليه شيء يؤثر فيه .

وقالوا: محلّه القلب . وهذا - والله أعلم - هو الموجود بصحة النظر، والمعلوم بصحة الأثر؛ لأنه سلطان البدن فحسن فيه التأويل، وحققه التنزيل، وعضدته السنن الماثورة عن الرسول ﷺ . قال تبارك وتعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [سورة الحج، من الآية ٤٦]، وقال عزّ من قائل: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [سورة الأعراف، من الآية ١٧٩]، وقال لنبه عليه السلام: ﴿ فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ حَتَمَ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ [سورة الشورى، من الآية ٢٤]، وقال جل وعز: ﴿ تَزَلَّ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [سورة الشعراء، من الآية ١٩٣ إلى ١٩٤]، وهذا كثير في كتاب الله . وفي حديث عطاء، عن ميمونة، عن النبي ﷺ أنه قال: "يقول الله تبارك وتعالى: إن العبد يتحجب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته

كنت رجله التي يمشي بها، ويده التي يبطش بها، ولسانه الذي يتكلم به، وقلبه الذي يعقل به، إن سألني أعطيته، وإن دعاني أجبته"، فأضاف سبحانه كل جارحة إلى ما خلقها له، كما أن الصدر كناية عن القلب؛ لأنه محله، قال الله جلّ ذكره: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۗ ﴾ [سورة الزمر، من الآية ٢٢]، وقال موسى عليه السلام: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ [سورة طه، الآيتان ٢٥، ٢٦]، وقال تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ [سورة الشرح، من الآية ١ إلى ٢]، ومثل ذلك كثير في كتاب الله تعالى .

وقال بعض الحكماء: الصدر ساحة القلب . كما أن ذكر القلب كناية عن النور الموضوع فيه الذي إليه الإشارة بقول الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [سورة ق، من الآية ٣٧]، وإنما أشار إلى الموضوع فيه، والمراد أيضا بقوله تعالى: ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ [سورة يس، من الآية ٧٠]، أي: من كان عاقلاً، وقيل: مَن كَانَ مُؤْمِنًا . وكذلك فسّر في الآيتين، والله أعلم .

وتكلم بعض أهل العلم في العقل والشرع هل وضعا معاً في حال واحدة أم سبق أحدهما الآخر؟ فمنهم من قال: وضعا في حال . ومنهم من قال: إن العقل هو السابق . وهذا أمر ليس به خفاء، ولا عليه غطاء، وقد قدّمنا أن بالعقل وجب التكليف، وهل قبل ما جاء به الأنبياء وعُلم صحة ما بُعثوا به إلا بالعقل؟ وهل كانوا قبل ذلك إلا كفّاراً، كالصحابة وغيرهم، وهم أهل العقول السّنية، والأذهان الذكية، ولذلك قبلوا الشرع ودانوا به، وهذا مما لا يحتاج إلى تبيان، ولا يفتر إلى برهان .

وكل واحد من هذه الطائفة المتكلمة في العقل لم ينكب عن القصد، ولا عدل عن الرشد، ولا انحرف كل الانحراف عن السنن كلامه، ولا طاشت عن موقع الهدف

سهامه؛ لأن كل ما وصفوه، وجميع ما صنفوه، في دلائل العقل وشواهدة، ودواعيه وفوائده . وقد قال سواهم غير هذه الأقوال، مما هي أبعد من الصحة وأقرب إلى المحال، ضربنا عنها مخافة التطويل، والخروج فيما قصدناه عن سواء السبيل.

فصل

وأصح الأقوال وأصوبها، وأشبهها بالحق وأقربها، وأحقها بالترفضيل وأوجبها، أن العقل نور موضوع في القلب كنور البصر في العين ينقص ويزيد، ويذهب ويعود، وكما يفقد نور البصر من العين ولا يتغير من أشكالها شيء، كذلك إذا عدم العقل من القلب لا يتغير له صفة، وكما تدرك بنور البصر شواهد الأمور كذلك يدرك بنور العقل كثير من المحجوب والمستور، فعلى البصر كعمى القلب ولا فرق، قال الله العظيم: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴾ [سورة فصلت، من الآية ١٧]، **أي:** بينا لهم . وأراد بالعمى عمى القلب، والله أعلم . وقال عز من قائل: ﴿ فَإِنَّمَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [سورة الحج، من الآية ٤٦]، وقال رسول الله ﷺ: "ليس الأعمى من عمي بصره، إنها الأعمى من عميت بصيرته" .

فصل

وقد شُبِّه القلب في جسد الإنسان بالمصباح، والعقل بمنزلة النار المتعلقة به، وسائر الجسد كالبيت، فإذا تعلققت النار بالمصباح، ضاء البيت واستنارت جوانبه، وإن طفتت النار، بقي المصباح مطروحاً لا فائدة فيه، ولهذا أشار بعض العلماء في قوله: إذا فكرنا القلب فلسنا نريد به اللحم الصنوبري^(١) المعلق بين الأضلاع فإننا نجد له للبهائم والأموات، وإنما نريد به السريرة الموضوعة فيه.

(١) يقصد صنوبري الشكل .

فصل

وقد انتهيت بحمد الله تعالى وحسن عونه مما أوردناه في هذا الباب إلى مقدمات كافيات يكثر بها الاستدلال، وتقوم للناظر فيها المدير لها مقام الاحتفال، وكلام العلماء أكثر من أن يدركه الإحصاء، ويستوفيه الاستقصاء .

ونرجع إلى ما شرطناه من ذكر الحكم الماثورة، والأمثال المشهورة، والفقر المنظومة والمنثورة . فأولها بالتقديم، وأحقها بالتكريم والتعظيم، ما صدر منها عن النبي الكريم، المخصوص بالبينات، المنزه عن البهتان، المبعوث بالقرآن، الداعي إلى خير الأديان، الناطق بالبلاغة المعجزة، في الألفاظ الموجزة، كما قال عليه السلام: "أعطيت جوامع الكلم" .

فمن ذلك قوله ﷺ: "قسم الله العقل ثلاثة أجزاء، فمن كنّ فيه كَمُلَ عقله، ومن لم تكن فيه قَلْ عقله، وهي: حسن المعرفة بالله، وحسن الطاعة لله، وحسن الصبر على أمر الله، قال الله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [سورة المجادلة، من الآية ٢٢]، ورُوي عنه ﷺ أنه قام إليه رجل من بني مجاشع فقال: يا رسول الله، ألسنتُ أفضل قومي؟ فقال له: "إن كان لك عقل فَلكَ فضل، وإن كان لك خُلُقٌ فَلكَ مروءة، وإن كان لك مال فَلكَ حَسَب، وإن كان لك تقى فَلكَ دين"، وإلى هذا نظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال: خير حَسَب الرجل ماله، وشرفه دينه، وأصله عقله، ومروءته خُلُقه . وقال رسول الله ﷺ: "إذا دخل النور في القلب انشرح وانفسح"، قيل له: يا رسول الله، هل لذلك من علامة؟ قال: "نعم: التجافي عن دار الغرور، والإنابة^(١) إلى دار الخلود، والاستعداد للموت، قبل الفوت" . ورُوي أن جبريل أتى آدم عليهما السلام، فقال له: إني أتيتك بثلاث فاختر واحدة . قال: وما هي؟ قال: العقل

(١) م: الاناء .

والحياء والدين . قال: اخترت العقل . فخرج جبريل عليه السلام، إلى الحياء والدين فقال لهما: ارجعا فقد اختار العقل عليكما . فقالا: إننا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان . وقال بعض الحكماء: العقل رأس مال الجسد، وبه يتحرف المرء فيفيد إدراك المعاني، وصحة النظر، وصواب الرأي، ويكتسب أدب النفس، ومكارم الأخلاق، وهو ينبوع الفضائل، ومادة العلوم، ومعدن الخيرات، فطوبى لمن مُنحه، ويؤسى لمن مُنعه . وقال غيره: الحكمة صورة العقل، والعقل هو المؤيد لأحكامها، المؤدي إلى معرفة نتائجها، المبرهن لما يخفيه مضارها، الدالّ على غامض أسرارها، السفير بينها وبين القلوب، المخلص لجميع الأنبياء من كَدَرِ الظنون والأهواء . وقيل في منشور الحكم: العقل آيته سرعة الفهم، وغايته إصابة الوهم . ومن كلام بعض الحكماء: الهمم العلية، والقرائح الذكية، توصل القلوب إلى نسيم هذا العقل الروحاني، فتدرك من الأسرار الخفية عن الأبصار، المحيطة بالأقطار، ما تشاهد به العبر، وتفارق به الكدر، فتعيش الأرواح عيش الأبد الذي لا يبید، وتعاين الحقائق في دار الخلود، إذا تقدم السابق المجدود، وتأخر الشقي المحدود، وتفوز النفوس بالحظ النفيس .

وقال رسول الله ﷺ: "إن الحق يأتي وعليه نور، فعليكم ببشائر القلوب" . وقال ﷺ: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد، وإذا فسدت فسد الجسد، ألا وإنما القلب" . فهذا دليل على أن القلب هو ملاك الأبدان، وسلطان جوارح الإنسان، وقطب تدور عليه رحى الجثمان، فإذا صفا من أكداره، واستنار بأنواره، كان أرفق رفيق، وأصدق صديق، يدعو إلى الحقيق، ويهدي إلى سواء الطريق، كما أنه إذا تكدّر صفوه، وطفئ ضوءه^(١)، وأظلم جوهه، كان أخبث صاحب، وعدوّ ناصب، يدعو إلى

(١) المقصود: ضوءه .

اقتراف المصائب، ويقود إلى سوء العواقب، ويحط إلى أوضع المراتب، وفي ذلك يقول
العباس بن الأحنف:

قلبي إلى ما ضرني داعٍ يُكثِرُ أوجالي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي إذا كان عدوي بين أضلاعي؟!

ومن الدليل على أن القلب سلطان البدن، ومالك جميع ما فيه من متحرك وساكن،
أن جميع ما فيه من عروق نافضة، وأورام حادثة، وآلام طارقة، لها صربان القلب كأنها
مجيبة له، لتعلق جميعها به .

وقال بعض الحكماء: ليس شيء أفضل من طهارة القلب، وليس فوق طهارة القلب إلا
الصدق، وليس فوق الصدق إلا النور، فإذا اكتنفه النور بلغه درجة الرضا في الملكوت .

وفسر بعضهم حسن تدبير الله في بريته، وبين لطف أحكامه في تقدير مشيئته^(١)،
فقال: إن البدن مفتقر في تأدية أفعاله إلى تدبير النفس، وإن النفس مفتقرة في اختيارها
إلى إرشاد العقل، فتحصل من ذلك أنه ليس فوق العقل فاتح إلا الهداية الإلهية، وهي
سببه، وإليها منتسبه، فالطبيعة محيطة بالأجسام إحاطة التحريك لها، والنفس محيطة
بالطبيعة إحاطة التدبير لها، والعقل محيط بالنفس إحاطة الإرشاد والهداية . فسبحان
المقدر المدبر لا ربَّ غيره .

فصل

واعلم أن العقل ينقسم قسمين: طبيعي معتاد، وهو الأصل، ومكتسب مستفاد،
وهو الفرع، وفي ذلك يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

(١) المقصود: مشيئته .

رَأَيْتُ الْعَقْلَ عَقْلَيْنِ فمطبووعٌ ومسموعٌ
فلا ينفَعُ مسموعٌ إذا لم يكُ مطبووعٌ
كما لا تنفع الشمس وضوءُ العين ممنوعٌ

فالتطبيعي المعتاد: هو العقل الصحيح على التحقيق، وهو النور الذي ذكرنا، ولا ينبغي أن يكون مطلقاً من غير إضافة إلى شخص، وهو بمنزلة الشعاع من الشمس، والنور من العين .

والمكتسب المستفاد: هو الذي تحصل بالمكنة وكثرة التجارب، ومرور الأيام والليالي بالمواهب والنوائب .

وقد قال بعض الحكماء: أصل الأمور العقل، وفرعها التجارب . وقال بعضهم: كل شيء مفتقر إلى العقل، والعقل مفتقر إلى التجارب . وقال بعض الأدباء: بعيون التجارب، ترى صور العواقب . وقال ابن المعتز: العقل غريزة^(١) عينيها^(٢) التجربة . وقال بعض الحكماء: أربع محتاج إلى أربع: الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرباة إلى المودة، والعقل إلى التجارب . وهذا تقسيم حسن .

وليس العقل المكتسب بمنفصل عن العقل الغريزي، بل هو نتیجته يزيده قوة وينميه، ويشيد أركان مبانيه، فإنه لا يصح أن ممارسة الأمور، وتقلب الدهور، وملاقاة الخطوب والمحذور، تحدث بذاتها عقلاً، حتى يكون العقل لها عقلاً . ألا ترى إلى النوكي والمجانين والعتاه والمخبولين، وهم المعروضون^(٣) لنوائب الزمان، وتصاريق

(١) م: غريزية .

(٢) م: كلمة غير مفهومة، هذا رسمها: عونيها . وقد رجحتها ترجيحاً .

(٣) م: المعروضون، ولعل الأصح ما أثبت .

الحَدَّثَانِ، لُبُّعْدَهُمْ عَنِ الصِّيَانَةِ وَانْتِصَابِهِمْ بِالْإِمْتِهَانِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَخْلُدُونَ إِلَى رَاحَةٍ، وَلَا يَتِمَكَّنُونَ مِنْ رِفَاهِيَةٍ، بَلْ شِعَارُهُمُ الْجَوْلَانُ، وَأَثَارُهُمُ التَّحْوِيلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَمَا لِذَلِكَ تَأْتِيرٌ فِي أَحْوَالِهِمْ، وَلَا يَفْتَقِدُونَ بِهِ عَنْ مَرَاتِبِ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ . فَإِذَا كَانَ الْمَرْءُ قَدْ حَلَبَ أَشْطَرَ دَهْرِهِ، وَمَرَّتْ عَلَيْهِ ضُرُوبُ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، مَعَ عَقْلِ تَمَكَّنَ فِي صَدْرِهِ، أُيِّدَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، وَيَزِيدُ مِنَ الْخَيْرِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَلِذَلِكَ مَا عَدَّتْ الْعَرَبُ آرَاءَ الشُّيُوخِ، وَاعْتَمَدَتْ فِي النَّوَازِلِ عَلَى مَشُورَةِ الْكُهُولِ، لَمَّا يَوْجَدُ فِيهِمْ مِنْ إِصَابَةِ الرَّأْيِ، وَجُودَةِ الْحَدْسِ، وَإِتْقَانِ الْمَعْرِفَةِ، وَصِحَّةِ النَّظَرِ، مَعَ مَا مُنْحُوا مِنْ حَسَنِ الْإِخْتِيَارِ، وَسَمْتِ الْوَقَارِ، وَإِنْ ضَعُفَتْ مِنْهُمْ الْقُوَى، وَخَمِدَتْ نِيرَانُ الذِّكَا، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ شَاعِرُهُمْ فِي الْمَعْنَى:

لئن فقدوا الشبابَ فربَّ عَقْلٍ أفادوه على مرَّ الليالي
خبثت نازُ الذكاء فأججوها بأراءٍ أحدَّ من العوالي

وله أيضا:

إذا طال عمر المرء في غير آفَةٍ أفادت له الأيامُ في كَرِّها عقلا
وقال بعض الحكماء: مَنْ طَالَ عَمْرُهُ نَقَصَتْ قُوَّةَ بَدَنِهِ، وَزَادَتْ قُوَّةَ عَقْلِهِ . وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ ابْنُ الْمَعْتَزِ:

وما يُنْتَقِضُ مِنْ شِبَابِ الرِّجَالِ يُزْدِي فِي نُهَاهَا وَأَلْبَابِهَا
وقد عدل قوم عن هذا المهيعِ، ونزعوا غير هذا المنزعِ، وسلكوا في مذاهبهم غير هذا المسلكِ، وأهواء الناس غاية لا تدرك، فجعلوا الشباب أوفر الحظوظ من الفطنة، وأكبر السهام من التأيد والمنته، وربما قصرت عن مقاومتهم الكهول، ولجأت إليهم في كثير من تنقيح الفروع والأصول، لتوقد أفهامهم، وحضور أذهانهم، فإنه قد يوجد

فيهم من حُسن الفطنة، وذكاء الذهن، وسرعة الخاطر ما يدل على وفور غريزية العقل،
ويبين حقيقة الفضل، ولهذا نظر قول الشاعر:

رأيت العقل لم يكن انتهاباً ولم يُقسم على عدد السنينا
ولو أن السنين تقسّمته حوى الآباء أنصبه البينا

حكى عن أبي قتيبة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ بفتيان يلعبون وفيهم
عبد الله بن الزبير، فهرب الصبيان حين نظروا إلى عمر إلا عبد الله، فقال له عمر: لم لم
تهرب مع أصحابك؟ فقال له: يا أمير المؤمنين لم تكن عليّ ريبة فأخافك، ولم يكن في
الطريق ضيق فأوسّع عليك . فانظر إلى حضور هذا الذهن، وذكاء هذا الخاطر، الذي
يقصر عنه كثير من الكهول !

وقيل إنه لما ولد للرشيد ابنه عباس ابن رائطة، وكان شديد السمرة، كره لذلك
مكانه، وقصر عن إلحاقه بسائر بنيه عنانه . ثم اتفق أن تنبأ في عهد الرشيد رجل
سخيف، فبلغ أمره الرشيد، فأحضره بين يديه، وأجلسه، وجعل يعظه ويفنّده، وينكر
عليه فعله ويهدده، وجميع أبناء الرشيد مصطفون بين يديه، بينهم عباس لم يجاوز العشر،
فأبى ذلك الشقي المتنبئ إلا التماذي في غيّه، وقد بولغ في خزيه ونهيه، فلم ينته، فأمر
الرشيد بتجريدته وضربه، فلما باشر السوط جسده جعل يضطرب ويدعو، ويقوم
ويقعد، فقال عباس: إن كنت كما زعمت فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل !
فاستطار لها الرشيد استبشاراً واستقبالاً، واهتز لها المجلس استحساناً واستنبالاً، وقال:
ابني والله ! ثم رفع منزلته، وأكرم مثواه، وألحقه في الرتبة بسواه .

وذكر في بعض الروايات أنه لما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، قدم
عليه الوفد من كل بلد، فتقدم إليه وفد أهل الحجاز، فاشرأب منهم غلام غرّ للكلام،

فقال له عمر: يا غلام ليتكلم من هو أسنّ منك . فقال: يا أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فإذا منح الله العبد لساناً لا فظاً، وقلبا حافظاً، فقد أجاد له الاختيار، ولو أن الأمور بالسنّ لكان ها هنا من هو أحق بمجلسك منك . فقال له عمر: صدقت . تكلمّ فهذا هو السحر الحلال . ثم سأل عمر عن سنّ الغلام، فقبل: هو ابن عشر سنين .

وفي مثل هذه الشواهد من النبل دلائل على وفور العقل، وبراهين تبين حقيقة الفضل: روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "أوصيكم بالشبان خيراً فإنهم أرقّ أفئدة، ألا وإن الله تعالى أرسلني شاهداً ومبشراً ونذيراً، فخاطبني الشبان وفارقني الشيوخ" . قال الزُّهري: كان مجلس عمر بن الخطاب رضي الله عنه مغتصّباً من العلماء والقراء كهولاً وشباناً، وربما استشارهم، فكان يقول: لا يمنع أحدكم حدائث سنّه أن يشير برأيه، فإن الرأي ليس على حدائث السنّ ولا على قدمه، ولكنه أمر يضعه الله حيث يشاء . وقالت الحكماء: عليكم بآراء الأحداث ومشورة الشباب، فإن لهم أذهاناً تفلّ النواصل، وتحطم الذوابل .

ومن أقوالهم: آراء الشباب خضرة نضرة، لم يهتصر غصنها هرم، ولا أذوى زهرتها قدم، ولا خمد من ذكائها بطول المدة ضرر . وفي مثل ذلك يقول بعض الشعراء: عليكم بآراء الشباب فإنها نتائج عقل لم تنل قدم العهد فروع ذكاء تستمدّ من النهى بأنور في اللأواء من قمر السعد ولا محالة أن لكل طائفة من الفريقين حظاً مقسوماً من العقل، ونصيباً معلوماً من الفضل، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم^(١).

(١) اقتباس من قوله تعالى في سورة آل عمران، من الآية ٧٣ والآية ٧٤ .

وجميع ما ذكر ودون، وفسر وعين، مما جمع في الإنسان من صحة الرأي، وذكاء
الذهن، وإتقان المعرفة، وحسن الشيم، وأدب النفس، ومكارم الأخلاق - إنها هي
كلها نتائج العقول، وفروع تلك الأصول، فسبحان من لا يشارك في تدبير خلقه، ولا
ينازع في تقسيم رزقه !

ومن كلام الحكماء: العقول مواهب، والآداب مكاسب . وفي توشح هذه
الفروع، وتشعب هذه الغصون، يقول بعض الشعراء، وقد عُزيت إلى علي بن أبي طالب
رضي الله عنه:

إن المكارم أخلاق مطهّرة فالعقل أولها والدين ثانيها
والنفس تعلم في عيني محدّثها إن كان من حزبها أو من أعاديها
ولست عمري في حال أصدّقها ولا أرى الرشد إلا حين أعصياها

وقال بعض الحكماء: العقل أمير والخصال رعية، فإن قوي عليها أطاعته، وإن
ضعف عنها خالفته .

وقد شُبّه الجسم بمدينته، والعقل بملك يديرها، وقواه وجوائسه جنوده وأعوانه،
وجوارحه رعيته، والنفس الأتارة بالسوء عبد ينازعه في مملكته، ويسعى في هلاك
رعيته، له شيعة وأتباع من الشهوات، فصار الجسد كثغر وموضع جهاد ورباط . فإن
هو ضيّع ثغره، وأهمل رعيته، غلبته النفس، وقويت عليه بجنود شهواتها فأهلكته
وأهلكت جنوده . وإن هو جاهدتها حق جهادها، وأحال بينها وبين شهواتها ومرادها،
كان ذلك سبباً لبقاء ملكه، وعمارة حصونه، فحمد آثار جهاده .

وجاء في بعض الآثار: إن الله تعالى يقول يوم القيامة للعبد: يا راعي السوء أكلت
اللحم، وشربت اللبن، ولم ترّد الضالة، ولم تجر الكسير، اليوم أنقم منك .

وعن عطاء بن يسار، عن كعب الأخبار، أنه قال: القلب ملك، واللسان ترجمان، واليدان جناحان، والرّجلان بريدان، والرحمة في الكبد، والضحك في الطّحال، والنفس في الرئة، والمكر في الكلى، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث خبثت جنوده .
وقال سقراط: لا يكون العاقل عاقلاً حتى يغلب جميع شهوات الجسد . وكان يقول لتلاميذه: يا بنيّ اعقلوا ما أنتم فيه، فإن كنتم لا تعقلون فاحذروا الدنيا، فإن كنتم لا تحسنون الحذر منها فاجعلوها شوكاً . وانظروا حيث تضعون أقدامكم، واجتنبوا جميع الشهوات، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا محجوبة عن الله تعالى .

ومن الحكم المثورة: كل رأي يستأذن فيه العقل فهو صواب . والناس إنما تفاضلوا في أحوالهم بقدر حظهم من العقل، لا بظهور عزه، ولا بكمال بزه، فإن العقل كامنٌ في الإنسان كُمون النار في الزند، فإذا قدحه الإنسان بالاختبار أورى، وإن تركه توارى، وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

وكم من فتى شاخص عقله وقد تعجب العين من شخصيه
وأخرَ تحسبه جاهلاً ويأتيك بالأمر من فصّه

وقالت الحكماء: حسن الصورة الجمال الظاهر، وحسن العقل الجمال الباطن .
وقال بعضهم: العقل عين النفس كما أن السراج عين الضوء، والنفس سراج البدن كما أن الشمس ضياء العالم .

وقال عبد الحميد الكاتب: من كان كلامه أكثر من عقله كان كلامه عليه، ومن كان عقله أكثر من كلامه كان كلامه له . وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله .

وقال بعض العلماء: المرء ينصرف بين ثلاث منجيات وثلاث مهلكات . فأما المنجيات: عقل يدبّره، وعلم ينوّره، وفكرة صحيحة تنهض به إلى المشاهدة . والمهلكات: دنيا تزين له، ونفس أمارة تحدّثه، وشيطان غويّ يوسوسه . وقال غيره: مَنْ كان العقل رائده هداة، ومن كان الدهر واعظه كفاه، ومن كان الفكر طبيبه شفاه، ومن كان اليقين شعاره حماه . ومما قلت في هذا المعنى:

إذا كان عقل المرء رائدَ فعله تكتنّفه الإحسان من كل جانبٍ
وسهّل الطافاً صعابَ أموره وقرب تديراً للين الجوانبِ
ومن صحب الدنيا ولاقى صروفها أفادته علماً من علوم التجاربِ
فأصبح ذا حزم ورأي موفّقٍ موفّقٍ بفضل الله سوء العواقبِ

فصل

واعلم - وفقك الله - أنه لا يستحق الإنسان أن يُسمّى عاقلاً حتى تخرجه القوّة الكاملة إلى حد العقل الوافر، فتغلب القوّة الشهوانية الباعثة على ركوب اللذات، والقوّة الغضبية الباعثة على الحركة والاستشاطة، فتستفيد المعرفة الصحيحة التامة التي توجب عرفان الأشياء على حدودها، والتمييز بين أحوالها، والتفصيل لمجملها، والتجميل لمفصلها، فيأخذ نفسه بحكم كمال العقل، والإعراض عن معرض الشهوات، وإن كان هواه هو الغالب عليه المالك له كان علمه ضناً، وتحقيقه وهماً، ورجع حكمه إلى طبعه الذي هو أملك به، فصار أبكم أعمى، وإنما جعلت لنا هذه الأسع والأبصار، وركبت فينا هذه القرائح والأفكار، لنستعمل معانيها في صلاح أنفسنا، ونصرف قواها في تدبير منافعها وتهذيب طبائعنا، ونخرجها من حد النقص إلى حد الكمال، فلم نرض عند ذلك من العلم إلا بأرفعه، ومن العمل إلا بأففعه، ومن جميع الأفعال إلا بأحسنها .

فصل

واعلم أن النفس قد رُكبت فيها ثلاث قوى: عقلية و غضبية و شهوانية .
فالعقلية هي التي^(١) ينقاد بها صاحبها إلى الحقائق، ويتحاشى البواطل، ويقف عند
الحكم، ويرجع إلى قبول الأمر والنهي، ويرى الحسن فيتبعه، ويرى القبيح فيمتنعه .
والغضبية هي التي تحمل صاحبها على الحمية والأنفة، وتزین له الغلبة والقهر،
وتحبب له الاستيلاء، وربما أفضت به إلى العُجب والكبر .

والشهوانية هي التي تزین لصاحبها ركوب الشهوات، وتقترح به بحور اللذات،
وتضجعه في مهاد الغفلات، فتنام بصيرته عن نظر العواقب، حتى يصير غرضاً للنوائب .
فإذا كانت القوّة العقلية هي الغالب على طباعه لم يأخذ من سائر القوى إلا ما
لا بد منه ولا غنى عنه، من غير ركوب حرج، ولا خروج عن طاقة .

ولهذه الثلاث قوى، ثلاث حركات: حركة معتدلة، وهي العقلية، وحركة تطلب
الزيادة، وحركة تميل إلى النقصان، فإن خرجت عن حد الاعتدال إلى الزيادة كانت
شرهاً وحرصاً وتهافتاً واستشاطة، وإن هي مالت إلى النقصان كانت غياً وبلادة، وأحدثت
ضعفاً ومهانة، ولذلك قالت الحكماء للإسكندر: أيها الملك عليك بالاعتدال في جميع
الأمر، والتوسط في كل الأحوال، فإن الزيادة عيب، والنقصان عجز . ولهذا قال:
عليك بأوساط^(٢) الأمور فإنها نجاةٌ ولا تركب ذلولاٌ ولا صعبا

(١) م: الذي .

(٢) م: باوسط . والتصحيح من: الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ١٣٩ .

فصل

وكذلك جميع حالات الإنسان راجعة إلى ثلاث منازل: عليا ووسطى وسفلى، ذكرها الله عز وجل في كتابه وجعلها مراتب^(١) لعباده، فقال عز من قائل: ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ وَالشِّمَالُ وَالسَّيْقُونِ * وَالسَّيْقُونِ الْمَقْرُونُونَ * فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴾ [سورة الواقعة، الآيات ٧-١٢]، ثم نص الله تعالى أحوالهم، وقص مآلهم، فقال سبحانه: ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ * فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّاتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَتُزَلُّ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةٌ سَاجِدَةٍ ﴾ [سورة الواقعة، الآيات ٨٨-٩٤].

وأما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [سورة فاطر، الآية ٣٢] فإنها المقصود به أمة محمد الذين آمنوا بكتابه .

فصل

وكذلك وجد العقل المركب في الإنسان ينقسم على ثلاث درجات: فالدرجة الأولى، وهي أجلها وأعلاها، وأحقها بالترتيب وأولاها، التي أفضت بأهلها إلى الحسنی، وقضت لهم بالحظ الأسنى، حملتهم على رفض الدنيا، فسمت بهم

(١) م: مراتباً، وهو ممنوع من الصرف .

إلى المراتب العليا، فهم قد تخلّصوا من أقدارها، واغتسلوا من أقدارها، فكلما تعرضت لهم شهوة أعرضوا عنها، وفرّوا فرار الأبق^(١) منها، كما أنهم إذا أصابتهم من الزمان نائبة، أو نالتهم من تصاريفه حادثة، تلقّوا بالصبر الجميل اختلالها، واستسهلوا احتلالها، لنيل الراحة الأبدية التي لا نفاذ لها، والسعادة الدائمة التي لا انقضاء لأمدها، فهم قد شغلوا قلوبهم بالنظر، وأتعبوا خواطرهم بالفكر، ونصبوا أجسامهم للعمل، واستعملوا جوارحهم في الخدمة، واعتصموا بحبل الله، وأخلصوا دينهم لله، ولم يشغلهم شيء عن عبادة الله، ولا أهتّمهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فأولئك المتشبهون بالملائكة . وهي درجة الأنبياء، ومن اصطفى من الأولياء .

وأما الدرجة الثانية - وهي الوسطى - فمبنية على الاعتدال، والتوسط في جميع الأحوال، وقد قال رسول الله ﷺ: "خير الأمور أوسطها"، وجاء في تفسير قول الله عز وجل: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [سورة البقرة، من الآية ١٤٣] أي: خياراً عدولاً . فهي وإن لم تنهض بهم إلى التشجّر، فقد حمتهم عن التأخر . حملتهم على النظر في أحوال الدنيا، وتحسين أسباب الحيا، فأولعتهم بالكسب والتجارة، وشغفتهم بتسيير الأموال والعمارة، وألزمهم النظر في العواقب، وقنعوا في كل الأحوال بسلامة الجانب؛ فهم يقيمون الفروض، ويؤدون الحقوق، ويقفون عند ما أمروا به، ويتحرّفون عما نهوا عنه، ويلتزمون الطاعة، ولا يفارقون الجماعة، فهم وإن عرفوا حق المعرفة دنياهم، فلم يجهلوا كل الجهل أخراهم، فتشبهوا بالملوك الناظرين لأنفسهم ورعاياهم، الآخذين بالحزم في أحوال دينهم ودنياهم .

وأما الدرجة الثالثة - وهي السفلى - فهي المذمومة المواقع، القبيحة الصنائع، البعيدة عن جميع المنافع، منعت أهلها الإحسان، وحملتهم على الخذلان، فأورثتهم

(١) الأبق هو العبد الذي يهرب من سيده . لسان العرب (أبق).

الخسران، فهم يصرفون عقولهم في المكر والخديعة، ويشغلون خواطرهم بالدهاء والخلابة، ليأكلوا أموال الناس بالباطل، قد آثروا العاجل الزائل، على الآجل الطائل . وقد قال بعض العلماء: شرار الناس من يتفقهون لغير الدين، ويتعلمون لغير العمل، فما لهم في غير الدنيا من أمل؛ فتراهم أبدأ يتهافتون على أسباب حطام الدنيا كأنهم إنما خُلقوا فيها للبقاء، لا يتقون النار، ولا يرقبون العار، يستنبطون ضروب المناكر، ويتعمقون في ارتكاب الكبائر، فكلما قبح الأمر كانوا به أعجب، وكلما شنع المنكر كان عندهم ألدّ وأعذب، قد غلبت عليهم الأخلاق الدنيّة، واستولت عليه الطبائع البهيمية، فلبسوا أثواب الجهالة، وركبوا خيل الضلالة، وجرّوا في ميدان البطالة، ﴿أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَن عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۗ فَبِأَيِّ حَلِيٓثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية ١٨٥]، فهم المشبهون بالثعالب والذئاب، بل هم شرّ من الخنازير والكلاب، ونعوذ بالله من سوء المآب .

وهذه الطائفة تعتقد أن ما هي عليه نوعٌ من أنواع المعرفة، وبابٌ من أبواب الفطنة، ووجهٌ من وجوه النظر، وما أبعدهم عن الحق؛ لأن الإنسان إذا ركب طريقاً من طريق البَطَر، وقد حُجبت عنه عاقبته، فلا يدري أيفضي به إلى خير أم إلى شرّ، فهو من أمره على خطر، ومن بصيرته على عمى، ومن تعرفه على غرر، فكيف به إذا كان الأمر ظاهر الفساد، مذموم الإصدار والإيراد؟ فتلك نهاية النقصان، وغاية الحرمان، ونعوذ بالله من موقعة الخذلان، ومتابعة الشيطان .

فصل

وإرادة النفس أيضاً تنقسم على قسمين: إرادة نفسانية، وإرادة جسمانية .

فالفنسانية هي التي تكون في الخواطر والفكر، وهي التي تصور المعاني وتستحيل الأمور، فتميل إلى موافقتها من رشاد أو عناد .

والجسمانية هي التي تكون من الخواص الخمس: النظر والسمع والشم والذوق واللمس، فتصرفها النفس أيضاً فيما جُبلت عليه من خير أو شر .

فينبغي للعاقل أن يتحفظ جهده منها، ويستعين بالله عزّ وجلّ عليها، يأخذ نفسه بالقهر لها، ويبدل جهده في جهادها، والاعتدار عليها، ومنعها من جميع الشهوات المعترضة عليها، فعساه - بفضل الله تعالى - أن يتخلص منها، فإذا كنّا نحتمل لصلاح هذه الأجسام الكئي، وقطع العروق، وبطّ الأورام، وشرب الأدوية الكريهة، تعين علينا لصلاح هذه النفس أضعاف ذلك لشرفها وفضلها على الجسم، فكيف وعلاج النفس لمن وفق الله أخفّ مؤونة، وأيسر مضضاً، وأقرب محاولة وأحمد عاقبة؟ وقد قال بعض الحكماء: العاقل يترك ما يجب ليستغني عما يكره . وما أحسن قول الشاعر:

إذا المرء أحمى نفسه كلّ شهوةٍ لصحة أيام تبيد وتنفدُ

فما باله لا يجتني عن حرامها لصحة ما يبقى وما يتخلدُ؟

فجهاد النفس هو الجهاد الأكبر، وبه جاء الأثر: رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "أعدى أعدائك إليك نفسك التي بين جنبيك"، فمن الحق أن يستعين المؤمن بالله عزّ وجلّ من شرّ نفسه قبل أن يستعين من شرّ غيره، فإن شرّ نفسه يؤخذ به، وشرّ غيره يؤخذ عليه، والعاقل كل العاقل من ميّز نفسه، وعرف قدره، ونظر في الحقيقة، وأمعن الفكرة الصحيحة، وعلم أن جوارحه قد رُكبت فيها جميع الشهوات، وأن طباعه قد جُلبت إليها صنوف اللذات، فلا يقدر على قصرها، ولا يتمكن من صرفها وقهرها، إلا بالمجاهدة، وملك الشهوات بخطام التقوى، وما أشدّ وما أصعب، أما ترى إلى قول

رسول الله ﷺ: " حُقَّت الجنة بالمكاره، وحُقَّت النار بالشهوات "؟ وقال بعض الحكماء لصاحب له: استصلح نفسك بعقلك، واجعل نظرك وتفكيرك بمنزلة المرأة، تدرك بها ما التبس من أمرك . ومن كلام بعضهم: أكمل الناس عقلاً أغلبهم للهوى، وأملكهم للشهوة . وقال هرمس: العاقل لا تدعه ذنوبه أن يفرح بمحاسنه، لما يظهر من محاسبته نفسه . وقال أفلاطون: العقل صفاء القلب والنفس، والجهل كدرها . ومن كلام بعض الحكماء: لا مال أوفر من العقل، ولا فقر أشد من الجهل، ولا قرين أفضل من حسن الخلق، ولا فائدة أشرف من التوفيق، ولا ميراث أنفع من الأدب، ولا رأي أحسن من المشورة، ولا سجية أكرم من حسن العادة . وقال بعض الحكماء: من فضل العقل أنه لا يُستفاد بثمان، ولا يُغتصب من أحد . وفي منشور الحكم: مجالسة أهل العقول عمارة القلوب . وسأل المنصور المسيّب بن زهير، فقال له: ما مادة العقل؟ قال: مجالسة العقلاء . وما أحسن قول بعض الشعراء في هذا المعنى:

وما بقيت من اللذات إلا مجالسة الرجال ذوي العقول
وقد كانوا إذا ذكروا قليلاً فقد صاروا أقل من القليل

وقال بعض الحكماء: الفهم شعاع العمل، والأدب صورته . ومن كلام بعضهم: من وفر عقله، ميز نفسه، وحسن خلقه .

ودخل نصيب الشاعر على عبد الملك بن مروان، وكان عبداً أسود غير مقبول الصورة، فأنشده ممتدحاً فأحسن، وبالع فأتقن، فاستحسن عبد الملك شعره، وأجزل صلته، وأكرم منزلته، ثم دعا بالغداء، فأكل معه . ثم قال له: هل لك بما يُتنادم عليه؟ فقال نصيب: يا أمير المؤمنين، ألا ترى إلى بشرتي سواداً ووجهي غير حسن، ولست في منصب، وإنما بلغني إلى مجالستك ومؤاكلتك عقلي، فأنا أكره أن يدخل عليه ما يفسده . فأعجبه كلامه فأعفاه .

ومن كلام أرسطاطاليس: إنما تفاضل الناس بالعقول، لا بالأصول . وقالوا:
العاقل لا يجسد، ولا يحقد، ولا يخادع، ولا يباري، ولا يلاحى، ولا يجازي إلا بالخير،
ففضله كامل، وخيره شامل . ومما قلتُ في هذا المعنى:

إذا تمَّ عقلُ المرءِ تمت فضائلُهُ وقامت^(١) على الإحسان منه دلائلُهُ
فلا تكررهُ الأبصارُ ما هو فاعلُهُ ولا تنكرهُ الأسماعُ ما هو قائلُهُ
وقيل في بعض الحكم: لو تصوّر العقل لضاء معه الليل، ولو تصوّر الجهل لأظلم
معه النهار . وقال بعض الحكماء: إذا اجتمع العقل والعلم في الرجل فقد استطاب
المحيا، وسما إلى الدرجة العليا، وجمع خير الآخرة والدنيا . وإذا اكتنفه الجهل والهوى،
فقد ضلَّ وغوى، وقبح منه ما نشر وطوى، فكان الموت أحق به وأولى . وما أحسن
قول عبد الوهاب^(٢) في هذا المعنى:

ما وهب الله لامرئ هبةً أحسن من عقله ومن أدبِهِ
هما حياةُ الفتى فإن عُدِمَا فإنَّ فقَدَ الحياةَ أشبهُ بِهِ
وقيل لبعض الحكماء: مَنْ أولى الناس بالرحمة؟ قال: رجل عاقل برّ يريد برّ
سلطان فاجر، ورجل عاقل اضطر إلى صحبة جاهل، ورجل حلِيم احتاج إلى لثيم .
قيل له: فمتى تضيع أمور الناس؟ قال: إذا كان الرأي عند مَنْ لا يُقبل منه، والسلاح
عند مَنْ لا يستعمله، والمال عند مَنْ لا يوجد به .

(١) م: قام، والتصحيح من: المقري، نفع الطيب، ج ٤، ص ٣٣٣ .
(٢) لا أعلم مَنْ عبد الوهاب هذا ! والبيتان أوردتهما ابن عبد ربه دون عزو . العقد الفريد، ج ٢، ص ٢٤٠ .

ووصف بعض البلغاء العقل فقال: العقل أصل المعرفة، ومعدن العلم، وينبوع الحكمة، وهو مشحد الذهن، وصيقل القريحية، وبه يصح النظر، ويجزل الرأي، ويمحسن التدبير، وهو رأس الفضائل، ورأس مال الفواضل، به وصلوا إلى معرفة الله تعالى، ومعرفة الملائكة والرسول، فإن الملائكة وسائط بين الله تعالى وبين رسله، والرسول وسائط بينه وبين خلقه، وكل ذلك إنما أدركه بالعلم، وأدركوا العلم بالعقل، فهو المؤدي إلى خير الدنيا والآخرة .

ومن الحكم المثورة: بالعقل عُرِفَت الأمور، واستديم السرور، ووقى المحذور . وقال بعض خطباء العرب: مَنْ وهبه الله العقل بكماله، ومنحه عِلْمَ عظمته وجلاله، ثم ستره بجلباب ماله، وعافاه بجميع أحواله، فذلك الذي اختصّه بجزييل إنعامه وإفضاله، وقضى له بالسعادة في دنياه وعاقبه مآله . ومما قلتُ في هذا المعنى:

| | |
|----------------------|------------------------|
| العقل أفضل كلِّ صاحب | وأعزّ مطلبوب لطالب |
| العقل أزين بالرجا | ل من الملابس والمراكب |
| فالعقل نيل العزّ من | ربّ العطايا والمواهب |
| ما زال أربابُ النهى | يتلمّسون ذرى المراتب |
| فلفضلهم ولسبقهم | ولعلمهم تسري الركائب |
| ويجدّ في ركض الجيا | د وضرب آباط النجائب |
| ركبوا منهاج هديهم | وتجنّبوا سوء العواقب |
| فهمُ النجاة الأمنو | ن من الطوارق والنوائب |
| وكذاك في حشر القيا | مة لا تراع لهم جوانب |
| فتراهمُ قد بوّئوا | دارَ الخلود مع الكواعب |

وكيف لا يكون العقل أجّل موجود في البرية، وأشرف موضوع في هذه الخليقة الآدمية، وبه يصير الإنسان خليفة الله في أرضه على عباده، ومن أجله ينال السعادة الأبدية في معاده؟ روي عن رسول الله ﷺ أنه قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: "إذا تقرب الناس إلى خالقهم بأبواب البرّ، فتقرّب إليه بعقلك يا عليّ فتسبقهم بالدرجات"، وقال كعب الأحبار: إن الرجل ليستكثر من أعمال البرّ، ويبلغ صنائع المعروف، ومكابدة سهر الليل، وظمأ الهواجر، ولعله لا يساوي عند الله جيفة حمار . قيل له: وكيف ذلك يا أبا إسحاق؟ قال: لقلّة عقله، وسوء رعيته؛ وإن الرجل لينام الليل، ويفطر النهار، ولا يُعرف بشيء من البرّ ولا صنائع المعروف، ولعله عند الله من المقرين . قيل له: وكيف ذلك؟ قال: بما قسم الله له من العقل . فإن الله فرض على عباده أن يعرفوه، وأن يطيعوه ويعبدوه، وإنما عرفه وأطاعه وعبده العاقلون .

فصل

ومن شرف العقل وفضله على جميع الموضوعات في الإنسان أن أعظم الحيوان خَلْقًا، وأقواها يداً، وأشدّها بأساً، وأكثرها جرأة، إذا رأى ابن آدم هابه وفرّ منه، وخاف مكانه، وخشي الاستيلاء منه عليه، لإحساسه أنه قادر عليه بلطف حيلته وحسن تدبيره، وقوّة تمييزه، فهو - والله أعلم - شعاع العقل الظاهر عليه المتوسم فيه الذي تميز به من سائر الحيوان؛ لأن العقل موجود في الطفل بالفطرة قبل حصول معلوم في تركيب خلقته قبل ظهوره، كما توجد الحبة في السنبلّة قبل زرعها، وتُعلم النار في الحجر قبل قدحه، والماء في الأرض قبل استنباطه، فكل ذلك موجود بالقوّة معلوم بالعادة، وكم أراد كثير من الكفار قتل رسول الله ﷺ فيما زعموه وتوهموه، فلما وقعت أعينهم

عليه فَرَقُوا منه، وهابوا مكانه، وداخلهم الرعب، وتراءى لهم النور النبوي في وجهه، وأدركتهم هيبة التأيد الإلهي، فأوجست نفوسهم، ووجلّت قلوبهم، وانقلبوا بقدرة الله خائنين خاسرين .

رُوي أن فاطمة رضي الله عنها دخلت على رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال لها: "ما يبكيك يا بنتي؟" فقالت: مالي لا أبكي يا أبتِ وهؤلاء القوم من قريش في الحجر يتعاقدون عليك باللات والعزى لو قد رأوك لقتلوك، فليس منهم رجل إلا وقد عرف نصيبه من دمك؟! قال: "اثبني بوضوء"، فتوضأ وخرج عليهم، فلما رأوه قالوا: ها هو هذا، ثم طأطؤوا رؤوسهم، وسقطت أذقانهم بين أيديهم، فلم يرفعوا إليه أبصارهم، فتناول قبضة من التراب فحصبهم بها، وقال: "شاهت الوجوه"، فما أصاب رجلاً منهم حصاة منها إلا قُتل يوم بدر كافراً .

وقالت الحكماء: بنور العقل تظهر الحقائق، وتنكشف السرائر، وتلوح خفيات الأمور، فيُعبد الله تعالى على حقيقة العلم به . وقال بعضهم: ما تزيّن أحد بزينة أفضل من العقل، ولا لبس ثوباً أجمل من العلم، فإنه ما عُرف الله تعالى إلا بالعقل، ولا أُطيع إلا بالعلم . وقيل لبعض العلماء: بمَ يُعرف العاقل أنه كامل العقل؟ قال: إذا علم عمل، وإذا عمل تواضع، وإذا نظر اعتبر، وإذا صمت تفكّر، وإذا تكلم ذكر، وإذا أعطى شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا جهل عليه حلم، وإذا سُئل بذك، وإذا نطق صدق .

فصل

واعلم أنه لم يدرك الإنسان ما أدرك من المعرفة بالله تعالى، ولا وصل إلى ما وصل من الإيثار به، والطاعة له، والالتزام لحدوده بمجرد العقل خاصة دون الوساطة من

غيره التي يفتح له الغلق، وتنهج له الطرق؛ لأنه ليس للعقل نفوذ في مغيبات الأمور بذاته إلا بعد التوسط والاستدلال، وإنما يصح له بتحقيق النظر، وحسن التدبر، وصحة التفكير، حتى إذا ظهرت له المخايل، ولاحت له البوارق، واستوضحت له الطرق، واستبان له الدلائل، نفذ إذ ذاك بذاته في معرفة غوامضها، وجال بنوره في عوارضها، فكشف بصحة النظر أسرارها، وعرف بحسن التدبر أخبارها، فصار العلم عنده حقيقة قد سلم من التقليد، وعري من الالتباس، فعبد الله تعالى على حقيقة العلم به، وهذه الوسطة هي النبوة التي علم بصحة براهينها وقوة شواهدا أن الكفر بالله والخروج عن طاعة الله سمّ قاتل، وداء داخل، وأن الإيمان به، والإقرار بوحدانيته، والتزام حدوده ترياق ذاك السم، ودواء ذاك الداء، فإن الأنبياء صلوات الله عليهم أطباء القلوب المريضة، وأساءة النفوس السقيمة، بما أظهر الله على أيديهم من الدلائل الواضحة، والبراهين اللائحة، وأنزل عليهم من الكتب البينات، والآيات المعجزات، وأظهر لهم من الكرامات التي لا تصدر إلا عن القوة الإلهية، والقدرة الملكوتية، كما أن حذاق الأطباء هم العلماء بعلاج الأبدان وإصلاح الأمزجة، العارفون بأحوال الطبائع المعتدلة والمختلفة، وكل ذلك بوساطة الأنبياء الذين أدركوا ذلك من علمهم، واقتبسوه من أنوارهم، بما أطلعهم الله تعالى عليه من معرفة منافع الأشياء ومضارها، المتركة في جواهر الأرض من نباتها وأحجارها، بالخاصية المودوعة فيها، لا بمجرد عقولهم، ولا إدراك علمهم؛ لأن أدوية الأبدان المركبة من النبات والجواهر لا يصح أن يدرك معرفة الخاصية التي جعل الله فيها بذكاء عقل ولا بوفور علم، وإنما الذي أدركوا منها بالعلم، ووصلوا إليه بذكاء الفهم، بحسن التدبر، وقوام التركيب، وترتيب الأجزاء عند معرفتهم بقدر القدرة المركبة فيها بالتجربة لها، وأما الطبع الموضوع في خلقها، والتخصيص المودوع في قواها فمحبوب عن الخلق، ممنوع من الإدراك، ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفُضِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ﴾ [سورة

الرعد، من الآية [٤]؟ ولو كان^(١) تأثيرها في حسن تدبيرهم لها، ولطف معالجتهم إياها لاستوت جميع النباتات والجواهر في النفع والضرر، ورجعت منافعها في مجاراتهم لها، وانصرفت قواها في حسن تدبيرهم إياها، كما أنه لو رام أحد من خلق الله تعالى أن يستنبط من علمه، ويستخرج من فضل نظره وطبه طباً غير المعلوم، أو يميز عقيراً غير المرسوم، كما أن الصانع يصنع ثوباً لم يصنعه غيره، أو يصوغ آنية لم يصغها سواه، لم يقدر للخواص المركبة في المخلوقات، والأسرار المودعة في الجواهر والنباتات، التي لا تدرك بكثرة علم، ولا بدكاء فهم .

رُوي في بعض الآثار: أن موسى عليه السلام اعتلّ، فدخل عليه بنو إسرائيل، فعرفوا علته، فقالوا له: إن دواء هذه العلة معلومٌ عندنا مجرب، وإنّا لتداوى به فنبرأ . فقال لهم: إنّي لا أتداوى حتى يعافيني ربي من غير دواء، فطالت علته، وأوحى الله إليه: يا موسى أتريد أن تبطل حكمتي بتوكلك عليّ؟! من أودع العقاقير منافعها ومضارّها غيري؟! فعلم أن مسبب الأسباب هو الذي وضع المسببات في جميع الأشياء إظهاراً لحكمته، وتبييناً لمشيئته . فلزمنا أن نقلد على هذا التمثال أهل العلم والفقهاء والمتقدمين، العارفين بالحدود، القائمين بالشّنن في علاج هذه القلوب المعتلة، بما لزمهم من تقليد النبوة المنزّل علمها من الملكوت، كما لزمنا أيضاً تقليد المتقدمين من الأطباء في علاج الأبدان المريضة بما لزمهم من تقليد من فوقهم إلى الأنبياء الذين استقرّ ذلك كلّهم من العلم الإلهي الذي سبق جميع المعلومات .

وكما أن العقاقير المخصوصة والأدوية المركبة لصلاح الأمزجة، وتعديل الطبائع، يفضل بعضها بعضاً في قوة الفعل وحسن المنفعة، ولها أوزان ومقادير وكيفيات وكميات بحسب الخاصية المركبة فيها، فكذلك أحوال العبادة والتشريع، وأمور الديانة والتورّع، يفضل بعضها على بعض، ولها حدود ومقادير تختلف لأسرار لا نعلمها،

(١) م: كانت، ولعل الأصح ما أثبت .

وأحكام لا ندرکہا، ألا ترى إلى الصلوات كيف وضعها الله - تبارك وتعالى - في أوقات معلومة، وقصرها على رتب محدودة، فاختلقت في مواقيتها، وأعداد ركوعها وسجودها، ولم يجعلها صفة واحدة، وجعل صلاة الليل جهراً، وصلاة النهار سرّاً، وهل ذلك إلا لسرّ قد انفرد بعلمه، وغيب جرى به سابق حكمه؟ ألا ترى إلى يوم الجمعة كيف فضل سائر الأيام؟ وشهر رمضان كيف فضل سائر الشهور؟ وليلة القدر كيف فضلت سائر الليالي؟ وبيت الله الحرام كيف فضل سائر بقاع الأرض؟ وذلك كلّه للاختصاص المذكور الذي لم يطلّع عليه غير الله سبحانه، أو من أطلعه الله عليه من نبيّ مرسل أو ملك مقرب، فكفى بالعقل فائدة أن يدرك التصديق، ويرجع إلى التسليم، والتصديق بما رزق صاحبه من التفهم وصحة التدبر بما ألقاه إليه طيب القلوب بهداية علام الغيوب لا ربّ غيره، ولا معبود سواه.

فصل

في تجويع الهوى ونقائصه

الهوى - عصمك الله - إله معبود، له سلطان شديد، يخدمه شيطان مرید، فمن عبد أوثانه، وأطاع سلطانه، واتبع شيطانه، ختم الله على قلبه، وحُرم الرشاد من ربه، فأصبح صريع غيّه، غريق ذنبه، قال الله عزّ من قائل: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الجاثية، الآية ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوْنَهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة القصص، من الآية ٥٠]، وقال تبارك اسمه: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ

أَهْوَى • فَإِنَّ أَلْجَنَّةَ هِيَ أَلْمَأْوَى ﴿ [سورة النازعات، الآية ٤٠ إلى ٤١]، وقال تعالى لنبية داود عليه السلام: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَى قَيْضَلِكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [سورة ص، من الآية ٢٦]، وهذا كثير في كتاب الله .

وقال رسول الله ﷺ: "ثلاث منجيات وثلاث مهلكات، فالمنجيات: خشية الله في السر والعلانية، والحكم بالعدل في الرضا والغضب، والاعتصام في الفقر^(١) والغنَى . والمهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه"، وقال الشعبي: إنما سُمي هوى؛ لأنه يهوي بصاحبه . وقال بعض الحكماء: الهوى خادع الألباب، صارف عن الصواب، يخرج صاحبه من الصحيح إلى المعتل، ومن الصريح إلى المختل، فهو أعمى مبصر، أصم يسمع، كما قال رسول الله ﷺ: "حبك الشيء يعمي ويصم" . وسئل عليه السلام: أي الجهاد أفضل؟ فقال: "جهادك هواك"، وقال ﷺ لبعض الصحابة رضي الله عنهم: "رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"، فجعل المجاهدة بالسيوف الجهاد الأصغر، ومجاهدة النفس الجهاد الأكبر . وقال أرسطاطاليس: على قدر بصيرة العقل يرى الإنسان الأشياء، فمن سلم عقله من الهوى يراها على حقائقها، والنفس الكدرة المشبعة لهواها ترى الأشياء على طبعها . وقيل: كان على خاتم بعض الحكماء: من غلب هواه على عقله افتضح . وفي مقصورة ابن دُرَيْد:

وَأَفَى الْعَقْلَ الْهَوَى فَمَنْ عَلَا عَلَى هَوَاهُ عَقْلُهُ فَقَدْ نَجَا

(١) م: بعدها: الرضا والغضب، وهو مكرر .

(٢) م: الفقير .

وقال بعض الحكماء: إذا بدَّهَكَ أمران لا تدري في أيهما الصواب، فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه؛ فإن الصواب في مخالفة الهوى . وفي هذا المعنى يقول محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه:

إذا جال أمرك في معنيين ولم تدري حيث الخطأ والصواب
فخالف هواك فإن الهوى يقود النفوس إلى ما يُعاب
وقال العباس رضي الله عنه: إذا اشتبه عليك رأيان، فدع أحبهما إليك، وخذ أثقلهما عليك .

وأصله: إن الأمر الخفيف يسهل عليك موقعه، ويقرب موضعه، وتخف مؤنته، وتأتي معونته، فيشره المرء إليه، وتحرص النفس عليه، والأمر الثقيل يصعب موقعه، ويبعد موضعه، وتبطئ معونته، فتكسل النفس عنه، وتكره التعب به، فهي لا تسرع الإجابة إليه . روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: أقدعوا هذه الأنفس فإنها طليعة تنزع بكم إلى شر غاية، إن هذا الحق ثقيل مريء، وإن الباطل خفيف وبيء، وترك الخطيئة أيسر من معاجلة التوبة . ورُبَّ نظرة زرعت شهوة، ولذّة ساعة أورثت حزناً طويلاً . وقال لقمان لابنه: يا بني، أول ما أحذرك من نفسك، فإن لكل نفس هوى وشهوة، فإن أعطيتها شهوتها تمارت وطلبت سواها، فإن الشهوة كامنة في القلب كُمون النار في الحجر إن قدح أوري، وإن ترك تواري . وقال بعضهم:

إذا ما أجت النفس في كل دعوة دعتك إلى الأمر القبيح المحرم
وقال الأصمعي: كان عبد الملك بن مروان كثيراً ما ينشد - وقيل: إنه لهشام بن عبد الملك -:

إذا أنت لم تعصِ الهوى قادك الهوى إلى كل ما فيه عليك مقال

وكان المعتصم يقول: إذا نظر الهوى بطل الرأي . ومن كلام ابن صيفي: آفة الرأي الهوى . وقال بعض الحكماء: نظر الجاهل بناظره، ونظر العاقل بخاطره . وفي منشور الحِكم: العقل صديق، والهوى عدو . وقال بعض الصالحين: الهوى مركب ذميم يسير بك في ظلمات الفتن، ومرتع وخيم يقعدك في مواطن المحن، فلا تحملنك شهوة النفس على ركوب المذمات، والقيود في مواطن الخطيئات . وقال بعض الشعراء:

واعلم بأنك لن تسود ولن ترى طرق الرشاد إذا اتبعت هواك

وقيل في بعض الحِكم: أشرف العلماء من عصى مراده، ولم يعط الهوى قياده . وكانوا يقولون: أيدي العقل تمسك أعتة الهوى، وعيون البصائر تدرك أعمال البر والتقوى . ومن أمثالهم: من تملكه هواه، خسر دنياه وأخراه . وقيل: عبد الهوى أذل من عبد الرق .

ومنهم من فرق بين هوى الشهوات وهوى الحب، وقال: إن هوى الحب يعرض أهل الآداب وذوي الألباب، ولم يزل موجوداً في أجلة العظماء وأكابر العلماء والفضلاء، على بعدهم عن موافقة الشهوات، وركوب الدنّيات . وفي مثل ذلك يقول أبو منصور الثعالبي: هوى الحب داء قديم لم تسلم منه قروم الأقدمين وأئمة الأمم وأعلام الإسلام، وهوى الشهوات لا يفارق أهل الجهالة، المتمسكين بعرى الضلالة والبطالة، وهما وإن افترقا في حال، فقد جمعتهما الإرادة المركبة في النفس، الكامنة في قلوب الجن والإنس .

وقد حُفظت في هذه التفرقة حِكم، فمنها قول بعضهم: طاعة سلطان الحب محبوبة وإن جار، وطاعة سلطان الشهوة مجنوبة مخافة النار . وقال غيره: المساعد لشهوات نفسه وإن كرم مذموم، والمكابد لسطوات حبه إذا عصم مرحوم . وهذا كلام حسن . ومن قولهم في المعنى:

إذا شئت إتيان المحامد كلها ونيل الذي ترجوه من رحمة الرب
فخالف هوى النفس المسيئة إنه لأعدى وأزدي صفقة من هوى
هما سببا حتف الفتى غير أن في هوى الحب مهما عفّ بعداً عن
وجلّ المعاصي^(١) في هوى النفس فاعتمد خلاف الذي تهواه إن كنت ذالِبٌ

وكلاهما مغلوبٌ عليه صاحبه، محذورٌ عليه جانبه، متوقفةٌ عليه عواقبه؛ لأن جميع الشهوات - والحب أردأها، وأشدّها على المرء وأغراها - مركبةٌ في جميع النفوس طبعاً لا يفارقها أصلاً، فإذا قهر الإنسان سلطانَ حبه، وملك أعنة قلبه، فركب العفاف سجيّة، ولم يرصّ التشبّث وإن تمكن بدنيّة^(٢)، حياءً من ربه، وخوفاً من مواقع ذنبه، فقد قدر الله حق قدره، كما أن مالك نفسه عن شهواتها، وصارفها عن مواقع لذاتها، وهو قادر على تمكينها من إرادتها، قد بلغ الغاية من الطاعة، وبذل لإرضاء خالقه جهد الاستطاعة، وكلاهما من نفسه في الجهاد الأكبر، قد فاز من التقى بالخط الأوفر، وهي من أجلّ مراتب العبادة، ومن مات منها على حالة فقد نال الشهادة .

وقال أفلاطون: في الإنسان أربع طبائع: العقل والهوى والعفة والشهوة . فالعقل يعاتب الهوى، والهوى يقاتل العقل، والعفة تعاتب الشهوة، والشهوة تقاتل العفة . والإنسان مسلط على مشيئته، فمن عمل خيراً جوزي به، ومن عمل شراً كوفئ عليه . ودعا رجل لرجل فقال: هنّاك الله بما أعطاك، وجعل رأيك غالباً لهواك، ولا تشغلك بدنياك عن أخراك . وقال بطليموس^(٣): أعدل الناس من أنصف عقله من هواه . ومن كلام الحكماء: اعصِ الهوى، وخالف النساء، واصنع ما شئت .

(١) م: المعاصي .

(٢) كذا .

(٣) كذا، والأصح بطليموس، كما عند: البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة، ص ١٦٦؛ الشهرستاني،

الملل والنحل، ج ٢، ص ١١٦؛ ابن خلدون، كتاب العبر، المقدمة، ج ١، ص ٩٣ .

فصل

وأرفع درجات المؤمن، وأصلح حالات الورع الدّين، أن يموت مجاهداً لنفسه، قاهراً لشهوته، مكابداً لشیطانه . والحرب بينهما تارة له وتارة عليه، فإن تملك النفس قسراً، وقمع سلطان الهوى وشیطان الصبا قهراً، درجة عالية لا تنبغي إلا لنبيّ أو وليّ، وقد قال رسول الله ﷺ: "ما من أحد إلا وله شیطان، وإن الله قد أعانني على شيطاني"، وقال في شأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "ما سلك عمر فجاً إلا سلك الشيطان فجاً غيره" .

ولا يزال الإنسان المطيع لهواه، المهمل لصلاح دينه ودنياه، منتظر الصلاح، مرجو الخير والصلاح، ما لم يجاوز حد الفتوة إلى حد الاكتهال، فإن سلطانه عند ذلك قوي، وشیطانه غويّ، وإن خرج عن سنّ الحداثة، ولم يسلك سنن الصلاح والدمائة، فقد قطع أسباب الرجاء منه، ووصل علائق اليأس عنه، وقد أعى داؤه، وعز دواؤه، وتعذر على المعاني شفاؤه . وفي مثل ذلك قال الشاعر:

إذا ما المرء جرّب ثم مرّت عليه الأربعون من الرجال
ولم يلحق بصالحهم فعلاً فليس بلاحقٍ أخرى الليالي
ومن أمثال الحكماء في ذلك: ما أقيح الجهل بالكهل . وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كثيراً ما ينشد^(١):

إذا المرء أفنى الأربعين ولم يكن له دون ما يأتي حياءً ولا سترُ
فدعه ولا تنفس^(٢) عليه الذي ارتأى ولو مدّ أسباب الحياة له الدهرُ

(١) البيتان للأقشير الأسدي . ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٣٧٦ .

(٢) م: تفتش .

وقال الفضل بن العباس:

لقد تحكّم الأيام مَنْ كان جاهلاً ويردي الهوى ذا الرأي وهو لبيبُ
وقد تحمد الناسُ الفتى وهو مخطئٌ ويُعدل في الإحسان وهو منصيبُ

رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "الأحمق أبغض خلق الله إليه؛ إذ حرمه أعزُّ الأشياء عليه"، وقال ﷺ: "خلق الله العقل وقال له: أقبَل، فأقبَل، وقال له: أدبِر، فأدبِر، فقال: وعزتي وجلالي لا ركبتك إلا في أحب الخلق إليّ . وخلق الحمق فقال له: أقبَل، فأقبَل، وقال له: أدبِر، فأدبِر، فقال: وعزتي وجلالي لا ركبتك إلا في أبغض الخلق إليّ"، وهذا الحديث أدخله الترمذي^(١) رحمه الله . وقال بعض الحكماء: الأحمق يتبع هواه فجانبه، والعاقل يمنع أذاه فصاحبه . وقال عدي بن زيد:

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن مقتدي
وقال صالح بن عبد القدوس:

ولأن يعادي عاقلاً خير له من أن يكون له صديقٌ أحمقُ
وقال غيره من الشعراء:

وبغضك للفتيِّ أقلُّ ضرراً وأسلم من مودة ذي الفسوق
ومن أمثال الحكماء: مَنْ غلب هواه على عقله، غرق في بحر جهله . وقال أفلاطون: مَنْ اشتدَّ حرصه، غلب حرصه، ومن ضعف عقله، أطاع هواه . وقيل في بعض الحكم: الهوى مفتاح السيئات، وخصم الحسنات . وقال بعض الحكماء: الزم

(١) يقصد الحكيم الترمذي (ت ٣٢٠ هـ) . انظر: السيوطي، الدر المنثور، ج ٨، ص ٢٤١ .

مخالفة النفس فإنها أمانة بالسوء، تكره ما لها وتحب ما عليها، ولا يجوز عن القصد من

اتّمن عقله أو استغش هواه . وفي ذلك يقول عبد الله بن المعتز:

لم يفرّجْ غَلَقاً من كربه كهوى يُعصى وعقل يُستشاز

وقال غيره:

وقد أصاب رأيه عين الصواب من استشاز عقله في كل باب

وقد رأى أن الهوى مهما يجاب يدعو إلى سوء العواقب والعقاب

ومما قلتُ في المعنى:

إذا شئت أن تحظى وأن تبلغ المنى فلا تسعد النفس المطيعة للهوى

وخالف بها عن مقتضى شهواتها وإياك أن تحفل بمن ضلّ أو غوى

ودعها وما تدعو إليه فإنها لأمانة بالسوء من همّ أو مدى

لعلك أن تنجو من النار إنها لقاطعة الأمعاء نازعة الشوى

وقال عبد الله بن المبارك: علامة الإيمان، غلبة العقل على الهوى، وعلامة النفاق،

غلبة الهوى على العقل . فمن غلب عقله على هواه، طلب الآخرة ورفض الدنيا . ومن

غلب هواه على عقله، طلب الدنيا وترك الآخرة . وقال أيضاً: خير الناس رجل وزن

نفسه، فجعل العقل ما بينه وبين هواه، فما سكن إليه العقل أخذ به، وما نفاه العقل

نبذه، فهو الذي عرف مساوئه، ومحاسبة نفسه، ومخالفة هواه، فلم يزل في التحول

والانتقال حتى صار في حزب الله . وشر الناس رجل وزن نفسه حتى عرف الفضل

أين يخرج، فقهره هواه، وتملكته شهوته، فهو الطريح بين الدارين، ليس له في الآخرة

من خلاق إلا أن يتفضل الله برحمته .

جعلنا الله وإياك ممن اتّمن عقله، فأحرز خيره وفضله، ولا جعلنا ممن اتبع هواه،

فخسر ديناه وأخراه .

الباب الثاني

في اكتساب العلم وفوائده، واجتناب الجهل وحامله

العلم - فهما الله وإياك - أفضل مكتسب، وأشرف منتسب، وأنفس ذخيرة تُقتنى^(١)، وأطيب ثمرة تُجتنى، به يُتوصل إلى معرفة الحقائق، ويُتوسل إلى نيل رضا الخالق، وهو أفضل نتائج العقل وأعلاها، وأكرم فروعه وأزكاها، لا يضيع أبداً صاحبه، ولا يفتر كاسبه، ولا يجيب مُطالبه، ولا تنحطّ مراتبه .

والعلم، لا يوصل إلى معرفة فضله وجلالة قدره إلا بالعلم، كما لا يجهد شرف مكانه، وعلوّ شأنه، إلا أهل الجهل، لقصور أفهامهم عن عظيم منافعه، وكريم مواقفه . وهو اسم من أسماء الله عزّ وجلّ، وصفة من صفاته، رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: "أوحى الله تعالى ذكره إلى إبراهيم عليه السلام: إني أحبّ كلّ عليم" . غير أن علم الإنسان لا يقترن بعلم الله تعالى، ولا يحمل عليه، ولا يتّصف به، ولا يُضاف إليه، ولا هو منه في رسم ولا وسم، سوى مشاركة في الاسم، من غير تناسب ولا تقارب؛ لأن علم المخلوقين إنما يكون بالتعلّم والتبصّر، والتذكّر والتدبّر، وأخذ البعض عن البعض، ولذلك وقع الاختلاف، وتفرقت المذاهب، وتشعبت الطرق، وتباينت الفرق . وعلم الله سبحانه هو الذي سبق جميع المعلومات قبل كونها، وتقدم جميع الموجودات قبل ثبوت عينها، فجميع الأشياء كلّها مستفادة من علم الله تعالى؛ لأنه

(١) م: تفننا .

سابق لها، وعلم الإنسان مستفاد من الأشياء؛ لأنها سابقة له، ألا ترى إلى قوله، عز من قائل: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ [سورة البقرة، الآية ٣١ إلى ٣٢] فلما أظهر الله الأشياء من مكنون علمه، وأبانها عن نافذ حكمه، لم يستتر عنه شيء بحجاب، ولا يعرف عنده بظهور ولا اقتراب، وهو خلق الحجاب والمحجوب، وقدر البعيد والقريب، فعلم ما فوق السماوات السبع إلى ما لا غاية له، وعلم ما تحت الأرضين السبع إلى ما لا نهاية بعده . ولولا قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [سورة البقرة، من الآية ٢٥٥]، وقال عز ذكره: ﴿ وَمَا أَوْتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [سورة الإسراء، الآية ٨٥] فأوقع هدى الأشياء، لانتهى عنا العلم، لا سيما بقوله:

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة آل عمران، من الآية ٦٦] .

فصل

وأما علم الأنبياء عليهم السلام الذي لا يُدرك بطلب، ولا يتوصل إليه بحيلة ولا سبب، فهو تخصيص منه تبارك اسمه بما شاء من علمه بوحى ينزله عليهم، أو بإلهام يقرره في نفوسهم ويمثله في خواطرهم، فيعلمهم ما شاء من علمه، ويطلعهم على ما شاء من مغيبات حكمه، فيكشف لهم الغطاء عن حقيقة الأشياء على ما هي عليه، فيعرفونها مشاهدة بالبصيرة الباطنة، فيخبرون عن صحة تثبت لهم بها تقليد المنزل عليهم من الملائكة، ثم يكون الإلهام المقرر في نفوسهم الواصل إليهم من النور الإلهي، فذلك ثلاث مقامات: وحي وكشف وإلهام . والإلهام يشركهم فيه الأولياء لا يتجاوزونه، وهي التفرقة بين الأنبياء والأولياء، وهو قول رسول الله ﷺ: "انقوا فراصة المؤمن فإنه ينظر

بنور الله تعالى"، وقال الله جلّ جلاله: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَنْخُلِفُ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [سورة الجن، الآية ٤٠ إلى ٤١]، وقول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَتَأْتِيَ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [سورة مريم، من الآية ٤٣]، وقول يعقوب عليه السلام لابنيه: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية ٦٢]، فهذا تخصيص منه تبارك اسمه لأنبيائه عليهم السلام ولم يجعله علماً كافياً، ألا ترى إلى افتقار موسى عليه السلام إلى الخضر في قوله: ﴿هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [سورة الكهف، من الآية ٦٦]؟

وعلم جميع الخلق لا يقع من المحجوب منهم، المغيب عنهم، إلا كالنقطة من البحر، أو كالخردلة في ظلمات الأرض، فسبحان من أحاط بجميع الأشياء علمه، ونفذ في جميع المخلوقات حكمه! فعلم الأنبياء صلوات الله عليهم من غير تعلّم ولا واسطة بشر، وعلم سواهم بالتعلم وواسطة البشر، وحسبنا من علم النبي عليه السلام وفقهه وحكمه المرفوعة، وحكمه من غير مطالعة ولا تعلم، إلا مطالعة الحق الموضوع في قلبه، وموافقة الصدق المنعوت في روحه، ولو رام أحد أن ينال تلك الدرجة من العلم بآتم ما يكون من البحث والمطالعة والقوة على التعلم بامتداد العمر ومواصلة الطلب، ما بلغ أيسر أجزائه، ولا استنار بكوكب من نجوم سمائه .

فصل

وطلب العلم - وفقنا الله وإياك - فرض واجب على كل مسلم لا بدّ منه، ولا عذر له في التقصير عنه، من أمر دينه ودنياه، والقيام بالمفروض عليه من صلواته وصيامه وزكاته، والتزام حدود حلاله وحرامه، وما لا يتم الإسلام إلا به، ولا يقوم الشرع إلا

بمعرفته، وقد قال رسول الله ﷺ: "طلب العلم فريضة على كل مسلم"، وقال عليه السلام: "الفقه في الدين فرض على كل مسلم، فتعلموا وعلموا، ولا تموتوا جهالاً".

وكما يجب على كل مسلم علم ما لا يسعه جهله، كذلك يجب على العالم بذل ما عنده من علمه، ولا يصح له منعه، لقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [سورة آل عمران، من الآية ١٨٧]، وقوله عز من قائل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ [سورة البقرة، من الآية ١٥٩]، وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة النحل، من الآية ٤٤]. وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله لم يأخذ الميثاق على الجاهل أن يتعلم، حتى أخذ الميثاق على العالم أن يعلم"، وقال ﷺ: "من كتم علماً يُحسّنه، أجمه الله بلجام من نار يوم القيامة"، وقال بعض العلماء: علمك وتعلم علم غيرك، فإذا أنت علمت ما جهلت، وحفظت ما علمت.

فصل

واعلم أن العلم متقدم الوجود على العمل؛ لأن العمل لا يكون إلا بعد العلم. وهو ثبات صورة المعلوم وتصور أشخاص المعاني في نفس العالم. والإيمان هو الذي يوجب العلم؛ لأنه متقدم الوجود عليه، ألا ترى أن الأنبياء - عليهم السلام - إنما قالوا أولاً بالدعوة إلى الإقرار بما جاءت به، والتصديق إلى ما دعت إليه، مما صححته الدلائل، وصدّفته الآيات، وكان غائباً عن تصوّر الأوهام، وتدبّر الأفهام، فإذا أقرّوا بالألسنة طلبوا بالتصديق، فإذا صدّقوا صحّ الإيمان، فإذا صحّ الإيمان دعوا إلى العلم المؤدّي إلى معرفة

الواجب عليهم، الباعث على القيام باللازم لهم من شرائع دينهم وتوابع دنياهم . رُوي عن جندب أنه قال: كُنَّا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غُلَامًا حَزَاوِرَةً^(١) يَعْلَمُنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازِدَدْنَا بِهِ إِيْمَانًا . وَعَنْ الْقَاسِمِ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو يَقُولُ: عَشْنَا بَرَهَةً مِنْ دَهْرِنَا، وَإِنْ أَحَدُنَا لِيَتَعَلَّمَ الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ . وَذَلِكَ لِأَنَّ أَوَّلَ الْإِيمَانِ سَمَاعٌ بِالْأَذَانِ، فَإِذَا وَعَتْ وَجَبَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، فَإِذَا أَقْرَأَ أَخَذَ بِتَصْدِيقِ الْقَلْبِ، فَإِذَا صَدَّقَ طَلَبَ بِالْعِلْمِ، فَإِذَا عِلْمٌ خَرَجَ مِنْ ظِلْمَةِ الْجَهْلِ إِلَى نُورِ الْهُدَى؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لِلسَّمْعِ وَلَا لِلنُّطْقِ حَقِيقَةٌ فِي نَفْعٍ وَلَا ضَرَرٍ إِلَّا بِصِحَّةِ ثُبُوتِ الْمَعْرِفَةِ فِي الْقَلْبِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ: ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ . فَالظَّاهِرُ: سَمَاعٌ بِالْأَذْنِ وَنُطْقٌ بِاللِّسَانِ وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ، وَالبَاطِنُ: تَصْدِيقُ الْقَلْبِ وَصِحَّةُ الْيَقِينِ وَثُبُوتُ الْمَعْرِفَةِ . فَإِذَا صَدَّقَ الْقَلْبُ، اسْتَنَارَ بِنُورِ الْهُدَى الَّذِي هُوَ مِنْ هِبَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِأَنَّ الْهُدَى لَا يَدْرِكُ بِوُقُوعِ عِلْمٍ وَلَا بِحُضُورِ فَهْمٍ، وَاللَّهُ يَقُولُ . عَزَّ مِنْ قَائِلٍ:

﴿ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ فَهُوَ الْهُدَى ﴾ [سورة الأنعام، من الآية ٧١]، وَقَالَ جَلَّ وَعَزَّ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى ﴾ [سورة السجدة، من الآية ١٣]، وَقَالَ تَبَارَكَ اسْمُهُ: ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [سورة الأنعام، من الآية ٨٨]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى ﴾ [سورة الأعراف، من الآية ١٧٨]، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْعَزِيزِ، فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْهُدَايَةُ مَعَ الْعِلْمِ تَأَيَّدَ الْمَرْءُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، وَتَزِيدُ مِنَ الْخَيْرِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَيَعُدُّ عَنْ عَوَارِضِ الْارْتِيَابِ، وَقَوِي فِي كُلِّ الْأَسْبَابِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْبُدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ بِهِ إِلَّا بِالْعِلْمِ، كَمَا لَا يَعْصِي إِلَّا بِالْجَهْلِ . رُويَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:

"لِيَدَادَ جَرَتْ بِهِ أَقْلَامُ الْعُلَمَاءِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ دَمَاءِ الشُّهَدَاءِ"؛ لِأَنَّ بِأَقْلَامِهِمْ تُقَامُ الْفَرَائِضُ، وَتُحْيَى السُّنَنُ، وَذَلِكَ إِذَا اتَّقَوْا اللَّهَ تَعَالَى فَلَمْ يَخْتَارُوا دُنْيَاهُمْ عَلَى آخِرَاهُمْ . وَدَخَلَ ﷺ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِمَجْلِسَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ، وَفِي الْآخَرِ قَوْمٌ يَتَفَقَّهُونَ

(١) جمع حَزَوْرٌ وهو الغلام الذي قارب البلوغ . لسان العرب (حزر).

في الدين، فقال عليه السلام: "كلا" المجلسين على خير، وأحدهما أحب إليّ من صاحبه، أما هؤلاء فيذكرون الله ويسألونه، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل، وإنما بُعثت معلماً"، فجلس إلى مجلس الفقه . وقال ﷺ: "لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل" . ورُوي عنه ﷺ أنه قال: "من ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حقه، ووضعها في غير منزلته التي وضعه الله بها حيث يقول: ﴿ وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [سورة الإسراء، من الآية ٨٥]".

فصل

وللعلم شروط لا يكمل إلا بها، ولا يتوصل إليه إلا باستعمالها، وهي عشرة:
فأولها: إخلاص النية من الالتباس، وتطهير الباطن من الأدناس، والقصد به وجه الله الكريم الوهاب، وابتغاء ما عنده من جزيل الثواب، قال الله العزيز: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ [سورة النساء، من الآية ١٤٦]، وقال رسول الله ﷺ: "الأعمال بالنيات"، فإذا خلصت السريرة، قويت البصيرة، وكان العلم نافعا في الدنيا والآخرة، وكما لا تصلح الصلاة والعبادة إلا بطهارة الظاهر كذلك لا يصلح العلم إلا بطهارة الباطن، وقد تبين أن الطهارة ليست مقصورة على الظاهر دون الباطن، يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [سورة التوبة، من الآية ٢٨]؛ لأنه قد يظهر ظاهر المشرك، ولا فائدة في تطهير الظاهر دون الباطن . وقال بعض السلف رضي الله عنهم: العلم من الله، والعمل من الله، وإن الرجل ليطلب العلم لغير الله فيردّه العلم إلى الله، فإن العلم يأبى أن يكون إلا الله، وهو الذي يُسمى علماً . وقال بعض العلماء: مَنْ طلب العلم لوجه الله لم يزل مُعاناً، ومَنْ طلبه لغير وجه الله لم يزل مُهاناً .

(١) م: كل .

(٢) م: أن .

ولا محالة أنه مَنْ قصد بعلمه طريق الهداية، فما قصر عن نهاية، ومن قصد به مجرد الرواية، ليرتسم يرسم المعرفة والدراية، ويتحصل من دنياه على المحافظة والرعاية، فقد نكب عن مقتضاه، وأسخط خالقه وما أرضاه .

والثاني: اختيار العلم المؤدي إلى السعادة الأبدية، والحياة المرضية الهنية، وهو علم الديانة، المنقذ من الجهالة والضلالة، وإن كانت العلوم مرتبطة بعضها ببعض، كالعالم بلغة العرب التي نزل بها القرآن، وبها يستبين حديث رسول الله ﷺ، وكعلم النحو الذي يرتبط به الكلام وتتأدى المعاني، وكعلم الحساب الذي به يستخرج أقسام الفرائض، وما أشبه ذلك، فيجب على كل طالب علم^(١) أن يجعل معرفتها سلماً إلى الارتقاء إلى أشرف العلوم مرتبة، وأكثرها منفعة، فإنه مَنْ تعلّم النحو ليكون نحوياً، وتعلّم اللغة ليكون لغوياً، وتعلّم الحساب ليكون فَرَضِيّاً، فقد ضلّ رأيه، وخاب سعيه، وهي أقرب أن تُسمّى صناعة من أن تُسمّى علماً، فإن جميع الصناعات علم بما لا يعلمه غيره، رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "كونوا علماء صالحين، فإن لم تكونوا علماء فجالسوا العلماء، واسمعوا علماً يدلّكم على الهدى، ويردّكم عن الردى"، وقد فصلها محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله فقال: مَنْ تعلّم القرآن عظمت قيمته، ومن تعلّم الفقه جَلّ مقداره، ومن تعلّم الحديث قويت حجّته، ومن تعلّم الحساب جزل رأيه، ومن تعلّم الغريب رَقّ طبعه، ومن لم يعزّ نفسه لم ينفعه علمه .

والثالث: انتقاء العلماء، واختيار الأتقياء الفقهاء، فهم الدواء لجميع الأدواء .
رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لا تجلسوا عند كل عالم إلا إلى عالم يدعوكم من خمس

(١) م: العلم .

إلى خمس: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الغش إلى النصيحة، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن الكبر إلى التواضع"، وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: مَنْ أَكْثَرَ مَجَالِسَةَ الْعُلَمَاءِ، أَطْلَقَ عَقَالَ لِسَانِهِ، وَفَتَقَ مَرَاتِقَ ذَهْنِهِ، وَسَرَّهُ مَا وَجَدَ مِنَ الزِّيَادَةِ فِي نَفْسِهِ، وَكَانَتْ لَهُ وَلايَةٌ لِمَا يَعْلَمُ، وَإِفَادَةٌ لِمَا تَعْلَمُ . وَأَنْشَدُوا لِلشَّيْبِيِّ فَقَالَ:

لِقَاءِ ذَوِي الْأَدَابِ أَنْسُ وَرَفَعَةٌ وَتَلْقِيحُ آدَابٍ وَعِلْمٌ تَجَارِبِ
وَفِي تَرْكِهِمْ مِنْ غَيْرِ عَذْرِ غَبَاوَةٌ وَمَا لَيْسَ يَرْضَاهُ لَيْبٌ لِصَاحِبِ

وقال أرسطاطاليس: يحتاج طالب العلم إلى أربع: مدّة وجدّة وقرينة وشهوة، والخامسة - وهي تمامها وكما لها - معلّم ناصح . ورؤي عن بعض السلف أنه قال: أيامي أربعة: فالיום الذي أجالس فيه مَنْ هو أعلم مني فذلك يوم فائدة وتعلم، واليوم الذي أجالس فيه من هو مثلي فذلك يوم مناظرة ومحاضرة، واليوم الذي أجالس فيه طالباً متعلماً يوم تبصرة وتذكّرة، واليوم الذي أجالس فيه جاهلاً فذلك يوم نكل ومكابدة .

والرابع: الاجتهاد في طلب العلم، والبحث عنه بكل حيلة وسبب، وحمل التعب فيه والنصب، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ [سورة التوبة، من الآية ١٢٢]، وقال رسول الله ﷺ: "من طلب علماً فأدرکه كتب له كِفْلَانٌ" من الأجر، ومن طلب علماً فلم يدرکه كتب له كِفْلٌ من الأجر"، وقد قال موسى عليه السلام لفتاه عند طلب الخضر مما علم رشداً: ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ [سورة الكهف، من الآية ٦٢]، وكان سعيد بن المسيّب رحمه الله يسير في طلب الحديث الواحد مسيرة الأيام، وكان ابن القاسم رحمه الله قد لزم مالكا رضي الله عنه في طلب العلم

(١) الكِفْلُ: الحظّ والضعف من الأجر والإثم . لسان العرب (كفل) .

نحو العشرين سنة وهو متغرب عن بلده، نازح عن أهله وولده، حتى مات مالك رضي الله عنه . ومن كلام بعض العلماء: يحسن بالمرء التعلم ما امتدت به الحياة .

والخامس: التواضع في العلم، وترك العُجب والمباهاة به، قال الله سبحانه: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [سورة الأعراف، من الآية ١٤٦]، وقال رسول الله ﷺ: "آفة العلم الخيلاء". ومن أمثال الحكماء: مَنْ تواضع في الطلب، تسامى في الرتب . ومن كلامهم: مَنْ لم يجلس في الصغر حيث يكره لم يجلس في الكبر حيث يُحِبُّ . وقال بعض العلماء: أشدكم تواضعاً أكثركم علماً . وقد سُبِّه العالم المتواضع بالأرض المطمئنة السهلة، فكما ينجلب إليها الماء، كذلك ينجلب العلم للمتواضع . وقيل لبعض الحكماء: بَمَ يَعْرِفُ الْحَكِيمُ أَنَّهُ صَارَ حَكِيمًا؟ قال: إذا لم يكن لما أصاب من العلم معجباً، ولم يستفزّه الغضب عند الدم، ولا داخله الكِبَرُ عند المدح . ومن الحِكَمِ المنثورة: مَنْ تواضع بعلمه رفعه الله، وَمَنْ تكَبَّرَ بعلمه وضعه الله . وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ذللتُ طالباً فعززتُ مطلوباً.

والسادس: ترك التقدم به، والظهور من أجله، والتحكم بسببه، قال الله عز وجل: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ [سورة النجم، الآيات ٢٩-٣٠]، وقال رسول الله ﷺ: "مَنْ تعلّم العلم ليباهي به السفهاء، ويُبَارِي به العلماء دخل النار"، وقال صلوات الله عليه وسلامه: "اطلبوا العلم قبل أن يُرفع، ورفعهُ ذهاب أهله، فإن أحدكم لا يدري متى يحتاج إليه، أو متى يحتاج إلى ما عنده" .

وليحذر أن يطلبه لمراء أو لرياء؛ فإن المماري به مهجور لا ينتفع، والمراي به محقور لا يرتفع . وقال بعض العلماء: مَنْ تعلّم العلم للمباهاة، فقد غرق في بحر الخطيئات،

وتعرض لحلول النقمات، وكان على دينه من أعظم الآفات . ومن أمثال الحكماء: مَنْ طلب العلم للرياسة، فقد عُدَّ التوفيق والسياسة .

والسابع: الإنصات وحسن الاستماع، قال جَلُّ ثَنَاؤُهُ: ﴿ إِنِّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [سورة ق، الآية ٣٧]، وقال رسول الله ﷺ: "يُوجِرُ فِي الْعِلْمِ ثَلَاثَةٌ: الْقَائِلُ وَالْمَسْتَمِعُ وَالْأَخْذُ"، وقال لقمان عليه السلام: حُسْنُ الْأَسْتِمَاعِ مِنَ الْعِلْمِ . وقال بعض العلماء: إذا جالست العالم فكن لأن تستمع أحرص منك أن تتكلم، وتعلَّم حَسْنَ الْأَسْتِمَاعِ كَمَا تَتَعَلَّمُ حَسْنَ الْقَوْلِ، وَلَا تَقْطَعْ عَلَى أَحَدٍ حَدِيثَهُ . وكان أعرابي يجالس الشَّعْبِيَّ فَيَطِيلُ الصَّمْتَ، فَقَالَ لَهُ الشَّعْبِيُّ: أَلَا تَتَكَلَّمُ؟ قَالَ: بَلِ أَنْصَتُ فَأَفْهَمُ، وَأَصْمَتُ فَأَسْلَمُ . وقال بعض العلماء: حدِّ حسن الاستماع إمهال المتكلم، والإقبال عليه حتى يسير في جميع حديثه . وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

وَإِذَا تَكَلَّمْتَ عَالِمًا فَانصتْ لَهُ وَاسْمَعِ مَقَالَتَهُ لِكَيْمَا تَفْهَمَا

وقال أرسطاطاليس: يؤتى الناطق من سوء فهم السامع . وقال أيضًا: إذا فاتك العلم فالزم الصمت . وقال: لا خير في الحياة إلا لأحد رجلين: عالم ناطق، أو صموت واع . وقال بعض العلماء: مَنْ فَاتَهُ الْعِلْمُ فَلْيَكُنْ رَأْسَ مَالِهِ الْإِنْصَاتِ، فَإِنَّهُ أَمَانٌ مِنْ تَحْرِيفِ الْكَلَامِ، وَعَصْمَةٌ مِنْ زَيْغِ الْمَنْطِقِ، وَسَلَامَةٌ مِنْ فَضُولِ الْقَوْلِ . وقال بعض الشعراء:

عَجِبْتُ لِإِدْلَالِ الْغَبِيِّ بِنَفْسِهِ وَصَمْتُ الَّذِي قَدْ كَانَ بِالْقَوْلِ أَعْلَمًا

وَلَلصَّمْتُ خَيْرٌ لِلْغَبِيِّ وَإِنَّمَا صَحِيفَةٌ لَبَّ الْمَرْءِ أَنْ يَتَكَلَّمَ

والثامن: حسن السؤال، قال الله عزَّ ذكره: ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة النحل، من الآية ٤٣] وقال رسول الله ﷺ: "حسن السؤال نصف

العلم"، وقال عليه السلام: "العلم خزائن مفتاحها السؤال"، وقال ﷺ: "ليس من أخلاق المؤمن المَلَقُ إلا في طلب العلم". وقال سعيد بن جبير: مَنْ أَحْسَنَ أَنْ يَسْأَلَ، أَحْسَنَ أَنْ يَتَعَلَّمَ . وقال غيره: مَنْ رَقَّ وَجْهَهُ عِنْدَ السُّؤَالِ، رَقَّ عِلْمُهُ بَيْنَ الرِّجَالِ . وقال بعض الحكماء لسليمان عليه السلام: مَنْ تَرَكَ السُّؤَالَ، غَرِقَ فِي الْجَهْلِ . وقال أرسطاطاليس: مَنْ سَأَلَ عِلْمًا، وَمَنْ تَنَكَّرَ سَلِيمًا . وقال بعض البلغاء: مِنْ حَسَنِ أَدَبِ الْمُتَعَلِّمِ الْخُضُوعُ لِلْعَالِمِ، وَحَسَنِ التَّخَدُّمِ، وَمَوَاصِلَةُ الْمَلِيقِ، وَقَلَّةُ التَّعَلُّلِ، وَكَثْرَةُ الْإِقْبَالِ، وَالطَّافِ السُّؤَالَ .

والتاسع: ترك الجدال والمراء، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [سورة العنكبوت، من الآية ٤٦]، وقال تبارك اسمه: ﴿ وَإِنْ جَادَلْتُمْ بِهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ كَلِمَاتِي سَعَىٰ لِضَلَالِهِمْ لَوْلَا رَحْمَتِي عَلَيْهِمْ لَكُنُوا سَاءً لَّا يَجِدُونَ إِلَّا جَهَنَّمَ ﴾ [سورة الحج، الآية ٦٨]، والنهي عنه كثير في كتاب الله تعالى . وقال رسول الله ﷺ: "من ترك المراء وهو مبطل بُني له بيت في رياض الجنة، ومن ترك المراء وهو محق بُني له بيت في أعلى الجنة". وقال عليه السلام: "لا يجادل إلا منافق أو مرتاب". وقال لقمان: المراء مفتاح اللجاج، واللجاج مفتاح الإثم . وقال الأوزاعي: إذا أراد الله بقوم سوءاً أعطاهم الجدال ومنعهم العمل . وقال حاتم الأصم: إذا جاءت مسألة جدال أسلمتها إليهم واخترت السلامة . وقال بعض العلماء: الجدال أقل أقسام العلم فائدة؛ لأن القصد به إفحام الخصم، وإن خرج صاحبه عن حقيقة العلم . ومن أقوالهم: الجدال والمراء، سببان لكشف الغطاء . وقالوا: إذا ازدحم الجواب، خفي الصواب .

والعاشر: العمل بمقتضى العلم، وهو سرّه ومعناه، وفائدته العظمى لمن توخاه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ [سورة البقرة، من

الآية ١٢١] أي يحكمونه علمًا، ويوفونه عملاً . وقال عزّ من قائل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [سورة فاطر، من الآية ١٠]، وقال رسول الله ﷺ: "من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم"، وقال عليه السلام: "إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالمٌ لم ينفعه الله بعلمه"^(١). فمن علم علمًا وعمل به كان كشجرة يانعة أثمرت طيبًا، ومن علم علمًا ولم يعمل به كان كشجرة مورقة لا تثمر، كما قال الله سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْبَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجِمَارِ تَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [سورة الجمعة، من الآية ٥]. ومن الحكم المثورة: العمل ثمرة العلم . وروى عبد الله بن وهب: أن الخضر قال لموسى عليهما السلام: يا ابن عمران تعلم العلم لتعمل به، ولا تتعلمه لتحدّث به فيكون عليك وزرًا ولغيرك نورًا . كان نقش خاتم الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما: علمت فاعمل .

وقد أجمع العلماء على فضل مَنْ عَلِمَ العلم وَعَمِلَ به، على من عَلِمَهُ ولم يَعْمَلْ به، كفضل من لبس التاج على من صاغه، والثوب على من حاكه . وسُئِلَ الزُّهْرِيُّ: أَيُّمَا أَفْضَلُ العلم أم العمل؟ فقال: العلم لمن جهل، والعمل لمن علم . وهذا حسن من القول جدًّا . ومن كلام الحكماء: علم لا يُعْمَلُ به ككثرة لا ينفق منه . وقيل: أول العلم الصمت، وثانيه الاستماع، وثالثه الحفظ، ورابعه العمل به، وخامسه نشره، وهو تمامه وكماله . ومن الحكم المثورة: طلب العلم عبادة، وتعلّمه حِسْبَةٌ، وتذكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قربة، والعمل به حياة القلوب، وإدراك المطلوب .

فهذه العشرة - وفقنا الله وإياك - هي قواعد العلم وأركانها، وفروعه المتوشحة وأغصانه، ودلائله الواضحة وبرهانه، وقد أبان الله عزّ وجلّ فضل العلم على الجهل بقوله

(١) م: بعلمه يوم القيامة. ولم أجد هذه الزيادة فيما اطلعت عليه من مصادر.

تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الزمر، من الآية ٩]، وقال عزّ ذكره: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [سورة المجادلة، من الآية ١١]، ومثل هذا كثير في كتابه . ووصف علي بن أبي طالب رضي الله عنه علماء الدين فقال: هم الأقلون عددًا الأعظمون قدرًا، بهم يحفظ الله حجّته حتى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الإيمان حتى باشروا روح اليقين، فاستلنا ما استخشن المترفون، وأنسوا بما استوحش الجاهلون، صحبوا الدنيا بأرواح معلقة بالرفيق الأعلى، هاهاه شوقًا إليهم . وقال رضي الله عنه: ما قطع ظهري في الإسلام إلا رجلان: عالم فاجر، ومبتدع ناسك . فالعالم الفاجر يزهد الناس في علمه لما يرون من فجوره، والمبتدع الناسك يرغب الناس في بدعته لما يرون من نسكه . وكان السلف الأول يتعوذون بالله من العالم الفاجر العالم بالسنة . وسئل رسول الله ﷺ عن رجلين أحدهما عالم والآخر عابد، فقال: "فضل العالم على العابد كفضلي على أذناكم رجلاً"؛ وذلك لأن العلم هو الباعث على العمل، والموجب للعبادة، والموضح لسبيل التقى، والجامع لأشتات الخيرات، وربما قصر العابد عن كثير مما يجب عليه لخلوه عن العلم . ورُوي عنه ﷺ أنه قال: "يُبعث العالم والعابد يوم القيامة، فيقال للعابد: ادخل الجنة، ويقال للعالم: اثبت حتى تشفع للناس" . وقال عليه السلام: "إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاءً بما يطلب".

فصل

والعلوم كثيرة، والمعارف جمّة، وأنواعها مختلفة، وبعضها أشرف من بعض، وتخيل الإحاطة بما لا يمكن . وقال أرسطاطاليس: ليس طربي للعلم لبلوغ قاصيته، ولا استيلاء على غايته، ولكن التماسًا لما لا يسعني جهله، ولا يحسن بالعاقل خلافه . فإذا لم

يكن للإحاطة به سبيل، ولا لغايته وصول، فيجب على الطالب أن يختار من العلم أرفعه، ويستعمل من العلم أنفعه . وما قلتُ في هذا المعنى:

يا طالب العلم في دنياه مجتهدًا إن العلوم لأشجارٌ لها ثمرٌ
 بالفهم تُجنى فمنها الحلوُ مطعمه لا لغو فيها ولا بؤسى ولا ضررٌ
 وإن منها لما تشجى عواقبه ويُجتنى الدهر منه السمُّ والصبْرُ
 فاختر لنفسك علمًا إن عملت به يومًا يكون لك الآثار والأثرُ
 ودع أقاويل أقوام تنكّبهم فيما أرادوه منها الرأي والنظرُ
 لا تستقيم لهم فيها حجاجُ حجى ولا يصدّقها التنزيل والأثرُ

وله أيضًا:

يا طالب العلم للدنيا وزيتها من رام قصدك فيه بئس ما فعلا
 علمتَ علمًا ولم تعمل بموجبه فقد ضللت وأضللت الذي جهلا
 وقد تبوّأت في الدارين منزلة الخزي والذل فيها حظ من نزلا
 طوبى لعبيد حوى علمًا أراد به وجه الإله فوقاه له عملا

وما زال العلم من الإنسان بمنزلة الروح من الجسد، فكما يجيا الجسد بالروح، كذلك يجيا صاحب العلم في الناس بعلمه، ويعظم قدره فيهم، ويحلّ خطره عندهم . وقال بعض العلماء: أعظم الأشياء منفعة عند العقلاء الأدب والعلم؛ لأنها يستمتع بها صاحبها مدة حياته، ويحسن بها ذكره، ويورثها في الآخرة النعيم الدائم، ولا يلحقها بلاء ولا نقص مع كثرة الاستمتاع بها . وكل منافع الدنيا إنما هي رهائن فناء، وودائع تلف . وقال بطليموس: ما مات من أحيى علمًا . ومن كلام العلماء: العلم شرف من

غير تقدم، ومال من غير تجارة، لا يُخاف على حامله ضياع، ولا يعدم منه انتفاع . وقال:
الأدب أفضل من الحسب؛ لأن الرجل ينطق به فيعرف قبل حسبه، ومن قعد به نسبه
نهض به أدبه . وقال بعضهم:

رأيتُ العزَّ في أدبٍ وعقلٍ وفي الجهل المذلَّة والهوانُ
وما حُسن الرجال لهم بحسنٍ إذا لم يُسعد الحسنَ البيانُ
كفى بالمرء عيباً أن تراه له وجهٌ وليس له لسانُ

وقال غيره:

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهلُ
فإن كبير القوم لا علمَ عنده صغير إذا التفت عليه المحافلُ

وقيل: إن الحكمة تنبت شجرة في القلب يمدّها العقل وتثمر في اللسان . وإلى هذا
نظر قول الأعرابي^(١):

وكائن ترى من ساكت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلّم
لسان الفتى نصفٌ ونصف فؤاده فلم يبقَ إلا صورة اللحم والدمِ

ومن كلام بعض العلماء: عليكم بالعلم فإنه يقوّمكم صغاراً ويقدمكم كباراً .
وقال بعض السلف رضي الله عنهم: إذا أراد الله بالناس خيراً، جعل العلم في ملوكهم
والملك في علمائهم . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: العلم خير من المال؛ لأن
العلم يجرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه . وقالوا: العلم
طبيب الدّين، والمال داء الدين، فإذا رأيتم الطبيب يجرّ الداء لنفسه فكيف يداوي غيره؟

(١) هذان البيتان من معلقة زهير بن أبي سلمى.

وقيل لبعض الحكماء: لم لا تجمع المال والعلم؟ قال: لعز الكمال؛ لأنها إذا اجتمعا كانا ستر الدنيا وسبب لذة المحيا . ولذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الدنيا بالأموال، والآخرة بالأعمال . وفي مشور الحكم: علم أوضح لبسًا، خير من مال أغنى نفسًا . وقال مصعب بن الزبير: تعلّم العلم فإن لم يكن لك مال، كان لك مالاً، وإن كان لك مال كان لك جمالاً . وقيل لبُزْرَجْمِهْر: ما لنا نرى العلماء على أبواب الأغنياء، ولا نرى الأغنياء على أبواب العلماء؟ قال: لمعرفة العلماء بمنفعة المال، وجهل الأغنياء بفضل العلم .

فصل

والعلم عظيم في نفسه، وحامله عزيز في قومه، إن قال فكلامه مرفوع، وإن أمر فأمره مسموع، لا يُناقَس فيهما دق، ولا يُخالف فيما شقّ، يبغي لجلالته، ويغضي لمهابته، ولذلك عظمت صغار سقطاته؛ لأنها محدودة، وكثرت قلائل هفواته؛ لأنها معدودة، فصارت زلته نادرة الدهر، وهفوته بيضة العقر، كما قال المهلبي^(١):

ومن ذا الذي تُرضى سجاياه كلّها كفى المرء فضلاً أن تعدّ معاييه

فإذا تكيفت كبير صغيرها، وكثير يسيرها، فهو كالسفينة تغرق فيغرق معها خلق كثير. ولا شيء أضر على الجاهل من زلّة العالم؛ لأنه يلزمها حجة، ويتمسك بها عروة، فيخسر من حيث يحسب أنه يربح، ويغرق وهو يظن أنه يسبح، وقد قال رسول الله ﷺ: "مما أخاف على أمتي زلّة العالم، وجدال المنافق"؛ لأن المنافق يجادل بالباطل ليدحض به الحق، وليس من أذنب واحتج لنفسه وجادل على ذنبه كمن اعترف بذنبه، ولازم نفسه، واعتذر من خطيئته، فإنه أقرب للعفو، وأرجى للرحمة .

(١) يزيد بن محمد المهلبي . الشعالي، لباب الآداب، ص ٣٤٩ .

فصل

وبالعلم اعتصم الملوك من الظلم، وامتنعوا من الجور، وعدلوا في أحكامهم، وأسطوا في أقسامهم، فتسدّت آراؤهم، وحسنت في كل الأحوال أنحاؤهم، فصاروا أئمة هدى يقضون بالحق وبه يعدلون . وقال بعض الحكماء: العلم زين في الحضور، وعزّ في السفر، وأنيس في الوحدة، وجمال في المحافل، وداع إلى المكارم، وسبب إلى نجح السعي، وما زال صاحبه رفيع القدر وإن تواضع . وقيل: خير العلماء من عمل بعلمه ولم يبخل بتعليمه، وأظهر التواضع . وفي بعض الحكم: من عُرف بالحكمة حُظّته العيون بالوقار، ومن لم يكن حكيماً، لم يزل سقيماً . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: قيمة كل امرئ ما يُحسن . وقال أيضاً عليه السلام: الناس أبناء ما يُحسنون . أخذه ابن طباطبا فقال:

فيا لائمي دعني أعالِي بهمتي فقيمة كل الناس ما يحسنونهُ

ومن كلام بعض الحكماء: العلم وسيلة لكل فضيلة، وذريعة لكل شريعة، والعلماء حكام على الملوك، والملوك حكام على الناس . ومن الحكم المشهورة: كل عزّ لم يؤكده علم مذلة، وكل علم لم يؤكده عقل مضلة . وقيل: كم من ذليل أعزّه علمه، وكم من عزيز أذله جهله . وفي ذلك يقول ابن عبد العزيز:

ولم أبتذل في خدمة العلم لأخدم من لاقيتُ لكن لأخدما
أشقى به غرساً وأجنيه ذلة؟! إذن فاتّباع الجهل قد كان أحزما

ومن أمثال الحكماء: من لم ينفعه العلم يأمن ضرر الجهل . وقال بعضهم: إذا علمت فلا تنظر من دونك من الجهال، ولكن انظر من فوقك من العلماء، وافرح بما لم

تنطق به من الخطأ مثل فرحك بما لم تسكت عنه من الصواب . وقيل: إن إبليس لعنه الله قال: لا شيء أغيظ عليّ من العالم؛ إن تكلمت تكلمت بعلم، وإن سكت سكت بعلم، وسكوته عندي أغيظ من كلامه . وذلك لأن الكلام يتوقع معه العثار فيترجاه إبليس ويتنظره، والسكوت لا يتوقع منه ذلك . وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: "ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين، ولَفقيه واحد أشدّ على الشيطان من ألف عابد؛" وذلك لأن العابد إنما يحمي نفسه ويسعى في خلاص ذاته، والفقير يعلم فيخلص نفسه، ويعلم فيخلص غيره . ومن العلماء من فضل حق العالم على حق الوالد؛ لأن الوالد إنما هو ساعٍ في صلاح دنيا الولد، والعالم ساعٍ في صلاح دنياه وأخراه، وفي مثل ذلك يقول بعض الشعراء:

وللعلم فضلٌ ليس يبلغه حنوٌّ أمّ ولا يجويه عطفُ أبٍ
هذا يدبّر في الدنيا معيشته وذا يمكنه في أرفع الرُتبِ

وقال آخر:

يا فاجر السفهاء بالسلفِ وتاركًا للعلاء والشرفِ
آباءُ أجسادنا هم سببُ لأن جُعلنا عوارض التلفِ
مَنْ علّم الناسَ كان خيرَ أبٍ وهُوَ أبو الروح لا أبو النطفِ

وقيل للإسكندر: ما بال تعظيمك لمؤدّبك أكثر من تعظيمك لأبيك؟ قال: لأن أبي سبب حياتي الفانية، ومعلمي سبب حياتي الباقية . ولما دخل على الواثق مؤدّبه، بالغ في إكرامه، فقيل له: يا أمير المؤمنين من هذا؟ قال: أوّل مَنْ فتق لساني بذكر الله، وأدنانِي من رحمة الله . وقال بعض العلماء: للعالم في تعليم العلم تذكير من النسيان، وأفضل من

ذلك ما يرجوه من ثواب الرحمن . وقال بعضهم: في تعليم العلم إرغام للعدى،
 وخروج من ظلمة الجهل إلى نور الهدى . وقيل: التعليم إحياء موات، وإدراك فوات،
 وعصمة من الآفات، وإصلاح من غياهب الجهل وظلم الضلالات، وتعليم العلم
 صدقة من العالم على المتعلم من أفضل الصدقات، وقربة يتقرب بها إلى خالق الأرض
 والسموات . لأن صدقات المتاع تنفد مع الاستمتاع بها، والعلم يتجدد ويزيد عند
 الاستمتاع به، فخيرُه دائم أبداً، ونفعه مستمر أبداً، مع ما للعالم والمتعلم من ذخور
 الأجر والثواب، وعظيم النفع يوم الحساب . رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: "تصدقوا
 على أئمتكم بعلم يرشدهم، ورأي يسدده"، ورُوي عنه ﷺ، عن ابن مسعود أنه قال:
 "تعلموا وعلموا فإن أجر العالم والمتعلم سواء"، قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: "مئة
 مغفرة، ومئة درجة في الجنة" . وقال بعض العلماء: مَنْ تصدَّق بعلمه أغنى من إقلال،
 وأطلق من عقال، وهدى من ضلال، وأرضى ذا الجلال، وأخرج من حدِّ النقص إلى
 حد الكمال . ولقد قلتُ في هذا المعنى:

| | |
|-------------------------------|---------------------------|
| أيها العالم اللبيب تصدق | إن بذل العلوم خير نوالٍ |
| صدقات المتاع تفنى سريعاً | وهي تنمى على مرور الليالي |
| تلك تُهدي للمعتفي بُلغة العيد | ش وتشجي بحمل ذلّ السؤالِ |
| وعطاء العلم يغني من الفقر | ر ويهدي من موبقات الضلالِ |
| ثم إن السؤال في العلم عزُّ | وسؤال الندى من الإذلالِ |

وقيل: إن للنفس أربع خصال هي كمال حدها، وللجسم أربع خصال هي حد
 كماله، فخصال النفس: العلم والعدل والشجاعة والحلم، وخصال الجسم: الجمال

والصحة والقوة وتمام الخلقة . فنظير الجمال: العلم، ونظير القوة: الشجاعة، ونظير الصحة: العدل، ونظير التمام: الحلم، وهذه الخصال قد يجمعها الله عزّ وجلّ لمن أراد كماله من خلقه، وقد يعطي ما يشاء منها لمن يشاء . فنسأل الله حسن الموهبة .

فصل

واعلم أن جميع ما ارتسم في الكتب وخطّ في الصحف من العلم إنما هي صفاته، وفصوص من الحكم، وتصوير المعاني، وإثبات الأصول، وإيقاع الفصول، وليس بنفس العلم إلا حقيقة ذاته؛ لأن الخط لو كان نفس العلم لعلمه كل من قرأه، وأفاده كل من تصفحه، وقبّله كلّ من نظر إليه، وغني الناس به عن العلماء .

وحقيقة العلم إنما هي^(١) نور يقذفه الله سبحانه في قلب من يشاء، وأمر يضعه في جبلته: من صفاء الذهن، وقوة المعرفة، وجودة القرينة، وحسن النظر، وصحة الفكر، فتفتح له أبواب الهداية، وتتجهج له طرق المعرفة، فيستفيد علم اليقين، وتتكشف له سرائر المعاني، وتصحّ الدلائل، وتقوى عنده البراهين، فيتم له العلم، وتكمل عنده المعرفة بحسن القبول، ومصداقه قول رسول الله ﷺ: "العلم علمان: علم ثابت في القلب، وعلم ثابت في اللسان وهو حجة الله تعالى على عباده"، فالصحيفة إنما هي صورة مثبتة وشخص مجسم، روحه العلم، ونفسه الفهم، ومدبره العقل، وقوّته اليقين، وجوارحه الدلائل، وحواسه البراهين، فإذا اجتمعت أحدثت حركات هي أعمال البر، وبها تتم خلقة العلم، إن شاء الله عز وجل .

وقال بعض أهل العلم: العلم علمان: علم طبيعي، وهو الأصل لما ركّب الله تعالى في صاحبه من قوّة الفهم وصحة النظر، وعلم مكتسب محفوظ، وهو الفرع، والشيء لا يتفرع إلا عن أصل، والأصل لا ينمي إلا باتصال المادة، وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

(١) لعلها: هو، يعود على (العلم).

فلم نرَ فرعًا طال إلا بأصله ولم نرَ بدء العلم إلا تعلّمًا
 وقال أرسطاطاليس: غير متفجع بالعلم، ومستمتع بالحكمة قلبٌ مرتبطٌ بطلب
 الدنيا والمعيشة وارتياذ الكسب . رُوي عن ابن مسعود أنه قال: منهومان لا يشبعان:
 طالب علم وطالب دنيا، فإن العالم كلما ازداد علمًا ازداد من الله قربًا . ثم قرأ: ﴿ إِنَّمَا
 حَخَّخَى اللَّهُ مِنَ عِبَادِهِ الَّذِينَ عَلَّمْتُمُوهُ ﴾ [سورة فاطر، من الآية ٢٨] . وطالب الدنيا كلما ازداد مالاً
 ازداد طغيانًا . ثم قرأ: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ * أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْجَى ﴾ [سورة العلق، من
 الآية ٦ إلى ٧] . وقال أفلاطون: النار لا ينقصها ما أخذ منها لكن تخمد إذا لم تجد حطبًا،
 وكذلك العلم لا يفنيه الاقتباس، لكن سبب تعطيله بخل العلماء به، فإيتاك والبخل بما
 تعلم . ولما حضرته الوفاة جمع أصحابه وقال لهم: يا إخواني، ما أدري ما أقول لكم غير
 أني خرجت إلى الدنيا مضطرًا، وها أنا أخرج منها مكرهاً، وما بلغ من علمي أكثر من
 علمي بأنني لست بعالم . أخذ قوله: "خرجت إلى الدنيا مضطرًا، وها أنا أخرج منها
 مكرهاً" العباس بن الأحنف فقال:

أقمنا مكرهين بها فلما ألقناها خرجنا كارهيننا

وذلك أنا لما جُبلنا على حبّ الدنيا، فسرنا إقبالها وساءنا إدبارها، فنحن نكره
 فراقها . والذي جاء في قول رسول الله ﷺ: "مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ
 كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ" قيل: إن ذلك عند المعاينة وقرب فراق الدنيا، فيرى العبد
 الصالح البشري الصالحة فيحب لقاء الله ويحب لقاءه، ويرى العبد المسيء البشري
 السيئة فيكره لقاء الله فيكره لقاءه .

وقيل لقس^(١) بن ساعدة: ما فضل العلم؟ قال: وقوف المرء عند عمله . قيل: فما
 فضل المعرفة؟ قال: معرفة المرء بنفسه . قيل: فما فضل المروءة؟ قال: استبقاء الرجل
 ماء وجهه . قيل: فما فضل المال؟ قال: ما قضى به حق واستدفع به مكروه .

(١) م: لقيس .

ومن كلام الحكماء: مَنْ استخفَّ بالسلطان ذهبَ دنياه، ومن استخفَّ بالعلماء ذهبَ أخراه، ومن استخفَّ بالإخوان ذهبَ معونته . وقيل: العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفاة . وروى: أن الله جلَّ وعزَّ أوحى إلى عيسى عليه السلام أن عظَّ نفسك، فإن اتعظت فعظَّ الناس وإلا فاستحي مني .
وقال الشاعر:

| | |
|--------------------------------|---------------------------|
| يا أيها الرجل المعلوم غيره | هلا لنفسك كان ذا التعليم |
| ابدأ بنفسك فانتهت عن غيرها | فإذا انتهت عنه فأنت حكيم |
| فهناك يقبل ما تقول ويقتدى | بالعلم منك وينفع التعليم |
| تصف الدواء لذي السقام من الضنا | كيا يصح به وأنت سقيم |
| وأراك تلقح بالرشاد عقولنا | نصحاً وأنت من الرشاد عديم |
| لا تنه عن خلقي وتأتي مثله | عمار عليك إذا فعلت عظيم |

وقال بعض السلف: قالت الحكمة: التمسني فإن لم تجدني فاعمل بأحسن ما تعلم، فإذا فعلت فأنا معك . ومن كلام العلماء: العلم أنفس الأعلام، وأشرف الأعلام، وأكرم منتسب، وأنفع لمقتنيه من الفضة والذهب، فإنها يبديهما الإنفاق، ولا ينفعانك إلا عند الفراق . وقال ابن المعتز: العلم جمال لا يخفى، ونسب لا يجفى، والعلم لا ينقص مع الإبدال، ولا يفارقك في حال من الأحوال . ومن أمثالهم: مَنْ لم يقترن العلم ذخيرة، لم تزل نفسه فقيرة . وقال بعض الحكماء لابنه: يا بني إن شئت أن تكون غنياً، وتعيش هنيئاً، وتموت رضيعاً، فاقتن العلم فإنه خير كله، لا يعيبك فضله، ولا يؤدك حمله، ولا ينقصك بذله . ومما قلت:

أجل ما يُقتنى يوماً ويكتسبُ ويُنقَى من حُلَى الدنيا ويُتخبُ
علمٌ رفيع عميم النفع قد رُفعتْ لحامله بآناف العلى رُتِبُ
إن عاش عاش حميداً سامياً أبداً لا يُستضام ولا يُشنا فيُجتنبُ
وإن يموت فثناءً شائع حسن وبعده رحمة تُرجى وترتقبُ

وقالت الحكماء: العلم نور زاهر لمن استضاء به، وقوت هنيء لمن تقوّت به، ترتاح به الأنفس إذا هو غذاها، وتفرح به الأفتدة إذا هو قواها، وهو الدليل على الخير، والعون على المروءة، وصاحب في الغربية، ومؤنس في الخلوة، وصلة في المجلس، وشرف في النسب .

وقيل لأردشير: أي الملك أي الكنوز أعظم قدرًا وأجل منفعة؟ قال: العلم الذي خفّ محمله، ولم تمكن مفارقتة، وخفي مكانه فأمن من السرقة، وهو في الملائمات، وفي الوحدة أنس، يرأس به الخسيس، ولا يقدر حاسدك عليه على انتزاعه منك . قيل له: فالمال؟ قال: ليس كذلك: محمله ثقيل، والهَمّ به طويل، إن كنت في ملائمتك بالفكرة فيه، وإن كنت خاليًا أتعبتك توابعه .

وقال أفلاطون: ذهب العلماء خراب العالم . وهذا ناظر إلى قول رسول الله ﷺ: "تعلّموا العلم قبل أن يُرفع، ورفعته ذهب أهله"، وقال عليه السلام: "العلماء ورثة الأنبياء"، ورُوي عنه صلوات الله عليه أنه قال: "عليكم بخلفائي" . قالوا: ومن خلفاؤك يا رسول الله؟ قال: "الذين يُحيون سنتي يعلمونها عبادًا لله" . وقال ﷺ: "مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا طمست النجوم أوشك أن تضلّ الهداة" . وقال عليه السلام: "ما نَحَلَ والدٌ ولده أفضل من أدب حسن" . وقال ﷺ: "لأنّ يؤدّب أحدكم ولده خير له من أن يتصدّق كل يوم بنصف صاع" .

ومن كلام بقراط: العلم دين يُدان به الباري، يكتسب به المرء طاعة ربّه في حياته، وجميل الأحدثة بعد وفاته، وهو سلّم للعلوم، ومرتقى للسموّ، فمن عدمه فقد عدم القرب من بارئه . وقال بعض العلماء: خذوا من الدنيا ثلاثاً: من الكنوز العلم، ومن الزاد التقوى، ومن الأعمال العبادة . وقيل: العقل خليل المؤمن، والعلم وزيره، والدّين دليله، والصبر عماده، والتقوى زاده، وإلى الجنة معاده .

فصل

واعلم أنه لا يجب أن يُدعى عالمًا مَنْ حفظ الأساطير وهو لا يفهم معانيها، ولا يُحكّم مبادئها، فلم يحصل إلا على هذر الكلام، ولا وصل من الفهم إلى فائدة الاستفهام، حتى إذا قعد في بحبوحة مجلسه، واحتبى من فضول ملبسه، هدرت شقاشقه^(١)، ولعت بخلب القول بوارقه، فإذا استكشفتها عن غامضه، وسألته الجمع بين متعارضه، تبلّد وتلدّد، وانسلّ عن ثياب المعرفة وتجرّد . وأما العالم الذي يحمل اسم العلم عن حقيقته: مَنْ جعل العقل عماد عنايته، وجعل الدين منار هدايته، وتقدم بفهم مكنون يستفتح به من العلم ما استبهم، وذهن يوضح منه ما استعجم، ونهض بقريحة تكشف مكنون أسرارها، وقعد بفطنة تعلم مواقع إيراده وإصداره، مع لزوم ما قدّمناه من شروطه وأحكامه، وامثال ما بيّناه من إتقانه وإحكامه، فإذا وقعت النازلة قاس عليها بدليل راشد، ويناها على أسّ مهاد القواعد، فانقاد له صعبها انطباعاً، واستقلّ بأعبائها استضلاعاً، ففتق منها ما رتق، وفتح منها ما انغلق، فانقشعت له ظلماتها، واستوى عنده أرضها وسماؤها، فصار كالباز في الخاطر، لا تمرّ به سانحة ولا بارحة إلا

(١) شبّه العرب الخطباء المتحدلقين بشقاشيق الجمال . والشقاشيق لهاة البعير، يخرجها البعير إذا هاج، ومنه سُمّي الخطباء شقاشيق . لسان العرب (شقق) .

اقتنصها واختلسها، أو الأسد الحادر، لا تعرض له فرصة ولا فريسة إلا انتهزها وافترسها، فمثل هذا يجب أن يدعو العالم عالماً .

وقال سهل: العلماء ثلاثة: عالم بالله، وعالم لله، وعالم بحكم الله . فالعالم بالله: هو العارف الموفق، والعالم لله: هو العالم يعلم الإخلاص والمعاملات، والعالم بحكم الله: هو العالم بتفصيل الحلال والحرام .

فصل

وقول المرء: "لا أدري" فيما لا يدري بابٌ عظيمٌ من أبواب العلم، وحظ جسيم من حظوظ المعرفة، قال أبو عمر بن عبد البرّ رحمه الله: صحّ عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: قول: "لا أدري" نصف العلم . وقيل: ملاك العلم ثلاثة: آية محكمة، وحديث مسند، وقول: "لا أدري" . وعن خالد بن خدّاش قال: قدمت على مالك بن أنس رحمة الله عليه من العراق بأربعين مسألة، قال في اثنين وثلاثين منها: "لا أدري" . ورؤي عن مالك رحمه الله أنه قال: جنة العالم: "لا أدري" . فإذا أخطأها أصيبت مقاتله . أخذه ابن دريد، فقال:

ومن كان يهوى أن يُرى متصدراً ويكره "لا أدري" أصيبت مقاتله

وقال محمد بن أبي حازم:

مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ فَضَحَتْهُ شَوَاهِدُ الْامْتِحَانِ

ومن أمثال الحكماء: مَنْ طَلَبَ الْفَضْلَ بِغَيْرِ أَدَبٍ، خَرَجَ مِنَ السَّلَامَةِ إِلَى الْعَطْبِ .
وقال أردشير: الأدب زيادة في العقل، ومنبهة للرأي، ومكسبة للصواب . وقال بعض الحكماء: الأدب الصالح يعين الطبيعة ويقوّي القريحة، ويديم موادها، ويحيي مواتها، ويزيد في نشاطها، ويبعث إلى انبساطها؛ لأنه بمنزلة الغذاء الذي به يكون النموّ والزيادة .

وقالوا في منشور الحكم: مَنْ يَجْرِبُ يَزِدُّ عِلْمًا، وَمَنْ يُؤْمِنُ يَزِدُّ يَقِينًا، وَمَنْ يَتَسَنَّ
يَعْمَلُ جَاهِدًا، وَمَنْ يَحْرَصُ يَزِدُّ قُوَّةً، وَمَنْ يَكْسِلُ يَزِدُّ فِتْرَةً، وَمَنْ يَتَرَدَّدُ يَزِدُّ شُكًّا .

فائدة العلم العمل، وفائدة الدين اليقين، كما أن آفة العلم الكسل، وهو الباعث

للنسيان، وآفة الدين التردد، وهو المسهل طريق العصيان . وقال الشاعر:

لو كان علمُ المرء أوقار الجملٍ لم ينتفع إلا بتحسين العملِ
فاعملْ لدار الخلد من قبل الأجلِ ما دام عمرُك مستدامًا في مهلِ
واحذرْ - هُديتْ - من التردّد الكسلِ فهما يفيدان الندامة والزللِ

فصل

ولكلِّ صنف من العلوم قريحة تنشأ به في أصل الخلقه تقريرًا، وطبيعة تقابله في
وضع الجملة أحكامًا وتدبيرًا، وإلا كان الناظر فيه متعوبًا بما لا يدرك، والطالب ساعيًا
فيما لا يلحق، وصار مُعملاً ذهنه فيما لا فائدة فيه، ومتعبًا نفسه فيما لا عائدة منه عليه .
فإذا كانت القريحة قوية تناسب للذي يرومه، والطبيعة كثيرة الاشتراك لما يعالجه، تنبّه
الخاطر، وقوي الذهن، وتمكّن الفهم، واتسعت المعرفة، فقبل ما تلقى من ذلك الباب،
ونفذ في الصنف الذي طلب فيه من الآداب، واستقلّ بما تحمل منه، ولم يعجز في حال عنه،
فإن كان نفوذه إلى بعضها أكثر من بعض فبقدر مناسبة الطبيعة، وحسب مقابلة القريحة،
وأخراج ميل النفس إليه، وحمل الطبع عليه، وكذلك في جميع الأعمال . والله أعلم .

وكم من منهمك في العلوم والآداب، طالب لها بكل الوجوه والأسباب، لم ينفذ
منها إلا فيما وافق طبيعته، وناسب جبلته . وقد يوجد من الناس من يحرص على العلم
ويشهره إلى الآداب، فتراه الدهر كثير الطلب، جامعًا للكتب، مواصلاً للتعلم، من غير

فهم يعتدّ به في فنّ منها، ولا قريحة تعينه عليها، فيجهد نفسه والطبيعة تقعده، ويتعب جسمه والحرمان يبعبه، فلا هو عن الطلب يمتنع، ولا هو بالذي يجمع ينتفع، كما قال بعض الشعراء:

| | |
|--------------------------|---------------------------|
| أحفظ من ذاك ما أجمعُ | أما لو أعني كلّ ما أسمعُ |
| لقليل: هو العالم المصقعُ | ولم أستفد غير ما قد جمعتُ |
| من العلم تسمعه تنزعُ | ولكنّ نفسي إلى كل شيء |
| ولا أنا من جمعه أشبعُ | فلا أنا أحفظ ما قد جمعتُ |
| وعلمي في الكتب مستودعُ | وأحضر بالجهل في موضع |
| فجمعي للكتب لا ينفعُ | إذا لم أكن واعياً حافظاً |
| يكنّ دهره الفهقري يرجعُ | ومن كان في علمه هكذا |

من قول العلماء: العلم ما عبر معك الوادي، وعمر بك النادي . بصّرنا الله وإياك
بمنافع العلوم، وجعل لنا منها أوفر حظ مقسوم، ولا سلك بنا سبيل الجهل المذموم،
فهو العزيز العليم، لا ربّ غيره .

فصل

في اجتناب الجهل وحامله

الجهل - حماك الله - رأس الفضائح، ومعدن القبائح، ومضمار العثار، ومعيار
السنار، وسبب الخمول، ودليل التخلف، وداعية المقت . إن نطق صاحبه تعرّض
للخزي والذم، وإن تصرّف صاحبه في حال سقط لليدين والقم . وهو دليل على غلظ
الطبع، وجمود الخاطر، وفساد التركيب، واعتلال الذهن، وكدر النفس، وخبث الطينة،
ونعوذ بالله من شرّ كل خليقة، ونسأله إرشاده وتوفيقه .

وقد عصم الله منه أنبياءه، وحذر منه أوليائه، فقال عزّ من قائل: ﴿ حُذِرِ الْعَفْوُ وَأُمِرَ
بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة الأعراف، الآية ١٩٩] ، وقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة الأنعام، من الآية ٣٥] ، وذمّ
الجاهل كثير في كتاب الله تعالى .

رُوي عن وهب بن الورد المكي أنه قال: لما قال الله عزّ وجلّ لنوح عليه السلام:
﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة مود، من الآية ٤٦] بكى ثلاث مئة سنة حتى
سقط جدول خديّه . ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: " إذا ردّ الله عبداً أحظر عليه
العلم " ، وقال عليه السلام: " لا فقر أشدّ من الجهل " .

وقال بعض العلماء: لا يملك ما ترى من إقبال النعمة على الجاهل على الرغبة
في الجهل، ولا إدبارها عن العالم على الرغبة عن العلم؛ فإن إقبالها على الجاهل اتفاق،
وإقبالها على العالم استحقاق، وليس مستحق النعمة ومستوجبها، كحاملها بغير
استحقاق . وقيل لبُزْجُمِهْر: ما أعجب الأشياء؟ قال: نجح الجاهل وإكداء العالم . وفي
مثل ذلك يقول محمود الباهلي:

لا تعجبنّ لجاهل نال الغنى من غير كدّه
ولعاقبٍ لا يتسبب فلعلّه يسعى بجَدّه

ومن أقوال العلماء: نعمة العالم تظهر دلائله وفوائده، ونعمة الجاهل تظهر عيوبه
وذنوبه . وقال رجل من الجهال لسقراط الحكيم: ما أشد فقرك! فقال له: يا ابن أخي،
لو علمت الفقر لأشغلك التوجع لنفسك عن التوجع لسقراط . وقال عبد الله بن
المعتز: نعمة الجاهل كروضة على مزبلة .

وكانت ملوك الفرس إذا غضبت على العالم وأرادت عقوبته حبسته مع الجاهل،
 وكانوا يقولون: أشد حوادث الدنيا عالم يجري عليه حكم الجاهل . وقال أكثم بن
 صَيْفِي: ويل للعالم من الجاهل . وقيل لعيسى عليه السلام: من أدبك؟ فقال: ما أدبني
 أحد، لكنني رأيت جهل الجاهل فجانبته . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:
 ولا تصحبُ أخا الجهلِ وإياك وإيأاهُ
 فكَم من جاهلٍ أَردى حلماً حين وإخاهُ

وقال أرسطاطاليس: العالم يعرف نقص الجاهل؛ لأنه قد كان جاهلاً، والجاهل لا
 يعرف فضل العالم؛ لأنه لم يك عالماً . ومن أمثال العلماء: من جهل شيئاً عاداه . وفي
 ذلك يقول ابن دريد:

جهلت فعاديت العلوم وأهلها كذاك يعاب العلم من هو جاهلُهُ

وقال بعض الحكماء: إذا جهل الجاهل وعلم أنه جاهل فهو مرحوم يستوجب
 الإقالة، وإذا جهل وظن أنه قد علم فهو مذموم وأثم جهالة .
 وقال الخليل بن أحمد: الرجال أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم
 فاسألوه، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك ناسٍ فذكروه، ورجل لا يدري
 ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فعلموه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري
 فذلك جاهل فاصرفوه . وقيل لبُزْرَجْمَهْر: ما لكم لا تعاقبون الجاهل؟ فقال: إنا لا
 نكلّف العُمي بأن يبصروا، ولا الصمّ بأن يسمعوا . ولما قال علي بن أبي طالب رضي
 الله عنه: قيمة كل امرئ ما يُحسِن، نظمته الخليل فقال:

لا يكون العليّ مثل الدنيّ لا ولا ذو الذكاء مثل الغبيّ
 قيمة المرء قدر ما يُحسِن المرء قضاء من العليم العليّ

ومن أمثال الحكماء: مَنْ صاحب العلماء وُقِّر، ومَنْ جالس الجهال حَقَّر . وفي
 بعض الحكم: مَنْ جالس الجهال، فليستعدَّ للقيْل والقال . وقيل: أشدَّ المصائب الإعراض
 من العالم، والاعتراض فيه للجاهل . وقال سقراط: ستة لا تفارقهم الكآبة: الحقود،
 الحسود، وحديث عهد بغنى، وغني يخشى الفقر، وطالب رتبة يصغر قدره عندها،
 يجالس لأهل العلم وليس منهم . وقال أرسطاطاليس: مَنْ لم يرفع قدر نفسه عن قدر
 لجاهل رفع الجاهل قدره عليه . وفي ذلك يقول صالح بن عبد القدوس:

وإن عناء أن تعلم جاهلاً فيحسب جهلاً أنه منك أعلمُ
 رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: "واضع العلم في غير أهله كمقلد الخنازير اللؤلؤ
 الجواهر والذهب"، وقال عيسى عليه السلام: لا تطرحوا الدرّ تحت أرجل الخنازير .
 عني العلم عند الجهال . وقال أيضاً عليه السلام: لا تنطقوا بالحكمة عند الجهال
 تظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم . وقال محمد بن إدريس الشافعي:

أنثر درّاً بين سارحة النعم وأنظم ياقوتاً لرعاية الغنم
 ومَنْ منح الجهال علماً أضاعه ومَنْ منع المستوجبين فقد ظلّم
 ومن أمثالهم في ذلك: تعليم الغبي شؤم، ومنع الذكي لؤم . وقال بعضهم: ما زال
 علم الجاهل يشقى ويقل علمه، ومعلم الذكي يرقى ويكثر فهمه . ومن منشور الحكم:
 من عُرف بالجهل فهو لكل قبيحة أهل . وقال أبو العباس الناشي:

وإذا بليتُ بجاهل متحاملٍ حسب المُحال من الأمور صوابا
 أوليته مني السكوت وربما كان السكوت عن القبيح جوابا
 وقال بعض العلماء: ما زال العاقل يشقى بعقله لحسن نظره وصحة تفكيره، وما
 ال الجاهل ينعم بجهله لقلّة نظره وعطول تفكره . وقال أرسطاطاليس: العاقل لا

يلازم شهوة الطمع لعلمه بزوالها، والجاهل يظن أنها خالدة فهو يتلذذ بها ويبقى عليها،
فهذا يشقى بعقله، وهذا ينعم بجهله . أخذه عبد الله بن المعتز^(١) فقال:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
وأخذه أيضًا أبو الطيب المنبي:

وحلاوة الدنيا لجاهلها ومرارة الدنيا لمن عقلا
وقال البحري:

أرى العلم بؤساً في المعيشة للفتى ولا عيش إلا ما حباك به الجهلُ
وقال محمد بن إدريس بن محمد الشافعي رحمه الله:

ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق
أنّ الذي رُزق اليسار فلم يُصب أجراً ولا حمداً لغير موفقي
وقال بعض الشعراء:

أرى الدهر من سوء التصرف مائلاً إلى كل ذي جهل كأنّ به جهلا
وقال الحارث بن حلزة:

وعش بجَدّ لا يضر ك النوك ما أعطيت جَدّاً
والنوك خير في ظلا ل العيش ممن عاش كدّاً

فصل

ومن الواجب على من عري من الأدب، وتخلّى من المعرفة، ولم يتحلّ بالعلم،
وتبرأ عن الفهم، أن يلزم الصمت ويأخذ به نفسه، فإن ذلك حظ كبير من أدب النفس،

(١) بل هو للمنتبي .

ونصيب وافر من التوفيق؛ لأنه لا يأمن من الغلط، ويعتصم من دواعي السقوط وربما ظن به الخير فسلم من المقت، فإن الصمت عليه سترٌ يخفي زلَّه، ويحجب عِلَّه، ويكتم خطله، فإذا نطق أظهر عاره، وأبدى عواره .

حُكي أن رجلاً كان يلزم مجلس الفقيه أبي يوسف فيطيل الصمت، فقال له أبو يوسف يوماً: ما لك لا تتكلم وتسال عما بدا لك؟ فقال: بلى أيها الفقيه إنني سائلك عن شيء . فقال: سل . قال: متى يفطر الصائم؟ قال: إذا غربت الشمس . قال: فإن لم تغرب الشمس إلى نصف الليل؟ فتبسّم أبو يوسف وتمثل بقول القائل:

وللصمتُ سترٌ للغبيِّ وإنما صحيفة لبّ المرء أن يتكلما

وقال هرمس: الجاهل صغير وإن كان كبيراً، والعالم كبير وإن كان صغيراً . وقال: غضب الجاهل في قوله، وغضب العالم في فعله . وقال بعضهم: صديق المرء عقله، وعدوّه جهله . وقال أرسطاطاليس: الجاهل عدوّ لنفسه، فكيف يكون صديقاً لغيره؟ وقال بعض حكماء الفلاسفة: العالم بين الجهال كالقائم على ساحل البحر ينظر إلى الناس كيف يتلفون بين أمواجه . ومن كلامهم: الجاهل بين العلماء كالميت بين الأحياء لا يلتفت مكانه، كما لا يعرف إحسانه . وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهله فأجسامهم قبل القبور قبورٌ
وإن امرءاً لم يُجِبه العلمُ ميتٌ وليس له حتى النشور نشورٌ

وقال بعض العلماء: العالم حيّ وإن كان ميتاً، قريب وإن كان بعيداً، بما خلد من العلم وأبقى من جميل الذكر، والجاهل ميت وإن كان حيّاً، بعيد وإن كان دانيّاً، بما استوجب من الذم واقتضى من القطيعة والهجران . وما أحسن قول بعض الشعراء في هذا المعنى:

يا أخا الجهل متّ قبل الأوانٍ وأدلت الرياح بالخسرانٍ
وتحجبت ذلّة وصغاراً وتباعدت والتزاور داني
وأخو العلم شاهدٌ وهو ميتٌ ناطقٌ بيننا بغير لسانٍ

حاضرٌ بيننا قريبٌ مجيبٌ وهو رهنُ الترابِ والأكفانِ
وقال بعض الأدباء: مطية الجهل تبطن وهي جامحة، ومطية العلم تسرع وهي
وادعة . ولقد استحسنتُ هذا المعنى فنظمته وقلتُ:

ما زال مَنْ كان طرف الجهل مركبه يبطي به فهو معقولٌ وإن جمحا
وراكب العلم يجري في أعتته فيقطع الأرض إسراعاً وما برحا
وقيل لبعض الحكماء: أي الزمان خير؟ قال: إذا كان العالم مرفوعاً، والجاهل
موضوعاً . قيل: فأبي الزمان شرٌّ؟ قال: إذا ساد الجهول، وصحب أهل المعرفة
الخمول . قيل: فأبي الناس خير؟ قال: الذي يعرف قدر نفسه . قيل: فأبهم شرٌّ؟ قال:
الذي جهل أمر دنياه . قيل: فبم نعرف صلاح دنيانا من فسادها والإحاطة بذلك لا
تمكن؟ قال: انظر إلى الملك فإن سرك إحسانه سرك زمانه، وإن ساءك مكانه ساءك
زمانه، فإن الله عز وجل خلقه على طبع زمانه، وما أسوأ زماننا: يسود فيه الجاهل،
ويكون هو المؤمل المجلي النبيه الذكر، الجليل القدر، ويكون أخو العلم هو المشنوء
المبعد المجفوف غير المودود، لا سيما إن قسط في حكمه، وابتغى وجه الله بعلمه، لا جرم
أنه المعرض للصفار، المعدول به عن سبق المشورة فيمن يستشار! لقد أصبح الناس من
مثله في عماية عميا، فلا يطيب لعاقل فيه المحيا، ولا يستفيق من نكد الدنيا . وما أحسن
قول الأَفَوْه الأَوْدِي^(١)، إذ يقول:

لا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لا سِراةَ لَهُمْ ولا سِراةَ إِذا جَهَّاهُمْ سادوا
وقال المُسْتَوْغِر^(٢):

وما سقطت يوماً من الناس أمةٌ إلى الذلِّ إلا أن يسود ذميمةُها

(١) م: الأزدي، والتصحيح من البصري، الحماسة البصرية، ج ٢، ص ٦٩، الذي أورد القصيدة.
(٢) م: المستوعر، والتصحيح من ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٢٤٨ . وهو أحد مُعَمَّرِي العرب،
واسمه عمرو بن ربيعة بن كعب، مات في صدر الإسلام.

فصل

وكفى بالجاهل تخلفاً أنه يهمل نفسه ولا يعرف من أين يستجلب النفع إليها، ويجكّم شهوته ولا يدري كيف يكون مآله منها، ولو علم فنظر إلى تصرف الأيام وتقلبها، وتمكّن الأشياء وترتبها، فما زالت ترجح عقول العلماء، وتهذب طبائع الأدباء، فإن من صحب الدنيا بالغفلة والتسويق، ولم يأخذ نفسه بالعسر والتعنيف، وقع في ظلمة الجهل، وظلمة الجهل لا يذهب بها إلا نور العلم الذي مُنعه، فأبي شقياً أشقى ممن لا ينظر الدنيا بعين فهمه، ويترك نفسه في غياهب إظلامه وظلمه! لقد غلب الرّين^(١) على قلبه، وطمس هواه نور عقله، فسلك بجهله أصعب المسالك، حتى وقع في غمرات المهالك، فهو كالطفل الذي يلتذ عند رمد عينه بعزّكها، ولا يمتنع من اللعب في مطالع الشمس ومواقع الغبار، ولا يدري أن ذلك مما يزيد في اعتلاله، ويبعد عن استبّلاله^(٢)، جهلاً بعلم ما ضرّه وما نفعه، فالجاهل أبداً شبيه بالبهائم المخدوعة بما ينصب لها في مصائدّها من الخدع، فتقع في حبال القانص بكثرة الشّره والطمع، فإذا حصلت فيه لم تنل ما خدعت به ولا قدرة على التخلّص مما نشبت فيه، فهلكت دون ما حسبت أنها تناله، فهو أبداً شقياً كيفما تصرّفت به أحواله، يخسر وهو يظن أنه يربح، ويشقى وهو يظن أنه يسعد، ويألم وهو يظن أنه يرتاح . وقال صالح بن عبد القدوس:

ما تَبْلُغُ الأعداءُ من جاهلٍ ما يبلِغُ الجاهلُ من نفسه
والشيخُ لا يتركُ أخلاقه حتى يُوارى في ثرى رَمْسِهِ

(١) الصدا الذي يعلو المعادن، ويفشى القلب، والأخير هو المقصود هنا . لسان العرب (رين) .

(٢) بَلُّ من مرضه: برأ منه . لسان العرب (بلل) .

إذا ارغوى عاد إلى غيِّه كذي الضنى عاد إلى نكسِه

ومن كلام سقراط: لأن أدع العلم جهلاً به أحب إليّ من أن أدعه زهداً فيه، وأن أترك جميع الخيرات أحبّ إليّ من أن أفعل شيئاً من الشرّ . وكان يقول: يا أسارى الجهل، فكّوا أسركم بالحكمة ! وقال بعض الحكماء: مَنْ أعزّ جاهلاً أدلّ نفسه، ومن أهانه أكرم نفسه، فإنه لا يقدر بجهله على التفرقة بين عزّه وذلّه . وفي مثله يقول:

إذا ما بدأت امرأة جاهلاً ببرّ فقصّر عن حمليه
ولم تليفه قابلاً للجميل ولا عرف العزّ من ذلّه
فسقّه الهوان فإن الهوان دواء لذي الجهل من جهله

ومن أقوال العلماء: مَنْ ائتمن الخائن كان كمن استرعى الذئب، ومن استشار الجاهل كان كمن ركب البحر هلك أو كاد . وقيل في منشور الحكم: الجهل موت الأحياء، والعلم حياة الموتى؛ لأنهم يُذكرون به في كل موطن . وقال عبد الله بن المعتز: لسان الجاهل مفتاح حتفه . وقال بعض الحكماء: عمى الجهل أشدّ من عمى العين؛ لأن الأعمى يتوقع أن يعثر فيما ارتفع من الأرض، أو يسقط فيما انخفض منها، والجاهل ربما عثر فيما لا يستقال منه، ووقع فيما لا يخرج عنه . وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

أدبُ المرء كلحم ودم ما حواه جسدٌ إلا صلح
لو وزنتم رجلاً ذا أدب بألوف من ذوي الجهل رجح
أعاذنا الله من الجهل الفادح، ولا جعلنا عرضةً لمثله القادح، وسلك بنا سبيل

السلف الصالح، وجنبنا الاغترار بزور المادح . وبالله سبحانه التوفيق.

الباب الثالث

في استصحاب الطاعة بكمالها ، واستجناب المعاصي ومآلها

الطاعة - وفق الله الجميع - باب جامع لأشتات العباد، ومنهاج واضح إلى محل السعادة، بها تُنال الخيرات، وتُجاب الدعوات، وتظهر من الله تعالى لأولياته الكرامات، وتُرفع لهم في دار المقامة الدرجات، وهي حق بيّن، وفرض متعين، أوجه الله -عزّ ذكره- على جميع العباد، ووعدهم عليه حسن الثواب في المعاد، هي الحرم الأوفى، والعروة الوثقى، والكهف الأحمى، والملاذ الأسمى، مَنْ تَمَسَّكَ بِحَبْلِهَا سَلِمَ، وَمَنْ لَجَأَ إِلَيْهَا غَنِمَ .

ومعنى الطاعة: القيام بفروض الله تعالى، والاجتناب لمحارم الله، والوقوف عند حدود الله . وقال مجاهد في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [سورة القصص، من الآية ٧٧] وهو أن يعمل العبد بطاعة الله . وبها بعث الله النبيين ﴿ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِقَلَّ يُكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [سورة النساء، من الآية ١٦٥] . وبالطاعة تعبّد الله عباده، وجعلها مرعاة إلى مراتب السعادة، وبها تُنال الحسنى وزيادة، وهي أسّ الدين، وأصل اليقين، وعمدة المتقين، وشعار عباد الله الصالحين، وجميع أعمال البرّ، وجملة دواعي الخير، ورأس الورع، وكمال الزهد، وملاذ أسباب التشريع .

وأصلها: العلم بالله، وحسن الطاعة لله، والخوف من الله، والرجاء في الله، والمراقبة لله، فإذا تجرّد العبد عن هذه الخصال، لم يدرك حقيقة الإيمان؛ لأنه لا تصحّ

الطاعة لله إلا بعد العلم بالله والإيمان بوجوده خالقًا عالمًا قادرًا من غير صفة يحيط بها علم، ولا يتصوّرها وهم، ولا يلحقها إدراك، وإنما معرفة يدركها العقل بمشاهدة الباطن، وكشف طرق الاستدلال، وتحقيق صحة الشواهد، مع الاستمداد من النور الإلهي، وهو نور الهداية الموضوع في القلب السالم من الآفات، الفارغ من الشهوات؛ لأن الناظر إذا نظر إلى انتظام هذا العالم في سلك التدبير، وتصرفه في حكم التقدير، علم أنه محدث، وكل محدث لا بد له من محدث وموجد بحكم العقل وصحة النظر .

قيل عن بعض الحكماء أنه قال: لا يعرف الله على حقيقة العلم به إلا أحد رجلين: عاقل قويّ النظر بطبعه، أو الفيلسوف المبرّز بعلمه، وما عداهما لا يعرف الله إلا تقليدًا؛ لأنهم لا يعرفون شيئًا موجودًا إلا مركبًا، والله سبحانه موجود غير مركب .

فهذا الوجود إنما يُدرك بالعقل المقتبس من نور الهداية، ثم لا يزال يقوى بناؤه، وتتأكد أنبأؤه بالرسول المبعوث بالآيات الصادقة، والدلائل الواضحة، والمعجزات الناطقة والصامتة، التي لا تصدر إلا عن قوة إلهية، وقدرة ملكوتية، ولا تنبغي لمخلوق على حال، وقد قال الجنيد رحمه الله: لا يعرف الله إلا الله . وقال أعرابي لمحمد بن علي بن الحسن رضي الله عنه: هل رأيت الله حين عبدته؟ قال: لم أكن أعبد من لم أراه! قال: كيف رأيت؟ قال: لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، لكن رأته القلوب بحقيقة الإيمان، لا يُدرك بالحواس، ولا يشبّه بالناس، معروف بالآيات، منعت بالعلامات، لا يجور في القضايا، ذلك الله لا إله إلا هو ربّ الأرض والسموات . فقال الأعرابي: الله أعلم حيث يجعل رسالاته . وقيل لذي النون وهو مريض: ما تشتهي؟ قال: أن أعرف ربيّ قبل موتي بلحظة . وروي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه دخل على ابن مسعود رحمه الله وهو مريض، فقال له: ما تشتهي؟ قال: ذنوبي . قال: فما تشتهي؟ قال: معرفة ربيّ .

وقال غير هؤلاء من أهل التجرد والتعمق: إني لا أعرف شيئاً إلا الله . وقال بعضهم: أغلقت عيني ثم فتحتها فلم أر شيئاً غير الله . وتعلق بقول رسول الله ﷺ في سجوده: "اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك"، فكأنه لم ير شيئاً غير الله تعالى وأفعاله فاستعاذ من فعله بفعله، وفرّ منه إليه، وأنه هو المثني والمثنى عليه، وأن الكل منه وبه وإليه، وإنه لكما قال .

غير أن هذه الأقوال ما أبعد مراميها، وأصعب مراقبها، وإن كان قد جمعها قوله سبحانه: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۗ ﴾ [سورة الحديد، من الآية ٢٣] ، لكنه بحرٌ لا يُخاض عبابه، ووَعْرٌ لا تُرتقى أسبابه، وقَفْرٌ لا يعمر بنيانه، محجوب عليه محجور، ممنوع طريقه محظور، فنحن إذا كنّا لا نعرف حقيقة أنفسنا مع استصحاب الحال وقد قالت عائشة، رضي الله عنها: يا رسول الله، متى يعرف الإنسان ربه؟ قال: "إذا عرف نفسه"، ولا نعرف حقيقة الموت مع المشاهدة، ولا نعرف ماهية الأفلاك والبروج، ونحن ننظر إليها ملء العيون، ولا نقدرّ حال الجنة والنار مع تواتر الأوصاف وترادف الأخبار، إلى غير ذلك من الأشياء -وهي كلها مخلوقاته - فكيف لنا بعرفان من ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير؟!

سُئل بعض العارفين عن علم الباطن، قال: هو سرّ من أسرار الله تعالى يقذفه في قلوب أحبائه، لم يُطلع عليه ملكاً ولا بشراً، ألا ترى قول رسول الله ﷺ: "المؤمن ينظر بنور الله؟" فإذا نظر بنور الله كان على بصيرة من أمر الله، فكان علمه طاعة وإيماناً وتصديقاً، ويقدر قرب الله عزّ وجلّ من العبد يكون علم العبد به .

واعلم أن العبد إذا كوشف بالمعرفة لم يصح له تقليد أحد من العلماء؛ لأن علم
المكاشفة يجلي القلوب، ومعرفة الأفعال الدالة على معاني الصفات هو نور الهداية
المخصوص به الأنبياء ومن اصطفى من الأولياء، ولا ينبغي لغيرهم؛ فإنها آيات الله
تعالى وعهوده لأهل مودته، وهو القائل، عزّ من قائل: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾
[سورة البقرة، من الآية 1٢٤]، وهذا من أقوى الدلائل على فضل علم المعرفة على سائر
علوم الشرع . وقال بعضهم: مَنْ لم يكن له نصيب من هذا العلم، يُخاف عليه سوء
الخاتمة، وأدنى النصيب منه التصديق به .

رُوي عن كعب الأحبار أنه قال: لو أن بني آدم بلغوا من اليقين مثقال حبة من
عظمة الله عزّ وجلّ لمشوا على الماء والريح .

وأما قول القائل: ما زلت أشرب ولا أروى، فلما عرفت الله رويت من غير شرب،
فلم يُرد بذلك إلا المعرفة التي أوجبتها الدلائل الظاهرة، وبيّتها النبوة الصادقة،
وعضدتها البراهين المعجزة، وقبلها العقل، ولقد وجدت في بعض الأقوال ما يشير إلى
هذا المعنى فقال: للأشياء الظاهرة حقائق خفية توجب اليقين بإحكام الصنعة وصحة
الشواهد، غير أنها تلزم القصور عن إدراك ذلك بالأفكار والأبصار جملة، وإنما يرتقى
إليها وهمًا لا تحقيقًا، وتبصرًا لا تعيينًا، فيجب للعاقل العالم أن يقتصر على هذا ويقف
عنده، فربما وقع الوهم على معدوم، والفكر على غير مفهوم .

وهذا حسن من القول، فسبحان الذي جعل الإقرار بالعجز عن إدراك معرفته
إيمانًا، كما جعل إقرار المنعم عليه بالعجز عن إدراك شكره شكرًا. وفي ذلك قال منصور بن
إسماعيل المصري: شكر الإله نعمة موجه لشكره، فكيف شكرُ برّه، وشكره من برّه .
وقال محمود الوراق:

إذا كان شكري نعمة الله نعمةً عليّ لها في مثلها يجب الشكرُ
فكيف بلوغُ الشكر إلا بفضلُه وإن طالَت الأيام وأتصل العمرُ
إذا مسَّ بالسَّراء عمَّ سرورها وإن مسَّ بالضراء أعقبها الأجرُ
وما منها إلا له فيه نعمة تضيق لها الأوهام والبرُّ والبحرُ

وسئل بعض العلماء عن القَدَر، فقال: ذلك علم اختصمت فيه الظنون، واختلف فيه المختلفون، والواجب علينا أن نترك ما أشكل من حكمه إلى ما سبق في علمه .
جعلنا الله من الذين يؤمنون بالغيب، وأعادنا من الشك والرَّيب، وعصمنا من كل دنيةٍ وعيب، فذلك بيده لا بأيدينا، وبفضل رحمته لا بتمنيانا .
ونرجع إلى ما كنا فيه:

فإن التعقّل في طرق المكاشفة غَرَر، وركوب بحرها خطر، وإذا اطّرد الكلام للإنسان، خجج^(١) في أعنة اللسان، ولم يؤمّن على القلم الطغيان؛ لأن الكلام إذا تقارب بعضه من بعض، تعلق مسنونه بالفرض، فاختلفت أجزاءه، واستوت أرضه وسماؤه، وما زال الجامع له الداخل فيه إذا تقاربت فنونه، وتقابلت عيونه، يرى تجميل مغانيه، أحسن من تفصيل مبانيه، والجمع بين أجزاءه، أزين من القطع قبل استيفائه، غير أن هذا لا يطرد في كثير من المعاني، ولا يصلح بالنبيل المعاني، فربما خرج عنان الكلام عن قبضة الماسك، فولج أضيّق المسالك، وأفضى به إلى المهالك، والله ولي الاعتصام، من زيغ الكلام، بعزّته .

(١) خَجَّت الریح فی هبوبها: اشتدت . لسان العرب (خجج).

فصل

فبقول - والله الموفق - : إذا ثبت العلم بالربوبية، تعيّن الإقرار بالعبودية، وإذا تقرر الإيمان في القلب، وجبت الطاعة للرب .

والإيمان نوعان: ظاهر وباطن، فالظاهر: النطق باللسان، والباطن: الاعتقاد بالقلب، والمؤمنون متباينون في منازل القرب، متفاوتون في درجات الطاعة، والإيمان جامع لهم بقدر حظ كل واحد منهم من الموهبة، وتمكّنه من علو المرتبة في الإخلاص لله، والتوكل على الله، والرضا بحكم الله .

فأما الإخلاص: فهو أن لا يطلب العبد بما يعمل من العمل المقروض والمسنون جزاءً من الخالق القادر، كإخلاص العبد الناصح لمولاه إذا علم أن خدمته إياه يقتضيها الحق، ويوجبها الشرع، وأنها قد تعيّن عليه بوجود الملك وحمل الكل، كما تعيّن على الجميع للخالق المعبود، فإن كانت رجاءً للمثوبة أو خوفًا من العقوبة فذلك العبد لا يكون كامل الإخلاص؛ فإنه لنفسه سعى . روي عن النبي ﷺ أنه قال: " لا يكون أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل، ولا كالأجير السوء إن لم يُعط أجرًا لم يعمل"، وكذلك مَنْ عبد الله عزّ وجلّ طمعًا في الجنة أو خوفًا من النار فليس بكامل الإخلاص؛ لأنه لنفسه سعى . وإنما تعيّن علينا عبادته، ووجبت فينا طاعته، بما سبق له من الفضل علينا، وتقدم له من الإحسان إلينا، فإنه - سبحانه - خَلَقْنَا من ماء مهين، وجعلنا نطفة في قرار مكين، ثم صَوَّرْنَا بحكمته، ونفخ فينا من روحه، ثم أخرجنا من ظلمات الأحشاء، إلى مباشرة الأنوار والضياء، واستنشاق أرواح الهواء، وجعل لنا السمع والأفتدة، وأهمننا إلى مصالحنا قبل تركيب العقل فينا . من الرضاع، وقبول

الغذاء، والشَّرَه إلى المنافع، والكرهية للمضار، ثم بصرنا عند تركيب العقل فينا باستجلاب المصالح، واستجناب القبائح، بعد أن مهَّد لنا الأرض، وفتق الأنهار، وأنبت الأشجار والثمار، وبسط أنواع الأرزاق، وبعث أسباب الانتفاع والاتفاق، وسخر لنا ما سخر من الحيوان، تميمًا لمواهب الإحسان، وجعل الليل والنهار، وزين السماء فوقها بكواكب الأنوار، لنهتدي بها في ظلمات البر والبحار، وبعث لنا الأنبياء مبشرين بنوابه، ومنذرين بعقابه؛ ﴿لَقَلَّأ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء، من الآية ١٦٥]، فأتى لنا بالقيام بشكر هذه النعم، وتأدية حقوق هذه المنن ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية ٣٤].

رُوي عن كعب الأخبار أنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن لله ملائكة قيامًا منذ خلقهم، ما حنوا أصلابهم، وآخرون ركوع ما أقاموا أصلابهم، وآخرون سجدوا ما رفعوا رؤوسهم، حتى ينفخ في الصور النفخة الآخرة فيقولون جميعًا: سبحانك وبحمدك ما عبدناك كنه ما ينبغي لنا أن نعبدك .

وأما التوكل: فهو الاعتماد على الله سبحانه عند الحاجة، والاستناد إليه مع الضرورة، والثقة به عند النازلة . وإذا كان المتوكِّل عليه ثقةً، كانت نفس المتوكِّل ساكنةً، وقلبه مطمئنًا، وجوارحه آمنةً، لأن الناظر إذا نظر وجد أكثر الناس متوكلين على غير الله تعالى، كتوكل الأبناء على الآباء، والزوجات على أزواجهن، والعبيد على الموالى، وأهل الأموال على أموالهم، وأرباب الصنائع على صنائعهم، والمتوكلون على الله عزَّ وجلَّ قد علموا أن ذلك كله بيد المقدر، وفي حكم الخالق المدبِّر، فصرفوا بهديه جميع

الأمر إليه، ولم يعتمدوا في حال من الأحوال إلا عليه ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [سورة الطلاق، من الآية ٣] .

وأما الرضا: فهو طيب النفس بما يجري به المقدر، وانشرح الصدور لما تتصرف به الدهور، وهو أفضل ما يصعد إلى السماء من صالح الأعمال، ويتقرب به العبد إلى الكبير المتعال .

وقال بعض العلماء: أقرب الناس إلى الله: أَرْضَاهُمْ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ؛ لأن الراضي لا يَتَمَنَّى فَوْقَ مَنَزَلَتِهِ، فَلَإِذَا حَسُنَ الظَّنُّ طِيبَ النَّفْسِ، قَرِيرَ الْعَيْنِ، هَنِيءَ الْعَيْشِ، لِأَنَّهُ لَا يَرَى جَمِيعَ مَا يَطْرَأُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَسَاءَةِ، وَمَا يَنْشَأُ لَدَيْهِ مِنَ الْمَكَارِهِ وَالْمَضَارِّ، كِلَاهِمَا نِعْمَةٌ كَامِلَةٌ وَمِنَّةٌ طَائِلَةٌ، فَإِنْ كَانَتْ مَسْرَّةً تَضَاعَفَ عَلَيْهَا حَمْدُهُ وَشُكْرُهُ، وَزَادَ مِنْ أَجْلِهَا عَمَلُهُ وَبِرَّهُ، وَإِنْ كَانَتْ مَسَاءَةً نَظَرَ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى لِلصَّابِرِينَ فِي الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ مِنْ جَزِيلِ الْأَجْرِ، وَوَعَدَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ وَالْبِرِّ، فَأَعَدَّهَا أَجَلَ ذَخِيرَةٍ اقْتَنَاهَا، وَأَطِيبَ ثَمَرَةَ يَعْدُ نَفْسَهُ بِجَنَاهَا . روى همام عن كعب الأحمار أنه قال: لا يستكمل المرء إيمانه حتى يرى البلاء رحمة، والفقر نعمة . ومن كلام بعض الحكماء: رُبَّ مَسْرَّةٍ هِيَ الدَّاءُ، وَمَرَضٌ هُوَ الشِّفَاءُ . وإلى هذا نظر قول المتنبي:

لعل عتبك محمود عواقبُهُ فربما صحّت الأجسام بالعِلَلِ
وقال البحرى:

وربما كان مكروه الأمور إلى محبوبها سبباً ما مثله سببُ
وقال غيره:

كم منة لا يستقلّ بشكرها لله في طيِّ الكارهه كامنهُ
وقال آخر:

كم مرًا حقّت بك المكارهُ خارَ لك اللهُ وأنت كارههُ

وقال بعضهم:

كـم نـعمـة مـطـويـة لـك بـيـن أـنـيـاب النـوائـب
ومـسـرّة قـد أـقـبـلـت مـن حـيـث تُـرـتـقـب المـصـائـب
فـاصـبـر عـلـى حـدـثـان دـهـم سـرك فـالـأمـور لـها عـواقـب
ولـكـل كـرب فـرـجـة ولـكـل خـالـصـة شـوائـب

وحسبنا قول الله عز وجل: ﴿ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [سورة النساء، من الآية ١٩] ، وقال رسول الله ﷺ: "اطلبوا ما عند الله، وآثروه على ما سواه، ولا تشاغلوا بما لم تؤمروا به عمًا وكلكم إليه، فإنه لا يُنال ما عند الله إلا بالطاعة لله، والله غني عن العالمين"، وقال عليه السلام: "السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله عز وجل"، وقال ﷺ: "من أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن، ومن عصى الله فقد نسي الله وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن"، وقال عليه السلام: "من نزع يده من طاعة الله لم يكن له يوم القيامة حجة" .

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: اتق الله بطاعته، وأطع الله بتقواه . وقال بعض العلماء: طاعة الله تجارة تجمع ربح الدنيا والآخرة . ومن كلام لقمان لابنه: يا بني اتخذ تقوى الله تجارة، تأتيك الأرباح من غير بضاعة، وليس بواجب على العبد أن يشتغل بالفضل إلا بعد أداء الفرض، فإنه لا يتخلص الربح للتاجر إلا بعد حصول رأس المال . وقال جعفر بن محمد: إنني لأملق أحيانًا فأتاجر الله بالصدقة فيربحني . وقال الحسن بن أبي الحسن البصري رحمه الله: إن الله عز وجل أمر بطاعته، وأعان عليها، ولم يجعل في تركها عذرًا، ونهى عن معصيته، وأغنى عنها، ولم يجعل في ركوبها حجة . وهو من قول

عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما أمر بشيء إلا أعان عليه، ولا نهي عن شيء إلا أغنى عنه . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيضاً: الناس طالبان^(١): فطالب يطلب الدنيا فافرضوها في نحره، فربما أدرك ما طلب فهلك بها أصاب، وطالب يطلب الآخرة، فإذا رأيت طالب الآخرة فنافسوه .

رُوي أن الإسكندر مرّ بمدينة قد تملكها سبعة أملاك وباد جميعهم، فقال: هل بقي من نسلهم أحد؟ فقالوا: نعم، رجل يسكن المقابر . فدعا به، فأتاه، فقال له: ما دعاك إلى لزوم المقابر؟ قال: أردت أن أميز عظام الملوك من عظام العبيد فوجدتها سواء . فقال له: هل لك أن تتبني فأحبي شرفك وشرف آبائك ان كانت لك همّة؟ قال: همتي عظيمة . قال: وما هي؟ قال: حياة لا موت معها، وشباب لا هرم بعده، وغنى لا فقر معه، وصحة من غير سقم، وسرور من غير مكروه . قال: هذا ما لا تجده عندي . قال: فدعني أطلبه ممن هو عنده . فقال الإسكندر: ما رأيت رجلاً أحكم من هذا . وخرج من عنده، فلم يزل في المقابر حتى مات، رحمة الله عليه .

فجل

ولن يستكمل العبد طاعة ربّه إلا برفض الدنيا وترك التشبّث بأحوالها، والانتباز من جميع علائقها، فكلما بعد عنها تقرب إلى الله عزّ وجلّ، وتخلّص من الأدناس، وسما إلى الملكوت، وحسبك من الدنيا أن ظالمها لا ينزجر، ومظلومها لا ينتصر .

وقال بطليموس: إذا اعتلّ الجسد لم ينفعه طعام ولا شراب، وكذلك القلب إذا علقه حبّ الدنيا لم تنفعه الموعظة . وفي بعض الحكم: أبلغ المواعظ ما لم يحجبها عن القلب حاجب . وهذه الحجب إنما هي عوارض الدنيا . ومن كلام بعض الصوفية: الدنيا ساعة فاجعلها طاعة . أخذه الفقيه الحافظ أبو الوليد الباجي، فقال في نظمه، الذي رصّع به تاج علمه وحكمه:

(١) م: طالبين .

إذا كنتُ أعلمُ علمًا يقينًا بأن جميع حياتي كساعة
فليم لا أكون ضنيناً بها وأجعلها في صلاح وطاعة
وقال رجل لرسول الله ﷺ: إني أكره الموت . قال: "ألك مال؟" قال: نعم . قال:
"قدّم مالك فإن قلب المرء عند ماله" . وقال عيسى عليه السلام: قلب كل امرئ حيث
كسبه، فاجعلوا كسبكم في السماء تكون قلوبكم في السماء . وأتاه عليه السلام رجل
من الأغنياء فقال له: يا رسول الله، إني أقوم بالفرض كلّهُ، فهل بقي عليّ شيء؟ فقال له:
قيامك بالفرض كلّهُ حسن، ولكن إن كنت تريد بلوغ الغاية فتصدّق بجميع مالك
واتبعني يا هذا! وقال بعض الصالحين لرجل من أصحابه: إن بقاءك إلى فناء، وإن فناءك
إلى بقاء، فخذ من فنائك الذي لا يبقى لبنائك الذي لا يفنى . وهذا كلام بليغ . وقال
عامر العدواني: تركك لمنزل أنت عنه زائل، أحسن من الغفلة عن منزل أنت إليه راحل .
وقيل لبعض الحكماء: ما لذّة النفوس؟ قال: مطالعة نسيم الحياة الدائمة التي تطمئن إليها
القلوب، وترتاح إليها النفوس، والوصول ببصائر العقول إلى حقائق الغيوب، والمعاناة
بعيون الأفكار إلى سرائر الأسرار . روي عن عيسى عليه السلام أنه قال: البرّ في ثلاثة: في
النطق، والنظر، والصمت، فمن كان منطقه في غير ذكر الله فقد لغا، ومن كان نظره في غير
اعتبار فقد سها، ومن كان صمته في غير فكر فقد لها .

فصل

وترك الدنيا والامتداد منها إنما يكون باطراح الفكرة في أحوالها، وترك التمني
بلذاتها؛ فإن الفكرة تبعث الإرادة لتعلق النفس بالفكرة واشتغالها بما تخيله وتسببه،
وتهافتها بما ترد منه وتجنبه، كما أن الفكرة فيما يقرب من الله عزّ وجلّ والاشتغال في
الملكوث يورث النفس التعلق بالنعيم الدائم، والجنوح إلى السرور الخالد؛ لأن المرء

كالباذر، إن شاء زرع طيبًا، وإن شاء زرع خبيثًا . والجوارح كلّها جند النفس، وهي تابعة لها متعلقة بها، فإذا تخيلت النفس ما تخيلت من حسن أو قبيح هجس في الخاطر، حصلت فيه الفكرة، ووقعت الإرادة، فإذا وقعت الإرادة قويت الشهوة، وتحركت الجوارح، فاحتاج صاحبها هناك إلى المكابدة، ولجأ إلى المجاهدة، هذا إذا كان ناظرًا في العواقب جانحًا إلى علوّ المراتب، وإلا أرسلها عند ذلك على شهواتها، ومكّنّها - حينئذ - من لذاتها، فكلما مكّنّها من شهوة تاقت إلى غيرها، وكلما نالت شهى لذة شرهت إلى سواها، فكان كما قال الشاعر:

إذا المرء أعطى نفسه كل شهوة ولم ينهها تاقت إلى كلّ باطلٍ
وساقت إليه الإثمَ والعارَ بالذي^(١) دعته إليه من حلاوةٍ عاجلٍ

فجعل

وأحوال الدنيا متعلقة بأحوال الدين في المراتب، ألا ترى إلى أن الملوك أرفع من الأمراء، والأمراء أرفع من العمال، والعمال أرفع من السوقة، والسوقة أرفع من العبيد؟ إلى ما بين ذلك من الدرجات، فمن الحق أن يسعى الإنسان إلى نيل المرتبة العليا، كما قال بعض الشعراء:

وما سمّي الإنسانُ إلا لأنسه ولا القلبُ إلا أنه يتقلّبُ
ومن أشدّ ما يجب على الإنسان أن يحذره، وأعظم ما يتعين عليه أن يتوقاه: إرسال النظرة؛ فإنها سهم صائب، وسلطان غائب، وهي حاسة سريعة الذنوب، تدرك حينها البعيد والقريب .

رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: "يا علي لا تتبع النظرة النظرة؛ فإن الأولى لك والثانية عليك" .

(١) م: للذي . والتصحيح من ياقوت، معجم الأديباء، ج ٣، ص ١٩٦ . والبيتان للبارع البغدادي (ت ٥٢٤هـ) .

وفي هذا الحديث تأويلان: أحدهما: لا تتبع النظرة التي هي من غير قصد نظرة عن قصد . والثاني: لا تتبع نظرة العين نظرة القلب . وهو الأحسن؛ لأن علياً رضي الله عنه أجل من أن ينظر عن قصد .

وقال رسول الله ﷺ: "النظرة سهم مسموم من سهام الشيطان فمن تركها مخافة الله تعالى أعقبه عليها إيماناً يجد طعمه في قلبه" . وقال ابن سيرين: إياك وفضول النظر، فإنها تؤدي إلى فضول الشهوة . وقال بقراط لبعض تلاميذه، وقد رآه يطيل النظر إلى وجه امرأة حسناء: لم تنظر إليها؟ قال: أتأمل حسن الصنعة وكمال الخلقة . قال: اقلبْ ظاهرها باطناً، وباطنها ظاهراً يستبين لك قبورها . وقال غيره، وقد نظر إلى جارية حسناء قد خرجت في يوم عيد والعيون ناظرة إليها: لم تخرج هذه لحاجة، إنما خرجت لترى .

وإن كان الإنسان واثقاً بنفسه مالكاً لرأيه، فأراد بزعمه أن ينظر إلى مجلس الصور اعتباراً بإحكام الصنعة، وجمال الخلقة، وحسن الهيئة، وقدرة الله سبحانه في أحكام تدبيره، وإتقان تصويره في صيغة القدود، وصبغة الخدود، ورونق الحسن، ولطف الحركات، ولدونة الأعضاء فإن النفس في جبلتها التعلق بذلك كله والاستحسان له، والشغاف به، والجوارح منقادة للنفس بالطبع المركب فيها، فيقع فيما ذكرناه من مجاهدة النفس ومكابدة الهوى، فيشغله ما يقع فيه عن ارتياد ما يعنيه، ويقصر به عن طلب منافع ومساغيه، فقطع الذرائع من كل جانب، أوجب على المؤمن من كل واجب، وليحذر نزغ الشيطان من هذا الباب، ويجتنبه غاية الاجتناب، فإنه يعدُّه الصبر من نفسه، والملك لشهوته وإزبه، حتى يفرقه في بحر الفتنة، ويعلقه بحبال المحنة، فلا يقوم اعتباره بما يوقعه فيه اغتراره . وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: العيون مصائد الشيطان . فالعين أنفذ الجوارح سرعة، وأشدّها صرعة، فمن أتبع جوارحه نفسه في طاعة ربّه، فقد وصل أمله، ومن اتبع نفسه في نيل لذته فقد أحبط عمله . ومما قلتُ في هذا المعنى:

إذا ما صفت نفس المرید لطاعة ولما تشبها للمعاصي شوائبُ
 وأتبعها فعل الجوارح كلها فتلك عليه أنعم ومواهبُ
 تلقتسه في دار الخلود كرامة إذا جب للعاصي سنم وغاربُ

فصل

ومن الواجب على الإنسان أن لا يجسر على نفسه بالعنف عليها، ولا يضادها بالقهر لها، وأن يأخذها أولاً بالمنع عن يسير الشهوة، والكف عن قليل الهوى، مما لا ترى النفس في تركه كبير صعوبة، ولا تنال بالامتناع منه شديد مشقة، ثم لا يزال ينقلها من حال إلى حال أقوى منه، ويرفعها من درجة إلى أعلاها، كما يفعل الطبيب الماهر في تدريج العليل بتلطيف المعانة، وبحسن المداواة، حتى يزيل العرض المحدث للعلة، وهو حب الدنيا، فإذا أزاله قوي بعد ذلك على قلع العلة، ووجدها متآتية الزوال بزوال الدواعي المولدة لها، الباعثة عليها، فبطل الغي، ونجح السعي . وفي مثل ذلك يقول سابق البربري^(١):

إذا زجرت لجوجاً^(٢) زدته علقاً ولجت النفس منه في تماديها
 فعذ عليه إذا ما نفسه جمحت باللين منك فإن اللين يثنيها

وقال عبد الله بن المبارك: أصل الإيمان التصديق بما جاءت به الرسل؛ فمن صدق القرآن خرج إلى العمل به، ونجا من الخلود في النار، ومن اجتنب المحارم خرج إلى التوبة، ومن أخذ القوات من جلّه خرج إلى الورع، ومن أدى الفرائض صحّ إسلامه،

(١) سابق بن عبدالله البربري، شاعر من الزهاد . له كلام في الحكمة . كان يفد على عمر بن عبد العزيز، فيسمع شعره ومواعظه . توفي نحو سنة ١٠٠ هـ . الصفدي، الوافي، ج ١٥، ص ٦٩ .
 (٢) م: لخر . والأرجح ما أثبت .

وَمَنْ صدق لسانه سلم من التبعات، وَمَنْ ردّ المظالم نجا من القصاص، وَمَنْ أتى بالسنن زكت أعماله، وَمَنْ أخلص لله قُبل عمله .

ومن كلام بعض الحكماء: الطاعة أحسن معادل السلامة وأرفع منازل الكرامة . وقال بطليموس: النية أساس العمل، والطاعة يقين الأجل . وقال أيضاً: كلما قاربت أجلاً فازددت عملاً . وقال أيضاً: ما آتس مثوى المطيع لله، وما أوطأ راحلة الوائق بالله ! وقيل: إنه كان يجلس إلى سفیان الثوري فتى كثير الإطراق، طويل الفكرة، فأراد سفیان أن يختبره، فقال له: يا فتى، إن مَنْ كان قبلنا مرّوا على خيل عتاق وبقينا على حمير دبّرة . فقال: يا أبا عبد الله، إن كنتا على الطريق فما أسرع لحاقنا بهم .

وقال بعضهم: تلتقّ النعمة من الله بثلاث: كثرة الشكر، ولزوم الطاعة، واجتناب المعصية . وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام كانت الريح تسير به، وكان عليه ثوب جديد فأعجبه، فوضعت الريح، فقال لها: لم فعلت ما لم أمرك به . فقالت الريح: إنها نطيعك ما أطعت الله . وقال أبو سليمان الداراني: ليس العجب ممن لم يجد لذة الطاعة، إنها العجب ممن وجد لذتها ثم صبر عنها كيف يصبر . وقال إبراهيم بن أدهم: لأن أدخل النار وقد أطعت الله، أحبّ إليّ من أن أدخل الجنة وقد عصيته .

وهذا نحو ما تقدم من الكلام في الإخلاص الذي لا يراد به جزاء، وإنما يعنى لحق الربوبية ووجوب العبودية .

وعن بعض السلف: إن الله تعالى خبياً ثلاثاً في ثلاث: خبياً رضاه في طاعته، فلا تحقروا شيئاً منها، وخبياً غضبه في معصيته، فلا تحقروا شيئاً منها فربما كان فيه غضبه، وخبياً ولايته في عباده، فلا تحقروا أحداً لعله من أولياء الله عزّ وجلّ . وقال ابن مهران: إني وجدت أكثر الناس إكراماً لنفسه وأعظمهم إعزازاً لها أشدهم إذلالاً لها في طاعة الله تعالى .

فصل

وقد جعل الله الدنيا سبباً لإدراك الآخرة، رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "نعم المطية الدنيا، فارتحلوها تبلِّغكم الآخرة"، أخذه محمود الوراق فقال:

مِنْ شَرَفِ الدُّنْيَا وَمِنْ فَضْلِهَا أَنْ يَهْمَ تُسْتَدْرِكُ الْآخِرَهُ

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها . مهبط وحي الله، ومصلى ملائكته، ومسجد أنبيائه، ومتجر أوليائه، ربحوا فيها الرحمة، واكتسبوا فيها الجنة، فمن ذا الذي يذمها وقد آذنت بيئتها، ونادت بفراقها، وشبهت بسرورها السرور، وببلائها البلاء ترغيباً وترهيباً! فيا أيها الذئم للدنيا المعلل نفسه متى خدعتك الدنيا وقد وعظتكم بمصارع آبائكم في السبلى، ومضاجع أمهاتكم في الثرى! كم مُرّضت يديك، وعللت بكفيك، تطلب لها الدواء، وتستوصف لها الأطباء! غداً لا يغني عنك دواؤك، ولا ينفعك بكاؤك .

وقال بعض الحكماء: خذ من الدنيا ما تيسر، واجعل التقوى حظك الأوفر .

وليس الحرج من أن ينصرف الإنسان في طلب حظه من الدنيا مما لا بدّ له منه ولا غنى له عنه، وقد قال مجاهد في قول الله عزّ وجلّ لنبيه ﷺ: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ [سورة الشرح، الآية ٧ إلى ٨] أي: إذا فرغت من مؤونة الدنيا، فانصب في العبادة . وإنما الحرج في الرغبة فيما تجاوز قدر الحاجة، وزاد على قدر الكفاية، فإنها فضول لا تجدي، وزوائد لا تنفع ولا تغني .

ولا يحمل منع المرء عن اشتغاله بها والنظر فيها على التقصير عما فيه الفائدة، والتأخر عما فيه العائدة، والله - عزّ ذكره - قد خلق ابن آدم وجعله مفتقراً إلى غيره، ولم يغنه عن الاستعانة بسواه من جنسه ومن غير جنسه من الحيوان المسخّر له، ولولا ذلك

ما تم له أمر، ولا استقام له عمل، بخلاف سائر الحيوان فإن الله -تعالى- قد جعل كل صنف منه مستقلاً بنفسه، مستغنياً بذاته عن غيره، لسقوط التكليف عنه . وابن آدم على شرفه وعظمه أكثر الخلق حاجة إلى غيره؛ لأنه المكلف بالنظر في المطعم والمشرب والملبس الذي غني عنه غيره من الحيوان، فهو لا ينال شيئاً من ذلك إلا بعد الجهد والنَّصَب، وحمل المشقة والتعب، وما كبر شأنه وعظم حاله كان أكثر مؤونة وأحوج إلى المعونة، فسبحان المدبّر لخلقهم كيف يشاء، الغني عنهم في جميع الأشياء، لا ربّ سواه .

وقال بعض العلماء: إن الله جلّ ذكره جعل الدنيا دار بلوى، والآخرة دار عقبي، وجعل بلوى الدنيا سبباً لثواب الآخرة، وثواب الآخرة عوضاً من الدنيا، يأخذ ما يأخذ مما يعطي، ويتلى إذا ابتلى ليجزي .

وروى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال في بعض خطبه: "أيها الناس، إن لكم نهاية فانتهاوا إلى نهايتكم، وإن لكم معالم فانتهاوا إلى معالمكم، وإن المؤمن بين مخافتين: أجل مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وأجل قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه، فليتزود العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الحياة قبل الموت، فإن الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة، فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت مستعتب، ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار" . ورُوي عن أبي الدرداء أنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله أوصني . قال له: "اكتسب طيباً، واعمل صالحاً، وسل الله رزق يوم ليوم، وعدّ نفسك من الموتى" . وحكى الأصمعي قال: سمعت أعرابياً يقول: الله مخلف ما أتلف الناس، والدهر متلف ما أخلفوا، فكم من مئة علّتها طلب الحياة، وحياة سببها طلب الوفاة . كما قال بعض الشعراء:

وكم من فتى أهدت له حتف أنفه مفاجأة السراء وهي حياتها
كذاك الحيا نفع البلاد وربها أضربها حتى يموت نباتها

فصل

وللطاعة - وفق الله الجميع - شروط، هي لبنانها قواعد، وعلى القيام بها شواهد، منها: ترك الإعجاب بالعمل، فإنه من أعظم الآفات، وأحبط للأعمال الصالحات، فإن المعجب بعمله ممتنّ على الله، وما يدرّبه أقبل أم ردّ عليه .

وقد قيل لرابعة العدوية: هل عملت قطّ عملاً ترينه قبل منك؟ قالت: إن كان فخوفي أن يرّد علي . وقال بعض الصالحين: رُبّ ضاحك معترف بذنبه خير من بالِك ممتنّ على ربّه .

ولا محالة أن المقصّر المتوكل على الرحمة خير من العامل المتوكل على عمله، الواثق بما أسلف من عبادته، فإنه فيما يزعم أنه آمن، والأمن غير خائف، ومَن لم يخف لم يأخذ بحظه من الطاعة، ومن وثق بما أسلف من عمله ربما قصر فيما بقي من أجله .

وروي عن معروف العجلي أنه قال: لأنّ أبيتُ نائماً وأصبح نادماً، أحبّ إليّ من أن أبيت قائماً وأصبح نائماً . ومن كلام بعض السلف: نائمٌ مقرّ بذنبه خيرٌ من مصلٍّ مُدللٍ على ربّه . ومن الحكم المثورة: مَنْ لم يشغله الخوف عن الرجاء، شغله الرجاء عن الخوف .

فصل

ومن شروطها: المبادرة والتعجيل بها، وترك مواقعة التسوية لها من غير عذر مانع، ولا سبب قاطع، إذا صحّت النية، وكانت الطاعة من الأمنية، فإن الأعذار تخرج عن حكم التقصير، والشرع يسقط ما يدخل تحت العجز .

وقد قال رسول الله ﷺ: "ما من عامل كان يعمل عملاً فيقطعه عن ذلك العمل مرضاً إلا وكل الله به ملكاً يكتب له ثواب عمله".

وأما مَنْ كان يقصر طمعاً في العفو عنه وتسويفه رجاءً في استدراك ما فات منه فهذا ظاهر الجهل، ضعيف العقل، مخدوع بالظن، وكان الحذر والحزم أولى به لو عقل .
وروي عن رسول الله ﷺ أنه كتب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "أما بعد، فإن الإنسان يسره إدراك ما لم يكن يفوته، ويسوءه فوت ما لم يكن يدركه، فلا تكن بما نلت من دنياك فرحاً، ولا بما فاتك منها ترحاً، ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويؤخر التوبة بطول الأمل".

ومن كلام الحسن بن أبي الحسن: ما أظال عبداً الأمل إلا أساء العمل . وقال غيره: مَنْ كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ .
وفي منشور الحكم: الإمهال رائد الإهمال .

فصل

ومن شروطها: ترك الرياء بها .

وقد قيل في قول الله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [سورة الزمر، من الآية ٤٧] قيل: عملوا أعمالاً كانوا يرونها في الدنيا من الحسنات فبدت لهم يوم القيامة من السيئات . وكان بعض السلف إذا قرأ هذه الآية قال: ويل لأهل الرياء .
وقيل أيضاً في قوله تعالى ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [سورة الكهف، من الآية ١١٠] أي: لا رياء ولا نخافت بها حياة . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لا تعمل شيئاً من الخير رياءً، ولا تتركه حياة .

فصل

ومن شروطها: المراقبة. قال الحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله: المراقبة أصل الطاعة . وإنه لكما قال، لأن علم المرء بأن الله - سبحانه - معه حيث حلّ وارتحل، مشاهد لما غاب وحضر، مطلع على ما أعلن وأسرّ، كما قال جلّ ذكره: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [سورة الحديد، من الآية ٤]: هو الذي ألزمه المراقبة والخوف، فإن طاعة من يخافه ومراقبته واجبة، فهما خصلتان منتظمتان لا انفصال بينهما، وإذا عمّ الخوف القلب، وتمكنت المراقبة من النفس، وأيقن الثواب والعقاب، وجبت الطاعة، وتلك حقيقة الإيمان . وإذا كان العامل خائفًا أن يرده عليه عمله الصالح فهو - لا محالة - من المعصية أخوف، وهي أرحية الصديقين، وما أحسن قول يحيى بن معاذ: مسكين ابن

آدم جسم معيب وقلب معيب، ويريد أن يخرج من معيين عملاً لا عيب فيه!

رُوي في بعض الأخبار أن امرأة من الأعراب وقفت على جماعة فقالت لهم: يا أبا الكرم؟ يرحمكم الله . قالوا: بذل المعروف والإيثار على النفس . قالت: هذا في الدنيا، فما هو في الدين؟ قالوا: طاعة الله سبحانه، وبذل المجهود في عبادته، واجتناب محارمه، والوقوف عند حدوده طيبة بذلك نفوسنا . قالت: أفتريدون بذلك جزاء؟ قالوا: نعم . قالت: ولم؟ قالوا: لأن الله وعدنا بالحسنة عشر أمثالها . قالت: سبحان الله! فإذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشرة فأين الكرم؟ قالوا: فما هو يرحمك الله . قالت: هو أن يُعبد الله تعالى حق عبادته لا يُراد على ذلك جزاء، يفعل بكم مولاكم ما يشاء، ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم منها أنكم تريدون شيئاً بشيء؟!!

وهذا من نحو ما قدّمناه من الإخلاص .

ورُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: مَنْ جمع ستّ خصال لم يدع للجنة مطلبًا، ولا عن النار مهربًا: من عرف الله فأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحق فاتّبعه، وعرف الباطل فاتّقاءه، وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها . وما أقلّ جامع هذه^(١) الخصال!

فجّل

وأَسباب الطاعة لا تعدّ، ودواعيها لا تُحصَر، ومقاماتها لا تُحصَى، وأحوالها لا يبلغها الاستقصاء، أولها: صفاء القلب من الأكدار والشوائب، وخلصه من الآفات والنوائب، ثم حفظ جميع الجوارح من جميع المناهي والمثالب . وهي أيضًا لا تعدّ كثرة؛ لأن الجوارح تتعلق بكل واحد منها دواعٍ جمّة كالعين وما يتعلق بها، وهي أشدّ الجوارح، وقد تقدّم الكلام فيها، واللسان وما يجب أن يتحاماه من الغيبة والكذب والرفث والأيمان والنميمة وما أشبه ذلك، والأذن وما يجب أن تمتنعه من سماع الفواحش وضروب المناكر وأنواع الملاحى وما يتعلق بذلك، وكذلك جميع جوارح الإنسان، لا يحيط بإحصاء علقها اللسان، فكيف أن يخطها البنان؟ ولا يجل للمطيع أن يستعملها في شيء مما نهي عنه، ولا يقصر بها عن شيء مما أمر به، فإذا تم له حفظها - وما أخاله - احتاج إلى التحفّظ من إبليس - لعنه الله - ومكائده ووسواسه ومراصده، وهي أيضًا مما لا تحصى، ثم يحتاج إلى مخالفة النفس الأتارة بالسوء المسوّلة

(١) في م: مكررة .

للباطل في جميع ما تدعو إليه الشهوات، وتحببه من اللذات على كثرة أنواعها، وتخالّف فنونها، وكل ذلك إذا نظر إليه المرید وجده فرضاً لازماً متعيّناً واجباً، فما أخاله أن يتخلص من هذه الدواعي وتسلم نفسه من هذه الدواهي، هيهات لا يتم له ذلك إلا مع العزلة والانقطاع عن الناس جملة، فإن القدرة تضعف عن استيفاء ذلك كله، والاستطاعة لا تحمل بعض كله، فما لنا سوى التوكل على الرحمة التي سبقت الغضب ووسعت كل شيء، فإليها الملجأ، وهي المؤمل، وفيها الرغبة، وبها الاستمسك، وعليها المعول .

رُوي أنه حضر مجلس ابن العباس رجلٌ من الأعراب فسمع قارئاً يقرأ ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [سورة آل عمران، من الآية ١٠٣] فقال الرجل: والله ما أنقذهم منها وهو يريد رجوعهم إليها! فقال ابن عباس رضي الله عنه: خذوها من غير حكيمة .

فنحن نرجوا الرحمة من فضل الله عزّ وجلّ، ونسأله الصديق في القلوب والعمل، فهو المستعان، ومنه الهداية، وعليه التكلان، لا ربّ غيره . والله درّ القائل حيث يقول:

| | |
|---------------------------|-------------------------|
| أنت أهمت من أصاب الصوابا | أنت وفقت من إليك أنابا |
| أنت فتّحت في قلوب المرديد | من لهم من بصائر أبوابا |
| أنت عرّفتهم كنوز المعاني | فمضوا يبحثون فيها طلبا |
| أنت حيّيت ما تحبُّ إليهم | ثم أعطيتهم عليه الثوابا |

وقال بعض الصالحين لابنه: يا بني، نفسك مسترهنّة بأعمالك، والآمال مقربة لأجالك، فاشتر نفسك ما دامت السوق قائمة، والثلثن موجوداً، والريح مضموناً، ولا

تسوّفها لوقت تكون السوق فيه كاسدة، والآمال منقطعة متباعدة، ولا سبيل إلى استدراكها وقد حيل بينك وبين الثمن، وهو العمل . وما أحسن قول القائل حيث يقول:

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصدًا ندمت على التفريط في زمن البذر^(١)

فالويل كل الويل لمن قرط حتى تورط، وآثر الإمهال حتى صار في حيز الإهمال، ثم هجم عليه مفرق الأحاب، فحينئذ تنقطع منه الأسباب، ويسدّ دونه طريق الإياب، ويندم حيث لا يتفعه الندم حين تأخر ولم يتقدّم، فالنجاة النجاة قبل حلول الوفاة، والعجل العجل قبل هجوم الأجل، وما التوفيق إلا بالله . وانظر إلى قول بعض الشعراء حيث يقول:

قلت للنفس إن أردت رجوعاً فارجعي قبل أن يسدّ الطريقُ

فصل

وللعمل بالطاعة وجوه افرق فيها أهل الإرادة، فانفرق كلّ فريق^(٢) منهم بحظّه الذي وقّعه الله إليه، وطبّعه عليه، فمنهم من عبد الله جلّ جلاله على الإكبار والإعظام، ولمّا هو له أهل من الإجلال والإكرام، فشغلهم في عظمة الله وكبريائه وقدرته واعتلائه أن يسألوه الجنة ويستجروا به من النار، ورأوا أن الذي استوجبه من العبادة واستحقّه من الطاعة قليل لعظم سلطانه، وعلوّ شأنه، فملا ذلك قلوبهم وحشاً صدورهم، فلا شيء أحب اليهم من التواضع لعظمة الله، وله فيهم بعد ذلك كرم المنعم المتفضل، المحسن المتجمل .

(١) م: البدر .

(٢) م: فرق .

أتى الخبر عن موسى عليه السلام أنه لما كلمه الله تعالى أنس بالقرب، واغبط بالمشاهدة، وانبسط بالقول، فقال: يا ربّ، لي ما ليس لك . قال: وما هو؟ قال: لي مثلك وليس لك مثل نفسك . قال: صدقت .

ومنهم من عبّده رغبةً في ثوابه، وحرصاً على التنعم بجواره واقترابه، وشوقاً إلى ما أعدّ الله عزّ وجلّ في جنّته لأهل طاعته، من برّه وكرامته، حيث النعيم الذي لا يدركه اللسان، ولا يبلغه البيان، فعملوا على المجازاة والمقارضة، وأجهدوا أنفسهم وأتعبوا جوارحهم، وواصلوا العمل لنيل ذلك الأمل، والفوز بالحظّ الجسيم، من ذلك النعيم المقيم .

ومنهم من عبّد الله خوفاً من سخطه وعقابه، وفرقاً من سطوته وعقابه، ووعوا وصف ما أعدّ الله في جهنم - أعاذنا الله منها - من السلاسل والأغلال، وما احتوت عليه من أليم العذاب الخالد والنكّال، فملأت قلوبهم الرهبة، وتملكتهم الهيبة، وخامرهم الخوف والجزع، وداخلهم الرعب والهلع، فلم يتخيلوا الثواب، ورأوا الخلاص - إن وصلوا إليه وفازوا به - من أحسن العواقب والمآب، والنجاة - إن نجوا - أجلّ ما يُرتجى من الأسباب، فشغلهم الخوف عن الرجاء، ولم يتخيلوا الرجاء من شدة الخوف .

ومنهم من عبّد الله سبحانه حياةً منه ومراقبة له، لعلمهم باستطلاعهم عليهم، وتحقيقهم نظره إليهم، وأنه معهم حيث كانوا، كما وصف نفسه تبارك وتعالى، فخشوا أن يطلع عليهم فيراهم حيث نهاهم، أو يقعدهم من حيث أمرهم، فملأت المراقبة قلوبهم، وجعلوا نظر الله إليهم واستطلاعهم عليهم نصب عيونهم، وشغل نفوسهم،

فوصلوا على ذلك عملهم، وصرقوا إليه همهم . إلى غير ذلك مما يتعلق بهذه المعاني،
ويتفرع عن هذه الأصول .

وقال بعض العلماء: الإيمان ثلاث مئة خلق وخمسة عشر خلقاً، وهو عدد الأنبياء،
وكل مؤمن على خلق منها هو طريقه إلى الله تعالى، ووجهته إليه، ونصيبه منه، وهو قوله
تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ [سورة
الأنعام، الآية ١٨٤]، فدل على أن كلهم مهتدون بعضهم أهدي من بعض .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لكل مؤمن سيد من عمله، والسيد من
العمل هو الذي يرجو به المؤمن النجاة، ويفضل به عند مولاه .

وروي عن عيسى عليه السلام أنه مرَّ على قوم يعبدون الله قد صيرتهم العبادة
كالشنان البالية، فقال لهم: ما وصلكم إلى هذا؟ قالوا: خوفاً من النار وما أعد فيها
فخفنا منها . قال: حقاً على الله أن يأمنكم مما خفتكم . ثم مرَّ بآخرين أشدَّ عبادة منهم،
فقال لهم مثل ذلك، فقالوا: شوقنا الله إلى الجنة وما أعدَّ فيها فنحن نرجوها . فقال:
حقاً على الله أن يعطيكم ما رجوتكم . ثم مرَّ بآخرين مثل ذلك، فقال لهم مثل ما قال،
فقالوا: نحن نعبد الله حباً له وتعظيماً لجلاله، لا خوفاً من ناره ولا شوقاً إلى جنته .
فقال: أنتم أولياء الله معكم أمرت أن أقيم . فأقام معهم . وقيل إنه قال للأولين:
مخلوقاً خفتكم ومخلوقاً أحببتكم .

والذي عليه أكثر الخلق من المستمسكين بحبل الطاعة، الداخلين في مضمار أهل السنة
والجماعة: الأخذ بطرف من كل حظ منهما، والمشاركة في كل جزء من أجزائها، لاشتراك
أسباب الطاعة، وتوشح فروعها، واختلاط معانيها، وارتباط ما حواليها ودواعيها، وأنه لا
يسع المطيع ترك شيء منها، ولا يمكنه التخلي عنها، مع استصعاب الاحتواء على جملها،

وقلة القدرة على القيام بجميع عملها، إلا من رحم الله، وربما يلتمس أحد من المنفردين ممن ذكرنا زيادة على ما هو عليه على ما ذكر عنهم، والله أعلم .

وروي عن ابن مسعود: أن آخر ما نزل من القرآن ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة، الآية ٢٨١] .

فالعامل الصالح - وفقنا الله وإياك - هو أفضل ذخيرة يقتنيها المرء مدّة حياته، ويرتجي الانتفاع بها بعد وفاته، فإن لم يحافظ عليه، ويمرّ جهده إليه، وإلا كانت حياته عليه وبالاً، ولم يرث منها إلا كمدّاً راتباً وخبالاً، وكما قال الأخطل:

والناس همهم الحياة ولا أرى طول الزمان يزيد غير خبال
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً^١ يكون كصالح الأعمال

ومن أحسن ما قال بعض الحكماء: العمل بطاعة الله فوز، والاعتصام بها حرز، والخضوع لها عزّ . وقال أبرويز: أطع من فوقك يطعك من دونك . وقال لقمان عليه السلام لابنه: يا بني، جالس قومًا يذكرون الله بطاعته؛ فإن كنت عالمًا نفعك عملك، وإن كنت جاهلاً علموك، وإن نزلت عليهم رحمة أو رزق، كان لك فيه معهم حظ، ولا تجالس قومًا لا يذكرون الله؛ فإن كنت عالمًا لم ينفعك علمك، وإن كنت جاهلاً زادوك جهلاً، وإن نزلت عليهم لعنة أو سخط شاركتهم فيه .

وقال بعض العلماء: ينبغي للعبد أن يكون كالمريض لا بدّ له من القوت ولا يوافقه كل الطعام، فيلزمه التحرز والتحفظ، ولا يقدر على ذلك إلا من كان من علمه على بصيرة، ومن دينه على يقين .

(١) م: وإذا انتهيت إلى البرائر لم تجد برأ
والتصحيح من الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، ص ٤٠٣؛ الإعجاز، ص ١٥١؛ لباب الآداب، ص ٣١٦ .

ومن أمثال الحكماء: مَنْ عَفَّتْ أَطْرَافَهُ حَسَنَتْ أَوْصَافُهُ . وقال بعضهم: المحسن حيّ وإن انتقل إلى منازل الأموات، والمسيء ميت وإن كان في منازل الأحياء .

فصل

ومن تمام أحوال المطيع: أن يستسلم لقضاء الله، ويسلم مؤقتاً بالرضا بالله، فلا يرى شيئاً دقّ أم جلّ، كثر أم قلّ، إلا من عند الله، ولا يرى لنفسه نفوذاً في ورد ولا صدر إلا بإذن الله، ولا نعمة في حال من الأحوال إلا من الله، ولا بؤسى ولا ضراء إلا بقدر الله .
حكى أن جعفر بن سليمان رأى أعرابياً في إبل قد ملأت الوادي، فعجب من كثرتها، فقال له: لمن هذه الإبل؟ فقال: هي لله في يدي . وهذا حسن من القول . وقال بعض العلماء: الزمان واعظ لمن بقي بمن مضى، وفي تصرفه هلاك قوم وصلاح آخرين .
ولهذا نظر قول أبي الطيب المتنبي:

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

فالسكون إلى الزمان بعد العلم به نهاية العجز، والثقة به غاية الجهل، وسوء الظن به نفس الحزم، والسبب الذي أدرك به العاجز حاجته هو الذي أقعد الحازم عن درك بغيته، والأمر الذي يحول بين العاقل وبين سعة الرزق هو الذي يوصل الجاهل إلى نيله، وفي كل شيء حيلة إلا في القضاء، وكل شيء يستطاع نقله إلا الطباع .

قال أبي بن كعب: قرأت في اثنين وسبعين كتاباً من كتب الله عزّ وجلّ: مَنْ أضاف إلى نفسه شيئاً من الاستطاعة فقد كفر . ووجد في بعض كتب الفرس: ثلاث لا يصلح فسادهنّ شيء من الحيل: العداوة بين الأقارب، وتحاسد الأكفاء، وركاكة العقول، وثلاث لا يشبع منهنّ: الحياة والعافية والمال، وثلاث لا تردّ ولا تنتقل: القضاء والأجل والرزق .

سلك الله بنا أوضح المناهج لطاعته، واستعملنا بأحب الأعمال إليه وأرضاها له، وحشرنا مع أوليائه في زمر أنبيائه، ولا نبا بنا عن سبيل هدايته، وجعلنا في كنفه وكلاءه، وعصمنا من الزيف والزلل، ووهب لنا الصدق والإخلاص في القول والعمل، إنه أكرم من جاد، وأفضل من سُئل، بعزته وقدرته .

فصل

في اجتناب المعاصي ومآلها

المعاصي -عصمك الله- تزيل النعم، وتورث النقم، وتُعقب الخسران والندم، وما زالت تُحلي الديار، وتُعفي الآثار، وتُنذر بالخراب والبوار، وكفى بها ذلاً في الدنيا من العار، وحرناً في الآخرة من عذاب النار، ولا سيما لمن تعمق فيها وتبحر، واستعلن بها واستشهر، فذلك الذي أوثق نفسه في جبال الردى، وذبحها بأحد الشفار والمدى، وما زال العاصي أبداً خائفاً لا يأمن، وذليلاً لا يعز، وفقيراً لا يستغني، ومذموماً لا يُحمد، ومشووماً لا يسعد، وقد جعل الغوي خطامه في أنفه، وجبله في عنقه، فهو يسحبه مكباً على وجهه، يخوض به ليج المهالك، ويقذفه في غياهب الظلم الحوالك، ﴿صُمُّكُمْ عُمَى فَهُمْ لَا يَرِجْعُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية ١٨] إلا من رحم الله، ومنّ عليه بالتوبة، وتداركه بحسن الإنابة والأوبة، وأيقظه من سِنَةِ الغفلة، واستنقذه من شرك الفتن المضلة، فأولئك عسى الله أن يتوب عليهم، إنه هو التواب الرحيم .

قال الله، عز من قائل: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا • وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ

إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿ [سورة الفرقان، الآيات ٧٠-٧١] ، وقال لنبيه عليه السلام: ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة الأنعام، الآية ١٥] وقال رسول الله ﷺ: "اجتهدوا في العمل، فإن قصر بكم ضعفٌ، فكفّوا عن المعاصي"، وقال بكر بن عبد الله: رحم الله عبدًا كان قويًّا فأعمل قوّته في طاعة الله، وكان ضعيفًا فكفّت عن معصية الله . وقال رسول الله ﷺ: "من طلب محامد الناس بمعاصي الله عاد حامده من الناس ذامًّا"، وقال ﷺ: "من حاول أمرًا بمعصية الله كان أفوت لما أراد، وأقرب لحلول ما اتقى"، وقال ﷺ: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"، وقال عليه الصلاة والسلام: "انتهوا عن المعاصي قبل أن يأخذكم الله فيدعكم هتًا بتًا"^(١) .

رُوي أن موسى عليه السلام قال للخضر عليه السلام: بماذا أطلعك الله على علم الغيب؟ قال: بتركي للمعاصي . وقال رجل لابن عباس رضي الله عنه: أيما أحب إليك: رجل قليل الذنوب قليل العمل، أو رجل كثير الذنوب كثير العمل؟ قال: لا أعدل بالسلامة شيئًا .

ولا محالة أن ترك المعصية أخفّ على المؤمن من العمل بالطاعة؛ لأن هذا عمل وهذا ترك، والترك أخف من العمل، ولذلك أباح ترك الأعمال مع الأعذار، ولم يبح ركوب المعصية بعذر على حال .

(١) م: مهما تبأ . والأصح ما أثبتناه . والهتّ كسر الشئ حتى يصير رُفتًا، والبتّ القطع، أي قبل أن يدعكم هلكتي مطروحين مقطوعين، انظر: لسان العرب (هتت)؛ تاج العروس (هتت).

فصل

ومن أشد ما أغرق أهل المعاصي في بحر الذنوب، وعدل بهم عن جادة الطريق المحبوب، وحملهم على الغفلة عن مراقبة علام الغيوب، ما تمسكوا به وركنوا إليه، ولزموه وأكبوا عليه، عند إقبالهم على ركوب الشهوات، واتباعهم لمقارفة اللذات، وانتهاك الحرمات، أنهم إذا زجرهم زاجر، أو ذكروهم بموعظة ذاكر، فحصرتهم الحجّة، وقام عليهم البرهان قالوا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [سورة الزمر، من الآية ٥٣] ورحمة الله وسعت كل شيء، ﴿ وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الْضَّالُّونَ ﴾ [سورة الحجر، من الآية ٥٦] ، من ﴿ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ لَكَ يَجِدِ اللَّهُ غُفُورًا رَحِيمًا ﴾ [سورة النساء، من الآية ١١٠] ، وما جاء في كلام الله عز وجل وحديث نبيه ﷺ فهو ينتظر الرحمة بالإصرار، ويلتمس المغفرة بالعصيان، ويرجو الإحسان مع الإساءة، وكفي بذلك خطة خسف، وموافقة سخف، وخديعة نفس، وذريعة لبس، قد غرسها الشيطان في قلبه، فسوّل له عصيان ربه، ووعد غفران ذنبه، فجعل الظن عدة، والرجاء إنجازًا، لا سيما إن كان من أهل السيئات والصبوة، قطع في المهلة، ورجا في تأخير النقلة، فما أضعف عقله، وأقل معرفته، وأبعد عن تحقيق النظر، وتصحيح الفكرة، فإن غلق دونه باب المتاب، وعدل به عن سنن الإياب، وصمت أذناه وعقل لسانه عن الجواب، وعمي بصره وبصيرته عن معاينة الصواب، لقد أمضى به الاغترار إلى الهلاك، وأعقله إبليس في جبال الاستهلاك، وما أحسن قول محمد بن بشير في هذا المعنى:

مضى أسك الأذنى شهيدًا معدلاً ويومك هذا بالفعال شهيدٌ
فإن تك بالأمس اقترفت إساءةً فثنّ بإحسانٍ وأنت حميدٌ
ولا ترجُ فعل الخير منك إلى غدٍ لعلَّ غدًا يأتي وأنت فقيدٌ

وقال غيره:

تعجّل الذنّب بما تشتهي وتأمّل التوبّة في قابلِ
والموت يأتي بعد ذا غفلةٍ ما ذاك فعل الحازم العاقلِ
وكان المعاصي إنما تقبح بالكهول وتصلح بالشباب، هيهات! بل إنها - والله -
لتقبح بجميع من قصدها، وتفضح كل من أتاها واعتمدها، وإن كانت - لا محالة -
بأهل الشيب أقبح، وعليهم أشد ولهم أفضح، كما قال ابن المعتز:

وما أقبح التفريط في زمن الصّبا فكيف به والشيب في الرأس شاملٍ
فمن الواجب على من استفزه الشيطان وخدعه، وأغراه بالمعصية وأوقعه، ورجّاه
بالتوبة وأطمعه، أن يستشعر هجوم المنايا، ويتخيل وقوع التوبّ والزايا، ويرى أنها لا
تحقر الصغير، ولا تهاب الكبير، ولا تنظر لغني ولا فقير، إن وعدت أنجزت، وإن
طعنت أجهزت، فلا يحدث نفسه بالإهمال، ولا يخادعها بالتسويق والمطال؛ فإنه لا
يأمن هجومها، ولا يستفيق سليمها، ولا يدري متى تصل إليه فتحول بينه وبين أمله،
وتقطعه عن استدراك عمله، وتصيره من الوجود إلى العدم، فيندم حين لا ينفعه الندم،
فإن كان ذلك وقد زالت عنه أنعم خالقه، وجرّده عن ثوب عافيته ومرافقه، وهي
عادته فيمن عصاه من خلّائه، فيكون قد خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران
المبين، والله درّ القائل:

إذا كنت في نعمة فازعها فإن المعاصي تزيل النعم
وكم قد ترددت في مهلة ولم ترقب الموت حتى هجم
وقيل في بعض الحكم: أقل ما يجب للمنع من حق نعمته أن لا يتوصل بها إلى
معصيته، فإن ذلك أسرع لزوالها، وأقرب للنقمة واحتلالها . وقال كلثوم بن عاص:

رحم الله عبداً استعان بنعمة الله على طاعة الله، ولم يستعن بنعمة الله على معصية الله، فإنه لا يأتي على صاحب الجنة ساعة إلا وهو مستنكر من العذاب ما كان يعرفه . ورؤي عن إسرائيل بن محمد القاضي أنه لقيه مجنون كان بالبصرة، فقال له: يا إسرائيل، خف الله خوفاً يشغلك عن الرجاء، فإن الرجاء يشغلك عن الخوف، وفرّ إلى الله ولا تفر منه . وقال أرسطاطاليس: المتعوب الذي لا تستريح مطيته، والمغموم الذي لا تنقضي حسرته: من آثر ذل المعصية على عز الطاعة، وطلب فوق الكفاية، وحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله .

وفي الحكم المنثورة: إذا رغبت في المكارم فاجتنب المحارم . ومن أمثالهم: ركوب المعاصي تذل العاصي .

ورؤي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: من أراد الغنى بغير مال، والكثرة بغير عثرة، فليتحول من ذل المعاصي إلى عز الطاعة، أبقى الله إلا أن يذل من عصاه . وله رضي الله عنه في المعنى حيث يقول:

| | |
|---------------------|----------------------|
| وأنا الدليل لمن أرا | دغنى يدوم بغير مال |
| وأحبب عزاً لم توطأ | سده العساكر والموالي |
| ومهابةً من غير سلـ | طان وجاهاً في الرجال |
| فليعتصم بدخولـه | في عز طاعة ذي الجلال |

وروي عن مالك بن دينار أنه قال: وجدت في بعض الكتب: يقول الله عز وجل: أنا مالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم . وقال الرشيد لعلي بن عيسى في جملة وصايا أوصاه بها وقد شيعه إلى خراسان:

(١) م: رجاها . والتصحيح من المقدسي، الآداب الشرعية، ج ١، ص ١٧٨، وقد عزا الأبيات لمحمود الوراق.

أطع الله يا علي بن عيسى! يعظفني عليك، ولا تعصه فيسلطني عليك . وقال بعض الصالحين: خف الله لقدرتك عليك، واستحي منه لقربه منك . وقال عبد الله بن المبارك^(١) لراهب من الرهبان: متى عيدكم؟ فقال: كل يوم لا أعصي الله فيه فهو عيد . وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لو أراد الله أن لا يُعصى ما خلق إبليس؛ فهو رأس كل خطيئة . وقال بعض الحكماء: إياكم والخروج من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية . وقال الفضيل بن عياض: العجب كل العجب فيمن عصى الله بعد معرفته . وقال سليمان بن علي حميد الطويل: عظني . فقال له: لئن كنت إذا عصيت الله عز وجل خاليًا تعلم أنه يراك فلقد اجترأت على أمر عظيم، وإن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت .

وهذا كلام صحيح، غير أن العصي لا تراه يراقب الله، وإنما يراقب الناس، وحسبك منه إذا هم بالمعصية وأراد الدخول فيها إنما ينظر يمينًا وشمالاً يراقب من يراه من الناس، وما عندنا أصح من أن الله مطلع علينا، ولكننا ركنًا إلى إمهاله وحلمه، فعميت الأبصار والبصائر، وغطى الرّين القلوب فارتكبنا الذنوب، ولم نراقب علام الغيوب، ﴿الْمَرْيَمُ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [سورة العلق، الآية ١٤] ، فما أجرأنا على الله لا نراقبه في المعصية ومنتظر منه المغفرة، ورحم الله الفقيه المرادي حيث يقول:

علمي بأن المعاصي حين أوثرها يقضي بأيّ محمول على القدر
لو كنت أملك نفسي أو أدبرها ما كنت أطرحها في جثة الغرر

وكان من كلام عبد العزيز بن أبي دؤاد: عصيت من نعمه عليّ سابعة، وستره عليّ مجمل، عصيت من لا ينبغي أن يُعصى، عصيت من أياديه لا تُحصى، فبأي قدم أقف بين يديه، وبأي عين أنظر إليه؟! وكان عتبة الغلام يقول: كيف يفلح إنسان يسره ما يضره؟! أخذه بعض الشعراء فقال:

(١) م: المبرد، والتصحيح من الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص ١٧٤ .

لِي نَفْسٌ يَسْرُهَا كُلُّ شَيْءٍ يَسْرُهَا
فَهِيَ تَبْلَى مَعَ الزَّمَانِ وَيَزْدَادُ شَرُّهَا

ومن كلام بعض الصالحين: مَنْ تَرَكَ الْمَعَاصِيَ عَزَمَ مَعَ الْإِقْلَالِ، وَمَنْ وَصَلَ الْمَعَاصِيَ
ذَلَّ مَعَ كَثْرَةِ الْمَالِ، وَمَنْ آثَرَ التَّقْوَى بَلَغَ الْكَمَالَ، وَمَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا حَمِدَ الْمَالَ، وَوَجَدَ لَذَّةَ
مَا نَالَ . وفي هذا المعنى قال:

فِيهَا أَيْهَا الْعَاصِي إِلَيْكَ نَصِيحَةٌ تَرِيكَ سَنَا الشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ مِنْ قُرْبِ
تَعَزَّزْ بِإِبْعَادِ الْمَعَاصِي وَرَفْضِهَا فَمَا الْعَزَّ إِلَّا فِي الْفِرَارِ عَنِ الذَّنْبِ
وَتَأَبَّرْ عَلَى تَقْوَى الْإِلَهِ فَإِنَّهَا نَجَاةٌ لِبَاغِيهَا مِنَ الْمَرْكَبِ الصَّعْبِ
وَكَنْ طَائِعاً لِلَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ تَجِدُ لَذَّةَ الدَّارَيْنِ إِنْ كُنْتَ ذَا لُبِّ

وقال أرسطاطاليس: لا تجرد الفاجر محموداً، ولا الغضوب مسروراً، ولا الشَّيرَه
غنياً، ولا المَلُول مصاحباً، ولا العجول إلا كثير الندم . وقال بعض الحكماء لصاحب
له: إياك أن تدنس بالمعاصي قلبك، فإن الماء لا يغسله، ولا تستغفر لذنبك إلا ربك، فإن
سواه لا يغفره، وأخلص لله عملك لعله سيقبله . وفي مثل ذلك يقول سابق البربري
حيث يقول:

الماء يغسل ما بالجسم من دنسٍ وليس يغسل قلب المذنب الماءُ

فصل

ومن الحق اللازم لكل إنسان، المعين عليه في كل أوان وزمان، إذا علم من سواه
الإمام بمعاصي الله تعالى، واستشعر منه قلة المراقبة لله، وأنس منه الخروج عن طاعة
الله: أن لا يلبس بشيء من أحواله، ولا يصغي إلى شيء من أقواله، ولا يستعين به في

شيء من أفعاله، وأن يجتنبه أشدَّ اجتناب، وأن يحذره حذار الذئاب . وأيَّ منفعة تُرتجى عند مَنْ لا يخاف العار، ولا يتقي النار؟! وقال بعض العلماء: مَنْ حَسُنَ ظَنُّهُ بِمَنْ لا يخاف الله فهو مخدوع .

وإن كان الناس لا يستغنون عن التعاون به والتظافر، وهم مفتقرون إلى التعاضد والتناصر، ولا غنى بهم عن المناصحة والتشاور، فإن ذلك مع الثقة بالمستعان به والأمن من غوائه بصلاح يعلم منه في دينه، أو مروءة يأوي إليها في حسن جبلته، وكلَّ مَنْ أقدم واسترسل على غير علم منه بصاحبه وبصيرة حسن شيمته ومذاهبه، فقد ضيَّع وفرط، وتنشَّب وتورط .

أَلْهَمْنَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَصَالِحَ، وَجَتَّبْنَا كُلَّ أَمْرٍ فَادِحٍ، وَسَلَّكَ بِنَا إِلَى الْخَيْرَاتِ كُلِّ مِنْهَا جَازِحًا وَاضِحًا، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ، لَا رَبَّ سِوَاهُ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ .

الباب الرابع

في حسن الصبر وعواقبه، وقبح الجزع ومعايبه

الصبر - وفقك الله - أعلى مراتب المتقين، وأرفع منازل المؤمنين، وأوثق عُرى الإيمان، يحمل أهله على المساعي المبرورة، ويصرفهم عن الدواعي المحظورة . وهو يقع في جميع الأفعال المحمودة موقع الهوى من الأفعال المذمومة؛ ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مدار الأفعال المحمودة على الصبر . ولن يتكلف مرارة الصبر مَنْ جهل عاقبة الصبر . وهو صفة من صفات الله عزّ وجلّ. رُوي في بعض الآثار أن الله تعالى أوحى إلى نبيّه داود عليه السلام: أن تَخَلِّقَ بأخلاقِي، وإن من أخلاقِي أني أنا الصبور . وفي قصة أخرى: يا داود عليك بالصبر تأتيك المعونة . وإن من أسمائه أنا الصبور . وخلق الله عزّ وجلّ الصبر فخصّ به أنبياءه وأوليائه، ثم من منح منه ما شاء مَنْ شاء من عباده ليَجْعَلَهُ له جنة في معاده .

وجعله في بني آدم دون غيرهم، وإنه لا ينبغي للملائكة لكمال خلقتها وتمام فطرتها، وقد استغنت عنه لخلوها عن الشهوات، وبعدها عن الآفات . وهو غير موجود في البهائم لنقصان خلقتها، وعدم العقل فيها، فلا يثبت لها قوة تصرفها عن شهواتها . وكذلك الإنسان في أول خلقته يصغر عن مصادمة الشهوة، ويقصر عن صرف محاولة الإرادة لنقصان القوة والعقل .

وله ثلاث مراتب: فأولها عند الخروج إلى الدنيا: الشَّرَه إلى الغذاء الذي لا بدَّ منه، ولا يستطيع الصبر عنه، ولا له رغبة في سواه، ثم ينتقل إلى المرتبة الثانية عند تمييز الأشياء، وهي الالتذاذ باللعب واللهو، وحب التزيّن، والحرص على نيل ما يشتهي من غير تدبير ولا نظر، ثم ينتقل إلى المرتبة الثالثة، وهي شهوة النكاح والالتذاذ بالمطاعم والمشارب، وانتخاب الملابس والمراكب . وسلطان الهوى عند ذلك قوي قادر، وجند الشهوات غالب ظافر، فإن غلب هذه المرتبة وقد حسن تمييزه للمعاني، وقوي فهمه للأمور، واستحكم نظره الحقائق، وتمكن فكره في العواقب، وقوّاه الملك الموكل بهدايته بفضل الملك المدير له الذي يختص برحمته من يشاء، فعلم المصالح التي يتعلق بها الثواب، والمقايح التي يتعلق بها العقاب، فصرف نفسه عند ذلك من مواجهة اللذات المنوعة قاهرًا، ومنعها من متابعة الشهوات المحذورة ناهرًا، فتميّز بالخلاتق الآدمية، وانتقل عن الطباع البهيمية . فإذا استنار بنور اليقين قلبه، وتأيّد بالتقى والإيمان حزبه، فاستفتح بمفاتيح النظر خزائن الفكر، واستخرج منها لطائف المعارف، وذخائر السرائر، فلبس أبراد الاعتقاد، وتحلّى بقلائد الفوائد، وركب جواد الاجتهاد، فجرى في ميدان السابقين، كان ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [سورة النساء، من الآية 69].

وإن جاوز هذه المرتبة، وقد قوي سلطان هواه، وضعفت عن مصادمته قواه، وتملكه شيطانه واستهواه، فمكّن نفسه من مرادها، ولم يجاهدها حق جهادها، فأرسلها على ما سوّلت، وخلّى بينها وبين ما أملت، فاستفتح بمخاسر الشَّرَه خزائن الشهوات، واستخرج منها مشاهر المناكر، ولبس ثياب الارتياب، وتوشح بوشاح الافتضاح،

وركب جواد الحرص، فجرى في ميدان البطالة، ونام في مهاد الغفلة، فغلب على قلبه
سنة الرين، كان من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية ١١٤؛ سورة المائدة، من الآية ٤١]، إلا من آثر
المتاب، وأسرع الإياب، واتقى يوم الحساب، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين .

فصل

وقد أثنى الله سبحانه على عباده بالصبر، وضاعف لهم الأجر، فقال، عزّ من
قائل: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [سورة القصص، الآية ٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّبُ الصَّابِرُونَ
أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة الزمر، من الآية ١٠]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ
وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [سورة الشورى، الآية ٤٣]، وقال - جلّ ذكره - في
أهل الجنة: ﴿وَأَلْمَلَيْكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا
فَيَعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [سورة الرعد، الآية ٢٣ إلى ٢٤]، وقد جمع الله عزّ وجلّ لأهل الصبر
من الرحمة ما لم يجمع لغيرهم من أهل طاعته فقال عزّ وجلّ: ﴿وَنَشِيرِ الصَّابِرِينَ *
الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ
مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية ١٥٥ إلى ١٥٧] ،
وذكر الصبر في كتاب الله تعالى أكثر من أن يُستقصى، والآثار فيه أعظم من أن
تحصى، وسنورد من ذلك ما تيسر، ونقتصر منه على ما تسنى ولم يتعذر، والله
المستعان، ومنه التوفيق، وهو الهادي، لا ربّ غيره .

فجعل

والصبر أصل تفرّعت منه فروع البرّ والإحسان، وأسس بُنيت عليه قواعد الطاعة والإيمان . سُئل رسول الله ﷺ: ما الإيمان؟ فقال: "الصبر" ، يريد معظمه . كما قال عليه السلام: "الحجّ عرفة" . وقال ﷺ: " الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله، ولن يفترقا " .

واليقين هو المعرفة بالله عزّ وجلّ الباعث على طاعته، والصبر هو العمل بمقتضى المعرفة التي تحمله على الطاعة وإن شقت، وتصرفه عن المعصية وإن عذبت ولذّت .
وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .
وفي حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل النبي ﷺ على الأنصار فقال: " أمؤمنون أنتم؟"
فسكتوا، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: نعم يا رسول الله! قال: "فما علامة إيمانكم؟" فقال: نشكر على الرخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى بالقضاء . فقال: "مؤمنون وربّ الكعبة" . ورؤي عن أبي الدرداء أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ، ما سمعته قبلها ولا بعدها، قال: "إن الله عزّ وجلّ قال لعيسى ابن مريم: يا عيسى إني باعث بعدك أمة إن أتاهم ما يحبّون حمدوا وشكروا، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا، أعطيتهم من حلمي وعلمي" .

والصبر هو الصبر على قضاء الحقائق وإن شقت، واحتمال المكاره في ذات الله تعالى وإن جلت، والثبات في جميع الشدة من غير جزع ولا خور إلا رضاً وتسليماً،
وقال رسول الله ﷺ: "الصبر عند الصدمة الأولى"، وقال ابن عباس رضي الله عنه:
أفضل العدة الصبر عند الشدة . لما في ذلك من محمود العاقبة في العاجل والآجل .

وأكثر الناس يصبرون ولكنهم لا يستحقون اسم الصبر؛ لأن الصابر على الحقيقة لا يشك أن الذي يصيبه من المصائب، وينزل به من الحوادث هو خير له وصلاح به، لعلمه بحسن لطف الله تعالى به، وجميل صنعه له، كممثل غارس الجنة الذي لا يزال يجيد عمارتها، ويوالي سقيها، ويجرسها عن حرّ الشمس، ونزول الضّر، وقصف الريح، وهو مع ذلك يتعاهدا بتقليم أغصانها، وتعريتها من بعض أوراقها، لما يعلم في ذلك من المنفعة لها، ويرجوه من دفع المضرة عنها، فلو علم ابن آدم قدر لطف الله تعالى به، وميّز جميل صنعه فيه، وعرف حسن تدبيره له، لأيقن وقفه، ووفى الصبر حقّه، وعلم أن النعمة في المنع هي النعمة الطائلة الدائمة، وأن النعمة في الإعطاء والانتفاع في أحوال الدنيا ربما كان مؤدياً إلى منع نعيم الأخرى، ألا ترى إلى قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٦٧﴾ ﴿سورة العلق، الآيات ٦-٧﴾، وقال لقمان لابنه: يا بني، الذهب يُجرب بالنار، والعبد الصالح يُجرب بالبلاء . وقال الفضيل بن عياض: إن الله تعالى ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير .

ولولا أن في حلول الكوارث ونزول الحوادث تخفيفاً من الأوزار، وخطاً من الذنوب، ومحواً من السيئات، لما استطعنا عليها صبراً، وعظم^(١) عليها مصابنا، وجلّت نخلها أربابنا، كما لو كان في مواجهة اللذات، ومقارفة الشهوات أنواع من المكاره، وأصناف من الشدائد، لما وجدنا عنها صبراً وكثير إليها إسرارنا، وقّل عنها امتناعنا، ولا غرّو أن محض الحرمة وسبب التخلص الخروج عن ملك الشهوة، وإحياء القلب باستدامة الفكرة، وإيقاظ النفس عن سنّة الغفلة، فإن موت القلب هو الموت الأكبر، فإذا جُمي بنور الهدى أبصر باطن الدنيا فاستحقر ظاهرها واستهانها، وأشرف على باطن

(١) م: أعظم، وإ: رحج ما أثبتناه .

الآخرة فاستكثره واستعظم شأنه، فحَفَّ عليه الصبر عما ترك من المحتقر الزائل العاجل، رغبة فيما يرجوه من المدخر الآجل الطائل، فإن بذل^(١) الدنيا هو ثمن الآخرة، لكن لذلك حُجُبٌ من الشهوات حائلة، وأستارٌ من اللذات مانعة حازجة، فإذا هتكها الإنسان برفض الدنيا وانتزاحها، والانتباز عنها واطراحها، أبصر النعيم الدائم دون حجاب مانع، ورأى الكرامة المعدة لأهل الصبر عنها دون حاجز قاطع، فسعى سعي الحرير في الوصول إليها، واستسهل قطع المسافة بالصبر عليها، فرشد وسعد، وغنم ونعم .

وقد قال رسول الله ﷺ: "مَنْ نَظَرَ فِي الدُّنْيَا إِلَى مَا دُونَهُ وَنَظَرَ فِي الدِّينِ إِلَى مَا فَوْقَهُ، كُتِبَ صَابِرًا شَاكِرًا" . وقال رسول الله ﷺ: "إِنْ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ ذَخْرًا كَبِيرًا، وَإِنْ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ وَإِنْ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، فَإِنَّ مَعَ الْعَسْرِ يَسْرًا" . وقال بعض الصالحين: الصبر على المكروه من حسن اليقين .

فصل

. وأجمع المتقون أن الصبر صبران: صبر على المحارم، وصبر على العظائم. وقال لقمان عليه السلام: الصبر صبران: صبر على ما يكره مما يريد من الخوف، وصبر على ما تحب مما يدعوك إليه الهوى . وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: الصبر صبران: صبر عند نزول المصيبة، وصبر على ما نهاك الله عنه . وهو الأفضل الأكمل؛ فالصبر عن المحارم هو الصبر النفسي؛ لأنه يأتي على اختيار النفس، وهو المحمود، ولذلك قال سهل: الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء . وقال غيره: البلاء يصبر عليه المؤمن، والعافية لا يصبر عليها إلا نبيّ أو صدّيق . وفي بعض الحكم: الصبر على حقوق الثروة أشد من الصبر على ألم الحاجة . والصبر على العظائم يشترك فيه أعظم الناس، كعدم المال، وفقد الحميم، وجور الحاكم، ومؤلم المرض وما أشبه ذلك مما احتمله الإنسان من

(١) م: بدل، والأرجح ما أثبتناه.

ذلك كله، ورضيه ولم يشكه، وكان موافقاً للشريعة، مبيناً لكرم الطبيعة، فهو صبر صحيح، كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [سورة يوسف، من الآية ١٨]. وقد فُسر الصبر الجميل فقيل: هو الذي لا يشكو فيه إلى أحد. وإن كان ما احتمله من ذلك لشدة بأس، وصرامة قلب، وقوة نفس، وبعد همة خوفاً من أن يقال: جزع وضعف عن حمل الهمّة: فليس بصبر صحيح، إنما هو تصبر، وأكثر ما يوجد في أهل المداعرة، فإنهم لا يظهرون الجزع عندما يحل بهم، ويصبرون عند الانتقام منهم وإقامة الحدود عليهم لصحة أجسامهم وضعف عقولهم، ولذلك قال ابن المقفع: الكرام أصبر نفوساً، واللثام أصبر أجساماً. أخذه بعض الشعراء فقال:

العبد أصبر جسمًا والحُرُّ أصبر قلبًا

والعاقل لا يرى الصبر عن المحارم صعباً، ولا يحسبه المؤمن خطأ؛ لأن الله عزّ وجلّ قد جعل للعبد في المباحات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح ما يستغني به عن جميع المحرّمات، ويكتفي بأيسره عن إتيان المحظورات، والنفس بتوفيق الله لمن أراد ملاكها سريعة الانقياد والانطباع، ممكنة التأسّي والاتباع، كما قال أبو ذؤيب^(١):

والنفسُ راغبةٌ إذا رَغِبَتْهَا وإذا تُرِدُّ إلى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

وكلما تصرفت فيه الأيام ودارت به الدهور، من جميع طوارق المسرور والمحذور، لا يخطئ ابن آدم أحد الخالتين، فلا بدّ له فيها من الصبر طبعاً أو تطبّعاً، فإن كان من الأحوال المحمودّة، كصحة الجسم ووفور المال واتصال العافية وغير ذلك، ولم يصبر عما حذر منه، ولم ينته عما نهى عنه، فقد ركب سنن الغرر، وتعرض لحلول الغير، وإن قابلها بتأدية الحمد، وتوفية الشكر، والتزام أحوال الطاعة والبر، فقد قابل النعمة بقوامها، وكان أجدر بنموها وتمامها، والخليق ببقائها فإدوامها، والله يقول، عزّ من قائل:

﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية ٧]. وإن كان من الأحوال المكروهة.

(١) م: ابن دريد، وهو بيت معروف لأبي ذؤيب الهذلي. انظر: القرشي، جهرة أشعار العرب، ص ٢٠٦.

والصبر^(١) عليها ينقسم قسمين: فمنه ما يقع بالاختيار، كلزوم الطاعة، واجتناب المعاصي، وما يتعلق بذلك، ومنه ما يقع على غير الاختيار، كالنوائب الطارئة والحوادث النازلة. فإذا صبر على احتمال النازل ورضيه، وشكر عليه، وصبر عما نهي عنه وحذر منه، راجياً ثواب الله على هذا، وخائفاً عقاب الله على هذا، كُتِبَ صابراً شاكراً، إن شاء الله عز وجل. ومما قلتُ في هذا المعنى:

اصبرْ على مفض الحارم والعظا ثم مطفئاً منها لظى نارَيْن
لو لم يكن في الصبر إلا أنه محمودٌ عقباه في الدارين

فجميع أحوال الدنيا كلها - من السراء والضراء - مفتقرة إلى الصبر، راجعة إليه، كانت النفس راضية إليه أم كارهة له. والرضا هو الحظ الأوفر، والقسم الأنصر من الإيمان. رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "قال الله عز وجل: إذا وجهت ل عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو في ماله أو في ولده، ثم استقبل ذلك بالصبر استحيت يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً، وأنشر له ديواناً". وكان يقال: أعدد للمكروه عدتين: الصبر على ما لا يدفع مثله إلا بالصبر، والصبر على ما لا يجري فيه الجزع، ولا ينفع فيه التوجع والهلع، وفي ذلك يقول العباس بن الأحنف:

وإني إذا لم ألزم الصبر طائعاً فلا بدّ منه مكرهاً غير طائع

والصبر حبس النفس على البلوى، وعقل اللسان عن الشكوى، ومنازعة النفس عن الاضطراب عند حلول البلوى، وحملها على احتمال المكروه. وقال بعض الحكماء لصاحب له: ارضّ بالقضاء، واصحب الدنيا على علائها، فإنك لا تدري أي الرجلين تكون: متقدماً آخره حظّه، أو متأخراً قدّمه حظّه. فإن لم ترضّ بالحال التي أنت فيها

(١) م: ولصبر.

وإن كانت دون أملك واستحقاقك اختيارًا، وإلا رضيت بها اضطرارًا . وقال أبو الدرداء: ذروة الإيثار الصبر المحكم، والرضا بالقدر، والله يقول عز من قائل: ﴿ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [سورة فصلت، الآية ٣٥]. ومن كلام بعض الحكماء: طوبى لمن غلب بتقواه هواه، وغلب بصبره الشهوات . وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو له جاره، فقال له: "كف أذاك عنه، واصبر على أذاه، فكفى بالموت مفرقًا" . وقيل في بعض الحكم: الخير الذي لا شر فيه: الشكر على النعمة، والصبر على النازلة . وقال سهل بن عبد الله: لا معين إلا الله، ولا دليل إلا رسول الله، ولا زاد إلا التقوى، ولا عمل إلا الصبر، ولا صبر إلا بالله . وقال بعض الحكماء: الكمال في ثلاثة: فقه في الدين، وصبر على النوائب، وحسن تقدير العيش، فأكرم نفسك عمّا الخير في غيره . وقال رسول الله ﷺ: "في الصبر على ما تكره خيرٌ كثيرٌ" . وقال بعض الحكماء: الصبر باب العزّ، والجزع باب الذلّ . وقال بعض الشعراء:

| | |
|----------------------------|------------------------------|
| أعزّ نفوس الموقنين يقيّنهم | بأن نعيم المترفين يزولُ |
| وأن ثواب الله في حسن صبرهم | على الضرّ والبلوى عليه جميلُ |
| وأن الذي يفنى وإن جلّ قدره | لدى الباقيات الصالحات قليلُ |
| فصبرًا جميلًا إن أفضل عدّة | لصبرٍ على مُرّ القضاء جميلُ |

وقال أبو الفتح^(١):

ولم أر مثل الشكر جنة غارسٍ ولم أر مثل الصبر جنة لابسٍ

وقال سابق:

اصبر على القدر المحتوم وارض به وإن أتاك بما لا تشتهي القدرُ

(١) علي بن محمد البستي.

قال أبو سعيد:

وإني لَصَبَّارٌ عَلَى مَا يَنْوِينِي وَحَسْبِكَ أَنْ اللَّهُ أَثْنَى عَلَى الصَّبْرِ
وعزى علي بن أبي طالب رضي الله عنه رجلاً فقال له: إن صبرت مضي أمر الله
عليك وأنت مأجور، وإن جزعت مضي أمر الله عليك وأنت مأزور . وكان يقول
رضي الله عنه: عليكم بالصبر فإن به يأخذ العاقل، وإليه يرجع الجاهل . وقال ابن
المقفع لابنه: يا بني، الصبر على كلمة واحدة تسمعها خيرٌ من ألف كلمة تطلب
التخلص منها . وقال أبو عبيدة: ما اجتمعت العرب على شيء اجتمعا على الأمر
بالصبر، وتجنب أخلاق الغدر، والأخذ على الناس بالعدو . وقال كسرى بن هرمز^(١): مَنْ
صبر على النازلة كان كمن لم تنزل به، ومن جزع عليها أعطته . وقال بعض الحكماء: بقدر
عزمك على الصبر يهون عليك الرزء، وعلى قدر جزعك منه يقوى عليك، ويهدمك،
ويؤثر فيك . وقال بعض الشعراء:

اصبر إذا نابتك نائبةٌ ما خاب منقطعٌ إلى الصبرِ

الصبر أفضل ما اعتصمت به ولأنعم حشو جوانح الصدرِ

وكتب رجل من الحكماء إلى رجل شكاه إليه تعذر ما به، ومكابدة دهره، فكتب إليه:
إنك لن تنال ما تحب حتى تصبر على ما تكره، ولن تنجو مما تكره حتى تصبر عن كثير مما
تحب، والسلام . وقال غيره: إنك لا تدرك ما تأمل حتى تصبر على ما تكره .
وهذه الأقوال كلها راجعة إلى قول رسول الله ﷺ: " إنكم لا تنالون ما تحبون إلا
بالصبر على ما تكرهون، ولا تبلغون ما تأملون إلا بترك ما تشتهون " .

وقال ﷺ: " أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس "، وهل هو إلا الصبر على
المحارم، وقصر النفس عن إتيان الشهوات؟ وقال عليه السلام: " انتظار الفرج بالصبر

(١) م: هارون بن كسرى، ولا وجود لهذا الاسم فيما أطلعت عليه من مصادر، وإنما وجدت هذا
القول منقولاً عن الكسروي، ومنسوباً لكسرى بن هرمز عند: الجاحظ، المحاسن والأضداد،
ص ٣٥؛ البيهقي، المحاسن والمساوي، ص ٥٩٥ .

عبادة" . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصبر مطية لا تكبو، والقناعة سيف لا ينبو . وكان يقول رضي الله عنه: عليك بتقوى الله، فالصبر^(١) فيه يؤجر المحتسب، وإليه يرجع الجاهل المكتئب . وقال يزيد بن المهلب: ما رأيت عاقلاً قط ينوبه نائب من الزمان إلا كان معوّله فيه على الصبر . وقال الشاعر:

ما عظّني زمن إلا لبست له ثوباً من الصبر لا يبلى مع الزمن
إن الكريم إذا نابته نائبة ألفيته وجميل الصبر في قرّين

ومن الحكم المثورة: إذا صبر المرء على نوائب دهره، وسطوة السلطان وجوره، وجفوة الصاحب وهجره، وصرف نفسه عن شهواتها بقصره، رجاء ثواب الله وأجره؛ فقد حوى الخير بوفره . ولقد أعجبنى هذا الكلام فنظمته شعراً وقلت:

إذا كنت صباراً لوقع النوائب وسطوة جبار وجفوة صاحب
ودنت بمنع النفس عن شهواتها ونيل هواها خوف سوء العواقب
فقد حزت أشتات المكارم كلّها وأحرزت سبق الفضل من كلّ جانب

ومن كلام بعض الحكماء: الصبر حصن منيع المكان، مشيد البنيان، والعجبة مفسدة للمروءة، جالبة للمرية . ومن كلامه أيضاً: الصبر جنة واقية، وعزة باقية . وقال بعضهم: الصبر باب العزّ، والجزع باب الذل . ومن بعض الحكم: الصبر تأييد للعزم، وتمحيق للمحنة، وثمرته الفرج . وقال الإسكندر: الحازم من عظم صبره على مصيبته كعظم المصيبة في نفسه . فكل شيء خلقه الله تعالى، إنما يكون أوله صغيراً ثم يكبر، إلا المصيبة فإنها تكون كبيرة ثم تصغر مع الصبر عليها حتى تمتحق وتضمحل ولا توجد، ويعظم الأجر عليها حتى لا يقدر ولا يتّصف . وفي ذلك يقول الشاعر:

وإذا عرّتك مصيبة فاصبر لها عظمت مصيبة مُبتلى لا يصبر

(١) م: والصبر .

فصل

وقيل: إن الصبر ثلاث مقامات: تصبر وصبر واصطبار . فالتصبر: هو حمل مشقة، وتجرع غصة في الثبات على ما يجري به الحكم . والصبر: هو الذي يخفف على المبتلى ثقل المصيبة، ويسهل عليه صعوبتها، وهي أعلى من الأولى . والاصطبار: هو التلذذ بحلول القدر، والاستعداد لتزول القضاء، والاستبشار باختيار المولى، وحصوله منة طويّلة عند المبتلى .

حكى أن رابعة العدوية كانت ماشية مع بعض أصحابها، فاجتازت بركن، فشج رأسها، وسال الدم على وجهها وثيابها، وهي لا تلتفت، فقيل لها: أما تحسّين بما جرى عليك؟ فالتفت كالمتيقظة، وقالت: يا إخوتي، إلتذاذي بموافقة مراده شغلني مما جرى عليّ عن الإحساس بما ترون من شاهد الحال . وهي أعلى منازل الصبر .

فصل

وجميع خلال الخير، وخصال البر، وأحوال الطاعة، وما جعل الله في الإنسان من حسن الشيم، وكرم الأخلاق، وأسباب الديانة، ودواعي الإيمان إنما هي كلّها مرتبطة بالصبر، وراجعة إلى الصبر، ومحمولة على الصبر، وجارية مع الصبر، كيفما تأملتها، وعلى أي حال تدبّرتها، فإنه قطب تدور عليه جميع الأفعال المحمودة، ألا ترى أن الكرم صبر على مفارقة المال على حبه، وأن العدل صبر على إمضاء الحكم وإن شقّ، وأن الصدق صبر فربما خالطته شوائب تكره . وأما الحلم فأشتات الصبر مجموعة فيه، وكذلك جميع أحوال المراتب وأنواع المصالح، فما منح الله الصبر عبداً من عبيده وهو

يريد به شيئاً سوى الخير . رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "مَنْ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَقَالَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ آجِرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَعْقِبْنِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا فَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ بِهِ"، وَرُوي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "مَا رَزَقَ الْعَبْدَ رِزْقًا أَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ"، وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "مَنْ أُعْطِيَ فَشَكَرَ، وَمُنِعَ فَصَبَرَ، وَظَلَمَ فَغَفِرَ، وَظَلَمَ فَاسْتَغْفَرَ: أَوْلَيْتُكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ"، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَانْتَزَعَهَا مِنْهُ وَعَوَّضَهُ الصَّبْرَ، إِلَّا كَانَ مَا عَوَّضَهُ اللَّهُ أَفْضَلَ مِمَّا انْتَزَعَهُ مِنْهُ . وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ أَبُو تَمَّامٍ الطَّائِي:

مَا عَوَّضَ الصَّبْرَ امْرُؤًا إِلَّا رَأَى مَا فَاتَهُ دُونَ الَّذِي قَدْ عَوَّضَا

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَنْ أَحَبَّ الْبَقَاءَ فَلْيَعِدَّ لِلْقَضَاءِ قَلْبًا صَبُورًا . وَمِنْ أَقْوَالِهِمْ: صَبْرُ الْمَرْءِ عَلَى مُصِيبَتِهِ أَحْمَدُ مِنْ جِزَعِهِ، وَجِزَعُهُ عَلَى مُصِيبَةِ إِخْوَانِهِ أَحْمَدُ مِنْ صَبْرِهِ . وَقِيلَ إِنَّ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَمِعَ بَعْضَ حُكَمَاءِ الْجَنِّ يَقُولُ: عَوَاقِبُ الْمَكَارِهِ بِالصَّبْرِ مَحْمُودَةٌ . وَقَالَ الرَّاجِزُ:

رَأَيْتُ عَبَّءَ الصَّبْرِ مِمَّا يُحْمَدُ
وَإِنَّمَا النَّفْسُ كَمَا تُعَوَّدُ
وَشَرٌّ مَا يَطْلُبُ مَا لَا يَوْجَدُ

حُكِيَ أَنَّ الرَّشِيدَ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ حَبِيسَ رَجُلًا فَحَسَنَ صَبْرَهُ، وَسَهَلَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْهُ الْمَوَكَّلُ بِهِ بَعْدَ حِينٍ، [ف] ^(١) قَالَ لَهُ: يَقُولُ لِي كُلَّ يَوْمٍ: هَذَا يَوْمٌ قَدْ مَضَى مِنْ نَعِيمِكَ، وَمَضَى مِنْ بؤْسِي مِثْلَهُ، وَالْأَمْرُ قَرِيبٌ، وَالْحُكْمُ لِلَّهِ . فَرَفَّقَ لَهُ وَأَمَرَ بِإِطْلَاقِهِ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ . وَفِي مِثْلِ ذَلِكَ يَقُولُ عِمَارَةُ بْنُ عَقِيلٍ:

تَرَى كُلَّ يَوْمٍ مَرًّا مِنْ بؤْسٍ عَيْشَتِي عَلَيْكَ يَوْمٍ مِنْ نَعِيمِكَ يُحَسَّبُ

(١) إضافة يقتضيها السياق .

وقيل: إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كثيرًا ما كان يتمثل بهذه الآيات
- وقيل: إنها له-^(١):

إني رأيت وللأيام تجرّبة للصبر عاقبة محمودة الأثر
وكل من جدّ في أمر يطالبه واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر
لا تضجرنّ ولا يدخلك مَعجزة فالنُّجْحُ يتلف بين العجز والضجر

وقال عثمان بن عفان:

خليلي لا والله ما من ملّمة تدوم على خلق وإن هي جلت
فإن نزلت يومًا فلا تخضعن لها ولا تُكثِرِ الشكوى إذا النعل زلت
فكم من كريم قد بُلي بنوائب فصابرها حتى مضت واضمحلت
وكم غمرة هاجت بأمواج غمرة تلقيتها بالصبر حتى تجلّت
وكانت على الأيام نفسي عزيزة فلما رأَت صبري على الذلّ ذلّت
فقلت لها يا نفس موتي كريمةً فقد كانت الدنيا لهائم ولّت

وقال أيضًا رضي الله عنه- وقيل: إن هذين البيتين الآخرين من قول الربيع بن
ضبيع فتمثل بهما-^(٢):

غني النفس يكفي النفس حين يكفها وإن عَضّها حتى يضرّ بها الفقر
فما عسرة - فاصبر لها إن لقيتها - بدائمة إلا سيعقبها يُسرُّ

رُوي عن الليث بن سعد أنه قال: قال عبد الله بن سلام للذين شاهدوا قتل عثمان
ابن عفان رضي الله عنه: ما كان قوله وهو متشحط في دمه؟ قالوا: كان يقول: اللهم

(١) أورد العسكري البيت الثالث فقط، وعزاه للمقتع . كتاب الصناعتين، ص ٣٤٦ .

(٢) م: بها.

اجمع أمة محمد . اللهم اجمع أمة محمد . قال ابن سلام: قالها؟! والذي نفسي بيده لو دعا عليهم أن لا يجتمعوا ما اجتمعوا أبداً .

وقال شبيب بن شَبَّة: إن أحق ما صبرت عليه ما لم تجد سبيلاً إلى دفعه . وقال بعض الحكماء: ليس الفضل في الكفّ عن الأذى، إنما الفضل في الصبر على الأذى، ولا استنجح امرؤ بمثل الصبر على الأذى . ومن كلام العلماء: أفضل الأخلاق عند المصائب الصبر؛ لأن الهارب مما هو كائن إنما يتعلق في يد الطالب . وفي ذلك يقول ابن الرومي:

وإذا أتاك من الأمور مقدّرٌ ففررت منه فنحوه تتوجّه
ومما ينظر إلى هذا المعنى قول أبي العرب الصقليّ حيث يقول:
كأن بلاد الله كفاك إن يسرَّ بها هاربٌ تجمع عليه الأناملا
فأين يفرّ المرء عنك بجرمه إذا كان يطوي في يديك المراحلا؟
ومثله قول الأول:

كأن بلاد الله وهي عريضة على الهارب المطلوب كفة حامل
وقيل: لما استشعر الإسكندر الوفاة، كتب إلى أمه يقدّم عندها مقدّمات للتصبر على مصابه بمواعظ ذكرها في كتابه، ثم قال لها: يا أمّاه، إذا أنا متّ فاصنعي طعاماً حسناً كاملاً، وشراباً لذيذاً حلواً، وأحضري له كافة الناس، واعهدي إليهم أن لا يحضره من نابتة من الدهر نائبة، ولا من أصابته من الزمان مصيبة، ليكون ماتم الإسكندر خلافاً عن^(١) ماتم العامة، ويكون لك في ذلك الذكر والصّيت . فلما مات امتثلت ذلك، واحتفلت في الطعام والشراب، ودعت الناس إليه، وعهدت إليهم بما

(١) م: من، والأصوب ما أثبتناه .

أمرها، فلم يأتها أحد. فقالت: ما بال الناس مع تقدمنا إليهم تخلفوا عنا؟ فقيل لها: أمرت أن لا يحضره من أصابته مصيبة، وكل الناس أصابتهم المصائب ونابتهم النوائب . فقالت: يا إسكندر ما أشبه أو أورك بأوائلك! أردت -والله- أن تعزني التعزية الكاملة . وقال بعض العلماء: خصلتان يحبهما العاقل ويكرههما الجاهل: الصبر عند النوائب، والعفو عند المقدرة . وقيل لبعض الصالحين: ما حدّ الزهد؟ قال: الصبر على البلاء، والشكر عند الرخاء . وفي بعض الحكم المشورة: السعيد من قمع بالصبر شهوته، ودبر بالحزم أمره . وقال بعض الحكماء: الصبر على حلول الحوادث، والصبر عن معترض الشهوات، أفضل ما منح العبد من الخيرات، وأوتي من الأعمال الصالحات . ومما قلت في هذا المعنى:

عليك بالصبر إن نابتك نائبةً من الزمان ولا تركز إلى الجزع
وإن تعرّضت الدنيا بزيتها فالصبر عنها دليل الخير والورع
فجاهد النفس قسراً فيهما أبداً تلقّ الذي ترجيه غير ممتنع

وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

اصبر على ضرر الحسو د فإن صبرك قاتلته
والنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكلته
ولربما بلغ الحلي ثم بصبره ما يأملته

وفي بعض الحكم المشورة: من صبر على البلاء وصل إلى الوفاء . وقال الشاعر:
الصبر مفتاح ما يرجى ولم يزل دائماً يعين
فاصبر وإن طال الليالي فربما ساعد الحرون
وربما ينل باصطبار ما قيل: هيهات لا يكون

وسئل الفضيل بن عياض عن الصبر، قال: هو الرضا بقضاء الله عزّ وجلّ . قيل:
وكيف يكون الرضا؟ قال: الراضي لا يتمنى فوق منزلته، والعاقل لا يجزع لحلول

المصيبة، وإن عظمت، وإنه يرى نعمة الله بالصبر عليها أعظم وأجل، وثوابه على احتمالها راضياً بها أكبر وأجزل، ولا يفرح باتصال العافية، وسبوغ النعمة، فإنه لا يدري ما أراد الله بها . وفي مثل ذلك قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمتُ ويبتلي الله بعض القوم بالنعم
فمثل هذا قد استوت عنده العافية والبلاء، فلا يفارقه - كيفما تصرفت فيه الأيام -
الصبرُ والرضا .

وكان صالح السمرّي يقول في دعائه: اللهم ارزقنا صبراً على طاعتك، وصبراً عن معاصيك، وارزقنا صبراً على ما تحبّ، وصبراً عما تكره، وارزقنا صبراً عند عزائم الأمور . وروى عن الحسن بن أبي الحسن أنه قال: سبَّ رجل من الصدر الأول رجلاً فلم يجبه، وقام يمسح العرق عن وجهه، ويتلو: ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [سورة الشورى، الآية ٤٣]، فقال الحسن: عقَلها والله وفهمها حين ضيَعها الجاهلون . وقال وهب بن منبه: ثلاث من كنّ فيه فقد أصاب البرّ: سخاء النفس، والصبر على الأذى، وطيب الكلام . ومن أقوالهم: الصبر حصن منيع البنيان، شديد الأركان، به يستجلب النجح في كل محبوب، ويرجى الظفر بكل مطلوب . وقال ابن المعتز:

ولا بأس أنكى من تثبّط^(١) حازم ولا دِرْع أوقى للنفوس من الصبر^(٢)
وُروى عن الحسن أنه قال: قال رسول الله ﷺ: " ما بعث الله نبياً مرسلأ إلا وكان أول وصيته إياه: الإيمان بالله، والتصديق بها جاءت به الرسل، ثم الصبر " . وقال إبراهيم التيمي^(٣): " ما من عبد وهب له الله صبراً على الأذى، وصبراً على البلاء، وصبراً

(١) م: أدكى من تثبت، والتصحيح من ديوانه، ص ٢١٦ .

(٢) في ديوانه: العمر .

(٣) م: التيمي، والصواب ما أثبتناه. وهو من مشاهير التابعين بالكوفة. انظر: البستي، مشاهير علماء

الأمصار، ص ١٢٧ .

على المصائب، إلا وقد أوتي أفضل ما أوتيته أحد بعد الإيمان بالله عز وجل . وقال معاوية بن أبي سفيان لعمر بن العاص رضي الله عنه: مَنْ أصبر الناس؟ قال: مَنْ ترك دنياه في صلاح دينه . وفي بعض الحكم: الصبر والاحتساب من أقوى قواعد الإيمان . ومن كلام الحكماء: الصبر يتأصل الحدّثان، والجزع من أعوان الزمان . وقال بعضهم: الصبر قطب الأمور، وعليه جميع الأحوال تدور، فليس شيء من الفضل إلا والصبر سببه، وإليه منتسبه . ورؤي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ليت شعري متى أشفي غيظي؟ أحين أقدر فيقال: لو غفر؟ أم حين أعجل فيقال: لو صبر؟

وقال هرم بن حيان:

الحكم زينٌ والتقى كرمٌ والصبر خيرٌ مراكب الصعبِ
ولما حضرته الوفاة، قيل له: أوصِ . قال: ما أراني بما أوصي، ولكن بيعوا درعي
واقضوا ديني، فإن لم يفِ بيعوا فرسي، فإن لم يفِ بيعوا غلامي . وعليكم بخواتم سورة
النحل . قال قتادة: أوصى - والله - بجماع الأمر، وربما أوصى بما أوصى به الله عزّ وجلّ،
ومَنْ أوصى بما أوصى به الله عزّ وجلّ فقد أبلغ . ومما تقدم لي من القول في المعنى:

| | |
|----------------------------|----------------------------|
| الصبر أوثق عروة الإيمان | وبذاك ينطق محكم القرآن |
| الصبر حلّة كل عبد مؤمن | ومجنّة من نزغة الشيطان |
| الصبر فيه عواقب محمودة | والطيش فيه عواقب الخسران |
| فلإذا لقيت من الزمان ملمة | وكذاك فينا عادة الأزمان |
| فتدرّع الصبر الجميل تيقنًا | إن التصبر رائد الرضوان |
| إن الإله مع الذين هم اتقوا | ومع الذين هم أولوا الإحسان |

فصل

والصبر له وجوه تتفرع منها فروع تُحَلِّي عيش الصبور، وتمرّ عيش الجزوع، منها:
الصبر على الفرائض، والصبر على النوافل، والصبر على الأذى، والصبر على الأوجاع،
والصبر على الفقر، والصبر على المصائب، والصبر عن المعاصي، والصبر عن الشهوات،
والصبر عن الشبهات، والصبر عن فضول جميع جوارح البدن، وعن فضول جميع
الأعمال، وكل عمل يعمل المرء من أعمال الطاعة فيه عليه مشقة فهو فيه صابر، وكل
عمل يعمل منه ليس عليه فيه مشقة فهو من حسن معونة الله عزّ وجلّ للعبد كفاه
مؤونة المشقة، وأذاقه حلاوة المعونة، وقال:

أما والذي لا خلدَ إلا لوجهه ومن ليس في العزّ المنيع له كُفُو
لئن كان بدء الصبر مرًا مذاقه لقد يُجتنى من غبّه الثمرُ الخُلُو

وقال رجل من قريش:

الخلق للخالق والشكر للمنعّم والتسليم للقادر
وخالص البرّ ومحض التقى والورع الصادق للصابر
وقال داود لسليمان عليهما السلام: يُستدلّ على تقوى المؤمن بثلاث: حسن التوكل
فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر على ما قد فات . وقال ابن أبي
نجيح: أجر الصابر فيما يُصاب به أعظم من النعمة عليه فيما يعاقب فيه . وقال بعض
العلماء: الصبر على ثلاث منازل: أولها: ترك الشكوى من النازل، وكتمانه عن الناس .
والثانية: الرضا بالقدر، والاستسلام لمحتوم القضاء . والثالثة: المحبة لصنع الله عزّ وجلّ،
والاستبشار بموهبته، وهي أرفع المقامات وأعلاها وأجلّها وأسناها؛ لأن المحبة أجلّ من
الرضا، والرضا أجلّ من الصبر، والصبر جامع لأشتات الإيمان .

فصل

ومن الصبر ما يكون تفضلاً، كمثل مَنْ وصل إليه أذى من قول أو فعل في نفس أو مال، وهو قادر على الانتصار، ثمَّكَّن من المكافأة بظاهر الحق وموجب الشرع، فترك ذلك تفضلاً وتطوُّلاً، وردّه بالصبر تشرعاً وتورّعاً، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۗ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [سورة النحل، الآية ١٢٦]، فالصبر على الأذى - مع القدرة على الانتصار - من أرفع مراتب الصبر .

والصبر عامٌّ في جميع الأحوال، متعيّن في كل الأفعال، ومعانيه كلها فرائض موجودة، ونوافل مستحبة، لا يستغني عنه أحد، ولا يجد بداً منه، وكيفما تصرّف المرء في جميع أموره، وتصرّف به دهره في مكروهه ومسروره فالصبر قرينه، والثقة تعينه، والهدى يسدده، والتقى يؤيده، ألا ترى الزارع كيف يفرق بذره، ويقدم صبره، وهو لا يلدرى متى ينزل المطر، ولا يعرف ما الله صانع فيه، فهو صابر واثق .

وقوّة الثقة بالله هي الباعثة على الصبر لأمر الله تعالى، كما أن القنوط يبعث على الجزع ويصدّ عن الورع . جعلنا الله من العالمين بالصبر وفضله، العاملين بفرضه ونفله، المستمسكين فيما بعد بحوله وطوّله .

فصل

في قبح الجزع ومعائبه

الجزع - وقاك الله - خلّة ذميمة، تعجب النفوس السقيمة، وتوهن القوى الجسيمة، تميم القلب، وتعظم الخطب، وتضعف النفس، وتورث اللبس، تدلّ على تحوّر الطبيعة، وتبعث على مخالفة الشريعة . وهي، وإن كانت خليقة في الإنسان، فإنها هي أشبه بخلائق النسوان، قد رُكبت في هذه النفوس الأمارة، وقُرنت بالطبائع

الخَوَّارَة، فهي تألف العقول المختلة، وتسكن القلوب المعتلة، قال الله عزّ من قائل: ﴿إِنَّ
 الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾
 [سورة المعارج، الآية ١٩ إلى ٢٢]، فأوقع الاستثناء على الجامعين لحدود الله، المستمسكين
 بعري اليقين، فإن الجزوع - لا محالة - واثق بربه، قد كمن الخور في قلبه، وأياسه القنط
 من زوال خطبه، فلا يزال أبدًا في بلاء من نفسه متوقعًا من غده، أسفًا على أمسه، إن
 حدثته نفسه بصبر أو عزاء كذبها، وإن تعرضت له عوارض سلوان أو تأنيس تحامها
 وتجنبها، فهو لا يجد لما فات خلفًا، ويأمل لما ينتظره نصفًا، حتى يهلك نفسه حسرة
 وأسفًا . وقد قال بعض الحكماء: الجرّع على الغاية آفة، وعلى المتوقع سخافة، فهو لا
 يخلو عمره من النكد، ولا يستفيق من التعذيب والكمّد؛ لأنه لا ينفك عن حالين:
 أحدهما: استعظام ما نزل به، والأخرى: تخوّف ما يستقبل، فلا يزال معذبًا بما لا يقدر
 على دفعه، متوقعًا لما عساه أن لا ينزل به . وقال أبو العتاهية:

ترى الشيء مما يتقى فتهابه وما لا ترى مما يقى الله أكبر
 وقد يهلك الإنسان من باب أمنه وينجو بحول الله من حيث يحذر

وكفى بهذا حزنًا دائمًا، وهمًا لازمًا، ونعوذ بالخالق، من شرّ الخلائق مما أحوج
 الإنسان إلى أن يأخذ نفسه بالتصبر، ويلجأ في جميع الأحوال إلى التسليم، كما قال لقمان لابنه:
 ﴿وَأَصْبِرْ عَلَيَّ مَا أَصَابَكَ^ط إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [سورة لقمان، من الآية ١٧]، فإن العبد إذا
 أطاع نفسه وأهلها، وأسلمها ليد الجرّع وأغفلها، ولم يحملها على الصبر فيما دهمها، فقد
 بَخَسَهَا حَقَّهَا وأحرمها، وهانت عليه وما أكرمها، فسكنت إلى الجرّع وامتنعت من السلوان،
 فقلّ الأمن، واستولى الجرّع، وعظم الخطب، وتضاعف الكرب، كما قال ابن الرومي:
 إن البلاء يُطاق غير مُضاعف فإذا تضاعف صار غير مُطاق

وقالت الحكماء: من قلَّ صبره، وعظم عليه أمره، وضاق عن حمل ما نزل به صدره، فقد تبين كفره . ومن الحكم المشورة: مَنْ أَكْثَرَ الشُّكُوى، عَظُمَتْ عَلَيْهِ البُلُوى . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصبر قاطع الحدثان، والجَزَعُ من أعوان الزمان. وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: فيمَ الجزع فيما لا بدَّ منه، وفيما الطمع فيما لا يرجى . ومن كلام بعض العلماء: مَنْ كَثُرَ جزعه كَثُرَتْ زَلَّتُهُ، وَعَظُمَتْ عِلَّتُهُ، وَبَعُدَ أمله، وحبط عمله .

ولا يؤمن على مَنْ كان الجَزَعُ من شأنه، أن يذهب بإيمانه، فيقع فيما لا طاقة به لحامله، ويغرق في بحر لا يطمع له بساحله، فإنه من ضعف يقينه، فقد فسد عليه دينه، كما قال الشاعر:

يا عَجَبًا لِلهَلَعِ الجَزَاعِ يصبح بين الذمِّ والوزرِ
مصيبة الإنسان في دينه أعظم من نائبة الدهرِ

قيل لبعض الأعراب: ما لك لا تخرج إلى الغزو؟ فقال: أنا والله أجزع للموت على فراشي، فكيف أن أمشي إليه راکضاً؟ وقيل: إنه انهزم رجل جَزوع في حرب، فشتمه أميره وقبح إليه فعله، فقال له: لأن تشتمني -أصلحك الله- وأنا حيّ، خير من أن تترحم عليّ وأنا ميت . وهي أبلغ ما قيل في تحسين الفرار . وقول الحارث بن هشام حين قُتل أخوه أبو جهل يوم بدر وأثر الفرار . فلما عُبِّرَ به، قال هذا الشعر:

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى علوا كرشني بأشقر مزبدٍ
وشممت ريح الموت من تلقائهم في مَأزِقِ والخيل لم تترددِ
وعلمت أني إن أقاتل مفردًا أقتل ولا يضرر عدوي مشهدي
ففررت منهم والأحبة فيهم طمعاً لهم بإياب يومٍ مفسدِ

وذكر أن كسرى كان يسمع حكم العرب وأقوالها، ويرى أشعارها وأمثالها، فلما سمع هذا الشعر قال: قاتل الله العرب! لقد حسنت كل شيء، حتى حسنت الفرار .

فصل

ومع إفراط الجزع، وتمكن الحذر والهلع، يكون تعجيل الانتقام، وتنفيذ الاغتنام، مخافة التأسف على الغاية، مع سوء الظن بما يطرأ، فتستفزّه الهفوة، وينهض به الطيش، ولا يجد من تأييد العقل ما يصرفه عن مواجهة الجهل، ولا من حسن الثبّت معيناً على استدراك التفلت، فيتملكه الخرق، ويتعبده الحرص، فيمضي عزيمة السّفه، وكل من عظم قدره، ورجح عقله، وقوي صبره، رجعت فكرته في تأمل العاقبة، وظفر بالنجح، واستجمل العاقبة . والموفق الله .

وما أحسن قول ابن الحارث في المعنى:

ولا خير فيمن لا يوطن نفسه على نائبات الدهر حين تنوب

وقيل في بعض الحكم: مَنْ لم يجزع للنوائب، وشكر على المواهب، أته المحامد من كل جانب . وقالوا: مَنْ صبر على الضراء، أسخن عيون الأعداء، وأقرّ عيون الأوداء . وفيما وقع من الحكم: ويل للهْلُوعِ الجزوع! ما أنكر حياته، وأكثر آفاته! يقلّ صبره لما ينزل، ويسوء ظنه بما يستقبل، فلا يزال أخا فكر ووجل، عمره متصل النكد والوجل، بعيد الرجاء والأمل . وقال عامر العدواني في بعض وصاياه: هل للجزوع عاقبة تنفع، أو مانع يدفع؟ فإن حاولت ذلك فسل القرون الماضية والأمم الخالية: هل مُنِع من أسف وجزع؟ وهل خاب مَنْ صبر وقنع؟

وكتب بعض الحكماء إلى صديق له يعزيه: الجزع - وفقك الله - ينهك البدن، ويفني العمر، وينكد العيش، ومَنْ سلط على نفسه الجزع جنى عليها البوار، والجازع على الغاية كالمنفق لنفيس ماله على ما هو عالم بقلة جزائه، والسلام .

ومن كلام بعض العلماء: إذا كان الصبر يمحق الكبائر، والجزع يعظم الصغائر، فلا شيء أنجع من حسن العزاء، ولا شيء أحرى من انتظار الجزاء .

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: كتب الله عزّ وجلّ في اللوح المحفوظ: أنا الله لا إله إلا أنا محمد رسولي، من استسلم لقضائي، وصبر على بلائي، وشكر على نعمائي كتبته صديقاً وحشرته مع الصديقين . ومن لم يستسلم لقضائي، ولم يصبر على بلائي، ولم يشكر نعمائي فليتخذ لهاً غيري .

وقال ميمون بن مهران: من لم يرض بالقضاء، فليس لدائه دواء . ومن مشور الحكم: من جزع على المفقود، فقد أسخط المعبود، وأرضى الحسود، وأسخن عين الودود . ومما قلتُ في المعنى:

لا تجزعن لفائتٍ فتقرّ عين الشامتِ
والقّ الحوادث والكوا رث باختيار الثابتِ
إن التصبّر للردى شيمُ التقى القانتِ

وقال بعض الحكماء: من ألف الجزع قلبه، عظم عليه خطبه، وأنكره صحبه، ولم يرض عنه ربّه . وقيل: إن امرأة من عرب البادية دخلت الحاضرة، فمرّت بدار فيها نوائح يبكون، وضّراخ يصيحون، فقالت: ما بال هؤلاء؟ قيل لها: ميت قد مات . قالت: ما أراهم إلا من ربهم يستغيثون، ولقضائه يبرمون، وعن ثوابه يرغبون .

وقيل لبعض الحكماء: ما لذة العيش؟ قال: الصبر عند المصيبة، واليأس عما في أيدي الناس . قيل فما نكد العيش؟ قال: مواصلة الجزع، وكثرة الطمع . وقيل: الجزع والخور ينكدان العمر، ولا يردان القدر . وقال بعض الشعراء:

لا تجزعن على ما فات مطلبه فلست عمرك للماضي بمرئج
لم يلبس المرء ثوباً شرّ من جزع ولا تحلّى بمثل الصبر والورع

وكان سقراط يقول: الجَزَعُ سقام القلب، كما أن المرض سقام البدن، ومن ميّز الدنيا لم يفرح لرخاء، ولم يجزع لبلاء . وقيل في بعض الحكم: الجَزَعُ على ما فات من أعظم الآفات، والفرح بالمنتظر من أكبر السخافات . ومن كلام الحكماء: لا ينفع من المصائب الجَزَعُ ولا التبطي، ولا مما هو واقع الحذر والتوقي . وكتب رجل من العلماء لابنه: يا بني إياك والجَزَعُ على ما فات، والطمعَ فيما لا يُرجى، وما اشتدّ خطب إلا وأعقبه فرج، ولا انسدّ بابٌ إلا سوف ينفرج، فإن الله عزّ وجلّ قد جعل مع العسر يُسْرين، وجعل في الصبر خير الدارين، وما زال مع الصبر الظَّفَرُ والأنس، ومع الجَزَعُ الكرب واليأس، فاختر لنفسك ما يدنيك إلى الله ويقربك، واطرح عنها ما يبعثك ويكرهك، والسلام .

وقال بعض الشعراء:

لا تجزعن إن مضت للخطب أيامٌ فربما ساعدت للسعد أعوامٌ
وإن تعرض عسر فانتظر فرجاً صرف الليالي هما بؤس وإنعامٌ

وقال بعض العلماء: إذا ابتليت فثق بالله ولا تجزع، وإذا عوفيت فاشكر الله ولا تقطع، وإذا وقف بك أمر فلا تيأس ولا تطمع، وفوض أمرك إلى الله فنعم الملجأ ونعم المرجع، فإذا فعلت فقد فزت بخير الدارين أجمع . وقال بعض الشعراء:

إذا ابتليت فثق بالله وارض به إن الذي يكشف البلوى هو الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته ما لا مرئ حيلة فيما قضى الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه لا تأيسنَّ فنعم القادر الله

وكتب رجل إلى بعض إخوانه: أما بعد، فإن لزوم الجزع على المصيبة أعظم من المصيبة، وما زال الجازع يهلك في الدنيا نفسه، ويحبط في الأخرى أجره، وما عوض المرء من الصبر أحبّ إليه إن عقل مما لقي من الدهر، والتسليم للقدر خير من الجزع للغير، فلا تعرض - يا أخي - نفسك إلى ما ينكد غدك ويفسد أمسك، والسلام .

وقال بعض الحكماء: إنما الجزع والإشفاق قبل وقوع الأمر، فإذا وقع فالرضا والتسليم . وقال بعض الحكماء: مَنْ فاته الصبر فيما وقع، ولزمه على ما فاته الجزع، وصحبه فيما لا يمكنه الطمع، فقد زال عنه الخير وارتفع . أخذه بعض الرجاج فقال فيه:

مَنْ فاته الصبر على العَلَاتِ
ولزم الجزع على الفَوَاتِ
وطمع الدهر في غير الآتِ
فقد تعرض إلى الأفَاتِ

ومن الحكم المثورة: يعتزي العاقل فيما نزل به من المكروه بأمرين: أحدهما: السرور بما يبقى له من الأجر، والآخر: الفرج مما نزل به من الأمر، ويجزع الجاهل في مصيبتيه بأمرين: أحدهما: الاستكثار لما حلّ به، والآخر: الخوف مما هو أشد منه . وقال ابن السّمّاك: إن المصيبة إذا نزلت إنما هي واحدة، فإذا جزع صاحبها كانتا اثنتين .

وحكي أنه مات لسليمان بن عبد الملك ابنٌ، فجزع عليه جزعاً شديداً بلغ به إلى الامتناع من الطعام والشراب والكلام، فدخل الناس عليه يعزّونه، فكلُّ تكلم بما عنده على قدر معرفته، وهو ساكت، حتى دخل يحيى بن منصور، فقال: أصلح الله الأمير، عليكم نزل كتاب الله، فأنتم أعلم الناس بتأويله، وفيكم كان رسول الله ﷺ، فأنتم أعرف الناس بسنته، ولست ممن يُنبّه من جهل، ولا يقوم من عَوَج، ولست أعزّيك بشيء لم يسبق إليه عملك، ولكنني أعزّيك ببيت من الشعر . ثم أنشأ يقول:

وأهون ما ألقى من الوجد أنني أجاوره في داره اليوم أو غدا

فلما سمعه استوى على نفسه، وقال له: أعد . فأعاد عليه، فقال: يا غلام هات الغداء! ولما مات ابن ابنه أيوب بن سليمان، قال سليمان لعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة: إنني لأجد في كبدي جمره لا تطفئها إلا عبرة . فقال له عمر رضي الله عنه: اذكر

الله يا أمير المؤمنين، وعليك بالصبر . فنظر إلى ابن حيوة، فقال له: أفضها يا أمير المؤمنين! فقد دمعت عينا رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم، وقال: "العين تدمع، والقلب يوجع، ولا نقول ما يسخط الرب"، فأرسل سليمان عينيه حتى قضى أرباباً، ثم قال لهما: لو لم أنزفها لصدعت كبدي . فلما دفنه، وحثا عليه التراب، وركب دابته التفت إلى القبر، وقال:

وقفت على قبر مقيم ببقعة متاع قليل من حبيب مفارق
وأحسن ما قيل في المعنى:

تعزُّ فإن الصبر بالحرِّ أجملُ وليس على ريب الزمان معوّلُ
فلو كان يغني أن يرى المرء جازعاً لحادثة أو كان يغني التذللُ
لكان التعزي عند كل ملّمة ونازلة بالمرء أولى وأجملُ
فكيف وما الإنسان مالك أمره ولا لامرئ مما قضى الله مدخلُ

ومما يتعلق به، أنشده ابن دريد حيث يقول:

إذا اشتملت على اليأس القلوبُ وضاق لما به الصدر الرحيبُ
ووطئت المكاره واطمأنت وأرست في مكانها الخطوبُ
ولم ترَ لانكشاف الضرِّ وجهاً وقد أعيأ بحيلته الأريبُ
أتاك على قنوط منك غوثٌ يمنّ به اللطيف المستجيبُ
فكلُّ الحادثات وإن تناهت فمقرون بها الفرج القريبُ

جعلنا الله ممن تثبت لصرف الزمان قدمه، وحُثي بالصبر على نوب الدهر أدمه،
وآثر الرضا والتسليم لقدر الله فُرُوع في الأعمال الصالحات عَلمُه، بفضل من شملتنا
رحمته، وعمنا جوده وكرمه، لا ربّ غيره .

الباب الخامس

في إيثار الزهد والورع، والإقصار عن الرغبة والجشع

الزهد - وفقك الله - من أوثق أركان العبادة، وأقوى أصول الديانة، المؤدي إلى السعادة، وهو سبب راحة القلب والبدن في دار الدنيا، ومورث الدعة والتنعم في دار البقاء؛ لأن الزاهد في الدنيا إنما يعتني - بترك ما ترك منها - المعاوضة به في أخراه الجزاء والمقارضة، فهو يشقى لينعم، ويصبر ليفوز ويغنم . وقد خصّ الله به أنبياءه، واستعمل به أوليائه .

ومعنى الزهد ضد الرغبة . وحده ترك ما حرّم الله ورسوله من الشهوات المخالفة للنفس المعلقة بالقلب . وهي درجتان: فالدرجة الأولى: هي أن يزهد العبد في الدنيا وهو مائل إليها، راغب فيها، متعلق النفس بها، فيغلبها عليها، ويقسرها عنها لما ترجيه مما هو أفضل منها، كالباذر الذي يخزن طعامه تحت التراب طائعاً غير مكره ولا باخل، واثقاً بما ينتظر من النمو والزيادة، فيرى سعيه حسناً، وتجارته رابحة . الدرجة الثانية: هي أن يزهد في الدنيا لما يراه من تقلبها بأهلها، وكثرة غدرها، واسترجاع مواهبها، وقصر مدتها، ونفاد سرورها، وتواتر خطوبها، مع معرفته بهوانها على الله عزّ وجلّ، وأنها لا تزن عنده جناح بعوضة، وأنه مذ خلقها ما نظر إليها، وما جاء في ذلك من الآثار، ونقلته الرواة من الأخبار، فهو يكره ما كره الله، ويبغض ما أبغض الله، وهي درجة رفيعة .

فصل

وقد فترق قوم من العلماء بين الزهد والورع، فجعلوا الزهد ترك المحرمات، والورع ترك المباحات . وقد قيل لبعضهم: ما الورع؟ قال: ترك الأخذ بالرخصة، والدخول تحت التأويل عند الضرورة . فكل ورع زاهد، وليس كل زاهد ورعاً . وكلاهما راجع إلى معنى واحد؛ لأن أصلها الترك لأشياء أوجب الشرع تركها، والامتناع من أمور اقتضى الإيثار منعها، لكن أحدهما أقوى من الآخر .

والزهد والورع لا يكملان لأحد إلا مع استفاضة العقل، وصحة اليقين، وإمعان النظر في أحوال الدنيا السريعة الزهاب، الوشيجة الانقلاب، وإعمال الفكرة في الآخرة ونعيمها الذي لا انقضاء لأمده، ولا إحصاء لعدده، فإذا نظر العبد ذلك بعين بصيرته، وتدبره بحسن قريحته، صح له رفض الدنيا والإقبال على الآخرة، ولا يدرك ذلك أحد إلا بفضل رحمة الله عز وجل، وهو القائل، عز من قائل: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ [سورة النور، من الآية ٢١] .

ولا يُطلق اسم الزهد إلا على من ترك المحرمات، واستجنب المشتبهات، وتورع عن كثير من المباحات . وقد قال إبراهيم بن أدهم: الزهد ثلاث مقامات: فزهد يفرض، وزهد سلامة، وزهد فضل؛ فالزهد الفرض: الكف عن المحارم، والزهد السلامة: ترك المشتبهات، والزهد الفضل: الزهد في الحلال . وهذا تفسير حسن . وقال المحاسبي رحمه الله عليه: أصل الطاعة الورع، وأصل الورع التقى، وأصل التقى محاسبة النفس . وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: "خير دينكم الورع" . وقال عليه السلام: "الورع سيد العمل"، وقال ﷺ: كن ورعاً تكن أعبد الناس، وكن قنعاً تكن أشكر الناس"، وقال صلوات الله عليه: "من لم يكن له ورع يصدّه عن معصية الله إذا خلى لم يعبأ الله بشيء من عمله"، وقال عليه السلام: "من ترك اللباس وهو قادر

(١) م: ينطلق، ولعل الصواب ما أثبتناه .

عليه تواضعًا له، دعاه الله على رؤوس الخلائق يخيره في حلل الإيوان، فلبس من أيها شاء". وقالت عائشة رضي الله عنها: إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة: الورع. وقال رسول الله ﷺ: "مَنْ لقي الله وَرِعًا أعطاه ثواب الإسلام كله". ورُوي عن عبد الله بن عمر أنه قال: والله لو صلّيتم حتى تكونوا كالحنايا، أو صُمتُم حتى تكونوا كالأوتار ما تقبل منكم إلا برّ صادق. وقال بعض العلماء: مَنْ لم يضمّر نفسه في مضمار الرياضات، ويتورّع عن مواقعة الشبهات، لم يسبق إلى غاية الخيرات. وقال أيضًا: مَنْ أحبّ لنفسه الحياة فليمتّها. يعني بالزهد في الدنيا.

وذكر في بعض الآثار: أن الله عزّ وجلّ قال: [أما] ^(١)الورعون فلاني أستحيي أن أحاسبهم. وقال يحيى بن معاذ: مَنْ لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل إلى الجزيل من العطاء. وقال بعضهم: يجزي قليل الورع عن كثير من العمل. وقال الضحاك: أدركت الناس وما يتعلمون إلا الورع، وإنهم اليوم يتعلمون الكلام. فسبحان الله العظيم ما أسرع هذا الانقلاب في عمر رجل واحد، فكيف ما بين ذلك الزمان وزماننا هذا؟

وقال رسول الله ﷺ: "ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس"، وقال عليه السلام: "الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن"، وقال ﷺ: "إذا أراد الله بعبد خيرًا أزهده في الدنيا، ورغبه في الآخرة، وبصره عيوب نفسه"، وقال ﷺ: "إن الله ليحامي عبده من الدنيا كما تحمون مريضكم من الطعام والشراب تخافون عليه"، وقال عليه السلام: "إذا رأيتم العبد قد أعطي صمتًا وزهدًا في الدنيا فاقربوا منه".

وقال سفيان بن عيينة: الزهد ثلاثة أحرف: زاي وهاء ودال، فالزاي: ترك زينتها، والهاء: ترك هواها، والدال: ترك الدنيا بأسرها. ومن كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ولا تمل لمن كانت الدنيا أمله، والخطايا عمله. وقال بعض الحكماء: الزاهد مَنْ لم يطلب المفقود، حتى فقد الموجود. وهذا إيجاز حسن.

(١) إضافة من: الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٥١٦.

فصل

وليس الزاهد من زهد في الدنيا وقد أعرضت عنه، وانبتت منه، ولم تمكنه من متاعها، وضيقته عليه مع اتساعها، فإنه مضطر إلى ذلك لظهور عسره، ونفوذ يسره، وإنما الزاهد جدّ الزاهد، من أقبلت عليه، وأحشدت فوائدها إليه، وحسنت له في ذاتها، وأمكنته من لذاتها، فزوى وجهه عنها، وآثر الفرار منها، كما قال أبو تمام الطائي:

إذا المرء لم يزهد وقد صبغت له بعصفرها الدنيا فليس بزاهد
وقد وصف بعض الحكماء أحد الزهاد، فقال: كفّ عن زخرف الدنيا ونضرتها، وغصّ طرفه عن متاعها وزهرتها، فأعرض عنها وقد تعرّضت له بزيتها، وصدّ عنها وقد تصدّت له في حليتها .

وشبه بعض العلماء طالب الدنيا بكلب جائع مرّ بعظم فلاكه، فمن شدة لوكه أدمى فمه، فهو يجد طعم الدم ويظنه من العظم، ولا يدري أنه يؤذي نفسه .

وقيل لعبد الله بن المبارك: من الناس؟ قال: العلماء . قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد . قيل: فمن السفلة؟ قال: الذين يأكلون بدينهم . وقال أيضًا ابن المبارك وقد سئل عن الزهد، فقال: الزهد إخفاء الزهد .

ودخل بعض الزهاد يومًا على أبي جعفر المنصور ومعه ابنه المهدي، فقال له المنصور: هذا ابني المهدي، وقد وليته عهد المسلمين . فقال له الرجل الصالح: إنك قد رضيت له الأمر الذي يرزأك في وقت أنت عنه مشغول . فبكى أبو جعفر، وقال له: عظمي . فقال له: يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك منه ببعضها، فإن هذا الأمر الذي أصبح في يديك، لو بقي في يد غيرك ممن كان قبلك، لم

يصلُ إليك، فاحذر ليلة تمخض بيوم لا ليلة فيه بعده . ولقد أعجبتني هذا الكلام
فنظمته وقلت:

رحم الإله فتى أعدّ لليلة قرنت صحيفتها بأفزع مشهد
عظمت على أهل اليقين فيا لها من ليلة مخضت بيوم الموعد
طوبى لعبيدٍ موقنٍ بحلوها عبَدَ الإله مصدقًا بمحمد

لما ولي المهدي، قال له شريك: يا أمير المؤمنين، قد بلغت غاية الدنيا، فاطلب غاية
الآخرة .

وقال أبو سليمان الداراني: الزهد وجوه كثيرة، وهو عندنا ترك كل شيء يشغلك
عن الله تعالى . وقال بعض الحكماء: ما لنا لا نزهد في الدنيا وعمرها أمد، وخيرها نكد،
وصفوها كدر، وأمانها غدر، إن أقبلت تشجي، وإن أدبرت ترددي! ومما قلت في هذا
المعنى:

تباً لطالب دنيا لا بقاء لها كأنها هي في تصرفها حلم
صفاؤها كدرٌ سراًؤها ضررٌ أمانها غررٌ أنوارها ظلم
شبابها هرمٌ راحتها سقمٌ لذاتها ندمٌ وجدانها عدم
لا يستفيق من الأنكاد صاحبها لو كان يملك ما قد ضمنت إرم
فخلّ عنها ولا تركزن لزهرتها فإنها نعيم في طيها نقم
فاعمل لدارٍ نعيم لا نفاذ لها ولا يُخلف بها موتٌ ولا هرم
وقيل لبعض العلماء: صف لنا الدنيا . فقال: ضحكة مستعبر .

فصل

ومن أرفع درجات الزهد ترك الظهور، وإيثار الخمول، وبغض المحمدة في جميع الأمور، وإطراح التزين بها حتى في الطاعة، قال الله عز وجل: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْبِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِلِ ﴾ [سورة آل عمران، الآية ١٤]، وكلها مباحات، فلما كان حب المحمدة غالبًا في جميع الأحوال على القلوب، محببًا في كل الأشياء للنفوس، هلك به أكثر الناس، وقهر عقول الأكياس، فإذا زهد الرجل في المحمدة على ما يظهر من الطاعة، وما أوتي من العلم فهو في سوى ذلك أزهد، غير أنها درجة قل ما رقي إليها بشر، ولا استوى عليها خطر، ومن الذي عرفت منزلته في الخير، وشهر فضله في الناس، ويريد أن يسقط من أعينهم، وتنحط منزلته عندهم، ولا يجب أن يذكر بعلمه، ويوصف بخيره، ويحسن أثره بعد موته، ويتنافس في شهود جنازته، ويتحدث بصلاحه، ويذكر بقديم طلبه، وعلو رتبته؟ وكل ذلك من زينة الدنيا وحب المحمدة فيها، فما أعدم هذا الصنف جملة .

وقيل: إنه دخل أبو حازم على سليمان بن عبد الملك فقال له: يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم عمرتم دنياكم وأخربتم أخراكم، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب . وما أفنع هذا الجواب . وقال بعض الزهاد: يا ابن آدم، مالك لا تزهد في الدنيا، وقد علمت - يقينًا - أنها فانية، وما لك تصحب الأيام بأمالك وهي بك إلى أجلك ساعة؟ تقطع بك المسافات وأنت لا تشعر، وتوردك المهالك وأنت لا تنظر، حتى تبلغك وقتاً تروم استدراك أمرك فلا تقدر . ورحم الله القائل حيث يقول:

رأيت أخا الدنيا وإن كان قاعدًا تسير به أيامه وهو لا يدري

وقال أيضًا:

ومن عجب الأيام أنك قاعد على الأرض في الدنيا وأنت تسيّر
فسيرك في الدنيا كَسَيْرِ سفينةٍ بقوم جلوس والقُلُوع^(١) تطيرُ

وقال أبو نؤاس في ذم الدنيا:

إذا امتحن الدنيا ليببُ تكشفتُ له عن عدوِّ في ثياب صديقي

ومن الحكم المثورة: الزهد في الدنيا ترك الأمل، وتقريب الأجل . وقال سهل:
طالب العلم ثلاثة: فواحد يطلب علم الورع مخافة دخول الشبهة، فيدع الحلال خوف
الحرام، فهذا زاهد متقٍ، وآخر يطلب علم الاختلاف ليدخل في سعة المباحات، فيأخذ
بالرخص، وطالب آخر يسأل عن الشيء فيقال له: هذا لا يجوز، فيقول: كيف أصنع
حتى أجد من يجوزه؟ فيسأل من عنده علم الاختلاف والشبهة، فمثل هذا هلك،
وهلك الناس على يديه . وقال بعض الحكماء: لا ينبغي للمرء أن يلتمس من الدنيا
فوق الكفاف الذي يدفع به الحاجة، ويكفّ به الأذى عن نفسه، فإنه إذا نظر إلى متاع
الدنيا سرّه، إذا أقبل عليه، وساءه إذا أدبر عنه، فيقع فيما يشغله عما يعنيه، ويقطعه عما
يرتجيه . وقيل: أقل الناس همًّا أزهدهم في الدنيا . وهذا كلام صحيح . وقيل لبعض
الصالحين: إن فلانًا له همّة . قال: إذن لا يرضى بدون الجنة . وقيل لبيحيى بن معاذ:
متى يكون الرجل زاهدًا في الدنيا؟ قال: إذا بلغ حرصه على تركها حرص الحريص على
طلبها . ومن كلامه أيضًا: إذا رأيت الزاهد يستريح إلى الرخص فقد بدا له في الزهد .
وقال الفضيل بن عياض: جعل الله الشرّ كلّهُ في بيت واحد، وجعل مفتاحه حبّ الدنيا،
وجعل الخير كلّهُ في بيت واحد، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا . وقال لقمان عليه

(١) القلغ: شراع السفينة . لسان العرب (قلع).

السلام لابنه: يا بني، بع دنياك بأخرتك فتربحهما جميعًا، ولا تبع أخرتك بدنياك فتخسرهما جميعًا . ومن حكم يحيى بن معاذ: ليكن نظرك إلى الدنيا اعتبارًا، ورفضك لها اختيارًا، وسعيك فيها اضطرارًا، وطلبك الآخرة ابتدارًا . وقال أبو الدرداء: لئن حلفت لي على رجل منكم أنه أزهكم لأحلفن أنه خيركم .

وحكي عن إبراهيم بن أدهم: أنه كان من أهل الغنى والثروة، وأرباب التنعم والرفاهية، وكان له قصر بخراسان، فأشرف منه يومًا على رجل قد استكن إلى فناء القصر، بيده رغيف يأكله، فجعل ينظر إليه حتى أكله، ثم نام في فناء القصر، فقال إبراهيم لبعض علمانه: إذا انتبه جئني به . فلما انتبه جاء به إليه، فقال إبراهيم: أيها الرجل، أكلت رغيفك؟ قال: نعم . قال: فشبع؟ قال: نعم . قال: ثم نمت طيبًا؟ قال: نعم . قال إبراهيم: فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بمثل هذا؟ فزهد فيما كان عنده، وتركه، وخرج متبذًا عن الدنيا، فكان من شأنه ما علم، رحمه الله .

وروي في بعض الآثار: أنه يؤتى بالدنيا يوم القيامة، فيؤخذ منها ما كان خالصًا لله، ثم يلقي ما بقي في النار . ومن كلام بعض الصالحين: لكل عمل كمال، وكمال الدين الورع . وقيل في بعض الحكم: الشريف إذا تزهد تواضع، والوضيع إذا تزهد تكبر . وقيل لبعض الحكماء: ما لك تزهد في المال؟ قال: وما حاجتي بشيء الجهل يأتي به، واللؤم يحفظه، والنفقة تبيده؟ وقال بعض الصحابة لبعض التابعين: أنتم أكثر أعمالًا واجتهادًا من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم كانوا خيرًا منكم . قيل: ولم ذلك؟ قال: لأنهم كانوا أزهد منكم في الدنيا . وروي: أنه قال لعيسى ابن مريم عليه السلام بعض أصحابه: لو أذنت لنا أن نبنى بيتًا نعبد الله تعالى فيه . قال: اذهبوا فابنوا بيتًا على الماء . قالوا: وكيف يستقيم بنيان على الماء؟ قال: فكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا؟ ومن

كلامه عليه السلام: "يا ابن آدم، إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك، فأقلها يكفيك، وإن كنت تريد منها فوق ما يكفيك، فكلها لا تكفيك". أخذه أبو العتاهية فقال:

إن كان لا يغنيك ما يكفيك فكل ما في الأرض لن يغنيك

وفي منشور الحكم: مَنْ تجاوز الكفاف لم يَقْتَهُ الإكثار . وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه لما نزل قوله عز وجل: ﴿ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [سورة التوبة، من الآية ٣٤] قالوا: **هنا الله** - تبارك وتعالى - عن كثر الذهب والفضة، فأبي شيء ندخر إذن؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ليتخذ أحدكم لساناً ذاكرةً، وقلباً شاكراً، وزوجةً سالحةً تعينه على أمر دنياه". وعن أبي الدرداء: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "مَنْ زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة في قلبه، فأنطق بها لسانه، وعرفه داء الدنيا ودواءها، وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام".

فصل

والزهد على ثلاثة أوجه، فالزهد الذي ليس فوقه زهد: أن يكون العبد لا يسره أن الدنيا كلها له يعمر عمرها، ويحتوي ملكها، ولا يصل إليه شيء من مكارهها، فلا يسأل عنها، ولا يرضى بها، ولا يتمناها لنفادها وانقراضها، فهذا هو الزهد الذي ليس فوقه زهد، وهو غير موجود إلا ما تلقى من ذكره في الكتب، ويتردد على الألسنة منه في **المجاشر**.

(١) لا أعلم من المقصود بقوله: من كلامه صلى الله عليه وآله وسلم: هل هو عيسى ابن مريم عليه السلام، أم نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام؟ ولم أجد فيما أطلعت عليه من مصادر - على كثرتها - هذا القول منسوباً لعيسى عليه السلام أو لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنني وجدته منسوباً لأبي حازم الزاهد في مصدر واحد فقط، هو: ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ٢، ص ٣٦١.

والوجه الثاني، وهو الموجود في أهل الزهد: أن يكون العبد يزهد في الدنيا وقلبه معلق بها، محب لها، مائل إليها، فهو يمنع نفسه قسراً عنها مخافة سوء عواقبها، فهو من نفسه في جهاد، ومن علاجها في اجتهاد، فهو زاهد صابر .

والوجه الثالث: أن يزهد فيما حرم الله عليه، وهو اللازم للعباد والمفروض عليهم، الذي ليس للعبد فيه عذر، ولا له عليه حجة، وهو دون الوجه الثاني، وله فيه نجاة من النار برحمة الله العزيز الغفار .

وقال بعض العلماء: لن يصل المرید إلى إرادته من الطاعة، ولن يبلغ إلى بغيته من العبادة إلا بالزهد في الدنيا والصبر على تركها، وهو أصل الديانة وقلماً يجتمع إليه الورع مع حب الدنيا، فإنها متفرقان .

وقد اختلف العلماء في تعيين وجوه الزهد، كسفيان الثوري والأوزاعي والحاسبي وغيرهم، رحمهم الله جميعهم، تركنا استيفاء أخبارهم فيه وإخبارهم عنه بحاشية التطويل والتشطيط، والخروج عن القصد المشروط . وقلماً قدر أحد على الخروج منه، ولا وجد الانفصال عنه، لاتصال أسبابه، وانفتاح أبوابه، وكل أقوالهم راجعة إلى أصل، ومبنية على أمر، وهو ما قدمناه من رفض الدنيا ودواعيها، لسوء عواقبها ومساوئها، وما تفرع من ذلك وتشعب، وتمكن القول فيه وترتب، وكلهم ما عدم التوفيق، ولا عدل عن الطريق، ولا انفصل عن التحقيق، والله درّ القائل حيث يقول:

لما تؤذن الدنيا به عن صرفها يكون بكاء الطفل ساعة يوضع
علام بكى لما رآها وإنما لأرحب مما كان فيه وأوسع

وقال أبو سليمان الداراني: ليس الزاهد من ألقى هموم الدنيا عن نفسه فاستراح منها بتلك الراحة، إنما الزاهد من زهد في الدنيا وأتعب نفسه فيها لنيل الآخرة . وقال مالك بن دينار: إنما طلب العابدون بطول النَّصَب دوام الراحة، وطلب الزاهدون بطول الزهد طول الغنى .

فصل

وقد اجتمعت الأمم من أهل الملل والمفلسين وأرباب النحل على الزهد في الدنيا وترك التشبث بها، وطوائف من الدهرية وأمثالهم وهم الذين لا يوقنون لبعث ولا حساب، ولا يؤمنون بثواب ولا عقاب، لما نظروا إليها فهموا عنها، فوجدوها كثيرة الآفات، سريعة الاستحالات، وشيكة الذهاب، شأنها التحول والانقلاب، لا يدوم لها نعيم، ولا يخلد فيها مقيم، تنقل أهلها من الشباب إلى الهرم، ومن الصحة إلى السقم، ومن الوجود إلى العدم، تضع الرفيع، وترفع الوضيع، وتعاند العالم العاقل، وتساعد الجاهل الخامل، فلا تنفك عن مجال، ولا تستقر على حال، فحملهم ذلك على الزهد فيها، والرغبة عنها، فكيف بمن نظر وحقق، وآمن وصدق، وأيقن بالبعث والحساب، ولم يشك في الثواب والعقاب، وصدق بالنبوة والكتاب؟ لقد كنا أحنّ بالزهد فيها، والانتباز منها، لو أظلتنا سحائب التوفيق، وهدتنا إلى سواء الطريق، ونظرنا إلى قول الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧]، وقول رسول الله ﷺ: "من ازداد في العلم رشدًا، ولم يزد في الدنيا زهدًا، لم يزد من الله إلا بُعْدًا".

وفي بعض الآثار: بينا رجل يشيع جنازة بالجبانة، إذ رفع إليه شيخ فسمعه يقول: ما رأيت مثل مصرع هؤلاء! وأشار إلى الأموات، ولا مثل غفلة هؤلاء! وأشار إلى الأحياء. ثم قال: اللهم فرغني لما خلقتني ولا تشغلي بما تكفّلت لي به، ولا تحرمني وأنا أسألك، ولا تعذبني وأنا أستغفرك. قال: فدنوت منه وقلت له: أيها الشيخ، علّمني هذا الدعاء. فعلمّني، ثم قلت: من أنت؟ يرحمك الله. قال: أنا الخضر.

وليس الزهد في الدنيا بإهمال النفس، وإضعاف الجسم، وإدخال الضرر بتقتير العيش، والتعرض للمعاطب، والتصدي إلى المهالك، فإن استعمال ما تصح به القوى، وتحيا به النفس، وتعين على العمل بالطاعة والتصرف في أعمال الصبر، صلاح بين وواجب متعين، وكما أن الزيادة على قدر الحاجة ممنوع في الشرع، كذلك الاقتصار على الكفاية ممنوع في الشرع، والعقل يمنع منهما جميعاً، وقد تقدم لنا كلام مثل هذا . ألا ترى إذا خرج العبد مجاهدًا في سبيل الله فانتخب السلاح، واستخار الفرس، وحسن الأهبة، واستكمل الإعداد للرهبه، ثم شغل نفسه في طريقه بالنظر في ذلك كله والقيام عليه، أليس ذلك من تمام جهاده، وكمال بغيته ومراده؟ وكذلك يصحبه في إصلاح نفسه، وحفظ قوى بدنه، ليقوى على القيام بفرائض دينه، ويتم سعيه إلى تأدية حقوق مولاه، وهو ولي الهداية لمن تولاه، لا رب سواه .

وقد قال محمد بن المنكدر: نعم العون المال على تقوى الله . وقال الثوري: المال سلاح المؤمن . ودعا أعرابي عند أستار الكعبة فقال: اللهم لا شرف إلا بفعال، ولا فعال إلا بإمال، فهب لي ما أستعين به على شرف الدنيا والآخرة . وقال عثمان بن عفان: يا حبذا المال، أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي . ومن كلام معاوية بن أبي سفيان: إن الشرف والسؤدد ليتقلان مع الغنى كما ينتقل الظل . فانظر إلى هذه الطائفة على تقدمها في العلم، ونظرتها في الخير والافتداء في أعمال البر، ترى أن القوة والقدرة تقرب من الله، وتعين على تقواه، وما التوفيق إلا بالله . وقال قيس بن عاصم في إيثار الثروة:

يسود هذا المأل غير مسودٍ ويحرمه ليث فيصبح ثعلبا
وأول ما يجفوق الفقير لفقره بنوه ولم يرضوه في فقره أبا
كأن فقير القوم في الناس مذنبٌ وإن لم يكن من قبل ذلك أذنباً

(١) م: صلاح، والتصحيح من ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٢، ص ٣١٩ .

وقال آخر:

إذا قل مال المرء لانتُ قنأته وهان على الأدنى فكيف الأبعد؟

وقال آخر:

والمرء يخفى إذا قلت درأهمه وليس ينفعه إن كان ذا حسبٍ

وكما يجتنب التحرج المؤدي إلى الضرر، كذلك يجتنب الإكثار المؤدي إلى البطر، وفي هذا توقف من توقف؛ لأن الزهد وحب المال لا يجتمعان على حال، بل هما ضدان متنافران، كما ذكرنا، وخير المال التقوى، وهي الفائدة العظمى، والغاية القصوى، والأقرب إلى السلامة من خدع الدنيا، كما قال أبو الدرداء:

يريد المرء أن يعطى منها ويسأى الله إلا ما أَرادا

يقول المرء: فائدتى ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا

وقال مالك بن دينار لمحمد بن واسع: يا أبا محمد، طوبى لمن كانت له غنية تقوته ويستعين بها على الناس . فقال له محمد بن واسع: يا أبا محمد، طوبى لمن أصبح جائعاً، وأمسى طائعاً، وهو عن الله راضٍ . وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال: قلة التمني، والرضى بما يكفي . فاستبان أن الرضى الزهد الأعظم، والورع الأتم وهو أجل مقامات الطاعات، وقد قدمنا ذكره .

وقال بعض الصالحين: أهل الزهد قد تركوا الدنيا بجملتها، فكيف لا يتركون الذنوب؟ وترك الدنيا من النقل، وترك الذنوب من الفرض . وقال يحيى بن معاذ: الزاهد الصادق قوته ما وجد، ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث أدرك . وسئل سهل بن عبد الله التستري عن القوت قال: هو الحي الذي لا يموت . قيل: إنما سألتك عن

القوام! قال: هو العلم . قيل: إنما سألناك عن الغذاء! فقال: هو الذكر . قيل: إنما سألناك عن طعمة الجسد! فقال: ما لكم وللجسد! دعوه لمن تولاه أولاً يتولاه آخرًا، فإن دخلت عليه علة ذروه إلى صانعه، فإن الصنعة إذا دخلها عيب ردت إلى صانعها فأصلحها . وكان عبد الله بن المبارك يقول: الرجاء الشوق، والشوق يورث الاجتهاد، والاجتهاد يورث الفكر في النعيم، والفكر في النعيم يورث الشكر، والشكر يورث معرفة المنّة، ومعرفة المنّة تورث صحبة الله، وصحبة الله تورث الزهد في الدنيا، والزهد في الدنيا يورث الرغبة في الآخرة، والرغبة في الآخرة تورث الاشتغال بالطاعة، والاشتغال بالطاعة يورث النعيم الدائم .

قال ابن عباد الخزاعي لبعض إخوانه: يا أخي، اترك التعلق بالدار التي يبغضها الله عز وجل، وخذ حاجتك منها على الكراهة والتناقل، والاضطرار والتخامل، وحاسب نفسك باللحظة فما فوقها، والخطرة وما دونها، فإن الله تعالى لا يقبل إلا ما أريد به وجهه، وكان الدنيا قد أسلمتنا بما فيها، وأقبلت علينا الآخرة بدواهيها، فما ظنك يا أخي بيوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، ولا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئًا، وترى كل أمة جاثية، كل أمة تُدعى إلى كتابها، يوم يكون النبيون فيه خائفين، وأولياء الله من ذنوبهم مشفقين، فكيف بمن أنقلته الذنوب، وأوبقته المعاصي!؟

فطوبى لعبد زهد في الدنيا، ورغب في الآخرة، وجعل بضاعته القناعة، ورأس عماله الرضى، مع اليقين الثابت، والتصديق الصحيح، والخضوع اللازم، واجتماع شمل أسباب التقى، فحتم له بالحسنى . والله وليّ العون على طاعته وعصمته، المانّ بمغفرته ورحمته، المتطول بإحسانه ونعمته، بمنه ويمنه .

فصل

في الاقتصار عن الرغبة والجشع

الرغبة - عافاك الله - من أقيح الخلائق، وأذم العلائق، وأرث الجبائل، وأشأم الشيم والشائل، تدل على الأخلاق البهيمية، والطباع السُّبعية، وهي من أعظم الآفات الدينية، وأكره العاهات المشنوءة المقلية، لا يزال صاحبها أبدًا مذمومًا، وبأقيح الصفات موسومًا، قد تملك الجشع طباعه، فلا تعرض له القناعة، ولو كانت الدنيا بأسرها متاعه، غمر حب الدنيا قلبه، وغمر التهافت إليها عقله، فهو لا يحتقر اليسير، ولا يقنع بالكثير، بل شأنه أكل الدنيا خضمًا وقضمًا، ولو استطاع ما استوجب فيها أحد سهمًا، فلا تراه أبدًا إلا فقيرًا لا يؤسر، ومقللاً لا يكثر، ومنهومًا لا يشبع، وجامعًا لا يقنع، وناهضًا في السرف لا يرجع، ومقيمًا على الطمع لا يقلع، وقلما يخلو عن الحسد، ولا يستفيق من الكمد، قد جعل الفقر نصب عينيه، وأصبح واثقًا بما في يديه، لا يتوكل على خالقه، ولا يقنع بقسمة رازقه، فما أخسر صنعته! وما أجل مصابه وكربته! يجمع ولا يدري أهو مالكة أم تاركة، وينصب وهو لا يدري أمستراح إليه أم هو هالكة، والله يقول، عز من قائل: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * مَوْصَلِيًّا نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [سورة المسد، الآية ١ إلى ٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [سورة الأنعام، من الآية ١٤١]، وقال رسول الله ﷺ: "ما من أحد إلا وبينه وبين رزقه حجاب، فإن قنع وأكل، أتاه رزقه". وروى أنه وجد في بعض الكتب المنزلة: يا ابن آدم، لو كانت الدنيا كلها لك، لم يكن لك منها إلا القوت، فإذا أنا

أعطيتك منها القوت، وجعلت حسابها على غيرك فأنا لك محسن . وقال ابن مسعود: ما من يوم إلا ينادي فيه مَلَكٌ من تحت العرش: يا ابن آدم، قليلٌ يكفيك خيرٌ من كثير يطغيك . وقال رسول الله ﷺ: "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مَعَانِي فِي بَدَنِهِ، مَعَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحِذَافِيرِهَا".

وقال بعض العلماء: إذا أحبَّ الله العبد زهده في الدنيا، يكره ما كره الله، وإذا بغضه رغبه في الدنيا، فأحبَّ ما أبغض الله . وقال بعضهم: الرغبة في الدنيا تورث سقوط الحظ في الآخرة، والقناعة في الدنيا تورث وفور الحظ في الآخرة . وتلا:

﴿ أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾ [سورة التكاثر، الآية ١]، إلى آخر السورة .

وقالوا: أطيّب العيش القناعة، وأنكد العيش الرغبة . ومن كلام الحكماء: مَنْ أَحْرَزَ الْقُوَّةَ وَاطَّرَحَ الْفُضُولَ، فَقَدْ بَلَغَ الْمَأْمُولَ.

وفي مشور الحكم: مَنْ تَرَكَ الْفُضْلَ، فَقَدْ حَازَ الْفُضْلَ . والفضل: ما زاد على الحاجة . ومن أمثالهم: من أخلص الضمير، وقنع باليسير، سقط على الخير، ووصل إلى الكثير . وقال بعضهم: ما رأيت غني أفضل من القناعة، ولا فقراً أشد من الرغبة . وأنشدوا - وقيل: إنها لعلي بن أبي طالب -^(١):

أفادتني القناعةُ أيَّ عَزْءٍ وأيِّ غنى أعزّ من القناعةِ
فصيّرها لنفسك رأس مال وصيّرها بعدتها التقوى بضاعةِ
تجذربحّين: تغنى عن بخيلٍ وتنعم في الجنان بصبر ساعةِ

وقال أيضًا رضي الله عنه:

قَنَعَ النَّفْسَ بِالْكَفَافِ وَإِلَّا طَلَبْتُ مِنْكَ فَوْقَ مَا يَكْفِيهَا

(١) نسبها الشجري لأبي بكر أحمد بن دينار المقرئ . الأماالي الشجرية، ج ٢، ص ٢٤٧ .

إنما أنت طول عمرك ما عمّت - سرت في الساعة التي أنت فيها
ومن كلام الحكماء: الرغبة لؤم، والاستقضاء شؤم، والحريص محروم . وقيل:
الحرص ذل، والطمع فقر. وقيل لبعض الزهاد: [ما] مالك؟ قال: التجمل في الظاهر،
والقصد في الباطن، واليأس عما في أيدي الناس . وقالوا: من ترك الرغبة، واقتصر على
القوت من الحلال دخل في أهل الورع . وفي بعض الحكم: الجوع لذة الأبرار، وحياة
المتقين، وخلق الزاهدين، وفعل الصالحين، وسنة النبيين.

وَرُوِيَ أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: عَلَيْكُمْ بِالْمَاءِ الْقُرَاحِ، وَالْبَقْلِ
الْبَرِيِّ، وَخَبِزِ الشَّعِيرِ. وَإِيَاكُمْ وَخَبِزَ الْبُرِّ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَقُومُونَ بِشُكْرِهِ . وَقَالَ الْفُضَيْلُ
بِْنِ عِيَاضٍ: مَا شَبِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ خَبِزِ الْبُرِّ . وَكَانَ ﷺ
إِذَا أَصَابَتْهُ خِصَاصَةٌ قَالَ لِأَهْلِهِ: "قُومُوا إِلَى الصَّلَاةِ"، وَيَقُولُ: "بِهَذَا أُمِرْتُ"، وَيَقْرَأُ:
﴿ وَأُمِرَ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْفُكَ رِزْقًا فَنَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ
لِلتَّقْوَى ﴾ [سورة طه، الآية ١٣٢]، وَسَمِعَ ﷺ رَجُلًا يَتَجَشَّأُ، فَقَالَ لَهُ: "أَقْصِرْ مِنْ
جَشَائِكَ يَا هَذَا! فَإِنَّ أَطْوَلَ النَّاسِ جُوعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ شَبَعًا فِي الدُّنْيَا" .

وقال بعض الزهاد: أذبيوا أبدانكم من اللحوم، وأحيوا قلوبكم بذكر الله الحي
القيوم . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إياكم والبطنة؛ فإنها ثقل في الحياة، وتتن في
الممات . ومن كلام الحكماء: البطنة تذهب الفطنة . وقال يحيى بن معاذ: من كثر شبعه
كثر لحمه، ومن كثر لحمه كثر شهوته، ومن كثر شهوته كثر ذنوبه، ومن كثر
ذنوبه قسا قلبه، ومن قسا قلبه غرق في الآفات . وقال بعض الصالحين: عجبت لطالب
الدنيا يمسي ويصبح وما له سواها هم، وقد علم أن تركها غنم، والإكثار منها غم .
وقد قال سابق البربري:

(١) إضافة من الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ١١٣٦، كي يتم المعنى .

النفس ترغب في الدنيا وقد علمت أن السلامة منها ترك ما فيها
وقال عبد الله بن المبارك: في قلة الطعام راحة للنفس، وفراغ للقلب، وكثرته تमित
الخطا، وتورث الهمّ الحاضر؛ لأنك تأكله فتذهب لذته، ويثقلك ثقله، ويبقى عليك
حسابه . رُوي لما أهبَطَ اللهُ تعالى آدمَ عليه السلام إلى الدنيا أن أول شيء عمل فيها أنه
أخذت . قال ابن عباس: فلما نظر إلى ما خرج منه تأذى برائحته فاغتمّ لذلك، فقال له
جبريل عليه السلام: هذه رائحة خطيبتك . ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه
عطش يوماً فأتي بشربة فيها عسل، فجعل يديرها في كفه ويقول: أشربها فتذهب حلأوتها،
وتبقى تباعتها . ثم دفعه إلى بعض القوم فشربها . وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه:
تفنى اللذادة ممن نال صفوتها من الحرام ويبقى الإثم والعارُ
تبقى عواقب سوء من مغبتها لا خير في لذة من بعدها النارُ
وكان إياس بن معاوية لا يتخب اللباس، فقال له خالد بن صفوان في ذلك، فقال:
لأن ألبس ثوباً أقي به نفسي أحبّ إليّ من ثوب أقيه بنفسي . وهذا من جيد القول . وقال
بعض الحكماء: مَنْ قنع بما قُسم له، ورضي بما وصل إليه، وترك الفضول رغبة عنها، فقد
تخلص من الآفات، وأمن من التباعات .

ومما قلت:

دع التهافتَ للدنيا وزينتها ولا يغرّتك الإكثارُ والجشعُ
واقنع بما قسم الرحمن وارضَ به إن القناعة مالٌ ليس ينقطعُ
وخلّ ويك فضولَ العيش أجمعها فليس فيها إذا حققت متفعُ
وكلّها تبعات تسترق إذا ما خلص الناس منها الزهد والورعُ

فصل

واعلم أن القناعة ليست في المطعم والملبس والمسكن خاصة، بل هي في جميع أحوال الإنسان كلّها، وعوارض الدنيا أجمعها، كالرضا بسقوط المنزلة وإيثار الخمول وفراق حبّ الثناء وقلة التعرض للجاه وترك جميع أسباب الظهور وما يتعلق بمعاني التقدم في الأمور، وإن ذلك كلّه فنوع من الدنيا باليسير، واقتصار على التافه الحقير، الذي يؤمن به الطغيان، ولا يخاف منه الخسران؛ لأن العبد إنما يترك ذلك في الدنيا طمعا في بلوغ المنزلة الرفيعة في الأخرى .

وقيل: السعادة الأبدية في الدار الباقية التي لا تفتنى، فإذا ألزم نفسه التخلي عن الشهوات، والانتباز من جميع اللذات، فقد أصاب رحمة الله تعالى رأيه، ونجح بفضل الله سعيه، وليس الخروج من جميع أحوال الدنيا كلّها إلا في الفضول والزوائد، الكثيرة التبعات، القليلة الفوائد، لا في الأخذ للنفس لضرورتها، وإحراز قوتها ونبوتها، فإنه كما يفسد الإكثار كذلك يضر الإقلال، وكما يجب الأخذ منها فيما يصلح بها كذلك يجب إعطاؤها فيما لا يضرّها، وإنما الشرف في ترك السرف، والفضل في أطراح الفضل، والبعد من وجوب البطر وركوب الخطر. وقد مضى لنا في هذا النوع كلام ربا دعا إلى تكراره أطراد القول في ذلك النظام .

وقال رسول الله ﷺ: "خير أمتي الذين لم يعطوا حتى يبطروا، ولم يقتر عليهم حتى يسألوا" . وقال بعض العلماء: ليس لك من الدنيا إلا غداء يوم وعشاء ليلة، فلا تهلك نفسك في أكلة، وصم عن الدنيا وافطر عن الآخرة، وإن رأس مال الدنيا الهوى، وريحها النار .

ومن كلام الحكماء: يا ابن آدم، مالك ترغب في لذة لا تصحب ولا تدوم وتغرك عند اختلالها، وتعرك عند انتقالها، وتتعبك في الدنيا أنفقالها، وتؤذيك في الآخرة أنفقالها، فإذا زاغ عنك زمانها أسرع إليك نسيانها فوجدتها كالحَيال الطارق والظل المفارق، فإنما أحوال الناس في هذه الدنيا كعدد في صحيفة، كلما نشر بعضها طوي بعضها. وفي مثل ذلك يقول بعض الشعراء:

ألا إنما الدنيا كأحلام نائم وما خير عيش لا يكون بدائم
تأمل إذا ما نلت بالأمس لذة فأفئتها هل أنت إلا كحالم
ومن أمثال الحكماء: حدّ العفاف الرضا بالكفاف . وقال بعضهم: تجنّب^(١) الرغبة والطمع تجلّ، ولا ترغب فيهما فتذلّ . وقال ابن المعتدل^(٢):

وأعلم أن بنات الرجاء تحلّ العزيز محلّ الذليل
وأن ليس مستغنياً بالكثير من ليس مستغنياً بالقليل

فصل

ولجميع حواس الإنسان أيضًا فضول يجب أطراحها، كفضول الكلام وفضول النظر وفضول السماع وغير ذلك من السّعي والبطش وما شاكلهما، وكلّها شهوات كامنة في القلب يتبعها الحرص والإرادة، فنبدأ -بحسن عون الله عزّ وجلّ- بذكر فضول الطعام والمشرب، وإليها أكثر إشارة هذا الباب، وهو ما زاد على القوت وتجاوز مقدار الكفاية . وما زال يقسّي القلب ويغلظ الطبع، ويجمع الكسل، ويورث الغفلة،

(١) م: جنب .

(٢) م: المعدل . وهو عبد الصمد بن المعتدل العبدي البصري (ت ٢٤٠ هـ) .

ويميت الخاطر، ويسدّ مسام الفهم؛ فلا يجد صاحبه من نفسه قبولاً لدواعي الخير؛ وقد قال رسول الله ﷺ: "لا تمتتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب كالزرع يموت إذا كثرت عليه الماء". وقال ﷺ: "ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن". وقال لقمان عليه السلام لابنه: يا بنيّ إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة. وقال بعض العلماء: في التخفيف من الطعام ثلاث خصال: صحة الجسم، وذكاء الذهن، والقرب من عيش الملائكة.

وأما فضول الملبس، فهي ما زادت على تورية الجسم^(١) وستر العورة. وقد قيل في بعض الحكم: العري الفادح خير من الزيّ الفاضح. ومن كلام الحكماء: ليست العزّة في حسن البزّة، فإنّ التّنعم بلبس الثياب والتجمل بحسن الزيّ يشغل العبد حتى لا يعأ بشيء من أمر دينه، ميلاً لديناه. وقلما يخلو صاحبه من العجب، وهيهات لا تستر الملابس المقابح، ولا تحجب المناكر والفضائح.

وأما فضول الكلام، وهي ما زاد على الذكر وما يكون في ذات الله، من أسر بمعروف أو نهي عن منكر، فذلك من غفلة القلب عن ذكر الله وذكر الآخرة، وانتصابه للشهوة المعترضة من الشّره إلى الكلام، والحرص على الإقدام، ولا سيما إن أدرك قليل معرفة ليقال هو البليغ الخطيب المفصح اللبيب ولو ظهر إليه خطؤه، واستبان له زلّؤه، لخفض الصوت، وأطال الصمت.

وأما فضول النظر وأكثره فضول، لأنها حاسة حُبب إليها حسن المناظر من الإنس وسائر الحيوانات، والمبهجات من المباني والنباتات، وغير ذلك من سائر الأشياء،

(١) م: الجسم.

فيشغل صاحبها الحرص على النظر والالتفات والميل إلى أنواع المراتب عن كثير مما يصلح به، ويذهله عن كثير مما يعنيه، وحسبنا آية سليمان عليه السلام ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِئَاتُ الْجِيَادُ ﴾ [سورة ص، الآية ٣١] وقال رسول الله ﷺ: "النظرة سهم من سهام الشيطان مسموم، مَنْ تركها مخافة الله أعقبه إيماناً يجد طعمه في قلبه" . وقد قدّمنا في النظر ما فيه مقنع وله من نفس المحقق موضع .

وأما فضول السماع وهي ما قدّمنا أيضًا ذكره من الإصغاء إلى سماع المكروهات من الكذب والغيبة والنميمة وسماع أصوات الأغاني، وقرع الملاهي وسواجع الطير وما أشبه ذلك، فيذهل الاشتغال بها وكثرة الإصغاء إليها عن سماع المواعظ النافعة، وقبول الزواجر المانعة، وفهم المعاني المؤدية إلى التحقيق، الباعثة على سلوك الطريق، فهو أصم سميع، وكذلك منع ما ذكرناه من أفعال ابن آدم وما ركب في حواسه من الفضول التي قدّمنا ذكره، وكلها يمتنع المطيع من استعمالها ويرجع المرید عن أمثالها، فإنها مخوفات الدواعي محذورات المساعي، وفيما أوردناه شواهد تدل عليها وأعلام توصل إليها، غنينا بها عن الاستيعاب مخافة الإسهاب والخروج عن مقتضى الكتاب، وكفى بهذا الراكن إلى فضول شهواته، الجانح إلى دواعي لذاته، الجامح في أعنة هفواته، إنها تبطل حواسه عن قبول ما يؤديها إلى اللذات الدائمة والنعيم المؤبد والخيرات الشاملة والسرور المخلد، إلا أن يتوب ويرجع ويثوب ويقنع، والله ولي الهداية المانّ بالعصمة والكيلاية^(١)، لا ربّ سواه ولا معبود إلا إياه.

(١) كلاك الله كيلاة أي حفظك وحرصك . لسان العرب (كلا) .

الباب السادس

في حب العدل وفضله، وبغض الجور وأهله

العدل - أرشدك الله - قوام الدنيا والدين، وسبب صلاح المخلوقين، به قامت السماوات والأرضين، وله وُضعت الموازين. وهو المرغوب والمألوف المأمون من كل تخويف وتحريف، به تألفت القلوب والتأمت الشعوب، وظهر الصلاح واتصلت أسباب النجاح، وانعقدت عُرى الإيمان والفلاح، وشمل الناس التناصف، وضمتهم التواصل والتعاطف، وارتفع التقاطع والتخالف، وهو مأخوذ من اعتدال القوام والصواب. وهو نوعان: ظاهر وباطن، وكل نوع منهما ينقسم إلى أقسام، ويتفصل على أحكام.

فأما الظاهر: فهو في الحكم بين الناس؛ لقول الله سبحانه ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ [سورة المائدة، من الآية ٤٢] وفي عدالة الشهود لقوله عز من قائل ﴿ وَأَشْهِدُوا ذُوَى عَدْلِ مِمَّنْكُمْ ﴾ [سورة الطلاق، من الآية ٢] وفي صدق القول؛ لقوله تبارك اسمه ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [سورة الأنعام، من الآية ١٥٢] وفي إصلاح البين لقوله جل ذكره ﴿ وَإِنْ طَافَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ إلى قوله ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ مُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [سورة الحجرات، من الآية ٩] وفي الوزن لقوله عز وجل ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۗ ﴾ [سورة الإسراء، من الآية ٣٥] يريد المعتدل، وكذلك في جميع الأشياء، فإنها مفتقرة إلى العدل فيها والاعتدال في جميع معانيها.

وأما الباطن فهو في جميع ما يلزم الإنسان من محاسبة نفسه فيما بينه وبين الخالق وفيما بينه وبين المخلوقين .

فأما الذي بينه وبين الخالق: فامتثال أحكامه، والتزام حدوده، والوقوف عند أوامره ونواهيه وإن شئت، والرضا بقضائه، والتسليم لقدره وإن لم يوافق اختياره، وكل ذلك باعث على العدل، وهو حقيقة الإيمان، والله أعلم بمصالحه .

وأما الذي بينه وبين المخلوقين: فالإنصاف من نفسه فيما كان له وعليه، وأخذ الحق وإعطاؤه، وقول الصدق وإنصاره، وحسن المعاشرة، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، وكتمان السر، وغير ذلك مما يتعلق بحكم الشريعة ويقتضيه الحق، وتوجيه مكارم الأخلاق . ومتى عُرِّي عن أشباه هذه الخصال فقد عدل عن طريق العدل وحاد عن سَنَنِ الحق . كما أنه إذا ألزَمها نفسه واشتغل بها استطاعته، فقد استكمل الخصال المحمودة، واستوفى الخلال الشريفة السعيدة الجامعة لصلاح دينه وديناه . والعدل هو ميزان الله في الأرض فَرَضَهُ على جميع عبادِهِ في الدنيا، ليتناصفوا بامثاله ويتواصلوا باستعماله .

وقيل: إنه جاء في (الزبور): العدل في ميزان الباري، وهو مبرأ من كل زلل وميل، وهو صفة من صفاته عز وجل رضي لنفسه وأراده من خلقه . وقد قال رسول الله ﷺ: "تخلَّقوا بأخلاق الله تعالى". وقال عليه السلام: "إن لله عز وجل أخلاقاً من تخلَّق بواحد منها دخل الجنة". ثم انفرد به جل جلاله يوم القيامة للفصل والقضاء بين عباده فقال سبحانه: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [سورة الأنبياء، الآية ٤٧] .

فصل

وحقيقة العدل وضع الشيء في محله وإيصاله إلى مستحقه، لا وضع المصالح حيث تكيفت، واستجلاب المنافع من حيث تهيئت، ودفع المضار عمّن حلت، ألا ترى لو أن ملكًا أعطى الأغنياء وعفا عمّن استوجب العقوبة، لكان قد أحسن إليهم وأنعم عليهم، غير أنه وضع الشيء في غير محله، وأنزله عند غير مستحقه! وما أشبه هذا التمثيل من إخراج الأشياء عن مواقع حدودها والانحراف بها عن مقتضى حقوقها، وهذا أمر نجده في المعاني إذا عدل بها عن مواضعها وقصد بها غير مقاصدها، ظهر فيها الخلل وتبين فيها النقص، والعدل شيء تألفه النفوس وتعتقده القلوب وتطمئن إليه، ويحلو للمحقق مره ويسهل على الموفق صعبه؛ ولهذا ينطاع للحق وينقاد للقصاص ويخضع للحكم، قال الله جل ثناؤه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا قَوْمِينَ بِأَلْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ۗ﴾ [سورة النساء، من الآية ١٣٥]، وقال رسول الله ﷺ: "المقسطون على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين"، وقال عليه السلام: "أعظم الناس قدرًا عند الله الملك العادل"، وقال صلوات الله وسلامه عليه: "أوصاني ربي بالإخلاص في السرّ والعلانية، وبالعدل في الرضا والغضب، وبالصدق في الغنى والفقر". وقال ﷺ: "ادفعوا الحدود ما وجدتم لها مدفعًا فلأن يخطئ الإمام في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة". وقال أرسطاطاليس: لا ينبغي لمن تمسك بالعدل أن يخاف أحدًا، فإن العدو لا يخافون إلا الله . وكتب إلى الإسكندر: املك الرعية بالعدل فيها والإحسان إليها، تفز بالمحبة منها، فإن طلب ذلك منها بالعدل والإحسان أدوم منه بالإعساف، واعلم أن بالعدل يقهر العدو، وأن

الأبدان لا تملك فتحيط بالقلوب إلا بالمعروف . ومن كلام عمرو بن العاص: سلطان عادل خير من مطر وابل . وقالت الحكماء: عدل السلطان خير من خصب الزمان، وأفضل الأزمنة زمان أئمة العدل . وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

يا أيها الملك الذي بصلاحه صلح الجميع
أنت الزمان فإن عدلــــت فكلُّه أبداربيع

وما أحسن قول الفقيه الخطيب أبي بكر بن الملح يمدح في مثل ذلك:

لو كان للشمس حكم في تصرفها والعدل ما العدل لم تبرح من الحمل
ومن فقر أبي منصور الثعالبي: حقّ الملك العادل في رعيته أن يفادوه بسنا
أبصارهم وسني أعمارهم . وسأل كسرى بعض حكماء الفرس: أيُّ الرجال خير؟
فقال: أرحبهم ذراعاً عند الضيق، وأعدلهم حكماً عند الغضب، وأبعدهم ظمناً عند
المقدرة، وأرحمهم قلباً إذا سلط، وأبسطهم وجهاً إذا سئل .

ومن أمثال الحكماء: إذا كان الإمام عادلاً، كان الصلاح شاملاً والعدوّ خاملاً . وقيل
في بعض الحكم: أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعدلها
وأعفها . وقال بعض العلماء: السلطان أمير الله في الأرض تؤدّى إليه الأمانات ما أداها
وعدل فيها، فإذا زاغ زيغ معه . وتلا قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [سورة
الصف، من الآية ٥] ، وقال تعالى: ﴿ وَذُوقُوا لَوْ تَدْرِيْنَ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [سورة القلم، الآية ٩] .

وقيل: من قام من الملوك بالحق والعدل ملك سائر رعاياه، ومن قام فيهم بالجور
والقهر لم يملك إلا الأجساد، ولم ير إلا التصنّع والقلوب عليه مختلفة، فإن السرائر
تطلب من يملكها بالعدل كما تطلب الاجساد من يملكها بالإحسان . وقال أزدشير:
إذا رغب الملك عن العدل رغب الرعية عن الطاعة .

ومن كلام بعض الحكماء: كيف ينبغي للملك أن يظلم! وإنما وُضع للعدل، ومنه يُلتَمَسُ العدل . ووصف أعرابي رجلاً فقال: ذاك والله إن قال فعل، وإن وُيِّ عدل، وإن سُئل بذل، وإن غضب لم يعجل .

فجعل

واعلم أن الدين لا يستقيم، والشرع لا يحفظ الا بالسلطان، فإن الدين إذا لم يحرسه السلطان وتعضده الأئمة لم يؤمن على أحكامه التحريف والتبديل، وخيف على شرائعه التغيير والتحويل، والسلطان هو الذي يحرس الدين ويذبّ عن حُرْمِ المسلمين، وله على أهل الأهواء رقبة، وعلى أرباب البدع هيبة، فلا يزال الدين أبداً بقوة سلطانه محروساً، وذو البغي والتعدّي بإمامته مقموراً، فإن عدل فلّه، وإن جار فعليه . ومن بدّيع الكلام في ذلك قول بعض الأدباء: إنما تصلح الإمامة بمن لا يسلم الإسلام، ولا يفارق الفرقان، ولا يملّ الملة، ولا يعدل عن العدل .

وروي عن ابن مسعود أنه قال: السلطان يفسد وما يُصلح الله به أكثر، فإن عدل فلّه الأجر وعليكم الشكر، وإن جار فعليه الوزر وعليكم الصبر . وقال ابن المعتز:

الدين بالملك يقوى والملك بالدين يبقى

فبقاء الملك بظهور الدين، وظهور الدين بقوة الملك، وطاعة الله عزّ وجلّ هي الباعثة على طاعة السلطان، وعدل السلطان يبعث على محبته، ويجمع القلوب على مطاوعته، ويحمل على الانقياد لحكمه والتسليم لأمره، فإنه إذا أطاع الله في عباده أمن الناس من عاديته، واستراحت النفوس من غائلته .

روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه دخل عليه ليبيد العجلي، فقال له عمر: أقتلت زيداً؟ فقال: يا أمير المؤمنين قتلت رجلاً يدعى يزيد، فإن كان فهو هو،

أكرمه الله بيدي ولم يهني بيده؛ فلم يرَ بعد ذلك مكروهاً من عمر رضي الله عنه . وكان رضي الله عنه قد وجد لفقده أخيه زيد وجدًا عظيمًا، وكان يقول لفرط حزنه عليه: إن الصَّبا لتَهَبُّ فتأتيني بريح زيد بن الخطاب .

وقال لمتَّم بن نُويرة: ما بلغ من حزنك على أخيك مالِك - وكان متمم أعور العين-؟ فقال: بلغ بي من الحزم يا أمير المؤمنين أنني بكيت بالعين الصحيحة حتى أسعدتها العين الذاهبة وجرت بالدمع . قال عمر: هذا وأبيك الحزن الشديد؛ ثم قال له: لو كنت أقول الشعر لسرتني أن أقول في أخي مثل ما قلت في أخيك مالِك . فقال متمم: يا أمير المؤمنين، لو قُتل أخي يوم اليمامة مثلما قُتل أخوك، ما قلت فيه بيت شعر . فقال له عمر: لله درك ما عزاني أحد في أخي أحسن مما عزيتني .

وقيل: إنه قال لأبي مريم السَّلُولي^(١) قاتل أخيه: والله لا أحبُّك حتى تحبَّ الأرضُ الدم المسفوح . وهذا مثل قول الحجاج: لأقلعنك قلع الصمغة؛ لأن الصمغة اليابسة إذا فرقت عن الشجرة انقلعت انقلاع الجلبة، والأرض لا تنشف الدم المسفوح ولا تمصه، فمتى جفَّ الدم ونشف لم تره أخذ من الأرض شيئًا . قال السَّلُولي^(٢): أفيمنعني ذلك حقًا؟ قال: لا . قال: فلا ضير، وإنما يأسف على الحبِّ النسوان . وقال بعض الخلفاء لرجل: إني لأبغضك! فقال: يا أمير المؤمنين، إنما يجزع من فقْدِ الحُبِّ المرأة، ولكن عدلًا وإنصاف .

(١) م: السلواني، والتصحيح من الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص ١٩٧ .

(٢) م: السلواني .

فصل

بالعدل استقام الدين، وتألقت النفوس، وعمرت البلاد، وتمهدت الأحوال، وأخصبت الأرض، وأثمرت الأموال، وكثر النسل، وعظمت المواساة، واتصل التواصل، وأمنت السبل، ودرّت الأرزاق، ونمت المتاجر، وعمّ الصلاحُ الخاصةَ والعامّة، كما أنه لا شيء أسرع من فساد الأحوال وخراب العمران واقتران الأهواء وتشتت الضمائر، وتقلص الأموال، وظهور الاختلال من الجور، ونعوذ بالله من سوء المصارع، وتبديل الشرائع .

ومن أمثال الحكماء: الإنصاف أحسن الأوصاف . وقالوا: مَنْ لم يدعه العدل إلى الإنصاف، دعاه الجور إلى الانتصاف؛ وأعدل الناس مَنْ أنصف من نفسه . وقال بعض الحكماء: إذا استعان الملك بعدله بكثرة الورع وقلة الطمع، فقد أخذ بطرفيه . وقيل: إذا عدل السلطان فيما قرب منه صلح ما بعد عنه .

وروي أنه كان في زمن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه راعٍ يرعى غنمه على مسيرة أيام من حضرته، فعدا عليه الذئب ليلة في غنمه، فأنكر ذلك وقال: قد مات عمر وربّ الكعبة، فنظرت تلك الليلة فإذا قد مات عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

وفي مشور الحكم: عزّ الملوك في العدل، وفضلها في الكرم، وشرفها في العفو . وأتى الإسكندرَ رجلاً يختصمان ليقضي بينهما، وكانا حكيمين، فقال لهما: الحكم يُرضي أحدكما ويُسخط الآخر، ولكن ارجعا إلى الحق وتناصفا بينكما بالعدل، فهو أبقى للمودة، وأحمد للعاقبة، وأقرب للتقوى؛ فرضيا جميعاً .

وقال بعض الصالحين: أقرب الدعوات إلى الإجابة دعوة الملك العادل، وأولى الحسنات لتعجيل الثواب أمره ونهيه في وجوه المصالح .

ومن كلام بعض الحكماء: خير الولاة مَنْ عدل في رعيته فيما يخصه منهم وفيما يخصهم منه، فأما الذي يخصه منهم فحسن النظر لنفسه فيما يجب له عليهم من التزام طاعته، فلا يبلغ فيهم من العنف عليهم منزلة تحملهم على الندم في أمره، والبرم^(١) بولايته، ولا يبلغ بهم من التراخي والإهمال منزلة تقودهم إلى الاستخفاف بأمره والإخلال بحقه، وأما الذي يخصهم منه فحسن النظر لهم والرفق بهم والتحرّي إلى مصالحهم بحسن الذبّ عنهم ورفع الأيدي المتعدية إليهم، وأخذه بالحق فيما لهم وعليهم، وانتصاف المظلوم من الظالم، والمواساة في الحقائق بين القوي والضعيف، والغني والفقير، حتى يعمّ عدله الكبير والصغير، والقريب والبعيد، كما قال عثمان بن عفان رضي الله عنه في خطبته: اعلموا أنه لا أجد أضعف عندي من القوي حتى آخذ الحق منه، ولا أقوى من الضعيف حتى آخذ الحق له .

وقال بعض الحكماء: خير الولاة مَنْ قدّم الصبر وآثر العدل، وقبل الحق، ووافق صواب الحكم، وأنصف من نفسه واجتهد في مصالح العباد .

حكى العتبي قال: بعث هشام بن عبد الملك يوماً إلى قاضيه، فلما وصل خرج إليه وزيره وأقبل إبراهيم بن محمد بن طلحة فقعدا جميعاً بين يدي القاضي، وقال له الوزير: إن أمير المؤمنين قدمني للكلام عنه مع هذا الرجل -يعني إبراهيم- فقال القاضي: تأتيني بالبيّنة على تقديمك . قال: أتراني قلت عن أمير المؤمنين ما لم يقل، وليس بيني وبينه إلا هذا الستر؟ قال: لا، ولكن لا يثبت الحق لك ولا عليك إلا بذلك، فقام ولم يلبث أن قعقت الأبواب وخرج الحرس فقالوا: هذا أمير المؤمنين. فقام إليه القاضي

(١) السام والضجر . لسان العرب (برم).

فأشار إليه فقعد وبسط له، فقعد هو وإبراهيم على البسط اتباعاً للحق، فتكلموا وحضرت البيّنة، فوجب الحكم على أمير المؤمنين، ففضى عليه .

ومثل هذا أيضاً، حُكي عن الحكم بن هشام أحد خلفاء بني أمية بالأندلس، وكان قد قدّم للقضاء بقرطبة محمد بن بشير، وكان فتىً، وكان إذا خرج وجلس في مجلس الحكم لبس رداءً مُعَصْفَرًا، ورجلٌ (١) شعره، وكان إلى شحمة أذنه، فإذا التمس ما عنده وُجد قائماً بالحق، نافذ الحكم، مؤثر العدل، قوياً في ذات الله تعالى، بعيداً عن الهوى، جَانِحاً إلى التقوى . فرَفَعَ إليه رجلٌ من كورة جَيَّانَ أَنْ عاملاً للحكم اغتصبه جاريةً وصيَّرها إلى الحكم، فأثبت الرجل عند محمد بن بشير ما جرى عليه في جاريته، وأتاه بيّنة يشهدون على عين الجارية وعلى معرفة تظلمه؛ فأوجب الحق حضور الجارية والوقوف على عينها، فقام القاضي واستأذن على الحكم، فلما دخل عليه قال: إنه لا يتم العدل في العامة دون إفاضته في الخاصة، وأعلمه بخبر الجارية، وكانت قد وقعت من نفسه موقع لطف، وقال: لا بد من إبرازها أو تعزلي عن القضاء . قال له الحكم: أولاً أدعوك إلى خير من ذلك؟ قال: وما هو؟ قال: تبتاع الجارية من صاحبها بأوفر الأثمان وأجلّ القيم وأبلغ ما يرضيه فيها، فقال له: إن الشهود قد شخصوا من هناك يطلبون الحق في مظانّه، فلما وصلوا نصر فهم دون إنفاذ الحق لأهله! فلعل قائلاً يقول: إنسا باع ما لم يملك بيع مقتصر على نفسه . فلما سمع مقاله، أمر بإخراج الجارية من قصره وشهد الشهود على عينها وفضى بها لصاحبها .

ومن أقوال الحكماء: خير الأمراء من عظم العلم، وأكرم العلماء، وقبل النصيحة، وأظهر العدل، وانقاد للحكم، ورفض التكبر، ولزم التواضع، ولم ييخل بمال الله على من استوجه، وأدى الأمانة في العباد، ووصل الرأفة بهم، ولم يُؤل الأشرار عليهم .

(١) الترجيل: تسريح الشعر وتنظيفه وتحسينه . لسان العرب (رجل).

وفي بعض الحكم المرفوعة: أحق الناس بدوام السلطان واتصال الولاية، أقسطهم بالعدل في الرعية، وأحقهم عليها كلاءة ومؤونة . وقالت الحكماء: السلطان من الرعية بمنزلة الروح من الجسد، لا قوام لأحدهما إلا بصاحبه . وسُئل بعض الحكماء: أيُّ الناس أفضل؟ قال: من يعدل في أحكامه، ويجزل في إنعامه، وتظهر الحكمة في كلامه .
نظمه بعض الشعراء فقال:

أبيت اللعنَ حزت المجد كلاً وأحرزت المكارم مستقلا
إذا حلّ الملوك مكان حكم وجاروا كان حكمك فيه عدلا
وإن صعّدوا المناير ثم جاروا فأنت إذا صعّدت تقول فصلا
وإن بذلوا القليل لمعتفيهم نكرت نواهم فبذلت جزلا
حُكي أن المأمون كان يجلس للمظالم في يوم الأحد، في يوم أعدّه للحكم، فمشى إليه يوماً فلقينته امرأة في ثياب رثة، فأنشأت تقول:

يا خير متصف يهدى له الرشد ويا إماماً به قد أشرق البلد
تشكو إليك عقيد الملك أرملةً عدا عليها فما تقوى به أسد
فابتزّ منها ضياعاً بعد منعتها لما تفرق منها الأهل والولد
فلما وصل إلى مكان حكمه قال لها: من خصمك؟ قالت: القائم على رأسك...
العباس ابن أمير المؤمنين . قال المأمون لقاضيه يحيى بن أكثم: أجلسها معه وانظر بينهما، فأجلسها ونظر بينهما بحضرة المأمون، وجعل كلامها يعلو على كلام العباس، فزجرها بعض الحُجّاب، فقال له المأمون: ويحك خُلها، فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه . وأمر برّد ضياعها إليها .

وفي مشاهدة المأمون الحكم بينهما وتقويم القاضي النظر في ذلك وجوهٌ لطيفةٌ تقتضيها السياسة، ومعانٍ شريفة يوجبها الشرع، وذلك ربما أنه توجه الحكم لولده فلا يجوز أن يحكم له، ويجوز أن يحكم عليه، ومنها أن الخصم امرأة والمرأة يجلّ عن محاورتها، وأيضاً فإن جلاله قدر العباس أجلّ من أن يلزمه الحق غير أبيه .

ومنها إرهاب المدعى عليه إذا علت منزلته، فيذعن للحق ولا يمكنه التعصب للباطل؛ وأيضاً فربما أنف ذو الهمة العالية من وصول المتكلم إلى حقه عنوة، فيدع كثيراً من حقه محافظة على المنزلة، فيبادر إلى الإنصاف قبل الحكم ليكون متفضلاً، وربما وقع الشك للمحاضرين في أن الحق له أو عليه، كالذي حُكي عن موسى الهادي: أنه جلس يوماً للنظر في المظالم، وعمارة بن حمزة قائم على رأسه، فقام رجل متظلم يدعي أن عمارة غضبه ضيعة، فأمره الهادي بالجلوس معه للحكم، فقال عمارة: يا أمير المؤمنين، إن كانت له فلا أعارضه فيها، وإن كانت لي فقد تركتها له، ولا أبيع حظّي من مجلس أمير المؤمنين .

فهذا من أحسن السياسة وعلو الهمة والمحافظة على المكانة. وأما الشك فواقع عند جميع الحاضرين من أن الحق له أو عليه .

وقيل: إنه كتب بعض العمال إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أن مدينة من مدائنه قد تهدمت أسوارها واحتاجت إلى الإصلاح، فكتب إليه عمر رضي الله عنه: حصنها بالعدل، ونقّ طرقها من الجور إن شاء الله، والسلام .

وفي بعض الحكم: ما أنحلت أرض سال عدل السلطان فيها، ولا صَحِيحٌ بقعة فاء ظلّه عليها .

وقال بعض الحكماء: إياك والمقام ببلد ليس به نهر جار، ولا سوق قائمة، ولا سلطان عادل .

ومن فقر أبي منصور الثعالبي: إذا كان الملك واضح ميسم العدل، فارش مهاد الفضل، باسط جناح البر، مُنبت بزر المحبة، ممتدّ ظل الهيبة، ملك عنان السياسة، وابتهج الزمان بحسن آثاره، وشقّ على الملوك شقّ غباره .

وقال أيضًا: أفضل الملوك مَنْ كان عدله كافيًا كاملاً، وجوده هامياً هاملاً .

وسئل ابن عُيَينة عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [سورة النحل، من الآية ٩٠] فقال: العدل: الإنصاف، والإحسان: التفضّل .

وقيل لبعض العلماء: مَنْ أفضل الملوك؟ قال: مَنْ أَمِنَ الصَّاحِبُ جَفْوَتَهُ، وخاف الظالمُ سَطْوَتَهُ، وعدل في الرضا والغضب، وشمل إحسانه مَنْ بَعُدَ وقرب .

ومن أقوالهم: مَنْ أَحَبَّ النِّجَاةَ مِنَ الْعَطْبِ، عدل في الرضا والغضب . ومما كُتِبَ في هذا المعنى:

تَجَنَّبْتُ مِنْ غَيْرِ جَرْمِ جَنِيثُ وَأَعْرَضْتُ دُونَ اعْتِرَاضِ وَجِبِ
فَحَسِّنْ ظَنُونَكَ بِي مُحْسِنًا وَعَامِلْ أَخَاكَ بِحَسَنِ الْأَدَبِ
فَمَا اقْتَرَفَ الْمَرْءُ أَنْجَى لَهُ مِنْ الْعَدْلِ عِنْدَ الرِّضَا وَالْغَضَبِ

وقال بعض الحكماء: من الحق على مَنْ ملّكه الله على بلاده وحكّمه في عبادته، أن يكون لنفسه مالكا، وللهوى تاركا، وللغضب كاظما، وللظلم كارها، وللعدل في الرضا والغضب مظهرا، وللحق في السر والعلانية مؤثرا، فاذا كان كذلك ألزم النفوس طاعته، وأشرب القلوب محبته ما أشرق نور عدله زمانه، وكان الناس على أعدائه أعوانه .

ومن الحكم المنثورة: زين الإمارة العدل، وزين الثروة البذل .
وقال عبد الملك بن مروان يوماً لبنينه: كلّمكم يترشح لهذا الأمر، ولا يصلح له إلا
مَن كان له سيف مسلول، ومال مبذول، وعدل تطمئن معه القلوب .
ومن كلام الحكماء: خير الملوك مَن عدل، وشرُّهم مَن جهل وبخل .
وقالوا: أحبّ خلق الله إمام عادل، وعالم عامل .
وكتب بعض الصالحين إلى بعض إخوانه: إذا استفزك الغضب وخشيت أن لا
تعديل فاذكر عدل الله في العباد، وأخذ الحق لبعضهم من بعض في المعاد، فإن ذلك أسرع
لردّ غضبك، إذا عقلت من طيش السهم إلى الغرض، ومن جَرِي الماء إلى القرض .
وقال بعضهم: قدّم فضلكَ إذا حكمتَ، ولا يصدّنك الحرج عن إثارة الحق
إذا علمتَ، تكن أحبّ النفوس إلى البشري، وألذ في العيون من سِنَّة الكرى .
وقالت الحكماء: الملك بيتُّ أسَّه الإيمان، وسقفه التقوى، وأركانه الشرائع، وفرشه
العدل، وأستاره السَّير المحمودة. فإذا تصدر فيه الملك ابتهجت به الدنيا، وتألفت عليه
النفوس، وعمرت البلاد، وشمل الصلاح العباد .
وقالوا أيضاً: المُلْك سرير، فإذا جعل التقى كساؤه، والعدل وطاؤه، والورع
غطاؤه، قام المُلْك فيه آمناً، واستيقظ فرحاً مسروراً .
ومن أمثالهم: مَن جعل العدل عدّة طالبت به المدّة .
وقالوا: مَن استفاض عدله شهر فضله، وحمد فعله . وقيل لبعضهم: مَن أرجحُ
الملوك عقلاً، وأكملهم أدباً وفضلاً؟ قال: مَن صحب أيامه العدل، وتحرز جهده من
الجور، ولقي الناس بالمعاملة، وعاملهم بالمسائلة، ولم يفارق السياسة مع لين في الحكم،
وصلابة في الحق، فلا يأمن الجريء نشاطه، ولا يخاف البريء سطوته .

ورؤي عن ابن مسعود أنه قال: انظروا عدل المرء عند غضبه، وأمانته عند طمعه، فإذا اختبرتموه عرفتم على أي شقيه يقع .

وقال أبو وائل الثقفي: دعاني سليمان بن وهب، وقال: إني قدّمت حسن الظن بك والثقة بأمانتك، وولّيتك قلادة في عنقي، فصدّق ظني فيك، وحقّق ثقتي بك، ولا تفارق العدل في المخلوقين ظاهرًا، والعدل بينك وبين الخالق باطنًا، والله المستعان . ثم دفع رقعة فيها توليتي على الأمور .

وجاء في بعض الحكم: المَلِكُ شَخْصٌ كَشَخْصِ الْمَلِكِ؛ أَعْضَاؤُهُ سَيْرُهُ الْمَحْمُودُ، وَعَدْلُهُ الْمَوْضُوعُ فِي النَّاسِ، فَإِذَا صَلَحَتِ الْأَعْضَاءُ صَلَحَ الْجَسَدُ، وَإِذَا فَسَدَتِ الْأَعْضَاءُ فَسَدَ الْجَسَدُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَّقَى صَلَاحَ الْجَسَدِ مَعَ فَسَادِ الْأَعْضَاءِ . وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

المَلِكُ جِسْمٌ كإنْسَانٍ تَدْبِرُهُ طِبَائِعُ أَرْبَعٍ مَحْمُودَةُ الْأَثَرِ:

الْعَدْلُ فِي الْحُكْمِ ثُمَّ الْحِلْمُ فِي غَضَبٍ وَالْبَذْلُ لِلْمَعْرُوفِ ثُمَّ الصَّدَقُ فِي الْخَيْرِ

فَمَنْ تَعَدَّى مِنَ الْأَمْلَاكِ مَوْضِعَهَا فَقَدْ خَلَا مِنْ جَمِيعِ الْفَضْلِ وَالنَّظَرِ

ونظر معاوية يومًا إلى ابنه يزيد وقد ضرب غلامًا له فقال له: كيف طاوعتك نفسك على بسط يدك إلى من لا يقدر على دفعها عن نفسه؟ فندم، وما رؤي بعدها يضرب غلامًا .

ومن أمثال الحكماء: الاعتراف يهدم الاقتراف، والعدل غاية الإنصاف .

وفي منشور الحكم: العدلُ يرفع العدلَ .

وكتب بعض الصالحين إلى بعض الملوك: مثلك - أعزك الله - من تواضع لعظمة الله، وتقرب إليه بما يرضاه، وأقام العدل في عباد الله، فأغاث المستغيث وأجار المستجير، وآمن الخائف، وعاد على الراجي واغتفر ذنوب الجاني طائعاً لله، مقتدياً برسول الله، مستشعراً أحسن المثوبة من الله .

روى عبيد بن أبي الجعد عن كعب الأحبار رضي الله عنه أنه قال: إن الله عزّ وجلّ داراً من دُرّة فيها سبعون ألف قصر، في كل قصر سبعون ألف بيت، لا يدخلها إلا نبيّ، أو صدّيق، أو شهيد، أو حاكم في نفسه^(١)، أو إمام عادل .

وقال بعض الحكماء لبعض الملوك: أيها الملك، إنما فخرك بإظهار عدلك، وإيثار فضلك، لا بجمال بزّتك، وتمكّن عزّتك، وفراهة مركبك، وكثافة موكبك .

وقال بعضهم: إذا عدل الملك استراح الناس، وأمن الخائف، وطاب عيش الرعية وإن لم يجدوا الثروة، واتّصلت الهداية، وزاد الصلاح، وأحبّه من لم يعرفه ودعاه من لم يره .

وقال يزيد بن معاوية يوماً لجلسائه: مَنْ أنعم الناس عيشاً؟ قالوا: أنت يا أمير المؤمنين . قال: ليس الأمر كذلك . قالوا: فأمر المؤمنين معاوية . قال: وليس كذلك، قالوا: فيقول الأمير أصلحه الله . قال: نعم، أطيب الناس عيشاً رجلٌ له امرأة حسناء وقد رضيت به ورضي بها، لهما قوت هنيء، ولا يعرفنا ولا نعرفه . وقال في مثل ذلك بعض الشعراء:

وما العيش إلا في الخمول مع الغنى وعافية تغدوله وتروح
وقيل لبعض الأعراب: ما لذة الدنيا؟ فقال: العافية مع الكفاية، والعدل مع الحماية . وهذا كلام جامع .

وقال غيره مثل ذلك، وقد سُئل: ما لذة الدنيا؟ فقال: زمن خصيب، وإمام عادل، وعافية وعفاف، مع صحة وكفاف .

وقال وهب بن منبّه: إذا همّ الوالي بالعدل أدخل الله البركة في أهل مملكته حتى في الأسواق والأرزاق، وإذا همّ بالجور أدخل الله النقص في مملكته، حتى في الأسواق والأرزاق .

وفي بعض الحكم: مَنْ عمل بالعلم وعدل في الحكم فقد برئ من الذمّ.

(١) هو مَنْ خيّر بين القتل والكفر، فاختر القتل على الكفر .

فصل

وليس العدل شيئاً^(١) اختصّ به الأمراء والرؤساء والولاة ممن له في غيره حكم دون غيرهم، بل هو لازم لكل إنسان في جميع أحواله، فإنه يتعين عليه العدل في أهله وماله وولده وعياله، وحوّله وخلّائه وقربته وجيرانه ومعاملته وخلطائه في أخذه وعطائه، وفي الخاص والعام من جميع أموره وأحواله . وكذلك يلزمه العدل في نفسه وذاته، وهو الأهم عليه والأحقّ به، فإنه إذا عدل في نفسه وذاته، فحملها على المصالح وصدّها عن القبائح، وأخذها بحكم ما يكون فيه صلاح دينه ودنياه، فقد وفاها حقّها، وعرفها صدقها، وإذا تمثل ذلك في نفسه فجدير أن يتمثله في غيره، وإن هو لم يصنّها عن المكازة والآفات وحقّى بينها وبين ما تاقت إليه من الشهوات، فضيعت وفرطت حتى تنشبت وتورطت، فهو لغيره أضيع وخيره أمتع، جعلنا الله ممن عدل في جميع الأحوال وركب منهاج الصواب في الأفعال والأقوال، وتبصّر في تحسين العواقب والمآل؛ فجنى ثمرة العدل والاعتدال بفضل الله ذي العزة والجلال والعظمة والكمال، لا ربّ غيره ولا إله سواه .

فصل

في بغض الجور وأهله

الجور - أبارك الله - آفة النفاق، ومحدث الحدثان، وجالب الفتن، ومسبّب المحن، ومحيل الأحوال، ومحقّ الأموال، ومُحلي الديار، ومجنيّ البوار . ولا يجتمع أبداً مع التصديق، ولا يُرى في أهل التحقيق، وهو مأخوذ من: جار عن الطريق: إذا تنكّب عنه؛ فكأنه عدل عن طريق العدل، وحاد عن سبيل الخير والفضل . وقد كانت الأمم

(١) م: شى .

السالفة والقرون من أخفاف المتمذهين وأصناف المتفلسفين مع افتراق مذاهبهم، واختلاف عقائدهم مجتمعين على إنكاره، مجتمعين على أضراره، وكانوا يستقبحون آثاره، ويكرهون إسراره وإجهاره، ويتطّيرون بقبیح مواقعه، ويتوقعون من سوء عواقبه . ومن كلامهم في ذلك: مَنْ يظلم يُحرب بيته .

وقال كعب الأحبار: إني وجدت في الكتب المنزلة: الظلم يخرب الديار . ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿ فِتْلَتِكَ يَبُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [سورة النمل: من الآية ٥٢] وما زال العقل ينكر الظلم ويشناه^(١)، والشريعة تبعده وتتحاماه، والسياسة تنافره وتتجافاه .

رُوي أنه اجتمعت بطون من العرب في دار عبد الله بن جدعان وفيهم رسول الله ﷺ، وذلك قبل مبعثه، وهو ابن خمس وعشرين سنة، فتحالفوا وتعاهدوا وتعاهدوا على ردِّ المظالم بمكّة، وأن لا يُظلم منهم أحد قريب ولا غريب ولا حرّ ولا عبد إلاّ منعه، وأخذوا للمظلوم بحقه، فقال رسول الله ﷺ حاكياً للحال: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول، ولو دُعيت إليه لأجبت، وما أحب أن لي به حمر النعم" فصار ذلك بما قاله ﷺ حكماً موجباً، وشرعاً لازماً؛ لأنه كانت أقواله عليه السلام كلّها حكماً شرعية وأحكاماً مرضية .

وسمّي حلف الفضول، لأنه قام به رجال من جُزهم كل واحد منهم اسمه الفضل . والفضول: جمع فضل، وقال رسول الله ﷺ: "كل حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلاّ شدة" . وقال عليه السلام: "من أصبح لا ينيو ظلم أحد، غفر له ما اجتنى وما اجترم"، وقال صلوات الله عليه وتسليمه: "إن أهون الناس على الله،

(١) شئى الشىء وشئناه يشئوه: أبغضه . لسان العرب (شنا).

وأبغض الناس إلى الله، وأبعد الناس من الله يوم القيامة: رجل وآه الله من أمة محمد شيئاً ثم لم يعدل فيهم". ورُوي عنه عليه السلام أنه قال: "القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق ففضى به، وأما الذي في النار فرجل عرف الحق فجار في الحكم، ورجل قضى في الناس على جهل فهو في النار". وقال عليه السلام: "ما من أحد أقرب من الله يوم القيامة بعد نبي مرسل أو مَلَك مصطفى من إمام عادل. ولا أبعد من الله من إمام جائر، يأخذ لخبه ما يريد ويحكم بهواه"، وقال عليه السلام: "الظلم ظلمات يوم القيامة"، وقال عليه السلام: "اتقوا دعوة المظلوم، فإنها تحمل على الغمام، يقول الله جلّ وعزّ: وعزّي وجلالي لأنصرتك ولو بعد حين".

وقال عليه السلام لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: "يا علي، اتق دعوة المظلوم، فإنه يسأل الله حقه والله عزّ وجلّ لا يمنع أحداً حقه".

وروى عنه أبو الدرداء أنه قال: قال عليه السلام: "إن العبد إذا ظلم ولم ينتصر، ولم يكن له أحد ينصره، فرفع طرفه إلى السماء ثم دعا الله واستنصره، فإن الله تعالى يقول: لبيك عبدي أنا أنتصر لك عاجلاً أو آجلاً".

وقال معاوية بن أبي سفيان: إني لأستحي أن أظلم من لا يجد عليّ ناصرًا غير الله تعالى. وسئل رجل من الحكماء: من أولى الناس بالرحمة؟ فقال: أولى الناس بالرحمة الرجل البرّ يكون مع السلطان الفاجر، فهو الدهر متعوب محزون بما يرى ويسمع، والعاقل في تدبير الجاهل، والكريم يحتاج إلى اللثيم.

وكانت الحكماء تقول: الظالم مخصوم وإن حكم له، والمظلوم ظافر وإن حكم عليه.

وقال أرسطاطاليس: ليس شيء أقرب إلى تغيير النعم من الإمامة على الظالم.

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزيكهم وهم عذاب أليم: إمام جائر، وغني بخيل، وفقير مختال، أي متكبر .
ومن أقوال الحكماء: مَنْ لم يعدل عدل الله فيه، ومَنْ حكم لنفسه حكم الله عليه
وقال الشاعر:

وما من يدٍ إلا يد الله فوقها ولا ظالمٍ إلا سبيلٍ بظالمٍ
ومن كلام أبي منصور الثعالبي: أخلق بالملك الظلوم أن يصير عظةً للرائين،
وعبرةً للراوين . وقال أيضاً: الظلم لا يُقال في الدنيا صريعُه، ولا يُساغ في الآخرة
صريعُه .

وقال سقراط: راحة العاقل في وجود الحق والعدل، وراحة الفاجر في وجود
الباطل والجور . وقال أيضاً: بالعدل ثبات النعم، وبالجور زوالها . ومثله من كلامهم:
الظلم مسلبة للنعم، مجلبة للنقم .

وقال بعض العلماء: أنفذ السهام دعوة المظلوم، وأسرع الأشياء مصرعة الظلوم .
وقال أرسطاطاليس: الظلم طبع في النفوس، وإنما يصدّها عن ذلك إحدى
حالتين: علة ديانية، لوقوف معاد، أو علة^(١) سياسية، لخوف جزاء . أخذه المتنبّي فقال:
الظلم من^(٢) طبع النفوس فإن تجذّ ذا عفة فلعلّة لا يظلم
ومن أمثال الحكماء: ويل للظالم من يوم المظالم . وفي منشور الحكم: العزّ في العدل،
والذلّ في الجور .

(١) م: عقلة .

(٢) م: في .

ودخل طاؤس على سليمان بن عبد الملك وهو خليفة فقال له: هل تدري يا أمير المؤمنين مَنْ أشدَّ الناس عذاباً يوم القيامة؟ قال سليمان: قل . فقال: أشدَّ الناس عذاباً يوم القيامة مَنْ أشركه الله في ملكه فجار في حكمه؛ فاستلقى سليمان على السرير وهو يبكي فما زال باكياً حتى انفصل الناس عن مجلسه .

وقال رسول الله ﷺ لكعب بن عُجرة: "يا كعب، أعيدك بالله من إمارة السفهاء" قال: وما إمارة السفهاء يا رسول الله؟ قال: "يوشك أن يكونوا أمراء، إن حدثوا كذبوا، وإن عملوا ظلموا، فمن جاءهم فصدقهم بكدبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، ولا يردُّ عليَّ حوضي" .

وروي أن في (الزبور): إذا ظلمت مَنْ دونك فلا تأمن عقاب مَنْ فوقك .
ومن كلام أكرم بن صيفي: شرُّ الملوك مَنْ خافه البريء . ومن كلامه أيضاً: لو أنصف المظلوم ما كان فينا مَلوم . وقالوا: ظلم الضعيف أفحش الظلم، وسؤال العديم أفحش الغنم . وقال معاوية: أنقص الناس عقلاً مَنْ ظلم مَنْ هو دونه . وقال رضي الله عنه: ما غضبي على مَنْ أملك، وما غضبي على ما لا أملك!

وقال الحسن بن أبي الحسن: خصلتان إذا كانتا في الرجل فسد ما سواهما من أموره: الطغيان في النعمة، وقرأ ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ [سورة طه: من الآية ٨١] والركون إلى الظلمة، وقرأ ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ [سورة هود: من الآية ١١٣] .

وروي الحسين أيضاً: أن النبي ﷺ قال: "من أعان سلطاناً ظالماً ولو بخط قلم لم تقرّ قدماه بين ياي الله حتى يؤمر به إلى النار"، ورُوي عنه ﷺ أنه قال: "لا يقف أحدكم موقفاً يضرب فيه رجل مظلوم، فإن اللعنة تنزل على مَنْ حضره حيث لم يدفعا عنه"، وقال ﷺ: "الظلم ثلاث: ظلم لا يغفره الله هو الشرك به، والظلم الذي يغفره الله ظلم العباد لأنفسهم نيباً بينهم وبين الله تعالى، والظلم الذي لا يتركه الله مظالم العباد" .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبعض ولاته: ضُمَّ جناحك عن الناس، وأتق دعوة المظلوم، فإن دعوة المظلوم مجابة .

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لبعض عمّاله وقد جار: أما بعد، فقد كثر شاكوك، وقَلَّ شاكروك، فإما اعتدلت وإما اعتزلت . وحُكي عنه رحمه الله أنه خرج يوماً إلى الصلاة، فلقيه رجل من أهل اليمن متظلمًا، فأشده وقال:

أمرت مَنْ كان مظلومًا ليأتيكم فقد أتاك غريبُ الدار مظلومًا
فقال عمر: ما ظلامتك؟ قال: غَصَبَنِي الوليد بن عبد الملك ضييعتي؛ فأمر مزاحمًا بإخراجها من الديوان، وصرفها عليه وأمر له بضعف نفقته .

ومن كلام الحكماء: إذا رأيت الحكام يتنافسون في العدالة ويمجتنبون الفسوق والجهالة، فتلك نعمة طائلة. وإذا رأيت الجور فاشيًا مظهرًا، والعدل مطرحًا منكرًا، فتلك نقمة زائلة .

وقال حُذَيْفَةُ: من علامات اقتراب الساعة أن يكونوا أمراء فَجْرَةٍ، ووزراء كَذْبَةٍ، وأمناء خَوْنَةٍ، وعلماء فَسَقَةٍ، وعرفاء ظَلَمَةٍ .

وروى أبو(١) سليمان الداراني: أن الله عزَّ وجلَّ أوحى إلى موسى عليه السلام: مُرْ ظَلَمَةَ بني إسرائيل أن يقتلوا مَنْ ذكرني منهم، فإني أذكر مَنْ ذكرني باللعنة حتى يسكت. وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: "سيكون بعدي أمة على أبوابهم مثل مَبَارِك الإبل من الفتن، فمن أطاعهم أضلّوه، ومن عصاهم قتلوه". قالوا: يا رسول، فما نصنع؟ قال: تصنعون كما صنع أصحاب موسى عليه السلام، نُشروا بالمناشير وُصِّلبوا على الجذوع، فموت على طاعة الله خير من حياة على معصية الله" .

(١) م: ابن، والأصح ما أثبتناه، وهو محدث دمشقي كبير . انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٧٤ .

وفي بعض الحكم: مَنْ جَارَ حَكْمَهُ أَهْلَكَهُ ظَلَمَهُ .
ومن أمثالهم: شَرُّ الْمُلُوكِ السَّفَاكُ الْأَفَاكُ .
ومن كلامهم: خَيْرُ الْمُلُوكِ مَنْ كَفَى وَكَفَى، وَعَفَا وَعَفَى . وقال: شَرُّ الْعَمَالِ مَنْ إِذَا
وَلِيَ جَارَ وَثَارَ، وَإِذَا عَزَلَ حَارَ وَخَارَ .
وقال بطليموس: مَنْ تَاهَ فِي وَلايَتِهِ ذَلَّ فِي عَزَلَتِهِ .
وقال الخوارزمي: أَلَا وَإِنَّ الْوِلايَةَ ثَوْبُ الْمَرْءِ، فَإِنْ قَصَرَ قَبِحَ عَلَيْهِ، وَإِنْ طَالَ عَثَرَ فِيهِ .
وقال رجل من العلماء: الْمُلُوكُ خَلْفَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ مَلَكَ اللَّهُ بِلَادَهُ وَعِبَادَهُ،
فَلَيْسَتْ قِيَمُهُ وَلِيَحْذَرَ مَخَالَفَةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، فَإِنَّهُ لَا تَصْلُحُ الْخِلَافَةَ مَعَ الْمَخَالَفَةِ، وَلَا تَحْسُنُ
الْعُقُوبَى مَعَ الْمَعَاوَةِ .

وقال بعضهم: يَا خَلِيفَةَ اللَّهِ، لَا تَخَالَفِ اللَّهَ، وَيَا أَمِينَ اللَّهِ، لَا تَأْمَنِ عِقَابَ اللَّهِ .
وفي بعض الحكم: بَشْرُ الظُّلْمِ بِتَقْلِيلِ الْعَدَدِ وَانْقِطَاعِ الْأَمَدِ .
وكتب بعض الملوك إلى بعض عماله: إِذَا أَنْتَ لَمْ تَدَعْ فَرَضًا إِلَّا أَقَمْتَهُ، وَلَا ظُلْمًا
إِلَّا وَقَمْتَهُ^(١)، فَقَدْ أَخَذْتَ الْعَدْلَ بِالطَّرْفَيْنِ، وَاسْتَوْجِبْتَ حَسَنَ الْمَثُوبَةِ فِي الدَّارَيْنِ .
ومن كلام بعض العلماء: مَنْ عَدَلَ نَسَكَ، وَمَنْ ظَلَمَ هَلَكَ إِلَّا مَنْ تَابَ وَأَمْسَكَ،
وَرَدَّ الْمَظَالِمَ وَاسْتَدْرَكَ، فَنَعَمَ السَّبِيلَ سَلَكَ . وقال بعض الشعراء:

إِيَّاكَ وَالدُّنْيَا الدُّنْيَا إِنَّمَا دَارٌ مَتَى سَأَلْتَهَا لَمْ تَسْلَمْ
وَتَجَنَّبِ الظُّلْمَ الَّذِي هَلَكَتْ بِهِ أُمَّمٌ تَوَدُّ لَوْ أَنَّهَا لَمْ تَظْلَمِ
وقال بعض الحكماء: الظلم أسرع إلى تبديل النعم، وتعجيل النقم من الطير إلى
الأوكار، ومن الماء إلى الانحدار .

(١) الوقم: جذب عنان الدابة، ويقال: وقم الرجل وقمًا: رده، وأذله، وقهره . لسان العرب (وقم) .

وفي منشور الحكم: العدوان على العباد أخص الزاد إلى المعاد، ومن ذكر قدرة الله لم يقتصد ظلم عباد الله .

وقال بعض الأدباء: العدل ظلُّ ظليل، ولكل خير كفيل، والجور قسط مخيل، وعلى الشر دليل .

وقال أيضًا: من عدل واعتدل، وقبل وأقبل، وأفضل وأجمل، فنعم عقبى المحل، ومن جار وما أجار، وأدار سوء الاقتدار، قبس عقبى الدار .

ومن كلام الحكماء: الجور يجرّ النوائب، ويصيب بالمصائب، والعدل يحمي الجوانب، ويحسن العواقب، ويخلص من النوائب .

وحكي أنه شكا بعض أهل الأقطار إلى المأمون واليا كان عليهم، فقال لهم: كذبتم فقد صحَّ عندي عدله فيكم وإحسانه إليكم؛ فاستحووا أن يردوا عليه قوله، فقال له شيخ منهم: يا أمير المؤمنين، قد عدل فينا منذ خمسة أعوام، فاجعله في قطر غيره حتى يشيع عدله في جميع رعيتك، وتربح الدعاء الحسن . فضحك المأمون واستحى منهم وصرفه عنهم .

رحم الله عبداً عدل في أحكامه، وأقسط في أقسامه، وصدق في كلامه، ونظر في حلاله وحرامه، واقتصد في وجوده وإعدامه، وتبرأ من الجور وآثامه، وتنزه عن الظلم وإظلامه، وقدم في مقامه لمقامه، واستدرك الفائت فيما بقي من أيامه، ليفوز برحمة الله تعالى وإكرامه، بجزيل فضله وإنعامه لا إله غيره .

الباب السابع

في استجلاب الحِلْم ومصالحه، واطراح السَّفَه ومقابحه

الحِلْم - سدّدك الله- من أكرم الخلال، وأتمّ الخصال، وأفضل شمائل الرجال، وأعلى مراتب الكفّال، وأسنى مواهب الله الكبير المتعال . وهو أصل من أصول الدين، ويؤكّن من أركان الطاعة مكين، وحبل من حبال الشرع متين، وحصن من حصون الإيثار حصين . من استند إليه وتمسك به واعتمد عليه استنارت له الظُّلْم، وأمن من مخار القدم، وعُصم من مواقع الندم، وما زال الحِلْم يُعْرِب عن نزاهة النفس ويُبعد الحُمم، والفوز بأوفر حظوظ الفضل والكرم. ومن تجلّى به واستعمله وأخذ به نفسه وأمتلته، فقد استمسك من الصبر بكل سبب، واستولى على ذواعي الخير ومساعي البرّ في كل أرب، فما زال يطفىء جمره الغضب، ويسمو بصاحبه في الدارين إلى أرفع الرتب. سئل رسول الله ﷺ: ما الإيثار؟ فقال: "الصبر" . فإذن وجدنا جميع أحوال الطاعة ومكارم الأخلاق متفرعة من الصبر، وهو قطبها ومحتدّها وسرّها ومعتمدها، فالحِلْم يلا مدافعة أجلّ عزائم الصبر، وأوضح معالم البرّ، وأعظم صنائع الخير، وهو اسم من أسماء الله سبحانه وصفة من صفاته؛ لأنه جلّ ذكره يرى عصيان العاصين، ويطلع على خيانة الخائنين، ويشاهد جور الظالمين، ويحصي ذنوب الخاطئين، فلا يحتجب عنه عمل عامل، ولا يغيب عن علمه^(١) شيء في عاجل ولا آجل، وهو بحلمه لا يعجل بالانتقام مع القدرة، ولا يستفزّه الغضب مع إمكان القوّة، ولا تبعثه العجّلة على إنفاذ حكمه مع

(١) م: عمله، ولعل الصواب ما أثبتناه .

وضوح الحجّة، بل يؤثر الأناة والإمهال؛ ليكون له الفضل والمنّة . وحسبنا قوله عزّ من قائل ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ ۗ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا ۙ ﴾ [سورة الكهف، الآية ٥٨] وقوله تبارك اسمه ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ ۙ ﴾ [سورة النحل، من الآية ٦١] ومثل هذا كثير في كتاب الله عزّ وجلّ . بل هو الحليم الذي لا يعجل، الكريم الذي يمهل ولا يهمل، له النعمة السابعة والحجّة البالغة . وقد أثنى الله تعالى بالحلم على أنبيائه، وخصّ به صفوة أوليائه، واستعمل به من أراد كرامته من أهل طاعته وأصفيائه، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُّؤْنِبٌ ﴾ [سورة هود، الآية ٧٥] وقال لرسوله: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة الأعراف، الآية ١٩٩] . روي أنه قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام عند نزول هذه الآية: "ما هذا؟" قال: لا أدري حتى أسأل العالم، ثم عاد جبريل فقال: يا محمد، إن ربك أمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك .

وقال رسول الله ﷺ: "وجبت محبة الله لمن أغضب فحلم" وقال ﷺ: "الغضب جمة تتوقّد في جوف ابن آدم، ألم تر إلى جمة عينيه وانتفاخ أوداجه!" وقال صلوات الله وسلامه عليه: "إذا غضب أحدكم وكان قائمًا فليقعده، وإن كان قاعدًا فليضطجع؛" يريد بذلك تسكين الغضب عند استشاطاة النفس . وأناه ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، أوصني . قال: "لا تغضب" ثم أعاد عليه فقال: "لا تغضب" ثم أعاد عليه فقال: "لا تغضب" . وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم" . وقال رسول الله ﷺ: "إن الله

ليحبّ الحليم الحَيِّ وَيَبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبِذِيَّ" . وقال عكرمة في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَذْكُرُ لَكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [سورة الكهف: من الآية ٢٤] ، أي: إذا غضبت . وقال ابن المغيرة: الغضب يصدئ القلب حتى لا يرى صاحبه حسناً فيفعله، ولا قبيحاً فيجتنبه . وقال أيضاً: شدّة الغضب تعثر المنطق، وتقطع مادة الحجّة، وتبعد الفهم؛ ولذلك قال الأصمعي: أحضر الناس جواباً من لم يغضب . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يعظم حلمك ويكثر علمك . وقال عيسى بن حمّاد: كثيراً ما كنت أسمع الليث بن سعد يقول لأصحاب الحديث: تعلّموا الحِلْمَ قبل العلم، فما جُمع شيء لشيء أحسن من علم إلى حلم . وشم يوماً رجل الحسن بن أبي الحسن فبالغ في شتمه، فقال له: أما أنت فلم تبق شيئاً وما يعلم الله أكثر . وقال أبو الدرداء لرجل أسمعه كلاماً: يا هذا . لا تَعَزِّمْ مَنْ فِي سَبِّنا ودع للصالح موضعاً، فإننا لا نكافئ من عصى الله فينا إلا بأن نطيع الله فيه .

وقال لقمان عليه السلام: ثلاثة لا يُعرفون إلا في ثلاثة: لا يُعرف الحِلْمُ إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا الصديق إلا عند الحاجة .
ومن أمثال الحكماء: من حلّم ساد، ومن تفهّم ازداد . وكان يقال: إياك وعزة الغضب فإنها تصيرك إلى ذلّ الاعتذار .

وقال بعض الصالحين: أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب .
وحكي عن بعض ملوك الفرس أنه كتب كتاباً دفعه إلى بعض وزرائه وقال له: إذا أنا غضبت فناولنيه، وكان قد كتب فيه: ما لك وللغضب، وإنما أنت بشر! ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء .

وكتب أبرويز لابنه: يا بني، إن كلمة منك تسفك دماء، وكلمة تحقن دماء، وأمرك نافذ وكلامك ظاهر، فاحترس في غيظك من قولك أن يخطئ، ومن لولئك أن يتغير، ومن جوارحك أن تخف، فإن الملوك تعاقب قدرة، وتعفو جليماً .
 وكان كسرى إذا غضب على أحد من مرابته، أمر بحطه عن مرتبته وأبقى عليه معروفه، وقال: إن الملوك تؤدب بالهجران ولا تعاقب بالحرمان .
 وقالت الحكماء: ليس الحلِيم من ظلم فحلّم، حتى إذا قدر انتصر، إن الحلِيم من إذا قدر عفا . وقيل: الحلِيم: ترك المكافأة بالشرّ قولاً وفعلاً .

فصل

وحدّ الحلْم إمساك النفس عند الاستشاشة في الغضب، وربط الجأش عند هيجان الحرج، وملك الجوارح عند اتقاد جمرة الشرّ، والتأيد عند استشارة الأسباب الباعثة على الانتصار، والسكون عند الأحوال المحركة للانتقام، والتثبت في ترك تعجيل إنفاذ الحكم لما في عواقب ذلك من وقوع الندم، وإظهار خفة السفاهة عند حلول البرم، لا سيما مع تمكن القدرة وتحكم القوّة، فإن في ذلك لمن ملك إربه وأطاع ربّه من إقناع النفس وإظهارها ما يحملها على احتمالها وإغضائها، ويمنعها عن إنفاذ عزيمة الانتقام وإمضائها، وهو دليل الرحمة وسعة الصدر، واستحكام الثقة، وتمكن الصبر، وشرف النفس، وعلوّ الهمة، وإيثار مكارم الإخلاق المثيرة للرافة والإشفاق، فما منع شيئاً من دواعي الفضل من طبع عليه، ولا قصر عن أرفع مراتب الخير من وفق إليه، كما أنه ما ترك شيئاً من الأحوال الذميمة وتأخر عن سبب من الأسباب الملمية، من أنفذ غضبه واستعجل عند القدرة انتقامه واستعذبه . والحلم لا يُستطاع تعلّماً، ولا يُدرك تبصّراً وتفهمًا، وإنما يكون سجية وتكرماً، لا يفيد كثره التحب، ولا يورثه طول المكث، كما قال أبو الطيب المتنبي:

وإذا الحلم لم يكن في طباعٍ لم يحلّم تقادمُ الميلاد
فهو غريزة في الإنسان يصدر عن صدر سالم من الغوائل والأذى، صافٍ من
شوائب الكدّر والقدى، ونفس نفيسة موقنة بالمعاوضة والجزاء، آخذة من المكارم بأوفر
الخطوظ والإجزاء، كما قال الشاعر:

للحلم شاهدٌ عدل من تعمده وللكريم عن العوراء إغضاء
قيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم المنقري،
رأيته يوماً قاعداً بفناء داره محتبياً بحمائل سيفه يحدث قومه، إذا برجل مكتوف ورجل
مقتول، فقيل له: هذا ابنك قتله ابن أخيك هذا، فوالله ما قطع كلامه ولا حلّ حبوته،
ثم التفت إلى ابن أخيه، وقال له: يا ابن أخي، أنت رميت نفسك بسهمك، وقتلت ابن
عمك . ثم قال لابن له آخر: قم يا بني فوار أخاك، وحلّ كتاف ابن عمك، واحمل إلى
أمك مئة ناقة دية عن ابنها فإنها غريبة .

وقيل للأحنف أيضاً: من أحلم أنت أو معاوية؟ قال: ما رأيت أجهل منكم، إن
معاوية قدر فحلّم، وأنا أحلم ولا أقدر، فكيف أن أقاس به أو أضاف إليه .

فصل

والحلم يحسبه السفية من ضعف المنّة واحتمال المهنة، والعاقل يراه من كمال العزّة
وإسداء المنّة؛ ولذلك قال الأحنف: لا تزال العرب عرباً ما لبست العمائم، وتقلّدت
السيوف، ولم تر الحلم ذلاً، ولا التراهب فيما بينها ضعة، كما قال:

لا يدرك المجد أقوامٌ وإن كرموا حتى يذلّوا وإن عزّوا لأقوامٍ
ويصفحوا عن كثير من إساءتهم لا صفح ذلّ ولكن صفح أحلامٍ

وقال الحريري^(١):

أرى الحلم في بعض المواطن ذلّةً وفي بعضها عزّاً يسود فاعلّةً

وقال غيره:

وإني لأغضي عن أمور كثيرة وفي دونها قطع الحبيب المواصل

وأعرض حتى يحسب المرء أنني جهلت الذي يأتي^(٢)، ولست بجاهل

وقال بعض الحكماء: الحلم والأناة توأمان نتيجتهما علو الهمة .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أول ما يرى الحليم بركة حلمه أن الناس

كلهم أعوانه على الجاهل .

وفي بعض الحكم: ثلاثة لا يتصفون من ثلاثة: حليم من سفيه، وبرّ من فاجر،

وشريف من دنيء .

وقال الأحنف بن قيس: ما نازعني أحد قط إلا أخذت عليه في أمري بإحدى

ثلاث خصال: إن كان فوقني عرفت قدره، وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه، وإن كان

مثلي تفضّلت عليه؛ أخذه الخليل^(٣) فنظمه شعراً فقال:

سألزم نفسي الصّفح عن كل مذنب وإن عَظُمَت منه عليّ الجرائمُ

فما الناس إلا واحدٌ من ثلاثة شريفٌ ومشروفٌ ومثل مقاومٌ

فأما الذي فوقني فأعرف فضله وأحمل عنه ظلمه وهو ظالمٌ

(١) م: الحريري .

(٢) م: اتى، والتصحيح من: الصفدي، الواقفي، ج٤، ص٣٧٩ والبيتان لابن كناسة ابن أخت الزاهد إبراهيم بن أدهم .

(٣) نسبها القرطبي لمحمود الوراق، بهجة المجالس، ق١، مج٢، ص٦٦ .

وأما الذي مثلي فإن زلَّ أو هفأ تفصَّلت إن الفضل للحرِّ^(١) حاكمُ
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن إجابته عرضي وإن لام لائمُ
ونظمه الناشئ أيضًا فقال:

إذا كان دوني مَنْ بليت بجهله أبيت لنفسي أن أقابل بالجهلِ
وإن كنت أدنى منه في الحلم والحجا عرفت له حق التقدم والفضلِ
وإن كان مثلي في محل من الحجا أردت لنفسي أن أجلَّ عن المثلِ
وقال بعض العلماء: إذا لم تكن حليماً فتحلِّم، فمن تشبَّه بقوم كان منهم .

وقال سلمان الفارسي رحمه الله لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما الذي يبعدي
عن غضب الله؟ قال: لا تغضب . وقال رضي الله عنه: إذا قدرت على عدوك فاجعل
العفو عنه شكرًا لقدرة عليه .

وقال المتصر^(٢): لذة العفو أطيب من لذة الانتقام؛ لأن لذة العفو يلحقها حسن
العاقبة، ولذة الانتقام يلحقها سوء العاقبة .

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم، ومن
تخير الخير يُعطه، ومن توى الشرَّ يُوقه" . وقال أيضًا علي رضي الله عنه: الحلم لا يظهر
إلا عند الغضب، فمن أغضب ولم يحلم فليس بحليم، وفي ذلك قال بعض الشعراء:
ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب
وقال النابغة الجعدي:

ولا خير في حلمٍ إذا لم يكن له بوادٍ تحمي صفوه أن يُكدرًا

(١) مطموس، استدركتاها من: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٢، ص ١٢٨ .

(٢) الخليفة العباسي .

ولا خير في أمر إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرًا

وقال يزيد بن الحكم:

وليس يتم الحليم للمرء كله إذا هو عند السخط لا يتحلّم

وقال أرسطاطاليس: العلم دليل العقل، والعقل دليل الحليم . وقال أيضًا: الحليم عدة للسفيه، وجنة من كيد العدو، وحرز من حسد الحسود، فإنك لن تقا تل سفهًا بالإهراض عنه إلا قلت حدّه، وأذلت نفسه، وسللت عليه عند حلمك عنه سيوفًا ممن يشاهد حالك معه فيتولوا لك الانتقام منه .

وقيل: إن عمرو بن الأهم جعل لرجل ألف درهم على أن يُسَفّه على الأحنف، فوقف الرجل عليه يسبّه فبالغ في سبه، والأحنف مطرق مُعرض، فلما رآه لا يردّ عليه ولا ينظر إليه أبجل بعض أنامله ويقول: يا سوأته، والله ما يمنعه جوابي إلا هواني عليه .

ومن أمثال الحكماء: الحليم مطية طيبة .

وشتم بعض السفهاء المهلب فلم يلتفت إليه، فظن أنه لا يسمعه، فقال له: إياك

أعني، فقال المهلب: وعنك أعرض، فقال في ذلك بعض الشعراء:

ولقد أمرُّ على السفيه يسبني فأمرّ ثم أقول لا يعنيني

وقال زهير بن أبي سلمى:

إذا أنت لم تُعرض عن الجهل والحنأ أصبت حليًا أو أصابك جاهل

وشتم رجل الأحنف بن قيس وجعل يتبعه حتى بلغ الحي، فقال له الأحنف: يا هذا

إن كلان في نفسك شيء قفله أو انصرف، فإنه إن سمعك بعض سفهائنا لقيت منه ما تكره .

وحكي أيضًا عنه أنه شتمه رجل وهو ساكت ممسك عنه، فأكثر وأطال، فحضر

غداء الأحنف فقال للرجل: يا هذا إن غداءنا قد حضر فقم بنا إليه، فإنك منذ اليوم

ثُحِط وتُحْمَل، فقام وهو يتباطأ .

وروي أن رجلاً أسمع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كلاماً محرّجاً، فقال له عمر: أردت أن يستفزني الشيطان بعزّ السلطان، فأنا لك منك ما تناله مني غداً، انصرف يرحمك الله .

ووقع بين أبي مسلم وبين بعض أصحابه كلام، فأربى ذلك الصاحب وأغلظ، فأطرق أبو مسلم، فلما سكنت فورة الغضب عن ذلك الرجل ندم وعلم أنه قد أخطأ، وقال: أيها الأمير، والله ما انبسطت حتى بسطتني، ولا قطعت حتى أقطعتني، فاغفر لي . قال: قد فعلت، قال: إني أحب أن أستوثق لنفسي، فقال أبو مسلم: سبحان الله، كنت تسيء فأحسن، فحين أحسنت أسيء .

ومن كلام بعض الحكماء: الحِلْمُ والتواضع جماع البرّ، وسبب لدرك حسن المنزلة .
ومن كلامهم: استوجب الشكرَ مَنْ رَحَّبَ ذراعَه، وقهر حُلْمُه غَضَبه .
وسمع سليمان عليه السلام بعض حكماء الجنّ يقول: معاداة الحليم أقل ضرراً من موذة السفية .

وقال لقمان عليه السلام لابنه: يا بني، إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه، فإن أنصفك في غضبه فأخيه، وإلا فدعه .

وقال أيضاً: ثلاث مَنْ كَنَ فيه فقد استكمل الإيمان: من إذا رضي لم يخرجه رضاه إلى الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق، وإذا قدر لم يأخذ ما ليس له .
وقال الحسن بن أبي الحسن: المؤمن حليم لا يجهل وإن جهل عليه، ولا يظلم، وإن ظلم غفر .

وقال بعض الحكماء: مَنْ غرس شجر الحِلْمِ جنى ثمر السلم . وقيل لبعض الحكماء - وكان من أهل القدرة -: إن فلاناً ينتقصك، فلو عاقبه . قال: ذلك أعذر له في تنقيصه .

وشتم رجل الشَّعبي رحمه الله، فقال له الشَّعبي: إن كنتُ كما قلت فغفر الله لي، وإن لم أكن فغفر الله لك .

وفي منشور الحكم: إذا أردت أن تحمل المكارم فاحتمل المكاره .
وحكى ثمامة بن أبي ثمامة الأنصاري قال: كنت في مركب يجيى بن خالد بيباب الشام، إذ عرض له رجل فأسمعه وأغلظ، فتبادر إليه قوم من حواشي المركب، فقال لهم: كفوا عنه ودعا به، وقال له: أما تعلم أنني قادر على إيدائك؟ قال: بلى . قال: فانصرف، فإنها يمنعني عنك قدرتي عليك .

ومن أمثال الحكماء في ذلك: الاقتدار يمنع الحرّ من الانتصار .
وحكى أن سلم بن نوفل الدَّيلى وكان سيد قومه، وثب رجلٌ على ولده فشجّه فأُتي به إليه، فقال له: ما أجراك على ما فعلت، وما الذي أمتك من انتقامي منك؟ قال الرجل: فلم سوّدناك إذن إلا أنك تحلم وتكظم الغيظ وتحمل جهل الجاهل، قال له: فلماي قد آثرت حلمي وكظمت غيظي، واحتملت جهلك، خلّوا عنه، فولى الرجل وهو يقول:

يسوّد أقوامٌ وليسوا بسادة بل السيد المعروف سلم بن نوفل
وقال محمد بن كناسة: إن أهل الجاهلية لم يكونوا يسوّدون رجلاً حتى يكون حليماً، وإن كان أكرم الناس وأشجع الناس وأشرف الناس .

وقال بعض العلماء: ثلاث من لم تكن فيه لم ينفعه الإيمان: حلم يردّ به جهل الجاهل، وورع يكفّ به عن المحارم، وخلق حسن يداري به الناس .

وقال معاوية رحمه الله: إني لأنف أن يكون في الأرض جهل لا يسعه حلمي، وذنب لا يسعه عفوي، وحاجة لا يسعها جودي . وقال: أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة . وقيل: إنه قسم يوماً قطعاً فأعطى شيخاً منها قطيفة، فلما نظر إليها الشيخ

لم تعجبه، فأقسم أن يضرب بها رأس معاوية، فأتاه فأخبره بقسمه، فقال له معاوية:
أوفِ بنذرك، وليرفق الشيخ بالشيخ .

وقال بعض الحكماء: إن الحِلْمَ ليظهر في جميع أحوال الحليم، فيرى حلمه في
كلامه، وفي حركاته، وفي مشيته، وفي معاملته للناس، وفي جميع أحواله عند إجرائه إياها
على أحسن وجوهها وتوجيهها إلى أجمل مذاهبها، وذلك هو العاقل الحليم .

وكانت الحكماء تقول: العقل والأناة رأس الحلم .

ومن كلام طاووس: ما حمل علم في مثل وعاء حليم .

روي أنه جرى بين الحسين بن علي بن أبي طالب وبين أخيه محمد بن الحنفية رضوان

الله على جميعهم كلامٌ، واقتربا متغاضبين، فلما وصل محمد إلى منزله كتب إلى الحسين:

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن علي بن أبي طالب إلى الحسين بن علي بن أبي
طالب . أما بعد، فإن لك شرفاً لا أبلغه، وفضلاً لا أدركه، أبونا عليّ لا أفضلك فيه ولا
تفضلني، وأمك فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ولو كان ملء الأرض نساء مثل أمي ما
وقّين بأملك، فإذا قرأت رقعتي هذه فالبس رداءك ونعليك وتعال فترضّني، وإياك وأن
أسبقك إلى الفضل الذي أنت أولى به مني، والسلام . فلبس الحسين رداءه ونعليه
وجاء إليه وترضّاه .

وقال معاوية بن أبي سفيان رحمه الله: لا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه

جهله، وصبره شهوته، ولن يبلغ ذلك إلا بقوة الحِلْم .

ومن كلام بعض الحكماء: مَنْ غرس الحِلْمَ شجرًا، وسقاه الأناة دررًا، جنى العزّ

منه ثمرًا، وأنبت في المكارم أثرًا .

وسُئل كسرى عن مقدار الحِلْم قال: وكيف يُعلم مقدار ما لم يُرْ كما له في بشر .
وقيل لبعض الحكماء: من أشجع الناس؟ قال: مَنْ رَدَّ غَضَبه بحلمه .

وكان معن بن زائدة قد عزم على قتل جماعة من الأسرى، وكان من الكرام، فلما أمر بإخراجهم للقتل ومثلوا بين يديه قام إليه أصغر القوم سنًا، وقال: يا معن، أتقتل الأسارى وقد جاعوا وعطشوا، فأمر لهم بطعام وشراب، فلما أكلوا وشربوا، قام إليه فقال له: يا معن أتقتل أضيافك؟ فحلم عنهم وخرّلى سيبلهم وتعجب من حيلة الفتى .
وفي بعض الحكم: مَنْ سمت همته ولان جانبه، وَجَبَّتْ عشرته وحسنت مودته، وَمَنْ ظهر حلمه قلّ ظلمه وكثر أعوانه .

وقيل لبعض الحكماء: مَنْ أحلم الناس؟ قال: مَنْ قدر على الكلام وهو كثير صمته، وقدر على العقوبة وهو كثير عفوه، وقدر على الحركة وهو كثير وقاره .

ومن الحكم المنثورة: الصمت على الجاهل حِلْم، والصمت عند العالم عِلْم .
وقيل لبعضهم: بم يُعرف الحليم؟ قال: إذا صُمَّتْ عن الحنا أذناه، وأغضت عن الفحشاء عيناه، ولم يهجر عند المغاضبة أخاه . وفي مثل ذلك يقول محمد بن زياد:
تخالمهم للحلم صُمًّا عن الحنا وخرسًا عن الفحشاء عند التهاجرِ
لهم ذلٌّ إنصافٍ وعِزُّ تواضع به لهم ذلّت رقابُ المعاشِرِ
وقال بعض العلماء: الحِلْم حجاب الآفات، وإنّ حلم ساعة ليردّ سبعين آفة .
وقال عمرو بن كلثوم: الحليم سليم، والسفيه كليم .

وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: السيد هو الحليم حين يستجهل، والجواد حين يسأل، والبرّ بمن يعاشر . وقال أيضاً رحمه الله: أحب الأشياء إليّ أربعة: القصد عند الجدة، والعفو عند المقدرة، والحلم عند الغضب، والرفق بعباد الله في كل حال .

وقال معاوية يرحمه الله: إني لأجد للعضو عن الذنب العظيم لذة وأريحية ما أجدها
لشيء غيره من لذات الدنيا .

وأوصى بعض الحكماء صاحبه فقال له: العلم والعدل يؤديان إلى الصبر والعلم
والعدل، والصبر يؤدي إلى الحلم، فالزم الحلم في جميع أمورك، تتم لك أسباب الحكمة،
وتجتمع لك شرائط المروءة .

وقال الشَّعْبِيُّ: ما رأيت الله عزَّ وجلَّ نحل عباده أجلاً من الحلم .

فصل

ومن تمام أحكام الحِلْمِ وكمال أسبابه واجتماع معانيه: قبول العذر من صادق كان
أو كاذب، فإن الاعتذار دليل الندم، والندم توبة .

رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "مَنْ لم يقبل من متنصِّلٍ عذراً صادقاً كان أو
كاذباً، لم يردْ عليَّ الحوض" .

وقد يكون الاعتذار حياةً من المعتذر، والحياة من الإيمان، وهذه وجوه يتعين بها
على الموفق قبولها، ولعلها قد أفنعت أهل الخير والفضل قليله .

وفي بعض الحكم: ليس من الحِلْمِ السؤال عن العذر . وقيل أيضاً: التغافل ذروة
الشرف، وطلب العذر من آفات الحلم .

وفي مشور الحكم: نعم الشفيع الاعتذار عند أهل الحلم والاعتذار .

ومن أمثالهم: الاعتراف يمحو الاقتراف . وقال بعض الشعراء:

إذا اعتذر المسيء إليك يوماً من التقصير عُذر فتى مُقَرَّرٌ
فصنّه عن عقابك واعفُ عنه فإنَّ الصَّفْحَ شِيمَةٌ كُلُّ حُرٍّ

وقال غيره:

إذا ما أتت من صاحب لك زلّةً فكن أنت محتالاً لزلّته عُذرا

وقال آخر أيضًا:

اغتفر زلّتي لتحرز فضل الـ
لا تكلني إلى التوسّل بالعدو
عفو عني ولا يفوتك أجري
رلّسي أن لا أقوم بعذري

وما أحسن القائل:

فأصخّ للعدو ما كما
فلسان العذر متبور
ن مريضًا أو صحيحًا
ل وإن كان فصيحًا

ومن كلام بعض الحكماء: الكريم أوسع ما تكون مغفرته، إذا ضاقت بالمندب
معذرتة . وقال بعض الشعراء:

ولا تُنزل بمعتذرٍ عقاباً فإن الذنب يغفره الكريمُ

وقال شمس المعاني^(١): العفو عن المجرم من تمام الكرم، وقبول المعذرة من محاسن
السيم . وقال بعض الحكماء: العفو عن الذنوب لذة لا يبلغها المشغوف بالانتقام .
واعتذر رجل إلى جعفر بن يحيى بن برمك، فقال له جعفر: أغناك الله بقبول العذر
منا عن الاعتذار، وأغنانا بالموّدة منك عن سوء الظن بك .

وفي بعض الحكم: ما أذنب من اعتذر، ولا أعتب من اغتفر .

ومن حسن الكلام لبعض المعتذرين: أنا - أعزك الله - ممن لا يحتاجك في نفسه، ولا
يغالطك في جرمه، ولا يلتمس رضاك إلا من وجهه، ولا يستعطفك إلا بالإقرار

(١) قابوس بن وشمكير الزبيري (ت ٤٠٣ هـ)، أحد أمراء جرجان.

بالذنب، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالزلة، فإن عاقبت فبحقك، وإن عفوت
فبفضلك . فانظر ما أحق هذا بالعمو وأخلق اعتذاره بالقبول!

ومن جيد كلام الحكماء، وما يسبق إلى القلب إنكاره وإن كان عندك اعتذاره،
فليس كل من جنيت عليه نكراً يوسعك عذراً .

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه:

إذا ما امرؤ من ذنبه جاء تائباً إليك ولم تغفر له فلك الذنبُ

وقال علي بن الجهم:

إن ذلَّ السؤال والاعتذارِ خطئةٌ صعبةٌ على الأحرارِ

ليس جهلاً بها تكفّلها الحُرُّ ولكن سوابق الأقدارِ

ارضَ للسائل الخضوع وللقا رفاً ذنباً مضاضةً الاعتذارِ

وقيل: إنه أتى برجل مذنب إلى موسى الهادي^(١)، فجعل يقرّعه^(٢) بذنوبه، فقال: يا

أمير المؤمنين، اعتذاري إليك بما تقرّبه عيني ردّ عليك، وإقارني بذنب لم أجنيه ذنب،

ولكنني أقول في المعنى:

فإن كنت ترجو في العقوبة راحةً فلا تزهدن في العفو عني عن الأجرِ

فقال له الهادي^(٣): سأصفح عن ذنبك لعذرك، وإن كنت من أحدهما على يقين،

ومن الآخر على شك ليتمّ المعروف مني عليك، وتقوم الحجّة لي عليك .

(١) م: المهدي، والتصحيح من ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٢، ص ١٩.

(٢) م: يتقرّعه .

(٣) م: المهدي .

وقيل: إنه أتى الحجاج يوماً بأسرى، فأمر بقتلهم، فلما وصل إلى أحدهم، قام فقال للحجاج: لا جزاك الله عن السنة خيراً، فإن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْنَبْتُمُوهُمُ فشدُّوا الْوَتَانَ فإِذَا مَثًا بَعْدُ وَإِنَّمَا فَدَاءُ ﴾ [سورة محمد، من الآية ٤] فهذا قول الله عزّ وجلّ في كتابه، وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق:

وما نقتل الأسرى ولكن نفكّهم إذا أنقل الأعناق ثقل القلائد

فقال لهم الحجاج: ويحكم أعجزتم عن مثل هذا وأمسك عن الباقيين .

وحكى أبو العباس أحمد بن أبي دؤاد قال: ما رأيت رجلاً عاين الموت ملء^(١) عينه، فما أذهله ولا شغله عما كان يجب أن يفعله إلا تميم بن جميل الأوسي، رأته وقد وافى به الرسولُ بابَ أمير المؤمنين المعتصم بالله في يوم الموكب وقد جلس للعامة، فدعا به ودعا بالسيف والنّطع^(٢)، فلما مثل بين يديه وقد بسط له النّطع وشهر السيف، جعل المعتصم ينظر إليه ويحبل فكره فيه وهو ساكت، وكان رجلاً وسيماً يملأ العين، فأحبَّ المعتصم أن يعلم أين لسانه وجنانه من منظره، فقال له: يا تميم، تكلم وإن كان لك عذر فأت به، وإن كانت لك حجّة فأدل بها، فقال: أما وقد أذن لي أمير المؤمنين في الكلام فإني أقول: الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي جبر بك صدع الدين، ولم يك شعث الأمة، وأوضح بك سبيل الحق، وأخذ بك شهاب الباطل، إن الذنب يا أمير المؤمنين يُحرس الألسنة ويصدع الأفتدة، وأيم الله لقد عظمت الجريرة، وانقطعت الحجّة، وساء الظن، ولم يبق إلا العفو والانتقام، وأرجو أن يكون العفو أقربهما منك، وأسرعهما إليك، وأولاهما بك، وأشبههما بخلائقك . ثم أنشأ يقول:

(١) م: ملا .

(٢) النّطع: جلدٌ يُسَطُّ لمن يُراد قتله .

أرى الموت بين السيف والنُّطْع يلاحظني من حيث لا أتلفَتُ
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي وأيُّ امرئٍ مما قضى الله يفلتُ
وأي امرئٍ يُدلي بعذرٍ وحجّة وسيف المنايا بين عينيه مُصلتُ
يعزّ على الأوس بن ثعلبٍ موقفٌ يسألُ عليّ السيف فيه فأسكتُ
وما جَزَعِي من أن أموت وإنني لأعلم أن الموت شيء مؤقَّتُ
ولكنّ خلفي صبيّة قد تركتهم وأكبادهم من حسرة تتفتّتُ
كأنّي أراهم حين أنعى إليهمُ وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا
فإن عشتُ عاشوا خافضين بغبطة أذود الردى عنهم وإن متُّ موتوا
وكم قاتل: لا يُبعد الله داره وآخر جذلان يسرّ ويشمتُ

فضحك المعتصم وقال: يا تميم، كاد والله أن يسبق السيف العَدَل، اذهب فقد وهبتك للصبيّة وعفوت عن الهفوة . وخلع عليه وعقد له على شاطئ الفرات، فأحسن وأجل السيرة .

وقيل: إنه وافى قومٌ من أهل البصرة باب أبي جعفر المنصور شاكين من أحمد بن يوسف، وكان قد وّلاه صدقات البصرة، فأمر بعزله وأراد عقوبته. ثم أمر بدخولهم، فجلس لهم مجلساً ليتحقق صحة دعواهم، وأقام أحمد بن يوسف لمناظرتهم، فقال في بعض كلامه: يا أمير المؤمنين، لو أن أحداً سلّمَ مَن ولى الصدقات لكان ذلك رسول الله ﷺ، والله يقول عزّ من قائل: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [سورة التوبة، الآية 58] فاستحسن المنصور كلامه، وحمد مقامه، وعفا عنه، وولاه مكاناً غيره .

وحُكي أن المأمون عتب يوماً على إبراهيم بن المهدي لما أدخل عليه، فقال: يا أمير المؤمنين وليّ الثأر محكم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، ومن تناوله الأغرار مع ما رّر له من أسباب الرجاء أمن عادية الدهر، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب، كما جعل كلّ ذي ذنب دونك، فإن تأخذ فبحقّك، وإن تعف فبفضلك، وأنشأ يقول:

ذنبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ وَأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهُ
فَخِذْبِحَقِّكَ أَوْ لَا فَاصْفَحْ بِفَضْلِكَ عَنْهُ
إِنْ لَمْ أَكُنْ بِفَعَالِي مِنَ الْكِرَامِ فَكُنْهُ

وأطال مجلسه بكل اعتذار حسن وكلام بليغ، فقال له المأمون: القدرة تذهب لحفيظة، والندم توبة، يا إبراهيم لقد حيب إليّ العفو حتى خفت أن لا أوجر عليه، غفر الله لك . وجدّد إحسانه .

وقيل: إنه بعث يزيد إلى معاوية برجل من بني تميم، فلما مثل بين يديه قال له: أنت لقائم علينا، المكثّر لعدونا؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنما كانت فتنة عمّ عماها، وأظلم جاهها، قوي فيها الوضع، وخفّ الحليم الرفيع، فاحتمت وأكلت علباً وشربت حتى ذا انحسرت ظلهاؤها، وانكشف غطاؤها، وآل الأمر إلى مآله، وصرح عن محضه، رتفع العبوس، وثابت النفوس، فتركنا فتنتنا، ولزمتنا عصمتنا، وعرفنا خليفتنا، ومن بد متاباً لم يردّ الله به عقاباً، ومن يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيمًا . فعجب معاوية من صاحته، واستغرب حسن اعتذاره؛ وعفا عنه وأحسن إليه .

ودعا سليمان بن عبد الملك يزيد بن أبي مسلم وهو موثق في الحديد، وكان ساحب أمر الحجاج، فلما دخل عليه ازدراه حيث رآه ونبت عنه عيناه، وقال: ما رأيت اليوم! وكان يزيد لا يملأ العين منظره، ثم قال له سليمان: لعن الله رجلاً أقادك رسنّه،

وحكّمك في أمره، فقال له يزيد، لا تقل هذا يا أمير المؤمنين، إنك ازدريتني والأمر عني مُدبر، وعليك مقبل، ولو رأيتني والأمر عليّ مقبل لاستعظمت من أمري ما استحققت، واستكبرت منه ما استصغرت، فقال له سليمان: صدقت - ثكلتك أمك - اجلس، فجلس في قيوده . فقال له سليمان: عزمت عليك يا ابن أبي مسلم لتخبرني عن الحجاج أترأه يهوي في جهنم أم قد قاربها؟ قال: يا أمير المؤمنين، لا تقل هذا في الحجاج وقد بذل لكم النصيحة، وأخفر دونكم الذمة، ووالى وليكم، وأخاف عدوكم، وإنه يوم القيامة لعنَ يمين عبد الملك ويسار الوليد، فاجعله حيث شئت . فصاح سليمان استكراهاً لكلامه، وأمر بإخراجه، ثم التفت إلى جلسائه وقال: ثكلته أمه ما أحسن بديته! وأحدّ قريحته! وأجل تزيينه لنفسه ولصاحبه! لقد أحسن المكافأة على الصنيعة، وراعى اليد الجميلة، خلّوا سبيله . وأمر بحلّ قيوده ولم يتعرض لمضرّته .

رُوي أنه كان رصد عثمان بن عفان رجلٌ يريد قتله، فلما رآه تلقاه بخنجر، ثم دهش الرجل، فقال عثمان رضي الله عنه: خذوه ولا تقتلوه؛ فأخذ. فقال لهم عثمان: ما ترون في أمره؟ قالوا: اقتله يا أمير المؤمنين، قال: ولم؟ قال: لأنه أراد قتلك، قال: وأراد قتلي ولم يرد الله، خلّوا سبيله . ومثل هذا العفو مع مثل هذا الجرم لا يكون إلا لمثل عثمان رضي الله عنه، والله دُرّ الحسن بن رجاء حيث يقول:

صفوح عن الإجرام حتى كأنه من العفو لم يعرف من الناس مجرماً
وليس يسالي أن يكون به الأذى إذا ما الأذى لم يغش في الناس مسلماً
وقال شبيب بن شبة لمسلم بن قتيبة: والله ما أدري أي يوميك أشرف، أيوم ظفرك أم يوم عفوك!

وقال بعض الحكماء لجلسائه: يا قوم هل لكم في الحقّ أو ما هو أفضل منه؟ قال: وما هو أفضل من الحقّ؟ قال: العفو والتفصّل .

وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، جُمِعَ (١) اللَّهُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ حَيْثُ يَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي وَيُنْفِذُهُمْ (٢) الْبَصْرَ، فَيَقُومُ مَنَاذِرٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ لَهْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى يَدٌ فَلَيقَمَ، لَا يَقُومُ إِلَّا مَنْ عَفَا". وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "عَفْوُ الْمَلُوكِ أَبْقَى لِلْمُلُوكِ".

وقال متمم بن نويرة: ثلاثة أشياء تحسن بالمرء: السّاحة والعفو والصدق، وأحسن ما هي في ثلاثة مواطن السّاحة في المجاعة، والعفو عند الغضب، والصدق عند العدم .
وقيل للأحنف بن قيس: ما الحِلْمُ؟ قال: قولٌ إن ضَرَّ فعل، وصمْتُ إن ضَرَّ قول .
وهذا كلام حسن .

وقال بعض الحكماء: من أراد أن يلبس ثوب العقل، ويتوشح برداء العلم، ويتحلّى بحلّي الصبر، فليزِم الحِلْمَ في جميع الأحوال ويستعمله في كل الأمور، تكمل له أسباب الإيمان، وتجمع (٣) له أشتات السياسة، وتتم (٤) له شروط المروءة، ويأخذ بأطراف المعرفة، وتلحظه العيون بالوقار، وتزين له القلوب بالمودة، وتقرّ له الألسنة بالشكر، ويجوي قصب السبق الفائز بخير الدارين، فإذا تكاملت - أيديك الله في الحلم - هذه الخصال الحميدة، وتجمعت فيه هذه الخلال الشريفة السديدة، فمن الحق أن يتّخذ المرء جارا يستجير به من الملامة، ويتحيز به إلى فئة السلامة، ومصباحاً يستضيء به عند ظلم الجهالة، ويكشف عنه غياهب الحيرة والضلالة، ويعدّه ركناً يلجأ إليه عند تهافت المفوات، ويعتمد عليه عند تعارض الشهوات، فيتخلّص به بفضل الله عزّ وجلّ من جميع الآفات، فإنه من تعلق بأسبابه سعد وسلم، ومن تلعّف بأثوابه حمد ونعم، إن شاء الله وهو المستعان لا ربّ غيره .

-
- (١) م: وجمع، والتصحيح من السيوطي، الدر المنثور، ج ٨، ص ٣٨٧ .
(٢) م: ينقلهم، والتصحيح من الدر المنثور، ج ٦، ص ٢٠٢، ص ٢٠٩ .
(٣) م: يجتمع .
(٤) م: يتم .

فصل

في أطراح السّفه ومقابحه

السّفه - عصمك الله - من الشيم المبعوضة، والخلال المجفّوة المرفوضة، الدالّة على خسيس الطباع وشمائل الأوضاع، والتجرد عن ثياب العقل، والانتباز عن دواعي النّبل والفضل . وما زال صاحبه أبداً مشنوء الجانب، مذموم المقاصد والمواهب .
والسّفاهة هي الخفّة والاضطراب . يقال تسفّهت الغصون: إذا أمالتها الرياح .
وتسفّهت الرماح: إذا اضطربت عند اشتجارها وتمايلت؛ فكأن صاحب السفاهة لا يثبت على حال، ولا يقف على حقيقة من الأفعال والأقوال، وكفى بهذا غاية في النقصان، وتأخراً عن درجة الإحسان، وتمسكاً بحبل المهانة والامتهان؛ ولذلك سُمّي الكلب سفيهاً؛ لمهانة نفسه وخساسة جنسه .

وقيل أيضاً: السّفه: الجهل . والسفيه: الجاهل . وسفه بمعنى جهل . والسفيه أيضاً المبذّر الذي لا يصلح لإمساك ماله، ولا يقوم بصلاح حاله بقلة نظره ومواصلة ضرره؛ وكلّها وجوه جامعة لمعاني السّفه . والوجه الأول أجمع لأسبابه، وأبلغ في جميع أبوابه؛ لأنه قد يوجد مع الجهل الثقل والسكوت والصمت والثبوت، حتى لا يظن بصاحبه جهلاً إلا عند الاختبار؛ ولذلك ما جعل السفيه ضدّ الحليم، ألا ترى إلى قولهم: فلان طؤد حلم، وفلان أحلم من ثبير^(١)؛ فشبهوه بالطؤد لثبوتهم، وصاحب السفاهة ضده؛ لأنه موصوف بالخفة والاستشاطاة وسرعة الغضب وقلة الثبوت، وإنفاذ العجلة فيما بدا له . وكانت العرب تسمي العجلة أم الندامة؛ لأن صاحبها يقول قبل أن

(١) ثبير: جبل بالحجاز . ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٧٢ .

يعلم، ويجب قبل أن يفهم . وقد عابت به الجن أنفسها في قول الله سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ
يَقُولُ سَفِينًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ [سورة الجن، الآية ٤]، وقال عز من قائل: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَن
مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [سورة البقرة، من الآية ١٣٠]، وقال تبارك اسمه: ﴿ قَالَ
يَنْقُومِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأعراف، الآية ٦٧]، وقال
عز ذكره في شأن المبذرين: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾ [سورة النساء، من الآية ٥]، وقال
تعالى: ﴿ أَتْلِكُنَّ بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ [سورة الأعراف، من الآية ١٥٥]، وذكر كثيرًا في كتابه .
واشتق بعض الفلاسفة اسم الفلسفة فقال: معناه: فل السفه .

وقيل في بعض الحكم المرفوعة: السفية مبعوض محقور، والحليم محفوظ مكلوء .
ومن كلام الحكماء: مَنْ عَرَسَ شَجَرَ السَّفَاهَةِ، جَنَى ثَمَرَ النَّدَامَةِ . وقالوا: من تثبت
سلم، ومن تعجل ندم . وقال رسول الله ﷺ: "التأني من الله، والعجلة من الشيطان"،
ومن كلام بعض الحكماء: السكوت عن السفية جواب، والإعراض عنه عقاب،
ومباعدته ثواب؛ وفي مثل ذلك يقول بعض الشعراء:

إذا نطق السفية فلا تجبه فخيرٌ من إجابته السكوتُ
حلمت على السفية فظن أني عييت عن الجواب وما عييتُ
فلمست مشاتمًا يومًا لثيما ولو شاتمته يومًا خزيتُ

وقال غيره:

وَلَلْكَفُّ عَن شَتْمِ اللَّثِيمِ تَكْرَمًا أَضْرَبُهُ مِنْ شَتْمِهِ حِينَ يَشْتُمُ

وقال غيره:

وما شيء أحب إلى سفية إذا سبَّ الحليم من الجوابِ
متاركة السفية بلا جوابٍ أشدَّ على السفية من السبابِ

وقالت الحكماء: السفية مُجَالِفٌ ولا يُؤَالِفُ، ويُباري ولا يُدَارِي، ويجهل ولا يجفل، ويجور ولا يعدل، ويمضي ولا يفكر، ويقضي ولا يعذر، فما أقل إحسانه! وأثقل مكانه! وأطول في الإساءة عنانه! ويرحم الله محمد بن إدريس الشافعي حيث يقول:

إذا غلب الشقاء على سفية تقطع من مخالفة الفقيه

فمنزلة السفية من الفقيه كمنزلة الفقيه من السفية

فهذا زاهد في قرب هذا وهذا فيه أزهده منه فيه

وفي بعض الحكم المثورة: مَنْ خالط السفية مُقَّت، ومن جانبه فُخِت . وكان

يقال: أناة فيها درك خير من عجلة في عواقبها فوت .

ومن أمثال الحكماء: سرعة الغضب تورث العطب . ومن أقوالهم: يكفيك من

السفيه أنه لا يخلو من الندم، ولا يستفيق من عثار القدم .

وقال بعض العلماء: مَنْ تملكه غضبه ساء أدبه، وقعد به سفهه، ولم ينهض به

حسبه . وقالوا: مَنْ سفه رأيه عظم غيّه، وخبث سعيه، فصرعه بغيه .

وقال بعض الحكماء: إني لأرحم الحليم اضطرّ إلى مجاورة السفية، فلا شيء أشد

عليه من ذلك؛ لأنه يدرك بعقله تدبير الأشياء فيتحيل في كثير من الأمور، وماله في

السفيه من حيلة يرده بها عن جهله، ويصرفه بها عن سئى فعله، فهو يتعذب بكلّ ما

يصنع ويتنكر بكل ما يرى منه ويسمع .

فصل

وكل سفية لا محالة جاهل؛ لأن السّفه كلّ جهالة، وقد لا يكون الجاهل سفيةً؛

لأنه في كثير من الأشياء يحزم ويحذر ويتحرّز مخافة أن يوقعه جهله فيها لا طاقة له بدفعه،

ويوبقه فيما لا يقدر على التخلص منه، لا سيما إذا علم أنه بين أهل المعرفة والنبيل وأرباب النباهة والفضل، فعند ذلك يكثر تحمزه ويعظم تحفظه، والسفيه قد استوى عنده الخير والشرّ، واقترب عنده النفع والضّرّ، فهو يمضي عزائم على ما سوّلت له نفسه، ويُنفذ آراءه على ما خيّل له نظره وحده من غير رويّة ولا تفكّر، ولا تثبّت ولا تدبّر، فهو لا يملّ العثار ولا يستحيي من العار، ولا يرى مما يجنبه الاعتذار، ومنّ هان عليه عرضه لم يألمه الذمّ، والإعراض عن مثله لازم، وترك التشبّث به من المكارم، فإنّ تداني فلا تُدَمّ ولا تُضَمّ، وإنّ تئامى فلا تُلَمّ ولا تُلَمّ، وإنّ تعرض فلا تُصاحب، وإنّ أذنب فلا تُعاقب، وانظر إلى قول القائل:

وإذا عتبت على السفية مثله في كل ما يأتي فأنت مليمٌ

لا تُنّه عن خلقٍ وتأتي مثله عارٌ عليك إذا فعلت عظيمٌ

قيل لبعض الحكماء: أي الأشياء أشدّ ضرراً على المرء؟ قال: لزوم السفاهة، وإنفاذ العجلة، والاستبداد بالرأي، وقلة المبالاة بما نزل، وعدم التندّم على الزلل .

وفي بعض الحكم: من لم يملك غضبه لم ينل أربه، ومن لم يعص لجأته لم يبلغ حاجته . وقال بعض الأدباء: من غرس الغضب في أرض السفاهة شجراً، وأرسل عليها العجلة مطراً، اجتنى منها الندامة ثمراً، ولم يعدم في عواقبها ضرراً .

ومن الأمثال: ما أحسن الثبّت، وما أسوأ التلفت . وقال الشاعر:

وإذا هممت بأمرٍ سوءٍ فاتئدُ وإذا هممت بأمرٍ خيرٍ فاعجل

وقالوا: إذا ظننت فلا تعجل بأمر، وإذا تحققت فلا تمهل . وقال الشاعر:

ولا تعجل بظنك واختبره فعند الخبر تنقطع الظنون

وأوصى رجل ابنه فقال له: يا بني، إذا كنت في قومٍ فدار بينهم تديبر، فلا تعجل بالجواب قبل أن تعرف ما عندهم، ولا تتكبر عن متابعتهم إذا ظهر لك الحق، فإن المتابعة على الصواب أحسن من الابتداء بالخطاب . واعلم يا بني أن إصابتك للرأي بعد خطأ القوم، أحم لك من إصابتك قبل كلامهم، فإنه لا يعرف فضل رأيك على غيره إلا بعد المعرفة بما عندهم، فعند ذلك يستين العدل الشديد من السفية، والرأي الرشيد من الكريه، ومن استقبل وجوه الآراء علم مواضع الخطأ .

وقال القلمس بن عوف في بعض وصاياه: إياكم والعجلة، فإنها رأس السَّفَه، وعليكم بالتأيد في الأمر، فإن النجاح معه .

ومن الحكم: الحلم قوة شريفة، تدل على همة منيفة؛ لأنها لا تشتد عند الشَّرِه والطمع، ولا تتوقد عند التهاب جمره الغضب، ثم يلين كل شديد، ويخمد كل موقود فتعقب كل محمود، والسَّفَه قوة سخيفة تدل على قوة ضعيفة؛ لأنها تعظم عند الشَّرِه والطمع، وتتوقد عند التهاب جمره الحرص والجشع، فتنبعث على الأفعال الذميمة، وتورث العواقب الوخيمة .

ومن كلام بعض الحكماء: التحلّم عن السفية دليل كمال العقل، وممارأته دليل نقص العقل، والإعراض عنه غنم، والتباعد عنه حزم، وقربه ذمّ .

وحكي عن عبد الملك بن مروان: أنه قال لمحمد بن عطار التميمي: يا محمد، احفظ عتي أبياتاً أنشدها لك، واعمل بها فإنها جنةٌ للحليم، ورذعٌ للسفيه، قال: هاتها يا أمير المؤمنين:

إذا أنت جاوبت السفية كما جرى فأنت سفيةٌ مثله غير ذي حلمٍ
إذا أمن الجهال حلمك مرّةً فعرضك للجهال غنمٌ من الغنمِ

فلا تعترض عرض السفية وداره بحلم فإن أعبا عليك فبالصرم
وعمّ عليه الحلم والجهل والقّه بمرتبة بين العداوة والسلم
فيرجوك تاراتٍ ومخشاك تارةً وتأخذ فيما بين ذلك بالحزم
فإن لم تجد بُدًا من الجهل فاستعن عليه بذئ جهل فذاك من الحزم

وقال بعض الحكماء: مَنْ أرسل حلمه على سقطات الجاهل آمن الغوائل، وفاز
بالسيّد الكامل . ومن أمثال الحكماء: مَنْ تحلّم لم يتندم . وقالوا: مداراة السفية من
علامات الإحسان، ومماراته من دلائل النقصان . وقال بعضهم: الحِلْم يطفى غضب
الجاهل، ويسكن هفوات الباطل . وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

امنن بحلمك إن مُنيت بجاهلٍ فالحلم يطفى الجهل حيث تلهبا
وقال عامر العدواني:

إني غفرت لظالمي ظلمي وتركت ذاك له على علمي
ورأيتُه أسدى إليّ يدًا لمّا أبان بجهله حلمي
وسبّ رجلٌ سفيةً بعض الحكماء، فقال: لست أدخل في حزب الغالب فيه شرّ من
المغلوب . ومما قلت في هذا المعنى:

لما تعرض للسبب تركته وغفلت عنه أيما إغفالٍ
وعلمت أن الصمت عنه عقوبة والصمت فيه عقوبة الجهال

وقال بعض العلماء: لا أحد أجمع من السفية للخلال المذمومة، وأبعد عنه من الخصال
المحمودة، فإنه لا يستحي من المحال، ولا يرى العار في حال، فاحذره جهدك وباعده
عمرك، فإن اضطرك الدهر إلى الجمع فأعدّ له حلماً تدفع به شرّه، وصبراً تقمع به ضرّه .
ولا تبتس بها أعلق بك، ولا تبال بها أضاف إليك، وكن معه كمن مرّ بروضة شوك فسعى
في تخليص جسده عنها، ولم يسأل عما تعلّق بثيابه منها . وقال بعض الأنصار:

تجرّد ما استطعت من السفية بحلمك عنه إن الفضل فيه
فقد يعصي السفية مؤدبيه ويرمي باللجاجة مثقفيه
تلين له فيغلظ جانباه كعير السوء يرمح عاقلية
إذا انبعث السفية فهي حلماً وصمماً واستعدّ لسدّ فيه

ومن كلام بعض الحكماء: بالحلم يُطفأ الجهل، وبالإعراض يُقمع الفسّل^(١). وفي ذلك يقول سابق البربري:

وليس للجهل مثل الحلم إطفاءً وبالدهاء قديماً يُجسم الدهاء
ومن حسن كلام العلماء: من أطاع غضبه أضاع أدبه، ومن أصلح إفساده أرغم حساده .

ومن أمثاله: ضيق الصدر من صغر القدر . ومن أقوالهم: من تحلّى بالسفاهة تخلّى عن النباهة . وقالوا: السيد مُعان، والسفيه مُهان .

وقال رجل من الأدباء يوصي ابنه: يا بنيّ، تجرّد عن السفية تجرّد الصلّ، واتركه ترك الظلّ، وفرّ عنه فرارك من الصّينم، واجعل مباحثته أجلّ مكسب وأفضل مغنم، فإن مصاحبه أبداً مذمومٌ مدحورٌ، ومنادمه مجفوٌّ محقورٌ، فإن ذهبت به يوماً فتدرّع له الحلم، واركب له جواد الصبر، وسلّ عليه سيف الصمت، تكن السابق في الخصل، الحاوي قصب الفضل .

وفي بعض الحكم: من سفهت أحلامه كثر لؤامه، وكره إمامه، وكفى بالسفيه ألدّوثة أن يستوي عنده الذامّ والمادح، ويقترن في أمره الغاشّ والناصح، فلا قرّب الله داره، ولا أدنى قراره، ولا أقال عثاره، ولا ألحق بنا آثاره، وجعلنا عن أثر مجانبته، وكره محاورته، واستجنب مجاورته بمّنه وكرمه .

(١) لعله أراد النذالة وعدم المروءة، فالفسّل: الرجل الرذّل الثذل الركيك الذي لا مروءة له. والجمع فسّل. لسان العرب (فسل).

الباب الثامن

في إظهار الصدق ومنافعه، وإنكار الكذب ومصارعه

الصدق - صدقك الله - أفضل خصال الإنسان، وأوضح دلائل الإيمان، وأجل مواهب الإحسان، وأكمل نعم الملك الديان . وهو دال على جلالة القدر، ونزاهة النفوس، ويُعد الهمة، وصلاح الشيم والشائتل، وبه تمام المكارم والفضائل . وما زال يحجب عن المكاره صاحبه، ويثبت في الصالحات مآثره ومناقبه، ويُعلي في الدارين منازلَه ومراتبه، ويحسن في جميع أحوال الدنيا والدين عواقبه . وهو ركن وثيق من أركان الدين، وحبل من حبال العصمة متين، وعلامة صادقة لأولياء الله المتقين، وبرهان واضح لعباده الصالحين . وقد وصف الله به نفسه وأضافه سبحانه إلى ذاته، فقال عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ [سورة النساء، من الآية ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [سورة الأنعام، من الآية ١٤٦]، وقال تبارك اسمه: ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [سورة آل عمران، من الآية ٩٥].

وأثنى به على نبيه إسماعيل عليه السلام فقال: ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ [سورة مريم، من الآية ٥٤]، ووصف به تعالى نبيه ودله^(١) عليه فقال عز ذكره: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [سورة الزمر، الآية ٣٣] .
وخص به عباده فقال جل وعز: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [سورة التوبة، الآية ١١٩] .

(١) م: ودليله .

قيل: ثم جعله صفة لجزيل ثوابه وكريم مأبه، فقال سبحانه: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [سورة يونس، من الآية ٢٠]، وقال جل ذكره: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [سورة القمر، الآية ٥٥]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [سورة المائدة، من الآية ١١٩]، وقال جل شأنه: ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية ٢٤] وهذا كثير في كتابه العزيز .

قال رسول الله ﷺ: "عليكم بالصدق، فإنه مع البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإياكم والكذب فإنه مع الفجور، والفجور يهدي إلى النار" . وقال عليه السلام: "تحرموا الصدق وإن كان فيه الهلكة، فإن فيه النجاة، واجتنبوا الكذب وإن كان فيه النجاة، فإن فيه الهلكة" . وقال ﷺ: "الصدق طمأنينة والكذب ريبة" .

وقال أكرم بن صيفي: الصدق منجاة، والكذب مهواة .

وقال الشَّعْبِيُّ: عليك بالصدق حيث تعلم أنه يضرّك فإنه ينفعك، وإياك والكذب حيث ترى أنه ينفعك فإنه يضرّك .

فصل

واعلم أنه لا جنة أوقى من الصدق، ولا شيء أقوى من الحق، ولا سبيل أخوف من الكذب، ولا حادث أقبح من الزور، وقد فتح الله للصدق النجاة من القطيعة وإن لم ينوها، والخلاص من النازلة وإن لم يتوهمها .

قيل: إنه جلس الحجاج يوماً ليقول أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث، فقدم إليه رجل منهم فقال: أصلح الله الأمير، إن لي عليك حقاً . قال: وما هو؟ قال: سبّك

عبدالرحمن يوماً فقامت دونك، فقال الحجاج: ومَن يعلم ذلك؟ فقام الرجل عند أصحابه وقال: أنشد الله رجلاً سمع ذلك مني فشهد لي، فقام رجل منهم وقال: قد كان ذلك أيها الأمير، فقال: خلّوا عنه، ثم قال للشاهد: فما منعك أن تفعل مثل ما فعل؟ قال: بغضي فيك، فقال الحجاج: وخلّوا عن هذا لصدقه؛ فنجا من حيث لم يتوهم، وتخلّص من حيث لم يعلم .

وكان الحجاج -على ما كان منه- يعجبه الصدق ويؤثره ويطفئ غضبه ويكسره. ورماه يوماً رجل، فقال: انظروا من هذا، فإذا برجل قد أوما بيده ليرميه ثانية، فقدم إليه وقد ذهب عقله، فقال له الحجاج: أنت رامينا منذ اليوم! قال: نعم . قال: فما حملك على ذلك؟ قال: البغي والله . قال: خلّوا سبيله، فقد صدق .

وحُكي عن ربيعي بن خراش أنه لم يكذب قط، فأقبل ابنه من خراسان، وكان الحجاج يجِد عليهما ويمجّد في طلبهما، فأعلمه بعض العرفاء بوصولهما، فبعث الحجاج إلى ربيعي ليختبر حقيقة ما وُصف به، فلما جاءه قال له: أيها الشيخ . قال: ما تريد؟ قال: ما فعل ابنك؟ قال: الله المستعان هما في البيت . قال الحجاج: لا جرم والله لا أسوؤك فيهما أبداً هما لك .

وقال سفيان الثوري لبعض أصحابه: يا أخي عليك بتقوى الله وصدق اللسان، فإنه ما أوتي العبد شيئاً في الدنيا أحسن من لسان صادق .

وقال بعض الصالحين: اصبر على الحق وإن غلبت به، وتنبّك الباطل وإن غلبت به، فلأن تموت بحق، خير من أن تعيش بباطل .

وقال بعض الحكماء: من شرف الصادق أنه يصدق على عدوه .

ومن كلام سقراط الحكيم: مَنْ اتَّخَذَ الصَّدَقَ سُنَّةً كَانَتْ لَهُ أَحْصَنُ جُنَّةً .
وقال لبعض أصحابه: لا تستحي أن تقبل الحقَّ ممن أتاك به وإن كان ذمياً، فإن
الحقَّ عظيم في نفسه ويعظم صاحبه لعظمه .

وفي بعض الحكم: الصدق ثمرة المروءة، والحرص فضول الشهوة . وقال بعض
أهل العلم: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ مَعَهُ فَلْيَلْزِمِ الصَّدَقَ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ . وقال
أرسطاطاليس: بالصدق يتمّ الفضل، وتكتمل المروءة، وتنتشر المصالح، وتستر القبائح .
وقال بعض الشعراء:

كمال المروءة صدق الحديث وستر القبيح عن الشامتينا
وأحسن قول ما صدقه الفعل، فإن القول شاهد عدل ما لم يجرحه الفعل . وقال
محمود الورّاق:

القول ما صدّقه الفعل والفعل ما أكّده العقل
لا يثبت الفرع إذا لم يكن يقلّبه من تحته الأصل
وقال بعضهم: إِنَّمَا سُمِّيَ الصَّدِيقُ صَدِيقًا لَصَدَقَهُ، وَسُمِّيَ الْعَدُوُّ عَدُوًّا لِعِدَاوَتِهِ .
ومن أمثالهم: من صدق نفق .

وقال بعض الصالحين: أربعة يسود بهنّ الرجل: الصدق والعفة والأمانة وحسن
الخلق .

وقال رسول الله ﷺ: "مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُحِبَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَلْيَصِدْقِ حَدِيثِهِ، وَلْيُؤَدِّ
أَمَانَتَهُ، وَلَا يُؤَذِّجْ جَارَهُ"، وقال ﷺ: "تَكْفَلُوا إِلَيَّ بِسَتْ، أَتَكْفَلُ لَكُمْ بِالْجَنَّةِ" قيل: وما هنّ
يا رسول الله؟ قال: "إِذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَكْذِبْ، وَإِذَا وَعَدَ فَلَا يَخْلِفْ، وَإِذَا اتَّمَنَ

فلا يخن، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم، واحفظوا فروجكم". وكان من كلامه
ﷺ: "قل الحق وإن كان مرًا".

عليك بقول الصدق في كل موطن وإن كان دون الصدق شقّ المفارق
فما الغبن والخسران إلا لطالب بلوغ رضا المخلوق في سخط خالق
ومن كلام عمر بن الخطاب ﷺ: ليس فيما دون الصدق من الحديث خير . وفي
بعض الحكم: الصدق يوجب الأمانة والكذب دليل الخيانة . وقال جعفر بن محمد:
من صدق لسانه زكا عمله، ومن حسنت نيته زيد في رزقه، ومن كثر برّه بأهل بيته زيد
في عمره .

وقيل أيضًا: من أحب أن يشرك أهل النعم في نعيمهم، وأهل الأموال في أموالهم،
فليلزم صدق الحديث .

فصل

والصدق أوجب العمل وأكدّه الشرع، والعمل موجب لكل شيء حسن نافع مانع
من كل شيء قبيح ضار، والشرع قد ورد بامتنال الصدق، وإن كان لا يوجب نفعًا ولا
يدفع ضرًا، واجتناب الكذب، وإن جلب نفعًا ودفع ضرًا. وتعلّق بالشرع دواع جمة
تحمّل على الصدق وتمنع من الكذب، كالمروءة والعفاف والعدل والبرّ والحلم والصبر
وجميع مكارم الأخلاق، وكلّها باعثة على صدق المقال، كما تبعث على حسن الفعال،
مانعة عن الزور كما تمنع الفجور، وإن كان قد أوقعه الناس على القول فإنه يتصرّف على
جميع الأحوال والأفعال الخالصة من الشوائب، الصافية من الأكدار تشبيهاً بالقول
الصادق الخالص من الزور والبهتان، فيقال: فلان صادق الإيوان، إذا كان سالمًا من

الشك والريب . وفلان صادق المودة، إذا تخلص من الغش والحقد، وفلان صادق السريرة والضمير، إذا كان صفيًا من الارتياح والالتباس . وفلان صادق الظن، إذا أصاب به الحق ووافق به اليقين، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْرَاهِيمُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ ﴾ [سورة سبأ، من الآية ٢٠] . وهو في الكلام إصابة الحق واجتناب التحريف والتغيير والتبديل، وكذلك هو في أكثر الأفعال القصد إلى مكارمها والخروج عن ملائمتها . وقد صرفته العرب في غير ما شيء فقالت: رمح صدق، وساعد صدق؛ يراد به ثابت لا وهن فيه ولا خور . وقالت: فلان صادق الطعنة والضربة، إذا أصاب المقتل وطبق المفصل، ومثل هذا كثير في كلامهم مصرف في جميع أحوالهم، فمن تحلّى به فقد أحرز الفضل بكماله وجمع الخير في أفعاله وأقواله؛ ولذلك قالت الحكماء: الصدق أوضح دلائل العقل، وأعدل شواهد الخير، وأرفع منازل البر، وأقرب إلى السلامة، وأبعد من الملامة، وأجدر بالغبطة والكرامة . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: زين الحديث الصدق، وأعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب . وقيل في قول الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ [سورة البقرة، من الآية ٤٢]، أي: لا تخلطوا الصدق بالكذب .

وقيل في بعض الحكم: الصدق ينجيك وإن خفته، والكذب يرديك وإن أمنت .
ومن الأمثال: مَنْ عُرِفَ بِالْكَذْبِ ذَلَّ .
وفي منشور الحكم: الكذب داء، والصدق شفاء .
وسئل بعض الحكماء عن الصدق، فقال: الصدق صدقان، أعظمها نفعًا صدقك فيما يضرّك، فلن يعدوك حسن عواقبه . وفي مثل ذلك يقول بعض الشعراء:
اصدق وإن كنت تتقي عطفاً فالصدق أنجاهما^(١) من العطف

(١) م: انجماهما .

وقيل للأحنف بن قيس: ما المروءة؟ فقال: صدق اللسان، ومواساة الإخوان،
وذكر الله بكلّ مكان .

وفي حديث عبد الله بن عمر، أن النبي ﷺ قال: "ثلاث إذا كنّ فيك فلا يضرّ ما
فاتك من الدنيا: صدق حديث، وحفظ أمانة، وعفّة من طمع" .

وقال بعض العلماء: مَنْ أكثر الكلام فيها لا يعنيه حُرْم الصدق، ومَنْ أكثر النظر في
جميع معانيه حُرْم اليقين .

ومن كلام لقمان عليه السلام لابنه: يا بنيّ، الزم الصدق وإياك والكذب، فإنه
يُشهي كلحم العصفور، وإن تعودته لم تصبر عنه . واختلف الناس في لقمان عليه
السلام فقيل: كان نبياً . وقيل: كان رجلاً صالحاً . وقيل: إنه كان رجلاً حبشياً ولكن
آتاه الله الحكمة كما قال تعالى في كتابه . وذكر في بعض الآثار أنه كان راعياً، فلما انتهت
به الحال حيث شاء الله، ووصل حيث وصله الله، وقف عليه إنسان في مجلسه فعرّفه
فقال له: أأنت الذي كنت ترعى معي في مكان كذا وكذا؟ قال: نعم . قال: فما بلغ بك
ما أرى؟ قال: صدق الحديث، وأداء الأمانة، والصمت عمّا لا يعني . وقيل أيضاً فيما
قيل عنه: أنه كان في زمن داود عليه السلام وأنه كان يلتمس منه الحكمة ويقتبسها من
عنده، فأتاه الله إياها ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ [سورة يوسف، من الآية ٢١] .

وقيل لبعض الحكماء: مَنْ السيد؟ قال مَنْ صدق لسانه، وعظّم جناحه، وكثُر أمانه،
وحمده جيرانه .

وفي بعض الحكم: صدق المقال من أكرم الخلال، وأفضل شيم الكمال، وأعدل
شواهد فضائل الرجال . وقالوا: الصدق أصدق صديق، يحملك على التحقيق،

ويخرجك من الضيق، ويوضح لك الطريق . ومن كلامهم: الصادق ناصح وإن ثقل كلامه، والمائن غاش وإن خفّ كلامه . وقالوا: الصادق لا يغش ولا يفحش .
وقال بعض الزهاد: أربع مَنْ كُنَّ فِيهِ بَدَلُ اللَّهِ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ: الصدق والشكر والحياء وحسن الخلق .

وقال الفُضَيْلُ بن عياض: ما تزين الناس بشيء أفضل من الصدق، والله سائل الصادقين عن صدقهم . وقال بعض الحكماء: الصبر مفتاح الخيرات، والصدق مفتاح النجاة، والشكر مفتاح البركات، فمن وصل إليها وصل إلى أرفع الدرجات . وقال بعض الشعراء:

الصبر والصدق يبلغان بمن كانا قريبيته منتهى أمليته
عليك صدق اللسان مجتهدًا فإن جُلَّ الهلاك في زلته
ما زال ذو الصدق آمنًا أبدًا والإفك لا يستفيق من علته

وفي منشور الحكم: أصدق الخبر ما صدّقه الخبر، أي الاختبار . وقيل لبعض الحكماء: ما عنوان الصدق؟ قال: الإخبار بما تحمله العقول، وأصدق القول ما كان عليه دليل من العمل .

وقال أبو طالب بن عبد المطلب في بعض وصاياه: عليكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، فإن فيها نفيًا للتهمة وجلالة في الأعين .

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِي: الظنّ يفسد اليقين، وكثرة الكلام تخرج عن الصدق، فعليك بالصمت وحسن الظنّ .

وقال ابن المعتز: لو تميزت الأشياء لكان الصدق مع الشجاعة، والكذب مع الجبن، والتعب مع الطمع، والراحة مع اليأس، والحرمان مع الحرص، والذلّ مع الدّين .

وقال بعض حكماء الفرس: أربع يسوذن الرجل: الصدق والعفة والأمانة والأدب .

ومن كلام بعض الصالحين: الصدق ميزان الله، والكذب ميكال الشيطان . وقال رجل من الحكماء: الصادق بين مهانة الدنيا وثواب الآخرة، والكاذب بين مهانة الدنيا وعذاب الآخرة .

وقال بعض الحكماء لابنه: يا بني، عليك بالصدق فإنه يقبله منك العدو، وإياك والكذب فإنه يرده عليك الوالد . وفي بعض الحكم: الصدق ثمرة لا تنفى، ونضيرة لا تبلى . ومن كلامهم: الصادق مصان مهاب، والكاذب مهان مرتاب . وقال: الصدق والوفاء توأمان نتيجهما الصلاح والإيمان، وعقباهما البرّ والأمان .

وقال ابن مسعود رحمه الله: قال لنا رسول الله ﷺ: " لا يزال الرجل يصدق حتى يُكتب عند الله صدقًا، ولا يزال الرجل يكذب حتى يُكتب عند الله كذابًا"، ألا ترى أنه يقال للصادق: صدقٌ وبرّ، ويقال للكاذب، كذبٌ وفجرٌ، وإنّ الصدق يهدي إلى البرّ، والبرّ يهدي إلى الجنة، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار .

فاستعن^(١) يا أخي بالصدق على جميع أمورك، ورَضْ به نفسك، وملّكه طباعك، ووفر به من الخير، واستنجح به سعيك، واستصلح به عقلك ورأيك، ففيه النجاة من المكاره، والعصمة من المقابح، والستر على المساوي مع إرضاء الرحمن، وإرغام الشيطان . وقد قال بعض الحكماء: مَنْ صدق عُتق ونفق، وتملك المكارم واعتلق، ومَنْ كذب استُرق وفسق، ومن حُسن الشائل مَرَق، ونعوذ بالله من شرّ ما ذرأ وبرأ وخلق .

(١) م: فاستغن .

فصل

في إنكار الكذب ومصارعه

الكذب - صانك الله - أَوْضِعْ كُلَّ خِطَّةٍ وَأَجْمِعْهَا لِلْمُذَمَّةِ وَالْحِطَّةِ، وَأَكْبِرْهَا ذَلًّا فِي الدُّنْيَا، وَأَكْثِرْهَا خِزْيًا فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ عِلَامَاتِ النِّفَاقِ، وَأَقْوَى الدَّلَائِلِ عَلَى دِنَاءَةِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْرَاقِ، لَا يُؤْتَمَنُ حَامِلُهَا عَلَى حَالٍ، وَلَا يَصْدُقُ إِذَا قَالَ، فَأَبْعِدْهَا اللَّهُ مِنْ خَلِيقَةٍ مَذْمُومَةٍ، وَشِيمَةٍ لَمْ تَزَلْ فِي أَهْلِ الْفَضْلِ مَعْدُومَةٍ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِقَائِمَتِ اللَّهِ ﴾ [سورة النحل: من الآية ١٠٥]، وَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [سورة النحل، من الآية ١١٦ والآية ١١٧]، وَقَالَ تَبَارَكَ اسْمُهُ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [سورة غافر، من الآية ٢٨] .

وقال رسول الله ﷺ: "آفة الحديث الكذب". وقال عليه السلام: "كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت له كاذب". وقال ﷺ: "أعظم الخطايا اللسان الكذوب".

وقيل له ﷺ: يا رسول الله، أياكون المؤمن جباناً؟ قال: "نعم". وقيل: يكون المؤمن بخيلاً؟ قال: "نعم". وقيل: ويكون المؤمن كذاباً؟ قال: "لا".
وقال أبو الدرداء: يا رسول الله، هل يكذب المؤمن؟ قال: "لا يؤمن بالله واليوم الآخر من حدث بكذب".

ومن كلام الحكماء: الكذوب ذليل النفس، كليل اللسان، يكذب نفسه قبل جليسه .
وقالوا: الكذب جماع النفاق . وقالوا: الخرس خير من الكذب .

وقال الأحنف بن قيس: ما كذب عاقل، ولا اغتاب مؤمن، ولا خان شريف .
ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لا يبلغ أحد حقيقة الإيمان
حتى يدع الكذب في المزاح .

وقال البحترى: لا يصلح الكذب في جدّ ولا في هزل .
وقال ابن المقفع: لا يتهاون بإرسال الكذبة من الهزل، فإنها تسرع إلى إبطال الحق .
وقال بعض الحكماء: إذا استعمل الملك كذابًا أسرعت الآفة إلى ملكه .

ومن أمثالهم في ذلك: إذا كذب السفير بطل التدبير . وقال لقمان عليه السلام
لابنه: يا بني، مَنْ كذب ذهب بهأوه، ومن ساء خلقه كذب نفسه . وقال يزيد بن
ميسرة: إن الكذب ليسقي كل شيء من الشرّ، كما يسقي الماء أصول الشجر .

وقال ميمون بن مهران: إن العاقل لا يغرّ بموَدّة الكاذب ولا يتقّ بعدته . وقال
أيضاً: مَنْ عُرِف بالصدق جاز كذبه، ومن عُرِف بالكذب لم يجز صدقه . وفي ذلك قال
بعض الشعراء:

كذبت ومن يكذب فإن جزاءه إذا ما أتى بالصدق أن لا يصدقاً
وقال غيره:

وكن صادقاً في كل شيء تقوله ولا تك كذاباً فتدعى منافقاً
وكل كذوب قد يجيء مخبراً فليس بمقبول وإن كان صادقاً
وقال بعض الحكماء: الكذب شين للمحاسن، وآفة على الأخلاق الكريمة .

وكانوا يخلفون فيحشون، ويحدثون فلا يكذبون .

وقالت الحكماء: الكذب من شعار الخيانة، وإنما يكون من سوء الأدب وتحريف العلم، وخواطر الزور، وتسويل أضغاث النفس، واعوجاج التركيب، واختلاط البنية، وانحطاط الهمة، وفساد النية، وكدر القلب . وفي ذلك يقول الشاعر:

لا يكذب المرء إلا من نذالته أو عادة السوء أو من قلة الأدب
لَسَّمْ جيفة كلبٍ بعد ثلاثة خيرٌ من الإفك في جدِّ وفي لعب

وقال بعض الحكماء في بعض وصاياه: لا تستعن بكذاب، فإنه يقرب لك البعيد، ويسهل عليك الصعب، ويؤمنك المخوف .

ومن أمثال الحكماء: مَنْ قَلَّ صدقه قَلَّ صديقه . وقال هرمس: اجتنب مصاحبة الكذاب، فإنك لست منه على شيء يتحصل، وإنما أنت منه على مثل السراب يلمع ولا ينفع .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الكذب كالسراب . وقال الأحنف بن قيس: اثنتان لا تجتمعان أبدًا في بشر: الكذب والمروءة .
وقيل لكل شيء آفة، وآفة الكذب المنطق .

وكتب كسرى لابنه: يا بني، لا تعدَّ الشحيح أمينًا، ولا الكذاب حرًّا، فإنه لا عفة مع الشحّ، ولا مروءة مع الكذب . وقيل لبعض الأدباء: أيما أشرّ الكذاب أو النمام؟ قال: بل الكذاب، فإنه يختلق عليك، والنام ينقل عنك . وأنشد أبو العباس المرّبي:
إن النّمومَ أغطيّ دونه خبري وليس لي حيلة في مفتري الكذب
وقال غيره:

لي حيلةٌ فـيـمـن يـنـم وليس في الكذاب حيلة

مَنْ كَانَ يَخْلُقُ مَا يَقُولُ فَحِيلَتِي فِيهِ قَلِيلٌ
 وَقِيلَ فِي بَعْضِ الْحُكْمِ: مَا كَذَبَ أَحَدٌ قَطُّ إِلَّا صَغُرَ فِي نَفْسِهِ، فَكَيْفَ عِنْدَ غَيْرِهِ!
 وَقَالَ سَلِيمَانُ بْنُ سَعْدٍ: لَوْ صَحِبْتَ رَجُلًا فَقَالَ لِي: اشْتَرِطَ عَلَيَّ خِصْلَةً وَاحِدَةً وَلَا
 تَزِدْ عَلَيْهَا، لَقَلْتُ لَهُ: لَا تَكْذِبْ . كَأَنَّهُ نَظَرَ فِي هَذَا إِلَى مَا رُوِيَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ
 فَضْلِ تَرْكِ الْكُذْبِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ أَتَاهُ رَجُلٌ وَأَسْلَمَ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِمِ
 أَوْخَذَ مِنَ الذُّنُوبِ، بِمَا أَظْهَرَ وَالْأَوْخَذَ بِمَا أُسِرْتُ؟ يَعْنِي فِي الْحُدُودِ، وَإِنِّي لَأَسْتَسِرُّ لِحَلَالِ
 وَتَتَرَدَّدُ فِي نَفْسِي . قَالَ لَهُ: "وَمَا هِيَ؟" قَالَ: الزُّنَى وَالْكَذْبُ وَالسَّرِقَةُ وَشُرْبُ الْخَمْرِ،
 فَأَيُّنَ تَحِبُّ أَنْ أَتْرَكَهَا لَكَ سِرًّا تَرْكَهَا . قَالَ لَهُ: "دَعِ الْكَذْبَ" . فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ هَمَّ بِالزُّنَى، ثُمَّ قَالَ: يَسْأَلُنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِنْ جَحَدْتَ كَذِبْتَ وَنَقَضْتَ عَهْدَ
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنْ أَقْرَرْتُ لَزِمَنِي الْحُدُودُ؛ فَتَرَكَهُ، ثُمَّ هَمَّ بِالسَّرِقَةِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ فَعَرَضَهُ
 ذَلِكَ، فَتَرَكَهَا أَجْمَعًا، وَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: قَدْ تَرَكْتَهُنَّ أَجْمَعًا يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَانظُرْ إِلَى مَا فِي تَرْكِ الْكُذْبِ مِنْ جَمَاعِ الْخَيْرِ!
 وَقَالَ رَجُلٌ لِأَبِي حَنِيفَةَ: مَا كَذَبْتَ كَذِبَةً قَطُّ . فَقَالَ لَهُ أَبُو حَنِيفَةَ: أَمَا هَذِهِ فَوَاحِدَةٌ
 أَشْهَدُ بِهَا عَلَيْكَ .

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ قِيلَ لِرَجُلٍ كَذَابٌ: أَصَدَقْتَ قَطُّ؟ قَالَ: أَكْرَهُ أَنْ أَقُولَ (لَا)
 فَأَصْدُقُ!

وَرُوِيَ فِي بَعْضِ الْأَثَارِ أَنَّ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: يَا رَبِّ، أَيُّ عِبَادِكَ
 خَيْرٌ عَمَلًا؟ فَقَالَ: مَنْ لَا يَكْذِبُ لِسَانَهُ، وَلَا يَفْجُرُ قَلْبَهُ، وَلَا يَزْنِي فَرْجَهُ .
 وَمِنْ كَلَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَعْظَمُ الْخَطَايَا عِنْدَ اللَّهِ اللِّسَانَ
 الْكَذُوبَ، وَشَرُّ النَّدَامَةِ نَدَامَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

وقال المنصور يوماً لعمر بن عبيد وقد اتهمه في الخروج مع محمد بن عبد الله بن حسن: تعلم سوء رأيي في الخروج، فأثلج صدري بيمين تزيح بها ما في نفسي . فقال له: والله لئن استجزت أن أكذب تقية لأستجزن أن أحلف تقية، فاستحى منه المنصور وقال له: أنت والله أعلم مني، وأفقه مني .

ومن أقوال الحكماء: الصمت عما يعني خير من الكلام فيما لا يعني . وقال عبد الوهاب:

أدّبت نفسي فما وجدت لها من بعد تقوى الإله من أدبٍ
من كلّ خلاتها وإن كثرت أفضل من صمتها عن الكذبِ
وقال بعض الحكماء: من عُرف بالكذب، مُتت إذا نطق أو كَذب، وكفى بالكذاب خزيًا أن كلّ إفكة تُنسب إليه إن عدم قائلها، وأن كلّ دنيّة تُناط به إذا لم يُعرف فاعلها .
وقال بعض الشعراء في المعنى:

حَسِبَ الكذوب من البليّة بعض ما يُحكى عليه
كم قد سمعت بكذبة من غيره نُسبت إليه
ومن كلام لقمان: جزاء من عُرف بالكذب أن لا يصدّق .
وقال ابن المعتز: الكذب والحسد والنفاق أثنافي^(١) الذلّ . وقال أيضًا: اجتنب مصاحبة الكذاب، فإن اضطرت إليها فلا تصدّقه ولا تعلمه أنك تكذبه، فينتقل عن ذلك ولا ينتقل عن عاداته . وقال أيضًا: لا تحدّث من تخاف تكذيبه، ولا تسأل من تخاف منعه، ولا تعد بها لا تقدر على إنجازها، ولا تضمن ما لا تثق بالقدرة عليه، ولا تقدم على أمر تخاف العجز عنه . وما أحسن هذه الخصال إن ألزمها نفسه!

(١) ثلاثة أحجار كان العرب يضعونها حول النار كي يُركب عليها القدر.

وجاء في بعض الحكم: عاقبة الكذب الذم، وفي الصدق جماع السلامة .
 ومن أقوالهم: الكذب أقبح علّة، والصدق والتقوى كمال المرءة . وكانت
 العقلاء تقول: اتقوا المفطرين: الكذب والغيبة .
 وقال المنتصر: والله ما عزّ ذو باطل ولو طلع من جبينه القمر، ولا ذلّ ذو حقّ ولو
 اجتمع عليه البشر .
 ومن الحكم المشهورة اجعل كلام الكذاب ريحاً تكن مستريحاً . وقالوا: الكذب شرّ
 اللصوص؛ لأنه يسرق عقلك، واللص يسرق مالك .

فصل

وللكذب دواع يستسهلها الجاهل ويرتضيها، ولا يرى العار والقبح فيها؛ فمنها ما
 يظنّ أنه يستجلب به منفعة أو يستدفع به مضرة، فذلك قد خدع نفسه واغترّ بالباطل،
 وقد قدمنا ما جاء في ذلك من الآثار .

ومنها ما يريد الانتقام من عدوّه، فيتخلّق عليه القبائح، وينسب إليه الفضائح،
 يرى أن ذلك سهم يرميه إليه وسوء يصيبه به، وهذا أشدّ أصناف الكذب؛ لأنه قد جمع
 معه خلة السعي وسوء البغي .

ومنها أن يريد أن يستملح حديثه ويستطرف مُلحه ويستقبل كلامه، فيشوبه بالكذب
 على وجه التتميق والتزيين؛ فهذا قد أرضى المخلوق وأسخط الخالق، إلى أشياء غيرها
 كثيرة^(١) لا يجيزها العقل، ولا يحلّها الشرع، ولا ترضاها المرءة .

وأما ما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه رخص في الكذب في ثلاثة^(٢) مواطن:
 في الحرب، وفي إصلاح ذات البين، وفي استرضاء الزوجة، فإنه لم يرد ﷺ محض الكذب،

(١) م: كثيرها، والأصح ما أثبتناه .

(٢) م: ثلاث .

فإن السنة لم تجز الكذب على حال، وقد تقدم في هذا أقوال متبعة وحكم بالغة ممتعة، وإنما أراد ﷺ التورية بها يشبه والتعريض بما يمكن، وقد قال صلوات الله عليه: "إن في التعريض لمدوحة عن الكذب" ومثال ذلك قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو يسير خلف رسول الله ﷺ حين هاجر معه، فكانت العرب تلقاهما فتعرف أبا بكر ولا تعرف النبي ﷺ فيقولون لأبي بكر: من هذا؟ فيقول لهم: يهديني السبيل؛ فيظنون أنه يريد هداية الطريق وهو يعني سبيل الهداية . وكقول رسول الله ﷺ وقد انفرد عن أصحابه في نواحي بدر فلقيه رجل فقال: ممن أنت؟ فقال: "من ماء"، وهو قبيلة ينسب إليها، وإنما يريد عليه السلام الماء الذي هو أصل الخلقة .

وكذلك حُكي عن بعضهم أن المأمون لما حمل الناس في بعض أيامه على القول بخلق القرآن أنه قال: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وجعل يعدها بأصابعه أنا أشهد أن هذه الأربعة مخلوقة؛ يعني أصابعه؛ والمأمون قد جعل كلامه على ظاهره فنجا منه، ثم رجع المأمون بعد ذلك عن ذلك بفضل علمه وقوة معرفته واستغفر ربّه وترك تائبًا ذنبه .

وقد جرى عندنا بإشبيلية مثل ذلك عند تملك المرابطين لها، في امرأة كان قد أعتقها بعض بني عبّاد، فوشى بأمرها واش، فأرادوا تملكها وردّها إلى الرق، فاستجارت برجل من الصالحين كان يعرفها، ورضي الطالبون لها بشهادته فيها لعلمهم بعدالته فقالوا: إن هذه المرأة أخبرتنا أنها معتقة لبعض بني عبّاد، وقد استوجبنا ملكها، فقال لهم: لا تفعلوا، فوالله ما أعتقها إلا رجل من المسلمين، فظنوا أنه أراد رجلاً من عرض الناس فخلوا سبيلها .

ودخل بعض الناس على بعض الملوك وهو يأكل، فدعاه إلى الأكل معه، وكان لا يستجيز طعامه، فقال له: إن الصائم لا يأكل أيها الملك، ولست أزكي نفسي، بل الله

يزكي من يشاء؛ فنجا . فمثل هذه التورية لا تدخل موضع الكذب ولا هي خارجة عن منهاج الصدق، بل مستحبة إذا اقترن بها استجلاب منفعة واستدفاع مضرة، أو كانت في سبيل من سبيل الخير، أو في حال من أحوال الصلاح، ففي مثل هذا جاءت الرخصة، ولا رخصة في الغيبة ولا النميمة ولا البغي وإن كان حقاً. وما زال الكذب رمد عين السيادة، ومطفىء سراج المروءة، ومومن قوى الجلالة، وسادّ طريق الإحسان، ومحيط عمل الإنسان، وهادم بناء الإيمان؛ لأنه من الأفعال التي لا تقبلها العقول، ولا تستجيزها الديانة. وقد جُبلت الطبائع على مواجهة إيراده وإصداره، وهو مع ركاكته لا يقدر أحد على التخلص عنه، ولا يستطيع السلامة منه، لا سيما أهل الأعدار، ومن قد كلف مؤونة الاعتذار لا يستغني عنه المجرم يراه جُنّة عن اجترامه، ولا ينفك عنه المعدم بحسبه سبباً لإزالة إعدامه، فكّل واحد من هذه الطائفة قد رخص لنفسه احتمال مَعْرَتِهِ، واستسهل صعبه لرفع مضرّته، ولو نظر بعين التحقيق لعلم أنه قد أخطأ الطريق، وحُرم التوفيق .

ومن كلام الحكماء في هذا المعنى: الكذب ملجأ الفجار، وسبب العثار، وقلماً نجا منه من اضطر إلى الاعتذار . ونعوذ بالله من شرّ تصرف الأقدار، والنكوب عن مناهج الأخيار، فمن الحقّ على كلّ مؤمن، والواجب على كل موقن أن يأخذ نفسه باجتنابه، وينزّها عن سقطته وارتبابه، وأن يتحرّى الصدق وإن توقّعه، وأن يرفض الكذب وإن نفعه، فإنما تحمد العواقب في الأخرى، وعند الصباح يحمد القوم السرى، والله المستعان على دفع الردى، والسلام على من أتبع الهدى.

الباب التاسع

في مدح الكرم وأربابه، وذم البخل وأسبابه

الكرم - أكرمك الله - اسم واقع على كل نوع من أنواع الفضل، ولفظ جامع لمعاني السماحة والبذل، فكل خصلة من خصال الخير، وخلّة من خلال البرّ، وشيمة تُعزى إلى مكارم الأخلاق، وسجّية تُضاف إلى محاسن الطباع والأعراق، واقعة على اسم الكرم، قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ ﴾ [سورة الحجرات، من الآية ١٣] فهم وإن أوقفوه على بذل النوال، وأوقفوه على رسم الجود بالأقوال، فكل معنى صرف فيه راجع إليه موقوف عليه، ألا ترى أن التقي لا يكون إلا كريماً بما له معطي الحق من نفسه في جميع أحواله، حتى إنه لبذل جوارحه في كل عمل يقربه إلى ربه، ويجود بنفسه مجاهداً في سبيل خالقه، والجود بالنفس أقصى غاية الجود، فالكرم أبداً واقع على كل فعل من الأفعال الرضيّة، لازم لكل حال من الأحوال الجليلة السنية، ألا تنظر إلى قولهم: نسب كريم، إذا كان يعطي الشرف والسؤدد، ويبيد التقدم وطيب المولد وكرم الهمة، وقولهم: مجلس كريم، إذا أفاد العلم والمعرفة، وبذل الآداب والحكمة . وقولهم: خلق كريم، إذا أعطى صاحبه البرّ والسماحة، ووهب البشر والكرامة، وقولهم: فرس كريم، إذا أظهر العتق وبذل الجري والإسراع والسبق؛ فصار بذلك كلّ راجعاً إلى بذل الخلال المحمودة، والجود بالأحوال المفيدة، فلما ضمته هذه المعاني إلى هذا المضمار، وصيرته راجعاً إلى مقدار، وضعناه في هذا الباب حيث وضعوه، وقصدنا به المعنى الذي قصدوه، وهو السخاء؛ لأنه أقوى أصوله وأجمع لفصوله .

وهو اسم من أسماء الله عزّ وجلّ، وصفة من صفاته؛ لأنه الذي انفرد بالملك والغنى، وتوحد بالعظمة والسّناء والسّنا، فهو إذا عُصي غفر، وإذا اطلع أمهل وستر، وإذا وعد وفى، وإذا أوعد عفا، لا يضيع مَنْ لجأ إليه، ولا يسلم من توكل عليه، يعطي من شاء لمن شاء متى شاء، يدها مبسوطتان بالخيرات، وله خزائن الأرض والسموات، لا ينزع في قسمة رزقه، ولا يراجع في تدبير خلقه، فهو الكريم بالإطلاق .

وكلّ مَنْ تعلق بشيء من هذه الخلال، وتخلّق بطرف من هذه الخصال، وُصف بقدر ما بلغ منها ونال، من غير إضافة إلى ذي العظمة والجلال، فإنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [سورة الشورى، من الآية ١١] قد يكون غنياً كريماً فتعرضه الموانع، وتقف دونه القواطع، فتصرفه عن عادته وتحول بينه وبين إرادته، وقد يكون تكرّم ابن آدم لدواع تضطرّه إليه، ومعانٍ تحمله عليه، والله سبحانه أجلُّ وأعظم، وأعزّ وأكرم من أن يلحقه حادث عائق، وأن يوصف بصفة تنحط عن الكمال الذي انفرد به دون الخلائق، كلابل هو الله الذي لا إله إلا هو، خالق كلّ شيء ورازق كل حيّ، وهو على كلّ شيء قدير .

وقد وصف الله تعالى بالكرم أنبياءه وملائكته فقال عزّ من قائل: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [سورة الحاقة، الآية ٤٠]، وقال جلّ ثناؤه: ﴿ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ [سورة الدخان، من الآية ١٧]، وقال عزّ وجلّ: ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [سورة عبس، الآية ١٦] .

ومدح به أوليائه فقال سبحانه: ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الحشر، من الآية ٩]، وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [سورة الليل: من الآية ٥ إلى ٧]،

وفسر ابن عباس رضي الله عنه قوله: ﴿وَصَدَقَ بِالْحَسَنَى﴾ [سورة الليل: الآية ٦] فقال: أيقن بالخلف من عطائه . وقال ابن عباس أيضًا: سادة الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء، فأما الآخرة فإنها توضح السبيل إلى النجاة، وتبعث على دواعي الخلاص والفوز بالأمنية، فإن صاحبها واثق بالله متوكل على الله، مستمسك بحبل الله، عارف بما عند الله، راضٍ بما قسم الله، وأما في الدنيا فإنه يورث الحمد، ويشيد المجد، ويكسب حسن الثناء، ويزرع المحبة في القلوب، فهو يعلي المراتب، ويمجد العواقب، ويدفع النوائب، كما قال رسول الله ﷺ: "صنائع المعروف تقي مصارع السوء"، وقال عليه السلام: "السخاء شجرة من شجر الجنة، أغصانها متدلّية إلى الأرض، فمن تعلّق بغصن من أغصانها أدخلته الجنة، ألا إن السخاء من الإيثار، والإيمان في الجنة"، وقال ﷺ: "الرزق لمُطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير، وإن الله تعالى ليباهي بمُطعم الطعام الملائكة"، وقال صلوات الله عليه: "إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام، ولكن دخلوها بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور"، وقال ﷺ: "المعروف كاسمه، وأول ما يدخل الجنة المعروف وأهله"، وقال عليه السلام: "أيما رجل اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر له"، وقال ﷺ: "تجافوا عن ذنب السخيّ، فإن الله آخذ بيده كلما عثر".

وروي أنه لما أتى عليه السلام بأسارى بني العنبر، أمر بضرب رقابهم، إلا رجلاً واحداً، فقام إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال: يا رسول الله، الذنب واحد والدين واحد، فما بال هذا من بينهم؟ فضحك رسول الله ﷺ وقال: يا علي أتاني جبريل عليه السلام فقال: اقتل هؤلاء وخلّ هذا، فإن الله شكر له سخاءه". وقال ﷺ لعدي ابن حاتم: "رفع الله عن أبيك العذاب لسخائه".

ورُوي في بعض الآثار: أن الله عزّ وجلّ أوحى إلى موسى عليه السلام لا تقتل
سامري، فإنه سخي!

وقال رسول الله ﷺ: "أحبّ عباد الله إلى الله أنفعهم لعباد الله"، وقال عليه
سلام: "ضع المعروف في أهله وفي مَنْ ليس من أهله، فإن كان من أهله فهو أهله، وإن
يكن من أهله فأنت من أهله".

وقال الفضل بن سهل: إذا لم أعط إلا مستحقاً فكأنّي إنما أعطيت غريباً .

وتمثل رجل عند عبد الله بن جعفر بهذين البيتين:

إن الصنّيعة لا تكون صنّيعة حتى يصاب بها طريق المصنّع

فإذا اصطنعت صنّيعة فاعمد بها لله أو لذوي القرابة أودع

فقال عبد الله بن جعفر: إن هذين البيتين يبخلان الناس، ولكن أمطر المعروف
طرّاً، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلاً، وإن أصاب اللثام كنت له أهلاً . وعاتبه يوماً
الحسين والحسن رضي الله عنهما على كثرة إسرافه في البذل، فقال لهما: بأبي وأمي أنتما،
ن الله عزّ وجلّ عودني أن يتفضل عليّ، وعودته أن أتفضل على عباده، فأخاف إن
طعت أن يقطع عني .

وقال رجل من الحكماء: لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نِعَمِهِ بمثل الإنعام بها
بل خلق الله .

ومن كلام بعض الحكماء: من سعادة المرء أن يضع معروفه عند مَنْ يستحقّه وإن لم
شكوره أو عند مَنْ يشكّره وإن لم يستحقّه .

وفي منشور الحكم: أفضل الجود ما ابتدئ من غيره مسألة، أو تقدم الوعد . وقال
ملي بن الجهم في ذلك:

وفتىَ خلا من ماله ومن المروءة غير خالٍ
أعطاك قبل سؤاله فكفاك مكروه السؤالِ

وقال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول لرجل أولى معروفاً جزيلاً: يا هذا، إن النعم ثلاثة: نعمة في حال كونها نعمة، ونعمة يرجى استقبالها، ونعمة تأتي غير محتسبة، أبقى الله عليك ما أنت فيه، وحقق ظنك بما ترجوه، وتفضل عليك بما لا تحتسبه .

وقال أكنم بن صيفي: خير العطاء ما وافق الحاجة، وخير العفو ما كان مع المقدرة .

وقال بعض الحكماء: شر الزمان إذا كانت السباحة عند من لا مال له، وكان المال

عند من لا سباحة له . وقيل في ذلك:

إذا كان من يُعطي فقيراً، وذو الغنى بخیلاً فمن ذا يُستعان على الدهر!

وقال رجل من بني عامر بن صعصعة لعتبة بن أبي سفيان: والله لأن تحسنوا وقد

أسأنا، خير من أن تسيئوا وقد أحسنا، فإن كان الإحسان منكم فما أحقكم بإتمامه، وإن

كان منا فما أحقكم بمكافأتنا عليه، وأنا رجل يلقاكم بالعمومة، ويختص إليكم بالخزولة

وقد كثر عياله، وقلّ ماله، ووطئه دهره، وبه فقر وفيه أجر وعنده شكر، فقال له عتبة:

أستغفر الله منك، وأستعينه عليك . وقد أمرت لك ولعيالك بغناك، فليت إسراعي

إليك يقوم بإبطائي عنك .

وقال بعض الحكماء: استجلب بالإنعام منك إنعام الله عليك، تستزد بما تهب

لغيرك ما يهبه لك، ثم تستفيد الشكر .

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "الجود من جود الله، فجودوا بجد الله عليكم"،

وقال ﷺ: "شاب سفیه سخی، خیر من شیخ عابد بخیل" . وقال صلوات الله عليه

لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنهم ليسألوني لبيخلوني، وبأبي الله لي إلا السخاء" .

ومن جوده ﷺ أنه ملك من أقصى اليمن إلى شَحْرِ عُمَانَ إلى أقصى الحجاز، ومات عليه السلام وعليه دَيْن، وِدْرَعُهُ مرهونَةٌ في ثمن طعام ابتاعه لأهله، ولم يترك دينارًا ولا درهماً، ولا شَيْدَ قَصْرًا ولا غرس نخلاً .

وقال حذيفة: رُبُّ فَاجِرٍ فِي دِينِهِ أَخْرَقَ فِي مَعِيشَتِهِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِسَخَائِهِ .

وقال الفضل بن يحيى: مَطْلُوكُ الْعَدِيمِ أَقْبَحُ مِنْ مَطْلُوكِ الْغَرِيمِ؛ فَإِنَّ الْغَرِيمَ يَسْلَفُ مِنْ فَضْلٍ، وَالْعَدِيمَ يَطْلُبُ مِنْ جَهْدٍ . ومَرَّ الْفَضْلُ يَوْمًا فِي طَرِيقِهِ عَلَى رَجُلٍ مَعْسَرٍ، فَعَطَسَ الْفَضْلُ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، فَأَمَرَ أَتْبَاعَهُ بِحَمْلِهِ مَعَهُ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى قَصْرِهِ أَمَرَ لَهُ بِخَمْسَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ وَعَشْرَةِ أَثْوَابٍ، فَانصَرَفَ إِلَى مَنْزَلِهِ وَقَدْ خَامَرَهُ الْفَرَحُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ امْرَأَتُهُ أَنْكَرَتْ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَقَالَتْ لَهُ: وَيْلَكَ أَسْرَقْتَ؟ فَأَخْبَرَهَا فَلَمْ تَصْدَقْهُ، وَانْتَضَحَ قَوْلُهَا فِي جِيرَانِهِ حَتَّى وَصَلَ خَبْرَهُ إِلَى الْوَالِيِّ فَأَمَرَ بِحَبْسِهِ لِيَسْتَبْرَأَ أَمْرَهُ، وَاتَّصَلَ الْأَمْرُ بِالْفَضْلِ فَأَمَرَ بِإِحْضَارِهِ فَحَمَلَ إِلَيْهِ فِي قَيْودِهِ، فَلَمَّا رَأَهُ عَرَفَهُ وَأَمَرَ بِفَكَهْ وَأَعَادَ عَلَيْهِ الْعِطَاءَ مِنَ الدَّرَاهِمِ وَالْأَثْوَابِ، وَرَجَعَ إِلَى جِيرَانِهِ وَهُوَ أَيْسَرُهُمْ مَالًا، وَأَكْثَرُهُمْ حَالًا . وَأَنْشَدَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ فِي ذَلِكَ:

إِذَا مَا أَتَاهُ السَّائِلُونَ تَوَقَّدَتْ لَهُمْ مِنْهُ أَنْوَارُ الطَّلَاقَةِ وَالْبَشِيرِ

لَهُ فِي ذَوِي الْحَاجَاتِ نِعْمَى كَأَنَّهَا مَوَاقِعُ مَاءِ الْمَزْنِ فِي الْبَلَدِ الْقَفْرِ

وقال في مثل ذلك:

وَإِذَا الرِّجَالُ تَصَرَّفَتْ أَهْوَاؤُهَا فَهَوَاهُ لِحِظَّةِ سَائِلٍ أَوْ آمَلٍ

وَتَكَادُ مِنْ فَرَطِ السَّخَاءِ يَمِينُهُ عِنْدَ الْعِطَاءِ تَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟

وعن حماد الراوية قال: كانت عتبة بنت عفيف - وهي أم حاتم - أعظم الناس سخاءً، وأكثرهم عطاءً . فلما أسرفت على نفسها وأضرَّ بها جودها، حبسها إختوتها في

بيت سنة يطعمونها قوتها، ولا يمكّونها من مالها، وكانت موسرة، ثم أخرجوها بعد سنة وهم يظنون أنها قد بلغ بها الأدب، ودفعوا إليها صرة من مالها، فأتتها امرأة من هوازن فسألتهما فأعطتها الصرة، ثم قالت في ذلك:

لعمري ليومًا عَضني الدهر عضة فأليت أن لا أمنع الدهر جائعا
فقولوا لمن قد لامني اليوم فاعفني وإن أنت لم تفعل فعصّ الأصابعا
فإماترون اليوم إلا طبيعة فكيف بتركي يا ابن أم الطبايعا

ومدح أعرابي قوماً فقال: أذبتهم الخنكة، وأحكمتهم التجارب، ولم تعوزهم السلامة المنظوية على الهلكة، ورحل عنهم التسويف الذي قطع الناس به مسافة آجالهم؛ فانبسطت ألسنتهم بالوعد، وأيديهم بالإنجاز، فأحسنوا المقال وشفوا بالفعال، وابتاعوا المحامد بالأموال، والثناء الجميل بالأفعال .

وقال أرسطاطاليس: سرّ الجود إيثار لذة الثناء على لذة المال .

ومن كلام الحكماء: خير المال ما وقى العِرْض، وأورث الحمد .

ومن أمثالهم: ما ضاع مال أورث حمدًا . وقيل: من كرمت عليه نفسه، هان ماله عليه .

ومن الحكم المنثورة: المعروف ذخيرة الأبد . ومنها: لا شيء أحسن من المعروف

إلا ثوابه .

وروى الكلبي عن أبيه عن جدّه قال: كان حاتم جوادًا شجاعًا شاعرًا، فكان إذا

نزل عُرف مكانه، وإذا قابل غلب، وإذا غنم أنهب، وإذا سُئل وهب، وإذا أسر أطلق،

وإذا ملك أعتق، وإذا جرى بالفراح سبق، وكان أقسم أن لا يقتل أحدًا آمنه .

ومن كلام بعض البلغاء: خير المال ما أخذ من الحلال، وُصِرَف في النوال، وشرّ
المال ما أخذ من الحرام، وُصِرَف في الآثام . وكان يقال: الأيدي ثلاثة: بيضاء وخضراء
وسوداء، فاليد البيضاء الإسداء بالمعروف، واليد الخضراء المكافأة على المعروف، واليد
السوداء المنّ بالمعروف .

وقال بعض الحكماء: لا تمسك كثيرًا في حق، ولا تنفق قليلاً في باطل .

وقال بعضهم: خير ما أسديت من معروفك ما ابتدأت به من غير مسألة .

وسُئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما السخاء؟ قال: ما كان ابتداءً، وأما ما كان
عن مسألة . فجِباء وتكّرم . وقال رضي الله عنه: إذا أقبلت عليك الدنيا فانفق منها، فإنها
لا تقنى، وإذا أدبرت عنك فانفق منها فإنها لا تبقى . ومن أحسن ما قيل:

لا تسبخلنّ بدنيا وهي مقبلّة فليس يُنقصها التبدير والسرفُ

وإن تولّت فأحرى أن تجود بها فالحمد منها إذا ما أدبرت خلفُ

وسمع بعض السلف بعض الفتيان يقول: الفتوة إنما هي الظرف والانهماك
والمجون، فقال له: ويحك يا بني! حدّت والله عن طريق الحق، وحدّت عن طريق
القصْد، والله ما الفتوة إلا مال مبدول وبشر مقبول، وطعام موضوع وأذى مرفوع .

وقال عبد الله بن الأعرابي: لا تتم الصنيفة إلا بطلاقة الوجه، وحسن الحديث،

ولطف اللقاء .

ومن كلام الحكماء: طلاقة الوجه تقوم مقام البذل . وقال الشاعر في المعنى:

أضاحك ضيفي قبل إنزال رَحله ويخصب عندي والمحلّ جديبُ

وما الخصب للأضياف في كثرة ولكنما وجه الكريم خصيبُ

وقال غيره:

ما إن أبالي إذا ضيفٌ تضيفني ما كان عندي إذا أعطيت مجهودي
جهدُ المقلِّ إذا أعطاك نائله ومُكثِرٌ في الغنى سيّان في الجودِ

وقال ابن الرومي:

إن الذي يعطي خسيمة ماله إذ لا كريمة عنده لجوادُ
وأجمعت الحكماء وأهل الفضل أن السيادة والمروءة وجماع خلال البرّ في جميل
العشرة، وفي المسارعة إلى المعونة، وفي العفو مع المقدرة، وفي التودّد إلى الناس . وقال
رسول الله ﷺ: "لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم^(١) ببسط الوجوه وحسن البشر" .
وقالوا: مكتوب في التوراة: ليكن وجهك بسيطاً، تكن أحبّ إلى الناس ممن
يعطيهم العطاء .

ورفع رجل إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما رقعة فقال له: قد قرأتها، حاجتك
مقضية . فقيل له: يا ابن بنت رسول الله، لو نظرت إلى رقعته وراجعته على حسب ما
فيها! قال: أخاف أن أسأل عن ذلّ مقامه بين يدي حتى أقرأ رقعته .

وقال أنوشروان: من أعظم المصائب أن تقدر على المعروف فلا تضعه حتى تسأله .
وكان سعيد بن العاص قد سامره قوم من أصحابه ليلة، حتى مضى من الليل
جزء، فلما انصرفوا رأى رجلاً قاعداً قد بقي معه، فعلم أن له حاجة، فأمر بإطفاء
الشمعة وقال له: هات حاجتك يا فتى، فذكر له حاجته، فأمر له بأربعة آلاف درهم .
وكان إطفاء الشمعة لثلاثين الفتي خجل ولا استحياء في مسأله .

وقيل في مشور الحكم: التبرّع بالمعروف من كمال السؤدد، وكتابه من كمال
الفضل؛ ولذلك قيل: هنا المعروف ما لم تبذل فيه الوجوه .

(١) م: فاسعوههم .

فصل

وقلما يفارق الكرم حسن الصورة، فإنها من أعظم نعم الله على العبد، وكل النفوس مجبولة على حب الصور المقبولة، ومن أحسن أقوالهم في ذلك: من كانت سيمته الجمال وشيمته الإجمال، فقد مُنح الكمال .

ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "اطلبوا الحوائج من حسان الوجوه"؛ وذلك لأن أول نعمة تلقاها من المرء حسن الصورة، والحسن لا يفعل إلا حسناً .

وقال بعض الحكماء: الوجه الحسن علامة الإحسان، والخلق الحسن أفضل شيم الإنسان .
وقال [أبو] منصور الثعالبي: أخلق بمن كان وجهه وضياً، أن يكون فعله مرضياً، ومن كان وجهه دميماً أن يكون فعله ذميماً .

وكتب رجل إلى مسلم بن الوليد وقد سأله حاجة فقال:

حسن ظني إليك أصلحك الله دعاني فلا عدمت الصلاحاً

ودعاني إليك قول رسول الله إذ قال مفصّحاً إفصاحاً:

إن أردتم حوائجاً من أناس فتتقوا لها الوجوه الصّباحاً

ولعمري لقد تنقيت وجهاً ما به خاب من أراد النجاحاً

فقضى مسلم حاجته وأجزل عطاءه .

ومن كلام الحكماء: أحسن لمن أحسن إليك، واشكر لمن أنعم عليك، فإن الشكر مجازاة من لا قدرة له على المكافاة .

وقيل للإسكندر: أي شيء نلت من ملكك كنت به أشد سروراً من غيره؟ قال:

قوتي على مكافاة من أحسن إليّ . ودخل عليه يوماً رجل رث الهيئة فتكلم فأحسن،

(١) إضافة لا بدّ منها كي يستقيم النص .

وسُئِلَ فأصاب الجواب، فقال له الإسكندر: لو أعطيت حسنك حقه من الزينة كما أعطيت نفسك حقها من العلم والمعرفة لأشبه بعضك بعضًا، فقال له: أيها الملك، أما الكلام فأقدر عليه فإنّي مالكة، وأما الزينة فلا أقدر عليها فإنّي لا أملكها؛ فعلم أنه محتاج فخلع عليه وأحسن إليه وقربه .

وقال بعض الحكماء: مَنْ حسن حمله للنعم استوجب الزيادة، ومَنْ شكر النعمة فقد أذى حقَّ مَنْ أفاده . وقال أيضًا: استكمل البرَّ مَنْ كان برّه لغير اكتساب رغبة، ولا ليدفع به محذور رهبة .

وتعرّض رجل إلى الحسن بن سهل، فقال له: من أنت؟ قال: أنا الذي أحسنت إليّ يوم كذا، فقال: مرحبًا بمن توّسل إلينا بنا . وأعاد إحسانه إليه وزاده . وقيل لبعضهم: ما حدّ السخاء؟ قال: أن تكون بمالك متبرعًا، وعن مال غيرك متورعًا .
وكتب كسرى لابنه: يا بني، استقلّ الكثير مما تعطي، واستكثر القليل مما تأخذ، تكن جامعًا لأسباب المروءة .

وقال عبد الملك بن مروان: يا بني أمية، ابدلوا نداكم، وكفّوا أذاكم، واعضوا إذا قدرتم، ولا تبخلوا إذا سئلتهم، فإن خير المال ما أفاد حمدًا ونفي كمدًا . وقال أبو الحسن الموسوي:

ليس بالمغبون حظًّا من شرى عزًّا بـمالٍ
إنما يُدخّر المالا لِحاجات الرجالِ
والفتى من جعل المعـ روف أثمان المعالي

وروي في بعض الآثار: أن الله عزّ وجلّ أوحى إلى إبراهيم عليه السلام: أتدري لما اتّخذتك خليلًا؟ قال: لا ياربّ، قال: إني رأيتك تحبّ أن تعطي ولا تحبّ أن تأخذ .

وحكى أن عبد الله بن عتبة باع غلّة بثمانين ألفاً، فقيل له: لو اتخذت بهذا المال ذخيرة لولدك لكان حسناً، قال: أنا أجعل هذا المال عند الله ذخراً وأجعل الله ذخراً لولدي . وهذا من أحسن القول؛ ثم أمر بقسم المال كله في حال الحاجة .

وحكى عبد الله بن منصور قال: كنت يوماً عند الفضل بن يحيى فدخل حاجبه فقال: بالباب رجل يطلب الإذن ويزعم أن له مائة يمّت بها، قال الفضل: هاته؛ فدخل رجل جميل الوجه رث الهيئة فسلم فأحسن، فأوماً إليه بالجلوس فجلس، فلما علم أنه قد أخرج روعه، قال له: ما الذي تمّت به؟ قال: جوار قريب وولادة تقرب من ولادتك، واسم مشتق من اسمك . قال: أما الجوار فحسن ممكن، وقد يوافق الاسم الاسم، فما علمك بالولادة؟ قال: أخبرتنى أمي أنها لما وضعتني قيل لها: وُلد الليلة ولد ليحيى وسمي الفضل، فسمتني أمي فضيلاً؛ إكباراً لاسمك، فتبسم الفضل فقال: كم لك من السنين؟ قال: خمس وثلاثون، قال: صدقت هو المقدار، قال: فما فعلت أمك؟ قال: توفيت، قال: فما منعك من الإلحاق بنا؟ قال: لم أرض نفسي للقائك حتى رضتها ببقاء مثلك؛ فحينئذ حملتها عليه؛ فعجب الفضل من كلامه وقال: يا غلام أعطه لكل سنة ألفاً، وأعطه من كسواتنا ومراكبنا ووصفائنا ما يصلح به ويظهر بها حاله؛ واستعمله .

ومن أمثال الحكماء: خير الأموال ما استرق حراً، وخير الأعمال ما استحق شكرًا .

وقال بعض الشعراء:

لعمرك إن ذوّقتني ثمر الغنى أذقتك ما يرضيك من ثمر الشكرِ
 وإن نلتُ ما يفنى بك اليوم أو غدًا أنلتك ما يبقى إلى آخر الدهرِ

فصل

وحدّ الحدود: أن يبذل المرء ماله حيث يجب البذل، ويحفظه حيث يجب الحفظ، فمثل هذا قد تبرأ من البخل جملة، وأما مَنْ بذل مكان الإمساك فهو مبذر، ومَنْ أمسك مكان البذل فهو بخيل، وفي ذلك يقول صالح بن عبد القدوس:

لا تُجَدُّ بالعطاء في غير حقِّ ليس في منع غير ذي الحقِّ ببخلٍ
إنما الجود أن تجود على مَنْ هو للجود منك والبذل أهلٌ
وقال بعض الحكماء: لا حسرة أعظم من نعمة أسديت إلى غير ذي حَسَب ولا مروءة . وقال البحتري:

واعلم بأن الغيث ليس بِنافعٍ ما لم يكن للناس في إبانِهِ
وعما أثنى الله به على عباده، قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا
وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [سورة الفرقان، الآية ٦٧]، وقال سبحانه لنبيه عليه السلام:
﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ [سورة الإسراء، من الآية ٢٩]،
وبيان ذلك قصد الواجب المتعين، واعتماد الظاهر المتبين .

فصل

واعلم أن الذي يكون من النفس وتحمل عليه الطبيعة، فيجود به صاحبه وهو متهلل الوجه منشرح الصدر، هو الكرم المحض الذي يقود إليه الطبع وإن لم يوافق موضع الصنعية، وأما مَنْ جاد متحاملاً على نفسه، منازعاً لإرادته فليس بكرم، إنما هو تكرم، وإن وافق الواجب ووجد موضع الصنعية، فإنه مفارق المروءة بالاستصعاب،

سائق لأسباب^(١) الكرم النفسي بحمل مشقة التكلف، وذلك إنسا يكون لفرط حب المال، ومن أحبّ المال لا يصحّ أن يكون كريماً على حال، وقلماً يجتمعان، بل لا يؤمن عليه مفارقة الشرع وامتناع المفروض . ولقد رأينا أقواماً يمتنعون من مفروض الزكوات وربما جادوا بجزيل الهبات لاستعذاب المدح والثناء، ومع هذا فمن ساعته نفسه وساعده طباعه إلى بذل ماله والتكرم بنواله، فإنه يُسمّى جواداً على كل حال، إلا أنه غير موفق للطاعة ولا موافق للشيعة، وكثيراً ما سقط الناس في هذا الباب؛ لأن المدح لذيد والثناء محبوب، وهو بحر قد غرق فيه الناس قديماً وحديثاً .

فصل

ومن تمام حدود المعروف وكمال أسباب البرّ أن لا يتيمّم منه الخبيث، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ [سورة البقرة، من الآية ٢٦٧] بل يجب أن يقصد به الطيب، ويعمد فيه إلى الحلال المحض، وهو الذي يقبل وترجى معه الزيادة والنمو، وبه صلاح الدارين إن شاء الله تعالى .

وينبغي لمصطنع المعروف أن يجتنب الامتنان به، وأن يتناسى ذكره، فإن ذلك من تمام الإحسان وكمال البرّ، قال الله تبارك اسمه: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ [سورة البقرة، من الآية ٢٦٤]، وقال رسول الله ﷺ: "إياكم والامتنان بالمعروف، فإنه يبطل الشكر، ويحبط الأجر"، ثم تلى الآية، قال الله عزّ من قائل: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مِنَّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة، الآية ٢٦٢] .

(١) م: الأسباب .

ومن كلام الحكماء: المنّ يفسد الصنعية، ويوجب القطيعة، ويحقّر العطايا الرفيعة .
وقال بعضهم: مضمض المنّ أثقل من الصبر على المعدم .
وقال محمد بن إدريس الشافعي: مَنْ الرّجال على القلوب أشدّ من وقع الأسنّة .
وقيل في بعض الحكم: خير المعروف ما لم ينكده مطل، ولم ينغصه مَنْ، ولم يرد به
شكر، ووافق موضع الحاجة .

ومن أمثالهم: المنّ يفسد المنّ^(١). وقالوا: لكل شيء آفة، وآفة المعروف المنّ .
ويجب لمصطنع المعروف أن يؤثّر كتمانته ويستعمل نسيانته، فإنه إذا تناساه وطواه
فقد أتمه ووفاه، كما يجب أيضًا على المصطنع له نشره، ويتعين عليه شكره، فإذا نشره فقد
شكره وكافاه، وإن كتّمه فقد كفره وواراه .
رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "مَنْ أودع معروفًا فليشره، فإن نشره فقد شكره،
وإن كتّمه فقد كفره" .

وفي الحكم المنتورة: الشكر - وإن قلّ - ثمن النوال وإن جلّ .
وقال لقمان لابنه: يا بنيّ اشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على مَنْ شكر لك، فإنه لا
بقاء للنعمة إذا كفرت، ولا زوال لها إذا شكرت .
وقال بعض الحكماء: مَنْ شكر معروفًا فقد أحسن وأنصف، ومَنْ كفره فقد أساء
وأخلف . وقال البخاري:

مَنْ لا يقوم بشكر نعمة خلّه فمتى يقوم بشكر نعمة ربّه؟!
ومن أقوال الحكماء: شكر النعمة قوام، ونشرها قوام . ومن كلامهم: بالشكر يستدام
الإحسان، وبالكفر يستوجب الحرمان؛ وحسبنا قول الله عزّ وجلّ ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ
لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية ٧]، وأنشدوا لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: الكفر
بالنعمة يدعو إلى زوالها، والشكر إبقاء لها . وما أحسن قول الرياشي حيث يقول:

(١) المنّ الأولى من اليّنة، والمنّ الثانية: العطاء والإحسان . انظر: لسان العرب (منن) .

يد المعروف غنم حيث كانت
 ففي شكر الشكور لها جزاء
 وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي:
 يبقى الثناء وتنفد الأموال
 ما نال محمداً الرجال وشكرهم
 لا ترض من رجل حلاوة قوله
 وقال بعض الشعراء:

ولقد حمدت على الصنائع أهلها
 ونظرت في عقب الأمور فلم أجد
 أبقى لمذخر وأربح صفقة
 وأرد للبلوى عن الإنسان
 وشريت حمد الناس بالأثمان
 كصنائع المعروف والإحسان

وهذا ينظر إلى قول رسول الله ﷺ: "صنائع المعروف تقي مصارع السوء". وقال بعض الكرماء لولده حين حضرته الوفاة: يا بني، عليكم بالمعروف واصطناعه، وتلذذوا بطيب روائحه ونسيمه، وارضوا بحسن مودات الرجال من أثمانه، فكم من رجل قلّ ماله عاش في نعمة هو وعقبه من بعده .

وحكي أن عبد الله بن العباس أتاه رجل فقام بين يديه وقال له: يا ابن العباس، إن لي عليك يداً وقد احتجت إليها . فنظر إليه وقال له: ما يدك عليّ؟ قال: رأيتك واقفاً بشر زمزم وغلامك يمتح لك من مائها والشمس قد أضرت بك فظللتك بكسائي حتى شربت، فقال: أجل إني لأذكر ذلك، وإنه ليرتدّ لي في خاطري . وقال لقيمه: ما عندك؟ قال: متنا دينار وعشرة آلاف درهم . فقال: ادفعها إليه وما أراها تفي بحق

يده، فقال له الرجل: والله لو لم يكن لإسماعيل ولد غيرك لكان فيك ما كفى، فكيف وقد ولد سيد الأولين والآخرين محمدًا ﷺ، ثم شفع بك وبأبيك . وهذا عبد الله هو أول من وضع الموائد على الطرق .

وقيل في بعض الحكم: فاعل المعروف لا يعدم جوازيه، إذا ضعف الناس عن أدائه قوى الله على جزائه، وفي مثل ذلك يقول بعض الشعراء:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العُرف بين الله والناس
ومن كلام بعض الأدباء: الكريم إذا انفتح عرفه طفتح عرفه . وقال أبو منصور
الثعالبي: الكريم صوت لسانه نعم، وصوت ثيابه نعم . وقيل: إنه أتى مصعب بن
الزبير برجل من أصحاب المختار، فأمر بضرب عنقه، فقام إليه الرجل وقال: أصلح الله
الأمير، ما أقبح بي أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة ووجهك الذي يُستضاء
به، فأتعلق بأطرافك وأقول: أي رب، سل مصعبًا فيم قتلني، فعجب لكلامه وأمر
بإطلاقه، قال: أيها الأمير اجعل ما وهبني من حياتي في خفض، قال: قد أمرت لك
بمئة ألف . قال: اشهدوا أن لابن قيس الرقيات نصفها قيل له: ولم ذلك؟ قال لقوله:

إنما مصعب شهاب من الله تجلّت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك رحمة ليس فيه جبروت ولا له كبرياء
يتقي الله في الأمور وقد أفـلح من كان شأنه الإتقاء

فضحك مصعب وقال: إن فيك موضعًا للصنيعة، وزاد في الإحسان إليه .

ولما قال سَم الخاسر في المهدي:

قد بايع الثقلان مهديّ الهدى لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر

ووليت عهد المسلمين وأمرهم فدمغت بالمعروف رأس المنكر
 أعطته أم جعفر عشرين بذرة، وكانت تقول من فرط كرمها: مَنْ يعذرني إذا أنا
 رددت سائلي؛ جدي خليفة، وزوجي خليفة، وابني خليفة .
 وقال صالح: لو نفضت أم جعفر ظفائرها لتعلق بكل شعرة منها خليفة، ولقد
 كنت آتي قصرها فأسمع فيه كدويّ النحل من كثرة الجوارى اللاتي^(١) يقرآن القرآن .
 وجاءت أعرابية إلى أبي حاتم بن عبيد الله بن أبي بكره والناس عنده، فدنّت من
 مجلسه ثم قالت: يا أبا حاتم أتيتك من بلاد شاسعة ترفعني رافعة، وتضعني واضعة
 للمهات من الزمان، ونواب من الحدثان، أذهبن لحمي وبَرَين عظمي، حتى تركنني
 ولهاء أمشي بالحضيض، قد ضاق بي البلد العريض، فقدمت بلدًا لا أعرف فيه أحدًا،
 ليس لي حميم يعينني، ولا عشير يكتفني، بعد عدّة من الولد، وكثرة من العدد، فسألت:
 مَنْ المرجو نائله المرضي سائله؟ فدللت عليك، أصلحك الله وأنا امرأة من هوازن، قد
 مات الوالد وغاب الرافد، ومثلك أعان العفاة، وفكّ العناة فاختر إحدى حالتين، إما
 أن تقيم أودي وتحسن صفدي، أو تردني إلى بلدي . قال: بل أجمعها لك جميعا . وأمر
 لها بعشرة آلاف وراحلة .

وكان لابن المقفع جازر كبه دين، فأراد بيع داره، فبلغ ذلك ابن المقفع فقال: ما
 قمت إذن بحرمة جواره إن باع داره لعدمه وأنا موسر، فبعث إليه بثمن داره وأمره
 بإمساكها .

وحكى العتبي قال: أشرف عمر بن هبيرة من قصره يوماً فنظر أعرابياً على بعير
 يرقص به الآل^(٢)، فقال لحاجبه: إن أرادني الأعرابي فأوصله إليّ، فلما رآه الحاجب سأله

(١) النبي .

(٢) السراب . لسان العرب (سرب) .

عن حاجته، فقال: قصدت الأمير؛ فأدخله إليه، فلما مثل بين يديه قال له عمر: ما خطبك؟ فأنشأ يقول:

أصلحك الله قلّ ما بيدي ولا أطيق العيال إذ كثروا
أناخ دهرًا خنّى بكنكليه فأرسلوني إليك وانتظروا
قال: فأخذت ابن هبيرة أريحية، وجعل يقول: أرسلوك إليّ وانتظروا . وما زال يكررها، ثم قال: إذن لا ترجع إليهم إلا غائبًا، وأمر له بألفي دينار، وانصرف الأعرابي يحمد مقصده، وقد ملأت هبته يده .

وحجّ معاوية، فلما قضى حجّه وانصرف، قال الحسن رضي الله عنه: إن عليّ ديناً ولا بدّ من لقاء هذا الرجل وإعلامه، فركب في أثره واتبعه، فلحقه وسلم عليه وأخبره بشأنه، فبينما هو يجبره إذ مرّ عليه بُختي من بعض رواحله عليه ثمانون ألف دينار وقد أعيأ وتحلف عن الإبل فقال لأتباعه: ما هذا؟ فأخبروه بخبره، فقال: اصرفوه بما عليه لأبي محمد، وفي تأخر هذا البعير للحسن رضي الله عنه برهان ظاهر، ودليل فضل على تقدّمه حاضر .

وأتى سائل لبعض الكرماء فأعطاه مالا جسيماً فقبل له: إنه لا يعرفك، وكان القليل يرضيه فقال: إن كان لا يعرفني فأنا أعرف نفسي، وإن كان القليل يرضيه فأعطاه القليل لا يرضيني . وهذا من جيد الكلام في إسداء المكارم . والله درّ زهير بن أبي سلمى حيث يقول في المعنى:

وأبيض فيّاض يدهاء غمامة على معتفيه ما تغبّ فواضله
تراه إذا ما جتته مستهلاًلاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وقال أبو تمام الطائي:

تعود بسط الكف حتى لَوَّانَه ثناها لقبضٍ لم تجبُه أناملُه

وقيل: إنه سأل رجل يحيى بن خالد حاجة فقال لمنصور بن زياد: عدُّه قضاء حاجته، فقال له: أصلحك الله وما يدعوك إلى العدة مع الوفور والجدة؟ فقال له: هذا قول من لا يعرف الصنائع وموقعها من القلوب، إن الحاجة إذا لم يتقدمها وعد ينتظر به نجعها لم تتحدث النفس بسرورها، إن الوعد تطعم والإنجاز طعام، وليس من فاجأه طعام كمن شم رائحته ثم طعمه، فدع الحاجة تختمر بالوعد ليكون لها عند المصطنع لطف محلّ وحسن موقع . وهذا كلام تظهر عليه طلاوة، ويبدو عليه رونق، وهذا بعيد عن التحقيق، ممنوع من التصديق، فإن السائل لا يسأل إلا عند الحاجة، ولا يبذل الرغبة إلا مع الضرورة، فمن أحق الأشياء على المسؤول أن يبادر، فقد قال رسول الله ﷺ: "من أعظم آفات الكرم وأنكد حالات السخاء المطل"، وقال عليه السلام: "من فُتح عليه باب من الخير فليستهزه، فإنه لا يدري متى يُغلق عنه"، وقال ﷺ: "التؤدة في كل شيء حسنة إلا في أعمال الآخرة". وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لكل شيء شرف، وشرف المعروف تعجيله .

ومن أمثال الحكماء: وعد الكريم نقد وتعجيل، ووعد اللئيم مَطلّ وتعليل .

وفي الحكم المثورة: لا تؤخر المعروف، فربما حالت بينك وبينه صروف .

وقال بعض السلف: إذا امتننت فلا تعد، وإذا منعت فلا تعد . ومن كلام بعض

الحكماء: التؤدة في كل شيء إلا في اصطناع المعروف، فإن التؤدة فيه تنقيص له، وفي

تأخير المعروف دواع تفسد البرّ وتؤذي الحرّ .

وقد قال بعض الحكماء: الوعد ردّ جميل وربما هجس في خاطر السائل عدم

القبول، وربما قيض الله له إذا كان كريم النفس ما يغنيه عن الاستنجاز، وإن كان ممن

يطلب الإكثار لم يلتذ بذلك المصطنع ولا حسن له عنده موقع، وأيضًا فإن المواقع معترضة، والعزائم منتقضة، وربما عرضت للمسؤول علة تدخله تحت الإعجاز، وحدث بالسائل حادث يحول بينه وبين الاستنجاز، وقد يسوء ظنه فيتخيّل الحرمان، فإن الشفيق بسوء الظن مولع، كما قد جرى لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه:

قد كنت آمل منك برًا عاجلاً والنفس مولعة بحبّ العاجلِ
وقال عبد الحميد الكاتب: من آخر الفرصة عن وقتها، فليكن على ثقة من فوتها .

وقال الشاعر:

إذا هبت رياحك فاغتمها فإن لكل خافقة سكونا
وما أحسن قول الآخر:

ليس في كل وهلة وأوانٍ تتأني صنائع الإحسانِ
فإذا أمكنت فبادر إليها حذرًا من تعذر الإمكانِ
أحزم الناس من إذا أحسن الدهر تلقى الإحسان بالاحسانِ

وكان يقال: تمام المعروف ثلاثة: تعجيله وتصغيره وستره . ومن كلام الحكماء: لا خير في البرّ إذا اقتضى . وقال بعضهم: منعك لأخيك الحاجة أجمل بك من المطل بها . وقال بعض السلف: السؤال خزي، والاقتضاء مذلة، والمطل آفة، وخير المعروف ما سبق السؤال . وقال بعضهم:

لا تفسدون بطول المطل مسألتي فالمطل من غير عسر آفة الجودِ
ومع هذا فلا خلاف بين الأمة أن أفضل العطاء وأجمل الصنائع العطاء قبل

السؤال، فإن صيانة وجه السائل أفضل من كل نائل، وفي ذلك يقول حبيب الطائي:

وما أبالي وخير القول أصدقه حقنت لي ماء وجهي أم حقنت دمي
فكيف بمن يكلف سائله إراقة ماء وجهه عند المسألة، وعند استنجاز العدة إلى أشياء
كثيرة، نحن في غنى عن استقصائها والتعرض إلى إحصائها .

فجعل

والكرم له وجوه تدعو إليه، وأسباب تبعث عليه، فمنه ما يكون تدينًا وتشرعًا،
فإذا رأى بأحد حاجة أو ظهرت منه إليه فاقة وهو قادر على سدّ خلته وإزاحة فاقته،
سارع إلى ذلك رغبةً في الأجر، ورجاءً للمثوبة، لا بسبب غيره. وهو أفضل الوجوه
حالاً وأحسنها مآلاً، فإنه لا يشوبه كدر ولا يغيره منّ، ولا تلحقه آفة من الآفات التي
قدمنا ذكرها .

ومنه ما يكون عن وفور مال واتساع حال تقضي به كثرة الثروة إلى تقديم ما وفق إليه
ليجعله ذخراً للأخرى، ويستجلب به الشكر، في الدنيا مع الثقة بالكفاية والغنى عن الزيادة .
ومنه ما يكون رغبةً في الحمد والشكر ومحبةً في الثناء وطيب الذكر، فتفرد إرادته
بحبّ عرض الدنيا، فيتكرم ويسمح؛ ليحمد ويمدح .

ومنه ما يكون حياءً، والحياء من الإيمان فيجود بنائمه حياءً من سائله، وإن قلّ
ماله ولم تساعده آماله، كما قال بعض الشعراء:

ليس الغبيّ بسيد في قومه لكنّ سيد قومه المتغابي
ومنه ما يكون استجلاباً لمنفعة، أو استدفاعاً لمضرة فيضطرّ إلى اصطناع المعروف
وإن كان به غير معروف، رجاءً لبلوغ بغيته والوصول إلى أمنيته، فيأتيه تصنعاً لا تطبعاً .

ومنه ما يكون لحراسة مجدّ تقدّم، وصيانة عرضٍ لم يتمزّق له أدم، وإبقاء رسم لم يعف ولم يهدم، فيبذل معروفه محافظة على المكانة، وحرصًا على استدامة الصيانة، ولا يخلو مثل هذا أن يكون طبيعة .

ومنه ما يكون لفرط حبّ، واستجلاب وصل، واستجناب عتب، فإن المحبّ أبدًا يؤثر محبوبه على نفسه، فكيف لا يجود عليه بديناه ودرهمه، فهو في كل حال يأتيه مضطرًا، ويستعذبه وإن كان مرًا، ومثل هذه الوجوه التي لو تتبعناها لكثير الكلام فيها، وفيما ذكرناه منها كفاية عن تقصّيها .

والجود الصحيح والكرم الصريح شيمة تكون في الجبلة، وسجية توضع في الفكرة، وطبيعة يركبها الله عزّ وجلّ في أصل الخلقة فلا تستحيل ما استحاله التطبع، ولا تنحرف إلى التخلق والتصنع .

حكى إسحاق الموصلي قال: ركب يحيى بن خالد يوماً، فمرّ بجماعة من إخوان أبيه فسلم عليهم، وكان فيهم مسلم بن قتيبة وحوله غرماء له، فلما رجع إلى أبيه قال: من لقيت اليوم؟ قال: فلانًا وفلانًا، ولقيت مسلم بن قتيبة ومعه غرماؤه قال: فعرفت قدر دينه؟ قال: نعم عشرة آلاف درهم، قال: احملها، إليه من قورك هذا، فحملها إليه فجعل يغرف فيها جفنة بعد جفنة ويفرقها على جلسائه حتى نفذت فرجع يحيى إلى أبيه فأعلمه، فقال خالد: يا بنيّ، عد إليه بمثلها، فعاد عليه، فجعل يفرقها على أهله وولده ومواليه وأمسك بعضها لنفقته، فرجع يحيى إلى أبيه فأعلمه، فقال: يا بنيّ عد عليه بمثلها، ففعل . فلما طلعت عليه قال: فرّقوها في غرمانا، ثم قال: لولا أن يداوم أبو العباس بذله فسييلها سبيل ما رأيتم، فرحم الله مسلمًا وخالدًا!

(١) م: اجملها .

فعل

وأعلى مراتب الجود، وأرفع درجات السخاء، وأسنى مقامات الكرم، الإيثار على النفس مع الحاجة، كما قال الله سبحانه: ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [سورة الحشر، من الآية ٩] قيل: إن هذه الآية نزلت في رجل من الأنصار احتمل ضيفاً نزل برسول الله ﷺ ولم يجد عنده شيئاً، فسار به إلى منزله ووضع بين يديه طعاماً وأمر امرأته بإطفاء السراج، وجعل يمدّ يده مع الضيف يريه أنه يأكل معه وهو لا يأكل، حتى استوفى الضيف الطعام كله، فلما أصبح قال له رسول الله ﷺ: "لقد عجب الله عزّ وجلّ من صنيعكم مع ضيفكم".

وكان من شأنه عليه السلام الإيثار على نفسه . رُوي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا، ولو شئنا لشبعنا، ولكننا نؤثر على أنفسنا .

ومن أعظم صنائع الإيثار ما حكاه أبو الحسن الأنطاكي قال: اجتمعنا ليلة وكنا بضعاً وثلاثين رجلاً، وكنا في قرية بالرّي^(١) ولنا أرغفة معدودة لا تشبع^(٢) جميعنا، فكسرنا الرغفان ووضعناها وأطفئ السراج وتقدّمنا للأكل، فلما ظهر منا الفراغ وأردنا رفع ما كان عليه الطعام فإذا به على حسبه لم ينقص منه شيء، وما أكل واحد منه شيئاً إيثاراً لصاحبه على نفسه .

ومن أعظم ما جاء في الإيثار على النفس حديث حذيفة العَدَوِيّ قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعني شيء من ماء وأنا أقول: إن كان به رمت سقيته منه ومسحت به وجهه . فلما وجدته، أشرت إليه أن أسقيه؟ فقال لي ابن عمي: نعم، فإذا

(١) م: بالرّي، والتصحيح من الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ١١٥٨ .

(٢) م: تسع، والتصحيح من إحياء علوم الدين .

برجل يقول: آه، فأشار إليّ ابن عمّي أن انطلق إليه، فجتته فإذا هو هشام بن العاص، فلما أشرت إليه سمع آخر يقول: آه، فأشار إليّ هشام أن انطلق إليه، فجتته فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فانصرفت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات . فأبى شيء أعظم من هذا الإيثار، وأي صبر أجل من هذا الاضطراب، لقد تقصر الألسن عن تعديده وتكلّ الأفهام عن تحديده، ذلك ﴿ ذَلِكْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [سورة الحديد، من الآية ٢١] .

وروي أن رسول الله ﷺ خرج إلى السوق ومع ثمانية دراهم، فإذا بامرأة على الطريق تبكي فقال لها: " ما يبكيك؟" قالت: بعثني أهلي بدرهمين لأشتري بهما حاجتهم فأضللتها؛ فأعطاها درهمين ومضى بستة دراهم، فاشتري منها قميصًا ولبسه وانصرف، فإذا بشيخ من المسلمين عارٍ وهو ينادي: من كساني كساه الله من خضر الجنة، فلم يتمالك ﷺ أن تجرد وألقى عليه القميص ثم رجع إلى السوق فاشتري بدرهمين قميصًا فلبسه . وأقبل يبادر الليل فإذا بالمرأة حيث تركها تبكي، فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت بأبي وأمي أنت يا رسول الله طالت غيبتني عن أهلي وأخشى عقوبتهم، فقال لها: الحقّي بأهلك . وجعل يتبعها حتى أتت دور بعض الأنصار، وإذا رجالهم خلوف ليس فيها إلا النساء، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فسمع النساء فعرفته ولم يسمع مجيبًا، ثم عاد الثانية ثم الثالثة رافعًا صوته فقلن بأجمعهن: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، بآبائنا وأمهاتنا أنت يا رسول الله، فقال: "أما سمعتنّ ابتداء سلامي؟" فقلن: بلى ولكننا أحبيننا أن نكثر لأنفسنا وذرياتنا من بركة تسليمك . فقال: "إن جاريتكن هذه أبطأت عنكن وخشيت العقوبة، فهبوا لي عقوبتها" فقلن: قد شفّعناك فيها يا رسول الله، ووهبنا عقوبتها، وقد أعتقناها لمشاها معك فهي حرّة لوجه الله العظيم . فانصرف ﷺ وهو يقول: "ما رأيت ثمانية أعظم بركة من هذه

الثمانية، آمن الله بها خائفًا، وكسى بها عارين، وأعتق بها نسمة، وما من مسلم يكسو مسلمًا إلا كان في حفظ الله ما دامت عليه منه رقعة" .

وحكى أبو بكر أن أعرابياً أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأنشد هذه الأبيات:

يا عمر الخير جُزيت الجنة
اكسُ بناتي واكسُ أمهنة
وكن لنا من الزمان جنة
واردد علينا إن إنَّ أنفة
أقسم بالله لتفعلنَّه

قال له: فإن لم أفعل يكون ماذا؟ قال:

إذن أبا حفص لا ذهبنَّه

قال: فإن ذهبت يكون ماذا؟ فقال:

تكون عن حالي لتسئلنَّه

قال: متى؟ قال:

يوم تكون الأعطيات هنَّه

وموقف السؤال عندهنَّه

إما إلى نار وإما جنة

قال: فبكى عمر رضي الله حتى بليت دموعه لحيته، ثم قال لغلامه: يا غلام أعطه

قميصي هذا لموقف هذا اليوم لا لشعره، أما والله فإني لا أملك غيره .

وقال المدائني: خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حجاجاً فقاتتهم أثقالهم

فجاعوا وعطشوا، فمروا بعجوز في خيمة فقالوا لها: هل من شراب؟ فقالت: نعم،

فأناخوا عندها وما معها إلا شاة في جانب الخيمة، فقالت لهم: دونكم فاحتلبوها

وامتدقوها^(١)، ففعلوا، ثم قالوا لها: هل من طعام فقالت لهم: هذه الشاة ما عندي سواها فليذبحها أحدكم حتى أهيبء لكم منها طعامًا، فقام إليها أحدهم فذبحها وكشطها عن جلدها، فهيأت لهم منها طعامًا، فأكلوا وأقاموا عندها حتى أبردوا ثم ارتحلوا وقالوا لها: نحن نفر من قريش، فإذا رجعنا سالمين بحول الله تعالى فألّمي بنا فإننا صانعون بك خيرًا، فلما أقبل زوجها أخبرته خبر القوم فغضب وقال: ويحك ذبحت شاة لم يكن لنا سواها لقوم لم تعرفهم! ثم ألبأتها الحاجة واضطرتها الفاقة فأتيا المدينة وجعلا يلتقطان البعر ويبيعانه ويتعیشان من ثمنه، فمرّت العجوز ببعض سكك المدينة، فاذا بالحسن بن علي رضي الله عنهما وهو جالس في باب داره فعرفها وهي له منكرة، فبعث إليها غلامه ودعا بها وقال: يا أمة الله، أتعرفيني؟ قالت: لا، قال: أنا ضيفك يوم كذا، قالت له: بأبي أنت وأمي، أنت هو؟ قال: نعم، وأمر غلامه فاشترى لها ألف شاة وأمر لها معها بألف دينار، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين فقال لها: بكم وصلك أخي؟ قالت: بألف شاة وألف دينار، فأمر لها الحسين بمثل ذلك، ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر، فقال لها: بم وصلك الحسن والحسين؟ قالت: بألفي شاة وألفي دينار، فأمر لها عبد الله بألفي شاة وألفي دينار، وقال لها: لو بدأت بي لأتعبتها، فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة وأربعة آلاف دينار، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

وقيل: خرج عبد الله بن جعفر يومًا إلى ضيعة له، فنزل في طريقه في نخل لبعض الناس وفيها غلام أسود يعمل، إذ أتى الغلام بقوته، فدخل عليه الحائط كلب ودنا من

(١) مَدَّقَ اللين: خلطه، والمذيق: اللين المزوج بالماء . لسان العرب (مذق) .

الغلام، فرمى إليه بقرص فأكله، ثم رمى إليه بالثاني فأكله، ثم رمى إليه بالثالث فأكله
وعبد الله ينظر إليه، فقال للغلام: كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت، قال: فلم آثرت
هذا الكلب على نفسك؟ قال: يا سيدي ما هي بأرض كلاب، إنما جاء من مكان بعيد
جائعًا فكرهت رده، قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي، فقال عبد الله بن جعفر:
ينسب إليّ السخاء حتى ألام عليه، وهذا الغلام والله أسخى مني، ثم سأل عن صاحب
الطائفة والغلام واشترهما منه وأعتق الغلام ووهبه الحائط .

وتلاحي ثلاثة رجال بفناء الكعبة فقال أحدهم: أسخى الناس عبد الله بن جعفر،
وقال الآخر: قيس بن سعد بن عبادة، وقال الثالث: عرابة الأوسي، وكثر كلامهم في
ذلك فقال لهم رجل: ليمض كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى ينظر لما يعطيه ويحكم
على العيان، فقام صاحب عبد الله فصادفه قد وضع رجله في غرز راحلته ليركب، فقال له:
يا ابن عم رسول الله . قال: قل، قال: ابن سبيل ومنقطع به، فثنى رجله وقال: خذ الناقة بما
عليها، ولا تُخدعن في السيف فإنه من سيوف علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فجاءنا
بالناقة عليها مطارف خَزَّ وأربعة آلاف دينار وأعظمها^(١) خطرًا السيف .

ومضى الآخر إلى قيس فوجده نائمًا فقال له خادمه: هو نائم، فما حاجتك؟ قال:
ابن سبيل ومنقطع به، قال: حاجتك أيسر من إيقاظه؛ هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما في
دار ابن سعد اليوم سواها، وسر إلى معاطن الإبل بعلامة إلى من فيها وخذ راحلة وعبدًا
وامض للشأنك، فقيل: إن قيسًا انتبه من منامه فأخبره الخادم بما صنع فأعتقه وقال: هلا
أيقظتني فكنت أزيده .

(١) م: اعظمهما، والتصحيح من التنوخي، المستجاد، ص ٨٦ .

ومضى صاحب عرابة فألفاه قد خرج من منزله يريد الصلاة وهو متوكئ على
عَبْدِين وقد كُفَّ بصره فقال: يا عرابة، قال: قل . قال: ابن سبيل ومنقطع به، فخلّى عن
الغلامين وصفق بيديه وقال: أوه أوه، والله ما تركت الحقوق لعرابة مאלأ، ولكن خذ
العبدین، قال: ما كنت لأقطع جناحيك، قال: إن لم تأخذهما فهما حُرَّان، فإن شئت فخذ
وإن شئت فأعتق، فتركهما وأقبل يلتمس الحائظ بيديه، فأجمع الحاضرون أن عرابة
أسخى الثلاثة؛ لأنه جُهد من مقل، وأن الآخرين إنما أعطيا من فضل وسعة وإن كانا في
فعلهما قد بلغا الغاية وتجاوزا الحد .

وحكي عن معن بن زائدة - وكان يُتمثل بجوده - فيقال: حدث عن البحر ولا
حرج، وعن بني إسرائيل ولا حرج، وعن كرم معن ولا حرج . وفيه يقول الحسين بن
مُطَيْر^(١) يرثيه حيث يقول:

| | |
|-------------------------------|-------------------------------|
| فيا قبر معن كنت أول حفرة | من الأرض خطت للمكارم مضجعا |
| فلما مضى معن مضى الجود والندى | وأصبح عرنين المكارم أجدعا |
| تمنى أناس شأوه ومكانه | فأضحوا على الأذقان صرعى ووقعا |

وقال مروان بن أبي حفصة:

| | |
|-------------------------|---------------------------|
| مضى بسبيله معن وأبقى | مكارم لن تبيد ولن تنالا |
| كأن الشمس يوم أصيب معن | من الإظلام ملبسة جلالا |
| أقمنا باليامة بعد معن | مقاماً لا نريد به زوالا |
| وقلنا: أين نرحل بعد معن | وقد ذهب النوال فلا نوالا! |

(١) م: مطر .

قيل: إنه أتاه رجل فقال له: احملني، فقال: يا غلام أعطه فرساً وبعيراً وبغلاً
وبرذوناً وحملاً وجارية، وقال: لو علمت مركوباً غيرها لأعطيتك .

وحضر بابه يوماً أحد الشعراء فلم يجد سبيلاً إلى الوصول إليه، فسأل عن مكانه
فقيل: هو في البستان، فأخذ خشبة وكتب فيها:

أيا جود معنٍ ناجٍ معنًا بحاجتي فما لي إلى معنٍ سواك شفيعُ
وأرسل الخشبة في الماء الذي يجري إلى البستان ومعن قاعد على الماء، فلما رأى
الخشبة أخذها وقرأ ما فيها وقال: مَنْ صاحب هذا؟ فدعا بالرجل وقال له: أنت قلت
هذا؟ قال: نعم، فأمر له بعشرة بَدْرٍ ووضع الخشبة تحت بساطه، فلما كان في اليوم
الثاني، خرجت في يده فقرأها ودعا بالرجل ودفع إليه مائة ألف درهم، فلما نظر الرجل
إلى كثرة المال استعظمه وساء ظنه لكثرتة، وسؤل له أنه لا يترك في يده، فخرج من عنده
إلى غير بلده، فلما كان في اليوم الثالث نظر معن إلى الخشبة وقرأها، ودعا بالرجل،
فالتمس فلم يوجد، فقال معن: حقّ عليّ أن أعطيه متى نظرت إليها حتى لا يبقى في
بيت مالي شيء . وما أحسن قول معن هذا يصف حاله إذ يقول:

دعيني أنهب الأموال حتى أعفّ الأكرمين عن اللثامِ
وقيل: إن رجلاً أتى دار رجل من معارفه، فدخل عليه الباب، فقال له: ما جاء
بك؟ قال: الحاجة . فدفع إليه مالا جسيماً، ثم جعل يبكي ويتأسف، فقيل له: إذن شق
عليك ما أعطيتك! فقال: والله ما شقّ عليّ وإنما أبكي لأنني لم أنفقه حتى احتاج إليّ .

وحكي أنه لما مرض الشافعي رضي الله عنه مرضه الذي مات فيه قال: إذا أنا متّ
فقولوا لفلان يغسلني . فلما توفي وبلغه الخبر، قال: اتئوني بتذكرته . فجيء بها إليه،

فوجد فيها على الشافعي ستين ألف درهم دَيْنًا، فكتبها الرجل على نفسه وقال: هذا هو الغسل الذي أراد به .

وكان عبد الله بن جدعان التميمي حين كبر سنّه قد أخذ بنو تميم عليه لفرط جوده ومنعوه ماله، فكان إذا أتاه الرجل يستعطفه يقول له: ادن مني، فإذا دنا منه لطمه وقال له: اذهب فاطلب بلطمتك أو ترضى، فكانت تميم ترصّيه من ماله . وفي ذلك يقول ابن قيس الرقيات:

والذي إن أشار نحوك لطمًا أتبع الفعل نائلاً وعطاء

وكان أبو مرثد أحد الكرماء فمدحه بعض الشعراء فقال له: والله ما عندي ما أعطيك، ولكن قدّمني إلى القاضي وادّع عليّ بعشرة آلاف درهم حتى أقرّ لك بها واحبسني بدينك، فإن أهلي لا يتركوني محبوسًا؛ ففعل فلم يمس حتى دفع إليه المال .

ولما حبس عمر بن عبد العزيز رحمه الله يزيد بن المهلب، وكان سعيد بن عمرو له مؤاخياً ولمودته مصافياً، وكان عمر رضي الله عنه قد منع الناس منه وحجر عن الدخول عليه، فأتاه سعيد وقال له: يا أمير المؤمنين إن لي على يزيد خمسين ألف درهم وقد حان الأجل بيني وبينه، فإذا رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في الدخول عليه واقتضاء ديني منه، فأذن له وكانت حيلة من سعيد في زيارته، فلما دخل عليه سرّ يزيد به كلّ السرور وقال له: كيف تحيّلتي في الوصول إليّ؟ فأخبره الخبر، فقال يزيد: أما والله لا تخرج إلا بها، فامتنع سعيد وأقسم يزيد ودفع إليه الخمسين ألف درهم، فقال عدّي بن الرقاع في ذلك:

ولم أر مسجونًا من الناس واحدًا حبا زائرًا في السجن غير يزيد
سعيد بن عمرو زاره فأجازه بخمسين ألف عجلت لسعيد

ودخل نصيب على مسلمة بن عبد الملك فأنشده فأجاد، فقال له مسلمة: سل ما بدا لك، قال: لا أفعل . قال: ولم؟ قال: لأن يدك بالعطية أجود من لساني بالمسألة، فأعجبه قوله وأمر له بألف دينار .

وحكي أن الليث بن سعد^(١) كان يستغل مالاً جسيماً في كل عام، وما وجبت قط عليه زكاة، وكان لا يحول عليه الحول إلا وعليه دين . وقال معاوية بن عبد الرحمن: دخلت مصر في زمن الليث بن سعد فجاءه من ضياعه ألف أزدب من طعام، فأمر ببيعها فبيعت بهال جسيم، ثم قيل له: يا أبا الحارث إن الناس قد احتاجوا إلى الطعام؛ فسأل التجار الإقالة في الطعام الذي باعه، فقالوا له: إن كانت نيتك في الزيادة زدناك، قال: والله ما أريد بيعه من سواكم، فأقالوه وردوا عليه طعامه، ففرق جميعه في المساكين . وقيل: إن هارون الرشيد أمر لمالك بن أنس رحمه الله بخمسمئة دينار . وإن الليث ابن سعد بعث إلى مالك بألف دينار، فبلغ ذلك هارون الرشيد فشق عليه وبعث إلى الليث وقال له: أيحسن أن أعطيه أنا خمسمئة دينار، وتعطيه أنت ألفاً وأنت من رعيتي؟! فقال له: يا أمير المؤمنين، لم أقصد وإنما لي في كل يوم ألف دينار تدخل على مالي، فاستحييتُ أن أقابل مثله بأقل من دخل يوم .

وقدم عبد الله بن معمر البصرة، وكان لفتى من أهلها جارية نفيسة القدر قد تأنق في تعليمها وأتقن في تأديبها فقبلت وفاقت وبهرت، وكان قد قعد به الدهر وأجهدهتها الفاقة، فقالت له الجارية: يا سيدي هذا الحال لا صبر عليها ولا بقاء معها، ولقد أردت أن أعرض عليك وجهاً أستحيي منك فيه مع صعوبته عليّ وقلّة احتمالي له، غير أن الاضطراب يخرج عن الاختيار، قال: وما هو؟ قالت: هذا ابن معمر قد قدم وشرفه

(١) م: سعيد .

مأثور وكرمه مشهور، فلو أذنت لي فأخذت على نفسي وتقدمت بي إليه وعرضتني عليه، لرجوت أن يصل إليك منه خير كثير يصلح الله به حالك، فبكى الفتى وجداً لها، وجزعاً لفراقها وقال لها: والله لولا أنك نطقت بهذا ما ابتدأتك به أبداً ولا استسهلته على نفسي، ثم أمرها فأخذت على نفسها ونهض بها حتى مثلها بين يديه، وقال له: أعز الله الأمير هذه الجارية ربيتها فأحسنْتُ، وأدبتها فأبلغت، وقد رضيتها لك لنبلها وخصالها فاقبلها مني، فقال له ابن معمر: لا أقبل هذه فهل لك في بيعها فأرضيك فيها . قال: ذلك إليك فقال له: يقنعك فيها عشر بدرٍ فقال الفتى: والله ما امتد أمني إليها، لكن فضلك معروف . فأمر بإحضار المال ودفع إلى الفتى وقال للجارية: ادخلي الحجاب . فقال

سيدها: أعزك الله لو أذنت لي في وداعها، قال: نعم، فقام وعيناه تذرّفان، وأنشأ يقول:

أنوحُ بحزني من فراقك موجه أقاسي به ليلاً يطيل تفكري
ولولا قعود الدهر بي عنك لم يكن يفرقنا شيء سوى الموت فاعذري
عليك سلام لا زيارة بيننا ولا وصل إلا أن يشاء ابن معمر

فقال ابن معمر: قد شئتُ، خذ الجارية وبارك الله لك في المال .

ومن أمثال الحكماء: السخاء غطاء العيوب، والشح آفات تنوب، ومضرات

تنوب . وفي مثل ذلك يقول ابن عبد القدوس:

ويُظهر عيبَ المرء في الناس بخله ويستره عنهم جميعاً سخاؤه
تغطّ بأثوابِ السخاء فإنني أرى كلّ عيبٍ والسخاء غطاؤه

ومن أحسن ما قيل في الكرم: قول بكر بن النطاح^(١) حيث يقول:

(١) م: النظام، والتصحيح من ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ١، ص ١٧٧، وقد أورد الأبيات بشئ من

الاختلاف .

أقول لمرتاد الندى عند مالك: تمسك بجدوى مالك وصلاته
فتى جعل الدنيا وقاء لعرضه فأسدى بها المعروف قبل عداته
تحكّم في الأموال من كل جانب فأنبهها في عوده وبداته
ولو قصرت أمواله عن صلته لقاَسَمَ راجيه بشطر حياته
ولو لم يجز في العمر قسم لمالك وجاز له الإعطاء من حسنة
لجاد بها من غير كفر بربه وشاركنا في صومه وصلاته
وقال بعض الشعراء من أهل الكرم:

يا بنت عبد الله وابنة مالك إذا ما عملت الزاد فالتمسى له
كرياً قريباً أو قصياً فلإنني وكيف يسبغ المرء زاداً وجاره
وإني لعبد الضيف ما دام ثاويًا وما في إلا تلك من شيمة^(١) العبد

وقال عمرو بن أهتم:

ذريني فإن الشيخ يا أم هيتم ذريني وحظّي في هواي فلإنني
ومستفتح عند الرقاد أجته فقلت له: أهلاً وسهلاً ومرحباً
أضفت ولم أفحش عليه ولم أقل لأحرمه: إن الفناء يضيق
بصالح أعمال الرجال خليقٌ على الحسب العالي الرفيع شفيقٌ
وقد حاد من ساري الشتاء طريقٌ فهذا مبيت صالح وصديقٌ

(١) م: مهنة، والتصحيح من الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٣، ص ٥٣٢ .

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيقُ
وفي منشور الحكم: الجود فعل محمود، وعزّ موجود . ومن أمثال الحكماء: من جاد
ساد . وقال أرسطاطاليس: الجواد عزيز وإن كان مقلّاً، والبخيل ذليل وإن كان مستقلاً .
وقال بعض السلف: كنوز الدنيا المعروف المبذول، وكنوز الآخرة العمل المقبول .
وقالت ابنة عبد الله المطيع لزوجها يحيى بن طلحة: ما رأيت ألامّ من أصحابك،
إذا أيسرت لزموك، وإن أعسرت تركوك، قال: هذا من كرمهم يأتوننا في حال القوة
عليهم، ويتركوننا في حال الضعف عنهم . وفي مثل ذلك يقول طلحة الطلحات:
أرى الإخوان لَمّا قَلَّ مالي وكَثُرَت الغرامة ودَعَوني
فلما أن غنيت وثاب مالي أراهم - لا أبالك - راجعوني
ومن أمثال الحكماء في الكرم: التبشر صحيفة البشري . وقال أبو منصور الثعالبي:
ذمام الكرم غير مذموم . ومن كلامه أيضًا: الكريم لا يكون لاتصال أيديه انفصال،
ولا لرضاع نعمه فصال .
ومما نظمت في هذا المعنى: مَنْ كَرَمَت شمائله شملت مكارمه، ومَنْ فَضَلَ عِرفه
عَرَفَ فَضله، ومَنْ كَرَمَ نَسبه نَسبَ كَرَمه، ومَنْ تَعَيَّنَت نِعْماه نَعَمَت عِيْناه، ومَنْ سَبَقَ
عِلْمه عِلْمَ سَبِقِه، ومَنْ حَسَنَت سِمَاتِه سَمَت حَسَنَاتِه .
وقلت أيضًا في مثل ذلك: والكريم الذي تهب هباته وتتصل صلته، ويطول
طوله، وينساب سَيِّبه، وينادي نداه، ويبشر بشراه، ولم يشب بالمتّ منه، وخلص من
فضله، فإذا هو استنّ في هذا السنن حسن إحسانه وحبا حباه، وعرف عرفه، وأجدى
جدها، فسمت في الأبصار سماته، وصفت من الأكدار صفاته . ولما اتفقت على هذا
الترتيب نظمتها فقلت:

إن الجواد إذا تنسّم جسوده هبّت على ربيع العفاة هبّاتُهُ

نادى نداه بهم وبشّر بشره
وانساب في كل المواطن سَيِّبه
وإذا تطاول طولُه وجبا جبا
واستنّ في سنن المحامد ذكره
يجدي جداه ولا يَمُنُّ بمنُّه
ذاك الذي في الناس يُعرف عرفه
لله مَنْ كانت حُلاه هذه
وصفت من الكدر المشوب صفاتُه
كالغيث واتّصلت عليه صَلاتُه
ه سَمِتْ بِالْحَاظِ الْعَيُونَ سَمَاتُه
طَيِّبًا وَأَبَدْتَ حُسْنَهُ حَسَانَتُه
ما ساعدته من الزمان حَيَاتُه
وَتُعَدُّ فِي قَبْضِ الْأَكْفِ عَدَاتُه
فلقد حوت سبق العلاء أدواتُه

جعلنا الله من أهل مكارم الأخلاق، وإن قصرت أيدينا عن إدراك مكارم الإنفاق،
بفضل الله الغني الكريم الرزاق، لا ربّ سواه .

فصل

في ذم البخل وأسبابه

البخل - جنبك الله إياه - أدنى خلة، وأودى علة، يدلّ على قلة الثقة، وضعف اليقين،
وكثرة القنط، وركاكة الدين. وقد ذمّه الله عزّ ذكره في غير ما آية من كتابه الكريم، فقال
سبحانه: ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ ﴾ [سورة النساء، من الآية ٣٧]، وقال تبارك اسمه: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا
آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ حَقًّا هُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ﴾ [سورة آل عمران، من الآية ١٨٠]، وقال
تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ ﴾ [سورة محمد، من الآية ٣٨]، وقال عزّ من
قائل: ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الحشر، من الآية ٩] .

وقد استعاذ رسول الله ﷺ فقال: "اللهم إني أعوذ بك من البخل"، وسمع صلوات الله عليه رجلاً يقول: الشحيح أغدر من الظالم، فقال عليه السلام: "لعن الله الشحيح، ولعن الله الظالم". وسمع مجاشع رجلاً يقول: الشحيح أغدر من الظالم، فقال: إن شيئين أخيرهما الشُّح لناهيكَ بهما شرًّا .

وقال رسول الله ﷺ: "ما أعطي العبد شرًّا من شح مانع، وجبن هالع"، وفي رواية أخرى: "شح هالع وجبن خالع"، وقال عليه السلام: "إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، فسفكروا دماءهم، ودعاهم فاستحلوا محارمهم، ودعاهم فقطعوا أرحامهم"، وقال عليه السلام: "لا يجتمع الشح والإيمان في قلب رجل مسلم"، وقال عليه السلام: "أيُّ داء أودى من البخل"، وقال ﷺ: "أقسم الله تعالى أن لا يجاوره بخيل"، وقال ﷺ: "البخل ثمرة الرغبة في الدنيا، والسخاء ثمرة الزهد"، ورؤي عنه ﷺ أنه قال: "خلق الله البخل من مقتته، وجعل أصله رأسخًا في أصل شجرة الزقوم، ودلّ بعض أغصانها إلى الدنيا، فمن تعلق بغصن منها أدخله النار".

ورؤي في بعض الآثار: أن يحيى بن زكريا عليهما السلام لقي إبليس في صورته، فقال له: يا إبليس، أخبرني بأحبّ الناس إليك وأبغض الناس إليك . قال: أحبّ الناس إليّ المؤمن البخيل، وأبغض الناس إليّ الفاجر السخي . قال: ولم؟ قال: لأنّ المؤمن البخيل قد كفاني بخله، والفاجر السخي أخاف أن الله يطلع عليه في سخائه فيقلبه . ثم ولى وهو يقول: لولا أنك يحيى بن زكريا ما أخبرتك .

وسئل الحسن عن البخل قال: هو أن يرى الرجل ما أنفق تلفًا، وما أمسك شرفًا .

وقال بعض الشعراء في ذلك:

إنما المال لمن أنفقه وابتغى الأجر به واصطنعا
لا تراه الدهر إلا ساميًا تابعًا في الجود أو متبعا
لا كمن يمشي بحامي ماله ويذود الخلق عنه جشعا
كلما أتلّف فلسًا شخصت نفسه أو كاد يقضي جزعا

ومن أقوال الحكماء: الكريم بكل حُسن موسوم، واللئيم بكل لسان مذموم .
وقال بشر: لقاء البخيل كرب، والنظر إليه يقسي القلب . وكانت العرب تتعابير بالبخل
والجبن، وتمدخ الشجاعة والكرم، وفي ذلك يقول شاعرهم:
بخلًا علينا وجُبْنَا عن عدوهم لبئست الخلتان: الجبن والبخلُ

فصل

وكفى بالبخل مذمة وخساسة أن البخيل يمتنع من اقرار الحسنات مع افتقاره
إليها، ويجانب مباح الشهوات مع اقتداره عليها، وربما ترك الطيب وإن أجحفت به
العلّة، ولا يرى دفع المكروه عن نفسه إذا أدركته المذلة، لكثرة الإشفاق على الإنفاق،
فمن كان مسيئًا لنفسه كيف يكون محسنًا لغيره! ونعوذ بالله ممن لا يلقي في الدنيا شكرًا،
ولا يجد في الآخرة ذخرا، وكفى به سوء رعية وركاكة بغية، أنه يجمع لغيره، ويحتمل
معرفة ضيره، ولا ينال لذة وفره وخيره، وفي مثله يقول ابن وكيع:

لئيم لا يزال يلمّ وفرًا لوارثه ويدفع عن حماه
ككلب الصيد يُمسك - وهو طاوٍ - فريسته ليأكلها سواءه

وقال حكيم في بعض وصاياه: يا بني، إياك والبخل، فإن البخيل خازن لأعدائه،
وقال بعضهم: تقتير المرء على نفسه توفير لغيره، ورب محبوس عليه ما في يدي غيره
رزق له، ورب محبوس عنه ما في يديه رزق لغيره .

وفي الحكم المشورة: بشر مال البخيل بحادث أو وارث . أخذه بعض الشعراء فقال:
 إذا كنت جماعاً لمالك ممسكاً فأنت عليه خازنٌ وأمِينُ
 تؤديه مذمومًا إلى غير حامدٍ فيأكله عفوًا وأنت دفينُ
 وقال المعتمر: أبخل الناس بعرضه أجودهم بهاله، وأجود الناس بعرضه أبخلهم
 بهاله . وقال الحارثي:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عِرْضُهُ فكلُّ رداءٍ يرتديه جميلٌ^(١)
 وقالت أخت عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: أفّ للبخل، والله لو كان البخل
 قميصًا ما لبسته، ولو كان طريقًا ما سلكته .
 ومن أمثال الحكماء: آفة الكرام مجاورة اللثام . وقال سقراط: البخل منقصة،
 والحرص مفسدة، والعجلة خطأ، والبذاء لؤم، وإنما يكون البخل من ضيق النفس
 وضعفها . وقيل لبعض البخلاء: لم حبست مالك؟ قال: للنوائب، قيل له: فقد نزلت
 بك وأي نائبة أشد من البخل؟
 قال بعضهم:

البخل داءٌ دويٌّ لا يليق بذي مروءة لا ولا عقلٍ ولا دينِ
 من أثر البخل عن وفير وعن جدة فقد لعمرى أضحى عين مغبونِ
 يا بؤس من منع الدارين خيرهما فباع دنياه بعد الدين بالدونِ
 وقال ابن المنكدر: إذا أراد الله بقوم شرًا أمر عليهم شرارهم، وجعل أرزاقهم بأيدي
 بخلاتهم، وإذا أراد الله بقوم خيرًا أمر عليهم خيارهم، وجعل أرزاقهم بأيدي كرماتهم .
 وقال جعفر بن يحيى: الرزق مقسوم، والبخيل مذموم، والحريص محروم،
 والحسود مغموم .

(١) ويُعزى أيضاً للسَّمَوَالِ بنِ عَادِيَاءِ.

وقال الواقدي: البخل بالموجود من سوء الظن بالمعبود .

وقال بشر بن الحارث: البخيل لا غيبة فيه .

وكان أبو حنيفة رحمه الله لا يعدّل بخيلاً، يقول: إنه يرى أن يأخذ فوق حقه مخافة أن يغبن، وهذا لا يكون مأمون الأمانة .

وَرُوِيَ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: سيأتي على الناس زمان عضو ض يعرض المؤمن على ما في يديه ولم يؤمر بذلك .

وقيل في بعض الحكم: مَنْ بخل على الفقراء، سلّط على ماله الأمراء . ومن كلام بعض الحكماء: اعص أمر البخل، وأطع أمر البذل، تفز بالفضل . ودخل إسحاق بن إبراهيم الموصلي على الرشيد فأنشده:

| | |
|---------------------------------|--------------------------------|
| وأمرّة بالبخل قلت لها: اقصري | فذلك شيء ما إليه سبيلُ |
| أرى الناس خلان الجواد ولا أرى | بخيلاً له في العالمين خليلُ |
| وإني رأيت البخل يُزري بأهله | فأكرمت نفسي أن يقال بخيلُ |
| ومن خير حالات الفتى - لو علمته | إذا نال خيراً - أن يكون يُنيلُ |
| عطائي عطاء الكثيرين تكرّماً | ومالي - كما قد تعلمين - قليلُ |
| وكيف أخافُ الفقر أو أحرمُ الغنى | ورأيُ أمير المؤمنين جميلُ |

فقال له: لا . كيف! إن شاء الله . ثم قال له: الله ما أنشدتنا يا إسحاق! ما أتقن أصوله، وأيمن فضوله، وأقلّ فضوله!

فصل

وقال بعض الناس: حدّ البخل، منع الواجب، فمن أذى ما وجب عليه فليس ببخيل، وإنما البخيل المستصعب للعطاء ولا تسمح به نفسه على حال . وهذا من الكلام الذي ليس فيه إقناع؛ لأن الواجب لا بدّ من إعطائه طائعاً أو مكرهاً، فهذا إنما أكرم نفسه عن الحمل عليها، وصانها عن الإكراه لها، فلا محالة أن اسم البخل واقع عليه إذا كان مواصلاً للحرمان بها في يديه، ولا يسمح إلا بهال أوجبه الشرع عليه .

وأما المستصعب للعطاء في واجب وغير واجب، فذلك أبخل البخل بلا مدافعة ولا منازعة، كما أنه إذا سمحت نفسه بالبذل وساعدته على النيل في غير الواجب، وكان عطاؤه في وجوه يستوجب بها الملامة، فليس ببخيل بل هو جواد غير موفق، حملته على البذل المروءة النفسانية، ومنعته الشهوة عن سلوك السبل المرضية .

والبخل الصحيح هو قصد المنع وإيثار الشحّ وامتناع البذل في كل الوجوه . وأصله حبّ المال وطول الأمل، ويشرك معها حبّ الولدان. وقد قال رسول الله ﷺ "الولد مبخلة مجبنة"؛ فإذا بسط له أمله، وحجب عنه أجله، وتعصب به ولده، خامر قلبه خوف الفقر، وقلة ثقته بما قسم له من الرزق، فتعلق بجميع حبال البخل، هذا إذا كان متمسكاً بشعبة من شعب الإسلام، متعلقاً بحبل من حبال الإيمان، وأما إن كان من أهل العصيان فبخل بها في يديه ليستعين به على المعصية والخذلان، وينفقه في غير الطاعة والإحسان؛ فذلك الذي خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين، إلا أن يقلب الله قلبه ويتوب عليه وهو التواب الرحيم .

فصل

وقد يكون البخل حبّ شخص الدينار والدرهم ولون عينها خاصة، فإننا نجد من الناس الرجل المسن الخليّ عن الولد عنده من المال ما لو سمحت به نفسه وتجاوز الحدّ في بذله، مع انتهائه إلى أطول أعمار أهل زمانه لوسع ذلك ما عنده، وهو مع ذلك لا يسمح بأداء زكاته، ولا بالإحسان إلى نفسه فيما لا حرج عليه فيه، وإنما جميع لذته وجلّ أمنيته ورغبته رؤية دنائره ودراهمه؛ ليستعذب وجودها في يديه، ويقنع بحصولها في ملكه، وكونها في قبضته . وهو عالم أنه يموت، وربما علم أنه لمن يتربص به . ونعوذ بالله من سوء الخلائق وحلول الطوارق وامتناع الحقائق .

وسُمعت عائشة رضي الله عنها تنشد وتقول:

أأخيّ إن من الرجال بهيمة في صورة الرجل الليب المبصر
فطنٌ بكلّ مصيبةٍ في ماله فإذا أصيب بدينه لم يشعر

حكى أن مروان بن أبي حفصة كان من البخلاء، وكان لا يأكل من اللحم إلا الرؤوس، فقيل له في ذلك، فقال: الرأس أعرف سومه، فقد أمنت خيانة بائعه ومبتاعه، وليس بلحم يؤخذ منه شيء إلا علم؛ لأنّ إن مُسّ منه عين أو أذن أو لسان أو شيء من الجلد ظهر ذلك ولم يخفّ، ثمّ إنني آكل منه ألواناً مختلفة الطعم، واللحم كلّه طعم واحد، والرأس طعم وعينه طعم غير طعم أذنيه، وطعم لسانه غير طعم جلده، وطعم مخّه خارج عن طعم جميع ما فيه، فقد اجتمع لي فيه مرافق جمّة . وإنه مع أوجهه وبخله لكما قال .

وحكى عنه أنه اشترى لحمًا بدرهم ثم دعاه صديق له إلى طعامه، فردّ اللحم إلى القصاب بنقصان دائق ولم يمسه .

وقال ابن الأعرابي: خرج بعض الأعراب في عام مَسْغَبَة يلتمس شيئاً يرجع به إلى أهله، فلقي مَنْ أطعمه وأسقاه، فنسي من تخلف، ثم جاء بعد حين شبعان رِيَان، فقالت امرأته:

كفى لأمّة والله عالم غيبه وعندك من علم الكرام يقينُ
بأن يخرج המתار من عند أهله سغباً ويأتي الأهل وهو بطينُ
وإن امرءاً يرضى بطعم ومشرب ويترك جياً خلفه لمهينُ

ومن كلام سقراط: الأغنياء البخلاء بمنزلة البغال والحمير، تحمل الذهب والفضة وتعترف التبن والشعير، ولقد أصاب أبو بحر الجاحظ في قوله: ثلاث من أعظم لذات الدنيا: ذم البخلاء، وأكل القديد، وحكّ الجرب .

وقال بعض الحكماء: إياك واللثيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها . وأصاب في تشبيهه بالصخرة من وجهين: أحدهما جمود يده، فإنها لا تسمح بالعطاء كما لا ترشح الصخرة بالماء . والثاني في صلابة خدّه، لأنه لا يستحي من ردّ طالب رِفْده . وقال عبد الرحمن بن حسان:

إني رأيت من المكارم حسبكم أن تلبسوا خزّ الثياب وتشبعوا
فإذا امرؤ ذكر المكارم مرة في مجلسٍ أنتم به تتقنعوا
وقال بعض الحكماء: ربّ موسرٍ^(١) مسيء لنفسه ليظهر عُسرَه فيُعذر في بخله، وربّ متجمّلٍ يُحسب موسراً، وذلك لقلة ذات يده . وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

الله يعلم أني لستُ ذا بُخْلِ ولستُ ملتمساً في البخل لي عللاً
لكنّ طاقة مثلي غير خافية والنذر يعذر في القدر الذي حملاً

وقال بعض السلف: مَنْ لم يقدم برّه لم يسمع شكره . وقال أبو العتاهية:
أسدى البخيل إليّ برّاً ظاهراً ولم يُثقل برّه ظهري

(١) م: مؤسر .

ما فاتني خير امرئ رفعت له عني يده مؤونة الشكر
وقال بعض الحكماء في بعض وصاياه: يا بني، طهر قلبك من دَنَس البخل
بمجانبتة، وارفع نفسك عن مصاحبة أهله، ونزه قدرك عن قبيح ذكره، فلا داء أودى
من البخل، ولا حال أنكد من مصاحبة أهله، ولا محطة أوضع من الآتسام به .
ونعوذ بالله من دواعي البخل فما أذناها حطّة، وما أخسرها صفقة، نهانا الله عزّ
وجلّ عنها ورسوله، وذمّ في جميع الأحوال قليلة وكثيره، فلا ترى إلا من ينكره، ولا
تلقى إلا من يكرهه ويحذره، نسأل الله أن يكفيننا البخل وأهله.

الباب العاشر

في الوفاء بالعهد والأمانة، والانتفاء^(١) عن النكث والخيانة

الوفاء بالعهد - أصلحك الله - من أفضل شمائل العبد، وأوضح دلائل المجد، وأقوى دواعي الإخلاص والود، وأحقّ الأفعال بالشكر والحمد . وقد وصف الله سبحانه به نفسه وجعله صفة من صفاته، وأبان به عن إتمام إحسانه وإنجاز عاداته، فقال عزّ من قائل: ﴿ وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ ﴾ [سورة التوبة، من الآية ١١١] ، وقال تبارك اسمه: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [سورة البقرة، من الآية ٤٠] ، وقال تعالى: ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ [سورة البقرة، من الآية ١٧٧] ، وقال جلّ ذكره: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ [سورة الرعد، الآية ٢٠] ، وقال عزّ وجلّ: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ [سورة المؤمنون، الآية ٢٨] وذكر كثيرًا في كتاب الله عزّ وجلّ . وهو ينقسم قسمين:

أحدهما - وهو الأصل - : الوفاء بعهد الله عزّ وجلّ، وهو الذي أخذه على ذرية آدم عليه السلام حين أخرجهم من ظهره فقال سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ [سورة الأعراف، من الآية ١٧٢] .
رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان - يعني عرفة- فأخرج من صُلْبِهِ كُلَّ ذَرِيَّةٍ ذَرَأَاهَا، فنشرهم بين يديه كالذرّ، ثم قال لهم: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟"

(١) م: الانتقاء .

وعن أبي بن كعب قال: جمعهم يومئذ جمعاً مما هو كائن إلى يوم القيامة، ثم استنطقهم وأخذ عليهم الميثاق، وأشهدهم على أنفسهم: ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى فقال تعالى: فإنني أشهد عليكم السماوات والأرضين، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة: لم نعلم بهذا، اعلّموا أنه لا إله غيري، ولا ربّ غيري، فلا تُشركوا بي شيئاً، وسأرسل إليكم رسلاً يذكرونكم عهدي وميثاقي . قالوا: شهدنا أنك ربنا وإلهنا لا ربّ لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك . وأقرّوا له يومئذ بالطاعة، ورفع عليهم أباهم آدم فرأى منهم الغني والفقير، والحسن الصورة وغير ذلك، فقال: ربّ ألا سوّيت بينهم؟ قال: إني أحبّ أن أشكر، قال: وفيهم الأنبياء يومئذ كالسراج، ثم خصّ الله النبيين بميثاق آخر وهو قوله تبارك وتعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَبَيْنَ نُوْحٍ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية 7] الآية وقوله جلّ جلاله: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾ [سورة النجم، الآية 56] .

وعن السدفي: قال الله عزّ ذكره: ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى، فأعطاه طائفتين، طائفة طائعين، وطائفة كارهين على وجه التقيّة، وهو قوله سبحانه: ﴿وَلَهُمْ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية 83] ، فلذلك ليس في الأرض أحد من ولد آدم إلا وهو يعرف أن الله تعالى ربّه . فقال الله تعالى: ﴿شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [سورة الأعراف، من الآية 172 إلى 173] .

والقسم الثاني: هو الوفاء بعهود عباد الله، وهو فرع من فروعه وفرقة من مجموعها؛ لاشتغال الطاعة عليه واقتضائها له وكما لها به، وينقسم هذا القسم على أقسام كثيرة ووجوه جمّة، كالقيام بالشهادة، وأداء الأمانة، وبذل النصيحة، وكتهان السرّ، وصلّة

الرحم، وقول الحق وإن جار، وصدق الحديث، وحفظ الجوار، وردّ السلام وغير ذلك مما نذبت الشريعة إليه، وحضّ الإسلام عليه، واختارته المروءة، وقام به الفضل .

رُوي عن بعض أهل العلم أنه قال: يسّر الله عزّ وجلّ إلى عبده بسرّين على طريق

الإلهام:

أحدهما: إذا خرج من بطن أمه فيقول له: عبدي، قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نقيّاً،

واستودعتك عمرك، واتممتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة، وكيف تلقاني بها .

والثاني: عند خروج روحه من جسده وفراقه الدنيا، يقول له: عبدي، ماذا صنعت في

أمانتي عندك؟ هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء؟ أم ضيّعتها فألقاك

على المطالبة والجزاء؟ قال الله عزّ من قائل: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ

عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية ٢٣] .

ورُوي أنه لما نزلت: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنَهُ بِعِطَابِ يُوَدِّعُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ

مَنْ إِن تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّعُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا

فِي الْأَمِينِ سَبِيلٌ﴾ [سورة آل عمران، من الآية ٧٥] يريدون: العرب؛ لأنهم من غير أهل

الكتاب؛ قال رسول الله ﷺ: "كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت

قدمي إلا الأمانة، فإنها مؤداة إلى البرّ والفاجر" .

وقال بعض العلماء: كبرت صفة جمعت الوفاء بالعهود الموضوعه، وصلة الرحم

المقطوعة، وكتهان الأسرار المسموعة، فإنها لم تزل من الشيم الرفيعة، ولكل جميلة من

الخير وجزيلة من الأجر ذريعة .

ومن أمثال الحكماء: حَسْبُ الْمُؤْمِنِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ صِيَانَةُ الْعَهْدِ وَالْمِثَاقِ .

وقال بعضهم: لا يجب على العاقل أن يوجب صدق المحبة والإخاء إلا لأهل المودة

والوفاء . وقالوا: أصل المودة الصفاء، وثمره الوفاء . وقيل: أبعد الناس من الخير

واكتسابه من لم يعرف حلاوة الوفاء بالعهد وفضل منزلته .

ومن كلام الحكماء: حقيق من الناس بحسن الثناء مَنْ عظمت رغبته في اكتساب الوفاء . وفي بعض الحكم: مع حفظ العهد يزكو قليل الودّة، ومع نكث العهد يذهب كثير الودّة، فعليكم بالوفاء فيه تُملك القلوب، وتُستدام الألفة بين المحبّ والمحجوب . وقالوا: مَنْ لزم الوفاء لزمه الرضاء، وتحلّى بالصفاء . ومن أمثالهم: الوفاء بالذمم من علامات الكرم .

وفي منشور الحكم: من كرم الجدد، وتمام السعود، والقيام بالحدود: الوفاء بالعهود . وقال بعض الحكماء: مَنْ لقي الله بلسان صادق، وعامل الناس بحسن الخلاق، وألزم نفسه رعي العهود والمواثق، فقد أرضى المخلوق والخالق، وأدرك في الفضل كل سابق .

وقال بعض العلماء: مَنْ أوفى بعهود الناس استجاد دنياه، ومَنْ أوفى بعهود الله استجاد أخراه، والخاسر مَنْ لم يحكم بما أنزل الله .

فصل

والوفاء ضالّة كثير رائدها، قليل واجدها . وهو من أتمّ حميد الخلال، وإليه تنتمي المروءة والكمال، وقد عظمت الحاجة إليه، وعدم المستقل به، والحافظ عليه، وصار رسماً دارساً، وحلّة لا نجد لها لابساً، ولا في اقتنائها على كرمه وفضله متنافساً . وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

| | |
|---|--|
| وَصَادِقُ الْوَدِّ صَادِقُ الْخَيْرِ | مَغْرِي بِرَعِي الْعُهُودِ مِصْطَرِ |
| هَذَا الَّذِي لَا أزال أَسْمَعُهُ وَمَا | لِيهِ فِي الزَّمَانِ مِنْ أَثَرِ |
| لَوْ أَنَّ كَفِّي بِمِثْلِهِ ظَفَرْتُ | قَاسَمْتُهُ فِي الْمَتَاعِ وَالْعُمُرِ |

وقال أيضًا غيره:

قد توجد الشيم السنية في الفتى إلا الوفاء فإنه معدوم

أوما دروا من تستيم خصاله دون الوفاء فإنه مذموم

وقال رجل لبعض الصالحين: أوصني . فقال له: اتق الله سرك وعلتك، وافعل الخير ما أمكنك، ولا تضيع أمانة من ائتمنتك، واصدق الحديث سرك أو أحزتك، فإن فعلت فقد استقدت الزيادة رسنك، وأرحت من المكاره قلبك وبدنك . وقال غيره: إن أردت أن تحمي من الغير جنباتك، وتصفو من الكدر مدة حياتك، وترى النمو في رزقك وحسناتك، فلا تضيع عهد من يحافظ على ميثاقك، ولا تقطع المعهود من هباتك، ولا تجعل المطل ثمرة عداتك .

ومن أمثال الحكماء: بالوفاء يدوم الإخاء، ومع الجفاء يعدم الصفاء .

وقيل في بضع الحكم: أخلق بالوفاء بالعهد أن يجتني ثمرة الحمد . ومن أمثالهم: لا حياء لمن ليس له وفاء . وقال بعض الأدباء لابنه: يا بني، إذا أردت أن تصل إلى ذروة المجد فعليك بحفظ العهد . وقالوا: الصدق والوفاء توأمان نتيجتها الدين والإصلاح، فإذا اجتمعا في الإنسان كانا له حصنًا من جميع المكاره .

ومن الحكم المثورة: أجدز بحافظ العهد أن يكون صحيح الود، كريم الجد، قويم العهد، كثير الرغد، قليل الحقد، موضعًا للشكر والحمد .

وقال بعض الحكماء: ما رأيت أجمع لخير الدارين وشرف المنزلتين من الوفاء بالعهد وصلة ارحم .

ومن كلام بعض الأدباء: من تحلى بالوفاء، وتخلّى عن الجفاء، فذلك من إخوان الصفاء .

وقال بعضهم: إذا ما بذلت من ودك الصفا، وعاملت إخوانك بالوفا، فقد جددت رسماً قد عفا، وحسبك من علامات السؤدد وكفى . ومما سبق لي من القول في ذلك:

إذا كنت قد أمحضتنا الودة صافياً ولم ترَ عن وصل الصديق نجافيا
وشاركت في حلو الزمان ومرّه وأصبحت في اللاواء تسدي الأياديا
ووفيت بالعهد الذي خانهُ الوري ولم أرَ مخلوقاً على العهد باقيا
فقد حزت أشتات المكارم كلها وجددت للعليا رسوماً عوافيا

حكى أن ملكاً من الملوك كان له يوم يؤس إذا خرج فيه ولقي أحداً على صفة يكرهها حبسه أياماً، ثم أمر بضرب عنقه، فخرج يوماً من تلك الأيام فلقي رجلاً قاصياً لم يكن عنده علم بشأنه على الصفة التي كان ينكرها؛ فأمر بحبسه . وأعلم الرجل بالأمر، فحمد الله وسلم للقدر، فلما قرب الأمد كتب إلى الملك يرغب في تخليه سبيله ليودع أهله ويوصي في ماله، فأحضره وقال: هذا أمر لا يكون إلا بضامن آخذه بما أطلبك به، فنظر الرجل في الحاضرين يميناً وشمالاً، ثم مدّ يده إلى رجل منهم وقال: هذا يضممني، فقال له الملك: أتضمنه وقد عرفت ما يُراد به؟ قال: نعم . فأمر بحبسه مكانه ونهض المضمون إلى بلده، فأوصى في ماله وودع أهله وانصرف، وقد وافق يوم تمام المدة، فلما استأذن على الملك أمر بإحضارهما معاً وقال للضامن: ما حملك على ضمانه والمخاطرة بنفسك في شأنه، ولو تأخر لسبق فيك السيف العذل؟ قال له: أيها الملك ما رأيت وقد وثق بي أن أخالف ظنه مني . فرجع إلى المضمون، وقال له: ما حملك - بعد تخلّصك - على التشبُّب^(١)، وقد علمت المراد بك؟ قال: لم أكن يجمل بي أن أراه مكان الثقة، فبراني مكان الغدرا فعجب من وفائهما جميعاً وعفا عنهما، ورفع يؤس

(١) التشبُّب في العظام: الركوب على المراكب الصعبة . البغدادي، خزنة الأدب، ج ٧، ص ٩٣ .

ذلك اليوم فلم يقصده بعد . فَمَنْ نظر في أمر الرجلين لم يدرِ من يغلب منهما في الوفاء على صاحبه، ولا من يجعل الفضل في جانبه.

وقال بعض العلماء: أركان الدين والدنيا أربعة: الصبر والصدق والحلم والوفاء. وكانوا يقولون: الوفاء بالذمة من أركان الملة، والحفظ للذمام من أركان الإسلام. ومن الحكم المرفوعة: لا يظهر وفاء المرء لأخيه إلا بعد وفاته، وعند نوائب الدهر وآفاته. ومن الأمثال في ذلك: الوفاء بعد الوفاة. وقال بعضهم: لا إخاء إلا بوفاء، ولا مودة إلا بصفاء. ومن كلام الحكماء: مَنْ أحرز العواقب بالحزم، وأحرز المودة بالوفاء، ودبّر الدنيا بالحكمة؛ فقد ملك أزمة العزة. ومن أقوال بعض العلماء: إذا أنت قمت بعهود الله تشرّعاً وإيماناً، ورعيت عهود الناس مبرة وإحساناً؛ فقد أحرزت من الناس هدماً، ومن الله عزّ وجلّ غفراناً. أخذه بعض الشعراء فقال:

يا حافظاً لعهود الله مصطبراً وقائماً بحدود الله إيماناً
وراعياً لعهود الناس محتسباً مستوجباً بهما شكراً وإحساناً
لقد جمعت خلافاً ما لها قدر لا خير فيمن غدا للعهد خوّاناً
جعلنا الله من الموفين لعهودهم إذا عاهدوا، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، برحمته وفضله وقوته وحوله.

فصل

في الانتفاء عن النكث والخيانة

واعلم -رعاك الله- أن نكث العهود من أعظم تضييع الحدود، وأكبر عصيان الخالق المعبود، قال الله عزّ من قائل: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۗ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الفتح، من الآية ١٠]، وقال تبارك وتعالى:

﴿ أَوْكَلَمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠٠]، وقال جل وعزّ: ﴿ الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ [سورة الأنفال، الآية ٥٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَبَلْتُمْ أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ [سورة التوبة، الآية ١٢]، وهذا كثير في كتاب الله عزّ وجلّ.

والأمانة مشتقة من الإيوان، فمن حفظ أمانته حفظ الله إيمانه، ومن ضيّع أمانته ضيّع الله إيمانه. وقال رسول الله ﷺ: "لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له"، وقيل في بعض الحكم: من ضيّع الأمانة، ورضي الخيانة، فقد برئ من الديانة. أخذه بعض الشعراء فقال:

تبأ لمن رضي الخيانة مهيعاً وازورّ عن صون الأمانة جانبه

رفض الديانة والمروءة فاغتندى تترى عليه من الزمان مصائبه

وقال غيره:

أخلق بمن رضي الخيانة شيمةً أن لا يرى إلا صريعَ حوادثٍ

ما زالت الأرزاء ينزل بؤسها أبداً بغادر ذمّةٍ أو ناكثٍ

ومدح أعرابي قوماً فقال: شفّعوا برعي الأذمة، فلا يغدرون بدمّة، ولا ينتهكون لمسلم حرمة، ولم تعلق بهم ذمّة، فهم خير أمة. ومن الحكم المثورة: تضييع المشاق من علامات النفاق.

وقال رسول الله ﷺ: "يطبع المؤمن على كل خلق ليس الخيانة والكذب"، وقال

صلوات الله عليه: "لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغتماً، والصدقة مغرماً"، وقال

عليه السلام "أدّ الأمانة لمن ائتمنك، ولا تحن من خانك". وعن حذيفة: أن رسول الله ﷺ قال: "إن الأمانة سترفع، ويصبح الناس يتبايعون، وما يكاد أحد منهم أن يؤدي الأمانة، وحتى يقال: إن في بني فلان أميناً"، ورؤي عنه ﷺ أنه قال: "ستفتح عليكم مشارق الأرض ومغاربها، ألا وكل أمرائها في النار إلا من اتقى الله وأدى الأمانة"، وقال عليه السلام: "إذا جمع الله الأولين والآخرين رفع لكل غادر لواء، فيقال: هذه غدرة فلان"، وقال ﷺ: "مَن مات ناكث عهد جاء يوم القيامة لا حجة له".

ومن أمثال الحكماء: مَن خان مان، ومَن مان خان، وتبرأ من الإحسان. ومن أمثال الحكماء: الغالب بالغدر مغلوب مغلول، والناكث للعهد ممقوت مخذول. وقالوا: مَن نكثَ عهدَه، ومنع رِفْدَه، وأظهر حقدَه؛ فلا خير عنده. وقال بعض حكماء الفلاسفة: لو علم مضيح الأمانة ما في النكث والخيانة، لقصر عنهما عنانه.

وقيل لبعض العلماء: ما علامة الإيثار؟ قال: حسن الخلاق، وأتباع الحقائق، وبذل المرافق، وحفظ العهود والمواثيق، والتسليم للقدر السابق. قيل: فما علامة النفاق؟ قال: نقض العهد، وخلف الوعد، ومنع الرّفْد، والكذب في الهزل والجد. قيل: ففيم النجاة؟ قال: عمل مبرور، وقلب صبور، ولسان شكور، وإدخال سرور، والرضا بالمقدور. قيل: ففيم الهلكة؟ قال: كثرة الفجور، واقتحام الشرور، ومطاوعة الغرور، وعصيان الغفور. وقال بعض الحكماء: لا عذر في الغدر لمخلوق ولو تكلم بلسان التصديق، وأعرّب عن جنان التحقيق.

فصل

وإن الأعداء لتحسن في كثير من الأمور، وتحمد في كثير من الأشياء، ونشرع في كثير من الأحوال، وتذهب لكثير من الاعتداء، إلا في نقض عهد، أو حل عقد، فما أقبح الغدر فيه، ولا عذر، وما أقرب الوزر منه، ولا أجر. وقال بعض الحكماء في ذلك: العذر يصلح في كثير من المواطن، ولا عذر لغادر ولا مائن. وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

يا ناكث العهد أما ترعوي جمعت آثامًا وأوزارا

عصيت مولاك اغترارًا وقد قدم إعداءًا وإنذارا

مَن خان -برًا كان أو فاجرًا- لم يتقى العار ولا النارا

وُقرئ في بعض الكتب السالفة: مما تُعجل عقوبته ولا تؤخر: الأمانة تخان،

والإحسان ينكر، والرحم تقطع، والبغي على الناس.

ومن كلام الحكماء: الغدر ذنب عظيم، وعار مقيم.

فصل

وأجمعت الأمم، وتتابع الشرائع، وتعاهدت القبائل بلا مدافعة على أن لا نكث لعهد بعد إبرامه، ولا نقض لعقد بعد إحكامه. وهو أسس مُهدت عليه قواعد الإيمان، وبُنيت عليه أركان الإحسان، وبه صلاح الخلاق، وعليه مدار الحقائق. وهو أمر قَبِله العقل، وصدقَه اللسان. لو نبذه الناس لأصبحوا فوضى، وعادت سبأؤهم أرضًا، وأمسى عقد الحق محلولا، وصارم الصدق مفلولا، ودم التناصف مطلولا. فَمَن حفظ

عهده وحافظ عليه، فقد أسرع إلى الخير ووصل إليه، ومن نكثه بعد إحكامه، ونقضه بعد إبرامه، فقد برئ من الخير وطرقه، وخلع ربة الإسلام من عنقه.

وكان حلف الفضول -الذي قدّمنا ذكره في بعض الفصول- عهدًا وضعته قريش، ولم تر نقضه، وألّزمت نفوسها جميعه لا بعضه، وشملت فيه كبيرها وصغيرها، وسوّت فيه رفيعها ووضيعها.

رُوي أنه كان بين الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وبين الوليد بن عتبة - وهو يومئذ أمير المدينة- منازعة في مال، فتحامل الوليد على الحسين في حقه لإمارته، فقال له الحسين: أقسم بالله العظيم لتنصفني من حقي أو لأخذن سيفي وأقوم في مسجد رسول الله ﷺ داعيًا حلف الفضول حتى آخذ بحقي منك! وسمع عبد الله بن الزبير مقالته، فقال: وأنا أحلف بالله سبحانه لئن دعا لأخذن سيفي ولأقومنّ معه حتى ينتصف من حقه أو لنموتنّ دون ذلك! وبلغ المسور بن مخرمة الأمر فقال مثل ما قال عبد الله بن الزبير، فلما رأى الوليد ذلك، أنصف الحسين من نفسه، ورضاه في حقه حتى رضي. وقد قال الشاعر:

أف لمن لا يفني وبُعدًا ولا جفت مقلتاها سهدا
استوجب المقت وارتضاه لنفسه وارتضاه بردا
فلا جباه الإله رُفدًا ولا سقاه الغمام وِرذا

ومن كلام بعض الصالحين: إن حفظ العهد من الإيمان، وإن نكث العهد من البهتان. وقال بعض الحكماء لابنه: يا بني، لا تحلّ عقدًا مبرمًا، ولا تنكث عهدًا محكمًا، فتكون قد ضيّعت الحقوق، وخنث الخالق والمخلوق.

وحفظ العهد وأداء الأمانة أمر أوجبه الله تعالى على جميع خلقه، وجعله من أعظم أسباب القيام بحقه، وألزمه جميع الشرائع، وأكدته في كل الأحوال والصنائع، ووعد من حفظه وحافظ عليه حسن ثوابه، ووعد من خالفه ونكث عليه أليم عقابه، فقال عز من قائل: ﴿فَمَنْ نَكثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۗ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيَّ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الفتح، من الآية ١٠]. جعلنا الله من الحافظين للعهد، والقائمين بالحدود، الراضين بقضاء الخالق المعبود، بمنه وطوله.

الباب الثاني عشر

يشتمل على خمسة فصول متعلقة بالأفعال الشرعية،

مؤدية إلى الأحوال المرضية، وهي:

الحياء، والمروءة، وحسن الخلق، وصلة الرحم، وكتمان السرّ

فصل

في الحياء

الحياء - حياك الله - دليل الدين الصحيح، وشاهد الفضل الصريح، وسمة الصلاح الشامل، وعنوان الخير الكامل، لا يأتي إلا بما يصلح ويكمل، ولا يقضي إلا بما يحسن وينبل، نظّم قلائد المحاسن ونسّق، وجمع من خصال البرّ ما افترق، إن نطق صاحبه صدق، وإن كلف رفق، وإن وعد حقق، فلا تلقاه إلا محمود المشاهد، ولا تراه إلا موفق المحامد.

رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لكل دين خلق، وخلق هذا الدين الحياء"، وقال عليه السلام: "الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة". وقال صلوات الله عليه: "الحياء خير كلّ"، وقال ﷺ: "الحياء نظام الإيمان"، وقال عليه السلام: "أول ما يرفع الله من هذه الأمة الحياء"، وقال ﷺ: "من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة فيه".

وكان الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه قد حصّ منه بأجلّ السهام، وضرب فيه بأوفر الحظوظ والأقسام. رُوي عن رسول الله ﷺ أنه دخل عليه أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم وهو مكشوف الركبة، فبقي على حاله، فلما استأذن عثمان رضي

الله عنه غطّاهما، فقيل له في ذلك، فقال عليه السلام: "إني لأستحيي ممن استحييت منه ملائكة الرحمن".

وكان مالك رحمه الله أول من اصطحب الأخبية في السفر، وقال: إنني رجل شديد الحياء؛ فأريد أن استتر.

وقالت الحكماء: من كساه الحياء ثوبه، لم ير الناس عيبه. ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إنما أدرك الناس من كلام النبوة: إذا لم تستحي فاصنع ما شئت". نظمه بعض الشعراء:

إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستحِ فاصنع ما تشاء
وقال آخر:

وربّ قبيحةٍ ما حال بيني وبين ركوبها إلا الحياءُ
إذا رزق الفتى وجهاً وقاحاً تقلّب في الأمور كما يشاءُ
ومن كلام الحكماء: من مُنع الحياء، ومُنح البذاء، لم توثق حقائقه، ولم تؤمن بوائقه.
وقال بعضهم: من قنع بجلباب الحياء محيّا، فقد استطاب محياه، ومن حصره عن محيّا، فلا حيّاه الله ولا بيّاه. وفي منشور الحكم: شيمة الخير الحياء، وشيمة الشر البذاء.

فصل

والحياء منقسم على ثلاثة أوجه:

فأرفع منازل الحياء، وأجلّ مراتب الثناء، الذي هو شعار الأتقياء، ومفزع الأولياء: الاستحياء من الله عزّ وجلّ، وهو الأصل الذي تتفرع منه أغصانه، وتتشعب

عنه أفنائه . وحدّه: الوقوف عند حدوده، والارتباط بحفظ مواعقه وعهوده، والالتزام لأوامره، والاجتناب عن نواهيه ومحارمه، حتى لا يراه حيث نهاه، ولا يفقده من حيث أمره. رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "استحيوا من الله حق الحياء"، قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: "من حفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، وترك زينة الحياة الدنيا، وذكر الموت والبلى، فقد استحيا من الله حق الحياء".

والوجه الثاني: هو الاستحياء من الناس، وهو من مكارم الأخلاق، بل من اللوازم بالاستحقاق، وبه تكمل المروءة، ويتمّ الصلاح، ويكفّ الأذى، ويصدق اللسان، وتؤدّى الأمانة، وتحسن السيرة، وتصلح السريرة.

رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "من اتقى الله اتقى الناس"، وقال حذيفة: لا خير فيمن لا يستحيي من الناس.

والحياء من الناس راجع إلى الحياء من الله تعالى، وقد قرنه رسول الله ﷺ فيما رُوي عن علقمة بن علاثة أنه قال: يا رسول الله، عظني. قال: "استح من الله استحياءك من ذوي الهيبة من قومك". وقال كعب الأحبار: استحيوا من الله في سرّكم كما تستحيوا من الناس في علانيتكم.

والوجه الثالث: استحياء المرء من نفسه، وهو أيضًا داخل في الحياء من الله تعالى، وهو أن يتعفّف في خلوته من كشف عورته، ومن النظر إليها، ويتنزّه عند انفراده عن استطلاع ما يكره لغيره استطلاع منه، فلا يأتي في الخلوة إلا ما يأتي في الملاء. وقد قال بعض العلماء: إنه من المراقبة. ويخرجه عن هذا الحكم ما لا بدّ له منه، ولا يمكن الخروج عنه، كالتجرّد للطهر، والتجرّد للنوم، على أن التجرّد للنوم قد يمكنه أن يتوارى بثياب رقاده قبل التجرّد، وهو الأحسن.

قال أرسطاطاليس: المروءة استحياء المؤمن من نفسه. وقال غيره: ليكون استحياءك من نفسك أعظم من استحيائك من غيرك. ولا محالة أنه إذا استحيى من نفسه فحياءه من غيره أشد. وقال بعض الحكماء لابنه: يا بني، لا تعمل في السر عملاً تستحي منه في العلانية.

فمن قصر في وجه من هذه الوجوه التي قدّمناها من الاستحياء من الله سبحانه والاستحياء من الناس، والاستحياء من نفسه؛ فقد أخلّ بدينه كل الإخلال، ومنعها أوفر الحظوظ من الفضل والكمال، كما أنه إذا أخذ نفسه باستعمالها، وطالبها بإتمامها وإكمالها، فقد أخذ بأطراف التشريع والديانة، وجمع أشتات الخير والصيانة، وأحلّها المرتبة العليا، وجمع لها خير الآخرة والدنيا. وقد قال في ذلك بعض الشعراء:

إذا لم تصنْ نفسًا ولم تحشْ خالقًا وتستحِ مخلوقًا فما شئت فاصنع

وقال بعض الزهاد: يا عجبًا كيف لا تستحي من كثرة ما لا تستحي! وكيف ما تتقي من كثرة ما لا تتقي! وقال بعض الصالحين: لله عزّ وجلّ عقوبات في القلوب، وما عاقب قلبًا بأشدّ من سلب الحياء، لم يكن معه مانع يمنعه من قبيح ما يأتيه، ولا رادع يردعه عن مكروه يدخل نفسه فيه. وفي ذلك يقول صالح بن عبد القدوس:

إذا قلّ ماء الوجه قلّ حياؤه ولا خير في وجه إذا قلّ ماؤه

حياؤك فاحفظه عليك فإنما يدلّ على فعل الكريم حياؤه

فالحياء كلّ حلة جمال، وحلية بهاء، وهيبته تدلّ على نزاهة النفس، وعلو الهمة، وبُعد الصبّيت، ولين الجانب، وكرم الخلال، وجميع خصال البرّ، يغضي صاحبه جلالاً، ويعرض احتمالاً، كما قال الفرزدق:

يغضي حياءً ويغضي من مهابته فما يكلم إلا حين يتسّم

فهو إن رأى خيراً قبله وتلقاه، وإن أبصر شراً تكفنه وتحاماه، وسارع إلى ما يشيد في الدنيا عليها، ويمهد في الآخرة عقباه، كما قال بعض الشعراء:

لقاء الحَيِّ حياءُ القلوب وأنس النفوس وبرء الوجيب
إذا سمع الخير أصغى له وإن قيل ما لم يجب لا يجيب
فمن كُسي جلباب الحياء، تسامى في مراتب السناء، وأحرز سوابق العلاء. جعلنا
الله من حسن أوصافه، وجمع أصنافه، بفضله وطوّله.

فصل

في المروءة

المروءة جامعة لأشتات المبرّات، جالبة لأسباب المرّات، دالة على كرم الأعراق، باعثة على مكارم الأخلاق، ناظمة لقلائد الفوائد، عاقلة لسواد^(١) المحامد. حدّها: رَعِي مساعي البرّ، ورفع دواعي الشرّ، والطهارة عن جميع الأدناس، والتخلّص من عوارض الالتباس، حتى لا يتعلّق بحاملها لوم، ولا يلحق به ذمّ. وما من شيء يحمل على صلاح الدنيا والدين، ويبعث على شرف المسات والمحياء، إلا وهو داخل تحت المروءة، مرتبط بأحكامها، منخرط في سلك نظامها.

وهي في ابن آدم على قسمين: القسم الأوّل في نفسه، والقسم الثاني في غيره. فأما الذي هو في نفسه: فالمحافظة على جميع أحوال التشرع، والتزام حدود التديّن والتورّع، كاجتناب المحارم، والتعقّف عن جميع المآثم، مع لين الجانب، وحسن الخلق، وما استضاف إلى ذلك وما تفرع منه.

(١) م: لسواد .

وأما الذي هو في غيره: فبذل النصيحة، وأداء الأمانة، وبذل المعروف، وكفّ اليد واللسان، وكتّم السر، وقبول العذر، وبذل الشفاعة، وما أشبه ذلك.
فاذا أحرز الإنسان هذين النوعين في نفسه وغيره، فقد حوى سبق المروءة، وأخذ بطريقي الفضل.

وقيل لبعض الحكماء: ما المروءة؟ فقال: طهارة البدن، والفعل الحسن. فهذا في نفسه وفي غيره.

وقال رسول الله ﷺ: "مَنْ عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته".
وقال عليه السلام: "إن الله يحبّ معالي الأمور وأشرفها، ويكره سفاسفها".

وقال بعض الحكماء: مَنْ سلك المروءة سبيلاً، أصاب إلى كلّ خير دليلاً. وقال أيضاً لبعض أصحابه: أشعر التقى قلبك، وألزم المروءة نفسك، تحمّد غدك وأمسك.
وسئل بعض الحكماء: أي الخلال أجمع للخير، وأبعد عن الشرّ، وأحمد للعقبى؟ قال: الجنوح إلى التقوى، والتحمّز إلى فئة المروءة. ومن كلام بعض الصالحين: ليس بعد تقوى الله في السر والعلانية معزة، ولا بعد التعلّق بأطراف المروءة مكرمة، فالتمس العزّ بالطاعة، وأتمس الغنى بالقناعة. وقال بعض العلماء: اتّق مصارع الدنيا بالتمسك بحبل المروءة، واتّق مصارع الأخرى بالتعلّق بحبل التقوى تفزّ بخير الدارين، وتحلّ أرفع المنزلتين، إن شاء الله. وقال أفنون التّغليبي^(١):

لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي إذا هولم يجعل تُقى الله واقياً

(١) م: التّغليبي، والأصح ما أثبتناه. وهو صُرَيْم بن مَعْشَر بن ذهل من تَغْلِب، لُقّب بأفنون لقوله: إن للشبان أفنوناً. الزركلي، الأعلام، ج ٣، ص ٢٠٤، وقد أورد هذا البيت الثعالبي بشئ من الاختلاف. لباب الآداب، ص ٢٧٥.

وقال رجل من الحكماء: إذا طلب رجلان أمرًا ظفر به أعظمها مروءة. وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: رُفِعَ رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في جرم اقترفه، فأراد معاقبته، فأخبر أن له مروءة، فقال: استوهبوه من صاحبه.

فصل

وأَسباب المروءة إنما هي مرتبطة بشرف النفس وعلوَّ الهمة إذا اجتمعوا ولم يفترقا، فإن مَنْ علت همته وتواضعت نفسه، طلب ما لا يستوجبه، وتعدَّى إلى ما لا يستحقُّه، فلمْ تتم له المروءة. ومن صغرت همته وكبرت نفسه، قصر عما يستحقُّه، وترك ما يستوجبه، فنقصت مروءته، فإن لكلَّ وجه من هاتين الحالتين حظًّا من الذمِّ، ونصيبًا من اللُّوم، ومن تعلَّق به لُوم، أو نيظ به ذمٌّ فليس بداخل في حال من أحوال المروءة.

وقال بعض الحكماء: المروءة سجيةٌ جُبلت عليها النفوس الزكية، وشيمة طبعَت عليها الهمم العلية، وضعفت عنها الطباع الدنية، فلمْ تطق حمل أشراتها السنية. وقال غيره: لا يدرك المروءة إلا من حوى خصالها، وجمع خلاها. وفي ذلك يقول الحصين الرقاشي:

إن المروءة ليس يدركها امرؤٌ ورث المكارم عن أبٍ فأضاعها

أمرته نفسه بالدناءة والخناس ونهته عن سبل العلافأطاعها

ولها وجوه وآداب، لا يحصرها عدُّ ولا حساب، وقلَّما اجتمعت شروطها قط في إنسان، ولا اكتملت وجوهها في بشر. فإن كان، ففي الأنبياء والأولياء صلوات الله عليهم أجمعين دون سائرهم، وإنما الناس فيها على مراتب بقدر ما أحرز كلَّ واحد منهم من خصالها، واحتوى عليه من محمود خلاها.

حُكي أنه قال معاوية لابن عمر: ما المروءة؟ قال: تقوى الله، وصلَّة الرحم. وقال للمغيرة: ما المروءة؟ قال: العفة عما حرم الله، والحرفة فيما أجلَّ الله. وقال ليزيد: ما

المروءة؟ قال: الصبر على البلوى، والشكر على النعمى، والعفو عند المقدرة. فقال له: أنت مني حقًا، وما نكب المغيرة عن القصد.

وقيل لبعض الصالحين: متى تجتمع للمرء أسباب المروءة؟ قال: إذا اجتمعت فيه خمس خصال: إذا اتقى الله ولم يتق الناس. وتلا: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضَّلْنَا لَمْ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ﴾ [سورة آل عمران، من الآية ١٧٣ إلى ١٧٤]؛ وإذا صبر على النوائب. وتلا: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [سورة القصص، من الآية ٥٤]؛ وإذا شكر على النعمة. وتلا: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [سورة النمل، من الآية ٤٠]؛ وإذا أثر بالمعروف على نفسه. وتلا: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الحشر، من الآية ٩]؛ وإذا بذل الشفاعة. وتلا: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [سورة النساء، من الآية ٨٥].

وسئل الأحنف بن قيس عن المروءة، فقال: مواساة الإخوان وصدق اللسان، وذكر الله تعالى في كل مكان. وقيل له أيضًا: ما المروءة؟ فقال: العفة والحرفة. وقال بعض الحكماء: يا بني، لا تفارق الصبر فتعظم عليك البلوى، ولا تفارق المروءة فتشمت بك الأعداء. وقال بعض الشعراء في ذلك:

مَن فارق الصبر والمروءة أمكن من نفسه عدوَّة

ومحضر المرء في أخيه دل على طيبة الأبوة

وقال ابن عبد الصمد: ما رأيت أجمع لمعاني السيادة، ولا أجدر بالكرامة والسعادة، ممن جعل المروءة عماده، والتقى زاده. وقال أبو هريرة: المروءة في تقوى الله، وإصلاح الصنعة، والغذاء والعشاء بالأفنية. وقال أنوشروان لابنه: أكمل الناس

مروءة من حسن دينه، ووصل رحمه، وأكرم إخوانه. وقال محمود بن عمير: نعم العون
 على المروءة اليسار. وفي الحكم المنثورة: لا مروءة لمقل. وقال أحيحة بن الجلاح:
 رزقتُ لَبًّا ولم أرزق مروءته وما المروءة إلا كثرة المالِ
 إذا أردت مساماة مؤخرني عما ينوّه باسمي رقة الحالِ
 وأنشدوا للأحنف:

فلو أنما مثير به مالٍ كثير لجُدت وكنت به واصلا
 فإن المروءة لا تُستطاع إذا لم يكن مالها فاضلا

وقيل لبعض الحكماء: أتمنى المال وأنت حكيم؟! قال: لأن أموت وأترك
 لأعدائي مالا خير من أن أحتاج إلى إخواني في حياتي؛ فإن الحاجة تذهب بالمروءة، ولا
 توجد سبيلا إلى السيادة. وقد قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص: "إنك أن تذر ورثتك
 أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفّفون الناس" الحديث. وقيل لأعرابي: ما المروءة
 عندكم؟ قال: نائل مبدول، وبشر مقبول، وطعام مأكول.

فصل

ولا عذر لذي مروءة - مع تمكن الثروة، وظهور القدرة - في التقصير عن أهله
 وإخوانه وجيرانه، فإنهم إذا احتاجوا إليه كانوا حتماً أضياف مكارمه، ووفود مروءته،
 فكما لا يجمل به ترك أضيافه للسؤال، ولا يليق به تمكينهم من الطلب، كذلك لا يصلح
 به الإخلال بهم، والتقصير عنهم مع القدرة عليهم، فإذا عمّ إفضاله الصاحب
 والنسيب، وشمل إحسانه السارح والقريب، تجاوز حدّ المروءة والفتوة إلى حدّ النفاسة
 والرياسة، كما قال بعض الشعراء:

إذا ما المرء بالغ في النوال تجاوز قَدْرَهُ رتب المعالي
 وآثر كل ذي ودّ وقربى فأصبح حائراً سبق الكمالِ

فصل في حسن الخلق

حسن الأخلاق أصل من علامات الرضا، وجميل الظنّ بالله تعالى في جميع ما
قضى من الأحوال، وما زال صاحبه يستميل بحسن شيمته النفوس، ويخفّ موقعه
وموضعه على الجلوس، سيماء البشر، وهجّيراه^(١) الصبر، فرؤيته غنم، وصحبته سلّم،
وجواره أمان، ولقاؤه مسرة وإحسان، ومن حسنت أخلاقه درّت أرزاقه، وعظم نفاقه.
وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "أول ما يوضع في الميزان يوم القيامة الخلق
الحسن". وقال معاذ بن جبل: كان من آخر ما أوصاني به رسول الله ﷺ حين وضعت
رجلي في الغرز أنه قال: "حسن خلقك للناس يا معاذ بن جبل". وقال عليه السلام:
"حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار"، ووصف به رسول
الله ﷺ أهل الجنة فقال: "أهل الجنة: كل هينّ لين سهل طلق"، وقال عليه السلام: "إن
العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم"، وقال صلوات الله وسلامه عليه: "إن
الله اختار لكم الإسلام فأكرموه بحسن الخلق والسخاء، فإنه لا يكمل إلا بهما"، وقال
عليه السلام: "أحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً، الموطون أكنافاً، الذين يألفون
ويؤلفون"، وقال ﷺ: "ما حسن الله خلق امرئٍ وخلقته فتطعمه النار".

وقيل في بعض الحكم: الأخلاق الصالحة، ثمرة العقول الراجحة. وقالت أعرابية
لابنها: يا بني، عليك بحسن الخلق، وجميل العشرة، ولطف الواقعة، ولين الجانب،

(١) دأبه ودَيْدَنُه . لسان العرب (هجر) .

والاحتمال للصاحب، وكفّ الأذى، والمقاسمة في الغذاء، فإنك تستميل القلوب،
وتنال كلّ مطلوب، ويحفظك علامّ الغيوب.

ومن كلام بعض العلماء: البِشْر مفتاح المحبة، وحسن الخلق يورث المودّة. ومن
الأمثال: حسن الأخلاق أنفس الأعراق. وقال بعضهم: الحسن الخلق من نفسه في
راحة، والناس منه في أمن وسلامة. والسيء الخلق من نفسه في تعب، والناس منه في
عناء وجهد وبلاء. والله درّ القائل:

إذا ساء خُلِق المرء يضعف عيشه وضاعت عليه في الأمور مذاهبة
وذلّ وإن كان العزيز ولم تنل مراتب أهل المكرمات مراتب
وشاهد من أخلاقه ما يملّه على مثلها أصحابه وأقاربه
وما حمد الناس امرأ ساء خُلِقه ولكنّ حسن الخُلُق يُحمد صاحبه

وقيل في بعض الحكم: مَنْ لم تحسن خلّاقه، لم تؤمن بوائقه. وقال سقراط: حسن
الخلق يمنع من ارتكاب القبائح، فإنه لا يشاكلها. ومن كلامه أيضًا: حسن الخلائق
يورث المحبة، ويؤكد المودّة، ويقود إلى الفعل الحسن. وقال أرسطاطاليس: حسن
الخلق حلية النفس، كما أن حسن الخلقة حلية الجسد، ومن قبحت صورته ساء خلقه.
وقال سلّم بن عمرو:

لا تسأل المرء عن خلّاقه في وجهه شاهد من الخير
ومن أقوالهم: من حق الحسن الخلق أن تُغتفر ذنوبه، وتُقَال عشرته. وقال بعض
الحكماء: مَنْ حَسُن خلقه، عُرف سبقه، واتّسع رزقه، ومَنْ ساء خلقه ضاع حقه،
وضاق رزقه. وقال الفُضَيْل بن عياض: لأن أصحاب فاجرًا حسن الخلق، أحبّ إليّ من

أن أصحاب عابدًا سىء الخلق. وقال رجلٌ لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أوصني. قال له: "أتق الله حيث كنت". قال: زدني. قال: "أتبع السيئة الحسنة". قال: زدني. قال: "خالط الناس بحسن الخلق". وقال يحيى بن معاذ: مكتوب في الإنجيل: سعة الأخلاق كنوز الأرزاق. ومن بعض الحكم: من حسن خلقه أنهج إلى الخيرات طرّقه وأدرك في المكرمات من سبقه. ومن أمثالهم: البشر عند اللقاء، يقي مودة الأصدقاء. ومن الحكم المنثورة: حسن الاستبشار، من علامات الأحرار. وقيل: من حسن خلقه، وجب حقّه. وقيل لبعض الحكماء: من أفضل الناس؟ قال: من قدّم بشره، وبذل برّه، ومنع ضرّه. وقال بعضهم في ذلك:

وإذا رأيت شقيقه وصديقه لم تدبر أيهما أخو الأرحام
مستبشراً يلقى الوفود ببشره طلق اليدين مهذب الخدام

وقيل لبعض الأدباء: بم يُنال السؤدد؟ قال: ببذل المعروف، وإظهار الخلق المألوف. وقيل لبعض العلماء: متى يبلغ الرجل درجة الكمال؟ قال: إذا اتقى من خلقه، وجاد بما رزقه، واختار من القول أصدقه، وحسّن في كل الأحوال خلقه، فذاك الذي أنهج إلى الكمال طرّقه. ومما قلت في هذا المعنى:

إذا قدّم المرء تقوى الإله ولاذ بحبّل الرجا واعتلق
وأصبح يلقى بطيب السلام ولين الكلام وحسن الخلق
وجاد بما ملكه كفه سماحا وإن قال قولاً صدق
فذاك الذي حاز سبق العلى وجمع من شملها ما افترق

وقال أنس بن مالك: إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد، وإن العبد ليبلغ بسوء الخلق أسفل درك في النار وهو عابد. وقال بعض الزهاد:

حسن الخلق يقود إلى الجنة، وإلى الأعمال الحسنة. وسوء الخلق يقود إلى النار، وإلى الأعمال السيئة. وقيل في بعض الحكم: مَنْ حسنت خلائقه وجبت محبته، ومالت القلوب إليه. وَمَنْ ساءت خلائقه تعينت بغضته، وحررت النفوس عليه. وقال بعض الحكماء: حسن الخلق ينجي صاحبه من المهالك، وسوء الخلق يطرح صاحبه في المتالف. ومن كلامهم: سوء الخلق يفسد العمل، كما يفسد الصبر العسل. ومن أمثالهم: أطيب الناس أعرافًا، أحسنهم أخلاقًا. وقالوا: الخرق آفة الخلق. جعلنا الله ممن حسنت خلائقه، وحمدت طرائقه.

فصل

في صلة الرحم

صلة الرحم سبب واجب، يُصطفى به الأقارب، وتعزّ به الجوانب، وتعلو به المراتب، وكفى به شيمة محمودة، تهدي حلة مودودة، ولم تزل في أهل الفضل موجودة، ومن أهل الجهل مردودة، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ يعني الرحم ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أن يقطعوها ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [سورة الرعد، الآية ٢١] في السؤال عنها والعقاب عليها.

رُوي أن الله عزّ وجلّ يقول: أنا الرحمن، وهي الرحم، شققت لها اسمًا من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته. وقال رسول الله ﷺ: "إن الجنة يوجد ريجها من مسيرة خمسمئة عام، ولا يجيد ريجها عاق ولا قاطع رحم"، وقال عليه السلام: "ما من شيء أطبع الله فيه بأعجل من صلة الرحم"، وقال صلوات الله عليه وسلامه: "صلة الرحم تزيد في العمر". وسأل معاوية عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن

المروءة، فقال: هي تقوى الله وصلة الرحم. وقيل: ثلاث متعلقات بالعرش ما لم يوف بها، تقول النعمة: يا رب، كُفرتُ. وتقول الأمانة: يا رب، ضُيِّعت. وتقول الرحم: يا رب، قُطعت. ورُوي عن الحسن أنه قال: مَنْ سَرَّه السَّعَة فِي الرِّزْقِ فَلْيَصِلِ الرِّحْمَ، وَإِنْ لَهَا لِسَانًا يَنْطِقُ يَنْادِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَحْتَ الْعَرْشِ: اللَّهُمَّ صَلِّ مَنْ وَصَلَنِي، وَاقْطَعْ مَنْ قَطَعَنِي. وَقَالَ رَجُلٌ لِابْنِهِ فِي بَعْضِ وَصَايَاهُ: يَا بَنِيَّ، لَا تَقْطَعْ الْقَرِيبَ وَإِنْ أَسَاءَ؛ فَإِنَّ الْمَرْءَ لَا يَأْكُلُ لَحْمَهُ وَإِنْ جَاعَ.

ومن الحكم المشورة: صلوا الأرحام بالحقوق، ولا تجفوها بالعقوق. وقال أئثم بن صيفي: أوصيكم بتقوى الله وطاعته، وصلة الرحم، فإنه لا يبيد مع ذلك فرع، وأنهاكم عن معصية الله، وقطع الرحم، فإنه لا يثبت معها أصل. وقال ابن المعتز:

ولا يستوي في الحكم عبدان: واصلٌ وعبدٌ لأرحام القرباة قاطعٌ
وقال غيره:

إني ليمنعني من قطع ذي رحم رأي أصيل وعقل غير ذي وصم
إن لان لنسبٌ وإن دبَّت عقاربه ملأت كفيه من صفح ومن كرم

وقال بعض العلماء: صلة الرحم تعمّر الديار، وتطيل الإعمار، وتكثر النسب^(١)، وتشرف النسب. وعن كعب الأخبار قال: مكتوب في التوراة: ابن آدم، اتق ربك، وابرر والدَيْك، وصل رحمك؛ يسر الله عليك يسرك، ويصرف عنك عسرك، ويمدّ لك في عمرك.

ورُوي أنه لما نزلت هذه الآية ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ لسورة الأعراف، الآية ١٩٩ قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام: "ما هذا؟" قال: لا

(١) المال . لسان العرب (نشب) .

أعرف حتى أسأل العالم. وذهب ثم عاد، فقال: يا محمد إن ربك أمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك.

ومن أمثال الحكماء: مواصلة الرحم، أرفع مراتب الكرم. وقيل لبعض الحكماء: ما المروءة؟ قال: رحم موصولة، وحسنات مبذولة، وهفوات محمولة، وأعدار مقبولة. وقالوا: مَنْ وصل رَحِمَهُ، واصل كَرَمَهُ، ورفع في المآثر عِلْمَهُ. ومن كلامهم: مواصلة الأقارب، تعلي المراتب، وتنمي المواهب، وتكثر الحبايب، وتؤدي إلى حسن العواقب. وفي بعض الوصايا: واصلوا الإنعام، وصلوا الأرحام، فيها تُنتظر الرحمة، وتُستدام النعمة، وتُستوجب الرحمة، وتعمّ العصمة، وتُستحكم الوداد، ويتمكن الإسعاد، وتُستمال القلوب، وتُلتئم الشعوب، وتُغتفر الذنوب، ويكثر التواصل، وتؤمن الغوائل، وتصفو الضمائر، وتحسن السرائر. ولا تقطعوها، فبقطعها تخرب الديار، ويكثر البوار، وتقل الأنصار، وتتعجل العقوبة في الدنيا من العزيز الجبار.

رُوي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من ذنب أجدر أن تُعجل لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما ينتظر في الآخرة، من البغي، وقطيعة الرحم"، ورُوي أن طلحة بن البراء لقي رسول الله ﷺ فجعل يلصق به ويقبل قدميه ويقول: يا رسول الله، مرني بما أحببت فلا أعصي لك أمرًا. فتعجب رسول الله ﷺ وطلحة غلام، فقال له: "اذهب فاقتل أباك"، فخرج موليًا ليفعل، فدعاه النبي ﷺ وقال: "لا، أقبل فإنني لم أبعث بقطيعة الرحم"، وإنما أراد ﷺ اختباره لمطاوعته. ومن حسن كلام الحكماء في ذلك: مَنْ وصل رحمه وصله الله ورحمه، ومَنْ قطعها قطعته الله وحرمه.

ولم تزل صلة الرحم جامعة لأشتات الصلاح، مؤذنة بأسباب النجاح، فإنها عوارف توضع مواضعها، وصدقات لا تتعدى مواقعها، ومودات تتأكد معانيها، وغرة تشيد مبانيها، وعزة تجمع شمل التضافر، وألفة توجب الحماية والتظاهر، وقلوب تتآلف وتتعارف، ونفوس تتناصف ولا تتخالف، مع ما قيض الله لوصلها من السعة قي الرزق، والفسحة في العمر، وتيسير اليسير، وصرف العسير، وتعجيل الثواب، وتحسين المآب. جعلنا الله ممن وصلها في ذاته، وحافظ عليها لوجهه ومرضاته.

فصل

في كتمان السر

كتمان الأسرار من شيم الأحرار، وشيائل الأبرار، وهو أبعد الأفعال من الضرر، وأحق الخصال بالظفر، يدل على وفور العقل، وكثرة الصبر، وكمال المروءة.

رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "استعينوا على نجاح حوائجكم بالكتمان؛ فإن كل ذي نعمة محسود". وقال المهلب بن أبي صفرة: أدنى الأخلاق الشريفة كتمان السر، وأعلها نسيان ما أسر به إليه. ومن كلام الحكماء: كتمان السر يوجب السلامة، وإفشاؤه يعقب الندامة. وقال بعضهم: مَنْ أودع سرّه حازمًا فقد ذلّ، ومَنْ أودعه جاهلاً فقد ضيّع وخادع، ومَنْ انفرد بسرّه فقد حاز الغنيمة الباردة، ومَنْ تناساه فقد استنجز الفائدة.

ومن الحكم المنثورة: من شخ على سرّه، فقد أعان على برّه. وقال علي رضي الله عنه: سرّك أسير، فإذا فضحته صرت أسيره. وكان رضي الله عنه كثيرًا ما ينشد - وقد نُسب إليه -:

ولا تفش سرّك إلا إليك فإن لكل نصيحٍ نصيحا
وإني رأيت غواة الرجا ل لا يتركون أديما صحيفا
وقال عمرو بن العاص: إذا أنا أفشيت سرّي إلى صديقي فأذاعه فهو في حلّ. قيل:
وكيف ذلك؟ قال: لأنني أنا كنت أحق بصيانتته منه، وكيف يُلام مستودع سرّا إذا ضاق
صدر مستودعه؟! وفي ذلك يقول المتنبي:

إذا المرء أفشى سرّه بلسانه ولام عليه غيره فهو أحمق
إذا ضاق صدر المرء عن حمل سرّه فصدر الذي يُستودع السرّ أضيق
ومن أحسن ما قيل:

ولا تفشين سرّا إلى ذي نيمية فذاك إذن ذنبٌ برأسك يُعصبُ
ولا تضعن السرّ عند مضيق فذو السرّ ممن ضيّع السرّ أذنبُ
وقال سقراط: كتمان سرّ غيرك متعين عليك، وكتمان سرّك سبب صيانتك،
والمشكور من كتم سرّا لم يُستكتمته، ومن خان في سرّ نفسه فهو في غيره أخون. ومن
كلام بعض الحكماء: لا تودع سرّك إلا حافظاً، فإن قلوب الأحرار حصون الأسرار.
حكى أنه أسرّ رجل إلى بعض إخوانه حديثاً، فلما فرغ منه قال: أفهمت؟ قال: بل
جهلت. قال: أحفظت؟ قال: بل نسيت. وقيل لبعض الأعراب: كيف كتمانك للسرّ؟
قال: أجدد للمخبر، وأحلف للمستخبر. وكتب رجل إلى ابنه: يا بني، من استودعك
سرّه فقد ملكك أمره، فاجعل صدرك قبره، تستوجب حمده وشكره.

وقيل لبعض الحكماء: أي الإخوان خير؟ قال: من صدقك بالإحسان، وصان
سرّك بالكتمان. قيل: فأيهم شرّ؟ قال: البذيء اللسان، الكثير الامتنان، الواشي بسرّك في
كل مكان. وفي بعض الحكم: من أقوى دلائل العقل معرفة الأقدار، وكتمان الأسرار.

وذكر العتبي أن معاوية بن أبي سفيان أسرّ إلى عثمان بن أبي عنبسة سرّاً، فجاء عثمان إلى أبيه وقال: يا أباه، إن أمير المؤمنين أسرّ إليّ حديثاً أفأخبرك به؟ قال: لا؛ لأن من كتم سرّه كان الخيار إليه، ومن أفضى سرّه كان الخيار عليه، فلا تجعل نفسك مملوكاً بعد أن كنت مالكاً. قال: ويدخل هذا بين الرجل وأبيه؟ قال: لا، ولكنني أكره أن تعود لسانك إفشاء السرّ. قال عثمان: فلما رجعت إلى معاوية أخبرته بذلك، فقال: أعتقك والله من رق الخطأ.

وتكلّم الناس في قول الشاعر:

وقد أجود وما مالي بذني قنع وأكتم السرّ فيه ضربة العنق
 قيل: إنه أراد به ضرب العنق في كتمان. وهذا هو المعنى البليغ، والغرض الرفيع؛ لأن السرّ إذا كان في كتمان ضربة العنق فكتمان فرض لازم، والمحافظة عليه سبب متعيّن جازم، لما فيه من توقع هذا المحذور. وإنما المعنى اللطيف والمقصد الشريف البعيد المرمى، البالغ من فضل الكتمان إلى الغاية القصوى، أن تكتم السرّ فلا تخبر به صديقك؛ وذلك لأن في كتمان السرّ عن الصديق نظر واجب، يؤمن الجوانب ويحسن العواقب، وفي ذلك يقول الشاعر:

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة

إن الصديق إذا تغيّر — ركان أعلم بالضرّة

ومن كلام بعض الحكماء: انفرذ بسرّك، ولا تودعه حازماً فتذلّ، ولا جاهلاً فيخون، فتكون قد أخذت في أمرك بطرفي الحزم.

وقال معاوية بن أبي سفيان: لما استعملني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، دخلت على أبي سفيان، فقال لي: يا بنيّ، إن هذا الرهط من قريش سبقونا وتأخرنا، فرفعهم

سبقهم وقصر بنا تأخرنا، فصاروا قادة وصرنا أتباعًا، وأرى هذا الرجل قد استعملك، فاحفظ مني ثلاثًا: لا يجربنّ عليك كذبًا، ولا تفشّ له سرًّا، ولا تطوِّ عنه نصيحة وإن استقلتها. قال: ثم دخلت عليّ أمي هند، فقالت لي: يا بنيّ، إنه قلّمَا ولدت الأحرار مثلك، وقد استعملك هذا الرجل، فاعمل بها يوافقه، أحببت ذلك أم كرهت، فإنك تجري إلى أمد لو قد بلغته لنفسك عليه. فعجبتُ لانفاقهما في المعنى وإن كانا قد اختلفا في اللفظ. وأعجب من ذلك ما توّسمت هند في معاوية، فما أخطأت فراستها، ولا خاب قياسها ومراسها.

ولبعض الشعراء:

لا يحفظ السرّ إلا كلّ ذي كرم والسرّ عند لثام الناس مبدول
وقال بعض الأدباء: المشكور من كتم سرًّا لم يُستكتمه، فأما من استكتم سرًّا فكتمانه حتم عليه واجب. ومن كلام بعض الحكماء: حفظك لسرّك أولى من حفظ غيرك له، ومن كتم سرًّا على أخيه كان موضعًا لودائع القلوب. وفي الحكم المنثورة: كن جوادًا بالمال في موضع الحق، بخيلًا بالأسرار على جميع الخلق. ومن أمثال الحكماء: سرّك من دمك، فلا يخرج من تحت أدمك. وما تحلّى ذو فضل وبرّ وعلم وخير بأحسن من كتان السرّ؛ فإن فيه حفظ ثلاثة: حفظ نفسك، وحفظ مستودعه، وحفظ من استودعه السرّ. جعلنا الله من حفظ العهود، وحافظ على الأسرار، وجرى مع أهل الفضل والخير في مضمار، وسارع إلى ما يرضي العزيز الجبار، بمنّه وكرمه ورحمته.

الباب الثاني عشر

يشتمل على خمسة فصول لا يرتضيها الشرع ،

وقد ورد منها المنع، وهي :

الحسد ، والغيبة ، والنميمة ، والرياء ، والعجب

فصل

في الحسد

الحسد - عصمك الله - داء دويّ، وعرض خبيث دنيّ، يدلّ على فساد الدين، وقلة اليقين . وما زال صاحبه كدير النفس، نكد العيش، قليل الأنس، قد فارق القناعة، وواصل الطماعة، فهو حليف هموم وغموم، ظالم في زيّ ظاهره . وكذلك قال بُرْزُبْجَهْرِيّ: ما رأيت أشبه بالمظلوم من الحاسد . وأي خير عند من جُبلت على الحقد طباعه، وحنيت على الغلّ أضلاعه؟ وقد أمرنا الله جلّ جلاله بالاستعاذة من شرّه، فقال عزّ من قائل: ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [سورة الفلق، الآية 5] وقال سبحانه: ﴿ أَمْ تَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [سورة النساء، من الآية 54]، وذكره كثير في كتابه العزيز . وهو أول ذنب عُصي الله به في الأرض، حسد إبليس آدم عليه السلام فسعى حتى أخرجته من جنة الخلد، وحسد ابن آدم أخاه فبغى عليه فقتله، وبالحسد كَفَّرَ من كفر من صناديد قريش بمحمد ﷺ . روي عنه ﷺ أنه قال: "دبّ إليكم داء الأمم قبلكم: البغضاء والحسد" . وقال عليه السلام: "إن الحسد ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب" .

وقال عبد الله بن المعتز: الحاسد يغتاز على مَنْ لا ذنب له، ويبخل بما لا يملكه، ويطلب ما لا يجده. ومن أمثال الحكماء: الحسد داء الجسد. وقال الأحنف بن قيس: لا راحة لحسود. ومن أقوال الحكماء: الحسد يبدي نقص الحسود، ويدل على كمال المحسود، وكفى بالانتقام منه أنه يتقطع حسرة، ومحسوده دائم المسرة، يغمّ عند فرحه، ويجزن أوان سروره، وهو مع لؤم طباعه، وخساسة نفسه واتضاعه، ينبّه على فضل غيره، ويظهر ما خفي من خيره. وفي ذلك يقول حبيب الطائي:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
وقال آخر:

لا بآء أعداؤك بل خلدوا حتى يروا فيك الذي يكمد
ولا خلاك الدهر من حاسد فإنها الفاضل من يحسد
وقال غيره:

محسدون وشر الناس منزلة من عاش في الناس يوماً غير محسود

فصل

والحسد أصل كل عداوة، ورأس كل بلية، وأس كل خطيئة، وسبب كل ملامة، وجالب كل ندامة. وأعظم نتائجه البغي، وهو أكبر دواعيه، وأشد عواديته، وأخبث ثمراته، وأسرع صرعته، وكل من كان معه هلك وأهلك، واستوجب الخزي أية سلك، لما في البغي من انتهاك المحارم، واستباحة الأموال، والتغريب بالمهج، والوصول إلى البشرات، والجمع لأشتات المضرات؛ لأن الحسد إذا لم يكن معه بغي فلإنما هو عذاب ينزل بصاحبه، وذكر يختص بجانبه.

وقال بعض الحكماء: تجنبوا الحسد والبغي؛ فإن عاقبتها مكروهة، ومخرجهما واحد. ومن أحسن ما قالت فيه الحكماء: الحسد أعدل آفات الشر؛ لأنه إنما ينزل عذابه بصاحبه. ومن بعض كلام الإمام علي رضي الله عنه: لا راحة لحسود، ولا إخاء لملول. ورؤي أن رسول الله ﷺ قال: "ثلاثة لا يسلم منها أحد: الحسد والطيرة والظن، فإذا حسد أحدكم فلا يبيغ، وإذا تطير فلا يرجع، وإذا ظن فلا يحقق". وقال عليه السلام: "لو بغى جبل على جبل لجعل الباغي منهما دكاً". أخذه بعض الشعراء فقال:

ولو بغى جبل يوماً على جبل هُد منه أعاليه وأسفله

وقال رسول الله ﷺ: "لا يبغي الا ولد بغي".

وفي بعض الحكم: السعاية أذم الخلائق، وإن كانت من صادق. وقال بعض العلماء: قبول السعي شر من السعي؛ لأن السعي دلالة، والقبول إجازة. والساعي إن كان صادقاً فقد كشف العورة، وانتهك الحرمه، واستحل ما حرم، ففرق في المأثم، وإن كان كاذباً فقد أفرط في البهتان، وركب لج العصيان، وكفى بالحسد خطة خسف، كريمة الخبر والوصف، أن كان البغي من نتائجه.

والباغي قلما يسلم، والله يقول، عز من قائل: ﴿يَتَأَيَّمُ النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [سورة يونس، من الآية ٢٣]، فمن حسد وبغى، فقد جدع مارن^(١) أنفه بكفه، وسعى بسيفه في حتفه ﴿وَلَا تَحْقِقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [سورة فاطر، من الآية ٤٣].

حكى بكر بن عبد الله المزني: أن رجلاً كان يقف على رأس بعض الملوك ويقول: أحسن إلى المحسن بإحسانه، والمسيء ستكفيك مساءته. وكان الملك يحسن إليه، فحسده رجل من أصحابه على مقامه، وتمنى أن يكون مكانه في مقاله، فبغى عليه إلى

(١) المارن: ما لان من الأنف منحدرًا عن العظم وفضل عن القصة. لسان العرب (مرن).

الملك أشد البغي، وسعى في حثفه أبلغ السعي، حتى تغير عليه الملك . وكان لا يكتب بخط يده إلا في صلة أو في جائزة، فكتب بخطه إلى بعض عماله لشدة حنقه: إذا وصلك كتابي هذا فاذبح حامله، واسلخه، واحش جلدته تبنًا، وابعث به إليّ . ودفعه إلى ذلك القائم على رأسه، فأخذه وخرج به، فلقية الساعي عليه فقال له: ما هذا؟ قال: خط يد الملك إلى عامله فلان. فقال له: هبه لي بفضلك، وأحيني به؛ فإنني محتاج إليه، وأنت غني عنه. فرق له ودفعه إليه، فأخذه وذهب به فرحًا، فلما قرأه العامل قال: أتعرف ما في كتابك؟ قال: صلة الأمير المعلومة من خط يده. قال: بل أمرني فيه أن أذبحك وأحشو جلدك تبنًا وأرسل به إليه. فقال: أتق الله في دمي؛ فإن الكتاب لم يكن لي، فراجع الملك في أمري. قال: ليس لكتاب الملك مراجعة إلا إنفاذ الأمر لا سيما إذا كان بخط يده. وأمر بإنفاذ ما في الكتاب. قال: وجاء ذلك الرجل على عادته، وقام على رأس الملك، وجعل يقول: أحسن إلى المحسن بإحسانه والمسيء ستكفيك مساءته. فلما رآه الملك قال: ما فعل الكتاب الذي كتبت لك بخط يدي؟ قال له: لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له. قال له الملك: إنه ذكر لي عنك أمر كذا وسعى عليك بوجه كذا. فأوضح الرجل براءته، وظهر عنده صدقه، وجيء بجلد الباغي محشورًا تبنًا، فقال له الملك: صدقتَ وصدقَت موعظتك، قم كما كنت تقوم، وقل كما كنت تقول .

ومما قال بعض الشعراء في مثله:

| | |
|--------------------------|------------------------|
| أبها الأمل ما ليس له | ربما غرّ سفيها أملنة |
| ربّ من بات يمني نفسه | حال من دون مناه أجلنة |
| وفتى بغير في حاجته | عجلاً أعقب ريثاً عجلاً |
| والفتى المحتال فيما ناله | ربما ضاقت عليه حيلنة |
| قل لمن مثل في أشعاره | يهلك المرء ويسعى مثلنة |
| نافس المحسن في إحسانه | فسيكفيك مسيئاً عملنة |

فصل

والحسد يجمع خصالاً مذمومة، ويقتضي أحوالاً منكراً وأسباباً مشؤومة، منها: بغض المحسود لغير سبب، والحقد عليه دون ذنب وجب. ومنها: إنكار الحق وإن ظهر، وإظهار الباطل وإن استتر. ومنها: الاعتراض للفضيحة، والتجافي عن النصيحة، والتصدّي لكل قبيحة. ومنها: الامتناع عن جميع ما عند المحسود من الخير، وإن كان مقتراً إليه حريصاً عليه، فلا يرى لشؤمه ولؤمه أن ينال من فضله، ولا أن يتعلم من علمه، ولا يرى التواضع له، وإن كان أرفع منه قدرًا في جميع الأحوال، وأعلى منه مرتبة في الشرف والجاه والمال، فهو لا يلقاه أبدًا إلا متكبرًا عليه، ولا يعامله إلا بالإساءة إليه، يبخسه في كلّ الأمور حقّه، ولا يرى أنه فوقه.

ومن كلام بعض الحكماء: حاسد النعمة لا يرضيه إلا زوالها، ولا يشفيه إلا انتقالها. وقال بعضهم: ما أسوأ حال الحاسد: يرى زوال نعمة المحسود نعمة عليه وإن لم تصل إليه، ويفرح بما يجره الدهر إليه من الخطوب، ويحزن بما يصل إليه من المحبوب، فلا يزال مغتاظًا على مَنْ لا ذنب له، متربصًا بما لا فائدة فيه. ومن كلام الشَّعْبِيّ: الحاسد منغص بما في يديّ غيره. وقال بعض الحكماء: الحسود مغموم مهموم في ذاته، مذموم ممقوت في جميع حالاته، متردّد بين خطوبه وآفاته. وقال بشار بن برد:

لا تنكرنّ على الحساد غمهمُ لا يبتني المجد إلا كلّ محسودٍ
وقال حبيب بن أوس:

اعذر حسودك فيما قد خصصت به إن العلى حسن في مثلها الحسدُ
إن يحسدوني فلني لا ألومهمُ قبلي من الناس أهل الفضل قد حُسدوا

فدَامَ لي ولهم ما بي وما بهمُ ومات أطولنا غمًا بما يجدُ
وأما ما يكون منه في العلم والخير، وظهور أحوال الطاعة والبر، فليس بحسد؛
لأن أهل الفضل لا يحسدون، إنما هي غبطة ومنافسة في الخير، وليس بعين الحسد
وحقيقته؛ لأن المؤمن يحب للمؤمن ما يحب لنفسه، والحاسد لا يحب أن يرى نعمته
لسواه. رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "المؤمن يغبط والمنافق يحسد". وقال عمرو بن
ميمون: لما رفع الله تعالى موسى عليه السلام، رأى رجلاً متعلقًا بالعرش، فقال: إن
هذا لكريم على الله. ثم سأل الله في مناجاته أن يُعلمه من هو، فقال الله عز وجل:
أعلمك من شأنه بثلاث: كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، وكان لا يعق
والديه، وكان لا يمشي بالنميمة.

فصل

في الغيبة

الغيبة -جنبك الله- أذم الأفعال مقصدًا، وأخبث الأقوال معتقدًا، وأسوأ
الأخلاق مذهبًا، وأصعب الأحوال مركبًا، تدلّ على الحسادة والبغي، وتدخل مدخل
النميمة والسَّعي، وتنبئ عن غائلة وحقد، وتكشف عن خبث طوية وعقد.

وقد قرنها الله عز وجل بأكل الميتة، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ
بِقَضُكُم بَعْضًا أَنِحِبَ أَحَدُكُم أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [سورة الحجرات،
من الآية ١٢]، وقال رسول الله ﷺ: "من ذب عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقًا على
الله أن يجرّم لحمه على النار". وروي أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ وكانتا

تغتابان الناس، فأخبر بذلك النبي ﷺ فقال: "صامتا عما أحلّ الله لهما، وأفطرتا على ما حرّم الله عليهما"، ودخلت امرأة عليه ﷺ تستفتيه، فلما قضت حاجتها وخرجت، قالت عائشة رضي الله عنها: ما أقصرها! فقال لها صلوات الله وسلامه عليه: "مهلاً يا عائشة، إياك والغيبة!"، قالت: يا رسول الله، إنما قلت ما فيها. قال: "أجل لولا ذاك لكان بهتاناً". وسئل ﷺ عن الغيبة، قال: "هي أن تقول في أخيك ما يكره، فإن كنت صادقاً فقد اغتبتّه، وإن كنت كاذباً فقد بهتته". وقال معاوية بن قرّة: لو أن رجلاً أقطع" مَرَبك فقلت: إنه أقطع؛ كنت قد اغتبتّه. فذكر ذلك لأبي إسحاق الهمداني فقال: صدق.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "ثلاثة لا غيبة فيهم: الإمام الجائر، وشارب الخمر، والمعلن بفسقه".

وذلك - والله أعلم - على سبيل الإخبار عنه، والتفرقة بين غيبة من يتكتم شأنه ويساتر، وبين من يعلن بفجوره ويجاهر؛ لأن الذي يعلن بالفجور والفسوق، ولا يستحيي من عصيان الخالق، ولا يستتر عن المخلوق فيما يأتي من الكبائر، ويظهر من المناكر، قد كشف أستاره، وأبدى عواره، فخرج من حدّ الظن إلى حد اليقين، فمثل ذلك هو المقصود. والله أعلم.

وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: إذا فسد الزمان فتحفظوا من الناس بسوء الظن. فمن الحق على كلّ مسلم أن لا يقيم عذر مغتاب وإن قال حقاً، ولا يساعده وإن قصد بغيبته صدقاً، فإن ذلك من سوء الأدب، وقلة الحفيظة، واجتناب المروءة؛ لأن المغتاب الصادق قد أظهر قبيحاً كان مستوراً، وهتك سترًا كان

(١) المقطوع اليد أو الرجل . انظر: الجاحظ، البرصان والعرجان، ص ٢٣٧ .

مسدولاً، وفضح سرّاً مكتئباً، وأحلّ أمراً محرماً، فما رعى ذمّة، ولا حفظ حرمة . وقد قيل في مرفوع الحكم: لا تبدّ من العيوب، ما ستره علام الغيوب. وهذا ينظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [سورة الحجرات، من الآية ١٢]. وقال رجل لابن سيرين: إني اغتبتك فاجعلني في حلّ. فقال: لا أحبّ أن أحلّ ما حرّم الله.

وقال بعض الحكماء: مَنْ عُرِفَ بثلاثة استوجب ثلاثاً: مَنْ عُرِفَ بالبخل استوجب الذمّ، ومَنْ عُرِفَ بالكذب استوجب المقت، ومَنْ عُرِفَ بالغيبة استوجب الخزي. أخذه بعض الشعراء فقال:

| | |
|--------------------------------|---------------------------|
| ما أقبح الشيم المخلّة بالفتى | وأشدّ منها شيمة الكذابِ |
| وأشدّ من هذا وهذا أن يُرى | لهج اللسان بغيبة الغيّابِ |
| فإذا الفتى جمع الثلاث ولم يلدُ | مما جنى في عمره بمتابِ |
| فلذاك أشأم من مشى فوق الشرى | ولو استضاف لأكرم الأحسابِ |

وفي منشور الحكم: اللثيم إذا غاب غاب، وإذا حضر اغتاب. وقال بعضهم: لا تخرج الغيبة إلا من نفس معيبة. وقال الصاحب: احذر الغيبة فهي الفسق لا رخصة فيه، إنما المغتاب كالأكل من لحم أخيه. وقال بعض الأدباء لابنه: يابني، لا تغتب وإن لم تكذب . فلئن صدقت لقد أسأت النطق، ولئن كذبت لقد جمعت أشتات الفسق. وقيل: الغيبة إدام كلاب الناس. وفي بعض الحكم: مَنْ أكل خبزه بلحوم الناس، لم يصن نفسه من الأدناس.

وقد روي عن أئمة السلف رضي الله عنهم أن الغيبة تنقض الوضوء وتفطر الصائم وتجبط الأعمال. وكان منهم من يتوضأ من الغيبة كما يتوضأ من الحدث، ومن اغتاب منهم وهو صائم قضى صيام يومه.

وَرُوي في بعض الآثار أن رسول الله ﷺ أمر جماعة بصيام يوم، ولا يفطر واحد منهم حتى يستأذن، فعند المساء أرسلت إليه امرأتان تستأذنان في الفطر، فقال للرسول: "قل لهما لم تصوما، وكيف صام من لم يزل منذ اليوم يأكل لحوم الناس، فإن كانتا صادقتين فقل لهما فلتتقيا"، فقاءت كل واحدة منهما قعباً من دم. وفي بعض ما رُوي: أن امرأة اغتابت امرأة عند رسول الله فقال لها ﷺ: "الْفِظِي الْفِظِي" فلفظت من فيها قطعة من لحم. وهذه من المعجزات الظاهرة في زمن النبوة الدالة على صدق ما جاء به ﷺ وهلى جميع النبيين والمرسلين.

فصل

في النميمة

النميمة من أكره الخلال الذميمة تدل على نفس سقيمة، وطبيعة لثيمة، مشغوفة بهتك الأستار، وإفشاء الأسرار، وإدخال الأضرار. وربما أدت إلى سفك الدماء، وانتهاك المحارم، واستباحة الأموال، ونعوذ بالله من شر الخلال.

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: شر الناس المثلث. قيل: وما المثلث؟ قيل: الساعي بالنميمة؛ فإنه يهلك نفسه، ومن سعى به، ومن سعى إليه. وقال رحمة الله عليه في قول الله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّعَٰكِلٍ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [سورة الحمزة، الآية ١] قال: هو المشاء بالنميمة بين الإخوان. وقال مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿وَأَمْرًا تُنْمِئُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ﴾ [سورة المسد، الآية ٤] قال: كانت تمشي بالنميمة. وقال الله عز من قائل: ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مُّوْهِنٍ﴾ [سورة القلم، من الآية ١٠ إلى ١١].

وَرُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لا يدخل الجنة قتات"، وفي رواية أخرى: "نمام"، والمعنى واحد، وقال عليه السلام: "ألا أخبركم بشرا ركم؟" قالوا: بلى يا

رسول الله! قال: "المشاؤون المفسدون بين الأحبة". وروي عنه ﷺ أنه قال: "شر الناس عند الله يوم القيامة ذو الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث".

وقال عطاء: قدمت مكة فلقيني الشَّعبي، فقال: يا أبا زيد، أظرفنا بما سمعت. قال: سمعت عبد الرحمن بن عبد الله يقول: لا يسكن مكة سافك دم، ولا آكل ربا، ولا مَشَاء بنميمة. فعجبت منه كيف عدل سفك الدماء بالنميمة، فقال الشَّعبي: ما يعجبك من هؤلاء؟ هل تُسفك الدماء وتُرتكب العظائم إلا بالنميمة؟!

ورُوي عن كعب الأخبار أنه قال: اتَّقوا النميمة؛ فإن صاحبها لا يستريح من عذاب القبر. وقال يحيى بن أكثم: النمام شر من الساحر؛ فإن النمام يفسد في ساعة ما لا يفسد الساحر في المدَّة الطويلة. وقال عبد الله بن صالح: الساعي بالنميمة يمقتة القريب ويحذره البعيد.

ومن أمثال الحكماء: لم يمش ماشٍ شرٌّ من واشٍ. وقال أرسطاطاليس: النميمة تهدي إلى القلوب البغضاء، ومن نقل إليك نقل عنك. وقال بعض الحكماء: فلان أنم من الزجاج، وأثقل من الخراج. ومن كلام بعض الحكماء: من عاشر نماما كثر غمّه. وقال عبد الله بن الحجاج في ذلك:

لحى الله امرأ أعطاك سرًّا قبحت به وفصَّ الله فاهُ
فإنك بالذي استودعت منه أنم من الزجاج بما وعاهُ
وقال ابن وكيع:

ينم بسرّ مسترعيه سرًّا كما نم الظلام بسر نارِ
أنم من النصول على مشيب ومن صافي الزجاج على عقارِ

فصل

والنميمة جامعة بين النّم والغيبة، فكل تمام مغتاب، وليس كل مغتاب تمامًا.
وقال الفضيل بن عياض: ثلاث يهدمن العمل، ويفطرن الصائم، وينقضن
الوضوء: الغيبة والنميمة والكذب.

ورُوي عن كعب الأحبار أنه قال: أصاب الناس قحط على عهد موسى بن عمران
عليه الصلاة والسلام فخرج موسى ببني إسرائيل يستسقي، فلم يُسقوا ثم خرج فلم
يُسقوا، ثم خرج فلم يُسقوا، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى: إني لا أستجيب لكم؛ فإن
فيكم تمامًا. قال موسى: يا ربّ، مَنْ هو حتى نخرجه من بيننا؟ فأوحى الله إليه: يا
موسى أنماكم عن النميمة وأكون تمامًا! فقال موسى عليه السلام لبني إسرائيل: توبوا
بأجمعكم من النميمة. فتابوا، فأرسل الله عليهم المطر.

وقال بعض العلماء: الأذلة أربعة: النّام والكذاب والمديان والفقير. ومن بعض وصايا
الحكماء: إياك والنائم، فإنها تزرع الضغائن، وتورث الأحابن. وقال بعض الشعراء:

تنحّ عن النميمة واجتنبها فإن النّم يُحبط كل أجرٍ
يثير أخو النميمة كل شرٍّ ويكشف للخلائق كل سرٍّ
ويقتل نفسه وسواه ظلماً وليس النّم من أفعال حرٍّ

وذكر حميد: أن رجلاً ساوم عبداً، فقال بائعه: إني أترأ إليك من النميمة. قال:
نعم، أنت بريء منها، فاشتراه وأتى به إلى منزله، فجعل العبد يقول لامرأته: إن
زوجك يريد أن يتزوج عليك ويتسرى، فلو تحملت وأخذت شعرة من حلقة لصنعت
لك بها شيئاً يعطفه عليك ويصلحه لك. ثم قال للزوج: إن امرأتك قد شغلت بغيرك

وهي تريد قتلك إذا أنت نمت . فأتى الرجل منزله وهبّ يتناوم فلما رأته قد نام أخذت الموسيقى وأتت لتحلق شعرة من حلقه، فلما وصلت إليه قام فوضع يده في يدها مع الموسيقى وأخذها من يدها وهو لا يشك فيما قاله الغلام فقتلها بها، فجاء أهلها فاستعدوا عليه فقتلوه بها، ثم فضح الله الغلام بعدوانه فقتل . فهذا من المثلث الذي تقدم ذكره، ونعوذ بالله من شرّ ما خلق، ونسأله التوفيق فيمن وفق.

وقال الفُضَيْل بن عياض: أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة الباغى والتمّام. وقال بعض السلف: قبول النميمة شرٌّ من النميمة؛ لأن النميمة دلالة، والقبول إجازة . وليس من دلّ على شيء كمن قبله وأجازه. وقال عبدة بن الطبيب:

اعص الذي يفشي النميمة بينكم متنصحا فهو السماع المقنع
تسعى عقاربه ليوقع بينكم حربا كما بعث العروق الأخدغ

فمن أوجب الأشياء على العاقل الحازم أن يحترس من التّمّام جهده، ويحتنب مخاطبته، ويعاف مجالسته، ويزهد في صحبته، ويرغب عن مآزجته، ولا يثق به في حال من أحواله، ولا يأتّمه في شيء من أقواله وأفعاله؛ فإن صحبته غرر، ومخاطبته خطر، فقيدياً هلك وأهلك، وأراق الدماء وسفك، وما حمد أية سلك، والحمد لله على ما أخذ وترك، ووهب وأمسك، لا ربّ غيره.

فصل

في الرياء

الرياء - عصمك الله - من أعظم الكبائر، وأخبث السرائر، وأجل المناكر . وما زال صاحبه ممقوتاً مخزياً، مبعوضاً مقلباً، مبعداً عن كلّ خير منفيّاً، قد شهدت بمقته الآيات والآثار، وتواترت بمذمته القصص والأخبار، وما زال الرياء مبطلاً للأعمال، مفسداً لجميع الأحوال، وحسبك من خلة عصبت بالشك، وقرنت بالشرك.

رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر"، قيل: وما الشرك الأصغر؟ قال: "الرياء". يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا هل تجدون عندهم الجزاء"، ونظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى معاذ بن جبل وهو يبكي، فقال له: ما يبكيك يا معاذ؟ قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: "إن أدنى الرياء شرك". وقال مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السُّيُوفَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [سورة فاطر، من الآية ١٠]: هم أهل الرياء.

وقال رجل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، فيم النجاة؟ قال: "أن لا يعمل العبد بطاعة الله وهو يريد بها الناس"، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "للمرائي أربع علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان بين الناس، ويزيد في العمل إذا أثنى عليه، وينقص منه إذا ذم به". وقال رسول الله ﷺ: "إن الله لا يقبل عملاً يكون فيه مقدار ذرة من رياء"، وقال ابن مسعود: الرياء استهانة يستهين بها المرائي ربه. لأن صاحب الرياء إنما يطلب به المتزلة عند الناس، ويتبغي المكانة والأثرة من المخلوقين، فهو كمن أشرك في عمله غير الله تعالى، ولذلك قرنه النبي ﷺ بالشرك.

فصل

والرياء يفترق على معانٍ كثيرة لا تحصى، ويقترن بوجوه لا يمكن فيها الاستقصاء، وله درجات مختلفة، ومنازل متباينة، بعضها فوق بعض، لا سبيل إلى أوصافها لكثرة أصنافها؛ لأنها بحور لو اقتحمتها لبعدت سواحلها، وأفكار لو سلكتها لصعبت منازلها، وكلها مذموم، وصاحبها بالكفر موسوم، وسنذكر منها ما تيسر، مما فيه دلالة

على الأكثر، ونقتصر منها على لمع يقع للناظر فيها الاكتفاء، وإشارات ليس على ما تدل عليه خفاء .

فأكثر أحوال الرياء عند الله وأعظمها جرأة على الله، الذي يظهر الإسلام وباطنه مشحون بالكفر، وييدي التصديق وقلبه مملوء بالتكذيب، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [سورة آل عمران: من الآية ١١٩]، فهذه الطائفة هي المخلدة في النار، المخصوصة بغضب الجبار.

وطائفة أخرى تُراني بأعمال الطاعة في الملأ، وتتخلى عنه في الخلا، وتؤثر الانزواء والعزلة، لتتوسم بالخير وتتلى بالعبادة، وباطنها مقصر عن ظاهرها. وطائفة تُبدي أحوال الطاعة، وتُظهر منها غاية الاستطاعة، لتؤمن على الودائع، ويلقى إليها النظر في الصنائع، فتجعل ذلك ذريعة لأكل أموال الناس بالباطل.

وطائفة تأتي ما تأتي من التعبد وطلب العلم ابتغاء للمنزلة، وحرصاً على الجاه وعز الجانِب، والاستكثار من الدنيا، وهذه الدرجة هي الغالبة على أكثر الناس، والموجودة الظاهرة في معظم الخلق؛ لأنها تتعلق بها طوائف من أهل الثروة ومن أهل الإقلال، فأما أهل الثروة: فلنيل العزة، وطلب المنزلة، والتمكّن من الرفعة، وامتنال حدّها ورأيها، والوقوف عند أمرها ونهيها، لتعضد القوّة بالقوّة، وتصل إلى أرفع درجات العزة والحظوة؛ وأما أهل الإقلال: فيطلبون العلم ويتوسمون بالخير والصلاح ليجعلوها بضاعة تفيد لهم العيش، وصناعة يستعينون بها على مؤونة الزمان، فمنهم متمسك بحبل الطاعة في بعض أحواله، ومنهم من أخلصها لطلب الدنيا، وقصد بها نيل درجاتها العليا، ولم يتمسك بعروة من عُرى الشرع، ولا انطوت أضلاعه على شيء من التورّع، ونعوذ بالله من اتباع الهوى، وسلوك سبل الردى، بمنّه وفضله.

وطائفة يكاد أمرها يخفى على كثير من الناس، ويحتجب عن النبلاء والأكياس، مثل الذي يتوخى الدخول في المساجد الخالية، والمواضع المقصودة بعمل الطاعة، فإن دخل عليه أحد ترك العمل، وتركه من أعظم أبواب الرياء، وكالذي يوفر المشي، ويقصر الخطأ، ويخفض الصوت، ويظهر السكون، ويؤثر الخمول، فإذا جلس في الملاء أكثر السكوت، وأبدى غلبة النعاس الدالة على قيام الليل، إلى أشياء لا تنحصر ولا تحدّ، ولا تدرك ولا تعدّ، لا حاجة لنا باقتحام أبوابها وسلوك شعابها؛ لصعوبة الخروج منها، وتعذر الانفصال عنها، ولو تعرضت إلى التورّك والتوصّل في تتبع معانيها لحطّطت قبل الوصول، ونكبت عن مقتضى الترتيب والفصول، وفي هذه الإشارات كفاية عن استيفاء النهاية، إن شاء الله تعالى.

فصل

وقد ورد في صحيح الخبر أن عمل السرّ يفضل عمل الجهر بسبعين ضعفاً. وقد قال عيسى عليه السلام لأصحابه: إذا صام أحدكم فليدهن رأسه، ويرجّل شعره، ويكحل عينيه.

وللإسرار بالعمل والإظهار فوائد:

ففائدة الإسرار: الإخلاص والسلامة من الرياء، وما زال المخلصون دينهم لله خائفين من خفيّ الرياء، مجتهدين في التخلص منه، مجتهدين في الفرار عنه، وكيف بالسلامة وأدنى مراتب الرياء أن يكون العبد يعمل العمل لا يريد به غير الله، ولا يقصد به سوى وجه الله، وهو في ذلك كلّه يكره الرياء ولا يحبّه، ويذمّ صاحبه ويسبّه، فإذا أطلع عليه أحد لم يكره اطلاعه عليه، ولا ساءه نظره إليه؟ وهذا أخفى من مكنون

النار في الزند، وأدقّ من ديبب النمل في الحجر الصلد، فكيف بالسلامة منه؟ أم كيف يوجد من لا يجب أن يجلب ويكرم، ولا يستعذب أن يمدح ولا يذمّ! هيهات بل يقضى عليه بالعدم.

رُوي أن رسول الله ﷺ قال له رجل: يا رسول الله، أسرّ العمل لا أحبّ أن يطلع عليه أحد فيطلع عليه فيسرّني! قال: "لك أجران: أجر السرّ وأجر العلانية".

وقد تكلم الناس على هذا الحديث، وصرّفت فيه أوجه التفسير، فقيل: إنه ﷺ إنما أراد بالسرور سرور الاقتداء، لا سرور المحمّدة عليه، ولا خلاف أن السرور بالمحمّدة لا يوجب أجرًا، وليته تخلص بالعمو عنه، فكيف يجوز أن يكون للعامل المخلص أجر ولمن خالطه الرياء أجران؟ وقد قيل: إن الحديث موضوع، والله أعلم.

ولا محالة إن الاطلاع على العمل بعد عقده على أتم وجوهه من الإخلاص، وأكمل أحواله من صلاح النية وصحة العقيدة، أن ذلك لا يفسده؛ لأنه أمر طرأ عليه وقد عقد على أتم وجوهه وكمل على أحسن أحواله، فصار ذلك خاطرًا في القلب لا يخرج منه عن حكم عقده، ولا يميل به عن حده، إن شاء الله تعالى.

ورُوي أيضًا: أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، إني أصوم الدهر كلّه. فقال له: "ما صمت ولا أفطرت".

فقال بعض المتكلمين: إنه كره ﷺ صيام الدهر كلّه. وقال آخر: إنما كره عليه السلام إظهاره لما أتاه من العبادة ولم يخفّه. وكلا الوجهين محتمل، والله أعلم.

فصل

واعلم أن الرياء شهوة من الشهوات العظام، يجد لها صاحبها لذة كلذة الشراب والطعام، فهو الداء الدويّ، والعرض الخفيّ، الذي لا يسلم منه إلا صديق أو وليّ،

ولذلك قال بعض العلماء: آخر ما يخرج من قلب المؤمن حبّ الشناء، وعند ذلك يترك التزيّن، ويؤثر الخمول، ويكره الشهرة. كما قال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله من أحبّ الشهرة. وقال بشر: لا يجد حلاوة الآخرة رجل أحبّ أن يعرفه الناس. وكان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام مخافة الشهرة. ورُوي عن الفضيل أنه قال: إن الله عزّ وجلّ يقول لعبده يوم القيامة في بعض ما منّ به عليه: ألم أستر عليك؟ ألم أخلّ ذكرك؟ ومن كلام الفضيل أيضاً: إن قدرت أن تعرف ولا تُعرف فافعل.

والمذموم من الشهرة التعرض إليها، واستعمال أسبابها، وأما إذا منّ الله تعالى بها من غير تكلف ولا تعرض فليست بمذمومة، وأي خمول أعظم من خمول عيسى بن مريم عليه السلام؟ رُوي عنه أنه كان يأكل ما وجد، ويبيت حيث أدرك، وما كان معه سوى إناء يشرب به الماء، ومُشط يخلل به لحيته، فأتى بعض الأنهار فعدم الإناء فشرب بيديه؛ فتركه ولم يلمسه بعد، ثم عدم المشط؛ فخلل لحيته بأصابعه فتركه ولم يلمسه. وكم قد استحبه الخلفاء الراشدون، واستعمله أئمة العلم المتّبعون، وقصده أولياء الله الصالحون، فشهروا ولم تفتهم فضيلة، ولا تحطّتهم كرامة، قال الله عزّ ذكره: ﴿ تِلْكَ أَدَارُ الْآخِرَةِ جَمْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة القصص، الآية ٨٣].

فصل

في العُجب

العُجب -وقاك الله- سبب محذور، حامله ممقوت عند الله محقور، يضعه الله كلّما ارتفع، ويخفضه كلّما طلع، وهو أخبث سرائر القلوب، وأعظم كبائر الذنوب، وهو دليل

الجهل، وأصل الغي، يورث التكبر، وينشر الطغيان والتجبر، فلا يرى صاحبه أبدًا إلا غليظًا فظًا، لا يرى لأحد سواه في الفضل حظًا، وكفى به شيمة مشؤومة، وخليقة مذمومة، أهلكت القرون حديثًا وقديماً، وغادرت الكريم من الرجال ذمياً مليماً.

وقد نهى الله عزّ وجلّ عنه، وحذر منه، فقال عزّ من قائل: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [سورة النجم، من الآية ٣٢]، وقال تعالى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَتْوًى الْمَتَكِرِينَ﴾ [سورة النحل، الآية ٢٩].

وقد جعله رسول الله ﷺ من أعظم الذنوب، فقال عليه السلام: "لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر منه: العجب العجب"، وقال ﷺ لأبي ثعلبة: "إذا رأيت شعاً مطاعاً، وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك". وقيل لعائشة رضي الله عنها: متى يكون الرجل مسيئاً؟ قالت: إذا ظنّ أنه محسن.

وقال بعض الحكماء: النعمة التي لا يحسد عليها صاحبها: التواضع، والبلاء الذي لا يرحم منه صاحبه: العُجب.

وقال رسول الله ﷺ: "إن العُجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب"، وقال عليه السلام لعمة العباس: "أنهاك عن الشرك بالله، والكبر؛ فإن الله عزّ وجلّ محتجب عنهما"، ورؤي عنه ﷺ أنه قال: "إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله، وإن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً، فاعفوا يعزّكم الله، وإن الصدقة لا تزيد المال إلا كثرة، فتصدقوا يغنكم الله".

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا مُدح قال: اللهم إنك أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يحسبون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون.

وقال الأحنف بن قيس: عجبت لمن سلك في مجرى البول مرتين كيف يتكبر! وقال بعض الحكماء: من برئ من ثلاث نال ثلاثاً: من برئ من الشره نال الغنى، ومن برئ من البخل نال الشرف، ومن برئ من الكبر نال الكرامة. وقال عبد الله بن شداد: أربع من كن فيه فقد برئ من الكبر: من اعتقل البعير، وركب الحمار، ولبس الصوف، وأجاب دعوة الرجل الدون. وقال من الحكم: التواضع مع الشرف رفعة، والكبر معه ضعة.

فصل

وصاحب العُجْب قد عمي عن مساوئه، واستعذب المَلَق والكذب من مادحيه؛ لأن المدح أقوى أسباب الإعجاب، وأشدّ دواعي الكبرياء، فإذا ضعف عقله عن معرفة عيوبه، وقلّ حياؤه للمَلَق وكلّ لذنوبه، واستفزه عند ذلك الشيطان، وتملكه التجبر والطغيان، فجهل مقدار نفسه، وعمي عن نقصه ونكسه، فرأى قبيحه حسناً، وخطأه صواباً، فيوجب لنفسه حقاً لم تستوجهه، ويرى لها فضلاً لم تستأمله، فهو منفرد برأيه، متردد في غيّه، قد امتنع عن المشورة، فركب في جميع أحواله غروره، واستجنب سؤال من هو أعلم منه وأبصر، واستنكف عن معونة من هو أقوى منه وأقدر، ينظر من نفسه بعين الإعظام والإكبار، وينظر من غيره بعين الاحتقار والاستصغار، ألا ترى إلى إبليس كيف قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [سورة الأعراف، من الآية ١٢]؟ ونعوذ بالله ممن يشارك إبليس في ذنبه، وينافسه في عصيان ربّه.

وقد كان أهل العقل والدين، وأرباب التقى واليقين، يستنقصون أنفسهم وعندهم الكمال، ويتهمون آراءهم وهي المنزهة عن الاختلال، ويستعينون بالمشورة، ويستضيئون بأنوار الهداية، وكانوا يرون التواضع رفعة، والتكبر ضعة.

رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه نادى يوماً: الصلاة جامعة . فلما اجتمع الناس، صعد المنبر، وحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على رسوله ﷺ ثم قال: أيها الناس، لقد رأيته أرفع على خالات لي من بني مخزوم يقبضن لي القبضة من التمر والزبيب. فقال له عبد الرحمن بن عوف: والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قصرت بنفسك. فقال له: ويحك يا ابن عوف! خلوت بنفسي فحدثتني وقالت: أنت أمير المؤمنين، فمن ذا أفضل منك؟ فأردت أن أعرفها قدرها.

وكل من عظم في الدنيا قدره، وجل فيها خطرُه، ينبغي أن يكون للإعجاب مطرْحًا، وعن الكبر متبذًا ومنتزحًا، فإن همّة الرجل العاقل تستقل من الدنيا الكثير، وتستصغر الكبير.

وقد قال الفضل بن سهل: من كانت ولايته فوق قدرته تكبر، ومن كانت ولايته دون قدرته تواضع. ورُوي عن عيسى عليه السلام أنه قال: طوبى لمن علمه الله تعالى كتابه ثم لم يمت جبارًا. وقال بعض الحكماء: التواضع مع البخل والسخافة، خير من الكبر مع السخاء والأدب، وناهيك من حسنة عفت عن سيئتين، ومن سيئة أفسدت حسنتين. وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا مشى خلفه أحد قال: أخروا عني نعالكم؛ فإنها مذلة للتابع، وفتنة للمتبوع.

وما سُمع بعُجب أفرط حتى ورط، وتملك حتى أهلك، أعظم من عجب معبد بن زُرارة، وعبيد الله بن زياد التميمي، وأبي شمال الأسدي الذي ضرب المثل بعجبه .
فأما معبد بن زُرارة فقيل: إنه مرّت به امرأة فقالت: يا عبد الله، كيف الطريق إلى كذا وكذا؟ فقال لها: يا هناء، أمثلي يكون من عبيد الله!

وأما عبيد الله بن زياد، فقيل: إنه خطب الناس بالبصرة فأحسن وأوجز، وبرز وأنجز، فنودي في نواحي المسجد: كثر الله فينا مثلك. فقال: لقد كلفتم الله شططاً.

وأما أبو شمال: فإنه أضلّ راحلته، فالتُمتست فلم توجد، فقال: والله لئن لم يرد عليّ راحلتي لا صليت له أبداً. فوُجدت قد تعلقت زمامها ببعض أغصان الشجر، فقيل له: قد ردّ الله عليك راحلتك فصلّ. فقال: إني حلفت يمين قصداً فانظر إلى هذا العُجب كيف ذهب بهم كلّ مذهب من الكِبَر، حتى أفضى بهم إلى الكفر، فصاروا حديثاً مستبشعاً، ومثلاً مستكرهاً، ونعوذ بالله من الخذلان المؤدّي إلى النيران.

حُكي عن الحجاج بن يوسف أنه قيل له: كيف وجدت منزلك في العراق؟ قال: خير منزل لو أن الله أظفرتني بأناس فبلغني فيهم الأمل، وأعانني على الانتقام منهم، فكنت أتقرب إلى الله بدمائهم. فقيل له: ومن هم؟ فذكر هؤلاء الثلاثة، وذكر حديثهم.

ولا محالة أنها من حسنات الحجاج وإن قلت في جنب سيئاته، فلقد حُكي عنه أنه خاطب عبد الملك بن مروان حين بلغه أنه عطس فشتمته أصحابه، فردّ عليهم وقال في خطابه: بلغني ما كان من عطاس أمير المؤمنين، وتسميت أصحابه له، وردّه عليهم، فيا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً. وقيل: إنه خاطبه أيضاً وقد فضل الخلافة على الرسالة، فقال: إن خليفة الرجل في أهله أكرم عنده من رسوله إليهم. وكفى بها شناعة وجرأة!

فصل

ومن أعظم هذه الطائفة مصيبة، وأخسرهم صفقة، من ساقه العُجب إلى مدح نفسه، ورأى بنشر خصاله إخراجة عن جنسه، يظنّ أن الناس قد غفلوا عن فضائله

وسبقه، وجهلوا أمره وقصروا به عن حقه، فيقول: فعلت كذا، أو: صنعت كذا، وقلت كذا، يستعذب ما يصف به نفسه من كرم الخلال والطباع، كالذي يَسْتَلذ بصوته إذا عدم السماع، وفي مثل ذلك يقول الشاعر:

لعمرك ما مَدَح الجواد لنفسه دليل على إحسانه وكماله
ولكنها الأعمال تلفي صوالحا فتخبر عن فضل الفتى وجلاله
إذا شئت عرفان امرئ لحقيقته فلا تنظرن إلا الحُسن فعاليه

وقال غيره في المعنى:

وما شرف أن يمدح المرء نفسه ولكن أعمالاً تُذم وتُمدح
وقيل في بعض الحكم: مَنْ مدح نفسه فقد حطَّها وأدناها، وَمَنْ أظهر عيوبها فقد عظمها وزكاها. وفي مثور الحكم: مَنْ ترك الكِبْر استوجب الشكر، وَمَنْ استعذب المدح استحقَّ القدح. ومن أمثال الفرس: ما أقبح التكبر عند الاستغناء! وما أفضح الخضوع عند الحاجة! وقال بعض العلماء: العُجْب شيمة الأشقياء، والتواضع شعار الأتقياء. ومن الحكم المرفوعة: ثمرة العُجْب المقت. ومن كلام بعض الحكماء: التكبر على الملوك سخافة، وعلى الأكفاء جهالة، وعلى الأسقاط خساسة. وقال الشاعر في مثل ذلك:

جمعت أمرين ضلَّ الحزَم بينهما: تيه الملوك وأخلاق المماليك
جعلنا الله من استقبح العُجْب، وصبر على الخطب، وأظهر التواضع للربِّ،
برحمته وكرمه.

الباب الثالث مختصر

يشتمل على فنون من الآداب، وضروب من النظم والنثر من كل باب

الآداب - بصرك الله - كثيرة، وأنواعها جمّة، وفنونها لا تُحصى، وأصنافها لا تنحصر، ولا طاقة لمخلوق بسلوك شعابها، فكيف باستيفائها واستيعابها! وإنما على المرء أن يبذل جهده في ذكر ما حضره، ويستنفد وسعته في نشر ما مرّ به ونظره، فيثبت من ذلك ما يسره الله إليه، ويورد منه ما وفقه الله له وأظهره عليه، مستمداً بعون الله - جلّت قدرته - فيه وفي جميع أحواله، ومستنجداً لمشيئته في جميع أقواله وأفعاله، بعد أن يتحرّى الصدق فيما يورده، ويتوخى البرّ فيما يقصده، وينوي الخير فيما يعتمده، فعسى أن يسلم من عيب التقصير، ويتخلّص من نقص التقدير، ويأمن بالتحرّز من السقطات والزلل، والاعتصام بالله من مواجهة الخطأ والخطل، فقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل: "يا معاذ، أنت سالم ما سكت، فإذا تكلمت فلك أو عليك"، وأنا أسأل الله جلّ ذكره الإرشاد والتوفيق، وأتضرّع إليه في التسديد والتحقيق، فهو الهادي إلى سواء الطريق. فنقول، والله الموفق للصواب:

إن آداب الشرائع لازمة راتبة، وآداب الطباع متعينة واجبة، يتعين جميعها على كل مخلوق، وتلزم لزوم الفروض من الحقوق، وقد قدّمنا في أبواب هذا الكتاب من ذلك جملاً كافية، ولمعاً شافية، مما اقتضاه شرط التأليف، وتضمّنه ضبط التصنيف، وانتهى إليها الوُسع، واحتوى عليها الجمع، ونستدرك الآن بما شدّد عن نظم التبويب، وخرج عن حكم الترتيب، ما يكون زيادة في الاستصلاح، وإفادة لمن يرغب في الاستكمال والاستنتاج، فكلّها باعث على الإحسان، جامع لشمّل منافع الإنسان، يجب على كلّ

مسلم أن يأخذ نفسه باستعمالها، ويروض طباعه على القيام بامتثالها، حتى تصير له كالعادة، وتكون نفسه لمتابعتها منقاداً، لما له في أدب النفس من تحسين دنياه، وفي أدب الشرع من تحصيل عقباه.

ومنها ما اشتركت فيه الديانة والدنيا، فجمع شرف الممات والمحيات، وارتبط بعضها ببعض، وتعلق مسنونها بالفرض، وهي الأكثر والأعم، وللصلاح أكمل وأتم، فإنها إذا اتفق فيها الاشتراك كانت أعمّ نفعاً، وأجمل صنفاً؛ لأن الدنيا هي باب الآخرة، وبها تدرك خيراتها الوافرة، وهي السبب المعين عليها، والمعبر المؤدي إليها، فإنما وضعها الله للعباد ليتزودوا منها للمعاد. رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه".

وللتفصيل لما تشترك فيه الديانة والدنيا من الآداب أبواب واسعة، لا قدرة على استيفائها، بل العجز متمكن عن أدائها، وكلها نعم من الله تعالى على عباده، وفضل جعل الخير في استعماله وارتباده، لاشتغالها على المكارم والمآثر، واحتوائها على المحاسن والمفاخر، فمن قاربها كثرت فضائله وحسناته، ومن فارقها عظمت مصائبه وحسراته.

رُوي عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما أنه قال: نِعَمَ الله أكثر من أن تُشكر إلا ما أعان الله عليه، وذنوب ابن آدم أكثر من أن تُغفر إلا ما عفا عنه. ومن كلام بعض الصالحين: أصبح بنا من نِعَمَ الله ما لا نحصيه، مع كثرة ما نعصيه، فما ندري أيهما نشكر: أجميل ما ينشر، أم قبيح ما يستر؟

وجميع آداب الشرائع والطبائع راجعة إلى التقى والطاعة، مرتبطة إلى حكم السنّة وموافقة الجماعة، ونحن ذاكرون من ذلك ما تنتهي إليه القدرة وتبلغها الاستطاعة، إن شاء الله تعالى.

فصل

فمن الأحوال التي تجمع خَيْرِي الدنيا والآخرة، وتعين على منافعها الباطنة والظاهرة، الخلافة التي بها قوام الدين، وبها يجتمع شمل صلاح المسلمين، وتتم الطاعة لرب العالمين، ولها شروط وآداب، ربطتها السنة والكتاب.

فمنها: أن يكون الخليفة قرشيًا، لقول رسول الله ﷺ: "الأئمة من قريش"، وقال عليه السلام: "قدموا قريشاً ولا تقدموها، واتموا بها ولا تؤموها"، وقال ﷺ: "الخلافة لقريش، والحكم للأنصار"، وقال صلوات الله عليه: "يا معشر قريش، أنتم الولاية بعدي لهذا الدين، فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا". فهذا الإلزام يؤلف ولا يخالف.

وأن يكون سالم العقل، صحيح الجوارح، سالم الحواس من السمع والبصر والنطق التي لا يصح إدراك الأمور إلا بها، كما أن صحّة الجوارح تعين على استيفاء الحركة، وإسراع النهضة، وكمال التصرف عندما يحتاج إليه.

وأن يكون عالماً عادلاً؛ فإن العلم يحمل على الاجتهاد، والعدل يبعث على رفع المظالم عن العباد.

وأن يكون شهماً جريئاً شجاعاً كميّاً لما يحتاج إليه من الحماية، وجهاد العدو، وسدّ الثغور، فإذا كان كذلك علم العدو مكانه، وخاف صولته ورهب شأنه.

وأن يكون بأسه ظاهراً، وسلطانه قاهراً؛ فإن ذلك يجمع النفوس المفرقة، ويؤلف الأهواء المختلفة، ويكفّ الأكف العادية، ويردّ العزائم الفاسدة، وقد قال رسول الله ﷺ: "إن الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن".

وأن يكون حسن الرأي، جيّد القريحة، سديد النظر؛ لما في ذلك من صحّة الاختبار، وحسن الاختيار.

وإلى غير ذلك من المعاني التي قد تتشعب من هذه الأصول، وتتعلق بهذه الفصول، فإذا جدّدها وقام بها نهض بها حمل، واستقلّ بما قلّد، ونفذ ما له أهل، فوجبت طاعته، وتعينت مطاوعته، ولم يقدّم عذر لمسلم في التأخر عن القيام بنصره، والانقياد لحكمه وأمره.

وأن يكون كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابن عباس وقد أهداه من يلى الخلافة من بعده، فذكر له ابن عباس عثمان وعليًا وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف واحداً واحداً، فما سمى رجلاً إلا ذكر عمر رضي الله عنه فضائله، وأبان خصاله ودلائله، ولم تتمّ به خلال الخلافة، ثم قال: يا ابن عباس، والله لا يصلح لهذا الأمر إلا القوي في غير عنف، اللين في غير ضعف، المسك في غير بخل، الجواد في غير إسراف. فلما ينس من الحياة رضوان الله عليه جعلها شورى في الستة، فكان من الأمر ما علم.

فصل

والقضاء له شروط وأداب، وأحكام تنتهج بها سبل الصواب، وترتبط بحكم السنة والكتاب، وهي: أن يكون حرّاً كامل الحرية؛ فإنه من لم تجز شهادته لم تجز ولايته، فإذا عتق وجبت ولايته، وإذا استتمت فيه شروطها، وهي: الإسلام والبلوغ والعقل والعلم والعدالة وسلامة الحواس، وإن لم يكن سالم الجوارح؛ فإن مع سلامة الحواس تبين الحقائق وتتعرف، وتضمحلّ البواطن وتزيف، ويتميز طالب الحق من منكروه،

ويعلم جاحد الصدق من منتظره، فإذا تكمّل ذلك فيه مع الخصال التي يحتاج إليها ولا غنى به عنها، وضعت الخطة موضعها، ووقعت موقعها، وهي:

أن يكون تقيّاً، ورعاً، عالماً بالسنة والكتاب، عاملاً بهما في كل باب، صادق
اللهجة، عفيف الطعمة، حسن السمّت، كثير الوقار، عظيم الأناة، جامد اليد، عزيز
النفس، حسن الخلق، قليل الحرج، كريم الطباع، رقيق الحجاب، واسع الصدر، صليبيّاً في
الحقّ، متواضعاً لله، مستعملاً لأهل الصلاح والعلم والثقة، قويّاً في ذات الله، مثبّتاً في إقامة
الحدود، مساوياً بين الخصوم، مثبّتاً في سماع الحجاج، مبيّناً لإيراد الجواب، مازجاً شدة
التفاف بلين العفاف، فلا يهاب ذو الحق صولته، ولا يطمع ذو الباطل في لينة.
فإذا علّم بهذا الحال استوفى شرطه، وصلحت به الخطة، وكان قوله فصلاً،
وحكمه عدلاً.

رُوي عن رسول الله ﷺ أنه اختبر معاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن واليا، فقال له: "بم
تحكم يا معاذ؟" قال: بكتاب الله عزّ وجلّ. قال: "فإن لم تجد"، قال: أجتهد رأيي. فقال عليه
السلام: "الحمد لله الذي، وفق رسول رسول الله ﷺ إلى ما يرضي به رسوله".

فصل

وأما الوزارة فخطة محمولة على الكمال والتمام، لا يستغنى عن تقديم من يقوم
بحدودها؛ لأنها قد أجازها الله تعالى لنبيه موسى في أخيه هارون عليها السلام، فإذا
كانت الوزارة في النبوة المؤيدة جائزة، فهي في الإمارة أجوز، فإنه لا يستغنى الملك عن
وزير يستعين به في تدبير ملكه، ويفوض إليه ما شاء من حكمه، ويصونه عن الامتهان،
ويرفعه عن التبذل في كل مكان، إذا صدقه منه الاختبار والامتحان، وأنس منه من

كمال عقل، وحسن نظر، وجميل رأي، ونفوذ فيما قلده، وسياسة لما أصدره وأورده، مع تقى وعفاف، وكرم سجية وإنصاف، وقوام سنن وعلم، وعمل بالكتاب والسنة، ورأفة بالمؤمنين، ونصيحة لجماعة المسلمين. وقد قال بعض العلماء: شروط الوزارة أعمّ من شروط الإمارة.

فاذا تكاملت هذه الخلال، واستتمت عنده هذه الخصال، كانت وزارته زيناً للإمامة، وجمالاً للخلافة، وقوة على صلاح الدين والدنيا، وسبباً للاستدامة والبقاء، كما أنه إذا نقص منها شيء كان الاختلاف في الدولة بحسب ذلك النقص. والإمارة مفتقرة للوزارة لا غنى بها عنها، ولا بدّ لها منها، وفي ذلك يقول ابن العميد:

هيهات لم تصدقك فكرتك التي هي أوهمتك غنى عن الوزراء
لم تغن عن أحدٍ سماء لم تجد أرضاً ولا أرض بغير سماء
والوزارة على ضربين: وزارة تفويض، وهي التي قدّمنا ذكرها، ونشرنا فخرها؛
ووزارة تنفيذ، وليست في حكم كمالها، ولا تقوى قوتها في حال من أحوالها؛ لأنها
مقصورة على رأي المستوزر وتقديره، غير خارجه عن حكم نظره وتديره، فصاحب
هذه الوزارة المتأخّرة ينقذ ما جعل إليه الملك تنفيذه من أوامره، ويؤدّي ما ألقى إليه من
أحكام موارده ومصادره، فهو كالواسطة بين الملك ورعيته، وهو مع هذا مفتقر أن
يجتمع فيه أكثر هذه الخصال، ويحتوي على معظم تلك الخلال؛ لأنه مؤتمن على ما ينتهي
إليه، موثوق بأمانة ما يتحمل عنه، فما أولاه بالصدق، وأخلقه بالتزام الحق فيما ينقل عنه
وإليه، فإنه شاهد له وعليه.

ويجوز للملك أن يقدم هذه الوزارة اثنين فصاعدًا، وأن يفرد من شاء منهم بأمر يعلّقه به، ويخلصه له، أو أكثر من ذلك؛ لأن كلّ واحد منهم ينفذ فيما يجعل إليه، ويستقل بها حمل عليه، ولا يجوز في وزارة التفويض إلا الواحد لاختلاف الأهواء، وافتراق المذاهب والآراء.

والوزير المفوض هو عين الملك ولسانه، وعنوانه وترجمانه، وفيه تظهر إساءته وإحسانه.

وقد قال بعض الحكماء: وزير السلطان نفسه الباطنة، وسريته الكامنة، وفي تقديمه تظهر قريحته، وحسنه أو قبيحته. ومن أمثالهم: الوزارة أمانة الإمارة. وقالوا: الوزير سيف الملك، فإذا ارتضاه انتضاه. وقال بعضهم: من حقّ الملك أن لا يقع اختياره، إلا على من تقدّم اختياره.

وهذه الأحوال بها يجتمع شمل التدبير، وينتظم سلك التقديم والتأخير، ويسقط الملك من ولاته على الخير، فيصحبه الجدّ، ويساعده المجد، إن شاء الله تعالى.

فصل

والكتابة أيضًا لها آداب وشروط، ومعنى مخصوص بها مربوط:
فمنها: أن يكون جيد المعرفة، حسن الخط، مهذب الطباع، نبيل الأدوات، مشاركًا في العلوم، عالمًا بالكتاب والسنة، عارفا بالسّير، واقفًا على الأثر، مع سلامة الحواس، واللمعة الأكياس، وذكاء الذهن، وأمانة الغيب، وكتم السر، وصدق اللسان.
وينبغي أن يكون حسن الهيئة، مقوم الخلق، نظيف الملبس، طيب الرائحة، فربما أدناه الملك لأمر يسرّ به إليه، وقرب مجلسه لمعنى يطلعه عليه، فلا يرى منه شيئًا يكرهه، أو يشمّ منه رائحة يكرهها.

والكاتب -أبداً- يشترك مع جميع الوزراء والعمال وضروب أهل الخدمة وأنواع المتصرفين، فإن عنده تنتظم سلوكهم، ومن لفظه تنسرد صكوكهم، ولو تتبعنا أحوالهم وأحوال من قدمنا ذكره، وتقصينا خصالهم لوقفنا في الإطالة، ولم نبلغ النهاية، وفيما أوردناه من مراتب أحوالهم كفاية، إن شاء الله تعالى.

فصل

ونسن الآن من آداب المرء في ذاته، وما يلزمه استعماله من مكارم الأخلاق وحسن الشيم في نفسه وأدواته، ما يبلغ الوسع، ويهذب الطبع، ويستجلب النفع، وبالله التوفيق:
 فأولها: التواضع لله تعالى وأوليائه، والتدافع على عصاته وأعدائه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية ٢١٥] ، وقال تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة التوبة، من الآية ٧٣] ، وما زال التواضع يوجب الرفعة في الدنيا، ويورث علو المراتب في الآخرة، وهو شعار عباد الله الصالحين، وعلامة أولياء الله المتقين.

رُوي عن عيسى عليه السلام أنه كان كلما حدثت عليه نعمة الله تعالى، زادها تواضعاً. وقال أبو سليمان الداراني: إن الله عزّ وجلّ أطلع على قلوب الأدميين فلم يجد قلباً أشد تواضعاً من قلب موسى عليه السلام فخصّه منه بالكلام. وقال مجاهد: إن الله عزّ وجلّ لما غرق قوم نوح شمخت الجبال، وتواضع الجوديّ، فرفعه الله على الجبال، وجعل قرار السفينة عليه. وقال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه رضي الله عنهم: "أرأيتم سليمان عليه السلام وما أعطاه الله من الملك، فإنه لم يرفع رأسه إلى السماء تخشعاً لله تعالى حتى قبضه الله تعالى". وحكى الواقدى قال: لما بلغ النجاشى مقتل قريش بيدر، وما أظهر الله عزّ وجلّ نبيه عليه السلام، خرج في ثوبين أبيضين، ثم جلس على الأرض

دون حجاب، ودعا جعفر بن أبي طالب وأصحابه وقال: أيكم يعرف بدرًا؟ فأخبروه بها، فقال النجاشي: أنا عارف بها، وقد رعيت الغنم في جوانبها من الساحل، ولكن أردت أن أثبت منكم، قد نصر الله عزّ وجلّ رسوله ﷺ ببدر، فاحمدوا الله على ذلك. فقالت له بطارفته: أصلح الله الملك! إن هذا شيء لم تكن تصنعه حتى لبست ثوبين أبيضين وجلست على الأرض دون حجاب! قال: إني من قوم إذا أحدث الله عليهم نعمة ازدادوا لها تواضعًا.

فصل

وعليه أن يتمسك بحبل الطاعة، ويوالي لزوم الشرع، ويقدم الاعتصام بأسباب التقوى، ومجانبة دواعي الهوى، وأن يلتزم المفروض، ويستعمل المسنون، حتى تنقاد له نفسه، وتذلّ له طباعه، فلا يفارقه مقرّبه من ربّه.

وعليه أن ينظر في أخبار الصالحين، ويتصفح أفعال المتّقين، ويتدبر أحوال المتقدّمين، فيما وجده محمودًا امثله، وما وجده مذمومًا اعتزله، فاستدرك ما فاته من الصواب، واستطلع على ما احتجب عنه من المصالح وغاب.

وقد قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: الأمور ثلاثة: أمر استبان رشده فاتبعه، وأمر استبان ضرّه فاجتنبه، وأمر أشكل فردّه إلى الله تعالى. وقيل في مشور الحكم: من نظر إلى السّير، سلم من الغيّر. وقال بعض الحكماء: من كثر اعتباره، قلّ عثاره. وقالوا: السعيد من تصفّح أفعال غيره فاقتدى بأحسنها، وانتهى عن سيئها. وقال رسول الله ﷺ: "السعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه". أخذه بعض الشعراء فقال:

إن السعيد له من غيره عظةٌ وفي التجارب تحكيم ومعتبرٌ

فصل

ويجب عليه أن يقدم الاستخارة في جميع الأمور؛ فإن ذلك أبعد لوقوع المحذور. وقال بعض العلماء: استخروا ولا تتخروا، فكم من رجل تخير لنفسه أمرًا كان فيه هلاكه. وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

وكم من طالب يسعى لشيء وفيه هلاكه لو كان يدري

وقال غيره:

كرهت وكان الخير فيها كرهته وأحببت أمرًا كان فيه شبا القتل

فصل

وأن يستعين بالمشورة لأهل العقول، وأن يستمد بآراء ذوي الحكمة والتجارب من الشباب والكهول؛ فذاك أحمد للرأي، وأنجح للسعي، وقد قال سبحانه لنبيه المؤيد بوحيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية ١٥٩]، قال الحسن البصري في تأويل هذه الآية: أمره بمشاورتهم وهو غني عنها، ليستنّ بذلك المؤمنون، ويتبعه فيها المسلمون. فالمشورة واجبة على كل ذي حزم، متعينة على كل ذي لبّ وفهم.

وقد قال رسول الله ﷺ: "ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار"، وقال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: نعم المؤازرة المشاورة، وبئس الاستعداد الاستبداد. وقال رضي الله عنه: الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه. وقال بعض الحكماء: المشورة مع السداد، والسخافة مع الاستبداد. وقال بشار بن برد:

إذا بلغ الرأي النصيحة فاستعنْ برأي نصيحٍ أو حزامه حازم

ولا تحسب الشورى عليك غَضاضَةً مكان الخوافي نافع للقوادِمِ
 وحلّ الهوينا للضعيف ولا تكن نؤومًا فإن الحزم ليس بنائمِ
 وفي الحكم المرفوعة: المستشار على طرف الجناح، والمستبدّ تلعب به الرياح، وكما
 يجلي البيانُ المتشابه، كذلك تجلي المشورة العمى والحيرة. ومن أقوالهم: المشاور على
 إحدى الحسينين: صواب يفوز بثمرته، أو خطأ يشارك في مكروهه.
 ويتعين على المرء أن ينتخب لها أهل الدين، وأرباب العقل المرضيين، وفي ذلك
 يقول بعض الحكماء: مَنْ استشار أهل العقول، أدرك المأمول. وفي بعض الحكم:
 المشاورة لقاح العقول، ورائد الصواب، ومَنْ شاور عاقلاً أخذ نصف عقله. وقال
 بعضهم في ذلك:

أصِفِ ضميرًا لمن تعاشره واسكن إلى ناصحٍ تشاوره
 وارضَ من المرء في مودّته بما يؤدي إليك ظاهره
 مَنْ يكشف الناس لم يجد أحدًا تصحّ منه له سرائره
 فلا عذر ولا حذر في ترك المشورة وإن كان من أهل العقل والرشاد، وذوي الرأي
 والسداد، فإن المشاور قد يكون له في بعض الأمر هوى، ولبعض الوجوه ميل، فربما جنح
 إلى هواه، ومال إلى ميله، والمستشار إنما يعطيه أبواب عقله، وصفو رأيه، وخالص نظره.
 وقيل في بعض الحكم: إذا اقتدحت زناد المشورة، أضاعت لك الآراء المغيبة. وقال
 بعض العلماء: حقّ على العاقل الحازم أن يضيف إلى رأيه آراء العقلاء، فإذا فعل أمن من
 عثاره، ووصل إلى اختياره. قيل لرجل من بني عبس: ما أكثر صوابكم! فقال: نحن
 ألف رجل، وفينا رجل حازم، فنحن نطيعه، فكأنّا ألف حازم.

فصل

وعليه أن يرتب أحواله، ويهذب أفعاله، فينظر في مطعمه ومشربه وملبسه حسب طاقته، ومبلغ استطاعته، فإنه لا تقوم الحياة إلا بها، ولا تصلح الأجسام إلا باستعمالها، ولا تكمل الشرائع إلا بأسبابها، فإن الضرورة إلى ذلك داعية، والحاجة إليها ماسة، والشهوة عليها باعثة، والقوة على صلاح الدين والدنيا بها متمكنة، فإذا اقتصر الإنسان منها على ما لا بدّ له منه، ولا غنى به عنه، واطّرح الفضول التي تدعو إلى الأثر، وتبعث على البطر؛ فقد حسن لنفسه النظر، وأخذ بموجب العقل وتصديق الأثر، فإن استيلاء الضعف يميت النفس، ويوهن القوى، ويقعد عن القيام بالفروض.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "المؤمن القوي أحبّ إليّ من المؤمن الضعيف، وفي كلّ خير. فاحرص على ما ينفعك، ولا تعجز، فإن غلبك أمر فقل: قدّر الله -أو: ما شاء الله- وإياكم و(لو)؛ فإن (لو) تفتح عمل الشيطان".

وليس لمانع نفسه قدر حاجتها من هذه الأسباب حظّ في معنى من معاني البرّ، ولا نصيب في حال من أحوال التشريع والخير، ولا له في ذلك ثواب، بل هو المسؤول عن نفسه والمثاب، كما أنه إن أرسلها على المباح من شهواتها، ومكثها من حلال لذاتها، تحمله على الاستكثار، فيوقعها في الأضرار.

وقد قال رسول الله ﷺ: "ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه". وقال عليه السلام: "إياكم والبطنة؛ فإنها مفسدة للدين، مورثة للسقم، مكسلة عن العبادة". وقال بعض العلماء: لا يسكن العلم معدة ملئت طعاماً. وقال شاعر طبع^(١):

فإنك مهما تعطّ بطنك سُؤله وفرجك نلت الذمّ والداء أجمعا

(١) يقصد حاتم الطائي.

وقال أبو الفتح^(١):

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته وتطلب الريح فيما فيه خسرانُ
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسانُ

فصل

وللنفس أيضًا حاجة ماسة في الاستراحة عند الفراغ في الأوقات التي يضرّ بها العنف، ويؤذيها الأين، فيجب على الإنسان أن يجعل لها حظًا من ذلك ترجع إليه، فتستريح فيه عند الكَلَل، وتسكن إليه عند الكسل، وتتذرع به إذا غلب عليها الفشل، وكذلك النوم عند الحاجة إليه، وفي الأوقات المختصة به، فإن ذلك من اللذات التي لا يحاسب بها، والشهوات التي لا يؤاخذ بها إذا لم يخل ذلك به في معنى من معاني دينه.

روى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: "نوم الصبح خرق، ونوم القيلولة خلق، ونوم العشاء حق". ودخل على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ابنه عبد الله فوجده نائمًا، فقال له: يا أبت، تنام والناس بالباب! فقال له: يا بني، إن نفسي مطيتي وأنا أكره أن أتعبها، فإذا أخذت النفس حظها من الدعة من غير سرف وفي سبيل منفعة قوية على ما كلّفت، ونشطت لما حمّلت، فاستكملت صلاح دينها ودنياها، واستجادت أحوال عاجلها وعقبها.

فصل

وعليه أن يدبّر مباني أحواله، ويقدر مجاري أفعاله، فلا يضيع منها شيئًا صغر أم عظيم، فيبدأ منها بالأهم فالأهم.

وقد قال رسول الله ﷺ: "التدبير نصف العيش"، وقال بعض الحكماء: مَنْ شغل نفسه بغير المهم أضرّ بالمهم. وقال غيره في بعض وصاياه: يا بني، لا تتكلف ما كُفيت،

(١) علي بن محمد البُستي .

فتضيع ما وليت. وفي بعض الحكم: من نظر في أحواله، وحزم في أفعاله، وقسط في أحكامه، واقتصد في وفوره وإعدامه؛ فقد أُعطي الخير^(١) بتمامه.

فصل

ولكلّ وقت من أوقات العمر أدب لازم، ولكل زمن من أزمان الدهر عمل راتب حازم، فيجب على الإنسان أن يجتنب في تكهله، ما كان يأتيه في صغره وتبذله، من المزاح والضحك والاسترسال واللعب؛ فإن ذلك مع الشيب عيب ظاهر، ونقص حاضر، وهو مع الشباب أخفّ، وكذلك إذا استعمل في صبوته ما لا يشاكل أحواله، ولا يليق به أن يؤثر استعمالها - كلبس المسوح، وخصف النعل، وتوكئ العصا - كان ذلك أيضًا خللاً مستيناً، وشكلاً مستكرهاً مستحياً؛ فإن تلك الهيئة لا ترفع له عند الله منزلة، ولا تثبت له في الفضائل رتبة، بل هي شواهد زور، وعلامات مین وغرور، تقتضي النقد، بل تعدّ في الأكثر من الضدّ، وإنما على المرء أن يدفع عن نفسه - جهده - بؤسها، ويلبس لكل حالة لبوسها، فليس تغيير الشكل من دلائل العقل، ولا من شواهد الفضل، ولا من علامات النبل، كما قال بعض الشعراء:

يا لابسًا ما لا يليقُ لقد عدلتَ عن الطريقِ
إن المفقارَ زيّبه بالمقت في الدنيا خليقِ
لا سيما إن كان في أمواج صبوته غريقِ
كيف التشبه بالعفا ف وأنت معلوم الفسوقِ

حكى المبرد: أن رجلاً من قريش كان إذا اتسع لبس أرتّ ثيابه، وإذا ضاق لبس أحسنها، فقيل له في ذلك، فقال: إذا استغنيت تزينت بالجود، وإذا ضقت فبالهيئة. وقد أتى ابن الرومي بأبلغ من هذا المعنى فقال:

(١) م: الخير، والأصح ما أثبتناه .

وما الحلبي إلا زينة لنقيصة تتم من حسن إذا الحسن قصرا
فأما إذا كان الجمال موقرا كحسنك لم يحتج إلى أن يزورا
فمن دلائل الكمال: مقابلة الأحوال بما يصلح لها واستعمال ما يليق بالأزمان
ويشاكلها، فإن ذلك مما تستحسنه العيون، وتجمل فيه الظنون، فلا يمر بمن يحقر هيئته،
ولا ينظر إليه من ينكر طلعتة، وما أحسن قول بعض الشعراء في ذلك:

إن العيون رمتك إذ فاجأتها وعليك من شهر الثياب لباس
أما الطعام فهب لنفسك ما اشتيت واجعل لباسك ما اشتهاه الناس
ومما سبق لي من القول في هذا المعنى:

قل للذي يخرج عن شكله ليرتقي أسباب أوعار
كيف ترجي أن تنال العلى ولم تبال الدهر من عار
من فارق المعهود من زيه فذاك لا كاس ولا عار

فصل

ويستحب له أن يعتدل في جميع أحواله، مع تصرف الدهر في إدباره وإقباله، فلا
بيدي السرف عند جدته، ولا يظهر اللؤم عند إقلاله.
قيل في بعض الحكم: التدبير مع الكفاف، خير من الكثير مع الإسراف، ومكابدة
الغنى خير من مضمض الفقر.

فإن كان ممن عهد البذل، وضافت به الحال عن اصطناع المعروف، بذل حسن
المألوف، ولقي الناس باللين والبشر، وأظهر لهم البشاشة والبر.

رُوي أن في التوراة: يا موسى، ليكن وجهك بشاً، وكلمتك لينة، تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم الذهب والفضة. وقال بعض الحكماء: الكلام الطيب من النسيب الطيب. وقال بعضهم: في بذل التحية أنس، وفي البدار بها تسلية للنفس. وقال رجل لأبي الدرداء: فلان يقرئك السلام. فقال: هدية حسنة، ومحمل خفيف. وقيل لبعض الحكماء: فيمّ التجمّل؟ قال: في لطف الكلام، وإظهار البشر والابتسام.

فمن لقي الناس بالإحسان، وعاملهم بالأخلاق الحسان، فهو الذي يخفّ عليهم جانبه، وتحمّد أنحاؤه ومذاهبه، ولن يعدم منهم حسن الثناء، ومن الله عزّ وجلّ جزيل العطاء، كما قال بعض الشعراء:

إذا حوت خصال الخير أجمعها فضلاً وعاملت كلّ الناس بالحسن
لم تعدم الخير من ذي العرش تحرزه والشكر من خلقه في السرّ والعلن
وسئل بعض الحكماء عن مقدار الخير، فقال: كيف يعرف مقدار شيء لم يُرَ كماله في بشر؟ وقيل لبعضهم: لقد جمع فلان خصالاً محمودة. قال: ما نقصه أكثر مما جمعه، ومن حُرّمه أكثر ممن اصطنعه. وقال بعض الأدباء: ما تخلص أحدٌ من نقص أو خلل، ولا سلّم من زهو أو زلل. وقال بعض الرّجّاز:

متى تصيب صاحب المهذّب؟
هيهات ما أعسر ذاك مطلباً
وشرّ ما طلبته ما استصعباً

فيجب على المرء أن يأخذ نفسه ما استطاع بمتابعة أهل الفضل، اقتداءً بأهل العقل والنبيل، واجتناب مقاصد أهل النقص والجهل، فيتجلّى بحسن الشئائل، ويستبق في مضمار الفواضل.

وقد رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "بُعِثت لأتمم مكارم الأخلاق"، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن الله تعالى جعل مكارم الأخلاق ومحاسنها وصلأً بينكم وبينه، فحسب الرجل منكم أن يتصل إلى الله بخلق منها. وقال بعض الحكماء: من أخذ نفسه بمكارم الأخلاق، جرى من الفضل في ميدان السباق، فاستوجب حسن الثناء بالاستحقاق. وقال طاهر بن الحسين:

إذا أعجبتك خصال امرئ فكأنه تكن مثل ما يُعجبُك
فليس على الفضل والمكرمات إذا جتتها حاجب يحجبُك

فصل

وعليه أن يأخذ نفسه بحسن الصحبة لجميع إخوانه، فيتمم بذلك فضل مبرّته وإحسانه، فيتلقّى كل واحد منهم بما يليق، ويرضاه بما هو له أهل وبه خليق. وفي هذا الفصل لمن أمعن النظر إليه، وصحّح الفكرة فيه، معنى غريب، وسرّ من أسرار التعبد عجيب؛ وذلك أن الله تعالى هو الشاهد القائم، الصاحب الملازم، الذي لا يخلو منه جانب، ولا يحتجب عنه غائب، وهو القائل -تبارك اسمه وعزّ سلطانه-: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [سورة المجادلة، من الآية ٧]، وقال تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [سورة ق، من الآية ١٦] رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "يقول الله عزّ وجلّ: أنا جليس من ذكرني".

فهو الشاهد الذي لا يؤوب، والحاضر الذي لا يغيب، فما أحق العبد أن يأخذ نفسه بأدب هذه الصحبة، ويشغل قلبه برعي هذه القرية، ويختار شرف هذه المنزلة، ولا

يقصر عن حقّ هذه الفضيلة التي لا تنقطع مع انقطاع الأعمار، ولا تنفكّ مع تعاقب الليل والنهار، بل هي المتصلة ما اتصلت الحياة، والمقيمة على المشاهدة بعد الوفاة، فيستشعر المراقبة والخضوع، ويستعمل التواضع والخشوع، وتظّله الهيبة والإعظام، ويستقبل الإجلال والإكرام، فلا يراه حيث نهاه، ولا يفقده من حيث أمره، فهو مالك الأرواح والقلوب، كاشف الأسرار والغيوب، الذي لا يستتر عنه محجوب، ولا يغيب عنه بعيد ولا قريب. وقد يفارق الصاحب ويجفو، ويتغير ولا يصفو، والله -جلّ ثناؤه- أحقّ منّ تقرب إليه، وأجلّ من يراقب اطلاعه عليه، فإذا عرف العبد قدر هذه الصحبة، وجعلها نصب عينيه، فقد أخذ الأدب الكامل بطرفيه، واحتوى جميع الخير واستولى عليه. ثم بعد هذا يصحب الناس بجميل المعاشرة والإنصاف، وحسن المودة والائتلاف، ويعاملهم بالصدق والمصافاة، ويتقدّم إليهم بالملاطفة والمداراة، والناس في ذلك على ثلاث طبقات: منّ فوقك، ومنّ ساواك، ومنّ دونك، فمداراة منّ فوقك إرضاء واستئزال، ومداراة منّ ساواك استصلاح واستدلال، ومداراة منّ دونك تعديل واستحلال. وقال الشاعر:

مادمت حيًّا فدارِ الناس كلَّهُمُ فإنما أنت في دار المداراة

قيل لبعض الحكماء: بمّ تُستجلب المودة، وتُستصفى البواطن؟ قال: بإظهار حسن المؤاخاة، وإبداء جميل الإخلاص والمصافاة، وبذل كريم الملاطفة والمداراة، وإهداء البشر عند اللقاء، والمعاملة بالصدق والوفاء. وقيل في بعض الحكم: منّ حسنت نيته، استقامت طريقته، ومنّ لانت كلمته، استحققت محبته، ومنّ حسن خلقه، استحكمت ألفته، ومنّ رحب ذرعه، وجبت محمده، ومنّ بذل عرفه، تعيّن شكره، ومنّ كثر بشره، رُغب في صحبته. وقيل: خير الإخوان من أعطاك صفو نفسه، وأرضاك في يومه وأمسه.

وحقيق على مَنْ سلك معه هذا السبيل، أن يجري على سنن المقارضة والتعديل،
وقد قال رسول الله ﷺ: "المرء كثير بأخيه، ولا خير في صحبة مَنْ لا يرى لك من الحق
مثل الذي ترى له"، أخذه جرير فقال:

وإني لأستجني أخي أن أرى له عليّ من الحق الذي لا يرى ليا

وقال معن بن أوس:

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته على طرف الهجران إن كان يعقلُ

وقد أخى رسول الله ﷺ بين أصحابه رضي الله عنهم لتستقيم الألفة، وتقوى
الحماية، ويكثر التضافر، وتستحكم المؤازرة، ويتأيد التناصر. وقال عليه السلام:
"عليكم بإخوان الصدق؛ فإنهم زينة في الرخاء، وعصمة في البلاء". وقال علي بن أبي
طالب رضي الله عنه: الغريب ليس له حبيب.

ومن كلام الحكماء: أعجز الناس مَنْ فرط في كسب الإخوان، وأعجز منه مَنْ فرط
فيما ظفر به منهم. ومن وصايا أكثم بن صيفي: لا تتفرقوا في القبائل؛ فإن الغريب بكل
مكان مظلوم، وعاقدوا أهل الثروة. ومَنْ فسدت بطانته كان كمن غصّ بالماء. وقال
أرسطاطاليس: زهدك فيمن يرغب فيك قصر همّة، ورغبتك فيمن يزهّد فيك ضعف
نفس. ومن الحكم المشورة: لقاء الخليل شفاء العليل.

فصل

وما زال انتظام الصحة، والتزام الألفة، يؤثر في أخلاق المرء تأثيرًا يشارك
الطبيعة، وترجع النفس له مطيعة، فيصلحها مصاحبة أهل الخير، ويفسدها مخالطة أهل
الشرّ، وفي ذلك يقول عدي بن الرقاع:

إذا كنت في قومٍ فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي

عن المرء لا تسأل وسلّ عن قرينه فكلّ قرينٍ بالمقارن مقتدي

وقال الخوارزمي^(١):

عدوى البليد إلى الجليد سريعةٌ والجمر يوضع في الرماد فيخمدُ
فيجب عليه انتقاء الصاحب، واختياره من أطيب العناصر وأرفع المراتب، على أن
الصفى الدود، الوقي المحمود، غريب الوقوع، عزيز الوجود، تسمع به الأذن، ولا
يسمع به الزمن، كما قال أبو بكر الخالدي:

ما في زمانك من تعزّ وجوده إن رُمته إلا صديقٌ مخلصٌ
والمودة الصحيحة، المحضة الصريحة، لا تكون إلا عن نفوس مؤتلفة، وأهواء
متفقة غير مختلفة، كما قال رسول الله ﷺ: "القلوب أجناد مجندة، فما تعارف منها ائتلف،
وما تناكر منها اختلف". ومتى كانت عن أسباب باغثة، وأمور حادثة، تخرج من حال
الإرادة والاختيار، إلى حال الاحتمال والاضطرار، فقلما تستحكم قواها، وتنتظم
عراها؛ لأنها منعقدة على غير مقابلة، مؤتلفة على غير مشاكلة، فبوارقها أبدًا خلوب،
وحديثها كذوب، كما قال الكمي:

ألا إن خير الودّ ودّ تطوّعت به النفس لا ودّ أتى وهو معتبٌ
وما الحذار إلا من الاغترار بالتصنّع، ولا الفرار إلا من التكلّف والتطبّع، فتلك
مودة لا تدوم، ولا تقف على ساق ولا تقوم، كما قال علي بن أبي طالب في شعره:
أخوك الذي إن أحزنتك ملمةٌ من الدهر لم يبرح لبثك واجها
وليس أخوك بالذي إن تشعبت عليك أمورٌ ظلّ يلحاك لائها

(١) م: عدي بن زيد الخوارزمي . والبيت لأبي بكر محمد بن العباس الخوارزمي، كما ذكر ذلك
الثعالبي، بتيمة الدهر، ج ٤، ص ٢٧٥ .

وكما قال حماد:

كم من أخٍ لك ليس تنكره ما دمت من دنياك في يسرٍ
متصنع لك في مودته يلقياك بالترحيب والبشرِ
فإذا عدا -والدهر ذو دولٍ- دهرٌ عليك عدا مع الدهرِ

وكما قال إبراهيم بن العباس^(١):

صفيك إن دهرٌ جباك بنعمة وإن خان دهرٌ كان أولَ وائبِ

وكما قال أبو العتاهية:

أنت ما استغيت عن صا جبك الدهرُ أخوه
فإذا احتججت إليه ساعةً مجّك فوه

وقال بعض الحكماء: من هجر أخاه بغير ذنب، كان كمن زرع زرعاً ثم حصده

قبل أوانه. وقال أبو العتاهية:

وشرّ الأخلاء من لم يزل يعاتب طوراً وطوراً يذم
يريك النصيحة عند اللقاء ء ويبريك في السرِّ برِّي القلم

وقال بعض الشعراء:

وكلّ أخ عند الهوينا ملاطفٌ ولكننا الإخوان عند الشدائدِ

وإذا كانت المودة من النفس المطيعة، تمكن اتفاق الأهواء والطبيعة، وهي أصحّ من مودة التناسب، وأصدق عند الامتحان والتجارب. وقد قيل في بعض الحكم المرفوعة: ربّ صديق أودّ من شفيق، وحيب أرقّ من نسيب. ومن كلام قسّ بن ساعدة: تقاربوا بالمودة، ولا تتكلوا على القرابة. وقال إسماعيل بن صبيح: الودّ أعطف

(١) لعله الصولي .

من الرحم. وفي الحكم المثورة: المودة قرابة مستفاد. وقال بعض الحكماء: أقرب الأنساب المودة، فإنها إذا استحكمت لا تحتاج إلى القرابة، والقرابة تحتاج إلى المودة. وقال البحري:

يخونك ذو القربى مرارًا وربما وفي لك عند العهد من لا تناسبه
وحسب الفتى من نصحه ووفائه تمنيه أن يؤذى ويسلم صاحبه
ووصف أعرابي رجلاً فقال: كان -والله- يتحسى مرارة الإخوان، ويسقيهم
عذبه.

ومن صفا لمن يصاحبه قبل الامتحان، واطمأن له دون التجربة، وأعطاه صفقة يمينه قبل الاختبار؛ فقد حاد في استرساله عن السنن، وانخدع في امثاله بلا زمن. وقد قيل في بعض الحكم: من قدم الاختبار أمن من العثار. وقال بعض الحكماء: من لم يقدم الامتحان قبل الثقة أثمرت مودته ندماً، ومن أمثالهم: الاختبار قبل الاختيار. وقال بعض الشعراء:

لا تمدحني امرأ حتى تجربه ولا تذمني من غير تجربٍ
فحمدك المرء ما لم تبئه خطأ وذمه بعد حين تكذيب

فصل

والمذاهب مختلفة في الاستكثار من الإخوان، والاستقلال:
فمنهم من يرى الاستكثار للتأييد والقوة والتضافر والمنعة، كما ذكرنا.
رؤي أن داود قال لابنه سليمان عليهما السلام: يا بني، لا تستبدلن بأخ لك قديم
أخاً لك مستفاداً ما استقام لك، ولا تستكثر أن يكون لك ألف صديق، ولا تستقل أن

يكون لك عدوّ واحد. وقيل لبعض الحكماء: ما لذة العيش؟ قال: إقبال الزمان، وعزّ السلطان، وكثرة الإخوان. ومن كلام المغيرة: التارك للإخوان متروك. وقال بعض العلماء: مَنْ كثرت أصحابه، هَمِي^(١) صحابته، وصفا شرأبه، وقَلّ طلابته. وقال العتبي: كثرة الإخوان نزهة القلوب، ولقاؤهم يفرج الكرب. وقال الشاعر:

ولن تنفك تُحسد أو تُعادى فأكثر ما استطعت من الصديق

ومن رأى الاستقلال من الإخوان فإنما بنى أمره على عدم المتقى منهم والمستجاد، وأنهم يتزيفون عند الانتقاد. وفي مثل ذلك قال الإسكندر: المستكثر من الإخوان من غير خبر كالمستكثر من الحجارة، والمتقى لهم المستخير فيهم كالمنتخب لنفيس الجوهر، فهو لا يجده إلا قليلاً. وفي ترك الاستكثار منهم يقول ابن الرومي:

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب

فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

ومن كلام لقمان عليه السلام: كما يتحوّل العدو بالصلة صديقاً، كذلك يتحوّل الصديق بالجفوة عدواً. ودعا بعض الحكماء فقال: اللهم اكفني بواطن النفاق.

فإذا أمكن الاستكثار من أهل العقل والديانة، وأرباب العفاف والصيانة، وذوي الفضل والجلالة، كان ذلك أحسن وأفضل لا محالة، كما قال الشاعر:

ابل الرجال إذا أردت إخاءهم وتوسمن أمورهم وتفقد

فإذا ظفرت بذي الأمانة والتقوى فبه اليدين قريراً عين فاشد

غير أن وجود هذا الصنف أغرب من العتقاء، ومن ظفر به فكأنها تمسك بالعروة الوثقى، فإنه لا يقاس ولا يعدل، ولا يتعاوض منه ولا يبدل.

(١) م: همت، والأرجح ما أثبتناه.

وقال بعض الحكماء: من فقد خالصان الإخوان، أسرعت إليه نُوبَ الزمان، ولم يجد مقيلاً في ظل الأمان. وقال بعضهم: المال قد يكتسب بعد التَّكَلُّف، وليس لفقدان الصاحب الصَّفِيّ من خلف. وفي ذلك يقول الفرزدق:

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة ولكنَّ إخوان الثقات الذخائرُ
وقال غيره:

يمضي أخوك فلا تلقى له خلفاً والمال بعد ذهاب المال يُكتسبُ
وقال غيره:

همومُ رجالٍ في أمور كثيرة وهمي من الدنيا صديقٌ مُساعدُ
يكون كروحٍ بين جسمين قسماً فجسماهما جسمان والروح واحدُ
وقال الطائي:

ذو الودّ مني وذو القربى بمنزلة وإخوتي أسوة عندي وإخواني
عصابة جاورت آدابهم أدبي فهم وإن فَرَّقوا في الأرض جِيرانِي
أرواحنا في مكانٍ واحدٍ وغدت أبداننا بِشامٍ أو خراسانِ

فصل

ومن تمام المروءة، وكمال الأخوة: حسن الظنّ بالصاحب، وإخلاص المعتقد للحاضر منهم والغائب، وتأول الخير فيما يظهر من التقصير إن ظهر، والتماس العذر لذي الهفوة قبل أن يعتذر، فقد يغلب المرء على طباعه، ويخرجه الاضطراب عن باعه، لا سيما لمن قد حُمدت سيرته، وظهرت سريرته، وعُرفت جبلّته، ورُضيت خلّته، فمثل هذا لا تضير هفوته، ولا توحش نَبوته، ولا تصرعه العثرة، ولا تخلّ بمودته الفترة، والله

يقول، عزّ من قائل: ﴿فَاعْفُ عَنَّهُمْ وَأَصْفَحْ^٤ إِنَّ اللَّهَ تَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة المائدة: من الآية ١٣]. والصفح والعفو إنما يكونان مع الذنب.

وقال رسول الله ﷺ: "إن حسن الظنّ من حسن العبادة"، وقال صلوات الله وسلامه عليه: "إن الله يحب الرفق في الأمر كله". وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تظنّ بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير مسلماً. وقال ابن عباس رضي الله عنه: نُهي المؤمن أن يظنّ بالمؤمن شراً. وقال الحسين رضي الله عنه: يجوز أن يظنّ السوء بمن علم السوء منه، وبدت عليه أدلته، وليس ينبغي أن يطلق القول فيه هكذا؛ فإن الظنّ يكذب كثيراً. وقد قال رسول الله ﷺ: "إياكم والظنّ فإن الظنّ أكذب الحديث". ومن قول بعض الحكماء: من حسن الظنّ بأخيه، وأجمل له التأويل فيما يدعه ويأتيه، فقد بالغ في مبرته وتحقيقه، ومن عدّ سقطه، وأحصى غلظه، فقد ساهه سقطه. وقال أبو منصور الثعالبي: من حقّ الصديق أن تجعل حسناته محسوبة، وسيئاته إلى جور الزمان منسوبة. كما قال^(١):

لا توحشّنك من صديق تَبوّةً ينبو الفتى وهو الجواد الخضرُ
فإذا هفا فاستيقه وتأنّه حتى يفيء به الطباع الأكرمُ

وقال الربيع^(٢):

دارِ الصديق إذا استشاط تغيطاً فالغيظ يُخرج كامنَ الأحقادِ
ولربّما كان التغيطُ باعثاً لمثالب الآباء والأجدادِ

(١) يوحى الكلام بأن القول لأبي منصور الثعالبي، لكن الصحيح غير ذلك. فالبينان لأبي إسماعيل الطالبي. انظر: ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج ٤٨، ص ١٥٩؛ الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ج ٢، ص ٥٤٥، ص ٥٩٣.

(٢) ونسب لغيره.

وقال كثير:

ومن لم يغمض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمّث وهو عاتبُ

ومن يتتبع جاهداً كلّ عشرة يجدها ولا يبقى له الدهرَ صاحبُ

حكى عن خالد بن صفوان أنه مرّ به يوماً صديقان له، فعرج عليه أحدهما وطواه الآخر، فقيل له في ذلك، فقال: نعم، عرج هذا بفضلته، وطوانا ذلك لثقتته. وقال محمد بن داود:

لقد زعم الواشون أنّي فاسد عليك وأني لست فيما عهدتني

وما فسدت لي - يشهد الله - نية عليك ولكن ختنتني فاتهمتني

غدرت بعهدي عامداً وأخفتني فخفتُ ولو أمتنتني لأمتنتني

وقال بعض الحكماء: لا تقطع أخاك إلا بعد عجز الحيلة في استصلاحه. وقال الأحنف

ابن قيس: حقّ الصديق أن يُحتمل له ثلاث: ظلم الغضب، وظلم الدالة، وظلم الهفوة.

روى الزبير بن بكار، عن عمّه قال: كان الحارث بن عبد الله يجلس وعمرو بن صفوان ما يكادان يقومان، وكان عمرو يبعث إلى الحارث في كل يوم بقربة من ألبان إبله، فاختلف ما بينهما، فأتى عمرو أهله وقال: لا تبعثوا باللبن؛ فإننا لا نأمن أن يرده علينا. وانقلب الحارث إلى أهله فقال: هل أتاكم اللبن؟ فقالوا: لا. فلما خرج الحارث مرّ بعمرو بن صفوان فقال: يا هذا، لا تجمعنّ علينا الهجرة وحبس اللبن! قال: أما إذا قلت هذا فوالله لا يحملها إليك غيري. فحملها من ردم بني جُمح إلى أجياد.

وقال بعض الشعراء:

أغمض للصديق على المساوي مخافة أن أعيش بلا صديق

وقال أبو فراس^(١):

لم أؤاخذك إذ جنيتَ لاني واثقُ منك بالإخاء الصحيح

(١) م: ابن فارس، والتصحيح من ديوان أبي فراس، ص ٧٠؛ الشجري، الأمالي الشجرية، ج ٢، ص ١٨٦.

وقبيحُ الصديق غير قبيح

فجميلُ العدو غير جميل

وقال غيره:

حليماً ظريفاً ماجداً فطنا حراً
فكن أنت محتالاً لزلته عذراً

إذا شئت أن تُدعى كريماً معظماً
فمهما بدت من صاحبٍ لك زلةً

وقال بشار بن برد:

صديقك لم تلقَ الذي لا تعاتبهُ
مقارِفُ ذنوبٍ مرةً ومجانِبُهُ
ظمئتَ، وأيُّ الناسِ تصفو مشاربه؟!

إذا كنت في كلِّ الأمور معاتباً
فَعش واحداً أو صلِّ أخاك فإنه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى

ومما قلت في المعنى:

مبرورة يشجى بها الشيطانُ
سَخَّ اللسان بها وصرَّ جنانُ
عطفي إلى ما يكره الخلانُ
للودِّ والودِّ الكريم يُصانُ
كالندِّ يهدي الطيب وهو دُخانُ

الله في عنقي أجلُّ أليَّة
أن لا أعاتب صاحبي عن هفوة
حصلت إلي مع الوشاة فما اثنت
وتأولت نفسي الجميلَ صيانة
وتنسّمتُ منها نسيماً عاطراً

وقلت أيضاً في المعنى:

فزاد إلى السود أضعافهُ
وأنى أوثر إن صافهُ

عذرت صديقي فيما جنى
وأيقن أني له مخلصُ

فجعل

ومن تمام حسن الأدب: ترك التعريض للصاحب بما يكره عند المخاطبة، ومقابلته بما يستثقل عند المكاتبة، وإن قال حقًا، وقصد صدقًا، فإن ذلك أبقى للوداد، وأدعى لمداومة الاصطحاب والاعتقاد، وربّما أحدث التعريض في النفس تأثيرًا لا يعفو أثره، وأورث تغييرًا لا يصفو كدره.

حكى إبراهيم بن المهدي قال: كنت عند الرشيد، فإذا برسول من عند عبد الله بن صالح وعلى يده شيء قد علاه منديل، ومعه كتاب، فجعل الرشيد يقرأ الكتاب ويقول: أبرّه الله! ووصله الله! وفعل به كذا! فقلت: يا أمير المؤمنين، من هذا الذي بالغت في شكره، وأطنبت في ذكره؟ قال: عبد الله بن صالح. ثم رفع المنديل، فإذا بأطباق بعضها فوق بعض، فيها فستق وبنديق وغير ذلك من الفواكه، فقلت: والله يا أمير المؤمنين، ما أرى من الأمر ما يستحقّ به ذلك الشكر إلا أن يكون في الكتاب ما خفي علينا! فدفع الكتاب إليّ، فإذا فيه: قد دخلتُ يا أمير المؤمنين، بستانًا لي قد عمرته بنعمتك، وقد أينعت فواكهه، فأخذتُ من كلّ ذلك شيئًا وصيرته في أطباق قضبان، ووجهت به إلى أمير المؤمنين؛ ليصل إليّ من بركة دعائه كما وصل إليّ من نوافل برّه. قلت: ولا في الكتاب -أيضًا- ما يستحقّ به هذا الثناء. قال: جهلت والله يا إبراهيم! وقصر بك الصبا، أما تراه كيف وصف الأطباق بالقضبان، ولم يذكر الخيزران؛ إذ هو اسم أمي، وكانت تُدعى به، فانظر إلى حسن أدبه، وبرّه، وتحفظه من ذلك وستره.

ومن كلام الحكماء: من لزم الأدب أمن من العطب. وفي بعض الحكم: من تبرّج برّه، تآرج ذكره، وتعيّن شكره. وقال بعضهم: من وصل المبرّة لم تصل إليه مضرة.

وواجبات الإخاء كثيرة، وحقوقه جمة ودواعيه غزيرة، لا تحصى بعدد، ولا تُستوفى
 بجهد ولا جدّ، فمن صاحبَ الإخوان بنفس صحيحة، وبذل لهم الإخلاص
 والنصيحة، وعاملهم بالموودة الصادقة، والرعي لليد السابقة، وإظهار البرّ، وكتمان السرّ،
 والوفاء بالعهد، والإنجاز للوعد، وأداء الأمانة، وحفظ المكانة، والعون على تصاريّف
 الدهور، والانتصار في المغيب والحضور، كما قال رسول الله ﷺ: "خير أصحابك المعين
 لك على دهرك، وشترهم من سعى لك بسوء"؛ والمراعاة مدة الحياة، والمحافظة بعد الوفاة.
 وقيل في بعض الحكم: عند نزول الحوادث تعرف الودود من إخوانك. وقال محمد بن
 إدريس الشافعي رحمه الله، وقيل: إن الأبيات لأبي العتاهية^(١):

أحبّ من الإخوان كلّ مُواتي وكلّ غضيض الطرف عن عثراتي
 يوافقني في كلّ أمر أريده ويحفظني حيًّا وبعد وفاتي
 فياليت هذا الخلّ أتى أصبته وقاسمته في المال والحسنات

فإذا امتثل المرء إخاءه في جميع هذه الخصال المحمودة، وأخذ نفسه باستعمال هذه
 الشيم الممدودة، واستقل بكل ما ذكرناه، وانتحل ما قدّمناه منها وما أخرناه، مما يدخل
 تحت الإحسان، ويعدّ من حسنات الإنسان، وليس بخافٍ على ذي جنان: فقد وقي
 الصاحب قسطه، وأعطى الإخاء شرطه، وبالغ في الإنصاف من نفسه، وأحسن في يومه
 وأمسه. جعلنا الله ممن وقي حقائقه، ووقي بوائقه، بمنّه وكرمه وفضله وامتثانه، لا ربّ
 غيره، ولا إله سواه.

(١) تُنسب للثنين.

فصول جامعة لحكم منظومة ومنتورة، وأخبار مرفوعة، ونوادير مأثورة،
صدرت عمّن تقدّم من الأنبياء، ودرج من العلماء والخطباء، وسلف من
البلغاء والحكماء

أشرفت بأسمائهم صفحات الأزمان وطلعت منها أقيار في سماء الإحسان،
فأخذت بمجامع الأفكار، وعمرت بها مشاهد التذكار، وقطعت بها مراحل السرى في
الأقطار، فصارت أنسا للسمّار، ونزهة للأسماع والأبصار. وقد أتيت منها في هذا
الكتاب ما يبين شرف البلاغة والبيان، ويظهر فضل النظم والنثر من ذوي الإبداع
والإحسان، والشعر لا ينكر فضله إلا جاهله، ولا يعرف حقه إلا عالمه وحامله.

رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة"،
وقال بعض السلف: الشعر لا ينكره إلا أحد رجلين: مرأٍ بكراهيته يظهر بذلك نسكه،
أو جاهل به لا يصلح لروايته. وكان سعيد بن المسيب يقول: أبو بكر شاعر، وعمر
شاعر، وعثمان شاعر، وعلي أشعر الثلاثة. وقيل له: إن فلاناً لا ينشد الشعر. فقال:
نسك نسكاً عجمياً. عوتب عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي في قول
الشعر، فقال: لا بد للمصدور أن ينفث. وقال أنس بن مالك: كنا على عهد رسول الله
ﷺ وما بالمدينة بيت إلا يقول الشعر. قيل: وأنت يا أبا حمزة؟ قال: وأنا.

وكان النبي صلوات الله عليه وسلامه يُنشد عليه الشعر ويأمر به، وينشده إذا
وافق صاحبه الحق، وأحرز قائله الصدق.

وعن الشريد بن سويد قال: أردفني رسول الله ﷺ فقال لي: "هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت؟" فقلت: نعم يا رسول الله! فقال: "فأنشدني"، فأنشدته، فاستزادني، فما زلت أنشده وهو يقول: "هيه". حتى أنشدته زهاء مئة بيت.

والشعر هو ديوان العرب، وإلى إحكامه وأحكامه كانت ترجع في جميع أحوالها، وبه كانت تأخذ في جميع أفعالها وأقوالها، وبه كانت تقيّد مفاخرها، وتخلّد محاسنها ومآثرها، وكانوا يرون خطابه فصلاً، وحكمه عدلاً، ويقولون: هو الشاهد العدل يوم افتخار الكرام، والحجة القاطعة يوم التنازع والخصام، فمن لم يقم على شرفه، وما يدعي لسلفه شاهداً من الشعر، بطلت حجته، ورُدّت دعواه. ومن قيّد شرفه بقوافي الشعر، واستوثق بأوزانه، وعضده البيت النادر، والمثل السائر، قويت حجاجه، واستوضح منهاجه. وفي مثل ذلك يقول ابن الرومي:

أرى الشعر يُحيي المجد والناس تبقّيه أرواح لهم عطراتُ
وما المجد لولا الشعر إلا معاهد وما الناس إلا أعظم نخراتُ
وما أحسن قول أبي تمام:

ولم أر كالمعروف ترعى حقوقه مغارم في الأقوام وهي مغانمُ
وما هو إلا الشعر يسري فيغتدي له غرر في أوجهه ومياسمُ
ترى حكمة ما فيه وهي فكاهة ويقضي بما يقضي به وهو ظالمُ
ولولا خلال سنّها الشُّعر ما درى بغاة العلى من أين تؤتى المكارمُ

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها في صدر حاجته، فيستعطف بها قلب الكريم، ويستميل بها قلب اللثيم.

وكان رضي الله عنه متى عرضه أمر أنشد فيه شعراً.

قال الأصمعي: لما أنشد أشجع بن عمرو السلمي الرشيد قصيدته الميمية، برز فيها
لما انتهى إلى قوله:

وعلى^(١) عدوك يا ابن عمّ محمد رَضْدَان: ضوؤُ الصبح والإِظْلَامُ
فإذا تنبّه^(٢) رعته وإذا هدا سلّت عليه سيوفك الأحلامُ

فلما سمع هذين البيتين استوى جالساً طرباً، وقال: هكذا والله تُمدح الملوك!
وكان عروة بن أذينة الفقيه المحدث الذي روى عنه مالك وغيره -رحمة الله
عليهم- شاعراً مجيداً مقدّماً في الشعر، وكان من أجلّ علماء المدينة، وكان مع علمه
وثقته وثبوته، دقيق الشعر، مليح الغزل، رُوي عنه أنه وقفت عليه امرأة فقالت له: أنت
الذي يقال عنه: الرجل الصالح العالم! وأنت القائل:

إذا وجدتُ أوار الحبّ في كبدي أقبلتُ نحو سُقاة القوم أبتَرِدُ
لئن بَرَدتم ببرد الماء ظاهره فمن حَرِّ على الأحشاء يتقدُّ
لا والله ما خرج هذا من قلب سليم!

ورُوي عن ابن أبي مُليكة أنه قالت عائشة رضي الله عنها: رحم الله لبيد حيث
يقول:

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيتُ في خَلْف كجلد الأجرِبِ
فكيف لو أدرك زماننا هذا؟ ثم قالت: إني لأروي له ألف بيت، وإنه أقل ما أروي لغيره.
وفي هذه المقدمات إشارات تقنع الفطن اللبيب، يستدلّ على البعيد منها بالقرب.

(١) مطموس، واستدركتاه من: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٦١٠ .

(٢) مطموس، واستدركتاه من: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٦١٠ .

وأما شرف البيان والبلاغة، وفضل الخطب والخطابة، فأعدل شاهد على اجتماع شمل الفضل، وأقوى دليل على الاستيلاء على الذكاء والنبيل، ولم يزل يشيد لأهله في ربوع المجد فخراً، ويرفع لهم في مراتب العلم ذكراً، وما زالت الفصاحة تزيد في نباهة الرجال، وتسمو بهم إلى درجات الكمال، وربما سوّدت غير مسوّد، ورفعته من الحضيض الأوهدي^(١)، إلى محلّ النّسر والفرقد.

وقد قيل في بعض الحكم: علامة فضل المرء في ثلاث: الفصاحة والسماحة والرياش . وتعرف علو همة الرجل في ثلاث: إذا رأته يمشي مكبّاً، وسمعته يعرب كلامه، وشممت منه رائحة طيبة. وقال بعض العلماء: ما رأيت على رجل أزيّن من فصاحة، ولا على امرأة أزيّن من شحم. وقال يحيى بن خالد: ما رأيت رجلاً قطّ إلا هبتُهُ حتى يتكلم، فإن كان فصيحاً عظم شأنه في صدري، وإن كان مقصّراً أسقط من عيني. وهو مقتضى قول المتقدمين: المرء مخبوء تحت لسانه. وسئل الخليل عن البلاغة، فقال: كلمة تكشف عن البغية. وقال المفضل: قلت لبعض الأعراب: ما البلاغة؟ قال: الإيجاز في غير عجز، والإكثار في غير خطل. وهذا كلام حسن، وهو معنى قول جعفر بن يحيى: إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيراً، وإذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار عيًّا.

فصل^(٢)

وتقدّم من الحكم في هذا الباب ما تعلق بأسباب الطاعة، ودخل في أنموذج الديانة، وانتظم في سلك الإيمان على حسب الاستطاعة، ومبلغ القدرة مع القصد إلى ترك الإطالة لاختلاف أفنانه، وتشعب أغصانه، والموفق الله.

(١) الوهد: المكان المنخفض كأنه حفرة. لسان العرب (وهدي).

(٢) أرجح أن تكون هذه الأسطر الثلاثة إنما هي خاتمة لفصل مفقود، بدليل قوله في نهايتها: والموفق الله وهي جملة يختم بها - في العادة - فصوله . أما ما سيأتي بعدها فهو فصل مستقل.

فصل

قال الشَّعْبِيُّ: مثل الذنب والاستغفار والتوبة كمثل الداء والدواء والشفاء. وقال بعض السلف: من رُزِقَ التوبة لم يحرم القبول. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: العجب لمن يهلك والنجاة معه. قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار. وقالت عائشة رضي الله عنها: طوبى لمن وجد في صحيفته الاستغفار كثيرًا. وخطب عمر بن عبد العزيز فقال: أيها الناس لا تستصغروا الذنوب، والتمسوا تمحيصها بالتوبة، ﴿ إِنَّ أَحْسَنَتِ يَدَيْتِنِ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [سورة هود، من الآية ١١٤]، وقال الله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ لَمْ يَصِرْوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [سورة آل عمران، من الآية ١٣٥ إلى ١٣٦]. وقال بعض الصالحين: من يُسِّرَ للتوبة لم يُمنع المغفرة، ومن وُفِقَ للدعاء لم يُحْرَمِ الإجابة. وجاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، إني قتلت نفسًا فهل لي من توبة؟ فتلا عليه: ﴿ حَمَّ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ﴾ [سورة غافر، من الآية ٣ إلى ٤]، ثم قال له: اعمل ولا تياس.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إذا عمل العبد الذنب، ثم ندم عليه، غفر الله له قبل أن يستغفر"، وسئل ﷺ: أي شيء أفضل ما يعطي الله العبد إذا أحبه؟ قال: "يلهمه الاستغفار عند التقصير، والشكر عند النعمة".

وقال عبد الله بن عمر: ما ذكر العبد خطيئة عملها فوجل قلبه منها فاستغفر الله إلا محامها عنه. ومن كلام بعض السلف: الذنوب داء، والاستغفار دواء. وقال محمد بن

(١) إضافة مني.

علي رضوان الله عليها لابنه: يا بني، إذا أنعم الله عليك فقل: الحمد لله، وإذا أحزنك أمر فقل: لا حول ولا قوة إلا بالله، وإذا أبطأ عليك رزق فقل: أستغفر الله. وقال أبو عمران السلمي:

وإني لآتي الذنب أعرف ذنبه وأعلم أن الله يعفو ويغفرُ
لئن عظم الناس الذنوب فإنها وإن عظمت في رحمة الله تصغرُ
وقال بعض السلف الصالح: عاملوا الله بتقواه، واسترضوه بطاعته، ولا تملّوا من ذكره؛ ففيه النجاة من النار، ولا تستصغروا الذنوب وتستحقروها؛ فإنه من استصغر الذنب وقع فيه، ومن ركب المعصية أهلك نفسه، فإن الله عز وجل لم يترك صغير الذنوب للأنبياء، فكيف للأشقياء.

رُوي في بعض الآثار: أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام: أتدري لم فرقت بينك وبين ولدك؟ قال: لا يا رب. قال: لقولك لإخوته: أخاف أن يأكله الذئب، فخفت الذئب ولم ترجني، ونظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر حظي له. وكذلك قيل في قصة يوسف عليه السلام أنه لما قال: ﴿أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [سورة يوسف، من الآية ٤٢].

والأشقياء هم الذين يُمهلون ليعاقبوا في الآخرة، ولهذا ينظر قول رسول الله ﷺ: "المؤمن مرزأ، والكافر موقى"، ورُوي عنه عليه السلام أنه قال: "إن العبد ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه". وقال الفضيل لبعض إخوانه: ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فيما أورتك ذنوبك. وقال أبو سليمان الداراني: لا تفوت أحدًا صلاة الجماعة إلا بذنب يذنبه. فطوبى لمن عوقب بذنبه في دنياه، ولم يؤخر إلى عقاب الآخرة.

فصل

وقال لقمان عليه السلام: اثنتان أعيت الحيلة فيهما: إقبال الأمر إذا أدبر، وإدباره إذا أقبل. وقال بعض الشعراء:

جرى القضاء بأمر لا مردّ له والأمر فيما قضى الرحمن مقدور
والله ما الذنب إلا في مقدمة وما لما قدّم الرحمن تأخير

وقال بعض الحكماء: إذا لم يكن في القدر حيلة فالبرم فيه نقصان، والرضا به أمان. وقال الحسن البصري: ليس التسليم أن تُبتلى فتصبر، إنما هو أن تُبتلى فترضى. وقيل: إنه سُئل عمر بن عبد العزيز في مرضه فقيل له: ما تشتهي؟ قال: ما يقضي به الله. ومن أمثال الحكماء: مَنْ سَلِمَ للقدر، سَلِمَ من الغَيْر. ومن الحكم المشورة: مَنْ رَضِيَ بالقضاء، لم تنله الرضاء. وقيل لبعض الصالحين: ما علامة الرضا؟ قال: ترك التمني، والقنوع بالمقسوم، وإطراح الحرص، والتبرّي من الحول والقوّة.

وقال أبو سعيد الخدري رحمه الله: التوكل سكون بلا حركة، وحركة بلا سكون. فقيل في قوله: سكون بلا حركة وحركة بلا سكون: إنها أراد سكون القلب إلى التوكل، فهو مطمئن بالثقة، وأراد بقوله: حركة بلا سكون: الابتهاال والتضرع إلى الله سبحانه، والفرع لله في كل الأحوال، فلا يكون له شغل إلا بالله، وما فيه تأويل سواه. والله أعلم. وحكي أن عابداً من الواثقين بالله تعالى، المتوكلين على الله، اعتكف في مسجد ولم يُسدّ إليه معروف، فقال له إمام المسجد: لو تصرفت في بعض المكاسب لكان لك فيه خير. ولم يزل يعيد ذلك عليه، فلما أكثر، قال له العابد: يهودي في جوار المسجد وعدني برغيفين في كل يوم. فقال له الإمام: إن كان اليهودي صادقاً في ضمانه فعكوفك في المسجد حسن. فقال له: يا هذا، لو لم تكن إماماً تؤم بين يدي الله بعباد الله مع هذا النقصان الظاهر فيك، لكان خيراً لك وللمؤمنين بك؛ إذ قد فضلت وعد يهودي على

ضمان الله تعالى للرزق والذي هو المتكفل به، المسبب له! وليس لمخلوق في الزيادة فيه ولا للنقص فيه حيلة. وهذا من التوكل الصادق.

وحكي أنه سأل بعض الملوك أحد الحكماء عن الأحق المرزوق والعاقل المحروم، فقال: أراد الصانع أن يدل على نفسه، لأنه لو رزق العاقل وحرّم الأحق لظن أن العقل هو الذي يرزق صاحبه، والحق هو الذي يحرم صاحبه. فسبحان المدبر الخلقه، القاسم لرزقه، الذي لا يُشارك في التدبير، ولا ينازع في التقدير، لا ربّ غيره.

وقال بعض الحكماء: أمران يستصلح بهما المرء دنياه: أدب يقوّم به نفسه، واجتهاد يحسن به عيشه، وأمران يستصلح بهما آخراه: عقل يعرف به خطاه من صوابه، ورشده من غيّه، ونزاهة يقهر بها سرفه، ويصرف بها شهوته، والقصد في الأمور يجمع خير الدارين. وقال بعض العلماء: إذا رضي الله عن العبد حمله ما يطيق ودون ذلك، ورزقه من حيث لا يحتسب، ووقفه لفعل الخير، ولم يكله إلى نفسه، واستنقذه من الشدائد، وإذا سخط الله على العبد حمله ما لا يطيق، وأبلاه بدّين لا يجد قضاءه، وأغراه بعداوة من هو أقوى منه على دنياه، وأولعه بمطامع كاذبة، ووكله إلى نفسه، وأسلمه في الشدائد. ونعوذ بالله من شرّ ما خلق، ونسأله التوفيق فيمن وفق، بعزّته.

فصل

وصلاح حال المرء إنما هو بصلاح دنياه، فإذا صلحت حاله في ذاته فدنياه صالحة، وإذا فسدت فدنياه فاسدة؛ لأنها لا تخلو من الصلاح لأقوام والفساد لآخرين في وقت واحد، وأوان غير متباعد، وإلى هذا نظر قول المتنبي:

يقولون: الزمان به فساد وهم فسدوا وما فسد الزمانُ

فجميع أحوال دنيا المرء مصروفة إلى ما يخصه، موقوفة على ما يسوءه ويسره، فإنها ليست بمساعدة لجميع أهلها، ولا بمعاندة لكافة خلقها، وإنما هي متلوثة تسيء وتحسن، وتسّر وتحرزن، وتلين وتحشن، وتقبل وتعرض، وتشيب وتمحض . قال الله سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [سورة هود، من الآية ١١٨ إلى ١١٩]، قال بعض المفسرين: مختلفين في الرزق، يريد اختلافهم في الغنى والفقير. وقال بعض الشعراء:

ومن عادة الأيام أن خطوبها إذا سرّ منها جانب ساء جانبُ
وما أعرف الأيام إلا ذميمة ولا الدهر إلا وهو للشار طالبُ
وقال محمود الوراق:

الدهر لا يبقى على حالة لكنه يقبل أو يدبرُ
فإن تلقاك بمكروهه فاصبر فإن الدهر لا يصبرُ

فمن الحق الواجب على من ساعدته دنياه وأقبلت عليه، وحشدت مسرّتها إليه، أن يتلقى ذلك بشكر الخالق، ويقابله بحسن المحسن الرازق، فيتمثل في عباده جميل صنعه إليه، وينشر فيهم جزيل العناية عليه، فيحسن العشرة، ويجمّل الصحبة، ويقل العثرة، ويجبر الكسير، ويمنح الفقير، ويعين الضعيف، وينصف الشغيف، ويأخذ بالعفو، ويعرض عن السهو، إلى ما يشبه ذلك ويتعلق به من أفعال البرّ التي مواهبها منه أن يتلقى صنيعها بالصبر الجميل، والشكر الجزيل، والرضا بالمقسوم، والتسليم للمحتوم، لما له في ذلك من الأجر المدخور، والثواب الوفور، فما زال الدين مصلحاً لفساد الدنيا، مهوِّناً على المؤمن فيها جميع الأشياء، وهو المنفرد بصلاح الآخرة، والمؤدي إلى نيل خيراتها الوافرة، فما للعاقل عذر في التأخر عما يجمع له صلاح الدارين، ويفوز منه بعلو المنزلتين.

وقال بعض الحكماء: خير الدارين التقى والغنى، وشر الدارين الفقر والعجز.
فأجمل في الطلب فلن يعدوك ما قدر لك.

فصل

وقد قدمنا أن الأدب أدبان: أدب شريعة، وأدب طبيعة، فأدب الشريعة يحمل على أداء الفرض، وأدب الطبيعة يحمل على عمارة الأرض، وكلاهما دأع إلى ما فيه اجتماع شمل الخير، إن شاء الله تعالى.

وقال بعض الحكماء: من استحالة الدنيا وكثرة عيوبها أنها لا تعطي لأحد باستحقاقه، إمّا تزيده وإمّا تنقصه. وقال الحسن البصري: ما أُعطي أحد من الدنيا شيئاً إلا قيل له: خذه، ومثله معه من الحرص. وقال قتادة: يعطي الله العبد الطالب للآخرة ما شاء من الدنيا والآخرة، ولا يعطي طالب الدنيا إلا الدنيا.

وقال عيسى عليه السلام: مثّل طالب الدنيا كمثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى تقتله. ورُوي عنه عليه السلام أنه مثلت له الدنيا في صورة عجوز هتاء عليها من كل زينة، فقال لها: كم تزوّجت من الخلق؟ قالت: لا أحصيهم عدداً. قال: أفكلهم مات عنك أم كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتل. فقال عيسى عليه السلام: بؤساً لأزواجك الباقيات كيف لا يعتبرون بالماضين حتى تهلكيهم واحداً واحداً ولا يكونون منك على حذر. ومن كلامه عليه السلام: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها.

وقال عليه السلام: أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، وإلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميت قلوبهم وتركوا منها ما علموا أنه سياتركهم، وقال عليه السلام:

(١) هذا القول لسيدنا عيسى عليه السلام كما ذكر ابن حنبل، الزهد، ص ٦٠؛ ابن الجوزي، صفة الصفرة، ج ١، ص ٤٣.

تعملون للدنيا وأنتم تُرزقون فيها بغير العمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل!

وحُكي أن أعرابياً نزل بقوم، فقدموا إليه طعاماً فأكل ثم نام في ظل خيمتهم، فاقتلوا الخيمة، فأصابه حرّ الشمس، فانتبه فارتحل وهو يقول هذين البيتين:
ألا إنما الدنيا كظلّ بنيته ولا بدّ يوماً أن ظلك زائلٌ
وقال أيضاً:

ألا إنما الدنيا مقيلاً لراكب قضي وطراً من منزل ثم هجراً
وأشدّ الحسن البصري يصف الدنيا:
أحلام نوم أو كظلّ زائل إن اللبيب بمثلها لا يُخدعُ

فصل

واعلم أن ما على الإنسان شيء أثقل ولا أصعب من معالجة أطراح حبّ الدنيا عن قلبه، وآتى له بذلك ونحن قد خلقنا من تربها، وجبلنا على حبّها! ودواعي حبّ الدنيا أكثر من أن تُحصّر، وأسباب الميل إليها والحرص عليها أظهر من أن تُستتر، وإنما تميزت عند أولي الألباب، وتبيّنت لأهل النظر، فعاملوها بالرفض لها، والاستجناب لما يأملون منها، فوجدوها لا توفي العاقل حقه، ولا تبخس الجاهل حظّه، فنعيمها غير مقيم، وبؤسها لا يدوم. وقال المتنبي:

نحن بنو الدنيا فما بالنّا نعاف ما لا بد من شربهِ
تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هي من كسبهِ
فهذه الأرواح من جوده وهذه الأجسام من تربيهِ

يموت راعي الضأن في جهله ميتة جالينوس في طِبِّهِ
وربما زاد على عُمره وزاد في الأمن على سربه

وقال أبو حازم: إن الدنيا غرت أرقامًا فعملوا فيها بغير الحق، ففاجأهم الموت، فتركوا أموالهم لمن لا يحمدهم، وصاروا إلى مَنْ ليس يعذرهم، فينبغي لنا أن نجتنب الذي كرهناه منهم، ونستعمل الذي غبطناهم به. ودخل الحسن البصري على رجل يجود بنفسه، فقال: إن أمرًا يكون هذا أوله لينبغي أن يُتقى آخره، وإن أمرًا هذا آخره لجدير أن يُزهد في أوله. وقال بعض الحكماء لصاحب له: قد أسمعك الداعي، وأعذر إليك الطالب، ولا أحد أعظم رزية ممن ضيع اليقين، وأخطأه العمل. وما أحسن قول أبي العتاهية:

اسمعُ فقد أسمعك الصوتُ إن لم تبادر فهو الفؤتُ
نل كل ما شئت وعش ناعماً آخرُ هذا كله الموتُ

وقال أيضًا:

يا مؤثر الدنيا لذته والمستعد لمن يفاخره
نل ما بدالك أن تنال من الدنيا فإن الموت آخره

وقال أيضًا:

هي الدار دار الأذى والقذى ودار الفناء ودار الغيّر
فلو نلتها بحذافيرها لمتّ ولم تقض منها الوطر

وقال بعض الحكماء: المجرب أحكم من الطيب، وفي تصرف الدنيا موعظة لكل أريب، فمن صح له يقينه، وسلم له دينه، فلا شيء يضره ولا يشينه، ومن لم يعتبر بتصرف الأيام غرق في بحر الآثام. وما أحسن قول الشاعر:

تَقَنَّعَ مِنَ الْأَيَّامِ إِنْ كُنْتَ حَازِمًا فَإِنَّكَ مِنْهَا بَيْنَ نَاهٍ وَأَمْرٍ
 إِذَا أَبَقْتَ الدُّنْيَا عَلَى الْمَرْءِ دِينَهُ فَمَا فَاتَهُ مِنْهَا فَلَيْسَ بِضَائِرٍ
 فَلَنْ تَعْدَلَ الدُّنْيَا جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَلَا وَزْنَ رَفٍّ مِنْ جَنَاحِ لَطَائِرٍ
 فَمَا رَضِيَ الدُّنْيَا ثَوَابًا لِلْمُؤْمِنِ وَلَا رَضِيَ الدُّنْيَا عِقَابًا لِلْكَافِرِ

وقال محمود الباهلي:

أَلَا إِنَّهَا الدُّنْيَا عَلَى الْمَرْءِ فِتْنَةٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَقْبَلْتَ أَوْ تَوَلَّيْتَ
 فَإِنْ أَقْبَلْتَ فَاسْتَقْبَلِ الشُّكْرَ دَائِمًا وَمَهْمَا تَوَلَّيْتَ فَاصْطَبِرْ وَتَثَبَّيْتَ
 وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَنْ يَصْحَبُ الزَّمَانَ يَرَى غَرَائِبَ الْحَدَثَانِ، وَفِي مَرُورِ اللَّيَالِي
 وَالْأَيَّامِ مَعْتَبِرٌ لِدَوِيِّ الْأَبْجَابِ وَالْأَفْهَامِ. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ:

كَفَى زَاجِرًا لِلْمَرْءِ أَيَّامَ دَهْرِهِ تَرُوحُ لَهُ بِالْمَوْعِظَاتِ وَتَغْتَدِي
 وَمِنْ كَلَامِ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ: مَوَاعِظُ الْأَيَّامِ أُبْلَغُ مِنْ مَوَاعِظِ الْأَنْامِ، وَإِنْ أَعْرَبْتَ مِنْ
 غَيْرِ كَلَامٍ، وَأَفْصَحْتَ عَنِ اسْتَعْجَامٍ، فَمَا زَالَتْ تَوْضِيحٌ لِلنَّازِلِ مَا التَّبَسُّ، وَتَنْطِقُ لِلْسَامِعِ
 عَنِ خَرَسٍ. وَمَا قَلْتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مِنْ كَلِمَةٍ:

نَطَقَ الزَّمَانُ فَكَانَ أُبْلَغَ نَاطِقٍ بِمَوَاعِظِ عَنِهَا الْقُلُوبُ تَتَرَجَّمُ
 أَهْدَى لَنَا عَبْرًا بِغَيْرِ عِبَارَةٍ إِنَّ الزَّمَانَ هُوَ الْفَصِيحُ الْأَعْجَمُ
 مَا لِلْقُلُوبِ تَقَلَّبَتْ عَنْ رَشْدِهَا أَقْسَتْ عَنِ الْإِرْشَادِ أَمْ لَا تَفْهَمُ؟!
 مَا لِلْعَيُونِ تَرَى الْعَجَائِبَ جَمَّةً وَكَأَنَّهَا عَمَّا تَشَاهِدُ نَوْمٌ؟!
 تَبًّا لِلْأَلْبَابِ نَبَتْ أَعْمَالُهَا عَنْ عِلْمِهَا فَكَأَنَّهَا لَا تَعْلَمُ
 وَوَعِظَ رَجُلٌ مِنَ الصَّالِحِينَ بَعْضَ أَصْحَابِهِ فَقَالَ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ الْخَيْرَ كُلَّهُ إِلَّا مَنْ
 اللَّهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَلَمْ تَكْرَهُ لِقَاءَ مَنْ لَمْ تَرَ الْخَيْرَ إِلَّا مَنْ عِنْدَهُ؟! وَاللَّهِ مَنْ مَاتَ مُؤْمِنًا

ولقي الله مؤمناً موقناً لقد تحلّص من الأدناس، وخرج من الوحشة إلى الإيناس، لا سيما
 إن لمحتة نار المحاذير، ورضي بتصرف المقادير، لقد خلّصته تخلص التبر من الحَبْث،
 ونقلته نقيّاً من الدار إلى الجدّث. وقال الشاعر:

جزى الله عنا الموت خيراً فإنه أبرّ بنا من كل أم وأرأفُ
 يعجل تخلص النفوس من الأذى ويؤدني من الدار التي هي أشرفُ
 إذا المرء لم يمدد يدًا لكريمة ولا ذهبَتْ أيامه وهو مسرفُ

وقال بعض الحكماء وقد أشفي: لئن فقدت كثيراً من الخير لقد استرحت من كثير
 من الشر. وقال بعض الصالحين لصاحب له: يا أخي، تنحّ عن الدنيا فلم تُخلق فيها
 البقاء، وأنت فيها طالب مطلوب، تطلب ما قد كُفيت، ويطلبك ما لا تفوته، كأنك لم تر
 حريصاً محروماً، ولا ذارهباً مرزوقاً، وكان الذي حُجب عنك قد كشف لك، والذي
 تفرّ منه قد لحق بك. وما أحسن قول عبد الله بن المعتز:

نسير إلى الآجال في كلّ ساعة وأيامنا تُطوى وهنّ مراحلُ
 ولم نر مثل الموت حقاً كأنه إذا ما تخطّته الأمانيّ باطلُ
 ترحلّ من الدنيا بزايد من التقى فعمرك أيام تُعدّ قلائلُ

فصل

حكى الأصمعي قال: كنّا في حلقة يونس النحوي، فجاء أعرابي فوقف علينا
 فسلم ثم قال: إن الدنيا دار فناء، والآخرة دار بقاء، فخذوا من ممركم لممركم، ولا
 تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم، وتصدّقوا علينا إن الله يجزي المتصدقين، ولا
 يضع أجر المحسنين. فأعجب القوم كلامه، فأخرج رجل منهم درهماً فدفعه إليه،
 فأخذه وجعل يقلّبه ظهرًا لبطن، ثم أنشأ يقول:

نَفْسِي وَمَا جَمَعْتُ مِنْ نَسَبٍ وَحَوِيْتُ مِنْ سَبَدٍ وَمَنْ لَبِدٍ
 نِعَمٌ تَقَادَمَتِ الْعُهُودُ بِهَا فَرِحَانٌ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ
 مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ مَتَهُمَا لَمْ يَكُنْ مُحْتَاجًا إِلَى أَحَدٍ

ثم رمى بالدرهم ومضى، فتبعناه وجمعناه له شيئًا، فأبى أخذه.

ووقفت أعرابية يقوم فقالت: وقاكم الله هول المطلع، وصرف عنكم سوء المضطجع، وأحسن إليكم في المرتجع، ولا ساءكم فيما صنع. فعجبوا من كلامها، وأحسنوا إليها.

ووقف أعرابي على حلقة الحسن بن أبي الحسن البصري فقال: رحم الله من تصدق من سعة، وواسى من كفاف، وأثر من فاقة. فقال الحسن: ما ترك منكم أحدًا إلا سأله. فرُميت إليه عدة خواتم، فأخذها ومضى شاكراً.

ووقف أعرابي يقوم فقال: أيها الوجوه الصباح، والألسن الفصاح، والأنساب الصراح، والمكارم الرباح، والصدور الفساح، والنفوس السباح، هل فيكم من يسمع كلامي، فيعيذني من مقامي؟ فعجبوا منه، وأحسنوا إليه.

ووقف أعرابي بمسجد المدينة وقد أصابته خصاصة، فقال للحاضرين بعد كلام حسن في وصف حاله، ومكابدة إقلاله: هل من رحيم يرحم الغداة نضو سَفَرًا^(١)، وقل سُبُأة^(٢)، فإنه لا قليل من الأجر، ولا غني غير الله تعالى، ولا عمل بعد الموت، والله يقول، عز من قائل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [سورة البقرة، من الآية ٢٤٥]، فَوَعَزَّته ما استقرض من عدم، ولكن ليلوكم فيما آتاكم.

(١) النضو: الدابة التي هزلتها الأسفار وأذهبت لحمها. لسان العرب (نضا)؛ وانظر: ابن عبد ربه،

العقد الفريد، ج ٤، ص ٢١.

(٢) السُبُأة: السفر البعيد. لسان العرب (سبأ).

ووقف أعرابي بقوم فقال: أخ في كتاب الله، وجار في بلاد الله، وطالب خير ما عند الله، فهل من أخ مواسٍ في الله، موقن بثواب الله، يبتغي الشكر مني والأجر من الله؟ فأعجبهم كلامه، وأجملوا معه.

ووقف أعرابي بقوم فقال: رحم الله امرأ لم تمجّ أذنه كلامي، وقدم لنفسه معاذًا من مقامي، واغتنم أجرني، واستدعى شكري، وقبل عذري، إن الحياء - معاشر الأبرار - ما زال يزجرني عن كلامكم، والفقر يدعوني إلى سلامكم، والاضطرار يبعثني على إخباركم، والدعاء أحد الصّدّقَيْن، فرحم الله امرأ أمر بمير، أو دعالي بخير. فقال له بعض القوم: ممن الرجل؟ قال: ممن لا تنفعك معرفته، ولا يضرك جهلك به، أو ما علمت - أيها الرجل - أن سوء الاكتساب يمنع من الانتساب. فعجب القوم من تصاونه، وأحسنوا إليه.

ووقف أعرابي برجل يسأله، فأجزل عطاءه، فقال له الأعرابي: جعل الله لك الخير شاهداً، وجعل المعروف عليك دليلاً، ولا جعل حظ السائل منك خلاف رجائه فيك، وأظهرك في كلّ حزب، وأظفرك في كلّ حرب، وفرج عنك كلّ كرب، وغفر لك كلّ ذنب، وكفأك كلّ همّ، وأغاث بك كلّ معدم، ولا جعلك ممن خاف من رآه، وأخلف من رجاه.

وكتب بعض الصالحين إلى بنيه: يا بنيّ، لا تبخلوا على عباد الله برزق الله، تفوزوا بالشكر، وتحصلوا على الأجر، ويوسع عليكم في الرزق، فإن لم تجدوا فكلمة طيبة، فإنها صدقة، وإن مرّ بكم ذو فاقة فلا تحوجوه إلى السؤال؛ فإنه مقام الإذلال، فإن لم تقدروا فتحية مباركة، فإن فيها أنساً.

وقال بعض العلماء: من أعطى للدنيا عظم في أعين الناس، وصغر عند الله، ولم يكّ أمناً، ومن أعطى لوجه الله عظم عند الله، ولم يصغر في أعين الناس، وكان أمناً.

ووقف أعرابي ببعض الكرام فقال له: إني امتطيت إليك الرجاء، وركبت نحوك
ظهر الأمل، ووفدت إليك بجزيل الشكر، وتوسلت إليك بحسن الظنّ، وتيقّنت
عندك جزيل المنّ، فحقّق الأمانة، وأحسن المثوبة، وأكرم القصد، وأقم الودّ، وعجّل
السراح، وأرح من ذلّ المقام؛ فأمر له بعطاء جزيل.

فصل

قال الحسن رضي الله عنه: سمعت الحجاج يقول في بعض خطبه: إن امرأ ذهبت
ساعة من عمره في غير ما خلّق له، لخلّيق أن تطول عليه حسرته. وحكي عنه أنه قال
عند موت أخيه محمد بن يوسف:

فحسبي ثواب الله من كلّ ميّت وحسبي بقاء الله من كلّ هالك

إذا ما لقيت الله عنّي راضيًا فإن شفاء النفس فيما هنالك

ومن الغريب، والعجب العجيب، مواعظ الحجاج في خطبه، وحسن أغراضه في
كثير من أقواله، حتى يتوهّم السامع أنه لم يُبخس حظًا من البرّ، ولا مُنّع نصيبًا من
الخير، وأفعاله على ما كانت عليه! والله غالب على أمره.

قيل لبعض الحكماء: من شرّ الناس؟ قال: من لم يبال أن يراه الناس مسيئًا. وقال
عبد الله بن صالح: أكرم نفسك عن كلّ دنيّة وإن ساقتك إلى ما ترغب؛ فلن تجد من
نفسك عوضًا، ولا من دينك بديلًا. وقال بعض الصالحين: إن كلّ يوم يمرّ بكم يحمل
ما ثبت فيه من خير أو شر، ثم يمضي فلا يعود أبدًا، فإن قدرتم أن تحفظوا كلّ يوم
بمكرمة وتثبتوا فيه حسنة فلا تؤخّروا؛ فإن الأيام صحائف، فخلّدوا فيها الجميل، فقد
رأيتم حفظها لما استودعت من المحامد والمكارم في قديم الدهر وحديثه.

وقال عامر العدواني: الأيام ثلاثة: يوم مضى عنك لا ترجوه، ويوم أنت فيه لا بد منه، ويوم يأتيك لا تأمنه، فأمس واعظ، واليوم غنيمة، وغد لا تدري ما حكمه . فأما أمس الماضي فشاهد مقبول، وأمين مزود، أودعته زادًا خيرًا أو شرًا، وترك لك عوضًا منه لتحسن صحبته . واليوم الذي أنت فيه ضيف سريع الظعن، فأحسن له الصحبة يلقنك الحجة، ويحبوك الشهادة . وغد المقبل حاكم تنتظر قدومه، فإما حبيب لا يظلم، وإما عدو لا يرحم.

وقال إبراهيم بن أدهم: نهارك ضيفك فأحسن إليه، فإنك إن أحسنت إليه مضى عنك وهو يحمذك، وإن أسأت إليه مضى عنك وهو يذمك، وكذلك ليلك.

وقال بعض العلماء: ثلاث هنّ في ذهاب العمل أسرع من النار في نفيس العرف: إهمال الفكرة، وطول التمني، والاستغراق في الضحك . فإذا أنت أطلت الفكرة، وأكثرت من ذكر الموت، ولم تعتبر بما ترى لم تعتبر بما لا ترى.

وقال الحسن البصري: لقد رأينا أقوامًا كانوا من حسناتهم أشفق^(١) [من] أن تُردّ عليهم منكم من سيئاتكم أن تُعذبوا بها، وكانوا فيما أحلّ الله لهم من الدنيا أزهّد منكم فيما حرم الله عليكم منها. ونظر إلى الناس يوم الفطر ملابسهم فقال: إن الله جعل رمضان مضمارًا لخلقه يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته، فسبق أقوام ففازوا، وتخلّف آخرون فخابوا، فالعجب كل العجب من الضاحك اللاعب في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون، ويخسر فيه المبطّلون، أمّا والله لو كشف الغطاء لشغل المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته عن تجديد ثوبه، وترجيل شعره.

وقيل ليزيد^(٢) الرّقاشي: ما تتمنى؟ قال: ليتنا لم نُخلق، وليت إذ خلقنا لم نمت، وليت إذ متنا لم نبعث، وليت إذ بُعثنا لم نُحاسب، وليت إذ حوسبنا لم نعذب، وليت إذ عذبنا لم نخلّد.

(١) م: حسناتهم أن ترد عليهم أشفق منكم.... والتصحيح من الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٣، ص ٤٥١، ص ٤٦٤ .

(٢) إضافة من الجاحظ كي يستقيم النص .

(٣) م: لزيد، والأصح ما أثبتناه . وهو عدّث بصري، وأحد النّسك البكّائين، وصاحب أنس بن مالك رضي الله عنهما. السمعاني، الأنساب، ج ٣، ص ٨١ .

وقال أبو حازم: نحن نريد أن لا نموت حتى نتوب، ونحن لا نتوب حتى نموت.
وقال بعضهم: أشد من الذنب المثل بالتوبة، وأعظم من الذنب اليأس من الرحمة. ومن
كلام الحكماء: شر من الموت ما تُمنّي الموت من أجله، وخير من الحياة ما إذا فقد كُرهت
الحياة لفقده.

وقال بعضهم: لقد فاز قوم أدبتهم الحكمة، وحنكتهم التجارب، فلم تفررهم
السلامة المنطوية على الهلكة، ورحل عنهم التسويف الذي قطع الناس به مسافة
أجالهم، فشفعوا حسن المقال بجميل الفعال، ونبذوا النعيم الفاني رغبة في النعيم
الباقي، ولم يؤثروا العاجل الخسيس على الآجل النفيس، فلا تراهم إلا في موطن خير،
وعلى سبيل نفع.

وقال المستوغر السعدي في بعض خطبه: أيها الملأ، من أبصر مرّ، ومن جهل
أقصر، ألا وإن لكل غيلة حيلة، ولكل ساقطة لاقطة، ولكل عوراء راع، افعلوا الخير
وقولوه، ودعوا الشر واهجروه، وانبذوا الخبيث، وأنصفوا المظلوم المستغيث، ومن
استنصركم فانصروه، ومن بغى عليكم فأنذروه، ومن اعتذر إليكم فاعذروه.

رُوي أنه لما أراد موسى بن عمران فراق الخضر عليهما السلام قال له: أوصني.
قال: أوصيك بتقوى الله، وأن تجتنب اللجاجة، وأن تمشي في غير حاجة، وأن تضحك
من غير عجب، وأن تعين خاطئاً على خطيئته، وابلك على خطيئتك.

وقيل لبعض الزهاد وقد رُئي يبكي: ما يبكيك أيها الرجل؟ قال: حق عرفته لم
أجد في طلبه، ويوم مضى من أجلي لم أقصر فيه من أملي.

ومن الحكم المشهورة: الرجوع عن الصمت أيسر من الرجوع عن الكلام، والعطاء
بعد المنع أفضل من المنع بعد العطاء، والإقدام على العمل بعد التأني أحسن من الإمساك
عنه بعد الإقدام، والصبر على ما نزل خير من الجزع على ما يتوقع، ولعله لا ينزل.

وقيل لسقراط: ما أقرب الأشياء؟ قال: الأجل. قيل: فما أبعدهما؟ قال: الأمل.
قيل: فما أنسها؟ قال: الصاحب المواتي. قيل: فما أوحشها؟ قال: الموت. قيل: فما أحمدها
عاقبة؟ قال: الصبر. قيل: فما أذمها عاقبة؟ قال: المعاصي.

ومن الحكم الماثورة: حلّ الأجل، وسقط العمل، ومضى الأمل، وبقي الوجل،
وخلت السبل، وانقضت الملل، وبقي الخطب الجلل، فإمّا إلى سراييل القطران، وإمّا إلى
الروح والريحان.

وقال أفلاطون: ينبغي للرجل العاقل أن لا يشغل قلبه فيما ذهب منه. ولا يتعب
ذهنه فيما سلف من عمره، وإنما ينبغي له أن يُعنى بحفظ ما بقي عليه، وينظر فيما
يستانفه؛ فإن النظر في العواقب من الحزم، والفكرة فيما مضى شغل لا يجدي.

وقال أرسطاطاليس: لذة الطالب المدرك لبغيته حصول الإدراك، ولذة المحروم
راحة اليأس. ومرّ برجل قُطعت يده، فقال: أخذ ما لم يكن له فأخذ منه ما كان له، فله
الحسran من الوجهين.

وقيل لبعض الحكماء: لم قيل لخساس الناس: ذبّان؟ قال: لأنهم يتبعون مساوئ
الناس ويتركون محاسنهم، وكذلك الذباب إنما يقع على المواضع الفاسدة من الجسد،
ويترك الصحيح منه.

وقالت الحكماء: خير الإخوان من تلقاك باليمين، وإذا حدثك لا يمين، وشّرهم من
كان لسانه موافقاً، وقلبه منافقاً. ومن أمثال الحكماء: لا شيء أكره من الإسراف، ولا شيء
أعدل من الإنصاف. ومن الحكم المثورة: من حكم فعدل، وصبر واحتمل، وأعطى
وبذل، فقد احتبى بثوب الفضل واشتمل. وقال بعضهم: من عمل بما علم، وعدل إذا
حكم، وصبر إذا ظلم، وصدق إذا تكلم، وجاد بما رُزق وأنعم، فقد قدّم وتقدم.

ومن كلام الحكماء: بالتأني تسهل المطالب، وبالتروي تضوء البصائر، وبالتثبت يدرك الرأي العازب. وقالوا: من تعجل تورط واقتحم، ومن تفكر سلم ولم يندم، ومن سأل سلم وغنم. وقال لقمان عليه السلام: من لم يملك لسانه يندم، ومن لم يتق الشتم يُشتم، ومن صاحب قرين السوء لم يسلم. ومن أمثالهم: من ركب العجلة لم يأمن الكبوة. ومن أقوالهم: سام أهل الفضل بهمتك، وزاحم أهل العلم بركبتك، تفرز بخير دينك وآخرتك، وتقرر مراتب السؤدد عن منزلتك. وقال بعض الحكماء: لكل شيء حياة وموت، فحياة القلوب مجالسة الألباء، وموت القلوب مرافقة الأذلاء.

وقال كسرى لبعض حكماء الفرس، وقد أمر بقتله: أجتك شجرة العلم ثمرة القتل. فقال: أما ما كان معي الجذ فكنت أنتفع بثمره العلم، وأما وقد زال الجذ فلما أنتفع بثمره الصبر، مع أني إن فقدت كثيرًا من الخير فقد استرحت من كثير من الشر. وحكى عبد الله بن المقفع قال: أمر كسرى بضرب عنق بُزُرْجُمِهْر، فوجد في منطقته رقعة فيها مكتوب: إذا كان القدر حقًا فالحرص باطل، وإذا كانت الدنيا فانية فالفرح بالحياة حق، وإذا كان الغدر في الناس طباعًا فالثقة بواحد منهم عجز.

وسمع بعض الحكماء رجلاً يُكثر الكلام، ولا يصغي إلى المتكلمين، فقال له: يا هذا، أنصف من نفسك، فإنما جعل الله لك لسانًا واحدًا، وجعل لك أذنين؛ لتسمع ضعف ما تتكلم.

وقيل: إنه لما مات الإسكندر ودفن في تابوت من ذهب، وقف عليه بعض أصحابه وقال: قد كنت تكتنز الذهب، فصرت اليوم يكتنزك الذهب. وقال آخر: من رهب مقام هذا الجسد لم يرغب في التابوت، ومن رغب في التابوت لم يرهب مقام هذا الجسد.

وقال ابن أبي سنان: حقّ لمن كان الموت مورده، والترب ملحده، والساعة مواعده، والوقوف بين يدي الله تعالى مشهده، أن يطول في الدنيا كمدّه. وقال حاتم الأصمّ: المؤمن مشغول بالفكرة والاعتبار، والمنافق مشغول بالحرص والأمل، والمؤمن يأيس من كل أحد إلا من الله، والمنافق خائف من كل أحد إلا من الله، والمؤمن يبذل ماله دون دينه، والمنافق يبذل دينه دون ماله، والمؤمن يحسن ويبكي، والمنافق يسيء ويضحك.

ورأى إياس بن قتادة شبيبةً في لحيته، فقال: أرى الموت يطلبني، وأراني لا أفوته، اللهم إني أعوذ بك من فجأة الأمور، وبغتات الحوادث . يا بني سعد، قد وهبت لكم شبابي، فهبوا لي شبيبي. ولزم بيته صائماً قائماً . فقال له أهل بيته: تموت هزلاً! فقال: لأن أموت مؤمناً مهزولاً، أحب إليّ من أموت منافقاً سميئاً. وقال محمود الوراق:

| | |
|-------------------|-------------------|
| ويعد فوات الأمل | بكيئاً لقرب الأجل |
| بعقب شبابٍ رحل | ووافد شبيبٍ طرا |
| وشبيبٍ كأن لم يزل | شبابٍ كأن لم يكن |
| وحلّ بشير الأجل | طواك بشير البقاء |

فصل

قيل: لما احتضر الحارث بن كَلْدَةَ، وكان طبيب العرب، اجتمع إليه الناس فقالوا له: مرّنا بأمر نأخذ به بعدك. قال: لا تزوّجوا من النساء إلا شابة، ولا تأكلوا من الضأن إلا الشني، ولا تأكلوا الفاكهة إلا في أوان نضجها، ولا يتداوى أحد منكم ما احتمل بدنه داءه، وإذا تغدى أحدكم فليئم على أثر غدائه ساعة، وإذا تعشى فليخط ولو أربعين خطوة.

وقال بعض الحكماء: الرخاء لا يعرف مقداره إلا من أصابه قحط، والنعيم لا يعرف مقداره إلا من أصابه بؤس، والصحة لا يعرف مقدارها إلا من أصابه مرض، والأمن لا يعرف مقداره إلا من أصابه خوف، والغنى لا يعرف مقداره إلا من أصابه فقر. وفي مثل ذلك يقول أبو تمام الطائي:

والحادثات وإن أصابك بؤسها فهو الذي أنباك كيف نعيمها
وقال عبد الملك الجزيري:

مَنْ لم يذق طعم بؤسهاً وشذتها لم يدْرِ لذة نعماء ولا وَجداً
ورضي الله عن الرضي حيث يقول:

فحسن العلا بعد حال الخضوع وطيب الغنى بعد حال العدم
وقال بعض العلماء: العلم آفته النسيان، والحلم آفته الغضب، والغنى آفته السرف، والكرم آفته المن، والحديث آفته الكذب، والعقل آفته الشهوة، والرأي آفته الهوى، والحسب آفته الفقر، والدين آفته العُجب، والزهد آفته الأمل.

وما أعدل هذا الكلام وأحسن ترتيبه في هذا النظام!

وقالت الحكماء: عشر خصال تقبح في عشرة أصناف من الناس: الضيق في الملوك، والغدر في الأشراف، والكذب في القضاة، والخديعة في العلماء، والغضب في الأبرار، والحرص في الأغنياء، والسفَه في الشيوخ، والمرض في الأطباء، والتَّهْزِي في الفقراء^(١).
وكتب بعض الحكماء إلى ملك هجر وقد سأله أن يكتب له بوصايا ينتفع بها، فكتب له: إن أوفق الأمور ترك الفضول، ولزوم الصواب، والتحفظ من السقوط.

(١) ولم يذكر العاشرة.

وأصل المعيشة استصلاح المال، وترك التبذير؛ فإن التبذير مفتاح الفقر، ومن العجز والتواني تنبعث الهلكة، وأحوج الناس إلى الغنى مَنْ لم يفسده الغنى، وفي المشورة صلاح الأمور، والبرّ جميعه في حُسن الخلق، ورضا الناس غاية لا تُدرَك، والنجاح مع الصبر، والنجاة مع الإيمان، والحلم قائد القلوب، والعفو يوجب المحبة، والرفق بالرية يوجب الطاعة، والفتنة تشوبها الضغائن، والنعمة تُستدام بلزوم الشكر مع أطراح الهوى والمعاصي.

وقال بعضهم: مفاتيح الرزق في ثمان: في حسن الخلق، وحسن الجوار، ولين الجانب، وكفّ الأذى، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وحسن المعونة، وقبول المعذرة. وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه للأحنف بن قيس: مَنْ كثر ضحكك قلت هيبته، وَمَنْ أكثر من شيء عُرف به، وَمَنْ كثر مزاحه كثر سقطه، وَمَنْ كثر سقطه قلّ ورعه، وَمَنْ قلّ ورعه ذهب حياؤه، وَمَنْ ذهب حياؤه مات قلبه.

وروي أن داود عليه السلام قال: ينبغي للعاقل أن يكون مالكا للسانه، مقبلاً على شأنه، عارفاً بأهل زمانه. وقال بعض الحكماء: الغنى وطن، والفقر غربة، والطمع رق، واليأس حرية، والإيمان عزّ، والصبر جنة، وَمَنْ قنع شبع، وَمَنْ طمع صرع. وقال بعض العلماء: مَنْ صحب الدنيا برفض البدع، وإبعاد الخدع، وترك الطمع، فذلك آخذ بحظه من الورع.

ولعمرك إنها خلال تفسد الدنيا والدين، وتجمع أعمال المفسدين؛ فإن البدع من النفاق، والخدع من الشقاق، والطمع من دنى الأخلاق، وما أسرع صرعة الطمع لصاحبه، وما أجلبها لسوء عواقبه، وكفى بها شيمة مشؤوم، وسجية مدموم، وخليقة سفاهة ولؤوم.

حكى الأصمعي عن أشعب الذي يُنسب إليه الطمع، أنه قال: أنا أشأم الشؤم؛ وُلدت يوم قُتل عثمان رضي الله عنه، وُحُتنت يوم قُتل الحسين بن علي رضي الله عنهما. وعاش إلى خلافة المهدي، وأشعب هذا مولى لعبد الله بن الزبير، وكان يقول: نشأت أنا وأبو الزناد في حجر عائشة بنت عثمان بن عفان، فما زال أبو الزناد يعلو وأنا أسفل حتى صار حيث رأيتم، وصرت حيث ترون. وحكى مصعب بن الزبير قال: خرج سالم بن عبد الله متنزهاً إلى ناحية من نواحي المدينة مع حرمة وجواربه، فبلغ ذلك أشعب، فأتى الموضوع الذي كان فيه يريد التطفّل عليه، فوجد الباب مغلقاً، فتسوّر الحائط، فلما رآه سالم قال له: ويلك يا أشعب! أتفعل مثل هذا وأنا مع حرمي وبناتي؟ فقال له أشعب: ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴾ [سورة هود، الآية 79]. فضحك سالم، وتعجب من كلامه، ووجه إليه من الطعام ما أكل وحمل. وقيل لأشعب: ما بلغ من طمعك^(١)؟ قال: ما تناجي قطّ اثنان إلا ظننت أنها قد أمرأ لي بشيء. فقيل له: فهل رأيت أطمع منك؟ قال: نعم، كلبه بني فلان، رأيت قومًا يمضغون كُنْدُرًا^(٢) فحسبتهم يأكلون، فتبعتهم فرسخين.

فصل

حكى أنه لما حضرت الوفاة أوس بن حارثة، اجتمع إليه قومه من غسّان، فقالوا له: يا أبا مالك، إنه قد حضر من أمر الله تعالى ما ترى، وكنا نأمرك بالتزويج في شبابك فتأبى ذلك، وهذا أبوك له خمس من البنين، وليس لك غير مالك. فقال لهم: إنه لم يهلك هالك ترك مثل مالك، إن الذي يخرج العذق من الجريمة، والنار من الوثيمة، قادر على

(١) م: طعمك .

(٢) الكُنْدُر: اللبان، ضرب من العُلك . لسان العرب (كندر).

أن يجعل للملك نسلاً، ورجالاً بسلاً، وكل يقطع إلى الموت أجلاً. ثم أقبل على مالك وقال: يا بني، المنية ولا الدنية، العقاب ولا الحجاب، التجلد ولا التبلد، القبر خير من الفقر، من قل ذل، ومن أمر أفل، ومن كرم الكريم الدفع عن الحریم، والدهر يومان: فيوم لك ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصبر، فكلامهما سينحسر. لا ترهب الملك المتوج، ولا تعبا باللثيم المفلج، ولا تسخر بالضعيف المهرج. سلّم ليومك، حيّاك ربك، وسالمك خطبك. ثم أنشأ يقول هذه الأبيات:

| | |
|---------------------------------|----------------------------------|
| شهدتُ السبايا يوم آل محرّق | وأدرك عمري صحبة الله في الحجرِ |
| ولم أر ذا مُلكٍ من الناس واحداً | ولا سُوقة إلا إلى الموت والقبرِ |
| فعلّ الذي أردى ثموداً وجرهما | سيعقب لي نسلاً إلى آخر الدهرِ |
| تقرّ بهم من آل عمرو بن عامر | عيونٌ لدى الداعي إلى طلب الوفرِ |
| فإن تسكن الأيام أبلين أعظمي | وشيبين رأسي والمشيب مع العمرِ |
| فإن لنا ربّاً علا فوق عرشه | عليماً بما يأتي من الخير والشرِّ |
| ألم يأتِ قومي أن الله دعوة | يفوز بها أهل السعادة والبرِّ |
| إذا بعث المبعوث من آل غالب | بمكةً فيما بين زمزم والحجرِ |
| هناك أبشروا طراً بنصر بلادكم | بني عامر إن السعادة في النصرِ |

ثم قضى أوس من ساعته.

وقيل: إنه لما أرادت أمانة بنت الحارث التعلبية زفاف ابنتها أم إياس بنت عوف إلى زوجها، قالت لها: يا بنية، إن الوصية لو كانت تُترك لفضل أدب، أو لتقدم حسب، لزويتُ ذلك عنك، ولأبعدته منك، ولكنها تذكرة للعاقل، ومنبهة للغافل. أي بنية، لو

استغنت امرأة عن زوج بفضل مال أبيها، لكنت أغنى الناس عن ذلك، ولكن للرجال خُلقتنا، كما خُلقوا لنا. يا بنية، إنك قد فارقت الحمى الذي منه خرجت، والعش الذي منه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، أصبح بملكه عليك مليكًا، فكوني له أمة يكنُ لك عبدًا وشيكًا. واحفظي منه خلاصًا وعشًا، يكنُ لك ذكرًا وذخرًا. أما الأولى والثانية: فالصحة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة؛ فإن في القناعة راحة القلب، وفي حسن المعاشرة مرضاة الرب. وأما الثالثة والرابعة: فالمعاهدة لموضع عينيه، والتفقد لموضع أنفه، فلا تقع عيناه منك على قبيح، ولا يشم أنفه منك إلا أطيب ريح، واعلمي يا بنية. أن الكحل أحسن الحُسن الموجود، والماء أطيب الطيب المفقود. والخامسة والسادسة: التعاهد لوقت طعامه، والتفقد لحين منامه؛ فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم حالة مكربة. وأما السابعة والثامنة: فالاحتفاظ ببيتة وماله، والرعاية لحشمه وعياله؛ فإن أصل حفظ المال حسن التقدير، والرعاية للحشم والعيال من حسن التدبير. وأما التاسعة والعاشرة: فلا تفشينَّ له سرًّا، ولا تعصينَّ له أمرًا؛ فإنك إن أفشيت سرّه لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغررت صدره، واتقي مع ذلك كلّ الفرح إذا كان ترحًا، والاكثاب إذا كان فرحًا؛ فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير، وأشد ما تكونين له إعظامًا، أشد ما يكون لك إكرامًا، وأشد ما تكونين له موافقة، أطول ما يكون لك مرافقة، واعلمي يا بنية أنك لا تقدرين على ذلك حتى تؤثري رضاه على رضاك، وتقدمي هواه على هواك فيما أحببت أو كرهت، والله يصنع لك الخير، واستودعتك الله.

(١) م: تفشن .

(٢) م: تعصن .

وهذه من أكمل الوصايا وأعمّها، وأبلغها وأتمّها.

وحُكي أنه مرّ فتى غرّ من عرب الحاضرة بجارية من عرب البادية، تبهت الناظر جمالاً، وتكبت الذاكر مقالاً، وتشغل النفوس براعة وجمالاً، ففتن بها، فسأل عنها: هل هي بكر أم ثيب؟ فقيل له: هي بكر، لها عم وليس لها أب حي. فقصد رجلاً من كبار قومها، واستنهضه لخطبتها، فأتيا عمها في جماعة فعرضوا عليه الأمر، فقال: والله ما لنا في أنفسنا معها رأي، فكيف في نفسها؟ لكنني أعرض عليها الأمر. فدخل إليها ثم خرج إليهم وقد جلست خلف سجف، فقال: ها هي. ثم قالت: اللهم حيّ العصابة بالسلام، وأجزل لهم ثواب ما قصدوه في دار المقام، قل يا عم. فقال: أي بنية هذا عمك ونظير أبيك يخطبك على ابن عمك ونظيرك، ويبدل لك من الصّداق ما يرضيك. فقالت له: يا عم، أضرت بك الحاجة حتى طمعت طمعاً أحلّ بمروءتك، أتزوّجني غلاماً غراً حضرياً يغلبني بفظته، ويصول عليّ بمقدرته، ويمتنّ عليّ بتفضله، ويطولني بذات يده، ويقول: يا هناء! يا بنت الهناه! ثم أعيش بعدها؟ كلاً إن الله واسع كريم، سميع عليم، غفور رحيم، والله لا تزوّجت إلا رجلاً كاملاً فيه ثلاث خصال: العقل والجمال واللسان، فإنه إذا كان عاقلاً داراني، وإن كان جميلاً أهاني، وإذا كان كسناً أرضاني، وازددت به علماً إلى علمي، وفهماً إلى فهمي، انصرفوا يغفر الله لكم. ثم دخلت.

وحكى الأصمعي، قال: قال لي رجل من بني ضبة: أضللت إبلاً لي فأنا في طلبها حتى أتيت بلاد بني سليم، فبينما أنا في صحرائها إذا أنا بجارية أغشى -والله- بصري إشراق وجهها، فقالت لي: يا عبد الله، ما بغيتك؟ قلت: أضللت إبلاً لي فأنا في طلبها. قالت: أتحب أن أرشدك إلى من عنده علمها؟ قلت: أجل، ومن هو؟ قالت: الذي أعطاكها هو أخذها، وإن شاء ردّها، فسله من طريق اليقين لا من طريق الاختبار.

فأعجبني ما سمعت من بديع مقالها، وراعني ما رأيت من بارع جمالها، فقلت لها: هل لك بعل؟ قالت: كان فدُعي إلى ما خُلق له، ونعم البعل كان. قلت: فهل لك في بعل لا تُذم خلائقه، ولا تُحشى بوائقه؟ فأطرقت طويلًا، ثم رفعت رأسها وعيناها تذر فان دموعًا، وأنشدت:

كنا كغُصنَيْنِ في أصلِ غذاؤهما ماء الجداول في روضات جناتِ
فاجتثَ خيرُهما من جنبِ صاحبه دهرٌ يكرُّ بفرحاتٍ وترحاتِ
وكان عاهدني إن خائني زمنٌ أن لا يضاجع أنثى بعد مثواتي
وكنت عاهدته أيضًا فعاجله ريبُ المنون قريبًا مذسُنِياتِ
فاصرف عنانك عمّن ليس بصرفها عن الوفاء خلابٌ^(١) في التحياتِ
قال الضبي: فانصرفت متعجبًا مما رأيت.

وقال بعض الأعراب: مررت بالمقابر يومًا فإذا أنا بجارية جالسة بين قبرين قد وضعت يديها عليهما وهي تقول: اللهم إنك لم تزل قبل كلِّ موجود، ولا تزال بعد كلِّ مفقود، وقد خلقت والديّ قبلي، وخلقتنني بعدهما منهما، وأنستني بقربهما ما شئت، ثم أوحشتني منهما؛ إذ شئت، اللهم فكن لهما برحمتك مؤانسًا، ولي بعدهما حافظًا كالنساء، واجمعنا في جنتك إذا كنت لهما ناليًا، ولا تجعل قلبي من ذكرك خاليًا. فقلت لها: يا هذه، أعيدي عليّ كلامك. فنظرت إليّ نظرة كارهة، وقالت: ما أنا لك بحرمة فتأنس بمحادثتي وإعادته، أهلك أولى بك، وأقرب لتقوى ربِّك. قال: فاستحييت -والله- من أهل القبور تعجبًا وحياءً مما جاءت به.

(١) م: خلاف، والتصحيح من: الأصبهاني، الزهرة، ج ١، ص ٤٧٤؛ السراج، مصارع العشاق، ص ٦٣٧.

فصل

وعزى ميمون بن مهران عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في ابنة عبد الملك عند وفاته، فقال عمر: هذا أمر لم أزل أنتظره، فلما وقع لم أنكره. وكان قد دخل على ابنة في مرضه الذي توفي فيه. فقال له: كيف تجددك يا بني؟ قال: أجدني في الموت فاحتسبني، فثواب الله خير لك مني. فقال له: والله يا بني لأن تكون في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك. قال: وأنا والله يا أبت! لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب. ثم مات رحمة الله عليه، فلما دفن وقف على قبره وقال: الحمد لله، ورحمك الله يا بني! فلقد كنت برًا بأبيك، وما زلتُ مذ وهبك الله لي بك مسرورًا، وإني اليوم لأشد بك سرورًا، وأرجى لحظي من الله فيك، فغفر الله ذنبك، وجازاك بأحسن عملك، وتجاوز عن سيئتك، ورحم كل شافع يشفع لك بخير من شاهد وغائب، رضينا بقضاء الله، وسلمنا لأمر الله، والحمد لله رب العالمين.

وعزى رجل بعض إخوانه في ولد أصيب به، فقال له: إن حرمان الأجر على المصيبة أعظم من المصيبة، وإن فاتك ما رزئت فلا يفوتك ما عوّضت. وسئل بعض الصالحين وقد انصرف من دفن ابنة، فقال: أسلمناه لمن تولى صنعه وخلقه، وقدّر عمره ورزقه، ووعدته رحمته وعفوه. وعزى بعضهم أخاه في ابنة فقال له: هل رأيت معطيًا لا يأخذ، ومقرضًا لا يتقاضى، ومعيّرًا لا يسترجع عاريتته، ومستودعًا لا يسترده وديعته؟!

وذكر أن عزيرًا عليه السلام قال: إلهي، ما علامة من صافيتّه مودتك؟ قال: أرضيه باليسير، وأثيبه العظيم الخطير، وأصبره على المصاب الكبير. ودخل عبد الملك بن

صالح على الرشيد وقد أصيب بولده، وولد له آخر. فقال له: سرّك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرّك، وجعل هذه هذه مثوبة على الصبر، وجزاء على الشكر. ووقف بعض الصالحين على ابنه وهو يُقبر وقال: اللهم إني غفرت له ما وجب لي عليه، فاغفر له ما وجب لك عليه، فإنك أجود وأكرم، لا ربّ سواك. وقال غيره وقد مات له ابن: اللهم إني قد غفرت له ما قصر فيه من برّي، فهب له ما قصر فيه من طاعتك.

وكتب بعض الحكماء تعزية: أيها الولي الحميم، والصفى الكريم، ماذا يجدي عليك الجزع والفرق، والموت حكم في جميع البرية، وابنك هذا للموت وُلد، وللنفاء خُلِق؟ فارحُ الله له، وارحُ ثوابه لنفسك تكن بين نعمتين، والأزم الصبر لئلا تحبط عملك، وربما شغلك الجزع عن الاستغفار له وأذهلك، فإن الصبر عند حلول النوائب من أجزل العطايا والمواهب، فاحتسب الرزية، واقبل العطية، ولا يفارقك تذكّار ما نزل به، فكأنّ قد نزل بك. والسلام.

وكتب أحد الأدباء يعزّي صاحبًا له: أما بعد: يا أخي، فإن الموت طريق معمر، وجسر معبور، لم يُعصم منه كبير ولا صغير، ولا يفوته غني ولا فقير، والصبر على ما لا بدّ منه حزم ونظر، والجزع على ما لا يطاق دفعه عجز وخور، فمن صبر على مصابه، قوي على أوصابه، وكان أسرع لذهابه، وأجزل لثوابه، ومن جزع لاختلاله، ضعف عن احتمال، وأحبط صالح أعماله، وأفسد عاقبة مآله، فانظر بعين البصيرة إلى هاتين المنزلتين، واختر لنفسك أحسن الحاليتين، فالعاقل من نظر لنفسه، وقدم لغده في أمسه، واذكر حلول الممات، فكّل منتظر آت، وجميعنا معدود في الأموات، لاحق بمن قد فات. والسلام.

فصل

قال بعض الحكماء: إذا نابتك نائبة فتحمّل، وإذا نبا بك منزل فتحوّل، ولا تفارق جميل الصبر فيما دقّ وفيما جلّ، تفرّج من السؤدد بالحظّ الأكمل، وتحزّب من الأجر النصيب الأجزل. وقال علي بن الجهم:

هي النفس ما حمّلتها تتحمّلُ وللدهر أيام تجور وتعدّلُ
وعاقبة الصبر الجميل جميلةٌ وأفضل أخلاق الرجال التفضّلُ
ولا عارَ أن زالت عن المرء نعمة ولكنّ عارًا أن يزول التجمّلُ

وقال بطليموس: لله في السراء نعمة الفضل، وفي الضراء نعمة الثواب والتطهير. ومن كلامه: الأعمال في الدنيا تجارة الآخرة، فمن أحسن واستجاد ربح، ومن أساء وفرط خسر. وقال: الحكمة لا تحلّ قلب المنافق وإن نطق بها لسانه، فإنها هو انتحالها لا اعتقادها. وقيل لبعض الحكماء: أي شيء أفدت من العلم هو أحب الأشياء إليك؟ قال: فعل ما يجب عليّ مختارًا، وترك ما تنكره الشريعة مختارًا. وقال بعضهم: لا ينبغي لمن يعلم أنه يموت إن يتوقع عرضًا من أعراض الدنيا؛ لأنه لا شيء أصعب من الموت، وهو أمر لا بدّ منه، ولا صارف له عنه، وما دونه أهون، وقد لا يقع.

ومن الحكم المشورة: من كثرت فكرته كثرت اعتباره. ومنها: اعتبر بما ترى تستدل به على ما لا ترى، فكم شاهد لك لا ينطق. وقال بعض الحكماء: القلب يبصر ما يعمى عنه البصر، ولا خير في فكرة لا تورث اعتبارًا. ولا في تجربة لا تفيد معرفة. وقال جالينوس: لا ينفع العلم من لا يعمل به، ولا العقل من لا يستعمله.

وقيل لبعض الحكماء: أي الأشياء أشد للمرء تأييدًا وأحمد عاقبة؟ قال: مشاورة العلماء، وتجربة الأمور، وحسن الثبوت. قيل: فأياها أشد ضررًا وأذم عاقبة؟ قال: العجلة، والاستبداد بالرأي، والتهاون بالأمور.

وقال الخضر بن علي: رأيت بعدن حجرًا عليه مكتوب بالحميرية: يا أيها الشديد! احذر الحيلة، ويا أيها العجول! خف التأني، ويا أيها الرائد ما يؤخر! لا تقطع أملك عن بلوغه، ويا أيها المحارب! لا تأنس بالتفكر في العاقبة.

وقال بعض الغزاة: فتحنا حصنًا من بلاد الروم، فوجدنا فيه صورة أسد من حجر عليه مكتوب: الحيلة خير من الشدة، والتأني أفضل من العجلة، والجهل في الحرب أحزم من العقل، والتفكر في العاقبة أمانة الجزع. وذكر أنه أهدى ملك الروم إلى الرشيد سيفًا عليه مكتوب: أيها المقاتل، احمل تغنم، ولا تفكر في العاقبة فتهمزم.

وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: من فكر في العاقبة لم يشجع. وقال بعض العلماء: العجلة تورث الندامة، والتأني يعقب السلامة، والفكرة تصلح الرأي قبل التحام الحرب، وتفسده بعده. وقال لقمان عليه السلام: التوكل على الله أروح، وترك الاسترسال مع الناس أحزم. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لا يزال الدين والدنيا قائمين ما دام العلماء يستعملون ما علموا، والجهال لا يستكبرون عن السؤال عما لم يعلموا، والأغنياء لا يبخلون بما خولوا، والفقراء لا يبيعون آخرتهم بدنياهم.

وقال بعض الحكماء: إذا رأيت النعم مستقبلة فبادروها بالشكر قبل الزوال. وقال بعض الصالحين: من عير أخاه بذنب قد تاب منه ابتلاه الله به، وإذا أراد الله أن يتحف

العبد قيّض له من يظلمه. وقال أبو الدرداء: أبغض الأشياء إليّ أن أظلم من لم يستعن عليّ إلا بالله تعالى. وفي بعض الحكم: العفو مع المقدرة على الانتصار، من علامات الأبرار، يدني من الجبار ويبعد من النار. وقيل: أفضل ما يتقرب به المتقربون طلب العافية، وبذل المعروف، وكفّ الأذى. وجماع العزّي في القناعة، والاستغناء عن الناس. وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: للمؤمن على المؤمن ست خصال: يعودُه إذا مرض، ويشهده إذا مات، ويحييه إذا دعاه، ويُسلّم عليه إذا لقيه، ويشمّته إذا عطس، وينصح له إذا غاب وشهد".

وقال ابن المقفع: ابدل لصديقك مالك، ولمعتفك رفقك ومحضرك، ولعامّة الناس تحيتك وبشرتك، ولعدوك عدلك وإنصافك، وكن ضئيلاً بدينك وعرضك.

وقالوا: أعظم مكاسب الدنيا مسرة مودة أهل الدين والمروءة. وقيل: عدم مع حزم خير من غنم مع عجز. ومن وصاياهم: سالم عدوك ما استطعت وإن كنت ذا قوة وفهم. وقال بعضهم: الأدب والعلم أصل السعادة والخير، والحلم والتواضع جماع البرّ، وسبب درك حسن المنزلة. وفي منشور الحكم: أفضل الزاد ما تزود ليوم المعاد، وعند الغاية يعرف السابق. ومن أقوال الحكماء: المال يستر القبائح، والفقر يحجب المحاسن إلا لمن رفض الدنيا اختياراً، وتركها تهاوناً بها واستصغاراً. وقال بعضهم: طلب الغنى عدم الغنى، ومن ترك الغنى نال الغنى. وفي مثل ذلك يقول الناشئ:

وجود الغنى أن لا تكاثر في الغنى ونيل الغنى أن لا تفكر في الغنى

وقال غيره:

ومن كان في الدنيا يصون مكانه تجذّه على الدنيا أشدّ تصاونا

وقال علي بن [عبد العزيز القاضي الجرجاني] (١):

يقولون لي: فيك انقباض، وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجها

وقال:

أرى الناس من داناهم هان ومن أكرمه عزة النفس أكرما
وما كل برقٍ لاح لي يستفزني ولا كل من في الأرض أرضاه منعما
إذا قيل: هذا منهلٌ، قلت: قد أرى ولكن نفس الحرّ تحمل الظما

وقال بعض الحكماء: العزلة عن الناس تصون العرض، وتستر الفاقة، وتبعث على السلامة، وترفع المؤونة، وتورث الراحة، وتبني حسن الذكر، وتقصر الأمل، وتؤمن من الملل، وتدفع الزلل، وتولد الفكرة في الآخرة. وأسلم الناس، من زال عنه الالتباس، وصار في ذمة السلامة من الأذناس.

وقالوا: سبع خصال لا توجد معهن غربة: حسن الأدب، واجتناب الريب، وكف الأذى، وسعة الخلق، واحتمال الصبر، وجميل المعاشرة، وصحة الناس على أخلاقهم. وفي منشور الحكم: احفظ أخاك وإن لمته، واصدقه وإن سؤته، وقالت الحكماء: الصديق كالدواء يحتاج إليه في كثير من الأوقات، والصديق المخلص كالغذاء لا يُستغنى عنه، والعدو كالداء يضر متى حلّ، ويوهن إذا نزل.

وقالوا: قد يكون طلب الحياة سبباً لقرب الوفاة، وطلب الوفاة سبباً لنيل الحياة. وقال بعضهم: موت الرجل الصالح راحة لنفسه، فجعة لغيره. وموت الرجل الفاجر فجعة لنفسه، راحة لغيره. ومن كلام الحكماء: آفة العمل الكسل، وآفة الأمل الأجل، وآفة الحرية الطمع، وآفة الدين البدع.

(١) م: الجهم، والتصحيح من كتب الثعالبي: التمثيل والمحاضرة، ص ١٢٤؛ خاص الخاص، ص ٢٢٨؛

يتيمة الدهر، ج ٤، ص ٢٥.

وقال حكيم: ليس العالم من علم الخير من الشر، فقد يبدو ذلك لغير العالم، وإنها العالم من علم خير الشرين، وفي الشر خيار. وقال بعضهم: لا تجعل شفيحك أحدًا فيه طمع؛ فإنه لن يؤثر على طمعه، ولا من لا مروءة له؛ فإنه لا يبالي بما يصل إليك، ولا يرى العار، واستشفع بأهل العلم؛ فإن العالم يؤثره العاقل، ويحبه الدين، ويكرمه السلطان، ويحمله الكبير، ويهابه الصغير، ويعرف مقدار الشفاعة. وقد قال بعض الحكماء: مَنْ أَحَبَّ الْعِلْمَ وَالْعُلَمَاءَ، صَارَ فِي الْفَضْلِ عِلْمًا. وقال الأحنف بن قيس: يجب على ذي الأمر أن يلتزم ثلاثاً: حب العلم والعلماء، ورحمة الضعفاء، والاجتهاد في مصالح العامة.

وقال بعض الحكماء: إذا اجتمع للملك كبر الهمة مع جزالة الطبع، ولين الجانب مع تواضع الديانة، فقد أدى في عباد الله الأمانة، فإن عظم الهمة تحفظ الرياسة، والجزالة تورث الهيبة، ولين الجانب يورث المحبة، والتواضع في الدين يوجب حسن الاستطاعة وجميل العاقبة. ويجب عليه أن يتخذ الناس أهلاً وإخواناً، ولا يتخذ أموالهم قنية، ولا يستعمل عليهم شرارهم أعاوناً، فإذا لزم ذلك فقد استحقَّ الرياسة، وفاز بصواب التدبير والسياسة، واستطاب المحيا، وأخذ بحظه من الدين والدنيا.

وقال عبد الملك بن مروان: أفضل الرجال مَنْ تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وأنصف عن قوة. ومن كلام الإسكندر: لا تلبس بالسلطان في وقت اضطراب الأمور عليه، فإن البحر لا يكاد يسلم راكبه في وقت سكونه، فكيف مع اختلاف رياحه واضطراب أمواجه؟ وقال بعض العلماء: لا يزال الزمان زماناً ما وُقر العالم، وعُظم الشريف، وأطيع الأمر، وكُبر الشيخ المسن، ووفي كل ذي حق حقه.

وخطب زياد الناس فقال، بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس، إني قد نبذت إليكم خلافاً ثلاثاً فيهن النصيحة: تبجيل العلماء، وإعظام ذوي الأقدار وإجلال أهل الشرف، وتوقير ذوي الأسنان، وإني أعاهد الله عز وجل أن لا يأتيني شريف بوضع لم يعرف له فضل شرفه إلا عاقبته، ولا يأتيني عالم بجاهل قد لاحاه في علمه ليهجنه بذلك إلا عاقبته، ولا يأتيني شيخ بحديث السن قد استخف به ولم يراع سنّه إلا أوجعته ضرباً؛ فإنها الناس بأعلامهم وعلمائهم وذوي الأسنان فيهم. وقال الأقفه الأودي:

تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحوا وإن تولوا فبالأشرار تنقاد

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهّاهم سادوا

وما زال أهل الجلال والرفعة، وأرباب الفضل والمروءة، يُكرمون ويبجلون، وإن جار عليهم الزمان، وعصّتهم النوائب، كالأسد يُهاب وهو موثق، وما زال أهل الضعة والخساسة تصغر أقدارهم عند الناس، وإن ساعدتهم الزمان، وسالمهم الحدّثان، كالكلب يهون قدره، ويصغر أمره، ولو كان مطوّفاً بالذهب.

وقال رجل من الحكماء: ستّ خصال من كنّ فيه فهو إنسان، فإن عدم منها واحدة فقد عدم تدبير الإنسانية، وإن فقد جميعهن فليس بإنسان، وإنما هو في صورة إنسان، وهي: الأدب، والحياء، والألفة، والأنفة، والشكر، والرجاء، وهذه الخصال مجموعة كلّها في الكلب: أما أدبه: فكثرة مطاوعته، وتصرفه مع الإشارة، وأما حياؤه: ففي قبوله الزجر، وانصرافه عند الانتهار، وأما ألفتة: فمحاماته عن ربّه وما له من ماشية وغيرها، وأما شكره: فصبره على فقر صاحبه، ولا يزال يلوذ بفنائمه، ولا يلتمس غيره، وأما رجاءه: فبصّبصته لصاحبه، وتمسّحه به، وتلويحه له بذنّبه، فلقد ينبغي للإنسان الحيواني الناطق العاقل أن يستحي أن يكون في الكلب خصال لا تكون فيه.

فصل

حكى الأصمعي قال: بينا أنا في طريق الحج في يومٍ شديد الحر في حمارة القيظ، إذا بشيخ قد أقبل من الحاضرة، يقود أمةً سوداء، ونحن قد ضربنا خباءنا وقدمنا غداءنا، فوقف بباب الخباء، فسلم فرددنا عليه، وقلت له: ادخل أيها الشيخ، وأصب معنا من طعامنا. فقال: إني صائم. فقلت: في مثل هذا اليوم وشدة حرّه؟ فقال: يا ابن أخي، إنما هي أيام قلائل، فلا أدعها تذهب تفانيًا. ثم قال هل فيكم من يكتب؟ فقلت: نعم. فقال: اكتب ولا تعد ما أملي عليك: هذا كتاب من عبد الله بن عقيل لأمة لؤلؤة إني قد أعتقتك لوجه الله الكريم، ولاقتحام العقبة، فلا سبيل لي عليك، ولا لأحد إلا سبيل اللولاء، المنة عليّ وعليك من الله واحدة، ونحن في الحق سواء. قال الأصمعي: فلما انصرفتُ أخبرت الرشيد بذلك، فقال: أحسن والله! ثم قال لي: أقسمت عليك إلا ما ابتعت لي ألف عبد وأعتقتهم بهذا الأحرف ولا تزُد عليها شيئًا.

وحكى الأصمعي أيضًا مثلها، قال: رأيت أعرابيًا أعتق عبدًا له، وكان تغلبيًا، فأخذ بيد عبده وخرج إلى الناس، فقال: أمعكم دواة وقرطاس ورجل يكتب؟ قالوا: نعم. قال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب كُتب عن محمد التغلبي لغلامه ميموني. إنك كنت عبدًا لله، فوهبك لي، وقد وهبتك لواهبك، وللجواز على الصراط، وكنت أمس لي، فأنت اليوم مثلي، لا سبيل لي عليك إلا سبيل اللولاء.

وفي بعض ما حكى عن الحجاج بن يوسف: أنه قُدّم إليه غداؤه يومًا، فقال: اطلبوا من يتغدى معي. فخرجوا، فإذا بأعرابي في شملة، فأتي به إليه، فقال الأعرابي:

السلام عليكم . فردّ عليه السلام الحجاج، وقال: هلمّ يا أعرابي، فأصبّ معنا من غدائنا. فقال: قد دعاني مَنْ هو أكرم منك فأجبتَه. قال: ومَنْ هو؟ قال: دعاني الله إلى الصوم، وإني لصائم. قال: وصوم في مثل هذا اليوم الحار؟ قال: صمت ليوم هو أحرّ منه. قال له الحجاج: فأفطر اليوم وصم غدًا. قال: أو يضمن لي الأمير أني أعيش إلى غد؟ قال: ليس ذلك إليه. قال: فكيف تسألني عاجلاً بأجل لا تملكه! قال: إنه طعام طيب. قال: ما طيبه خبّازك ولا طبّاخك. قال: فمن طيبه؟ قال: العافية. فُبّهت الحجاج، وقال: ما رأيت كالأيوم.

وهذا مأخوذ من قول أرسطاطاليس: بالعافية يوجد طيب الطعام والشراب، وبالمكروه يتنغص لذيد العيش.

ودخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي توفي منه، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنك فطمت أفواه ولدك من هذا المال فتركتهم عالية، ولا بدّ لهم من شيء يصلحهم، فلو أوصيت بهم من أهل بيتك من يكفيك مؤونتهم. فقال عمر: أجلسوني؛ فأجلسوه، فقال: يا مسلمة، أمّا ما ذكرت أني فطمت أفواه ولدي من هذا المال، وتركتهم عالية، فإني لم أمنعهم حقًا هو لهم، ولم أعطهم حقًا هو لغيرهم، وأمّا ما سألت من الوصاة بهم، فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولّى الصالحين. إنها بنو عمر أحد رجلين: رجل اتقى الله، فجعل الله له من أمره سرًا، ورزقه من حيث لا يحتسب، أو رجل عنده فجور، فلا يكون عمر أول من أعانه على المعصية. ثم دعا بيته، وهم يومئذ اثنا عشر غلامًا، فجعل يصعد فيهم بصره ويصوّبه حتى اغرورقت عيناه بالدموع، ثم قال: بنفسي فنية تركتكم ولا مال لهم، يا بني، إني تركتكم

من الله بخير أنكم لا تَمْرُونَ بمسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب، إن شاء الله يا بَنِي، إني نظرت بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار، فكان أن تفتقروا خيراً من دخول أيكم النار . يا بَنِي، عصمكم الله، رزقكم الله. قالوا: فما احتاج أحد منهم، ولا افتقروا إلى آخر الدهر.

وأوصى أعرابيّ بنيه فقال: يا بَنِي، عاشروا الناس معاشرة إن غبتم عنهم حنوا إليكم، وإن مَتَمَّ بكوا عليكم.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية، ولو كانت بنت ذي القصة -يعني يزيد بن الحصين الحارثي- فمن زاد ألقيت زيادته في بيت المال. فقامت امرأة من صفّ النساء طويلة، وقالت: لم تمنعنا يا أمير المؤمنين حقاً جعله الله لنا والله يقول: ﴿وَأَتَيْتُهُنَّ إِحْدَنُهُنَّ فَنَطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ [سورة النساء، من الآية ٢٠]؟ فقال عمر: امرأة أصابت ورجل أخطأ.

ودخل القاضي ابن أبي ليلي على أبي جعفر المنصور، فقال له أبو جعفر: إن القضاة يردّ عليهم من طرائف أخبار الناس ونوادير أمورهم غرائب وعجائب، فإن كنت طراً عليك شيء من ذلك فحدثنا. فقال له: نعم . طراً عليّ منذ ثلاث أمر لم أر أعجب منه، أتنتني عجوز تكاد تنال الأرض بوجهها، فقالت: أنا بالله ثم بالقاضي أن يأخذني بحقي ويعينني على خصمي. قلت: ومن خصمك؟ قالت: بنت أخي. فدعوتها، فجاءت امرأة ضخمة، فجلست منبهرة، فقالت العجوز: هذه ابنة أخي، أوصى بها إليّ أبوها، فأحسنّت التربية، وأجلت الولاية، وأدّبت، ثم زوّجتها ابن عمها، وأفسدت عليّ بعد

ذلك زوجي. قال: فقلت لها: ما تقولين؟ قالت: يأذن لي القاضي فأسفر عن وجهي وأدلي بحجتي؟ فقالت لها: يا عدوة الله! تريدان أن تفتني القاضي بجمالك؟ فأطرقت -والله- خوفاً من مقاتلتها، ثم قلت لها: تكلمي. قالت: صدقت، أصلح الله القاضي، هي عمتي، أوصى بي إليها أبي، فربت وأحسن التريبة، ووليت فأجلت الولاية، وأدبت فأبلغت، وزوجتني ابن عمي، فعطف الله بعضنا على بعض، واغبط كل واحد منا بصاحبه، فلما أدركت ابنتها واحتاجت إلى الزوج حسدتني فيما رأت بيني وبين ابن عمي من جميل الألفة، وحسن العشرة، وأرادته لابنتها، فسعت بيني وبينه، وحسنت ابنتها عنده، حتى علقها، وخطبها إليها، فقالت: لا أنكحك حتى تجعل أمر زوجتك بيدي، فطلقتني عليه ثلاثاً، فقلت: صبراً لأمر الله تعالى وتسليماً لقضاء الله، فما لبثت أن انقضت عدتي، فبعث إليّ زوجها أني قد علمت ظلم عمّتك لك، وإفسادها عليك، فهل لك في زوج؟ قلت: ومن هو؟ قال: أنا. فقلت: نعم، إن جعلت أمر عمتي إليّ. قال: قد فعلت، فطلقتها عليه ثلاثاً، ودخل بي، فتألفنا جميعاً ما شاء الله حتى توفي -رحمه الله- ثم لم ألبث بعد انقضاء عدتي منه أن عطف الله قلب ابن عمي علي، وتذكر ما كان من موافقتي له، وجريي معه، فبعث إليّ: هل لك في المراجعة؟ قلت: قد أمكنتك إن جعلت أمر بنت عمتي إليّ. قال: قد فعلت، فطلقتها عليه ثلاثاً. فوثبت العجوز وقالت: أصلح الله القاضي، فعلت أنا هذا مرة، وفعلته هي مرة بعد أخرى. فقلت: إن الله عزّ وجلّ لم يوقّت في هذا شيئاً، وقال وقوله الحق: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ﴾ [سورة الحج، من الآية ٦٠] فعجب أبو جعفر المنصور ومن حضر مما ذكر.

وذكر في حديث مرفوع: أن امرأة أتت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقالت: يا أمير المؤمنين، إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل، وأنا أكرهه إن أشكوه وهو يعمل

بطاعة الله. فقال: نعم الزوج زوجك! فجعلت تكرر عليه القول، وهو يكرر عليها الجواب، فقال له كعب بن سور الأزدي^(١): يا أمير المؤمنين، هذه المرأة تشكو زوجها في مباحثته إياها عن فراشه. فقال له عمر: كما فهمت كلامها فاقضِ بينها. فدعا كعب زوجها، فأتي به، فقال له: إن أمتك هذه تشكوك. قال: أفي طعام أو شراب أو لباس؟ فقالت المرأة:

يا أيها القاضي الحكيم أرشدُه ألهى خليلي عن فراشي مسجدهُ
زهده في مضجعي تعبدهُ نهاره وليله ما يرقدهُ
فلستُ في أمر النساء أحمدُه أمضِ القضا يا كعبُ لا ترددهُ

فقال زوجها:

زهدي فراشها وفي الحجل أني امرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة النحل وفي السبع الطول وفي كتاب الله تخويفٌ جلل

فقال كعب:

إن لها حقاً عليك يا رجل! تصيبها في أربع لمن عقل
فوفها ذاك ودع عنك العلل

ثم قال: أيها الرجل، إن الله قد أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع، فلك ثلاثة أيام ولياليهن، فتعبّد فيها، ولها يوم و ليلة، والله تعالى قد أباح لك ذلك، ولا حرج عليك فيه. فقال عمر رضي الله عنه: والله ما أدري أي أمر بك أعجب: أفهمك أمرهما أم حكمك بينهما؟! اذهب فقد وليتك قضاء البصرة.

وذكر أبو حفص بن شاهين في كتاب (النزهة والأخبار) بسنده: أن امرأة تقدمت إلى شريح القاضي، فقالت له: أيها القاضي إنني جئتكم مخاصمة. قال لها: وأين

(١) م: الأسدي، والتصحيح من: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١٠، ص ٢٨٠.

خصمك؟ قالت: أنت خصمي. فأخلى المجلس، وقال لها: تكلمي. فقالت: إنني امرأة لي إحليل ولي فرج. فقال لها: قد كان لأمر المؤمنين فيها قضية من حيث يجيء البول. قالت: إنه يجيء منها جميعاً. قال لها: من أين يسبق البول؟ قالت: ليس يسبق منها شيء، يجيئان في وقت واحد، وينقطعان في وقت واحد. قال: إنك لتخبريني بالعجب. قالت: وبما هو أعجب من ذا: تزوجني ابن عمي، فأخدمني خادماً، فوطئتها فأولدتها، وإنما جنثت حيث ولدي لتفرّق بيني وبين زوجي. فقام من مجلس القضاء، فدخل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأخبره بما قالت المرأة، فأمر بها فأدخلت عليه، فسألها عما قال القاضي، فقالت: هو الذي قال. فأحضر زوجها ابن عمّها، فقال له: هذه امرأتك وابنة عمك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: أفعلمت بما كان؟ قال: نعم، أخذمتها خادماً فوطئتها فأولدتها. قال: ووطئتها بعد ذلك؟ قال: نعم. قال: لأنت أجسر من خاصي الأسد! جيئوني بدّنينير الخادم وامرأتين. فجيء بهن، فقال لهم علي رضي الله عنه: خذوا هذه المرأة، فأدخلوها إلى بيت، وجردوها من ثيابها، وعدّوا أضلاع جنبها. ففعلوا، ثم خرجوا إليه، فقالوا: عدة الجنب الأيمن اثنا عشر ضلعاً. فقال علي رضي الله عنه: الله أكبر! جيئوني بالحجام. فجيء به، فأخذ من شعرها، وأعطاهم رداءً وحذاءً، وألحقها بالرجال، فقال الزوج: يا أمير المؤمنين، امرأتي وابنة عمي ألحقتهما بالرجال؟! ممن أخذت هذه القضية؟ فقال علي رضي الله عنه: ورثتها من أبي آدم عليه السلام إن حواء خلقت من ضلع آدم، وعدد أضلاع الرجال أقل من أضلاع النساء بضلع، وعدد أضلاعها أضلاع رجل. فأمر بهم فأخرجوا.

وأُسند أيضاً عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه برجل له رأسان وفمان وأنفان وقبّان ودبران، وله أربعة أعين في بدن واحد، ومعه

أخت له، فقالوا له: يا أمير المؤمنين، قل في ميراث هؤلاء. قال: فجمع عمر رضي الله عنه أصحاب النبي ﷺ وفيهم الحسن بن علي رضي الله عنهما فقال لهم عمر: قولوا في ميراث هؤلاء. فتكلموا. فقال: ما أراكم أصبتم، أين علي بن أبي طالب؟ قالوا: هو في حائط له. فمضى الحسن بن علي رضي الله عنهما إلى أبيه فأخبره، فقال: إن هذه لمعضلة، وفيها غير قضية. قال: فجاء علي ومعه الناس، فقال له: عمر: قل يا أبا الحسن في ميراث هؤلاء. قال: أقول: إن فيه غير قضية، فأول قضية أن ينوم، فإن أغمض الأعين جميعاً وعَضَّ من الفمين جميعاً فبدن واحد، وإن فتح بعض الأعين وعَضَّ من أحد الفمين فبدنان، هذه قضية. وأما قضية أخرى، فيُطعم ويُسقى حتى يمتلئ، ثم يغوط ويبول، فإن بال من المبالين جميعاً وتغوط من الدبرين جميعاً فبدن واحد، وإن بال من أحدهما وتغوط من أحدهما فبدنان. فكبر المسلمون تكبيرة ارتجت لها المدينة، فقام عمر فقبل رأس علي رضي الله عنهما وقال: كم كربة كشفها أبو الحسن: ثم حملا إلى أدنى المدينة، فجاء بعد ذلك يطلبان النكاح، فأرسل عمر إلى علي رضي الله عنهما فخلا به، فقال له علي: يا أمير المؤمنين، إنهما سيخاصمانك، فقل لهما: لا يجوز نكاحكما حتى أجيبك أنا. فقالا: يا أمير المؤمنين زوجنا. فقال عمر: لا يجوز نكاحكما. فقالا: أعطنا حظنا من كتاب الله عز وجل. فقال علي رضي الله عنه: نعم لا يكون فرج في فرج وعين تنظر إليه. فكبر المسلمون تكبيرة ارتجت لها المدينة، ثم حملا إلى مكانها، فقال علي: يا أمير المؤمنين، أما إذ جرت فيها الشهوة فقلما يعيشان، وإن أحدهما لموت قبل الآخر بساعة. قال: فلما كان بعد ثلاث إذا رجل على ناقة يسأل عن منزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد دفنها، وقال: إن أحدهما مات عند مغيب الشمس، والآخر عند اشتباك النجوم.

كذا جاء الخبر: "ثم ينظر هل كان ذلك الشخص واحداً أو اثنين"، إلا أن في قول علي رضي الله عنه: "لا يكون فرج في فرج وعين تنظر إليه" دليلاً على أنها اثنان. وحكى هشام بن مرة^(١) قال: بينما عمر بن الخطاب يطوف بالبيت إذا برجل يطوف وعلى عنقه مثل المهابة حسناً وجمالاً، وهو يقول:

عدتْ لهذي جملاً ذلولا
موطأاً أتبعُ السسهولا
أعديها بالكف أن تمـيلا
أحذر أن تسقط أو تزولا
أرجو بذاك نائلاً جزيلا
يبلغ المرجو والمأمولا

فقال عمر رضي الله عنه: يا عبد الله، من هذه التي وهبت لها حجتك، وجعلت لها أجرك؟ فقال: هي امرأتي يا أمير المؤمنين! وإنما لحمقاء مرغامة، أكلت قامة، لا تبقي لها خامة. قال: فما لك لا تطلقها؟ قال: إنها حسناء لا تُفرك، وأم صبيان لا تُترك. قال: فشانك بها.

ومن أمثال الحكماء: المرأة الوسيمة، من المنن الجسيمة. ومن كلام بعض الأدباء: إذا قيض الله للرجل امرأة كثيرة الحياء، جميلة المحيا، مساعدة في جميع الأشياء، معينة على أمور الدين والدنيا، فقد استطاب المحيا.

وقال بعض الحكماء: أسباب الفتن في ثلاثة: عين ناظرة، وصورة ناضرة، وشهوة قادرة. وقال بعضهم: مجالسة النساء تبعث على الفتنة، وتذهل عن الأدب، وتحجب

(١) ذكره الذميري في حياة الحيوان الكبرى: هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه. ج ٢، ص ٣٣٠.

(٢) م: تنقي، والتصحيح من لسان العرب (رغم).

الدنيا، وتنسي الآخرة، وتضعف الرأي، وتذلل النفس، وتوهن القوى، وما ولع أحد بالنساء إلا ظهر الخلل في جميع أحواله وأفعاله.

وقيل: إنه لما أراد عبد الملك بن مروان الخروج إلى حرب مصعب بن الزبير أقبلت إليه عاتكة بنت يزيد بن معاوية - وكانت أكرم نسائه عنده - في جملة من جواربها تختال في الزينة من الحلي والخلل، فقالت له: يا أمير المؤمنين، لو قعدت في ظلال ملكك، ووجهت كلبًا من كلابك لكفأك أمره. فقال لها: أما سمعت قول الأول حيث يقولون:
قوم إذا ما غزوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار
فلما رآته قد عزم وأبى عليها بكت، وبكى معها جواربها، فقال لها عبد الملك: قاتل الله ابن أبي جمعة^(١)، كأنه - والله - نظر إلينا حيث يقول:

إذا ما أراد الغزولم يثن همته حَصان عليها نظمُ درّيزينها
نَهته فلما لم تَرَ النهي عاقه بكت فبكى مما دهاها قطينها

ومن أمثالهم في ذلك: طاعة النساء تردي العقلاء، وتذل الأعراء. ونظر بعض الصالحين إلى امرأة تتزين وتتعطر، فلما فرغت ظهرت محاسنها، وزاد جاهها، فقال لمن حوله: إنها المرأة مثل النار، إذا زيد في حطبها تأججت، واشتد حرّها، وضاءت للناس، فهي حسنة المنظر، تحرق من دنا منها.

ونظر سقراط إلى امرأة كبيرة السن قد تزينت، فقال: نار قليلة الضوء إلا أنها تحرق. وقال أيضًا: الكيس من لم يصدّه النساء. وقيل: من كانت لذته في النساء، فقد وقع في أعظم البلاء. ومن الحكم المشورة: الآفات في اللذات.

وقسم بعض الحكماء اللذات على الزمن، فقال: لذة الساعة: الجماع، وقيل: الأكل الشهي، ولذة اليوم: مجالبة صلحاء الإخوان، ولذة الجمعة: الثوب الجديد، ولذة

(١) كثير عزه .

الشهر: المركب الحسن، ولذة العام: العروس المحمودة، والدار الجديدة، ولذة العمر: إخلاص العبادة. وهذا التقسيم حسن.

وقال بعض الحكماء: مَنْ باع نفسه في لذاته، خسر في حياته وبعد مماته. وقال ابن

المعدّل^(١):

أنفس^(٢) بالنفس النفيسة ربّها فليس لها شيء وإن جَلَّ من ثمن
إذا بعث نفساً لي بدنياً أصيبتها فقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثمن
فبعها بما في دار خلدٍ ونعمةٍ لدى حيث لا خوف عليها ولا حزن

فجّل

وأحببت أن أختم هذا الباب بشيء من الدعاء؛ لاتّصاله بالباب الذي يختص بآثار

رسول الله ﷺ.

قال صلوات الله عليه: "ليس شيء أكرم على الله عزّ وجلّ من الدعاء"، وقال عليه

السلام: "إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه حتى يسمع تضرّعه". وكان من دعائه ﷺ: "اللهم

طهر لساني من الكذب، وقلبي من النفاق، وعملي من الرياء، وبصري من الخيانة،

فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور". وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما:

أن رسول الله ﷺ قال: "أمان لأمتي من الغرق أن يقولوا إذا ركبوا البحر: ﴿وَمَا قَدَرُوا

(١) المعدل، وقد أورد القاضي عياض الآيات (بشيء من الاختلاف) وعزاها لأحمد بن المعدل، وقال: قالها

حينما خرج من البصرة إلى طرطوس. وقد ضبط اسم أبيه بالحروف. ترتيب المدارك، ج ٤، ص ١٠.

لكن القرطبي روى عن الأصمعي أنها للإمام جعفر الصادق. تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٢٦٨.

(٢) في ترتيب المدارك، وتفسير القرطبي: اثامن.

اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ^٤
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ [سورة الزمر، الآية ٦٧]، ﴿ بِسْمِ اللَّهِ جَبْرُهَا وَمُرْسَنَهَا إِنَّ
رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة هود، من الآية ٤١].

وقال خالد بن صفوان: احذروا مناجيق الضعفاء الدعاء؛ فإنه لا يستجاب إلا
لمخلص، أو مظلوم.

وكان دعاء عبد الله بن عمر: اللهم أغني بالافتقار إليك، ولا تفقرني بالاستغناء
عنك، اللهم أعني على الدنيا بالقناعة، وعلى الدين بالعصمة.

ومن دعاء الخضر عليه السلام: اللهم يا مَنْ لا يشغله سمع عن سمع، ولا يغلطه،
ولا يبرمه إلحاح الملحين، أذقني برد عفوك، وحلاوة رحمتك، يا أرحم الراحمين.

وكان من دعاء محمد بن علي رضي الله عنهما: اللهم أعني على الدنيا بالقناعة،
وعلى الآخرة بالعفو.

ودعا رجل من الأعراب فقال: اللهم اغفر لي ما دامت الصحف منشورة، والتوبة
مقبولة قبل أن يحضر الأجل، وينقطع الأمل، ولا أقدر على استغفارك.

وقال بعض الصالحين في دعائه: اللهم إني أسألك قلبًا توابًا أو آبا لا كافرًا ولا مرتابًا.
ودعا بعضهم فقال: اللهم اشغلنا بذكرك، وأعدنا من سخطك، وامن علينا بعفوك،
وأجزنا من غضبك، وأغننا بحلال رزقك عن جميع خلقك، ولا تشغلنا بطلب ما عندهم
عن طلب ما عندك، وقنعنا بيسير الدنيا؛ فإن كثيرها يسخطك، ولا خير فيها يسخطك.

ومن دعاء بعضهم: اللهم لا تحرمني وأنا أسألك، ولا تعذبني وأنا أستغفرك.
ودعا رجل فقال: اللهم إني أسألك العافية في غير جهد، وتمام النعمة في غير كد. ودعا

أعرابي فقال: اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك، ومن الذلّ إلا لك، ومن الخوف إلا منك، ومن الرجاء إلا فيك. وقال بعضهم: اللهم هب لي حَقِّك، وأرض عني خلقك. ودعا ابن هبيرة فقال: اللهم إني أعوذ بك من صديق يصدني، وجليس يغيرني، وعدو يسوءني.

وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقول في دعائه: اللهم اجعلني من الأقلين. فقال له: ما هذا الدعاء يا هذا؟! فقال: سمعت الله عز وجل يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سورة سبأ، من الآية ١٣] وقال -عز من قائل-: ﴿وَمَاءٌ أَمِنَ مَعَهُ، إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [سورة هود، من الآية ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [سورة ص، من الآية ٢٤]. فقال له عمر: عليك من الدعاء بما يُعرف تأويله.

ومن دعاء بعض الأعراب: اللهم أقبل بوجهك الكريم إلينا، وكن معنا ولا تكن علينا. ودعا بعض العلماء فقال: اللهم سلّمنا من غوائل البدع، وخلصنا من حبال الخدع، واقطع عنا علائق الطمع، وآمنّا يوم الخوف والفرع. وقال يحيى بن معاذ في دعائه: إلهي، كيف أفرح وقد عصيتك؟ وكيف أحزن وقد عرفتك؟ وكيف أدعوك وأنا عاصي؟ وكيف لا أدعوك وأنت كريم؟ إلهي، إذا شهد لي الإيوان بتوحيدك، ونطق لساني بتمجيدك، ودلني القرآن على فواضل جودك، وشفع لي محمد خير عبادك، كيف لا يتهج رجائي بحسن موعدك؟ يا كريم .

وقال بعض الشعراء:

وإني لأدعو الله والأمر ضيقٌ عليّ فما ينفك أن يتفرّجاً
وكم من فتى سُدّت عليه وجوهه أصاب لها في دعوة الله مخرجاً

وقال غيره:

وإني لأرجو الله حتى كأنني أرى بجميل الظنّ ما الله صانعُ

وقال غيره:

لا تضرعنّ لمخلوق على طمعٍ فإنّ ذلك مضرّ منك بالذّين

واسترزق الله ممّا في خزائنه فإنّما الرزق بين الكاف والنون

ومن أحسن ما دعا به بعض الصالحين: اللهم اجعلنا من الذين استظلوا تحت رواق الحزن من شدة خوفهم، ونشروا دواوين الذنوب بين أعينهم، وقرأوا صحف الخطايا على قلوبهم؛ فأورثهم الفكر الصالح في المتقلب . اللهم اجعلنا ممن صيرت همهم في الملكوت، فخرقت الحجب حتى انتهت إليك، فعلمت صدقتها، فرددتها إلى صدورهم بفوائد الحكمة، وطرائف المعرفة . اللهم اجعلنا من الذين ركبوا سفن العظة، ونشروا شراع التقى، فأزعجتهم ريح اليقين، حتى حطوا بساحل الرضا، فوصلوا إلى الأمن الأكبر، والأمل الأقصى، يا من بيده أزيمة القلوب!

ودعا بعضهم فقال: اللهم اجعل خوفي كلّه منك، ورجائي كلّه فيك، وثقتي كلّها بك، وتوكلي كلّه عليك، وانقطاعي كلّه إليك، وعملي كلّه عندك، واحشني مع النيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

ومن دعاء بعض الأدباء: اللهم أجرني من جور الجائرين، وسطوة الجبارين، وكفّ عني أكفّ الضائمين، وأخرجني من ظلمات الظالمين، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين، اللهم هب لي عافية غير عافية، ورفاهية غير واهية، واجعل -اللهم- أملي في عملي، ورغبتني في رهبتني، حتى أرى أمانتي في إيماني، وأتحقق أن يقيني مما أخاف يقيني، وأبلغ الأمن، وأشكر المنّ، يا من سمت أسماؤه، وعمّت نعمائه، يا برّ يا رحيم!

وقال بعض الصالحين في دعائه: اللهم اجعلني ممن دعاك فأجبت دعاءه، ورجاك
فحققت رجاءه، اللهم اجعلني ممن لاذبك فأجرته، وممن فرّ إليك فقبلته، وممن خافك
فأمنتته، وممن توكل عليك فكفيتته، وممن سألك فأعطيته، يا من توحد بالحمد، وانفرد
بالمجد. وقال بعض الشعراء:

| | |
|------------------------------|------------------------------|
| حَسْبِيَ اللهُ وَعَوْنِي | مَنْ تَوَكَّلْتُ عَلَيْهِ |
| فَحَيَاتِي وَمَمَاتِي | وَنَشُورِي فِي يَدَيْهِ |
| وَإِذَا مَسَّنِي الضُّ | رُّ تَضَرَّعْتُ إِلَيْهِ |
| فَهُوَ لِلْمَلْهُوفِ أَرْجَى | رَحْمَةً مِّنَ الْوَالِدِيِّ |

وقال غيره:

| | |
|-----------------------------------|--------------------------------------|
| الله أَلطَفُ بي من كلِّ ذي ثِقَةٍ | أَبِ رَحِيمٍ وَأُمِّ ذَاتِ إِشْفَاقٍ |
|-----------------------------------|--------------------------------------|

وقال إبراهيم بن الشافعي:

| | |
|-------------------|-----------------|
| أوثق الأشياء عندي | مع عصياني رجاءه |
| فهو غفار رحيم | سامع ممن دعاه |

الباب الرابع عشر

يختصُّ بلمع من كلام رسول الله ﷺ وأخباره،
وغرر من مآثره الحميدة وأثاره

وهذا باب آخرته على استحقاقه التقديم، وأرجأته وهو الجدير بالتكريم
والتعظيم؛ لأختم به مقالي، وأحسن به عاقبة مالي، ولأزین ما ترتب وتصنّف، وأتمم به
الإحسان إن كان تسنّى وتكيف، وإلا فأرجو به نحو الإساءة والتقصير، وسدّل الستر
على ما فرط من التغرير، فإنه إذا حسنت من الأعمال الخواتم، جبت ما قبلها من المآثم،
كما قال بعض الشعراء:

وللناس أعمال فخيرٌ وضده ولا يُصلح الأعمال غير الخواتم
والله المستعان على قصد التصديق والتصحيح، وإسبال الستر على ما ظهر من القبيح، لا
ربّ غيره، ولا خير إلا خيره.

فذكر بحول الله وقوته، وحسن عونه وفضل رحمته، جُملاً من فضائله الشريفة
ومفاخره، ولمعاً من سوابقه المنيفة ومآثره، وإن كانت أكثر من أن تُحصى، وأعظم من أن
تُستقصى، لورودها عن خير البشر، المنتخب من أكرم بيت من مضر، كما قال عليه
السلام: "خلق الله الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فرقاً، فجعلني في خير فرقة،
وجعلهم بيوتاً، فجعلني في خير بيت"، أعطني جوامع الكلم، وأذعنت لبلاغة حكّمه
العرب والعجم، وقصرت عن مقاومته جميع الأمم، وأقر بالعجز عن منازعته من تأخر

وتقدّم، فحِكْمُهُ ﷺ أكثر الحكم بيانا، وأوضحها برهانًا، وأتمها إبداعًا وإحسانًا، جمعت المعاني المعجزة، في الألفاظ الموجزة، مَنْ نظر فيها اعتبر، ومَنْ رام شأوها قصر وتأخر، عُضدت بالقوّة الإلهية وتأيّدت، وقويت بوحى النبوة وتأكّدت، فما وَعَتِ المسامع، ولا عقلت الأفتدة، ولا قبلت النفوس، كلامًا أحسن منه معنى، ولا أحكم لفظًا، ولا أجمل مقصدًا، ولا أصدق حجّة، ولا أوضح بيانًا، ولا أصحّ وزنًا، ولا أعدل أقسامًا، ولا أحلى موقعًا، ولا أسهل مأخذًا، ولا أقرب إفهامًا، ولا أتمّ منفعة، ولا أعمّ صلاحًا، لا يلحق السامع له ملل، مع ترداده على الأسماع، ولا يعرض للنفوس منه كسل، على كثرة الاستطلاع، فربوعه أبدًا عامرة لا تقوي، ونجومه زاهرة لا تحوي، وأغصانه يانعة لا تذوي، فإنه -صلوات الله وسلامه عليه- استعمل الألفاظ السهلة، واعتمد المقاصد العذبة، وتجنّب الوحشيّ والهجين، وركب التوسط، وهجر التععير، وآثر الإيجاز، فبلغ الغاية، ولم يُطل التّأليف، وكشف المعاني، ولم يظهر التّكليف، فقولُه فصل، وكلامه عدل.

وقد أثنى الله سبحانه على الحكمة فقال عزّ من قائل: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة البقرة، من الآية ٢٦٩]، ووصف بها لقمان عليه السلام فقال تبارك اسمه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [سورة لقمان، من الآية ١٢]، وسمى بها نفسه فهو العليم الحكيم.

وقال رسول الله ﷺ: "الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها قيدها ثم اتبع ضالّة أخرى"، وقال عليه السلام: "الحكمة ضالة كلّ حكيم"، وقال ﷺ: "الإيمان يمان، والحكمة يمانية"، وقال عليه السلام: "من أخلص الله أربعين صباحًا ظهرت ينابيع

الحكمة من قلبه على لسانه"، وقال صلوات الله عليه وسلامه: "نعمت الهدية الكلمة من كلام الحكمة"، وقال ﷺ: "خشية الله رأس كل حكمة، والورع سيد العمل".

وقال لقمان عليه السلام: إن القلب ليحيا بالكلمة من الحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان، فاهدوا إليها طرائف الحكمة. وقال ابن أبان: خير ما أوتي العبد في الدنيا الحكمة، وخير ما أوتي في الآخرة الجنة، وخير ما سُئل الله العفو والعافية. وقال أبو جعفر المنصور: الحكمة نور الفكرة، والصواب فرع الرؤية، والتدبير قيّم المهّمة. ومن كلام بعض الحكماء: الحكمة حياة النفس، وراحة البدن، وزراعة^(١) الخير في القلوب، ومثمرة الحظ، وحاصدة الغبطة، وجامعة السرور، لا يجبو نورها، ولا يكبو زنادها. وقال غيره: الحكمة حلّة العقل، وميزان العدل، ولسان الإيمان، وعين البيان، وروضة الأرواح، ومراح الهموم عن النفوس، وأنس المستوحش، وأمن الخائف، ومتجر الرابح، وحظ الدنيا والآخرة، وسلامة العاجل والآجل. وقال آخر: الحكمة نور الأبصار، وروضة الأفكار، ومطية العلم، وكفيل النّجح^(٢)، وضمين الخير والرشد، والداعية إلى الصواب، والسفير بين العقل والقلوب، لا تندرس آثارها، ولا تعفو ربوعها، ولا يهلك امرؤ بعد علمه بها. ومن أمثالهم: من عُرف بالحكمة لحظته العيون بالوقار.

(١) م: زراعة، والأرجح ما أثبتناه .

(٢) م: النجيج .

فصل

فمن جكّم رسول الله ﷺ قوله: "رحم الله عبداً قال فغنم، أو سكت فسلم"،
وقوله عليه السلام: "السعيد من وُعظ بغيره، والشقي من وُعظ بنفسه"، وقوله عليه
السلام: "صنائع المعروف تقي مصارع السوء"، وقوله عليه السلام: "الأرواح أجناد
مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف"، وقوله عليه السلام: "جُبِلت
النفوس على حبّ من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها"، وقوله عليه السلام: "قلّة
العيال أحد اليسارين"، وقوله عليه السلام: "التدبير نصف المعيشة"، وقوله عليه
السلام: "المرء كثير بأخيه"، وقوله ﷺ: "الدالّ على الخير كفاعله"، وقوله عليه السلام:
"كل آتٍ قريب"، وقوله عليه السلام: "المؤمن مرآة أخيه"، وقوله صلوات الله عليه
وسلامه: "الناس معادن كمعادن الذهب والفضة"، وقوله عليه السلام: "حبك الشيء
يعمي ويصم"، وقوله عليه السلام: "من أصبح معافى في بدنه، آمنأ في سربه، مالكا
قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها"، وقوله ﷺ: "نية المؤمن خير من عمله"،
وقوله ﷺ: "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله"، وقوله عليه السلام: "رز غباً تزدد
حباً"، وقوله ﷺ: "اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك،
وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك"، وقال عليه السلام:
"قل الحق وإن كان مرأاً". وقوله عليه السلام: "استعينوا على حوائجكم بالكتمان"،
وقوله ﷺ: "ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، ولا عال من اقتصد"، وقوله
عليه السلام: "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين"، وقوله: "إياك وما يُعتذر منه"، وقوله

عليه السلام: "عش ما شئت فإنك ميت، وأحب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزيّ به"، وقوله ﷺ: "أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا الأرحام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام"، وقوله عليه السلام: "حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات"، وقوله ﷺ: "مَطَّلَ الغنيّ ظلم"، وقوله عليه السلام: "البرّ حسن الخلق"، وقوله عليه السلام: "القناعة مال لا ينفد"، وقوله عليه السلام: "مَنْ تواضع لله رفعه، ومَنْ تكبرَ وضعه الله"، وقوله ﷺ: "مَنْ أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه"، وقوله عليه السلام: "طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية، وخالطَ أهل الفقه والحكمة، وجانبَ أهل الشر والمعصية"، وقال عليه السلام: "لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار"، وقال عليه السلام: "اصنع المعروف إلى مَنْ هو أهله وإلى مَنْ ليس من أهله، فإن أصبت أهله فهو أهله، وإن لم تصب أهله فأنت من أهله"، وقال عليه السلام: "لا إيمان لمن لا أمانة له"، وقال عليه السلام: "إياكم والدين، فإنه همّ بالليل ومدلّة بالنهار"، وقال عليه السلام: "الوحدة خير من الجليس السوء"، وقال ﷺ: "لا يمنعن أحدكم مهابة الناس أن يقوم بالحق إذا علمه"، وقال عليه السلام: "لا تُظهر الشماتة بأخيك فيعاقبه الله ويبتليّك"، وقال عليه السلام: "لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خصاصًا وتروح بطنًا"، وقوله ﷺ: "ربّ شهوة ساعة أورثت حزنًا طويلًا"، وقال عليه السلام: "إن الله عند لسان كل قائل"، وقال عليه السلام: "إن المعونة تأتي العبد من الله تعالى على قدر المؤنة، وإن الصبر يأتي العبد على قدر المصيبة"، وقال عليه السلام: "ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكبٍ قالَ تحت شجرةٍ ثم راح وتركها"، وقال عليه

السلام: "إن الله ينهاكم عن قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال"، وقال صلوات الله عليه: "ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفנית، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت"، وقال عليه السلام: "إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى"، وقال عليه السلام: "خير دينكم أيسره، وخير العبادة أخفها"، وقال عليه السلام: "إن الله يحب الرفق في الأمر كله"، وقال ﷺ: "أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل"، وقال عليه السلام: "كفى بالمرء سعادة أن يوثق به في أمر دينه ودنياه"، وقال عليه السلام: "لا تزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت صدقت. وإذا حكمت عدلت، وإذا استرحمت رحمت"، وقال ﷺ: "الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه"، وقال عليه السلام: "المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله".

ومن حكّمه ﷺ قوله: "الموت غنيمة، والمعصية مصيبة، والفقر راحة، والغنى عقوبة، والعقل هدية من الله، والجهل ضلالة، والظلم ندامة، والطاعة قرة العين، والبكاء من خشية الله منجاة من النار، والضحك هلاك البدن، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له"، وقال عليه السلام في بعض خطبه: "والذي بعثني بالحق لئن أصبحتم وضعاءً لتشرّفنّ، ولئن أصبحتم أذلاءً لتعزّن حتى تصيروا نجوماً يهتدى بالواحد منكم، والذي بعثني بالحق لتنمؤن نموّ السحاب، برق فأرعد فأمطر فأخرجت الأرض زهرتها لزمان بهجتها، تزودوا بالتقوى، ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم".

وقال عقبة بن عامر: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، فلما نزلناها وأصبح عليه السلام بها، جمع الناس، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: "أيها الناس، أمّا بعد، فإن

أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العُرَى كلمة التقوى، وخير المثل ملّة إبراهيم عليه السلام، وخير السنن سنة محمد ﷺ، وأشرف الحديث ذكر الله، وخير الأمور عزائمها، وشرّ الأمور مُحدّثاتها، وأحسن الهدى هُدَى الأنبياء، وأشرف الموت قتل الشهداء، وأعمى الضلالة الضلالة بعد الهدى، وخير العمل ما نفع، وشرّ العمى عمى القلب، واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى، وشرّ الندامة ندامة يوم القيامة، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب، وخير الغنى غنى النفس، ورأس الحكمة مخافة الله تعالى، وخير ما ألقى في القلب اليقين، والارتياحُ من الكفر والنياحة من عمل الجاهلية، والغلول من جمر جهنم، والشك في النار، والخمر جماع الإثم، والنساء حبائل الشيطان، وشرّ الكسب كسب الربا، وشرّ المأكّل مأكّل مال اليتيم، والسعيد من وُعظ بغيره، والشقيّ من شُقي في بطن أمه، وإنما يصير أحدكم إلى أربعة أذرع، وملاك الأمور خواتمها، وشرّ الرواية رواية الكذب، وكل ما هو آت قريب، سباب المؤمن فسق، وقتاله كفر، وأكل لحمه من معصية الله تعالى، وحرمة كحرمة دمه، ومن يتألّ على الله يكذبه، ومن يغفر يغفر الله له، ومن يكظم الغيظ يأجره الله، ومن يصبر على الرزية يعوّضه الله، ومن يُقرض الله يضاعف له، ومن يعص الله يعذبه. اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي". ورؤي عن مالك الجهني مثله.

وهذا من كلامه ﷺ قليل من كثير، وثباده^(١) من بحور، فإنه كان عليه السلام لا ينطق بكلام إلا وتحت اللفظة منه حِكْم تروق معانيها، وتفوق مبانيها، ويشتاق السامع لها الناظر فيها، التأيد الإلهي ظاهر عليها، والنور النبوي ساطع منها. وقد قال عليه

(١) الماء القليل . لسان العرب (نمد) .

السلام: "أنا أفصح العرب"، وقال صلوات الله عليه: "أعطيت جوامع الكلم"، فصلى الله عليه عدد أنفاس الخلائق، وعدد ما خلق في السبع الطرائق، وما هو خالق، وعلى أهل بيته الغرّ السوابق، ما تبسم بارق، وتنسم شائق، وسلم تسليماً كثيراً.

مولده ﷺ

ولد ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول عام الفيل، وقيل: لليلتين خلتا منه بعد الفيل بثلاثين يوماً. قيل: إنه أقام بعد البعثة بمكة عشرًا، وبالمدينة عشرًا. وقيل بمكة ثلاث عشرة وبالمدينة عشرًا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما أقام بمكة خمسة عشر. ولم يختلفوا في مدة مقامه بالمدينة. والله أعلم.

أسماءه ﷺ

ذكر العتبي أنه قال عليه السلام: "إن لي عند ربّي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبيّ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي، وأنا رسول الرحمة، وأنا رسول التوبة، ورسول الملأ، والمقضي، قفوت النبيين جميعاً، وأنا قثم، والقائم الكامل الجامع". وقيل: إنه كُنّي بالقاسم، لأنه يقسم الجنة بين الخلق يوم القيامة، وقيل: إن كنيته في التوراة أبو الأرامل، واسمه صاحب الملحمة. وقيل: في التوراة: إذا جاءت الأمة الآخرة أتباع راكب البعير فاتبعوه. وسئل ﷺ: متى كنت نبياً يا رسول الله؟! قال: "وآدم بين الروح والجسد"، ورُوي عنه ﷺ أنه قال: "كنتُ أوّل الأنبياء في الخلق، وآخرهم في البعث".

وفضائله ﷺ

أكثر من أن تُحصى أو تُحصَر، وأظهر من أن تُحجب أو تُستر. وكان عليه السلام يقول: "أنا ابن الذبيحين" يريد إسماعيل بن إبراهيم صلوات الله عليهم أجمعين، والوَدَّه عبد الله بن عبد المطلب، ولم يكن لعبد الله ولد غيره ﷺ، فأما إسماعيل عليه السلام فقد نصّ الله عزّ وجلّ خبره في كتابه العزيز.

وأما أمر عبد الله بن عبد المطلب، فإن عبد المطلب كان قد نذر إن وُلد له عشرٌ من الولد أن يذبح العاشر منهم، فكان العاشر عبد الله، فهمّ بذبحه ليوفي بنذره، فزجر، فقال: إني نذرت ذلك. فقال أخوال عبد الله: إننا لا نرضى بذلك. وكانت أمه غير أمهات سائر بنيهِ، وقالوا: ما بال ابن أختنا يُقتل دون غيره؟ فقال لهم عبد المطلب: إني نذرت العاشر. فتنازعوا في ذلك، ثم اجتمعت آراؤهم واتفقت مذاهيم أن يخرجوا إلى الشّام ليسألوا الكهنة وأهل المعرفة في ذلك، فأشار عليهم العلماء وأهل المعرفة والكهّان أن يقدّم عبد المطلب قرباناً ويضرب بالقداح بينه وبين عبد الله، وهي القرعة، فقدّم عبد المطلب عشرة من الإبل، وضرب بالقداح بينه وبين عبد الله، فخرجت على ابنه، فما زال يزيد عشرة عشرة، وهي تخرج على ابنه، حتى بلغت المئة فخرجت على الإبل، فكبروا واستبشروا، فنحروا عبد المطلب عند الكعبة، فصارت من ذلك أصلاً في الدّيّات لا يُزاد عليها ولا ينقص منها، فسُمّي عبد الله الذبيح، ولذلك قال رسول الله ﷺ: "أنا ابن الذبيحين".

الأخبار الواردة بتصديق نبوّته قبل مولده وقبل مبعثه ﷺ

خبر سيف بن ذي يزن بالحبشة

وذلك بعد مولد رسول الله ﷺ أتاه وفود العرب وأشرافها وشعراؤها لتهنّته وتمدّحه، وأتاه وفد قريش، وفيهم عبد المطلب بن هاشم، وأمّية بن عبد شمس، وخويلد بن أسد في عدد من وجوه قريش وأهل مكة، فأتوه بصنعاء وهو في قصر له يقال له: غمدان، فاستأذنوا عليه، فأذن لهم، فدخلوا عليه وهو متضمّخ بالعبير يبصّ

وَبَيْصِ الْمَسْكَ مِنْ مَفَارِقِهِ، وَعَلِيهِ بُرْدَانٌ أَخْضَرَانِ قَدْ أَتَزَّرَ بِأَحَدِهِمَا وَارْتَدَى بِالْآخَرِ،
وَسَيْفُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَعَلَى يَمِينِهِ وَيَسَارِهِ الْمَلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمَلُوكِ، فَاسْتَأْذَنَ عَبْدَ الْمَطْلَبِ فِي
الْكَلَامِ، وَكَانَ أَجَلَ الْقَوْمِ قَدْرًا، وَأَعْظَمَهُمْ خَطَرًا، وَأَعْلَاهُمْ نَسَبًا، وَأَكْرَمَهُمْ حَسَبًا، وَلَمْ
يَكُنْ سَيْفٌ يَعْرِفُهُ، فَقَالَ لَهُ: إِنْ كُنْتَ مَنْ يَتَكَلَّمُ بَيْنَ يَدَيْ الْمَلُوكِ فَقَدْ أَذْنَا لَكَ. فَقَالَ
عَبْدُ الْمَطْلَبِ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَحَلَّكَ مَحَلًّا رَفِيعًا صَعْبًا مَنِيعًا شَامِحًا بِأَذْحَا،
وَأَنْبَتَكَ نَبَاتًا طَابَتْ أُرُومَتُهُ، وَعَزَّتْ جَرثُومَتُهُ، وَثَبَتَ أَصْلُهُ، وَسَبَقَ فِرْعَوْنُ فِي أَكْرَمِ
مَعْدِنِ، وَأَطِيبِ مَوْطِنِ، وَأَنْتَ -أَبِيْتُ اللَّعْنِ- رَأْسُ الْعَرَبِ وَرَبِيعُهَا الَّذِي بِهِ تَحْصَبُ،
وَعَمُودُهَا الَّذِي عَلَيْهِ الْعِمَادُ، وَمَعْقَلُهَا الَّذِي إِلَيْهِ يَلْجَأُ الْعِبَادُ. سَلَفَكَ خَيْرُ سَلَفٍ، وَأَنْتَ
مَنْهُمْ خَيْرُ خَلْفٍ، وَلَنْ يَخْمَلَ ذَكَرٌ مِنْ أَنْتَ سَلْفَهُ. أَيُّهَا الْمَلِكُ، نَحْنُ أَهْلُ حَرَمِ اللَّهِ، وَسَدَنَةُ
بَيْتِهِ، أَشْخَصْنَا إِلَيْكَ الَّذِي أَبْهَجْنَا بِكَ، فَنَحْنُ وَفَدُ التَّهْنِئَةِ لَا وَفَدُ الْمَرْزُوءَةِ. فَقَالَ: وَأَيُّهُمْ
أَنْتَ أَيُّهَا الْمُتَكَلِّمُ؟ قَالَ: أَنَا عَبْدُ الْمَطْلَبِ بْنُ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ. قَالَ: ابْنَ أَخْتِنَا؟ قَالَ:
نَعَمْ. قَالَ: ادْنُ. فَأَدْنَاهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ وَعَلَى الْقَوْمِ فَقَالَ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا، وَنَاقَةَ وَرَحْلًا،
وَمَنَاخًا سَهْلًا، وَمَلَكًا وَنَحْلًا، يُعْطَى عَطَاءً جَزَلًا، قَدْ سَمِعَ الْمَلِكُ مَقَالَتَكُمْ وَعَرَفَ
قَرَابَتَكُمْ، وَقَبْلَ وَسَيْلَتَكُمْ، لَكُمْ الْكِرَامَةُ مَا أَقَمْتُمْ، وَالْحَبَاءُ إِذَا ظَعَنْتُمْ. قَالَ: ثُمَّ نَهَضُوا إِلَى
دَارِ الضِّيَافَةِ فَأَقَامُوا بِهَا شَهْرًا لَا يَصِلُونَ إِلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ الْجَرَايَاتُ وَالصَّلَاتُ، ثُمَّ أُرْسِلَ إِلَى
عَبْدِ الْمَطْلَبِ وَأَخْلَى مَجْلِسَهُ وَقَرَّبَهُ وَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ الْمَطْلَبِ، إِنِّي مَفِيضٌ عَلَيْكَ مِنْ سِرِّ
عِلْمِي أَمْرًا لَا أَبُوحُ بِهِ لغيرِكَ، وَلَكِنِّي وَجَدْتُكَ مَعْدِنُهُ فَأَطَّلَعْتُكَ طَلْعَهُ، فَلْيَكُنْ عِنْدَكَ
مَطْوِيًّا حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ فِيهِ، فَإِنَّ اللَّهَ بِالْغَيْبِ أَمْرُهُ. إِنِّي أَجِدُ فِي الْكِتَابِ الْمَكْنُونِ، وَالْعِلْمِ
الْمَخْزُونِ، الَّذِي اخْتَبَرْنَاهُ وَتَحْفَنَاهُ وَحَجَبْنَاهُ دُونَ غَيْرِنَا ضَنْانَةً بِهِ وَشَحًّا عَلَيْهِ، خَبْرًا

جسيماً، ونبأً كريماً، وخطراً عظيماً، فيه شرف الحياة وفضل الوفاة للناس عامة، ولرهطك كافة، ولك خاصة. قال: أيها الملك، مثلك سرّ وبرّ، فما هو فداك أهل المدر، والوفود زمراً بعد زمرة؟ قال: إذا ولد بتهامة، غلام به علامة، كانت له الإمامة، ولكم به الزعامة، إلى يوم القيامة. قال عبد المطلب: آبيت اللعن لقد آبت منك بخير ما آب به وإفد قوم لولا هيبة الملك لسألته أن يخبرني بإفصاح، فقد أوضح لي بعض الإيضاح. قال: هذا حينه الذي يولد فيه، أو قد ولد، اسمه محمد ﷺ بين كتفيه شامة، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمّه، قد ولدناه سرازاً، والله باعته جهازاً، وجاعل له متاً أنصاراً، يُعزّبهم أولياءه، ويذلّ بهم أعداءه، يستبيح كرائم الأرض، ويضرب بهم الناس عن عرض، يعبد الرحمن، ويدحض الشيطان، ويكسر الأوثان، ويخمد النيران. قوله فصل، وحكمه عدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله. قال: فخرّ عبد المطلب ساجداً، فقال له: ارفع رأسك ثلج صدرك، وعلا كعبك، فهل أحسست من علمه شيئاً؟ قال: نعم أيها الملك، كان لي ابن وكنت به معجباً، فزوجته كريمة من كرائم قومه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، فجاءت بغلام سمّيته محمداً، مات أبوه وأمه، وكفلته أنا وعمه، بين كتفيه شامة، وفيه كل ما ذكرت من علامة. قال له: والبيت ذي الحجب، والعلامات ذي النصب، إنك يا عبد المطلب لجده غير الكذب، وإن الذي قلت لك لكما قلت، فاحتفظ بابنك واحذر عليه اليهود؛ فإنهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً، واطو ما ذكرت لك عن هؤلاء الرهط الذين معك؛ فإنني لست آمن أن تدخلهم النفاسة من أن تكون لهم الرياسة، فيبغون لك الغوائل، وينصبون لك الحبائل، وهم فاعلون وأبناؤهم، ولولا أن الموت محتاجي قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى

أجبيء يشرب دار مملكته، وإني لأجد في الكتاب الناطق، والعلم السابق، والخبر الصادق، أن بيثرب استحكام أمره، وأهل نصرته، وموضع قبره، ولولا أني أقيه الآفات، وأحذر عليه العاهات، لأوطأت سنان العرب كعبه، ولأعليت على صغر سنه ذكره، لكنني صارف ذلك إليك عن غير تقصير بمن معك.

ثم أمر لكل واحد منهم بمئة من الإبل، وعشرة أعبُد، وعشر إماء، وعشرة أرتال ذهبًا، وعشرة أرتال فضة، وكرش عنبر، وأمر لعبد المطلب بعشر أمثال ما أمر لهم، وقال له: اتتني بخبره وما يكون من أمره عند رأس الحول. فما حال الحول حتى مات ابن ذي يزن، فكان عبد المطلب يقول لأصحابه: لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك؛ فإنه إلى نفاذ، لكن الغبطة بما يبقى لي ولعقبتي شرفه وذكره وفخره. فإذا قيل له: وما ذلك؟ يقول: سيعلم ولو بعد حين.

وكان عبد المطلب إذا نام لا يدخل عليه أحد غيره، وكان يفرش له في ظل الكعبة فراش، فيأتي زعماء قريش فيجلسون حول ذلك الفرش ينتظرون خروج عبد المطلب، ويأتي رسول الله ﷺ حتى يرقى على الفراش، فيجلس وهو صبي فيقول له أعمامه: مهلاً يا محمد عن فراش أبيك! فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك: دعوا ابني إنه ليؤتين ملكًا عظيمًا، وإن ابني ليحدث نفسه بذلك. وكان قد فرش له في الحجر يومًا، وكبراء قريش -حزب بني أمية فمن دونه- يجلسون دون ذلك الفرش، فجاء رسول الله ﷺ وهو غلام فجلس على الفرش، فجذبه أحدهم، فبكى، فقال عبد المطلب: ما لابني يبكي؟ قالوا: أراد أن يجلس على الفرش فمُنِع، فقال: دعوا ابني يجلس عليه فإنه يحس من نفسه شيئًا، وأرجو أن يبلغ من الشرف والرفعة ما لم يبلغه عربي قبله ولا يبلغه بعده.

ومات عبد المطلب والنبي ﷺ ابن ثمان سنين. قال نافع بن جبير: سُئل رسول الله ﷺ: أتذكر موت عبد المطلب؟ قال: "نعم، وأنا ابن ثمان سنين".

فلما توفي عبد المطلب ضمّ أبو طالب رسول الله ﷺ إلى نفسه، فكان معه، وكان يؤثره بالنفقة والكسوة على نفسه وعلى جميع أهله وولده. وقيل: إنه كان أبو طالب وعبد الله والد رسول الله ﷺ لأم واحدة دون سائر بني عبد المطلب، وكان أبو طالب لا مال له إلا قطعة من إبل، وكان عياله إذا أكلوا جميعاً أو فرادى لم يشبعوا، فإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا، فكان أبو طالب حين عرف ذلك إذا حضر غداؤهم وعشاؤهم يقول لهم: مهلاً كما أنتم حتى يحضر ابني. فيأتي رسول الله ﷺ فإذا أكل معهم فضل من طعامهم، وإن كان لبناً تناوله رسول الله ﷺ أولهم، ثم يتناوله الغير، فيشربون فيروون عن آخرهم من القعب الواحد. وذكر عبد الله بن عباس قال: كان النبي ﷺ في حجر أبي طالب بعد جده، فيصبح ولده خمصاً ويصبح رسول الله ﷺ دهيناً صقيلاً.

فصل

وروي أن كعب بن لؤي بن غالب كان يستشعر الإمرة التي تكون فيهم، فأهمه ذلك، ويرى أنها رياسة في الدين لتمسكهم بالكعبة، وكانت أمورها كلها تختص بالديانة. وكان يوم الجمعة في الجاهلية يسمى عروبة، وكانت العرب تجتمع فيه إلى كعب فسُمي يوم الجمعة؛ لاجتماعهم فيه إليه، وكان يخطبهم عند اجتماعهم فيقول في بعض ما يخطب به: الدار أمامكم، والظن غير ما تظنون، زينوا حرمكم وعظموه وتمسكوا به وقدسوه؛ فإن له نبأً عظيماً، وسيخرج منه نبي كريم. ثم يقول:

نهار وليل كل أوب بحادث سواء علينا ليلها ونهارها
يؤوبان بالأحداث حين تأوبا وبالنعم الضافي علينا ستورها
صروف وأنباء تقلب أهلها لها عقد ما يستحيل مريرها
على غفلة يأتي النبي محمد فيخبر أخبارًا صدوقًا خيرها

وقال أوس بن حارثة عند وصيته لابنه مالك في بعض شعره الذي ختم به
وصيته، وقد تقدّم ذكرها في هذا الكتاب:

ألم يأت قومي أن الله دعوة يفوز بها أهل السعادة والبر
إذا بُعث المبعوث من آل غالب بمكة فيما بين زمزم والحجر
هناك ابشروا طرًا بنصر بلادكم بني عامر إن السعادة في النصر

وقال عامر العدواني في وصيته لبنيه: يا بني، أدركتُ كنانة بن خزيمة بن مدركة بن
إلياس بن مضر، وكان شيخًا مُسنًا عظيم القدر محجوجاً^(١)، وكانت العرب تحجّج^(٢) إليه
لفضله وعلمه، فقال: إنه قد آن خروج نبيّ بمكة يُدعى أحمد، يدعو إلى الله، وإلى البرّ،
وإلى الإحسان، وإلى مكارم الأخلاق، فاتّبعوه تزدادوا شرفًا إلى شرفكم، وعزًّا إلى
عزكم، ولا تتعدّوا^(٣) ما جاء به، فهو الحق.

وكفى بهذه المقدمات إلهامًا، وبها سبق منها فطنة وإعلامًا، حتى أظهرها الله كما لآ
وإتمامًا، لقد تحار فيها الأوهام، وتذهل فيها الأذهان والأفهام، وتقف عندها العقول
والأحكام، جاءت بها الأنبياء وانفقت، وأشامت بها الأخبار وأعقرت، وتحملتها
النفوس حتى تحققت، وتصوّرتها العقول حتى تصدقت، فتمسكت بها الآمال
وتعلقت، ثم ساقها القدر فانتظمت وأتسقت.

(١) م: محجوبا، ولعل الأصح ما أثبتناه .

(٢) م: تمنح، والأصح ما أثبتناه . انظر: الصالحى، سبل الهدى، ج ١، ص ٢٨٦؛ النويرى، نهاية الأرب،
ج ١٦، ص ١٣ .

(٣) م: تبعدوا، ولعل الأصح ما أثبتناه .

وكانت قريش - فيما ذكر - كلما قرب أمد الإسلام، كثر عددهم، وعظم شأنهم، وزاد أيدهم، حتى دانت العرب بسبقهم، وأذعنت الأمم لفضلهم، ثم صدقت تلك المخيلة، وظهرت تلك السريرة، وانجلت تلك الظلماء عن أنور من شمس الظهيرة، بنبوّة محمد ﷺ والحمد لله رب العالمين.

سبب بناء الكعبة

حكى جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، أنه كان سبب وضع البيت في الأرض والطواف به أن الله تعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية ٣٠] فغضب عليهم، فعادوا بالعرش، فطافوا حوله سبعة أشواط يدعون ربهم ويسترضونه، فرضي عنهم، وقال لهم: ابنوا لي بيتاً في الأرض يعوذ به من سخطت عليهم من بني آدم ويطوفون حوله كما فعلتم، فأرضى عنهم كما رضيت عنكم؛ فبنوا له هذا البيت، وهو قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية ٩٦].

واختلف في ذلك أهل العلم، فذهبت طائفة إلى أنه كان قبله بيوت كثيرة في الأرض. وقال مجاهد وقتادة: لم يكن قبله بيت في الأرض. وأكثر أهل العلم على هذا. وقال وهب بن منبه: إن أول ما تكاثف من الزبد الذي خلق الله منه الأرض عند تلاطم موج الماء كان موضع البيت الحرام. وقال وهب: إن طوفان نوح عليه السلام لم يأخذ البيت، ووقف الماء محيطاً به والهواء عليه، فلما وصلت إليه السفينة طافت به سبعا، فقال

نوح لمن كان معه في السفينة: إنكم في حجّ فاعتزلوا النساء. قال الله عزّ وجلّ ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ [سورة آل عمران، من الآية ٩٧] فالآية في مقام إبراهيم عليه السلام أثر قدميه في الحجر الصلد، والآيات في غير البيت ما خصّ الله عزّ وجلّ به البيت من التكريم والتعظيم، وأمن الخائف، وامتناع الطير من العلو عليه، وهيبته عند مشاهدته، وتعجيل العقوبة لمن عتا فيه، وما أظهر الله تعالى من الآية في أصحاب الفيل عنده، وما أوقع الله عزّ وجلّ في قلوب العرب من التبرّك به والأمن من الجبابرة لمن دخله ولاذ به، وهم غير أهل كتاب، ولا يدينون بشرع، حتى إن الرجل ليرى فيه قاتل أبيه وأخيه فلا يطلبه ولا يعترضه، وهذا برهان عظيم وانقياد وضعه الله في قلوب العباد.

وأما دخول رسول الله ﷺ مكة حلالاً فقال عليه السلام: "أحلّت لي ساعة من النهار، ولم تحلّ لأحد قبلي، ولا تحلّ لأحد بعدي". وقيل: إن رسم البيت عفا بعد الطوفان فأول من تولى بناءه إبراهيم عليه السلام، وهو قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [سورة البقرة، الآية ١٢٧]، فدلّ دعاؤهما على أنها كانا مأمورين، والله أعلم وتملكها بعد إبراهيم عليه السلام جرهم والعمالقة حتى انقرضوا، وفي ذلك يقول عامر بن الحارث:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
 بلى نحن كنا أهلها فأزالنا صروف الليالي والجدود العوائر
 ثم خلفهم فيها قريش لما أراد الله تعالى أن يظهر فيهم من النبوة، فكان أول من جدّد بناءها قصي بن كلاب، ثم بنته قريش ورسول الله ﷺ ابن خمس وعشرين سنة،

وشهد بناءها، وبقيت إلى أن تحصن فيها ابن الزبير حين حاربه الحُصَيْن بن مُمَيْر في زمن يزيد بن معاوية، فأخذ رجل من أصحابه نارًا على رأس رمح في لفة، والريح عاصفة، فتعلقت بأستار الكعبة فتصدعت حيطانها، واسودت وتناثرت أحجارها . فلما مات يزيد وانقضت تلك الحال، شاور عبد الله بن الزبير الصحابة في هدمها وبنائها، فاختلفوا في ذلك، فقال ابن الزبير: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: "لو كانت لنا سعة لبنيته على أس إبراهيم الخليل". ثم سأل الأسود: هل سمع من عائشة رضي الله عنها شيئًا في ذلك؟ قال: نعم. وساق الحديث الذي سمع منها، فهدمها وبنائها، وبقيت إلى أن بناها الحجاج بأمر عبد الملك بن مروان. وذكر الزبير بن بكار أن عبد الله بن الزبير وجد في الحجر صفائح حجارة خضر مطبقة على قبر، فقال عبد الله بن صفوان: هذا قبر إسماعيل عليه السلام. فكفّ عن تلك الحجارة، ولم يحركها.

خبر زيد بن نفيل

رُوي أن زيد بن عمرو بن نفيل كان ينكر ما كانت عليه الجاهلية من الشرك بالله، ويرى أنهم على ضلال، فخرج يلتمس الدين، فأتى أحبار يثرب، فوجدهم يعبدون الله ويشركون به، فقال: ما هذا بالذي أبتغي. فقال له حبر من أحبار الشام: إنك لتسأل عن دين لا يُدان به اليوم، ما نعلم أحدًا يعبد الله وحده إلا شيخًا بالجزيرة. فخرج، فقدم عليه، وأخبره بالذي خرج إليه، فقال له: إن كل من رأيت في ضلال، فمن أنت؟ قال: أنا من أهل بيت الله الحرام. قال: فإنه قد خرج في بلدك -أو يخرج- نبي كريم، وقد طلع نجمه، فارجع فصدّقه وآتبعه وآمن به. فرجع.

فصل

وعن أسماء بنت أبي بكر قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش، ما منكم أحد اليوم على دين إبراهيم عليه السلام . وكان يحيي المؤودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها، ادفعها إليّ وأنا أكفلها وأكفيك مؤونتها. فإذا شبت! قال له: إن شئت فخذها، وإن شئت فدعها. وسئل عنه رسول الله ﷺ فقال: "يُبعث يوم القيامة أمة وحده بيني وبين ابن مريم عيسى عليه السلام".

فصل

وروي عن عامر بن ربيعة قال: قال لي زيد بن عمرو بن نفيل: أنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل عليه السلام من بني عبد المطلب، ولا أراني أدركه، وأنا أؤمن به، وأصدقه، وأشهد أنه نبيّ، فإن طالت بك -يا عامر- مدة ورأيت فآقرئه مني السلام . وسأخبرك ما نعتُهُ حتى لا يخفى عليك. قلت: هلمّ. قال: هو رجل ليس بالقصير ولا بالطويل، ولا بكثير الشعر ولا بقليله، لا تفارق عينيه حمرة، بين كتفيه خاتم النبوة، واسمه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه، ثم يخرج قومه منها، ويكرهون ما جاء به، حتى يهاجر إلى يثرب، فيها يظهر أمره، وإياك أن تتحدع عنه، فلإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم عليه السلام فكل من سألت من اليهود والنصارى والمجوس وجميع الطوائف يقولون لي: هذا الدين وراءك، وينعتونه لي مثل نعتي لك، ويقولون: لم يبق نبيّ غيره. قال عامر: فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ قول زيد بن عمرو بن نفيل، وأقرأته منه السلام، فردّ عليه ﷺ وترحم عليه، وقال: "قد رأيت في الجنة يسحب أذياله".

خبر سَطِيحُ

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: خلق الله سَطِيحًا الغَسَانِي لحَمًا على وَصَمٍ^(١)، وكان يُجمل على وَصَمِهِ فيؤتى به حيث شاء، ولم يكن فيه عظم ولا عصب إلا الجمجمة والعنق والكفين، يُطوى من رجليه كما يُطوى الثوب، ولم يكن فيه شيء يتحرك سوى لسانه، فلما أُتي به إلى مكة تلقاه أربعة نفر من قريش: عبد مناف، وعبد شمس ابنا قصي، والأحوص بن فهر، وعقيل بن أبي وقاص، فانتموا إلى غير نسبهم، وقالوا: نحن أناس من جَمَحِ أَيْتِنَاك لما بلغنا قدومك، ورأيناك حقًا واجبًا علينا. وساق عقيل صفيحة هندية، وصعدة رُدَيْنِيَّة على سبيل الهدية، فوضعتا على باب البيت الحرام لينظروا هل يعلم ذلك سَطِيحُ أم لا، فقال لعقيل: ناولني يدك. فناوله يده، فقال: يا عقيل، وعالم الخفية، وغافر الخطية، والذمة الوفية، والكعبة المبنية، إنك الجائي بالهدية، الصفيحة الهندية، والصعدة الرُدَيْنِيَّة. قالوا: صدقت يا سَطِيحُ. ثم قال: والآتي بالفرح، وقوس قزح، والكحل والرطب والبلح، إن الغراب الموشح، أخبر أن القوم ليسوا من جَمَحِ، وأن نسبهم في قريش ذي البطح. قالوا: صدقت يا سَطِيحُ! فأخبرنا بما يكون في زماننا وما بعده إن يكن عندك بذلك علم. قال: الآن صدقتم، خذوا مني ومن إلهام الله إياي، أنتم يا معشر العرب سواء بصائرکم وبصائر العجم، لا علم عندكم ولا فهم، لينشأن من عقبكم قوم يطلبون أنواع العلم، يكسرون الأصنام، ويبلغون الردم، يقتلون العجم ويطلبون المغنم. قالوا: يا سَطِيحُ! فمن يكون أولئك؟ قال: والبيت والأركان، والأمن والسكان، لينشأن من عقبكم ولدان، يكسرون الأوثان، ويوحدون الرحمن، ويتركون عبادة الشيطان، وَيَسْتَتُونَ دين الديان، يشرفون البنيان، ويشنفون الآذان.

(١) الوَصَمُ: كل شيء يوضع عليه اللحم من خشب وغيره. لسان العرب (وصم).

قالوا: فمن نسل من يكون أولئك؟ قال: وأشرف الأشراف، ومحصي الأصناف، ومزعزع الأحقاف، ومضعف الأضعاف، لينشأن آلاف من عبد شمس وعبد مناف، نشوءاً يكون فيه أخلاف. قالوا: يا سواتاه! فما تجربنا به من أي بلد يخرج؟ قال: والباقي الأبد، والبالغ الأمد، ليخرجن من هذا البلد، نبي مهتد، يهدي إلى الرشيد، يرفض يعوق والفند^(١)، يبرأ من عبادة العدد، ويعبد رباً انفراداً. ثم يتوفاه الله محموداً، ومن الأرض مفقوداً، وفي السماء مشهوداً، ثم يلي أمره الصديق، إذا قال صدق، وفي الحقوق لا خرق ولا نزق، ثم يلي أمره الحنيف، مجرب غطريف، لا يترك قول الرجل الثقيف، قد أضاف المضيف، وأحكم التحنيف، ثم يلي أمره راعياً لأمره مجرباً، فيجمع الناس جموعاً وعصباً، فيقتلونهم نعمة عليه وغضباً، ثم يلي بعده الناصر، يخلط الرأي بأمر ناكر، يظهر في الأرض العساكر، ثم يلي من بعده ملوك، لا شك أن الدم فيهم مسفوك.

فجبل

وأخبر مخزوم بن هانئ المخزومي، عن أبيه - وأنت عليه مئة وخمسون سنة - قال: لما كان ليلة مولد رسول الله ﷺ ارتج إيوان كسرى، وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخذت نار فارس، وكانت لم تحمد ألف عام، وغاضت بحيرة ساوة، ورأى الموبدان^(٢) في النوم إبلاً صعباً تقود خيلاً عرباً، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها، فلما أصبح كسرى أفزعه ما جرى، وصبر عليه تشجعاً، ثم رأى أن لا يدخر ذلك عن وزرائه

(١) يعوق من اصنام الجاهلية، قال عنه الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [سورة نوح، الآية ٢٣] أما الفند فلعل المقصود به الكذب، أو ربما أراد القطعة الكبيرة من الجبل، أو غصن الشجرة، إشارة إلى معبودات الجاهلية. انظر: لسان العرب (فند).

(٢) رجل الدين عند مجوس الفرس .

ومرازبته حين عيل صبره، فجمعهم ولبس تاجه وقعد على سريره، وقال لهم: أتدرون فيم جمعتمكم؟ قالوا: لا إلا أن نخبرنا به الملك. فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النار، فازدادوا غمًا، ثم أخبرهم بما عرض في إيوانه، فقال له الموبدان: وأنا -أصلح الله الملك- رأيت في منامي الليلة رؤيا. ثم قصها عليه، فقال له: أي شيء يكون هذا يا موبدان؟ وكان أعلم القوم، قال: حادث يكون في ناحية العرب. فكتب كسرى إلى النعمان بن المنذر: أما بعد، فوجه إلينا رجلاً عالماً بما أريد أن أسأله عنه. قال: فأرسل إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان^(١) الغساني، فلما قدم عليه قال: ألك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ قال: يخبرني الملك فإن كان عندي علم أخبرته، أو لا دلتته على من يعلمه، فأخبره بما رأى، فقال له: علم ذلك عند خالي، رجل يقال له: سطيح، يسكن مشارف الشام. قال: فاذهب فاسأله واثني بها عنده. فذهب عبد المسيح حتى قدم على سطيح، وقد أشفى على الضريح، فسلم عليه وحيّاه، فلم يجبه، فانشأ عبد المسيح يقول:

| | |
|-----------------------------|-------------------------------|
| أصمُّ أم يسمع غطريف اليمينُ | يا فاصل الخطة أعيت مَنْ ومَنْ |
| وكاشف الكربة عن وجه الغصنُ | أتاك شيخ الحبي من آل سنن |
| أزرق ضخم الناب صرّار الأذنُ | أبيض فضفاض الرداء والبدنُ |
| رسول عين العُجم يسري للوسنُ | لا يرهب الرعد ولا ريب الزمنُ |
| يجوب في الأرض علنداءُ شجنُ | ترفعني حيناً وتهوي في وجنُ |
| حتى أتى عاري الجأجي والعطنُ | تلقه في الريح وعشاء الدمُنُ |

ففتح سطيح عينيه ثم قال: عبد المسيح، على جمل مشيح، أتى إلى سطيح، وقد أوفى على الضريح، بعثه ملك ساسان، لارتجاج الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبدان. يا

(١) م: جيان .

عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادي ساوة، وغاضت بحيرة ساوة، فليس الشام لسُطَيْحٍ شامًا، يملك منهم ملوك وملكات، على عدد الشرفات، وكل ما هو آت آت. ثم قضى سُطَيْحٍ مكانه. قال: فلما قدم عبد المسيح على كسرى أخبره بما قال سُطَيْحٍ، فقال: إلى أن يملك منا أربعة عشرة ملكًا لقد كانت أمور. فملك منهم عشرة في أربع سنين، وملك الباقيون إلى أيام عثمان بن عفان.

خبر ربيعة بن نصر

رُوي أن ربيعة بن نصر اللخمي رأى رؤيا هالته وأقطع بها، فبعث إلى الحزاة^(١) من أهل مملكته، ولم يدع كاهنًا ولا ساحرًا ولا عرافًا ولا منجمًا إلا دعاه، ثم قال: رأيت رؤيا هالتي وأفظعتني، فأخبروني بتأويلها. فقالوا له: اقصصها علينا. قال: إنه لا يعرف تأويلها إلا من يعرفها قبل أن أخبره بها. فقال له رجل من القوم: فليبعث الملك إلى سُطَيْحٍ وشقّ، فإن عندهما علم ما سأل عنه. فبعث إليهما، فجاء سُطَيْحٍ قبل شقّ، قال له: يا سُطَيْحٍ، إني رأيت رؤيا هالتي فأخبرني بها، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها. فقال: رأيت حمة، خرجت من ظلمة، فوقعت بأرض بهمة، فأكلت منها كل ذات جمجمة. فقال له: ما أخطأت منها شيئًا، فما عندك في تأويلها؟ قال: أحلف بما بين الحرتين من حنش، لتهبطن أرضكم الحبش، فيملكن ما بين أفيق^(٢) إلى جرش^(٣). فقال: وأبيك يا سُطَيْحٍ إن هذا لنا لغائظ موجه، فهل يكون ذلك في زماني؟ قال: لا، بل بعده

(١) جمع حازي وهو الكاهن والعراف . لسان العرب (حزا).

(٢) قصر باليمن، في بلاد عَسَن من مَذْحِج . البكري، معجم ما استعجم، ج ١، ص ١٧٨ .

(٣) مدينة في اليمن .

بحين، أكثر من الستين والسبعين. قال: فيدوم ذلك أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع بعد خمس من السنين، يقتلون بها أجمعين، أو يخرجون منها هارين. فقال: ومن يلي ذلك منهم؟ قال: إرم ذي يزن، يخرج عليهم من عدن، فلا يترك منهم أحدًا باليمن. قال: فيدوم ذلك أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع. قال: ومن يقطعه؟ قال: نبي زكي، يأتيه الوحي، من قبل العلي. قال: ومن هذا النبي؟ قال: من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر، يكون الملك فيهم وفي قومهم إلى آخر الدهر. قال: وهل للدهر من آخر يا سطيح؟ قال: نعم، والشفق والغسق والفلق، والقمر إذا آتسق، إن ما أنباتك به لحق.

قال: فلما فرغ منه، ورَدَ عليه شقّ، فدعاه، ولم يُعلمه بخبر سطيح، لينظر أيتفقان أم يختلفان، ثم قال له مثل ما قال سطيح، فقال له شقّ: رأيت حمة، خرجت من ظلمة، فوقعت في أرض بهمة، فأكلت منها كل ذات نسمة. فرأهما قد اتفقا، فقال له: ما أخطأت منها شيئًا يا شقّ، فما عندك في تأويلها؟ قال: أحلف بما بين حرتيها من الشنان، لينزلن بأرضكم السودان، ويغلبن كلّ طفلة البنان، ويملكن ما بين أفيق إلى نجران. قال له: وأبيك يا شقّ إن هذا لنا لغائظ موجه. ثم سأله سؤاله لسطيح، فقال في جميع ذلك ما قاله سطيح، وإن اختلفا في اللفظ قليلاً فلم يختلفا في المعنى، مثل ما قالوا في الجمجمة والنسمة، قال: فبمن ينقطع ذلك يا شقّ؟ قال: نبي مرسل، يأتي بالحق والعدل، بين أهل الدين والفضل، يكون المُلْك في قومه إلى يوم الفصل. قال: وما يوم الفصل؟ قال: يوم يُجزى فيه الولاية، يُدعى فيه من في السماوات، دعوات تسمع الأحياء والأموات، ويجمع الناس إلى الميقات، يكون فيه لمن اتقى الفوز بالخيرات. قال: أحق ما تقول يا شقّ؟ قال: أي وربّ السماوات والأرض، وما بينهما من رفع وخفض، في الطول والعرض، إن ما أنباتك به لحق كائن، وما أنا فيه مذق ولا مائن.

نكاحه خديجة ﷺ

أخبرت نفيسة بنت منبه، قالت: لما بلغ رسول الله ﷺ خمسًا وعشرين سنة وليس له اسم بمكة إلا الأمين؛ لما تكامل فيه من خصال الخير وخلال البر، قال له عمه أبو طالب: يا ابن أخي، قد اشتد الزمان علينا، وألحت سنون منكرة، ولا مال لي، وليست لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً يتجرون لها في مالها، ويصييون منافع، لو عرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك؛ لما قد علم من طهارتك وخيرك، على أني أكره أن تأتي الشام؛ لأنني أخاف عليك من اليهود، ولكن لا نجد من ذلك بدءًا. فقال رسول الله ﷺ: "عسى أن ترسل إلينا في ذلك"، فقال أبو طالب: أخاف أن تسبق إلى ذلك فتطلب أمرًا مدبرًا. وبلغت هذه المحاورة خديجة رضي الله عنها، وقبل كان يبلغها من صدقه وأمانته، فقالت: ما علمت أنه يريد هذا. ثم أرسلت إليه تقول: أنا أعطيه وأضعف له ما لا أعطي رجالاً من قومه، فأتى رسول الله ﷺ أبا طالب، وذكر له الأمر، فقال له: إن هذا لرزق ساقه الله إليك. ففعلت، وخرج مع غلامها ميسرة، وجعل عمومته يوصون عليه أهل العير، فلما قدم بضرى من الشام نزل في ظل شجرة قريبة من صومعة راهب يقال له: نسطورا، فاطلع الراهب إلى ميسرة، وكان يعرفه، فقال: يا ميسرة، من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ قال: هو من قريش من أهل الحرم. فقال الراهب: ما نزل أحد قط تحت هذه الشجرة فيما نعلم نحن، وعندنا أنه لا ينزل تحتها إلا نبي. ثم سأله: هل في عينيه حمرة؟ قال ميسرة: نعم لا يفارقها. قال الراهب: هو هو،

وهو آخر الأنبياء -عليهم السلام- فيا ليتني أدركه حين يؤمر بالخروج، فأنا أشهد أنه النبي الأُمِّي الذي بشر به عيسى بن مريم عليه السلام وقال: لا ينزل بعدي تحت هذه الشجرة إلا النبي الأُمِّي الهاشمي صاحب قول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. فوعى ميسرة ذلك كلّه، ثم حضر رسول الله ﷺ سوق بُضْرَى، فباع واشترى، فوقع بينه وبين رجل اختلاف في سلعة، فقال له الرجل: احلف باللّات والعزى، فقال له رسول الله ﷺ: "ما حلفت بها قط"، فنظر إليه الرجل، وكان عنده علم، وقال له: القبول قولك. ثم خلا الرجل بميسرة وقال له: هذا والله نبيّ، والذي نفسي بيده لتجده أجبّارنا بصفته منعوتًا في الكتب. فوعى ذلك ميسرة، ثم انصرف أهل العير. وكان ميسرة يرى إذا كانت الهاجرة واشتد الحرّ غمامةً تُظَلُّ النبي ﷺ من حرّ الشمس.

ثم دخل عليه السلام مكة في ساعة الظهر وخديجة في عليّة لها مع نساء فيهن نفيسة بنت منبه، وكانت كثيرة الاختصاص بها، فرأت رسول الله ﷺ حين دخل مكة راكبًا على بعيره والغمامة تظله، فأرته نساءها، فعجبين لذلك، فلما أن دخل ميسرة أخبرته بما رأت، فأخبرها بقول الراهب، ويقول الرجل الذي خالفه في البيع، وأنه كان يرى الغمامة تظله منذ خرج إلى الشام. وقدم رسول الله ﷺ بتجارته، فتضاعف فيها الريح ببركته، فضعفت له ما كانت سمّت له.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه في الجاهلية في المسجد الحرام، فاجتمعوا فيه ذلك العيد، فجاء يهودي وقال: يا معشر نساء قريش، إنه يُبعث فيكن نبي، فأيتكن استطاعت أن تكون له أرضًا يطؤها فلتفعل. قال: فحصبته وطرده، ووقر ذلك القول في نفس خديجة، فلما استقرّ عندها ذلك كلّه،

وكانت حازمة شريفة، وهي يومئذ أوسط نساء قريش نسبًا، وأعظمهن شرفًا، وأكثرهن مالاً، مع ما أراد الله بها من الخير والكرامة، قالت نفيسة: فأرسلتني إليه دسيسًا لأعرف ما عنده، فقلت له: يا محمد، ما يمنعك أن تتزوج؟ قال: "ما بيدي ما أتزوج به"، قالت: أبعد أن دُعيت إلى الحلال والشرف والمال لا تحيب؟ قال: "بلى فمن هي؟" قالت: خديجة بنت خويلد. قال: "وكيف لي بذلك؟" قالت: عليّ ذلك. قال: "فافعلي"، فذهبت فأخبرت خديجة، فأرسلت إليه: أن ائت في وقت كذا، ثم أرسلت إلى عمها عمرو بن هند تُعلمه بالأمر، ثم أتى رسول الله ﷺ للوقت المحدود في عمومته، وحضر عمُّها عمرو بن أسد^(١)، وهناك خطب أبو طالب خُطبةً قريبة المأخذ، حسنة المقصد، مليحة الإيجاز، فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلدًا حرامًا وبيتًا محجوجًا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن محمد ابن عبد الله ابن أخي من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح برًّا وفضلًا وكرمًا وعقلًا ومجدًا ونبلاً، وإن كان في المال قل، فإنما المال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصداق فعلي. فتزوجها، وتمّ النكاح بينهما، فقال عمرو عند ذلك، هذا فحل لا يقدر أنفه. ثم دخل بها، فولدت له القاسم والطاهر والطيب وعبد الله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضي الله عنهم . ولم يتزوج عليها حتى ماتت، ﷺ ورضي الله عنها. ثم تزوج سودة بنت زمعة قبل عائشة، ولم يتزوج بكرًا غير عائشة -رضي الله عن جميعهن- وجميع ولده من خديجة إلا إبراهيم فإنه كان من مارية القبطية.

(١) م: هند، والتصحيح من الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٤٢٠ .

نبوته ﷺ

عن ابن عباس قال: أوحى إلى رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة. وعن أنس بن مالك قال: بُعث رسول الله ﷺ على رأس أربعين سنة، وهو قول الله عز وجل ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [سورة الاحقاف، من الآية ١٥]. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: بُعث النبي ﷺ يوم الاثنين. وقال أنس بن مالك: استنبت ﷺ يوم الاثنين. ورؤي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: سُئل رسول الله ﷺ عن صوم يوم الاثنين، فقال: "ذلك يوم وُلدت فيه، ويوم أنزل عليّ فيه النبوة". وقال رسول الله ﷺ: "نزلت صحف إبراهيم عليه السلام أول ليلة من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين ليلة خلون من شهر رمضان".

ورؤي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصالحة الصحيحة، فكان عليه السلام لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، فيتحنّث فيه -أي: يتعبّد- وكان يتزوّد لليلة ثم يرجع إلى خديجة، ثم يتزوّد لمثلها، ثم جاءه الملك في غار حراء، ثم فتر عنه فترة، ثم بينما هو يمشي إذ سمع صوتاً من قبّل السماء، قال: "فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجنيت فرقا منه، فجنّت أهلي، فقلت: زملوني زملوني!" فأنزل الله عز وجل عليه: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ [سورة المدثر، من الآية ١-٢]، قال: ثم حمي الوحي وتتابع.

وكان ﷺ حين أراد الله كرامته وابتدأه بالنبوة، لا يمرّ بحجر ولا شجر إلا يسلم عليه، فيلتفت يمينا وشمالا فلا يرى إلا الحجر والشجر، وكانت تقول: السلام عليك يا

رسول الله! وفي ذلك يقول ورقة بن نوفل، وكان ابن عمّ خديجة، حين سأله في شأن رسول الله ﷺ عند بدء نبوته، فقال لها ورقة: لئن كنت صدقتيني يا خديجة! إنه لنبي هذه الأمة، وإن الذي يأتيه هو الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى عليه السلام. وأنشد:

| | |
|------------------------------|----------------------------------|
| يا للرجال بصرف الدهر والقدرِ | وما لشيء قضاة الله من غيرِ |
| حتى خديجة تدعوني لأخبرها | وما لها بخفي الأمر من خيرِ |
| جاءت تسألني عنه لأخبرها | أمرًا عظيمًا سيأتي الناس من آخرِ |
| فخبرتني بأمرٍ قد سمعت به | فيما مضى من قديم الدهر والعصرِ |
| بأن أحمد يأتيه فيخبره | جبريل أنك مبعوث إلى البشرِ |
| فقلت: علّ الذي ترجين ينجزه | لك الإله فرج الخير وانتظري |
| وأرسله إلينا كي نسأله | عن أمره ما يرى في النوم والسهرِ |
| فقال حين أانا معلنا عجبًا | تقف منه أعالي الجلد والشعرِ: |
| إني رأيت أمين الله واجهني | في صورة أكملت من أحسن الصورِ |
| ثم استمر فكاد الخوف يذعري | مما يسلم من حولي من الشجرِ |
| فقلت ظنّ وما أدري أیصدقني | أن سوف تُبعث تلو منزل السورِ |
| وسوف أبليک إن أعلنت دعوته | نصرًا عزيزًا بلا منّ ولا كدرِ |

وقال أيضًا ورقة بن نوفل في سؤال خديجة رضي الله عنها وأرضاها:

| | |
|------------------------------|--------------------------------|
| فإن يك حقًا يا خديجة فاعلمي | حديثك إيانا فأحمد مرسلُ |
| وجبريل يأتيه من الله معلّمًا | يقارنه وحي من الله منزلُ |
| فسبحان من تهوي الرياح بأمره | ومن هو في الأشياء ما شاء يفعلُ |

وَمَنْ عَرَّشَهُ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ كُلِّهَا وَأَحْكَامَهُ فِي الْخَلْقِ لَا تَتَبَدَّلُ
 وَكَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ بَدَأَ الْأَمْرَ بِهِ، وَأَظْهَرَ اللَّهُ كَرَامَتَهُ، يُخْبِرُ خَدِيجَةَ بِمَا يَسْمَعُ
 وَمَا يَرَى، وَتَرَى عَلَيْهِ الرَّعْبَ وَالْعَرَقَ وَالِاسْتِكَانَةَ، فَتَقُولُ: أَبْشِرْ فَوَاللَّهِ لَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِكَ
 إِلَّا خَيْرًا، فَإِنَّكَ تَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصَدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ،
 وَتُوَدِّي الْأَمَانَةَ، وَتَعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.

فصل

رُوي أن خديجة لقيت غلامًا نصرانيًا كان لعتبة بن ربيعة من أهل نينوى اسمه
 عداس، فقالت له: يا عداس، ما تقول -أذكرك الله ونصرانيتك- هل عندك من علم
 بجبريل عليه السلام^(١)؟ فلما سمع عداس بذكر جبريل قال: قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ، وما شأن
 جبريل يُذكر بهذه الأرض؟ قالت: أحب أن تخبرني بعلمك فيه. قال: هو أمين الله
 ووسيلته بينه وبين نبيه موسى عليه السلام، وهو صاحب عيسى صلوات الله عليه.
 فخرجت من عنده، وأتت ورقة بن نوفل، وكان قد كره عبادة الأوثان وزيد بن عمرو
 بن نفيل الذي قدّمنا ذكره، وكانا يلتمسان العلم والدين حتى وصلا إلى الشام، فسألا
 اليهود، فعرضوا عليهما دين اليهودية فكرهاه، ثم سألا رهبان النصرانية فعرضوا عليهما
 دين النصرانية فقبله ورقة وكرهه زيد، فقال له قائم من الرهبان: إنك تلتمس دينًا ليس
 يوجد اليوم في الأرض، وهو دين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام. قال: فما كان
 دينه؟ قال: كان حنيفًا مسلمًا. فقال زيد حين نعته له الراهب: أنا على دين إبراهيم، وأنا
 أسجد تلقاء هذه الكعبة التي بناها إبراهيم. وقيل: إنه توفي وبقي ورقة بعده سنين،
 والله أعلم. وفيه يقول:

(١) م: صلى الله عليه وسلم .

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما تجنبت تنورا من النار حاميا
 عبدت إلهًا ليس ربّ كمثلها وخليت حنّان الجبال كما هيا
 وقال عروة بن الزبير: لما وصفت خديجة لورقة بن نوفل شأن محمد ﷺ قال لها:
 والله يا ابنة أخي ما أدري لعلّ صاحبك النبي الذي ينتظر أهل الكتاب الذي يجدونه
 مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، والله لئن كان وأدركته وأنا حي لأبليّن في نصرته
 وحسن مؤازرته عذرًا. فهات ورقة قبل ذلك، والله أعلم.
 وروى هشام بن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "لا
 تسبوا ورقة؛ فإني رأيت له جنة - أو قال: جنتين -"، وفي رواية أخرى: "رأيت
 يتخضخض في أنهار الجنة".

فصل

وروي أن خديجة رضي الله عنها قالت لرسول الله ﷺ: يا ابن عم، أتقدر إذا جاءك
 هذا الذي يأتيك أن تخبرني به؟ قال: "نعم". فأتاه ذات يوم جبريل عليه السلام وهو
 عندها، فقال: "يا خديجة هذا صاحبي قد جاء"، قالت له: قم فاجلس على فخذي.
 فجلس، فقالت له: هل تراه؟ قال: "نعم" قالت له: هل تراه؟ قال: "نعم". وقيل:
 أدخلته بينها وبين درعها وقالت له: هل تراه؟ قال: "نعم"، فحسرت رأسها وطرح
 عنه خمارها ثم قالت: هل تراه؟ قال: "لا"، فقالت: هذا والله ملك كريم، والله ما هذا
 بشيطان، فأبشر يا محمد، واقبل كرامة الله عزّ وجلّ.

وعن رسول الله ﷺ قال: "أقمت بحراء ثم نزلت، فلما استبطنت الوادي نوديت،
 فالتفت فلم أر أحدًا؛ فرفعت طرفي إلى السماء فإذا جبريل على عرش في الهواء - أو على

كرسي - بين السماء والأرض"، أو قال ﷺ: "رأيت جبريل عليه السلام واقفاً على السدرة له ستمئة جناح ما بين المشرق والمغرب".

وقالت عائشة رضي الله عنها: لما رجع رسول الله ﷺ من الأحزاب دخل عليّ، فجلس وجبة، ثم وثب وخرج، فخرجت وراءه، فرأيت أعرابياً يكلمه، فلما دخل، قلت: يا رسول الله، من الأعرابي الذي كنت تكلمه؟ قال: "أورأيته يا عائشة؟" قلت: نعم. قال: "ذلك جبريل ﷺ أمرني بالخروج إلى قريظة".

وماروي عنه ﷺ أنه قال: "بينما جبريل عليه السلام جالس عندي إذ انقضّ ملك من السماء، فقلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هو ملك، وما كل ملائكة ربك أعرف يا محمد!". وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ أجود البشر، وكان أجود ما يكون في رمضان عند قرب عهده بجبريل عليه السلام، فإنه كان يدارسه القرآن في رمضان في كل عام، مرة. فلما كان العام الذي قبض فيه رسول الله ﷺ عارضه بالقرآن مرتين. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت عند رسول الله ﷺ في مرضه، فقال لفاطمة: "إن جبريل عليه السلام كان يعارضني بالقرآن في كل عام مرة، وإنه عارضني به العام مرتين، ولا أرى أجلي إلا قد حضر".

فجّل

وروي عن أبي هريرة قال: "لما بُعث رسول الله ﷺ أصبح كل صنم منكّباً، فأنت الشياطين إبليس فقالت له: ما على وجه الأرض من صنم إلا وقد أصبح منكّباً! قال: هذا نبيّ قد بُعث فالتمسوه في قرى الأرياف. فالتمسوه، فقالوا: لم نجده. قال إبليس: أنا صاحبه. فخرج يلتمس، فنودي: عليك بحبة القلب. يعني مكة، فالتمسها بها؛ فوجده عند قرن الثعالب، فخرج إلى الشياطين، فقال: قد وجدته ومعه جبريل عليه السلام.

ورُوي أن رسول الله ﷺ قال: "ما منكم أحد إلا يوكل به قرينه من الجن والإنس"، قيل له: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإيائي، إلا أن الله تعالى قد أعانني عليه فأسلم؛ فلا يأمر إلا بخير". قيل: معنى "أسلم" أي: آمن، فيكون ﷺ مخصوصاً بهذه الفضيلة. وقيل: معنى قوله: "أسلم": أي: استسلم وانقاد، فلم يأمر بشيء. وقيل: "أسلم" برفع الميم، أي: أسلمتُ أنا من شره. والله أعلم.

قال نافع بن جبير: كانت الشياطين في الفترة تستمع فلا تُرمى، فلما بُعث رسول الله ﷺ رُميت بالشهب، فرأت قريش أمراً لم تكن تعرفه، فظنت أنها الفناء، فجعلوا يسيئون أنعامهم ويعتقون أرقاءهم، فبلغ ذلك أهل الطائف، ففعلوا مثل ذلك، إلى أن بلغ ذلك عبد ياليل بن عمرو، قال: وما فعلتم؟ قالوا: رُمي بالنجوم فرأيناها تتهافت من السماء. فقال: إن إفاضة المال بعد ذهابه لشديد، فلا تعجلوا وانظروا، فإن كانت نجوماً تُعرف فهو عبد ينبأ من الناس، وإن كانت لا تعرف فهو حدث. فأخبروه أنها لا تُعرف، فقال: الأمر فيه مهلة، وهذا إنما هو عند ظهور نبي. فما مكثوا إلا يسيراً حتى قدم أبو سفيان فذاكره عبد ياليل أمر النجوم، فقال أبو سفيان: ظهر محمد بن عبد الله يزعم أنه نبي مرسل.

وعن ابن عباس، أن الشياطين كانوا يصعدون إلى السماء فيستمعون الكلمة من الوحي، فيهبطون بها إلى الأرض، فيزيدون معها تسعاً، فيحدثون بها أهل الأرض، الكلمة الواحدة حق والتسع باطل، فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله محمداً ﷺ فمُنعوا تلك المقاعد، وهو قول الله عز وجل: ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحْدِثْ لَهُ شَهَابًا مَّرصَدًا﴾ [سورة الجن، الآية 9].

ذكر هجرة أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة

قال محمد بن عمر الواقدي، خرج المهاجرون الأوّلون إلى أرض الحبشة سنة خمس من مبعث النبي ﷺ بعد أن لقوا من المشركين شدّة وأذى كثيراً، وكان أول من خرج مهاجراً في الإسلام عثمان بن عفان رضي الله عنه . روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لم يكن بين لوط النبي عليه السلام وبين عثمان بن عفان رضي الله عنه مهاجر". ولما رأى رسول الله ﷺ ما نزل بأصحابه من البلاء والجهد، وما هو فيه من العافية لمكانه من الله تعالى وما أتاح له من حماية عمّه أبي طالب، قال لأصحابه: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً"، فخرج أصحابه رضي الله عنهم مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله عزّ وجلّ بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام، وكانوا أحد عشر رجلاً وامرأتين، كانت إحداهما رقية بنت رسول الله ﷺ زوج عثمان بن عفان، والثانية سهلة بنت سهيل زوج أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة، فلما وصل القوم إلى أرض الحبشة واطمأنوا بها، وعلم ذلك كفار قريش، بعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن [أبي] ربيعة إلى النجاشي ملك الحبشة، وبعثوا معهما هدايا كثيرة إليه وإلى بطارقه، فخرجوا حتى قدما عليه، فلم يبقَ بطريق من بطارقه إلا قدّم إليه هدية، وسألوه أن يكلم الملك فيسلم إليهم أصحاب رسول الله ﷺ قبل أن يكلمهم ويسمع منهم، ثم قرّبوا إليه هداياهم، فقبلها، ثم قالوا له: أيها الملك، إن قومنا بعثونا إليك في فتيان منهم خرجوا إلى بلادك فارقوا أديان قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشرافهم وكبار قومهم وعظماء عشائرهم لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم. فقال

(١) إضافة يتمّ بها المعنى . انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٦٣ .

بطارقتة: صدقوا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عيناً. قال: فغضب النجاشي، ثم قال: لا ها الله لا أسلم قوماً جاؤوني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم وأسائلهم، فإن كانوا كما قالوا أسلمتهم إليهما، وإن كانوا على غير ذلك منعت عنهم وأحسنيت جوارهم. ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ ودعاهم فاجتمعوا، وقال بعضهم لبعض: ما تقولون لهذا الرجل؟ قالوا: نقول -والله- ما نعلم، وما قال لنا نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما كان. فأتوه وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله، وقال لهم: ماذا الذي فارقتم قومكم عليه ولم تدخلوا في ديني ولا في شيء من هذه الملل؟ فكان الذي كلمه منهم جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الحرام، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا لنوحد الله، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من الأوثان والحجارة، وأمرنا بصدق الحديث، وصلة الرحم، وأداء الأمانة، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش والزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصيام، وأن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً؛ فصدقناه، وآمنا به، وآتبعنا ما جاء به؛ فعدا علينا قومنا، وعدبونا، وفتنونا عن ديننا، وظلمونا، وضيقوا علينا، فخرجنا إلى بلدك، واخترتناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك. فقال له النجاشي: هل عندك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال جعفر: نعم. فقرأ عليه صدرًا من سورة (كهيعص)، فبكى النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، ثم قال: إن هذا والذي جاء به موسى عليه السلام ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقا، والله لا أسلمهم إليكما. فلما

خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غدًا بما أستأصل به غَضْرَاءَهُمْ^(١). فقال له عبد الله بن أبي ربيعة: وما هو؟ قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عليه السلام عبد. قال: ثم عاد عليه في الغد، فقال له: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً. فأرسل إليهم، فسألهم عما يقولون فيه، فقال بعضهم لبعض: ما تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول -والله- فيه ما قاله الله عز وجل، وما جاء به نبينا ﷺ كائنًا في ذلك ما يكون. ثم دخلوا عليه، فقال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا ﷺ هو عبد الله، ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. قال: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، وأخذ منها عودًا، وقال: وما عدا عيسى بن مريم قولك هذا العود. فتناخرت بطارقه، فقال: وإن نخرتم. ثم قال لجعفر وأصحابه: اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي -أي آمنون- ردوا عليهما هديتهما، ما أحب أن لي دبر ذهب وأني أذيت^(٢)، واحدًا منهم -والدبر: هو الجبل بلغة الحبشة- فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين ردّ عليّ ملكي فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه. فخرجا من عنده خاسرَيْن خاسرَيْن.

فصل

أما قوله: "ما أخذ الله مني الرشوة حين ردّ عليّ ملكي، ولا أطاع الناس في فأطيعهم فيه": وذلك لأن أباه كان ملك الحبشة، ولم يكن له ولد إلا النجاشي، وكان

(١) خيرهم. ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص ٤٥ .

(٢) م: أديت، والتصحيح من ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٦٧ .

لوالد النجاشي أخ من صلبه اثنا عشر رجلاً، وكانوا أهل بيت مملكة الحبشة، فقالت الحبشة: لو أننا قتلنا والد النجاشي؛ إذ ليس له غير هذا الغلام، وملكنا أخاه؛ فإن له من البنين ما يتوارثون ملكه بقي ملك الحبشة دهرًا. ففعلوا ذلك، وملكوا أخاه، وبقي النجاشي مع عمه، وكان لبيباً حازماً فغلب على أمر عمه، فلما رأى الحبشة مكانه قالت: إننا لنخاف أن يملكه علينا فيقتلنا أجمعين بأبيه، فمشوا إلى عمه وقالوا: إما أن تقتل هذا الغلام وإما أن نخرجه عنا؛ فإننا قد خفناه على أنفسنا بما فعلنا في أبيه. قال: ويلكم قتلتم أباه بالأمس وأقتله أنا اليوم؟! لا كان ذلك، بل أخرجوه. فخرجوا به إلى السوق فباعوه لبعض التجار بستمئة درهم، وخرج به التاجر، فلما كان عشي ذلك اليوم هاجت سحائب الخريف، فخرج عمه يستمطر تحتها، فأصابته صاعقة فقتلته، فقامت الحبشة بينه فلم يجدوا في واحد منهم خيراً، فلما رأوا ذلك قالوا: والله ما لكم إلا الذي أخرجتموه فما لملك الحبشة إلا هؤلاء القوم، وإن كان في غيرهم لم يؤمن عليه الفساد، وإن كان لكم به حاجة فأدركوه. فخرجوا في طلب التاجر الذي اشتراه حتى أدركوه في بعض الطريق، فأخذوه منه، وجاؤوا به، وأعدوه على سريره، وعقدوا التاج على رأسه، وملكوه أمرهم، ثم أقبل التاجر وقال لهم: ردوا عليّ مالي وإلا كلمته. فأبوا عليه، فأتاه التاجر، وقال له: أيها الملك، ابتعت غلاماً من قوم بالسوق بست مئة درهم، وأسلمتها لهم، وأسلموا إليّ غلامي، ثم أدركوني ببعض الطريق، وأخذوه مني، ومنعوني دراهمي. فقال لهم النجاشي: لتعطنّ دراهمه أو لتسلمنّ إليه غلامه يذهب به حيث شاء. فأعطوه ماله. فذلك قوله: ما أخذ مني الرشوة حين ردّ عليّ ملكي.

فصل

ثم إن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في شأن جعفر وأصحابه، وكتب معه: "بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله ﷺ إلى النجاشي أصحمة ملك الحبشة. سلام الله. فإني أحمد الله إليك الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصان، فحملت به كما خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه. [إني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له] ^(١)، وأن تتبني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي أوصي بمن معه من المسلمين، فإذا جاؤوك فأقرهم، فإني أدعوك وجنودك إلى الله، وقد بلغت ونصحت، فأقبل نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى". فراجع النجاشي رضي الله عنه: بسم الله الرحمن الرحيم. إلى محمد رسول الله ﷺ من النجاشي أصحمة ابن أبحر. سلام يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته. الله الذي لا إله إلا هو هداني إلى الإسلام. أما بعد، فقد بلغني كتابك -يا رسول الله- وما ذكرت من أمر عيسى عليه السلام فوَرَبَّ السَّما والأرض إنه لكما قلت، وقد عرفنا قدر ما بعثت به إلينا، وقربنا ابن عمك وأصحابه، وأنا أشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعناك بمبايعة ابن عمك، وأسلمت لله رب العالمين، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

ثم قدم وفد النجاشي على رسول الله ﷺ وكانوا اثني عشر رجلاً، فكان يخدمهم بنفسه، فقال له أصحابه: يكفيك يا رسول الله. قال: "إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين".

(١) إضافة من الطبري كي يستقيم المعنى . تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٦٥٢.

ثم تلا عليهم القرآن، فبكوا، وكانوا قسيسين ورهباناً، فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [سورة المائدة، من الآية ٨٣].

ورُوي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ نعى لهم النجاشي في اليوم الذي مات فيه وهو بأرضه، وقال: "استغفروا لأخيكم"، وأن النبي ﷺ صلى عليه هو وأصحابه، وصفهم في المصلى، وكبر عليه أربعاً. ورُوي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما زال يُرى على قبر النجاشي نور.

خبر قسّ بن ساعدة الإيادي

وجدت أخبار قسّ بن ساعدة على روايات فيها نقص وزيادات، فأثبتت منها ما وجدته أتمّ وصفاً، وأحسن رصفاً. وبالله التوفيق.

روى الحسن بن أبي الحسن البصري بإسناده قال: كان الجارود بن المعلّى بن حنش ابن يعلى العبدي رجلاً نصرانياً، حسن المعرفة بما جاء في الكتب وتأويلها، عالماً بسيرة العرب وأقاويلها، بصيراً بالطب، كامل الأدب، بارع الجمال، ذا ثروة ومال كثير النوال. قال: فقدم على رسول الله ﷺ وأفدأ في رجال من عبد القيس ذوي الألباب ولسانة، فلما وصل إليه، وتمثل بين يديه، أشار بيده إليه، وجعل يقول:

| | |
|--------------------------|--------------------------|
| يا نبيّ الهدى أتاك رجالٌ | قطعوا فدفدًا وآلًا |
| وطووا نحوك الضحاح طياً | لا تعدّ الكلال فيك كلالا |
| كل دهماء قصر الطرف عنها | أرقلتها ففلاصناً إرقالا |
| وطوتها العناق تجمح فيها | بكماة كأنجم تتلالا |

تبتغي دفع بأس يومٍ عصيبٍ هائل أوجع القلوب وهالا
ومراقاً لمحشر وفراقاً واجتئاباً لمن تمادى ضلالا
نحو نور من الإله وبرها نِ وبِرٍّ ونعمة لن تنالا
خصّك الله يا ابن أمانة الخير بخير أتى سجالاتا سجالاتا
فاجعل الحظ منك يا حجة الله جزيلاً لا حظ خلف أحوالا

قال: فأدناه رسول الله ﷺ وقرب مجلسه، وقال له: "يا جارود، لقد تأخرت لموعدك ولقومك"، قال: فذاك أبي وأمي يا رسول الله، أما من تأخر عنك فقد فاتة حظه منك، وتلك أعظم حوبة، وأغلظ عقوبة، وما كنت ممن سمعتك فعداك، واتبع سواك، وكنت على دين عملت به قبل جيئتك ها أنا أتركه لدينك، أفذلك مما يمحص الذنوب، والإثم والحبوب، ويرضي الربّ على المربوب؟ قال له رسول الله ﷺ: "أنا ضامن ذلك، أخلص الآن بالوحدانية، ودع عنك دين النصرانية"، فقال الجارود: مدّ يدك يا رسول الله، أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. قال: فأسلم لوقته، وأسلم من كان معه من قومه، فسّر النبي ﷺ بذلك، وأظهر من كراماته ما سرّوا به وابتهجوا، ثم أقبل عليهم رسول الله ﷺ وقال لهم: "أفيكم من يعرف قس بن ساعدة الإيادي؟" فقال الجارود: كلنا نعرفه، وإني من بينهم لعالم بخبره، وواقف على أثره، كان قس بن ساعدة يا رسول الله، سبطاً من أسباط العرب، عمّر ستمئة سنة، تقفّر منها خمسة أعمار في البوادي والقفار، يسبح بالتسبيح على منهاج المسيح، لا يقره قرار، ولا يكته دار، ولا يستمتع به جار، يلبس الأمساح، ويقري السياح، لا يفترّ من رهبانية، يتحسّى بيض النعام، ويأنس بالهوام، ويستمتع بالظلام، يختبر فيعتبر، ويفكر فيذكر، فصار لذلك

واحدًا تُضرب بحكمته الأمثال، وتكشف بموعظته الأحوال، وأدرك رأس الحواريين سمعان . وقُس أول من تأله من العرب ووحد، وأقر وتعبد، وأيقن بالبعث والحساب، وحذر من سوء المآب، وخوف الدهر، وجدد الدور، وعظم الأمر، وجانب الكفر، وشوّق إلى الحنيفية، ودعا إلى الألوهية.

وهو القائل: شرق وغرب، وسلم وحرب، ويابس ورطب، وأجاج وعذب، وشموس وقمار، ورياح وأمطار، وليل ونهار، وأيام وشهور، وبرز وبحور، وإنات وذكور، وحب ونبات، وآباء وأمهات، وجميع وأشتات، وآيات في أثرها آيات، ونور وظلام، وكثر وإعدام^(١)، ورب وأصنام، لقد ضلّ الأنام، ونشو^(٢) مولود، ورزق مفقود، ونبات مخضود، وفقير وغني، ومحسن ومسيء، تبا لأرباب الغفلة، لينصحنّ عامل عمله، أو ليفقدنّ أمله، كلابل هو الله إله واحد، ليس بمولود ولا بوالد، أعاد ما أبدى، وأمات وأحيا، وخلق الذكر والأنثى، ربّ الآخرة والأولى . أما بعد: يا معشر إياد فأين ثمود وعاد؟ أين الآباء والأجداد؟ وأين العليل والعواد؟ كل له ميعاد . أقسم قُس بربّ العباد، وساطح المهاد، لتحشرنّ على انفراد، ليوم الميعاد، إذا نفخ في الصور، ونقر في الناقور، وأشرق الأرض بالنور، وقد وعظ الواعظ، وانتبه الياقظ، وأبصر اللاحظ، فويل لمن صدف عن الحق الأشهر، وكذب بالمحشر، والنور الأزهر، والعرض الأكبر، يوم الفصل، وميزان العدل، إذا حكم القدير، وشهد النذير، وظهر التقصير، ففريق في الجنة وفريق في السعير، ثم أنشأ يقول:

(١) م: عدام . والتصحيح من ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٣٣ لوفيه (يسر وإعدام).

(٢) م: نشوء . انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٣٣ .

| | |
|---------------------------|----------------------------|
| عاود القلب من هواك اذكارُ | وليالٍ خلاهن نهارُ |
| وسجالٌ هواطلٌ من غمامٍ | جرى ماء وفي ذراهن نازُ |
| وقصورٌ مشيدةٌ حوت الخيـ | ر وأخرى خوت فهن قفارُ |
| ونجومٌ تلوح في ظلمة الليـ | ل تراها في كل يوم تدارُ |
| ثم شمسٌ وتحتها قمرٌ الليـ | ل وكل متابع مرارُ |
| وجبالٌ روايي شامخاتُ | وبحارٌ مياهن غزارُ |
| وصغيرٌ وأشمطٌ ورضيعٌ | كلهم في الصعيد يوماً يزارُ |
| وكثيرٌ مما يقصر عنه | خاطر حدسه الذي لا يحارُ |
| فالذي قد ذكرت دل على اللـ | ه نفوساً لها هدى واعتبارُ |

فقال رسول الله ﷺ: "مهما نسيت من شيء فلا أنساه بسوق عكاظ على جمل أحمر
يخطب الناس وهو يقول: أيها الناس، اجتمعوا واستمعوا، فإذا سمعتم فعوا، وإذا
وعيتم فاتبعوا، فإذا انتفعتم فقولوا، فإذا قلتهم فاصدقوا. من عاش مات، ومن مات
فات، وكل ما هو آت آت، مطر ونبات، وأحياء وأموات، إن في السماء لخبراً، وإن في
الأرض لعبراً، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لا تفور، ومنايا
دوان، ودهر خوان، كحزر النطاس، ووزن القسطاس. أقسم قُسم قسماً حقاً لا كذب
فيه ولا إثم، لئن كان في هذا الأمر رضا ل يكوننّ فيه سخط. ثم قال: أيها الناس، إن الله
ديناً أحب إليّ من دينكم الذي أنتم عليه، وهذا زمانه وأوانه. ثم قال: مالي أرى الناس
يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا؟" ثم التفت رسول الله
ﷺ وقال: "أيكم يروين شعره؟" فقال أبو بكر رضي الله عنه: أنا يا رسول الله شاهد له
في ذلك اليوم حيث يقول:

في الـذاهبين الأوليـــــــ
 من من القرون لنا بصائر
 لما رأيت مواردًا للموت ليس لها مصادز
 ورأيت قومي نحوها يسعى الأكابر والأصاغر
 لا يرجع الماضي إليّ ولا من الباقيـن غابـر
 أيقنت أني لا محـا لة حيث صار القوم صائر

فصل

قيل إنه لما وَفَدَ وَفَدَ عبد القيس على رسول الله ﷺ، قال: "يا وفد عبد القيس، أفيكم من يزيدنا في إيمان قُس بن ساعدة الإيادي شيئًا؟". فقام رجل منهم طويل القامة، كبير الهامة، قد كبر حتى سقط حاجباه على عينيه، وقال: يا رسول الله، إني رأيت من قُس عجبًا. قال: "وما الذي رأيت يا أخا العرب؟" قال: خرجت في جاهليتي أُرَيْعُ^(١) بعيرًا شرد مني، فبينما أنا أجوب السباب وأقطع الفدافد، وقد مضى من الليل الثلث، فغلبتني عيناى، فإذا بهاتف يقول:

ياراقـدًا في هـضبة الأراكِ
 احذر سبيل الغيِّ والإشراكِ
 وارحل إلى يثرب بالـضناكِ
 واخلّ عنك سملق الركاكِ
 انت رسول الملك المفكاكِ

(١) م: أربع، والتصحيح من لسان العرب (روغ) ومعناه: أطلب .

محمّداً يجلو عمى الشكاكِ
ويكسر الأصنام بالدراكِ
تنجو من الهفوة والهلاكِ

فاستيقظت وأها مرعوبًا، فقلت: واللّات والعزى إن هذا لأمرٌ عجيب قد حدث،
أبعث نبيٌّ بتهامة في ساعة القيامة. ثم غلبتني عيناى ثانية، فإذا به يهتف ويقول سرعًا:

وسنان أم تسمع ما ينيكا
ارحل هديت متبعًا دميكا
تفري قتام الآل والدكوكا
حتى تهلّ منهلًا سلوكا
يثرّب تمظى به نسوكا
أنت رسولا عبّد المليكا
يُبدني إليه الحرّ والمملوكا
ويقبل السوقة والمملوكا
نبيّ صدق يفرج الشكوكا

فاستيقظت وأها مرعوبًا، وأجبتة:

يا أيها الهاتف والليل سجم
ماذا الذي تدعو إليه وتلم
بيّن لنا عن صدق ما أنت زعم
هل بعث الله نبيًّا مغتسنم

يجلو عمايات الضلال واليهيم
من بعد عيسى في ضحيات الظلم
ينجى من الزيغ ويهدي من عزم

فسمعت قائلاً يقول: ألا إنه قد ظهر نور، وبطل زور، وابتعث نبي بالسرور. ثم لم أسمع بذكر، فبينما أنا أفكر في صوته، وما سمعت من قوله، إذ طلع عليّ عمود الصبح، فالتمست بعيري فإذا به في أصل دوحة يهش من ورقها، ويهشم من أغصانها، فدنوت منه، وزممته، وجعلت أتقحم به وادياً بعد وادٍ حتى أتيت وادياً يُقال له سمعان، فإذا بعين خوّارة، وروضة مدهامة، فيها شجرة عظيمة، وإذا بقسّ بن ساعدة الإيادي تحت الشجرة، وبيده قضيب ينكت به في الأرض وهو يقول:

يا ناعي الموت والملحود في جدّث أما تراهم بقايا بزهم خرق
ذرهم فإن لهم يوماً يُصاح بهم حتى إذا انتبهوا من نومهم فرقوا
منهم عرّاة وموتى في ثيابهم قوم حيارى من الأجداث قد صعقوا

قال: فذعرت منه، ووقفت متعجباً مفكراً في حسن كلامه، وأنسه بوحشة ذلك الموضع، وإذا بسباع كثيرة قد تبادرت الماء، وفيهم سبع عظيم يريد سبقها على وِرد الماء، فوثب إليه قسّ بالقضيب وقال: تنحّ حتى يشرب الذي وِردَ قبلك. فاشتدّ ذعري، فالتفت إليّ كأنه قد علم حالي، ثم قال: ادنُ يا أخا العرب، لا رعب عليك. قال: فدنوت منه، وجعلت أكلّمه ويكلّمني، وأناشده ويناشدني إذ التفت عن يميني، فإذا بقبرين بينهما مسجد، فقلت له: ما هذان القبران؟ قال: هما قبرا أخوين لي كانا يعبدان الله في هذا الموضع، فها أنا مقيم بينهما أعبد الله حتى ألحق بهما. فقلت له: ألا تلحق

بقومك فتكون معهم في خيرهم وتباينهم في شرهم؟ فقال: نكلتك أمك! ألا تعلم أن
 وُلد إسماعيل تركت دين أبيها وأتبع الأضداد وعظمت الأنداد؟! ثم أقبل على
 القبرين يبكي ويقول:

خليتي هبّا طالما قدر قدما أجدكما لا تقضيان كراكما
 أرى النوم بين الجلد والعظم منكما كأن الذي يسقي العقار سفاكما
 فإن كنتما لا تسمعان فما الذي خليتي عن سمع الدعاء عداكما؟
 أجيبا فلا أنفك أبكي عليكما وأرثيكما حتى يجيب نداكما
 ألم تسمعا أني بسمعان مفرد وما أن به لي من خليل سواكما
 مقيم على قبريكما لست بارحًا طوال الليالي أو يجيب صداكما؟
 فلو جعلت نفس لنفس فداءها لجدت بنفسي أن تكون فداكما
 فقال رسول الله ﷺ: "رحم الله قُسا، إن الله يبعثه أمة وحده كما عبد الله وحده".

خبر أكرم بن صيفي

كان أكرم بن صيفي من حكماء العرب وخطبائها ونصحائها وعلماؤها،
 وعاش ثلاثمئة سنة وستين سنة، وكانت العرب تقف عند حكمه ولا تعدل به أحداً،
 فلما سمع برسول الله ﷺ كتب إليه: باسمك اللهم. من العبد إلى العبد. أما بعد: فأبلغنا
 ما بلغك، فقد أتانا عنك خبر لا ندري ما أصله، فإن كنت أريت فأرنا، وإن كنت
 علمت فعلمنا، وأشركنا في خيرك. والسلام. فقيل: إنه بعث الكتاب مع ابنه. وقيل: إنه
 أراد أن يأتيه فمنعه قومه، وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا، وقد تجاوزت في السن، ويخشى
 عليك في الطريق. قال: فمن يبلغه عني؟ فبعث إليه رجلين من قومه، فأجابه رسول الله

ﷺ: "من محمد رسول الله إلى أكثم بن صيفي . سلام الله . أحمد الله إليك . إن الله يأمرني أن أقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأمر الناس بقولها . والخلق خلق الله، والأمر أمر الله، وكله إلى الله، والله خلقهم وأماتهم، وهو ينشرهم وإليه المصير . آذنتكم بأذانة المسلمين، لتسألن عن النبا العظيم، ولتعلمن نبأه بعد حين"، ثم تلا على رسله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۗ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة النحل، الآية ٩٠] ، فقالوا: ردّد علينا هذا القول . فردّده عليهم حتى حفظوه، وانصرفوا إلى أكثم بن صيفي، فقال: ما رأيتم منه؟ قالوا: رأيناه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملامتها، وإنا سألناه عن نسبه فأبى أن يرفع نسبه، فسألناه عنه فوجدناه زاكي النسب وسطاً في مضر، وقد رمى إلينا كلاماً حفظناه . ونصّوه على أكثم، فلما سمعه جمع بني تميم وقال لهم: إن رسلي قد وردوا من عند هذا الرجل، وقد شافهوه فوجدوه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملامتها، يدعو إلى أن يعبد الله وحده لا شريك له، وقد تلا كتاباً يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم، وقد علم ذو الرأي والفصل أن الخير والفضل فيما يدعو إليه، فكونوا -معشر تميم- في أمره أولاً ولا تكونوا فيه آخرًا، وأتبعوه تشرفوا وتكونوا سنام العرب، وائتوه طائعين قبل أن تأتوه كارهين، فإني أرى -والله- أمرًا ليس بالهويني، ولا يترك مصعدًا إلا صعده، ولا مضرًا إلا ضربه، ولينفرن بالمقيم أن الذي يدعو إليه لو لم يكن دينًا لكان في العقل حسنًا، فكيف وهو الحق! وإني -والله- أرى أمرًا لا يتبعه ذليل إلا عزّ، ولا يتركه عزيز إلا ذلّ، أتبعوه -معشر تميم- تزدادوا عزًا . ثم لم يلبث أن حضرته الوفاة .

فصل

قال أبو هريرة: اجتمع قوم من خثعم عند صنم لهم، وكانوا يتحاكمون إلى أصنامهم. فقيل لأبي هريرة: أكنت تفعل ذلك يا أبا هريرة؟ قال: قد كان -والله- فعلته وأكثر منه، والحمد لله الذي أنقذني بمحمد ﷺ. قال أبو هريرة: فالقوم مجتمعون عند صنمهم يختصمون إليه إذ سمعوا هاتفاً يقول:

| | |
|---------------------------|--------------------------|
| يا أيها الناس ذوو الأحلام | ومسندو الحكم إلى الأصنام |
| وكلكم أراه كـالهام | ألا ترون ما أرى أمامي |
| من ساطع يجلو دجى الظلام | قد لاح للناظر من تهامي |
| حتى بدا للناظر الشامي | ذاك نبي سيد الأنام |
| من هاشم في ذروة السنم | مستعلن بالبلد الحرام |
| جاء يهد الكفر بالإسلام | أكرمه الرحمن من إمام |

قال أبو هريرة: فأمسكوا ساعة حتى حفظوا ما سمعوا، ثم تفرقوا، فلم تمض بهم ثلاثة حتى جاءهم خبر رسول الله ﷺ أنه قد ظهر بمكة.

فصل

وروي عن رجل من جهينة أنه قال: خرجت حاجاً في الجاهلية في جماعة من قومي، فنمت، فرأيت نوراً سطع في الكعبة حتى أضاء إلى نخل يشرب وأشعر جبل جهينة، فانتبهت، فسمعت صوتاً يقول: انقشعت الظلماء، وسطع الضياء، وبُعث خاتم الأنبياء. ثم نمت مرة ثانية، فأضاء إضاءة أخرى حتى نظرت إلى قصر الحيرة، وإلى

أبيض المدائن، وسمعت صوتاً يقول: أقبل حقّ فسطع، ودمغ باطل فانقمع. فانتبهت
 فزعاً مرعوباً، وقلت لقومي: والله ليحدثنّ بمكة حدث في هذا الحي من قريش،
 وأخبرتهم بما رأيت وسمعت، فلما انصرفنا إلى بلادنا جاءنا من أخبرنا أن رجلاً من
 قريش اسمه أحمد بُعث نبياً، فقدمت على رسول الله ﷺ وأسلمت على يديه، وأنشأت
 أقول:

شهدتُ بأن الله حقّ وأنني لألهة الأصخار أول تارك
 وشمرت عن ساقِي الإزار مهاجرًا إليك أجوب الوعث بعد الدكادك
 لأنك خير الناس نفسًا ومولدًا رسول ملك الناس فوق الحباك

فصل

وروى أبو الأشعث أحمد بن المقدم بإسناده أن قريشاً سمعت في الليل هاتفاً يقول
 على جبل أبي قبيس:

فإن يسلم السَّعدان يصبح محمد بمكة لا يخشى خلاف مخالف
 فلما أصبحوا قال أبو سفيان: من السَّعدان؟ سعد بكر أم سعد تميم أم سعد ذهل؟
 فلما كان في الليلة الثانية سمعوه يقول:

فيا سعد سعد الأوس كن أنت ناصراً ويا سعد سعد الخزرجين الغطارف
 أجييا إلى داعيكما وتمنيا على الله بالفردوس منية عارف
 فإن ثواب الله للطالب الهدى جنان من الفردوس ذات رفارف

فقال أبو سفيان: هما والله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة.

فجعل

ورُوي أن العباس بن مرداس كان في لقاح له نصف النهار إذ طلعت نعامة بيضاء عليها راكب عليه ثياب بيض، فقال له: يا عباس بن مرداس، ألم ترَ أن السماء كثفت أحراسها، وأن الحرب جرعت أنفاسها، وأن الخيل وضعت أحلاسها، وأن الذي ينزل بالبرّ يوم الاثنين ليلة الثلاثاء صاحب الناقة؟ قال: فراعني ما رأيت وسمعت، وخرجت مرعوبًا، حتى جئت وثنا لنا يسمى الضمار، كنا نعبده ونكلم من جوفه، فكنت ما حوله، ثم تمسحت وقبّلته، فإذا صائح يصيح من جوفه ويقول:

قل للقبائل من سليم كلّها هلك الضمار وفاز أهل المسجد
هلك الضمار وكان يعبد مرة قبل الصلاة على النبيّ محمد
إن الذي ورث النبوة والهدى بعد ابن مريم من قريش مهتدي

قال: فخرجت مرعوبًا حتى جئت قومي فقصصت عليهم القصة، وأخبرتهم بما رأيت وما سمعت، ثم خرجت في ثلاثمئة من قومي، حتى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلت عليه المسجد، فلما رأني رسول الله ﷺ تبسم، ثم قال لي: "أي عباس! كيف كان إسلامك؟" فقصصت عليه الخبر من أوله إلى آخره، قال: "صدقت يا عباس". وسرّ به وأبهجه.

خبر أويس القرني

رُوي أنه سأل رجل عبد الله بن عباس عن أويس القرني، فقال: ويحك! له شأن عظيم، وهو سيد التابعين، وكان رسول الله ﷺ يقول لأصحابه: "يكون في أمّتي رجل يقال له: أويس القرني، يدخل في شفاعته عدد ربيعة ومضر، لو أقسم على الله، لأبرّ"

قسمه، فمن لقيه بعدي فليقره مني السلام"، قال: فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا رسول الله، أفينا من يلقاه؟ قال: "نعم تلقاه أنت وعمر بن الخطاب، فإذا لقيتهما فأقرناه مني السلام، وسلاه أن يستغفر لكما"، فقال علي: يا رسول الله، وما علامته؟ قال: "هو رجل أصهب أشهل ذو طمرين أبيضين، وقد كان به بياض فدعا الله عز وجل؛ فأذهب عنه إلا مقدار الدينار أو الدرهم، لا يؤبه به، متزر بإزار صوف، مرتد برداء صوف، مجهول في الأرض، معروف في السماء".

قال ابن عباس: فلما كان زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدم علينا أهل الكوفة، فقال لهم: هل تعرفون رجلاً من اليمن يقال له: أويس القرني؟ فقال رجل: نعم يا أمير المؤمنين، غير أنه رجل نسخر منه، وأهل الكوفة يهزؤون به. فتنفس عمر الصعداء وقال: ويحك! إن رسول الله ﷺ أخبرنا خبره. وقص عليهم ما قال عليه السلام ثم قال عمر: واشوقاه إلى النظر إليه. قال: فسكت الكوفيون، وأخفوا ذلك في نفوسهم، فلما رجعوا إلى الكوفة نظروا إلى أويس بغير العين التي كانوا ينظرون بها إليه، وجعلوا يسألونه أن يستغفر الله لهم، فقال لهم: يا قوم، قد كنتم قبل اليوم تسخرون مني وتهزؤون بي، فما الذي بدا لكم؟ فأخبروه بما أخبرهم به عمر رضي الله عنه فقال لهم: أستغفر لكم، وأنشدكم الله أن لا تسخروا بي ولا تذكروا ما قال لكم عمر رضي الله عنه لأحد. قالوا: لك ذلك. ثم غاب ولم ير بالكوفة، وجعل عمر يسأل عنه الناس عشر سنين، فلم يُسمع له خبر، حتى كان آخر حجة حجها عمر، فسأل عنه كما كان يسأل عنه، فوثب إليه رجل وقال: يا أمير المؤمنين، إنك قد أكثرت السؤال عن أويس، وما فينا أحد اسمه أويس إلا ابن أخي لي، وأنا عمه، غير أنه أخلل ذكراً. قال: فسكت عمر رضي الله عنه وظن أنه ليس الذي يريده، ثم قال له: يا شيخ، وأين ابن أخيك؟ قال: هذا هو معنا بالحرم، غير أنه في أراك مكة يرعى إبلاً لنا. قال: فاستوى عمر بن الخطاب

وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما على حمارين لهما، وسارا إلى أراك مكة، وجعلا يتخللان الشجر، فإذا هما بأوئس في طمرين من صوف أبيض قد صفت قدميه قائما يصلي، وقد رمى ببصره إلى موضع سجوده، وألقى يديه على صدره، فقال عمر لعلي رضي الله عنهما: إن كان فهذا هو، وهذه صفته. ثم نزلا وشدا حماريهما إلى أراكة، فلما سمع أوئس حسنها أوجز في صلاته، فتقدما إليه وسلما عليه، فقال: وعليكما السلام ورحمة الله تعالى وبركاته. فقال له عمر: من أنت؟ يرحمك الله. قال: راعي إبل وأجير قوم. قالوا: لا نسألك عن الرعاية ولا عن الإجارة، فما اسمك؟ قال: عبد الله. قالوا: قد عرفنا أن أهل السماوات والأرض كلهم عبيد الله، فما اسمك الذي سمّتك به أمك؟ قال: يا هذان ما تريدان؟ قالوا: وصّفك لنا رسول الله ﷺ فعرفناك بصفتك. فبكى أوئس بكاء شديداً، وقال لهم: عسى أن يكون ذلك غيري. فقالوا له: أخبرنا عليه السلام أن تحت منكبك الأيسر لمعة بيضاء، فأوضحها لنا. فأوضح منكبه، فإذا اللمعة تحته، فابتدرا إليه، وجعلا يقبلانه، وسألاه أن يستغفر لهما، قال: ما أخصّ باستغفاري نفسي ولا أحداً من ولد آدم، ولكنه في البرّ والبحر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، يا هذان من أنتما؟ قال علي: هذا عمر أمير المؤمنين، وأنا علي بن أبي طالب. فقال: جزاكم الله عن هذه الأمة خيراً. وبدا منه الفرح والاستبشار. فقالوا له: وأنت جزاك الله عن نفسك خيراً. ثم قال عمر: مكانك رحمك الله حتى أدخل مكة فأتيك بنفقة وفضل كسوة من ثيابي. قال: يا أمير المؤمنين، لا ميعاد بيني وبينك، ولا أعرفك ولا تعرفني بعد اليوم، وما أصنع بالبنفقة والكسوة؟ أما ترى عليّ إزاراً من صوف ورداء من صوف؟ متى تراني أخرجهما؟ أما ترى نعليّ مخصوفين؟ متى تراني أبلبيهما؟ وقد أخرجت من رعايتي أربعة دراهم، فمتى تراني أنفقهما؟ يا أمير المؤمنين، إن بين يديّ عقبة لا يقطعها إلا كلّ خفّ، فأخفّ يرحمك الله. فلما سمع عمر كلامه ضرب بيديه إلى

الأرض ونادى بأعلى صوته: ألا ليت عمر لم تلده أمه! ليتها عاقر لما تعالج حملها! وولى عمر وعلي رضي الله عنهما نحو مكة، وساق أويس الإبل لأصحابها، وأقبل على العبادة حتى لحق بالله عز وجل.

فصل

وفيمَا ذُكِرَ أَنَّ الرَّبِيعَ بْنَ خَيْثَمٍ كَانَ يَطْلُبُهُ، فَأَصَابَهُ عَلَى شَاطِئِ الْفِرَاتِ قَائِمًا يَصَلِّي، قَالَ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: يَنْصَرِفُ مِنْ صَلَاتِهِ فَأَقُومُ إِلَيْهِ وَأَكَلِمُهُ. فَلَمَّا صَلَّى بَسَطَ كَفِيهِ دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَمْ يَقْبِضْهُمَا إِلَى وَقْتِ الْعَصْرِ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى، وَبَسَطَهُمَا فَلَمْ يَقْبِضْهُمَا إِلَى وَقْتِ الْمَغْرَبِ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى وَوَصَلَ صَلَاتَهُ، فَلَمْ يَزَلْ رَاكِعًا وَسَاجِدًا إِلَى الصَّبْحِ، فَأَذَّنَ وَأَقَامَ وَصَلَّى، ثُمَّ بَسَطَ يَدَيْهِ إِلَى أَنْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ. قَالَ الرَّبِيعُ: فَدَنَوْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ لَقَدْ أَتَعَبْتَ نَفْسَكَ. قَالَ: إِنِّي أُرِيدُ رَاحَتَهَا غَدًا. قُلْتُ: يَا أَخِي، مِنْ أَيْنَ لَكَ الْمَطْعَمُ وَالْمَشْرَبُ؟ قَالَ: إِنَّ رَبِّي تَكْفُلُ لِي بِذَلِكَ، فَلَا تَعُدْ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ. ثُمَّ غَابَ عَنِّي فَلَمْ أَرَهُ بَعْدَ.

فصل

وقيل: إنه لقيه هرم بن حيان^(١)، وكان يطلبه، فقيل له: إن مأواه على شاطئ الفرات. قال: فسرت إليه، فإذا به يغسل ثوبه. قال: فعرفته بالصفة والنعته الذي نُعِتَ لي، فدنوت منه، وسلّمت عليه، فردّ عليّ السلام، فقيل له: حيّاك الله يا أويس. قال: وأنت فحيّاك الله يا هرم بن حيان^(٢)! من ذلك على موضعي هذا؟ قلت: الذي ذلك على اسمي واسم أبي ولم أرك ولا رأيتني. فقال أويس: سبحان ربنا إن كان وعد ربنا

(١) م: حبان، والتصحيح من النيسابوري، عقلاء المجانين، ص ٤٤ .

(٢) م: حبان .

لمفعولاً، إذن أخبرك يا هرم بن حيان^(١) عرف روحي روحك حين كلمت نفسي نفسك؛ فإن المؤمنين يتعارفون بنور الله تعالى وإن لم يلتقوا. قال هرم: فسألته أن يحدثني حديثاً عن رسول الله ﷺ أحفظه عنه. فقال: إني لم أر رسول الله ﷺ ولم يكن لي صحبة فأحدث عنه، ولست أحب أن أفتح على نفسي هذا الباب، ولي عن ذلك شغل يا ابن حيان^(٢)! قال: قلت: فأتل عليّ من كتاب الله عزّ وجلّ أسمعك منك. قال: نعم، يقول الله وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبِينَ﴾ [سورة الدخان، الآية ٣٨] إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الدخان، من الآية ٤٢]. قال هرم: ثم أقبل يوصيني ويذكرني، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: اللهم إن هذا يزعم أنه يحبني فيك، وقد زارني من أجلك، فاجمع بيني وبينه في دارك، واجعلنا في جوارك، وارضه من هذه الدنيا باليسير، واجعله لأنعمك من الشاكرين، ولآلائك من الحامدين. ثم قال: استودعتك الله يا هرم! وأقرأ عليك السلام، وإياك أن تطلبني بعد هذا اليوم، ولكن يا أخي اذكرني بقلبك، وادع لي فيني أذكرك بقلبي وأدعوك، إن شاء الله تعالى.

فصل

في بعض مآثر رسول الله ﷺ وبرهانه

روي عن أنس بن مالك أنه قال: جاءت الأعراب إلى رسول الله ﷺ فقالوا له: والله يا رسول الله لقد أتيناك وما لنا بغير يغطّ، ولا صبي يصرخ. وقام إليه بعضهم فأنشأ يقول:

أتيناك والعذراء تدمي لثاتها وقد شغلت أم الصبي عن الطفل
وألقى بكفيه الكبير استكانة من الجوع ضعفاً ما يمر وما يحلي

(١) م: حيان .

(٢) م: حيان .

ولا شيء مما يأكل الناس عندنا سوى الحنظل العاهي والعاهر الفسّل
وليس لنا إلا إليك فرارنا وأين فرار الناس إلا إلى الرسل

فقام رسول الله ﷺ يجرّ رداءه، حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم رفع يديه إلى السماء فقال: "اللهم اسقنا غيثًا مغيثًا مريئًا مريعًا سحًا سجالًا غدقًا طبقًا، عاجلاً غير آجل، نافعًا غير ضار، تملأ به الضرع، وتنبث به الزرع، وتحيي به الأرض بعد موتها". قال: فوالله ما ردّ يده إلى نحره حتى ألقت السماء بأرواقها، وأقبل أهل البطائح يصيحون: الغرق الغرق! فرفع يديه إلى السماء وقال: "اللهم حوالينا ولا علينا"، فانجاب السحاب عن المدينة حتى أحدق بها كالإكليل، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: "لله در أبي طالب لو كان حيًّا قرّت عيناه، من ينشدنا قوله؟" فقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله! عساك تريد قوله:

وأبيضٌ يُستسقى الغمام بوجهه شمال اليتامى عصمة للأراملِ
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضلِ
كذبتهم - وبيت الله - نسلم أحمدًا ولما نقاتلُ دونه ونناضلِ
ونسلمه حتى نصرّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائلِ؟

فقال رسول الله ﷺ: "أجل يا علي!" ثم قام رجل من بني كنانة فقال:

لك الحمدُ والحمدُ ممن شكرُ سُقينا بوجه النبي المطرُ
دعا الله خالقَه دعوةً وأرجى وأشخص منه البصرُ
فما كان إلا أن القى الرّدا وأسرع حتى رأينا الدررُ

دُفاق^(١) العزالي كثير البعاق أغاث به الله عُلياً مُضِرُّ
 وكان كما قاله عمّه أبو طالبٍ أبيض^(٢) ذا غرز
 بذلك سقى الله صوب الغمام فهذا العيان لذلك الخبرُ
 فمن يشكر الله يلقَ المزيد ومن يكفر الله يلقَ الغيرَ
 فقال رسول الله ﷺ: "إن يكن شاعرٌ يُحسِن فقد أحسنت".

فجعل

ورُوي أيضًا عن أنس بن مالك أنه قال: مرض أبو طالب، فعاده النبي ﷺ . فقال:
 يا ابن أخي، ادع ربك الذي تعبده أن يعافيني. فقال رسول الله ﷺ: "اللهم اشفِ
 عمي"، فقام كأنها أنشط من عقال، فقال أبو طالب: يا ابن أخي، إن ربك الذي تعبده
 ليطيعك. قال: "وأنت يا عمّاه لئن أطعت الله ليطيعنك". ومما قال فيه أبو طالب:
 إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخرٍ فبعد مناف سرّها وصميّمها
 وإن حصّلت أشراف عبد منافها ففي هاشم أشرافها وقديّمها
 وإن فخرت يوماً فإن عمداً هو المصطفى من سرّها وكريمها
 ومما قيل فيه:

فشقّ له من اسمه ليجلّه فذو العرش محمود وهذا حمداً

وقال أبو طالب أيضًا في قصيدته التي برز فيها بنصر محمد ﷺ وعاهد ذلك بحرم
 مكة ومشاعرها ومعاهدها ومواطنها أن لا يسلمه ولا يخذله، وهذه القصيدة زهاء
 تسعين بيتاً أثبت منها ما فيه ذكره، وقد تقدم بعضها حيث يقول:

(١) م: دهاق العزالي كثير الفهاق . والتصحيح من الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٦٨ .
 (٢) م: ايضاً .

أشَمَّ من الشم البهليل ينتمي إلى حسب في حومة المجد فاضلٍ
 لعمرى لقد كلّفت وجدًا بأحمد وعترته ذات المحيّا المواصلِ
 فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها وزيناً لمن ولّاه ربّ الشمائلِ
 فمن مثله في الناس يا ابن مؤمل إذا قاسه الحكام عند التفاضلِ؟
 حلّيم رشيد عادل غير طائش يوالي إهاليس عنه بغافلِ
 فأبىده ربّ السماء بنصره وأظهر ديناً حقّه غير باطلِ

ولما حضرت الوفاة أبا طالب جمع وجوه قريش ليوصيهم، فلما اجتمعوا إليه، قال لهم: يا معشر قريش، أنتم صفوة الله من خلقه، وقلب العرب، وأنتم حزب الله في أرضه، وأهل حرمة، منكم السيد المطاع، الطويل الذراع، وفيكم المقدم الشجاع، الواسع الباع، لم تركوا للعرب في المآثر نصيباً إلا أحرزتموه، ولا شرفاً إلا أدركتموه، فلکم بذلك على الناس الفضيلة، وهم به إليكم الوسيلة، والناس لكم حزب، وعلى حزبكم ألب^(١)، وإني أوصيكم بوصايا فاحفظوها، وأقول لكم قولاً فعوه عني:

أوصيكم بتعظيم هذا البيت؛ فإن فيه مرضاة للرب، وقواماً للمعاش، وثباتاً للوطأة، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها؛ فإن في صلة الرحم منسأة للأجل، وزيادة في العدد، واتركوا العقوق والبغي؛ ففيهما هلكت القرون من قبلكم. أجيئوا الداعي، وأعطوا السائل؛ فإن فيهما شرف الحياة والمات. عليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة؛ فإن فيهما نفيًا للثمة، وجلالة في الأعين. أقلوا الخلاف على الناس، وتفضلوا عليهم بالمعروف؛ ففي ذلك محبة في الخاص، ومكرمة في العام. وإني أوصيكم بمحمد خيرًا؛ فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب، وهو جامع لكل ما وصيتكم به وندبتكم إليه، وقد جاءكم بأمر قبلة الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن، وأيم الله لكأني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل البرّ في الأطراف المستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته،

(١) ألب: القوم الذين يجتمعون على عداوة إنسان. لسان العرب (ألب).

وصدقوا كلمته، وعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤوس قریش وصناديدها أذناً، ودورها خراباً وضعفاؤها أرباباً، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد أمحضته العرب ودادها، وأصفت له بلادها، وأعطته قيادها، فدونكم -يا معشر قریش- ابن أبيكم، كونوا له ولاة، ولحزبه كياة، أقسم بالله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد، ولا يأخذ بهديه إلا سعد، ولو كان لنفسي مدة ولأجلي تأخير لكفيته الهزاهز، ولدفعت عنه الدواهي. وهذه وصيتي إليكم، والله المستعان.

وقال فيه عليه السلام عثمان بن مظعون هذه الأبيات:

| | |
|----------------------------------|--------------------------------|
| ولا أربُّ يا ابن المغيرة في الذي | تقول ولكنني بأحمد واثقُ |
| رسول عظيم الشأن يتلو كتابه | له كل من يبغى التلاوة وامقُ |
| محبّ عليه كل يوم تلاوة | فإن قال قولاً فالذي قال صادقُ |
| فياربّ إني مؤمن بمحمد | وجبريل إذ جبريل بالوحي طارقُ |
| وما نزل الرحمن من كل آية | ها كل قلب حين تُذكر خافقُ |
| من الخوف فيما ينظر الله خلقه | إذا صدّ عن آيات ذي العرش مائقُ |
| يرى الناس ضلّالاً وقد ضلّ سعيه | وبالخير مغبون وبالشر سابقُ |

ولله قول أبي [أناس الدؤلي] (١)، وهو أضدق بيتٍ قالته العرب:

وما حملت من ناقةٍ فوق رحلها أبرّ وأوفى ذمّةً من محمدٍ

(١) م: أبي أنس الدوسي. ولم أجد له ذكراً فيما اطّلت عليه من مصادر. ولا تتفق تلك المصادر على اسم الشاعر قائل هذا البيت، مما يجعل الجزم باسمه غير ممكن. فهو مالك بن نمط في سيرة ابن هشام مرة. ج ٤، ص ١٨٧، وأنس بن زنيم الدلي (الدؤلي) مرة أخرى. ج ٤، ص ٥٢. وهذا الاسم الثاني أخذ به أيضاً البغدادي صاحب خزانة الأدب، ج ٦، ص ٤٧٤، والصفدي، الوافي، ج ٩، ص ٤١٨. لكن الصفدي يجعله في موضع آخر، ج ٩، ص ٤٠٨ أبا أناس الدؤلي، وقال عنه: له ابن شاعر يقال له أنس بن أبي أناس، وينسب البيت لكليهما. كما نسب ابن قتيبة في الشعر والشعراء البيت لأبي أناس الدؤلي أيضاً. ص ٤٩٦. في حين جعله الزمخشري في ربيع الأبرار، ج ٤، ص ١٥٦، والأبشيبي في المستطرف، ج ٢، ص ٩٤ سارية بن زنيم الدلي. (١)

ذكر وفاة رسول الله ﷺ

قال محمد بن قيس: اشتكى رسول الله ﷺ يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة في بيت زينب بنت جحش، واجتمع إليه نساؤه كلهن - رضي الله عنهن - ثلاثة عشر يومًا، وتوفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين لليلتين مضتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة. وكان يقول في مرضه ﷺ: "أين أنا غدًا؟ أين أنا غدًا؟" حرصًا على بيت عائشة رضي الله عنها. وقيل: إنه بعث أسماء بنت عميس إلى نساءه أن يجعلن له أن يكون في بيت عائشة، فأذن له، فكان عندها إلى أن مات ﷺ.

وعن أنس بن مالك قال: آخر وصية أوصى بها رسول الله ﷺ أن قال: "الصلاة الصلاة" مرتين "وما ملكت أيانكم".

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يقول قبل مرضه: "لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير"، فلما حضرته الوفاة تراءى له ذلك، وكان رأسه على فخذي، فغشي عليه ثم أفاق وشخص ببصره إلى السماء، ثم قال: "اللهم الرفيق الأعلى". قالت: فقلت: إذن لا تختارنا، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا به، وكانت آخر كلمة تكلم بها. وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: قضى رسول الله ﷺ بين سحري ونحري. وفي مقالة أخرى: بين حاقتي وذاقتي.

وفيهما روي أنه توفي ﷺ يوم الاثنين عند الزوال غرة ربيع الأول، ودفن يوم الأربعاء في موضع فراشه في بيت عائشة رضي الله عنها، وكفن في ثلاثة أثواب بيض سحولية لم يكن فيها قميص ولا عمامة، وغسل في قميص، غسله علي بن أبي طالب ثلاثًا بهاء وسدر، وكان يقول: أوصى النبي ﷺ أن لا يغسله أحد غيري، وقال: "إنه لا

يرى أحد عورتى إلا طُمت عيناه"، فكان العباس وأسامة يتناولان الماء وراء الستر. قال علي رضي الله عنه: فما تناولت منه عضواً وأردت قلبه إلا انقلب كأنها يقلبه معي الرجال، فلما فرغت من غسله وكفنته، وضع حيث توفي، فصلّى الناس عليه يوم الاثنين، ودفن يوم الثلاثاء. وقيل: يوم الأربعاء. وكانت صلاة الناس عليه ﷺ من غير إمام، وصلّى عليه النساء والصبيان. وخرج مالك في (موطئه) أنه دفن يوم الثلاثاء ﷺ.

وعن ابن مسعود قال: دخلنا على رسول الله ﷺ حين دنا الفراق وهو في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها فلما نظر إلينا دمعت عيناه، ثم قال: "مرحباً بكم، حياكم الله، أواكم الله، نصركم الله، أوصيكم بتقوى الله العظيم، وأوصي بكم الله، إني لكم منه نذير مبين أن لا تعلموا على الله في بلاده وعباده، وقد دنا الأجل والمنقلب إلى الله، وإلى سدرة المنتهى، وإلى جنة المأوى، فأقرئوا أنفسكم مني ومن دخل في دينكم بعدي من إخواننا السلام".

وفيهما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: بينما رأس رسول الله ﷺ على منكبي، إذ مال برأسه نحو رأسي، وخرجت من فيه نُظيفة باردة وقعت على نحري فاقشعرت لها جلدي، وظننت أنه عُشي عليه، فسجّيته ثوباً، واستأذن عمر بن الخطاب والمغيرة بن شعبة، فجدبت الحجاب، وأذنت لهما، فنظر إليه عمر وقال: واغشيتاه! ما أشد ما عُشي على رسول الله ﷺ! ثم خرجا فقال المغيرة: مات رسول الله ﷺ. فقال عمر: كذبت ما مات ولا يموت حتى يُفني الله عزّ وجلّ به المنافقين. وأخذ بقائم سيفه وقال: لا أسمع أحداً يقول: مات رسول الله ﷺ إلا ضربته بسيفي هذا.

ثم جاء أبو بكر رضي الله عنه فاتاه من قبّل رأسه، فقبّل جبهته ثم قال: وانبياه! ثم رفع رأسه، ثم حדרه فقبّل جبهته، ثم قال: واصفياه! ثم رفع رأسه ثم حדרه فقبّل

جبهته، ثم قال: واخلياها! ثم خرج إلى المسجد -وعمر رضي الله عنهما يكلم الناس - فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إن الله عز وجل يقول: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَنْتَفِعُونَ بِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَبِيتٌ وَلَا يَكُونُوا لَهُمْ عَمَلٌ ﴾ [سورة آل عمران، الآية ١٤٤] ثم قال: قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [سورة الزمر، الآية ٣٠] ، أيها الناس، مَنْ كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ومَنْ كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. قال عمر رضي الله عنه: فكأنى -والله- لم أقرأ هذه الآيات.

وعن عكرمة، عن ابن عباس، أن عمر قال له: يا ابن عباس، أتدري ما حملني على مقالتي؟ قلت: لا. قال: حملني على ذلك أنني كنت أقرأ ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [سورة البقرة، من الآية ١٤٣] فوالله إني كنت لأظن أن رسول الله ﷺ سيبقى في أمته حتى يشهد علينا بأخر أعمالنا، فهو الذي دعاني إلى ما قلت.

ثم قال الناس: يا صاحب رسول الله، مات رسول الله ﷺ؟ قال: مات. قالوا: يا صاحب رسول الله، مَنْ يغسله؟ قال: رجال بيته الأدنى فالأدنى. قالوا: فأين تدفونونه؟ قال: في البقعة التي قبضه الله فيها، فلم يقبضه إلا في أحبّ البقاع إليه. ثم قال للناس: إن الله عز وجل أعزّ محمداً ﷺ حتى أقام دين الله، وأظهر أمر الله، وبلغ رسالة الله، وجاهد في سبيل الله، وقد تركتم على الطريقة الواضحة والمنهاج القيوم، فاتقوا الله أيها الناس، واعتصموا بدينكم، وتوكلوا على ربكم، فإن دين الله قائم، وكلمته تامة، وإن الله

(١) م: ان .

ناصر مَن نصر دينه، وإن كتاب الله بين أظهركم، وهو الشفاء والنور، وبه هدى الله نبينا ﷺ
إن سيوف الله لمسلولة ما وضعناها بعد، وأنا مجاهدون مَن خالفنا كما جاهدهم نبينا ﷺ.

ثم انصرفوا، وانصرف معه المهاجرون إلى مكان رسول الله ﷺ فزال النساء، وجعلت
أم أسامة بنت زيد تبكي، فقال لها أبو بكر: ما يبكيك؟ يا أم أيمن -وكانت كنيثها- قد أكرم
الله رسول الله ﷺ وأراحه من نَصَب الدنيا. فقالت: أبكي على خبر السماء الذي كان يأتينا
كلَّ يوم وكتابه وقد رُفِع ذلك عَنَّا. فعجب الناس من حسن كلامها.

وقيل: إنه لما وُضِع على السرير للصلاة عليه، دخل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما
ومعهما نفر من المهاجرين والأنصار قَدَر ما يسع البيت، فقال أبو بكر وعمر وهما حيال
رسول الله ﷺ: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله تعالى وبركاته. فقال الحاضرون مثل
ما قالوا، ثم قالوا: نشهد أن قد بَلَغ ما أنزل الله، ونصح لأمته، وجاهد في سبيل الله حتى
أعزَّ الله دينه، وتمت كلمته، وآمن به وحده لا شريك له، اللهم اجعلنا من الذين يتبعون
النور الذي أنزل معه، واجمع بيننا وبينه حتى نعرفنا به ونعرفه بنا، فإنه كان بالمؤمنين
رحيمًا، لا يبغى بالإيمان بديلاً ولا يشتري به ثمنًا قليلاً. فيقول الناس مثل ما قالوا، ثم
تدخل طائفة أخرى فيقولون مثل ما قالوا، حتى صلَّى الرجال والنساء والصبيان.

ونزل معه في قبره ﷺ العباس بن مرداس وعلي وقثم بن العباس وشقران. وذكر
أنه لما أخذوا في دفنه صاحت الأنصار فقالوا: اجعلوا لنا من رسول الله ﷺ عند موته
نصيبيًا، كُنَّا منه بمنزلة في حياته. فدخل معهم أوس بن خولي من الأنصار، فكان ممن
دُفِن رسول الله ﷺ.

فصل

وفي بعض ما رُوي أن جبريل عليه السلام هبط عند موت رسول الله ﷺ وهبط معه ملك الموت، وملك يقال له إسماعيل، في سبعين ألف ملك، فسبقهم جبريل عليه السلام حتى جلس عند رأس رسول الله ﷺ وجاء ملك الموت فوقف بالباب فقال: السلام عليكم أهل البيت ومنتهى الرحمة ومبلغ الرسالة . فقالت فاطمة رضي الله عنها وهي تظنه غيره: إن رسول الله ﷺ عنك مشغول. ثم نادى الثانية، ثم نادى الثالثة، فقال جبريل: يا أحمد، هذا ملك الموت يستأذن عليك، ولم يستأذن على أحد قبلك ولا يستأذن على أحد بعدك. فقال رسول الله ﷺ: "إئذن له يا جبريل"؛ فأذن له، وأقبل ملك الموت حتى وقف بين يدي رسول الله ﷺ فقال: يا أحمد، إن الله تعالى أرسلني إليك وأمرني أن أطيعك في كل ما أمرتني به، فإن رضيت قبضت نفسك الطيبة، وإن كرهت تركتك. فقال: يا ملك الموت، امض لما أمرت به"، فقال جبريل عليه السلام: هذا آخر وطئي إلى الأرض، إنها كنت حاجتي. فقال رسول الله ﷺ: "أعند شدتي تتركني؟! " فقال: يا أحمد، لا أستطيع أن أنظر إليك وأنت تعالج غصص الموت. فخرج جبريل، وأقبل ملك الموت يعالج روح رسول الله ﷺ حتى قبضه، فسطعت رائحة طيبة لم يجدوا مثلها قط، وسمعوا حفيف أجنحة الملائكة.

وعن أنس بن مالك قال: لما قبض رسول الله ﷺ، اجتمع أصحابه رضي الله عنهم ليكون حوله، إذ دخل عليهم رجل طويل شعر المنكيين في إزار ورداء يتخطى الناس وهم لا يعرفونه، حتى أخذ بعصا دقي باب البيت، وبكى مع الناس، ثم أقبل على

أصحابه رضي الله عنهم وقال: إن في الله عزّ وجلّ عزاءً عن كل مصيبة، وعضاً من كل فائت، وخلفاً من كل هالك، فإلى الله فأنبوا، وبنظره إليكم فانظروا، فإنما المصاب من حُرْم الثواب. ثم ذهب، فقال أبو بكر رضي الله عنه: هذا الخضر صاحب نبينا جاء ليعزينا.

وفيا رُوي أنه ولد ﷺ يوم الاثنين، ونبى يوم الاثنين، وخرج مهاجراً إلى المدينة يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين.

فصل

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: شهدت أبا بكر الصديق رضي الله عنه عند وفاته وقد دعاني وقال لي: يا حبيبي يا أبا الحسن، قد دنا الأجل وحضرت الوفاة، فإذا أنا متّ فاغسلني وكفني واحملي إلى قبر رسول الله ﷺ وليتقدم رجل يقول: يا رسول الله، أبو بكر الصديق بالباب، فإن فتح الباب بغير مفتاح فأدخلوني وإلا فادفوني بين قبور المسلمين. فقال علي رضي الله عنه: فلما قبض أبو بكر رضي الله عنه غسلته بيدي، وكفته، وصليت عليه، وحملناه إلى قبر رسول الله ﷺ. وكنت أول من طرق الباب، ثم ناديت: يا رسول الله! هذا أبو بكر بالباب، فوالله ثم والله لقد تفتحت الأقفال دون مفتاح، وسمعت منادياً يقول: أدخلوا الحبيب إلى الحبيب، فإن الحبيب إلى الحبيب مشتاق.

ومن طريق مالك: أن أسماء بنت عميس زوج أبي بكر الصديق هي التي غسلته.

فصل

ولما حضرت الوفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لابنه عبد الله: يا عبد الله، إئت عائشة رضي الله عنها وقل لها: إن عمر يقرئك السلام ويقول لك: إنا قد هيينا أن ندخل بيوتكن إلا بإذن، أفتأذنين لي أن أدفن في بيتك؟ قال عبد الله: فأتيها وقلت لها ذلك، فبكت حتى علا بكاؤها، ثم قالت: نعم. فأتيته وأخبرته، فقال: يا بني إني أرى المرأة قد أذنت لي قبل وهي تظن أني أبقى، فإذا أنا مت فاغسلني وكفني، فإذا حملتني فقدم السرير، ثم قل لها: هذا عبد الله يستأذن على الباب، فإن أذنت فادفني مع صاحبي، وإن أبت فاحلني إلى البقيع. ففعل، فأذنت له.

قالت عائشة رضي الله عنها كنت أدخل البيت الذي فيه القبر، فأقول: إننا هو زوجي وأبي، فأضع خماري، فلما دُفن عمر رضي الله عنه معها فوالله ما دخلت البيت بعد إلا مشدودة عليّ ثيابي حياة من عمر رضي الله عنه.

ووجدت في بعض الروايات عن الشَّعْبِي أَنَّهُ قَالَ: مَاتَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ سَنَةً. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ومما جاء في الصلاة عليه ﷺ.

رُوي عن كعب الأحبار أنه قال: ما من فجر يطلع إلا نزل فيه سبعون ألف ملك حتى يلحقوا بالقبر، فيضربون بأجنتهم ويصلون على النبي ﷺ حتى إذا كان المساء عرجوا، وهبط مثلهم، وصنعوا مثل ذلك، حتى إذا انشقت الأرض عنه خرج في سبعين ألف ملك يوقرونه.

وَرُوي في بعض الآثار: أَنَّهُ مَنْ وَقَفَ عِنْدَ قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [سورة

الأحزاب، الآية ٥٦]، ثم قال: صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّد، سبعين مرة؛ ناداه ملكان: يا فلان، لم تسقط لك حاجة.

وَرُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "مَنْ صَلَّى عَلَيَّ عند قبري سمعته، ومن صَلَّى عَلَيَّ نائِياً بُلَّغته"، وقال عليه السلام: "ما من مسلم يصلي عليّ صلاة إلا صلّت عليه الملائكة ما صَلَّى عَلَيَّ، فليقل العبد من ذلك أو يكثر"، وقال ﷺ: "أكثرُوا الصلاة عَلَيَّ في الليلة الغراء -يعني ليلة الجمعة- فإن صلّاتكم تُعرض عليّ". وروى عنه ﷺ أنه قال: "مَنْ صَلَّى عَلَيَّ في يوم جمعة مئة مرة غفر له ذنوب ثمانين سنة"، وقال ﷺ: "إن أقربكم مني أكثركم صلاة عليّ". وخرج ﷺ يوماً وقد عُرف البشر في وجهه، فقال له أبو طلحة: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إنني لأرى في وجهك البشر. فقال: "أتاني جبريل عليه السلام آنفاً وقال: يا رسول الله، ما من أحد من أمّتك صَلَّى عَلَيْكَ مرة إلا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عشر أمثالها". وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ ذُكِرَتْ عنده فليصلّ عَلَيَّ، فإنه من صَلَّى عَلَيَّ مرة صلى اللهُ عليه عشرًا". وروى عنه ﷺ أنه قال: "أبخل الناس مَنْ ذُكِرَتْ عنده فلم يصلّ عَلَيَّ".

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: "مَنْ زار قبري محتسباً كنت له شفيعاً يوم القيامة"، وروى عن علي رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من زار قبري بعد موتي فكأنها زارني في حياتي"، وروى عنه ﷺ أنه قال: "مَنْ أتى المدينة زائرًا لي وجبت له شفاعتي يوم القيامة، ومَنْ مات في أحد الحرمين بُعث آمنًا".

وحكى العتبي أن أعرابياً قدم المدينة على قعود له، فأناخ بباب المسجد ودخل، فوقف حذاء قبر رسول الله ﷺ وقال: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله تعالى وبركاته، السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا محمد بن عبد الله، جزاك الله عن أمّتك أفضل ما جرى نبياً عن أمّته، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنك

رسول الله، قد بلغت رسالة ربك، ونصحت لأمتك، وعبدت ربك حتى أتاك اليقين،
 فضلى الله على روحك في الأرواح، وجسدك في الأجساد. ثم أقبل على أبي بكر وعمر
 رضي الله عنهما فقال: السلام عليك يا أبا بكر الصديق، السلام عليك يا عمر الفاروق،
 السلام عليكما يا صاحبي رسول الله ﷺ في حياته وضجيعيه بعد مماته، جزاكم الله عن
 نبينا خيرا وعن الإسلام. ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله،
 جئتك مثقلاً بالذنوب والخطايا أستشفعك إلى ربي فيشفعك في، فإن الله تعالى يقول في
 كتابه الكريم، وقوله الحق: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ
 وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ [سورة النساء، من الآية 64] ، وأنا قد
 ظلمت نفسي وجئتك أستشفع بك إلى ربي، وأستغفر الله، وأتوب إليه. ثم استقبل
 القبلة، ورفع يديه، وتلا الآية، ودعا وقال: إلهي، جئت محمداً ﷺ ومحمد قد مات، وإن
 كان قد مات فأنت حي لا تموت، أتوسل إليك بصاحب هذا القبر، اللهم شفعه في إلهي
 إذا مات لنا ميت وله عندنا إجلال وحرمة أعتقنا عند قبره عبداً وإماءً، وإنك قد
 أخبرتنا بإجلال محمد عبدك ورسولك عندك، فأسألك بحرمة أن تُعتق اليوم عبدك
 الخاطيء على رأس قبره إجلالاً له. ثم ولى وهو يقول:

يا خير من دُفنت في القاع أعظمه فطاب من طيبهنّ القاع والأكم

نفسي الفداء لغير أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

قال العتبي: فأخذتني عيني، فأغفيت إغفاءة، فرأيت رسول الله ﷺ فقال لي: يا

عتبي، الحق الأعرابي وأخبره أن الله عز وجل قد غفر له برحمته.

ذكر الخلافة بعده ﷺ

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: كنا نقول على عهد رسول الله ﷺ: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم نعني في الخلافة.
وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أمر رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه أن يقسم شيئاً، فكنا نقول له: يا خليفة رسول الله، ورسول الله ﷺ حيّ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [سورة النصر، الآية ١] جاء العباس إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنهما فقال له: سل رسول الله ﷺ فإن كان الأمر فينا فلن نتشاح عليه، وإن كان في غيرنا سألناه الوصاة بنا. فقال رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى جعل أبا بكر رضي الله عنه خليفتي على دين الله ووحيه، فاسمعوا له تفلحوا، وأطيعوه ترشدوا". قال ابن عباس رضي الله عنهما: فأطاعوه -والله- ورشدوا.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أول من وضع صحرة في مسجد قباء رسول الله ﷺ ثم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضي الله عنهم فقلت: يا رسول الله، انظر إليهم كيف يتبعونك فيما فعلت! قال: "إنهم أمراء الخلافة".

وروي عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "قال لي جبريل عليه السلام: ولاية الأمر بعدي أبو بكر وعمر وعثمان" رضي الله عنهم.

وعن عبد الله بن أنيس قال: كنت متحنتاً في جبل جهينة، فإذا ركب من أهل المدينة، فنعوا إلي رسول الله ﷺ؛ فذهب عقلي، وأظلمت عليّ الأرض، ثم استرجعت نفسي، وثاب إليّ عقلي، واحتسبت، وقلت لهم: هل استخلف على أمته من بيته؟ قالوا:

لا. قال: فقلت لهم: هل اجتمع الناس على رجل؟ قالوا: أمر النبي ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يصلي بالناس. فقلت: هو والله الإمام، وأي شيء أعظم من الصلاة عند الله عز وجل وعند رسوله ﷺ؟

وعن النعمان بن بشير قال: لما ثقل رسول الله ﷺ تكلم الناس فيمن يقوم بالأمر، فقال قوم: أبو بكر. وقال قوم: أبي بن كعب. فأتيت أبيًا فأخبرته، فقال: عندي من رسول الله ﷺ في هذا شيء لا أذكره حتى يقبضه الله. فلما قبض تنازع الناس، فأتيت أبيًا فقلت: أراك قاعدًا في بيتك وقومك في سقيفة بني ساعدة يتنازعون مع المهاجرين! فقال: والله ما أنتم من هذا الأمر في شيء، وإنه لهم، يليه من المهاجرين رجلان، ثم يقتل الثالث، ويكون الأمر ما هنا. وأشار إلى الشام. وإن هذا الكلام لمبلول بريق رسول الله ﷺ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: كَانَ خَيْرًا كُلَّهُ مَعَ الْحَدَّةِ وَشِدَّةِ الْغَضَبِ. وَسُئِلَ عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كَانَ كَالطَّائِرِ الْحَذْرِيِّ يَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ نَصَبَ لَهُ جِبَالَةً فِي كُلِّ وَجْهِ، وَكَانَ يَعْمَلُ لِكُلِّ يَوْمٍ بِمَا فِيهِ. وَسُئِلَ عَنْ عَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، فَقَالَ: كَانَ وَاللَّهِ مَمْلُوءًا عِلْمًا وَحِلْمًا، غَرَّتْهُ سَابِقَةُ قَرَابَتِهِ فَكَانَ لَا يَرَى شَيْئًا يَطْلُبُهُ إِلَّا قَدَرَ عَلَيْهِ.

وَمَا رُئِيَ بِهِ ﷺ:

| | |
|---------------------------|-------------------------|
| أجذك ما لعينك لا تنام | كان جفونها فيها كلام |
| لوقع مصيبة عظمت وجلت | فدمع العين أهونه انسجام |
| فجعلنا في النبي وكان فينا | إمام كرامة نعم الإمام |
| وكان قوامنا والرأس فينا | فنحن اليوم ليس لنا قوام |

(١) المصيدة . لسان العرب (جبل).

نموج ونشتكي ما قد لقينا
 كأن أنوفنا لآقين جدعاً
 لفقد أغرَّ أبيض هاشمي
 أمين مصطفى للخير يدعو
 سأتبع هذيه ما دمت حياً
 أدين بدينه ولكل قوم
 فلا يبعد فكل كريم قوم
 كأن الأرض بعدك طار فيها
 فقدنا الوحي إذ وليت عنا
 سوى أن قد تركت لنا سراجاً
 لقد أورثتنا ميراث صدق
 من الرحمن في أعلى جنان
 رفيق أيبك إبراهيم فيه
 وإسحاق وإسماعيل فيه
 وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:
 ما زلت مذ وضع الفراش لجنبه
 شفقاً عليه أن يزول مكانه
 نفسي فداؤك من لنا في أمرنا
 وإذا تحل بنا الحوادث من لنا
 ويشكو فقدَه البلد الحرام
 لفقد محمدٍ فيها اصطلام
 إمام نبوة وبه الختام
 كضوء البدر زايله الظلام
 طوال الدهر ما سجع الحمام
 قديم من ذوابتهم نظام
 سيدركه وإن كره الحمام
 فأشعلها لساكنها ضرام
 وودعنا من الله الكلام
 توارثه القراطيس الكرام
 عليك به التحية والسلام
 من الفردوس طاب به المقام
 وما في مثل صحبته ندام
 بما صلوا ربهم وصاموا
 وثوى مريضاً خائفاً أتوقع
 عنا فنبقى بعده نتفجع
 أم من نساوره إذا نتوجع
 بالوحي من رب رحيم يسمع

ليت السماء تفتّرت أكنافها
لما رأيت الناس هدّ جميعهم
وسمعت صوتاً قبل ذلك هدّني
فليبيك أهمل المدائن كلّها
وقال علي رضي الله عنه:

ألا طرق الناعي بليل فراعني
فقلت له لما رأيت الذي أتى:
فحقّق ما أشفقت منه ولم يبيل
فوالله ما أنساك أحد ما مشت
وكنت متى أهبط من الأرض تلعّة
من الأسد قد أخفى العرين مهابة
شديد جريء الصدر سهم مسدّد
وقال عبد الله بن أنيس رضي الله عنه:

تطاول ليبي واعتراني القوارعُ
غداة نعى الناعي إلينا محمداً
وقد قبض الله النبيين قبله
فأليت لا آسى على هُلك هالك
فيالقريش قلّدوا الأمر بعضكم
وخطبٌ جليلٌ للخلائق جامعُ
وتلك التي تستكّ منها المسامعُ
وعادُ أصيبت قبله والتوابعُ
مدى الدهر ما رسا بئيرٌ وفارغُ
فإن نصيرَ القومِ للقوم نافعُ

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

إن الرزية لا رزية مثلها مئت بطيبة مثله لم يفقد
ولقد أصيبَ جميع أمته به من كان مولودًا ومن لم يولد
والناس كلهم بما قد عالمهم يرجو شفاعته بذاك المشهد
حتى الخليل أبوه في أشياعه ونجيّه موسى النبي المهدي
متواضعين لربهم برقابهم تلك الفضيلة واجتماع السودد
يا خير من شدّ المطية نحوه وفد لحاجته يروح ويغتدي
أنت الذي استنقذتنا من حفرة من يهو فيها من هواه يبعد
فهديتنا بعد الضلالة والردى بهدي الإله إلى السبيل الارشد
فجزاك عنا الله خير جزائه بمقام محمود المقام مسدد

وقال أيضًا حسان بن ثابت رضي الله عنه:

تالله ما حملت أنثى ولا وضعت مثل النبي رسول الأمة الهادي
ولا برى الله خلقًا من بريته أوفى بذمة جارٍ أو بميعاد
من الذي كان فينا يُستضاء به مبارك الأمر ذا عدل وإرشاد
أمسى نساؤك عطلن البيوت فما يضر بن فوق ففاسر بأوتاد
مثل الرواهب يلبسن المسوح وقد أنسنَ بالبؤس بعد النعمة البادي
يا أفضل الناس إنني كنت في هجر أصبحت منه كمثل المفرد الصادي

وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

أرقتُ فباتَ ليلى لا يزولُ وليل أخي المصيبة فيه طولُ

وقد عظمت مصيبتُ وجلّت
 كأنّ الناس إذ فقدوه عُمي
 نبّيّ كان يجلو الشكّ عنا
 ويهدينا فلا نخشى ضلّالاً
 يجترنا بظهر الغيب عما
 فلم نر مثله في الناس حيّاً
 أفاطم إن جزعت فذاك عذرٌ
 فعودي بالعزاء فإن فيه
 وقال كعب بن مالك:

وياكيّة حراء تمحزن بالبكا
 على هالكٍ بعد النبيّ حمدي
 فجعنا بخير الناس حيّاً وميتّاً
 وأفظعهم فقدأ على كلّ مسلم
 لقد أورثت أخلاقه المجد والتقى
 وأنشد بعض الأنصار عند موته ﷺ:
 الصبر يحسن في المواطن كلّها
 وقال بعضهم:

دعني أكابد حسرة لا تنقضي
 وأريق دمعاً لا يكفكف غزبه
 أسفاً على فقد النبيّ محمد
 وأكنّ حزناً في الحشا وهموما
 فتراه منحدرًا يسيل سجوماً
 أن لم يكن طول الزمان مقيماً

فيرى على كل البرية شاهداً
 وقيم فيهم دينه وحدوده
 ويدل أهل الشرك إرغاماً لهم
 حتى يعمّ بلادَه وعبادَه
 يا أيها القبر الذي حاز السنّا
 ضمنت أشتات المكارم والعلّى
 أودعت أشلاء النبيّ محمدٍ
 صلّى الإله عليك ما جرت الصبا
 يا أيها الملائم المصدق قوله
 وقالت صفية بنت عبد المطلب:

ما لعينيّ لا تجودان ربيّا
 يوم نادى إلى الصلاة بلالٌ
 لم أجد قبلها ولست بلاقي
 جلّ يوم أصبحت فيه عليلاً
 ليت يومي يكون قبلك يوماً
 خلّقاً عاليّاً ودينّاً كريماً
 وسراجاً يجلو الظلام منيراً
 حازماً عازماً حليماً كريماً
 إن يوماً أتى عليك ليومٌ
 إذ فقدنا خير البرية حيّاً
 فكيننا عند النداء مليّاً
 بعدها غصّة أمرّ عليّاً
 لا يُردّ الجواب منك إلّياً
 أنضج القلب للحرارة كيّاً
 وصراطاً يهدى إليه سويّاً
 ونبيّاً مسدّداً عربيّاً
 عائداً بالنوال برّاً تقيّاً
 كورت شمسه وكانت جليّاً

فعليك السلام منا ومن ربك بالروح بكرة وعشيًا

وقالت أيضًا:

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا
لعمرك ما أبكي النبي لموته
أفاطم صلي الله رب محمد
فدى لرسول الله أمي وأسرتي
وكنت لنا حرزًا حصينًا نبينا
كأن على قلبي لذكر محمد
أبا حسن أيتمه وتركته
صبرت وبلغت الرسالة صادقًا
فلو أن رب الخلق أبقاك سالمًا
عليك من الله السلام تحية
وقالت هند بنت عبد المطلب:

وكنت عليك اليوم من كان باكيا
وما خفت من بعد النبي المكاويا
يبكي ويدعو جدّه اليوم نائيا
وقمت صليب الدين أبلج صافيا
سعدنا ولكن أمره كان ماضيا
وأدخلت جنات من العدن راضيا
مصيبتك التهائم والنجودا
فلم تحطى مصيبته وحيدا
وأكرمهم إذا نُسبوا جدودا
سعيد الجّد قد وكد السعودا
فقدت الطيب الرجل المجيدا
فلمست أرى له أبدا نديدا

أفاطم فاصبري فلقد أصابت
وأهل البرّ والأبحار طرّا
ألم يك خير من ركب المطايا
وكان المجد يصبح في ذراه
فموتي إن قدرت بأن تموتي
رسول الله خير الناس حقّا

وقال حسان بن ثابت في اجتماع القبور الثلاثة:

ثلاثة برزوا لسبقهم بصّروهم ربهم بما نشروا
عاشوا بلا فرقة حياتهم واجتمعوا في المسامات إذ قُبروا
فليس من مسلمٍ له بصرٌّ يُنكر من فضلهم إذا ذُكروا

فصل

وذهبتُ -أذهب الله عن جميعنا السيئات بوفور الحسنات- أن أصل حكم البيان بقوافي الأوزان، وأن أتبع شوارد الفوائد بنضائر القصائد، وأن أختم نوادر الأخبار بمصاريح الأشعار، مما سمح به خاطر على كلاله، وجاد به الذهن على بخله واعتلاله، في وصف مآثر هذا النبي الكريم ﷺ وعلى آله أكمل الصلاة وسلم أعمّ التسليم، فلعلّي أن أبلغ درجة الإحسان؛ إذ لا أنال بصدق النية درجة الحرمان؛ إذ الأعمال بالنيات، والإخلاص في حصول الطويّات. جعلنا الله وإياك ممن أخلص لوجهه عمله، وجعل في القيام بطاعته رغبته وأمله، بمنه وفضله .

فمن ذلك:

سقى الله وابل صوب المطر ثرى ضمّ أشلاء خير البشر
وضمّ ضجيعه من بعده أبا بكر المرتضى وعمر
لقد قدّس الله ذاك الثرى وطهره من جميع الغير
فأصبح يزري بمسك الختام ورضراضه بنفيس الدرر
تضمّن خير الورى كلهم وأحسنهم في المعالي أثر
وأبعدهم عن دواعي الهوى وأرفضهم لمساعي الضرر
وأوقفهم عند حكم الكتاب وماضمت محكمات السور

وأحماهم لحمى المسلمين
وأوفاهم لكريم العهود
وأكرم بصحبهم الطاهرين
ومن بايع المصطفى مخلصاً
صلاة الإله وتسليمه
ونسأل من عرشه في السما
يقيناً يبلغ أقصى المنى
وعوناً على عمل صالح
فنحشر في زمرة المصطفى
ونسقى لدى الحشر من حوضه
وننعم في حضرات الجنان
لقد خصه الله رب العلى
وأكرم مثواه طول الحياة
يلبغ عن ربه وخيه
وقام بدين الهدى صادقاً
رسول كريم رؤوف رحيم
رفيع المكان سخي البنان
وفي العهود صحيح العقود
إذا ما أباحوا حمى من كفر
إذا نقض العهد خب غدز
مصايح ذاك الدجى المعتكر
وأوى وهاجر حتى نصر
على جمعهم ما استنار القمر
وفي حكمه كل بحر وبر
وفعلاً يؤذي لنيل الوطر
بطاعته ما تراخى العمر
محمد المتقى من مضر
بكأس روي لذيد خصر^(١)
ونعصم من شذمات الشر
بفضل الشفاعة يوم الحضر
وأعلى منازلهم في البشر
خبيراً ويا صدق ذاك الخبر
وحج إلى بيته واعتمر
صفوح حلیم إذا ما قدز
جريء الجنان جميل النظر
كريم الحدود إذا ما افتخر

(١) بارد . لسان العرب (خصر) .

حباه الإله الرضا واجتباه
 فصلّى عليه العليم القدير
 عديد الدراري ورمل الصحارى
 تروح وتغدو ولاءً عليه
 إلى أن يجازيه بالجنان
 وقلت أيضًا:

محمد النبي بلا ارتياب
 وأكرم ماجد ركضت إليه
 وأنجد باسلي ركب المطايا
 وأشجع من تدرع في نزال
 ألد من الكرى بين الجفون
 وأعطر من فتيت المسك عرقًا
 نبي بدء كل الخلق طرًا
 أتم الناس ميثاقًا وعهدًا
 وأرفعهم نصابًا في المعالي
 وأسرعهم إلى التحقيق جريًا
 وأعدلهم قضاءً وهوراض
 وأرفهم وأرحمهم وأندى
 وألين جانبًا وأعم برًا

لقد جمع الإله له خصالاً
وأظهر من دلائله لديه
فمنهن انشقاقُ البدر لما
وحسبك منه معجزة تبَدَّتْ
وفي القرآن نورٌ مستبين
كتابٌ مُعْجِزٌ كَلَّ البرايا
وكم قد رامه البلغاء قَدْماً
فما استطاعوا لأيسره دنواً
وما زالت تحييه ابتداءً
تناجيه الحقائق مُفْصِحَاتِ
دعا بالدُّوحَتين فجاءتاه
فلما أن قضى الأرب المسمى
وحنَّ الجذع من شوقٍ إليه
وما زال الحنين به إلى أن
وكلمه الذراع بلا لسانٍ
وأنبأه بأن السمِّ فيه
دعا الجَمَّ الغفير إلى يسير
فعمَّهمُ وزاد ولم يكونوا
وزود من قليلِ التَّمْرِ خَلَقَا
مطهرة تجلَّى عن الحسابِ
شواهد واضحات كالشهابِ
رآه السائلون من العجابِ
فلم يعلق به أريبُ ارتيابِ
تجلَّى للعيون بلا حجابِ
تنزَّل بالهداية والصوابِ
وأرباب الفصاحة والخطابِ
وقد حُرِّموا الهدى من كلِّ بابِ
وتعظيماً جلا ميد الهضابِ
فتهديه التحية في اليبابِ
تخذَّ عروقها خدَّ الترابِ
تبادرتا جميعاً بالإيابِ
وأشفق من مفارقة الجنابِ
تكفَّله بضمِّ واقترابِ
يعين على الكلام ولا إهابِ
فلم يحمله ذاك على اجتنابِ
تيسر من طعامٍ مستطابِ
تعمَّهمُ جِفَانٌ كالجوابِ
كثيراً أصبحوا صفر العيابِ

فراحوا مالئين لكلّ ظرفٍ
 وكم عَدِموا الشراب فأغدقتهم
 وأروى الكلّ ثم أفاض حتى
 تعاهدهم بذلك وذا مرارًا
 دعا بالخير والبركات فيها
 وكم من دعوة يومًا دعاها
 وقال لها رضا كوني فجاءت
 بـراهين وآيات عظام
 ويزداد المطيع بها يقينًا
 فسعي الموقنين إلى نجاح
 فصلّى الله خالقنا عليه
 وأوسعنا شفاعته مُبينًا
 وأوردنا جنى الحوض المحلّى
 وياربّ العباد نداء عبد
 ويضرع في الإقالة من خطايا
 فإن تغفر له أو تعف عنه
 وإن تأخذ بما كسبت يده
 ويا متصفّحًا قولي أعني
 فرُبّ أخٍ بظهر الغيب داعٍ

وقد انتهينا بفضل الله عزّ وجلّ وحسن عونه، وله الحمد على جزيل طوله ومنّه، إلى الحدّ الذي بلغنا إليه الاجتهاد، ووصلتنا إليه الاستطاعة، ونهض بنا إليه الوسع، وانتهت بنا إليه المقدره، ووفينا بحمد الله -عزّ ذكره- بما شرطناه، وتحرّينا الصدق والصواب فيما سطرناه وبسطناه، من تأليف الحكم المأثورة، وتصنيف الغرر المنظومة والمثورة. ولا عون إلا بالله، ولا توفيق إلا من الله، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم. فإن كُنّا أصبنا بفضل الله تعالى وتأييده، وحسن معونته وتسديده، وهو الذي أمّنا وأردنا، وإليه فزعنا وقصدنا، وإن كُنّا قصّرنا وحرّمنا، فذاك الذي قُسم لنا وقضى علينا.

ونسأل الله الذي بيده ملكوت كلّ شيء، وإليه مرجع كلّ شيء، أن لا يجرّمنا أجر النية، في قصد الخيرية، وجميل الثواب على حسن المذهب فيه، فإنما الأعمال بالنيات، والخلوص في إخلاص الطويات، وبرحمة الله الوصول إلى الخيرات، فذلك بيده لا رب غيره.

اللهم يا مَنْ هو الأول قبل كون كلّ موجود، ويا مَنْ هو الآخر بعد عدم كلّ مفقود، ويا مَنْ كان ولم تكن في السماوات فطرة، ولا في البحار قطرة، ولا في الأرضين صخرة، ولا للرياح هبوب ولا نفح، ولا للسحاب سكوب ولا سفح، ولا للمشارك والمغارب جوانب ولا سفح، فرفع السماء على عمُد القوّة، وعلم ما فوقها، ودحا الأرض على مهاد القدرة، وعلم ما تحتها، وأجرى البحار في أخاديد العظمة، وعلم ما وراءها، وأرسل الرياح في آفاق الهواء، وعلم قرار هبوبها، وأنشأ السحاب في جوّ السماء، وعلم مكان صَيبيها، وخلق الليل والنهار، وجعل الظلمات والأنوار، وفجر العيون والأنهار، وأنبت الأشجار والثمار، وأرسى الجبال على متن الأرض للقرار، وأحصى الأعداد، وقدر الآماد، وجمع الأضداد، وزوّج الأفراد، وقضى على جميع

المخلوقات بالفناء، فسبحانه من قادر أبداع المصوّرات، وأتقن المصنوعات، من غير محاولة ولا آلات، ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿ [سورة يس، من الآية ٨٢ إلى ٨٣].

اللهم إني أسألك يا من استنارت بنور بهائه الأحلاك، واستدارت بمقدور قضائه الأفلاك، وخضعت لعزّة سلطانه رقاب الجبابرة والأملاك، بجميع ما أحاط به علمك، ووُسّعه حلمك، وبأسمائك الحسنی، وصفاتك العليا، وبآلائك التي لا تُحصى، وبعلمك الذي استوى فيه الحاضر والغائب، وبكلماتك التامات التي لا يجاوزهنّ برّ ولا فاجر، وبنور وجهك الكريم، وبما أقل من جلالك واستقل به عرشك العظيم، وأسألك اللهم بك حتّمًا، ليس وراءك مرمى، ولا بعدك منتهى، أن تصلّي على سيدنا محمد عبدك الأمين، ورسولك الميّن، وخاتم أنبيائك والمرسلين، وعلى أزواجه وعترته الأكرمين، وعلى جميع النبيين والمرسلين، وعلى أهل طاعتك أجمعين، وأن تقينا شرّ ما خلقت وبرأت وذرأت، وشرّ ما أنت خالق، وشر ما يلجّ في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء، وما يعرج فيها، وشر كل دابة أنت أخذ بناصيتها، إن ربّي على صراط مستقيم.

اللهم ارزقنا من العلم أنفعه، ومن العمل أرفعه، ومن القول أصدقّه، ومن اليقين أوثقه، ومن الخير أكمله، ومن الصبر أجمله، ومن الحكم أعدلّه، ومن التقي أدومه، ومن الهدى أعصمه، ومن العيش أنعمه، ومن النظر أحزمه، ومن الرجاء أعظمه، ومن الخلق أكرمّه، ومن الرحمة أكملها، ومن النعمة أشملها، ومن العافية أجملها، ومن لعبادة أفضلها.

اللهم قنا سوء المضجع، ولقنا حسن المرتجع، وآمنا يوم الفزع، وثبتنا عند معاينة
المطلع، ولا تفضحنا على رؤوس الأشهاد في ذلك المجتمع.

اللهم فإننا قد سبقنا إليك الذنوب، وما قدّمنا وأخرنا منها في اللوح مكتوب، فهي
تنتظرنا ونحن نتظر الرحمة التي وسعت كلّ شيء، وعمّت كلّ حي. اللهم حقّق رجاءنا
لما نتظره، وآمنا مما نحذره، ولا تؤاخذنا بما قدمناه، واغفر لنا ما اجترناه.

اللهم هب لنا من حُسن اليقين ما تسهّل به علينا انتظار المنية، وارزقنا من جميل
الظنّ بك ما نتيقن به بلوغ الأمانة، واقسم لنا من جميل الصبر ما تهوّن به علينا كل رزية.
اللهم إنا نعوذ بك من نزغات الشياطين، وسطوات السلاطين، وبغي المعادين
وشماتة الحاسدين، وجور الجائرين، وظلم الظالمين، وحقد الضائمين.

اللهم أعطنا ثواب الأوابين، واجزنا جزاء المحسنين، واحشرنا مع المتقين، وأدخلنا
برحمتك في عبادك الصالحين.

اللهم لا تُنزل بنا في حال من أحوالنا تغييرًا، ولا تسلط علينا جائرًا مغيرًا، ولا
تلحق بنا فيما نؤمله من صلاح ديننا تعذيرًا، ولا فيما يرضيك منا وترضى به عنا تقصيرًا،
واجعل لنا من لدنك سلطانًا نصيرًا إنك كنت بنا بصيرًا.

اللهم احفظ علينا تمام النعمة، وصل لنا دوام العصمة، وقنا حلول الوصمة، ولا
تُخلِّنا من شمول الرحمة، إنك ذو وفاء وذمة.

اللهم فما آتيتنا من فضلك فاجعله في زيادة، واجعل اشتغالنا فيما بقي من أعمارنا
بالعبادة، وارزقنا في مساعي الخير والبر الإعادة، حتى نبلغ من جزيل ثوابك الإرادة،
واختم لنا في جميع الأحوال بالسعادة.

اللهم اجعلنا في كنفك من الطوارق، وقنا برحمتك من جميع العوائق، واقطع عنا
فيما يقصر بنا عنك كل العلائق، إنك أنت الخالق الرازق.

اللهم رَضْنَا بِمَا قَضَيْتَ وَقَدَّرْتَ، حَتَّى لَا نَحْبَ تَأْخِيرَ مَا عَجَّلْتَ، وَلَا تَعْجِيلَ مَا
أَخَّرْتَ.

اللهم إليك اقتصادنا، وبك اعتدادنا، وعليك اعتمادنا، وبك اعتضادنا، ولك
استئذاننا، وفيك مرادنا، فاجعل التقوى زادنا، والطاعة اعتقادنا، وفي رضاك اجتهادنا،
وفي عداك جهادنا، وآمن اللهم بلادنا، وأصلح أولادنا، وكثر أعدادنا.

اللهم هب لنا من فضلك العفو والعافية، واجعلها باقية غير عافية، وأعدنا من
نفوس ساهية، وقلوب لاهية، وعقول واهية، واعصمنا من كل داهية، ومن البطر
والرفاهية، واجعل لنا طاعتك عن معاصيك ناهية.

اللهم إنا نعوذ بك من قلب لا يخشع، وجسم لا يخضع، ونفس لا تقنع، وعين لا
تدمع، وأذن لا تسمع، ودعاء لا يُرفع، وعذاب لا يُدفع.

اللهم نور قلوبنا بذكرك، وأطلق ألسنتنا بشكرك، وامن علينا بعوارف برّك، ولا
تُحِلِّنا من جميل نظرك، ولا تكلنا إلى كلاءة غيرك، ولا تحرمنا جزيل خيرك.

اللهم أذقنا برد عفوك وغفرانك، وحلاوة رحمتك ورضوانك، ولذة إنعامك
واحسانك، وشهية تطوّلك وامتنانك، واجعلنا في جوارك وأمانك، يوم يجمع الناس
ليوم الفصل، وتوضع الأعمال في ميزان العدل، فلا تظلم نفس شيئا.

يا من إليه المرجع، وفي رحمته المطمع، منك نسأل وإليك نضرع، فامن علينا ولا
تمنع، وصلّ عوارفك ولا تقطع، إنك أنت الأكرم الأنفع، الأعزّ الأرفع، لا ربّ غيرك.

﴿ رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [سورة الكهف، من الآية ١٠] ،
﴿ رَبَّنَا ءَامِنَا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [سورة آل عمران، الآية
٥٣] ، ﴿ رَبَّنَا لَا تُفِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾
[سورة آل عمران، الآية ٨] ، ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ
لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴾ [سورة آل عمران، الآية ١٩٤] ، ﴿ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ
حَسَنَةً وَفِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [سورة البقرة، من الآية ٢٠١] ، ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة يونس، من الآية ٨٥ إلى ٨٦] ،
﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة الحشر، من الآية ١٠] ، ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ كُنَّا
أَخْطَاءً رَبَّنَا وَلَا نَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا
مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۗ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا إِنَّكَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة البقرة، من الآية ٢٨٦] .

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

وصلّى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين،

وعلى أهل طاعته أجمعين، من أهل السماوات والأرضين .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(١) .

(١) جاء بعدها كما أشرنا في المقدمة: 'وقد نجز الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه، وفرغ منه يوم
الخميس رابع عشر ذي القعدة عام تسعة وثلاثين وثمانمئة من الهجرة .

الفهارس العامة

- قائمة المصادر والمراجع
- فهرس الحديث الشريف والآثار
- فهرس الأعلام
- فهرس الأقوام والطوائف والجماعات
- فهرس الأماكن والبلدان
- فهرس الأعوام والأيام
- فهرس الكتب الواردة في متن الكتاب
- فهرس الشعر
- فهرس محتويات الكتاب

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

١. الأبشيهي، بهاء الدين محمد بن أحمد بن منصور (ت ٨٥٤هـ). المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق إبراهيم صالح، الطبعة الأولى، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٩.
٢. الإشبيلي، محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي (ت ٥٧٥هـ). فهرسة ما رواه عن شيوخه، باعثناء فرنسكه زيدبن وآخر، صورة صادرة عن مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧.
٣. الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داود الظاهري (ت ٢٩٦هـ أو ٢٩٧هـ). الزهرة، تحقيق إبراهيم السامرائي وآخر، الطبعة الثانية، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٩٨٥.
٤. البُستي، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد (ت ٣٥٤هـ). مشاهير علماء الأمصار، باعثناء مجدي بن منصور بن سيد الشورى، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥.
٥. البصري، أبو الحسن صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن (ت ٦٥٩هـ). الحماسة البصرية، تحقيق مختار الدين أحمد، الطبعة الثالثة، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣.
٦. البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣هـ). خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٧٩.
٧. البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٤٨٧هـ). معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، الطبعة الثالثة، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣.
٨. البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي، (ت ٤٤٠هـ). تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، الطبعة الثانية، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣.
٩. البيهقي، إبراهيم بن محمد (ت ٣٢٠هـ). المحاسن والمساوي، تحقيق محمد سويد، الطبعة الثانية، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٩٥.

التنوخي، أبو علي المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم البصري (ت ٣٨٤هـ).
المستجد من فعلات الأجواد، تحقيق يوسف البستاني، الطبعة الأولى، دار العرب،
القاهرة، ١٩٨٥.

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري (ت ٤٢٩هـ).
الإعجاز والإيجاز، تحقيق إسكندر آصاف، مكتبة دار البيان، بغداد، دار صعب،
بيروت، (د.ت).

..... التمثيل والمحاضرة، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء
الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦١.

..... يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق مفيد محمد قميحة،
الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ). البرصان والعرجان والعميان
والحولان، تحقيق محمد مرسي الخولي، الطبعة الرابعة، مؤسسة الرسالة، بيروت،
١٩٨٧.

..... البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوي، دار صعب، بيروت،
(د.ت).

..... المحاسن والأضداد، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، ١٩٩٤.
ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين بن عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ).
صفة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري وآخر، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت،
١٩٧٩.

..... المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد ومصطفى عبد
القادر عطا، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥.

الحلي، أبو الفتح صفى الدين عيسى بن البحترى (ت بعد ٦٢٥هـ). أنس
المسجون وراحة المحزون، تحقيق محمد أديب الجادر، الطبعة الأولى، دار صادر،
بيروت، دار البشائر، دمشق، ١٩٩٧.

٢٠. ابن حمدون، أبو المعالي محمد بن الحسن بن محمد بن علي (ت ٥٦٢هـ). التذكرة الحمدونية، تحقيق إحسان وبكر عباس، الطبعة الأولى، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٦.
٢١. ابن حنبل، أبو عبدالله أحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ). الزهد، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، الطبعة الثانية، دار الريان للتراث، القاهرة، ٤٠٨هـ.
٢٢. الخرائطي، أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل السامري (ت ٣٢٧هـ). مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها، انتقاء الحافظ السلفي الأصبهاني، تحقيق محمد مطيع الحافظ، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦.
٢٣. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ). كتاب العبر وديوان المتبدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الكتاب الأول: المقدمة، باعتماد إبراهيم شوح، الطبعة الأولى، دار القيروان للنشر، تونس، ٢٠٠٦.
٢٤. الدميري، كمال الدين محمد بن موسى بن عيس بن علي (ت ٨٠٨هـ). حياة الحيوان الكبرى، دار الفكر، بيروت، (د.ت).
٢٥. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ). تذكرة الحفاظ، الطبعة الثالثة، دائرة المعارف العثمانية، حيد آباد الدكن، ١٩٥٧.
٢٦. _____ سير أعلام النبلاء، تحقيق محب الدين العمروي، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧.
٢٧. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم حسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ). محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦١.
٢٨. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ). ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق سليم النعيمي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، ١٩٨٠.
٢٩. السراج، جعفر بن أحمد بن الحسين (ت ٥٠٠هـ). مصارع العشاق، تحقيق بسمة أحمد صدقي الدجاني، الطبعة الأولى، وزارة الثقافة، عمان، ٢٠٠٤.

٣٠. ابن سعيد، علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك الغرناطي الأندلسي (ت ٦٨٥هـ).
المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، الطبعة الرابعة، دار المعارف بمصر،
(د.ت).
٣١. السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت ٥٦٢هـ).
الأنساب، تقديم عبدالله البارودي، الطبعة الأولى، دار الجنان، بيروت، ١٩٨٨.
٣٢. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضير (ت ٩١١هـ).
الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣.
٣٣. الشجري، يحيى بن الحسين بن إسماعيل الحسني الجرجاني (ت ٤٩٩هـ). الأمالي
الشجرية، وهو المعروف بالأمالي الخميسية، ترتيب محيي الدين القرشي
(ت ٦٢٣هـ)، تحقيق محمد حسن إسماعيل، الطبعة الأولى، دار الكتب، (د.م)،
٢٠٠١.
٣٤. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد (ت ٥٤٨هـ). الملل والنحل،
تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٢.
٣٥. الصالحي، محمد بن يوسف الشامي (ت ٩٤٢هـ). سبل الهدى والرشاد في سيرة خير
العباد، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وزميله، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية،
بيروت، ١٩٩٣.
٣٦. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت ٧٦٤هـ). الوافي بالوفيات،
سلسلة النشرات الإسلامية الصادرة عن المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت،
دار النشر فرانز شتاينر، فيسبادن.
٣٧. طاش كبري زاده، أحمد بن مصطفى (ت ٩٦٨هـ). مفتاح السعادة ومصباح السيادة،
دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).
٣٨. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ). تاريخ الرسل والملوك المعروف
بتاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الرابعة، دار المعارف بمصر،
١٩٧٦.
٣٩. ابن عبد ربه، أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب الأندلسي (ت ٣٢٨هـ). العقد
الفريد، تحقيق محمد عبد القادر شاهين، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٣.

٤٠. ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله الشافعي (ت ٥٧١هـ). تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين عمر بن غرامة، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥.
٤١. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل (ت هـ) كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي وآخر، المكتبة العصرية، صيدا / بيروت، ١٩٨٦.
٤٢. ابن العماد، شهاب الدين عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري الحنبلي الدمشقي (ت ١٠٨٩هـ). شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، للطباعة والنشر، بيروت، دمشق، ١٩٨٦-١٩٩٣.
٤٣. عياض، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (ت ٥٤٤هـ). ترتيب المدارك وتقريب المسالك، طبعة وزارة الأوقاف المغربية، (د.ت).
٤٤. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ). إحياء علوم الدين، الطبعة الثانية، دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٥.
٤٥. أبو فراس، الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الحمداني (ت ٣٥٧هـ). ديوان أبي فراس، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٥.
٤٦. ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ). أدب الكاتب، باعثناء علي فاعور، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨.
٤٧. _____ الشعر والشعراء، الطبعة الأولى، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٤.
٤٨. _____ عيون الأخبار، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب.
٤٩. القرشي، عبد القادر بن محمد بن محمد بن نصر الله (ت ٧٧٥هـ). الجواهر المضية في طبقات الحنفية، تحقيق عبد الفتاح الحلو، الطبعة الثانية، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٣.
٥٠. القرشي، أبو زيد محمد بن الخطاب (ت في حدود ١٧٠هـ). جمهرة أشعار العرب، باعثناء عمر فاروق الطباع، شركة الأرقام بن أبي الأرقام، بيروت، (د.ت).
٥١. القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي الأندلسي (ت ٦٧١هـ). تفسير القرطبي المسمى الجامع لأحكام القرآن، تحقيق إبراهيم أطفيش، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٧.

٥٢. القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البرّ النمري (ت ٤٦٣هـ).
بهجة المَجالس وأنس المُجالس وشحد الذاهن والهاجس، تحقيق محمد مرسي
الخولي، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢.
٥٣. ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي (ت ٧٧٤هـ) البداية والنهاية، مكتبة المعارف،
بيروت، (د.ت).
٥٤. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت ٤٥٠هـ). الأحكام
السلطانية و الولايات الدينية، باعثناء خالد رشيد الجميلي، دار الحرية للطباعة،
بغداد، ١٩٨٩.
٥٥. _____. أدب الدنيا والدين، باعثناء ياسين السواس، الطبعة الرابعة،
دار ابن كثير، ٢٠٠٥.
٥٦. المراكشي، محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي (ت ٧٠٣هـ). الذيل
والتكملة لكتابتَي الموصول والصلة، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار الثقافة،
بيروت، ١٩٦٥.
٥٧. ابن المعتز، عبدالله بن محمد العباسي (ت ٢٩٦هـ). ديوان ابن المعتز، دار صادر،
بيروت، (د.ت).
٥٨. المقدسي، محمد بن سعد بن عبدالله بن سعد بن مفلح الحنبلي (ت ٦٥٠هـ). الآداب
الشرعية والمنح المرعية، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخر، الطبعة الثانية، مؤسسة
الرسالة، بيروت، ١٩٩٦.
٥٩. المَقْرِي، أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى التلمساني (ت ١٠٤١هـ). نفع الطيب من
غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق إحسان
عباس، دار صادر، بيروت، مختلف سنين الطبع.
٦٠. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الإفريقي المصري (ت ٧١١هـ).
لسان العرب، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤.
٦١. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ) نهاية الأرب في فنون
الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي،
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

٦٢. ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٣هـ أو ٢١٨هـ). السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وزميليه، الطبعة الأولى، دار الخير، دمشق/بيروت، ١٩٩٦.
٦٣. ياقوت، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي البغدادي (ت ٦٢٦هـ). معجم الأباء، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١.
٦٤. _____ معجم البلدان، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩.

ثانياً: المراجع:

٦٥. البغدادي، إسماعيل باشا. هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، منشورات مكتبة المشني، بغداد، صورة عن طبعة وكالة المعارف باستانبول ١٩٥١.
٦٦. حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، بيروت ١٩٨٢.
٦٧. الزركلي، خير الدين. الأعلام، الطبعة السادسة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤.
٦٨. سركيس، يوسف إيلان. معجم المطبوعات العربية والمعربة، مطبعة سركيس بمصر، ١٩٢٨.
٦٩. فنديك، إدوارد. اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، الطبعة الثانية، مصورة عن الطبعة الأولى، مكتبة المرعشي النجفي، قم، ١٤٠٩هـ/ق.

فهرس الحديث الشريف والآثار

- «آفة الحديث الكذب»..... ٢٢٣
- «آفة العلم الخيلاء»..... ٥٣
- «أئذن له يا جبريل»..... ٤٦٩
- «الأئمة من قرش»..... ٣٣٠
- «أبخل الناس من ذكرت عنده فلم يصل علي»..... ٤٧٢
- «أتاني جبريل عليه السلام أنفا...»..... ٤٧٢
- «اتق الله حيث كنت...»..... ٢٩٨
- «اتقوا دعوة المظلوم...»..... ١٨١
- «اتقوا فراسة المؤمن...»..... ٤١١، ٤٦
- «اجتهدوا في العمل...»..... ١٠٨
- «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»..... ٤١٣
- «أحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً...»..... ٢٩٦
- «أحب عباد الله إلى الله أنفعهم»..... ٢٣٤
- «أحلت لي ساعة من النهار...»..... ٤٢٣
- «الأحق أبغض خلق الله إليه...»..... ٤٣
- «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم...»..... ٢٧٥
- «أدّ الأمانة لمن ائتمنك...»..... ٢٨٣
- «ادفعوا الحدود ما وجدتم لها مدفعاً...»..... ١٦٦
- «إذا أحب الله عبداً ابتلاه حتى يسمع تضرعه»..... ٤٠٣
- «إذا أراد الله بعبده خيراً أزهده في الدنيا»..... ١٤٤
- «إذا تقرب الناس إلى خالقهم...»..... ٣٣
- «إذا جمع الله الأولين والآخرين رفع...»..... ٢٨٣
- «إذا دخل النور في القلب انفسح، قيل له: يا رسول الله...»..... ١٥
- «إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً...»..... ٣٢٣
- «إذا رأيت العبد قد أعطي صمتاً»..... ١٤٤
- «إذا راد الله عبداً أحظر عليه العلم»..... ٧٢
- «إذا عمل العبد الذنب، ثم ندم...»..... ٣٦١
- «إذا غضب أحدكم، وكان قائماً فليقلع...»..... ١٨٨

- «إذا كان يوم القيامة جمع الله الناس...» ٢٠٦.....
- «...أذهب، فاقتل أباك...» ٣٠١.....
- «الأرواح أجناد مجندة...» ٤١١.....
- «ازهد في الدنيا يحبك الناس...» ١٤٤.....
- «استح من الله استحياءك من ذوي الهيبة من قومك» ٢٨٩.....
- «استحيوا من الله حق الحياء...» ٢٨٩.....
- «استعينوا على نجاح حوائجكم بالكتان» ٤١١، ٣٠٢.....
- «استغفروا لأخيك» ٤٤٥.....
- «اصنع المعروف إلى من هو أهله...» ٤١٢.....
- «اطلبوا الحوائج من حسان الوجوه» ٢٤٠.....
- «اطلبوا العلم قبل أن يرفع...» ٥٣.....
- «اطلبوا ما عند الله...» ٨٨.....
- «أعدى أعدائك إليك نفسك التي بين جنبيك» ٢٩.....
- «أعطيت جوامع الكلم» ٤١٥، ١٥.....
- «أعظم الخطايا اللسان الكذوب» ٢٢٣.....
- «أعظم الناس قدراً عند الله الملك العادل» ١٦٦.....
- «الأعمال بالنيات...» ٥٠.....
- «أعند شدي تتركني...» ٤٦٩.....
- «اغتنم خمساً قبل خمس...» ٤١١.....
- «أفشوا السلام، وأطعموا...» ٤١٢.....
- «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس» ١٢٤.....
- «أقسم الله تعالى أن لا يجاوره بخيل» ٢٦٧.....
- «أفصر عن جشائك يا هذا...» ١٥٨.....
- «أقمت بحراء ثم نزلت...» ٤٣٧.....
- «اكتسبت طيباً، واعمل صالحاً...» ٩٦.....
- «أكثرُوا الصلاة عليّ في الليلة الغراء...» ٤٧٢.....
- «ألا أخبركم بشراركم...» ٣١٤.....
- «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت...» ١٦.....
- «الْفِظِي، الْفِظِي» ٣١٤.....
- «اللهم، إني أعوذ برضاك من سخطك...» ٨٢.....

- «اللهم إني أعوذ بك من البخل» ٢٦٧
- «اللهم حوالينا ولا علينا» ٤٦١
- «اللهم الرفيق الأعلى...» ٤٦٥
- «اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً...» ٤٦١
- «اللهم اشف عمي...» ٤٦٢
- «اللهم طهر لساني من الكذب...» ٤٠٣
- «الله في عون العبد ما دام العبد...» ٤١٣
- «أن لا يعمل العبد بطاعة الله وهو يريد بها الناس» ٣١٨
- «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر...» ٣١٨
- «إن أدنى الرياء شرك...» ٣١٨
- «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة...» ٥٦
- «إن الله اختار لكم الإسلام...» ٢٩٦
- «إن أقربكم مني أكثرهم صلاة علي...» ٤٧٢
- «إن الله تعالى جعل أبا بكر خليفتي...» ٤٧٤
- «إن الله عز وجل قال لعيسى ابن مريم...» ١١٨
- «إن الله عند لسان كل قاتل» ٤١٢
- «إن الله لا يقبل عملاً يكون فيه مقدار ذرة من رياء...» ٣١٨
- «إن الله لم يأخذ الميثاق على الجاهل أن يتعلم حتى أخذ الميثاق...» ٤٨
- «إن الله ليحب الحلیم الحمي...» ١٨٩
- «إن الله ليحمني عبده من الدنيا...» ١٤٤
- «إن الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن» ٣٣٠
- «إن الله يحب الرفق في الأمر كله» ٤١٣، ٣٥٢
- «إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفاسفها» ٢٩٢
- «إن الله ينهاكم عن قيل وقال...» ٤١٣
- «إن الأمانة سترفع...» ٢٨٣
- «إن أهون الناس على الله، وأبغض الناس...» ١٨٠
- «إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة...» ٢٣٣
- «إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة...» ٣٢٣
- «إن جبريل عليه السلام كان يعارضني بالقرآن...» ٤٣٨
- «إن الجنة يوجد ريحها من مسيرة...» ٢٩٩

- «إن الحسد ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»..... ٣٠٦
- «إن حسن الظن من حسن العبادة»..... ٣٥٢
- «إن الحق يأتي وعليه نور، فعليكم ببشائر القلوب»..... ١٦
- «إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم»..... ١٨٨
- «إن العبد إذا ظلم ولم يتنصر...»..... ١٨١
- «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»..... ٣٦٢
- «إن العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»..... ٢٩٦
- «إن العُجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»..... ٣٢٣
- «إن في التعريض لمندوحة عن الكذب»..... ٢٢٩
- «إن في الصبر على ما تكره ذخراً كبيراً...»..... ١٢٠
- «إن لله عزوجل أخلاقاً من تخلّق بواحد منها دخل الجنة»..... ١٦٥
- «إن لي عند ربي أسماء: أنا محمد...»..... ٤١٥
- «إن المعونة تأتي العبد من الله...»..... ٤١٢
- «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم...»..... ٥٧
- «إن من البيان لسحراً...»..... ٣٥٧
- «إن هذا الدين متين فأوغل...»..... ٤١٣
- «أنا ابن الذبيحين»..... ٤١٦، ٤١٥
- «أنا أفصح العرب»..... ٤١٥
- «انتظار الفرج بالصبر عبادة»..... ١٢٤
- «انتهوا عن المعاصي...»..... ١٠٨
- «إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير...»..... ٢٩٥
- «إن كان لك عقل فلك فضل، وإن كان لك...»..... ١٥
- «إنكم لا تنالون ما تحبون إلا...»..... ١٢٤
- «إنما أدرك الناس من كلام النبوة...»..... ٢٨٨
- «إنما العلم بالتعلم، والحلم بالحلم...»..... ١٩٣
- «أنهاك عن الشرك بالله...»..... ٣٢٣
- «إنه لا يرى أحد عورتي إلا طُومت عيناه»..... ٤٦٥
- «إنهم أمراء الخلافة»..... ٤٧٤
- «إنهم ليسألوني ليخلوني، ويأبى الله لي إلا السخاء»..... ٢٣٥
- «إنني لأستحيي ممن استحييت منه ملائكة الرحمن»..... ٢٨٨

- ٩٨..... «أما بعد، فإن الإنسان يسره...»
- ٤٠٣..... «أمان لأمتي من الغرق أن يقولوا...»
- ١١٨..... «أؤمنون أنتم؟...»
- ٢٩٦..... «أهل الجنة: كل هين لئن سهل طلق»
- ٤٥..... «أوحى الله تعالى ذكروه إلى إبراهيم عليه السلام: إني أحب كل عليم»
- ٤٣٨..... «أو رأيت يا عائشة؟...»
- ١٦٦..... «أوصاني ربي بالإخلاص في السر...»
- ٢٨٧..... «أول ما يرفع الله من هذه الأمة الحياء»
- ٢٩٦..... «أول ما يوضع في الميزان يوم القيامة الخلق الحسن»
- ٣٦٦..... «أولياء الله لا خوف عليهم...»
- ٢١..... «أوصيكم بالشُّبان خيراً، فإنهم أرق أفئدة، ألا إن الله تعالى...»
- ٢٤٤..... «إياكم والامتنان المعروف...»
- ٣٣٩..... «إياكم والبطنة، فإنها مفسدة...»
- ٢٦٧..... «إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم فسفكوا...»
- ٤١٢..... «إياكم والدِّين، فإنه همّ بالليل...»
- ٣٥٢..... «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»
- ٤١١..... «إياك وما يُعتدّرمته»
- ٢٦٧..... «أي داء أودى من البخل»
- ٢٣٣..... «أيما رجل اشتهى شهوة...»
- ٤٠٩..... «الإيمان بيان، والحكمة بيانية»
- ٤٦٥..... «أين أنا غدا؟...»
- ٤١٣..... «أيها الناس، أما بعد، فإن أصدق...»
- ٩٦..... «أيها الناس، إن لكم نهاية...»
- ٢٦٧..... «البخل ثمرة الرغبة في الدنيا والسخاء ثمرة الزهد»
- ٤١٢..... «البرحمن الخلق»
- ٣٤٤..... «بعثت لأئمة مكارم الأخلاق»
- ٣٣٢..... «يَمِّمَّ تحمكم يا معاذ؟...»
- ٤٣٨..... «بينما جبريل عليه السلام جالس عندي...»
- ٢٥٠..... «التؤدة في كل شيء حسنة إلا في أعمال الآخرة»
- ٢٠٨..... «التأني من الله، والعجلة من الشيطان»

- «تجافوا عن ذنب السخي، فإن الله أخذ بيده كلما عشر»..... ٢٣٣
- «تحمروا الصدق وإن كان فيه الهلكة...»..... ٢١٥
- «التدبير نصف العيش»..... ٤١١، ٣٤٠
- «تصدقوا على أخيكم بعلم يرشده...»..... ٦٣
- «تعلموا العلم قبل أن يرفع...»..... ٦٧
- «تعلموا وعلموا فإن أجر العالم والمتعلم سواء...»..... ٦٣
- «تعملون للدنيا، وأنتم ترزقون...»..... ٣٦٧
- «تكلفوا لي بست، أتكفل لكم بالجنة...»..... ٢١٧
- «ثلاث إذا كنَّ فيك فلا يضر...»..... ٢٢٠
- «ثلاثة لا غيبة فيهم...»..... ٣١٢
- «ثلاثة لا يسلم منها أحد : الحسد...»..... ٣٠٨
- «ثلاث منجيات وثلاث مهلكات...»..... ٣٨
- «جُبلت النفوس على حب من أحسن...»..... ٤١١
- «الجود من جود الله، فجدودوا مجد الله عليكم»..... ٢٣٥
- «حبك الشيء يعمي ويصم»..... ٤١١، ٣٨
- «الحج عرفة»..... ١١٨
- «حسن خلقك للناس يا معاذ بن جبل»..... ٢٩٦
- «حسن الخلق، وحسن الجوار يعمران...»..... ٢٩٦
- «حسن السؤال نصف العلم»..... ٥٤
- «حُفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»..... ٤١٢، ٣٠
- «الحكمة ضالة كل حكيم»..... ٤٠٩
- «الحكمة ضالة المؤمن...»..... ٤٠٩
- «الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة»..... ٢٨٧
- «خشية الله رأس كل حكمة، والورع سيد العمل»..... ٤١٠
- «الخلافة لقريش، والحكم للأنصار»..... ٣٣٠
- «خلق الله البخل من مقتته...»..... ٢٦٧
- «خلق الله الخلق فجعلني...»..... ٤٠٨
- «خلق الله العقل وقال له: أَقْبَلْ...»..... ٤٣
- «خير أصحابك المعين لك على دهرك...»..... ٣٥٦
- «خير أمتي الذين لم يعطوا حتى...»..... ١٦٠

- «خير الأمور أوسطها» ٢٧
- «خير دينكم أيسره، وخير العبادة أخفها» ٤١٣
- «خير دينكم الورع» ١٤٣
- «الدال على الخير كفاعله» ٤١١
- «دب إليكم داء الأمم قبلكم...» ٣٠٦
- «ذلك يوم وُلدت فيه...» ٤٣٤
- «رأيت جبريل عليه السلام واقفاً...» ٤٣٨
- «رب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً» ٤١٢
- «رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» ٣٨
- «رحم الله عبداً قال فغتم، وسكت فسلم» ٤١١
- «رخص رسول الله ﷺ في الكذب في ثلاثة مواطن...» ٢٢٨
- «الرزقُ لمُطعم الطعام أسرع...» ٢٣٣
- «رفع الله عن أبيك العذاب لسخائه» ٢٣٣
- «زرغباً تزدد حبياً» ٤١١
- «الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن» ١٤٤
- «سئل رسول الله ﷺ: ما الإيمان؟ قال: الصبر» ١٨٧، ١١٨
- «سئل عليه السلام: أي الجهاد أفضل؟ فقال: جهادك هواك...» ٣٨
- «استفتح عليكم مشارق الأرض...» ٢٨٣
- «السقاء شجرة من شجر الجنة...» ٢٣٣
- «السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله عز وجل» ٨٨
- «السعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه» ٤١١، ٣٣٦
- «سيكون بعدي أمة على أبوابهم...» ١٨٤
- «شاب نفسه سخي، خير من شيخ عابد بخيل» ٢٣٥
- «شر الناس عند الله يوم القيامة ذو الوجهين...» ٣١٥
- «صامتا عما أحل الله لهما...» ٣١٢
- «الصبر عند الصدمة الأولى» ١١٨
- «الصبر نصف الإيمان...» ١١٨
- «الصدق طمأنينة، والكذب ريبة» ٢١٥
- «الصلاة الصلاة...» ٤٦٥
- «صلة الرحم تزيد في العمر» ٢٩٩

- «صنائع المعروف تقي مصارع السوء»..... ٢٣٣، ٢٤٦، ٤١١
- «ضع المعروف في أهله وفي مَنْ ليس...»..... ٢٣٤
- «طلب العلم فريضة على كل مسلم»..... ٤٨
- «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب...»..... ٤١٢
- «الظلم ثلاث: ظلم لا يغفره الله...»..... ١٨٣
- «الظلم ظلمات يوم القيامة»..... ١٨١
- «عسى أن ترسل إلينا في ذلك»..... ٤٣١
- «عش ما شئت فإنك ميت...»..... ٤١٢
- «عفو الملوك أبقى للملك»..... ٢٠٦
- «العقل نور في القلب يفرق بين الحق والباطل»..... ٧
- «العلماء ورثة الأنبياء»..... ٦٧
- «العلم خزائن مفتاحها السؤال»..... ٥٥
- «العلم علمان: علم ثابت في القلب...»..... ٦٤
- «عليكم بإخوان الصدق...»..... ٣٤٦
- «عليكم بخلفائي...»..... ٦٧
- «عليكم بالصدق، فإنه مع البر...»..... ٢١٥
- «العين تدمع والقلب يوجع، ولا نقول ما يسخط الرب»..... ١٤١
- «الغضب حمة تتوقد في جوف...»..... ١٨٨
- «فرغت بصري فإذا الملك الذي...»..... ٤٣٤
- «فضل العالم على العابد كفضلي...»..... ٥٧
- «الفقه في الدين فرض على كل مسلم...»..... ٤٨
- «في الصبر على ما نكره خير كثير»..... ١٢٣
- «قال الله عز وجل: إذا وجهت لعبد...»..... ١٢٢
- «قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، متى يعرف الإنسان ربه؟...»..... ٨٢
- «قال رجل: يا رسول الله أوصني. قال: لا تغضب...»..... ١٨٨
- «قال لي جبريل عليه السلام: ولاة الأمر...»..... ٤٧٤
- «قد رأيت في الجنة يسحب أذياه»..... ٤٢٥
- «قدّم مالك فإن قلب المرء عند ماله»..... ٩٠
- «قدموا قريشاً، ولا تقدّموها...»..... ٣٣٠
- «قسم الله العقل ثلاثة أجزاء، فمن كنّ فيه كمل عقله...»..... ١٥

- «القضاة ثلاثة : واحد في الجنة...» ١٨١
- «قلة العيال أحد اليسارين» ٤١١
- «قل الحق وإن كان مرّاً» ٤١١، ٢١٨
- «قل لهم لم تصوما...» ٣١٤
- «القلوب أجناد مجنّدة...» ٣٤٧
- «القناعة مال لا ينفد» ٤١٢
- «قوموا إلى الصلاة...» ١٥٨
- «كبرت خيانة أن تحدث أخاك...» ٢٢٣
- «كذب أعداء الله ما من شيء...» ٢٧٧
- «كفى بالمرء سعادة أن...» ٤١٣
- «كل آتٍ قريب...» ٤١١
- «كل حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة» ١٨٠
- «كل المجلسين على خير، وأحدهما أحب إلي من صاحبه...» ٥٠
- «كن ورعاً تكن أعبد الناس...» ١٤٣
- «كونوا علماء صالحين...» ٥١
- «لا إيمان لمن لا أمانة له...» ٤١٢، ٢٨٢
- «لا تجلسوا عند كل عالم...» ٥١
- «لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة...» ٢٨٢
- «لا تزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت...» ٤١٣
- «لا تسبوا ورقة فإني رأيت له...» ٤٣٧
- «لا تظهر الشهامة بأخيك...» ٤١٢
- «لا تميموا القلب بكثرة الطعام...» ١٦٢
- «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» ١٠٨
- «لا فقر أشد من الجهل» ٧٢
- «لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار» ٤١٢
- «لأن يؤدب أحدكم ولده خير له...» ٦٧
- «لا يبني إلا ولد بني» ٣٠٨
- «لا يجادل إلا منافق أو مرتاب» ٥٥
- «لا يجتمع الشح والإيمان في قلب رجل مسلم» ٢٦٧
- «لا يدخل الجنة قتات» وفي رواية «...نّام» ٣١٤

- «لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم...» ٥٠
- «لا يزال الرجل يصدق حتى يكتب...» ٢٢٢
- «لا يقف أحدكم موقفاً يضرب...» ١٨٣
- «لا يكون أحدكم كالعبد السوء...» ٨٥
- «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» ٤١١
- «لا يمتنع أحدكم مهابة الناس...» ٤١٢
- «لعن الله الشحيح، ولعن الله الظالم» ٢٦٧
- «لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان...» ١٨٠
- «لقد عجب الله عزوجل من صنعكم مع ضيفكم» ٢٥٤
- «... لك أجران: أجر السر وأجر العلانية» ٣٢١
- «لكل دين خلق، وخلق هذا الدين الحياء» ٢٨٧
- «للمؤمن على المؤمن ست خصال...» ٣٩٠
- «لمداد جرت به أقلام العلماء أحب إلى الله من دماء الشهداء» ٤٩
- «لم يُقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة...» ٤٦٥
- «لم يكن بين لوط النبي عليه السلام...» ٤٤٠
- «لن تسعوا الناس بأموالكم...» ٢٣٩
- «لو بغى جبلٌ، لجعل الباغى منها دكاً» ٣٠٨
- «لو توكلتم على الله حق توكله...» ٤١٢
- «لو خر جثم إلى أرض الجشة، فإن بها...» ٤٤٠
- «لو كانت لنا سعة لبنيته على أس إبراهيم الخليل» ٤٢٤
- «لولم تذنبوا الخشيت عليكم ما هو...» ٣٢٣
- «ليتخذ أحدكم لساناً ذا كراً...» ١٥٠
- «ليس الأعمى من عمي بصره، إنها الأعمى من عميت بصيرته» ١٤
- «ليس خيركم من ترك الدنيا للأخرة...» ٣٢٩
- «ليس شيء أكرم على الله عزوجل من الدعاء» ٤٠٣
- «ليس لك من مالك إلا ما أكلت...» ٤١٣
- «ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا في طلب العلم» ٥٥
- «ما أعطي العبد شراً من شح مانع، وجبن هالع» ٢٦٧
- «ما بعث الله نبياً مرسلًا إلا...» ١٣١
- «ما حسن الله خلق امرئٍ وخلقته فتطمعه النار» ٢٩٦

- «... ما حلفت بها قط...» ٤٣٢
- «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار» ٤١١، ٣٣٧
- «ما رزق العبد رزقاً أوسع من الصبر» ١٢٧
- «ما سلك عمر فجاً إلا سلك الشيطان فجاً غيره» ٤٢
- «ما صمت ولا أفطرت» ٣٢١
- «ما عبد الله بشيء أفضل من فقهه...» ٦٢
- «ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب...» ٤١٢
- «ماملاً ابن آدم وعاء...» ٣٣٩، ١٦٢
- «ما من أحد أقرب من الله يوم القيامة...» ١٨١
- «ما من أحد إلا وبينه وبين رزقه...» ١٥٦
- «ما من أحد إلا وله شيطان...» ٤٢
- «ما من ذنب أجدر أن تعجل لصاحبه...» ٣٠١
- «ما من شيء أطيع الله فيه...» ٢٩٩
- «ما من عامل كان يعمل عملاً...» ٩٨
- «المؤمن القوي أحب إلي من المؤمن...» ٣٣٩
- «ما منكم أحد إلا يوكل به قرينه...» ٤٣٩
- «المؤمن مرآة أخيه» ٤١١
- «المؤمن مُرْزَأٌ، والكافر موقى» ٣٦٢
- «ما من مسلم يصلي عليّ صلاة إلا...» ٤٧٢
- «المؤمن يغبط، والمنافق يحسد» ٣١١
- «المؤمن ينظر بنور الله» ٨٢
- «ما نحل والدٌ ولده أفضل من أدب حسن» ٦٧
- «ما هذا؟...» ١٨٨
- «ما بيكيك؟...» ٢٥٥
- «ما يُبيكيك يا بنية؟...» ٣٤
- «مثل العلماء في الأرض كمثل النجول...» ٦٧
- «المرء كثير بإخوانه» ٤١١
- «المرء كثير بأخيه...» ٣٤٦
- «مرحباً بكم، حيّاكم الله...» ٤٦٦
- «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله» ٤١٣

- «مظل الغني ظلم» ٤١٢
- «المعروف كاسمه، وأول ما يدخل الجنة المعروف وأهله» ٢٣٣
- «المقسطون على منابر من نور يوم...» ١٦٦
- «ما أخاف على أمتي زلة العالم...» ٦٥
- «من أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه» ٤١٢
- «من أتى المدينة زائراً وجبت له...» ٤٧٢
- «من اتقى الله اتقى الناس» ٢٨٩
- «من أحب أن يحبه الله ورسوله...» ٢١٧
- «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه...» ٦٥
- «من أخلص لله أربعين صباحاً...» ٤٠٩
- «من ازداد في العلم رشدأ...» ١٥٢
- «من أصبح لا ينوي ظلم أحد...» ١٨٥
- «من أصبح معافى في بدنه...» ٤١١
- «من أصبح منكم آمناً في سربه...» ١٥٧
- «من أصيب بمصيبة فقال...» ١٢٧
- «من أطاع الله فقد ذكر الله...» ٨٨
- «من أعان سلطاناً ظالماً ولو بخط قلم لم تقر قدماه...» ١٨٣
- «من أعطي فشكر، ومُنع فصبر...» ١٢٧
- «من أعظم آفات الكرم، وأنكد حالات السخاء المطل» ٢٥٥
- «من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة فيه» ٢٨٧
- «من أودع معروفاً فليشره...» ٢٤٥
- «من ترك اللباس وهو قادر...» ١٤٣
- «من ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في رياض الجنة...» ٥٥
- «من تعلم العلم ليباهي به السفهاء...» ٥٣
- «من تواضع لله رفعه...» ٤١٢
- «من حاول أمراً بمعصية الله...» ١٠٨
- «من ذبّ عن لحم أخيه بظهر الغيب...» ٣١١
- «من ذكرت عنده، فليصلّ عليّ...» ٤٧٢
- «من زار قبري بعد موتي فكأنما...» ٤٧٢
- «من زار قبري محتسباً كنت له...» ٤٧٢

- «من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة...» ١٥٠.....
- «من صلى علي عند قبوري سمعته...» ٤٧٢.....
- «من صلى علي في يوم الجمعة مئة مرة...» ٤٧٢.....
- «من طلب علماً فأدرکه كُتِب له كفلان...» ٥٢.....
- «من طلب محامد الناس...» ١٠٨.....
- «من ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حقه...» ٥٠.....
- «من عامل الناس فلم يظلمهم...» ٢٩٢.....
- «من عمل بما عَلِمَ أورثه الخير أورثه الله...» ٥٦.....
- «من قُتِح عليه باب من الخير...» ٢٥٠.....
- «من كتم علماً يحسنه، أجمه الله بلجام من نار يوم القيامة» ٤٨.....
- «من لقي الله ورعاً أعطاه ثواب الإسلام كله» ١٤٤.....
- «من لم يقبل من متصل عذراً...» ١٩٩.....
- «من لم يكن له ورع يصدّه عن معصية الله...» ١٤٣.....
- «من مات ناكث عهد جاء يوم القيامة لا حجة له» ٢٨٣.....
- «من نزع يده من طاعة الله لم يكن له يوم القيامة حجة» ٨٨.....
- «من نظر في الدنيا إلى مادونه...» ١٢٠.....
- «مهلاً يا عائشة، إياك والغيبة...» ٣١٢.....
- «مهما نسيت من شيء فلا أنساه...» ٤٤٨.....
- «الموت غنيمة، والمعصية مصيبة...» ٤١٣.....
- «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة» ٤١١.....
- «نزلت صحف إبراهيم عليه السلام أول ليلة...» ٤٣٤.....
- «النظرة سهم مسموم من سهام الشيطان...» ١٦٣، ٩٢.....
- «نعمت الهدية الكلمة من كلام الحكمة» ٤١٠.....
- «نعم المطية الدنيا...» ٩٥.....
- «نعم وأنا ابن ثمان سنين» ٤٢٠.....
- «نوم الصبح خرق...» ٣٤٠.....
- «نية المؤمن خير من عمله» ٤١١.....
- «هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت؟...» ٣٥٨.....
- «هل يكذب المؤمن؟...» ٢٢٣.....
- «والذي بعثني بالحق لئن أصبحتم وضعاء...» ٤١٣.....

- «واضع العلم في غير أهله...» ٧٤
- «وجبت محبة الله لمن أغضب فحللم» ١٨٨
- «الوحدة خير من المجلس السوء» ٤١٢
- «الورع سيد العمل» ١٤٣
- «الولد ميخله مجبنة» ٢٧١
- «يا ابن آدم، إن كنت تريد من الدنيا...» ١٥٠
- «يا جارود، لقد تأخرت لموعدهك...» ٤٤٦
- «يؤجر في العلم ثلاثة...» ٥٤
- «يا خديجة هذا صاحبي قد جاء...» ٤٣٧
- «يا رسول الله، أياكون المؤمن جباناً...» ٢٢٣
- «يا علي، اتق دعوة المظلوم...» ١٨١
- «يا علي لا تتبع النظرة النظرة...» ٩١
- «يا كعب، أعينك بالله من إمارة السفاء...» ١٨٣
- «يا معاذ، أنت سالم، ما سكت...» ٣٢٨
- «يا معشر قريش، أنتم الولاة بعدي...» ٣٣٠
- «يبعث العالم والعابد يوم القيامة...» ٥٧
- «يبعث يوم القيامة أمة وحده...» ٤٢٥
- «يطبع المؤمن على كل خلق ليس الخيانة والكذب» ٢٨٢
- «يقول الله تبارك وتعالى: إن العبد يتحجب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحبته...» ١٢
- «يقول الله عز وجل: أنا جليس من ذكرني» ٣٤٤
- «يكون في أمتي رجل يقال له...» ٤٥٦
- «يلهمه الاستغفار عند التقصير...» ٣٦١

فهرس الأعلام

| | |
|---|---------------------------|
| ٤٥٨، ٤٤٤، ٤١٥، ٣٩٩، ٣٠٦، ٢٧٦، ٢٧٥، ١٥٩، ١٥ | آدم عليه السلام |
| ٤١٨ | آمنة بنت وهب |
| ٤١٠ | ابن أبان |
| ٤٣٦، ٤٣٣، ٤٢٥، ٤٢٣، ٤١٤، ٢٤١، ٤٧ | إبراهيم عليه السلام |
| ٣٧٤، ٣٢٢، ١٤٩، ١٤٣، ٩٤ | إبراهيم بن أدهم |
| ١٣١ | إبراهيم التميمي |
| ٤٣٣ | إبراهيم ابن الرسول ﷺ |
| ٤٠٧ | إبراهيم بن الشافعي |
| ٣٤٨ | إبراهيم بن العباس |
| ١٧٢، ١٧١ | إبراهيم بن محمد بن طلحة |
| ٣٥٥، ٢٠٤ | إبراهيم بن المهدي |
| ١٩٠، ١٠٥ | أبرويز |
| ٤٣٨، ٣٢٤، ٣٠٦، ٢٦٧، ١١١، ١٠٠، ٦٢ | إيليس (لعنه الله) |
| ٤٧٥، ٢٧٦، ١٠٦ | أبي بن كعب |
| ٢٠٢ | أحمد بن أبي دؤاد |
| ٢٠٣ | أحمد بن يوسف |
| ٢٩٥، ٢٩٤، ٢٢٥، ٢٢٤، ٢٢٠، ٢٠٦، ١٩٤، ١٩٢، ١٩١ | الأحنف بن قيس |
| ٣٩٢، ٣٨٠، ٣٥٣، ٣٢٤، ٣٠٧ | |
| ٤٢٦ | الأحوص بن فهر |
| ٢٩٥ | أحيحة بن الجلاح |
| ١٠٥ | الأخطل |
| ١٦٧، ٦٩، ٦٧ | أردشير |
| ١١١، ٧٦، ٧٤، ٧٣، ٦٥، ٥٧، ٥٥، ٥٤، ٥٢، ٣٨، ٣١ | أرسطاطاليس |
| ٢٩٠، ٢٦٥، ٢٣٧، ٢١٧، ١٩٤، ١٨٢، ١٨١، ١٦٦، ١١٣ | |
| ٣٩٥، ٣٧٦، ٣٤٦، ٣١٥، ٢٩٧ | |
| ٤٣٠ | إرم ذي يزن |
| ٤٦٦ | أسامة |
| ٤٦٨ | أم أسامة بن زيد (أم أيمن) |
| ٢٧٠، ٢٥٣، ٢٤٦ | إسحاق بن إبراهيم الموصللي |
| ٣١٢ | أبو إسحاق الهمداني |

| | |
|--|---------------------------|
| ١١١ | إسرائيل بن محمد القاضي |
| ٢٤١، ٢٤٠، ١٧٠، ١٦٦، ١٣٠، ١٢٥، ٨٩، ٦٢، ٢٥ | الاسكندر |
| ٣٩٢، ٣٧٧، ٣٥٠ | |
| ١٢٩ | أم الأسكندر |
| ٤٢٥ | أسماء بنت أبي بكر |
| ٤٧٠، ٤٦٥ | أسماء بنت عميس |
| ٤٥٢، ٤٣٣، ٤٢٥، ٤٢٤، ٤١٥، ٢٤٧، ٢١٤ | إسماعيل عليه السلام |
| ٤٦٩ | إسماعيل (أحد الملائكة) |
| ٣٤٨ | إسماعيل بن صبيح |
| ٤٢٤ | الأسود |
| ٣٥٩ | أشجع بن عمرو السلمي |
| ٣٨١ | أشعب |
| ٤٥٥ | أبو الأشعث أحمد بن المقدم |
| ٣٩٤، ٣٨٤، ٣٨١، ٣٧٠، ٣٥٩، ٢٣٥، ٢٢٦، ١٨٩، ٩٦، ٣٩ | الأصمعي |
| ٢٧٣، ٢٣٦ | ابن الأعرابي |
| ٥٩ | الأعور |
| ٣٧٦، ٦٧، ٦٥، ٤٣، ٤١، ٣٠، ١٠ | أفلاطون |
| ٢٩٢ | أفنون التغلبي |
| ٣٩٣، ٧٧ | الأفوه الأودي |
| ٤٥٣، ٤٥٢، ٣٤٦، ٣٠٠، ٢٣٥، ٢١٥، ١٨٣، ٧٣، ٤٠ | أكثم بن صيفي |
| ٣٨٢ | أمامة بنت الحارث التغلبية |
| ٣٥٨ | أمية بن أبي الصلت |
| ٤١٦ | أمية بن عبد شمس |
| ٤٦٤ | أبو أناس الدؤلي |
| ٤٧٢، ٤٦٦، ٤٦٥، ٤٦٢، ٤٦٠، ٤٣٤، ٣٥٧، ٢٩٨ | أنس بن مالك |
| ٢٩٤، ٢٣٩ | أنوشروان |
| ١٥١، ٥٥ | الأوزاعي |
| ٤٢١، ٣٨٢، ٣٨١ | أوس بن حارثة |
| ٤٦٨ | أوس بن خولي |
| ٤٥٩، ٤٥٨، ٤٥٧، ٤٥٦ | أويس القرني |
| ٣٨٢ | أم إياس بنت عوف |

| | |
|---|------------------------------------|
| ٣٧٨ | إياس بن قتادة |
| ١٥٩ | إياس بن معاوية |
| ١٤٠ | أيوب بن سليمان بن عبد الملك |
| ٣٤٩، ٢٤٥، ٢٤٣، ٢٢٤، ٨٧، ٧٥ | البحثري |
| ٣٧٧، ٣٠٦، ٧٣، ٧٢، ٦٠ | بزرجمهر |
| ٣٥٤، ٣٣٧، ٣١٠ | بشار بن برد |
| ٣٢٢، ٢٧٠، ٢٦٨ | بشر بن الحارث |
| ٣٨٨، ١٨٥، ٩٤، ٨٩، ٥٨، ٤١ | بطليموس (أو بَطْلَمَيْوس) |
| ٩٢، ٦٨ | بقراط (أبقراط) |
| ٣٤٧ | أبو بكر الخالدي |
| ٤٦٧، ٤٦٦، ٤٤٨، ٣٥٧، ٣٢٣، ٣٠١، ٢٨٧، ٢٢٩، ٨٨ | أبو بكر الصديق |
| ٤٧٥، ٤٧٤، ٤٧٣، ٤٧٠، ٤٦٨ | |
| ٣٠٨، ١٠٧ | بكر بن عبد الله (المازني) |
| ١٦٧ | أبو بكر بن الملح |
| ٢٦٣ | بكر بن النطّاح |
| ٢٥٦ | أبو بكرة |
| ٤٣ | الترمذي (الحكيم) |
| ٣٧٩، ٣٥٨، ٣٥١، ٣١٠، ٣٠٧، ٢٥١، ٢٥٠، ١٤٥، ١٢٧ | أبو تمام الطائي (حبيب) |
| ٢٠٣، ٢٠٢ | تميم بن جميل الأوسي |
| ٣٥٢، ٢٦٥، ٢٤٧، ٢٤٠، ١٨٢، ١٧٥، ١٦٧، ٤٠ | الثعالبي (أبو منصور) |
| ٣٢٣ | أبو ثعلبة |
| ١٩٦ | ثمامة بن أبي ثمامة الأنصاري |
| ٩٦ | جابر بن عبد الله |
| ٢٧٣ | الجاحظ |
| ٤٤٦، ٤٤٥ | الجارود بن المعلّى العبدي |
| ٣٨٨ | جالينوس |
| ٤٣٨، ٤٣٦، ٤٣٥، ٣٠٠، ٢٣٣، ١٨٨، ١٥٩، ١٦، ١٥ | جبريل عليه السلام (الناموس الأكبر) |
| ٤٦٩ | |
| ٣٤٦ | جرير |
| ٢٤٨ | أم جعفر |
| ١٠٦ | جعفر بن سليمان |

| | |
|--|-----------------------------------|
| ٤٤٤، ٤٤٢، ٤٤١، ٣٣٦ | جعفر بن أبي طالب |
| ٤٢٢، ٢١٨، ٨٨ | جعفر بن محمد |
| ٣٦٠، ٢٦٩، ٢٠٠ | جعفر بن يحيى بن برمك |
| | ابن أبي جمعة = كثير عزة |
| ٤٩ | جندب |
| ٨١ | الجنيد |
| ١٣٦ | أبو جهل |
| ٢٣٧ | حاتم |
| ٣٧٨، ٥٥ | حاتم الأصم |
| ٢٤٨ | أبو حاتم بن عبيد الله بن أبي بكرة |
| ١٣٧ | ابن الحارث |
| ١٥١، ١٤٣، ٩٩ | الحارث بن أسد المحاسبي |
| ٧٥ | الحارث بن حلزة |
| ٣٥٣ | الحارث بن عبدالله |
| ٣٧٨ | الحارث بن كلدة |
| ١٣٦ | الحارث بن هشام |
| ٢٦٩ | الحارثي |
| ٣٧٥، ٣٦٨، ١٤٧ | أبو حازم |
| ٣٩٤، ٣٧٣، ٣٢٦، ٢١٦، ٢١٥، ٢٠٥، ٢٠٤، ٢٠٢، ١٦٩ | الحجاج |
| ٤٢٤، ٣٩٥، | |
| ٢٨٩، ٢٣٦ | حذيفة |
| ٢٨٣، ١٨٤ | حذيفة (لعله ابن البيان) |
| ٤٤٠ | أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة |
| ٢٥٤ | حذيفة العدوي |
| ٤٨٢، ٤٧٨ | حسان بن ثابت |
| ٢٥٤ | أبو الحسن الأنطاكي |
| ٣٠٠، ٢٦٧، ١٩٥، ١٨٩، ١٨٣، ١٨٢، ١٣١، ١٢٠، ٩٨، ٨٨ | الحسن البصري |
| ٤٤٥، ٣٧٤، ٣٧٣، ٣٧١، ٣٦٨، ٣٦٧، ٣٦٦، ٣٦٣، ٣٣٧ | |
| ٢٠٥ | الحسن بن رجاء |
| ٢٤١ | الحسن بن سهل |
| ٤٠٠، ٣٢٩، ٢٥٧، ٢٥٦، ٢٤٩، ٢٣٩، ٢٣٤، ٢٠٦، ٥٢ | الحسن بن علي |

| | |
|---|-----------------------------|
| ٢٤١ | أبو الحسن الموسوي |
| ٣٨١، ٣٥٢، ٢٨٥، ٢٥٧، ٢٥٦، ٢٣٤، ١٩٧، ٥٦ | الحسين بن علي |
| ٢٥٩ | الحسين بن مطير |
| ٢٩٣ | الحصين الرقاشي |
| ٤٢٤ | الحصين بن نمير |
| ٣٩٨ | أبو حفص بن شاهين |
| ١٧٢ | الحكم بن هشام (الخليفة) |
| ٣٤٨، ٢٣٦ | حماد الراوية |
| ٣١٦ | حميد |
| ١١٢ | حميد الطويل |
| ٢٧٠، ٢٢٦ | أبو حنيفة |
| ٢٥٣ | خالد (البرمكي) |
| ٦٩ | خالد بن خدّاش |
| ٤٠٤، ٣٥٣، ١٥٩ | خالد بن صفوان |
| ٤٣٧، ٤٣٦، ٤٣٥، ٤٣٤، ٤٣٣، ٤٣٢، ٤٣١ | خديجة بنت خويلد |
| ١٩٢ | الخريمي |
| ٤٠٤، ٣٧٥، ١٥٢، ١٠٨، ٥٦، ٥٢، ٤٧ | الخضر |
| ٣٨٩ | الخضر بن علي |
| ٣٦٠، ١٩٢، ٧٣ | الخليل بن أحمد |
| ٣٤٧، ١٨٥ | الخوارزمي (أبو بكر) |
| ٤١٦ | خويلد بن أسد |
| ٣٥٥ | الخيزران (أم الرشيد) |
| ٣٨٠، ٣٤٩، ٢٢٠، ١٣٣، ١١٥، ٣٨ | داود عليه السلام |
| ١٨٩، ١٨١، ١٥٤، ١٥٠، ١٤٩، ١٢٣، ١١٨، ٩٦، ٦٩ | أبو الدرداء |
| ٣٩٠، ٣٤٣، ٢٢٣ | |
| ١٤١، ١٢١، ٧٣، ٦٩، ٣٨ | ابن دريد |
| ٣٩٩ | دنينير الخادم |
| ٨١ | ذو النون |
| ٣٩٦ | بنت ذي القصة يزيد بن الحصين |
| ١٢٦، ٩٧ | رابعة العدوية |
| ٢١٦ | ربيعي بن خراش |

| | |
|---|----------------------|
| ٣٥٢ | الربيع |
| ٤٥٩ | الربيع بن خيثم |
| ١٢٨ | الربيع بن ضبيح |
| ٤٢٩ | ربيعة بن نصر اللخمي |
| ١٤١، ١٤٠ | رجاء بن حيوة |
| ٣٩٤، ٣٨٩، ٣٨٧، ٣٥٩، ٣٥٥، ٢٧٠، ٢٦٢، ١٢٧، ١١١، ٢٠ | الرشيد |
| ٣٧٩ | الرضي |
| ٤٤٠، ٤٣٣ | رقية بنت رسول الله ﷺ |
| ٣٥٨، ٣٥٠، ٣٤١، ٢٣٩، ١٣٥، ١٢٩ | ابن الرومي |
| ٢٤٥ | الرياشي |
| ٣٣١ | الزبير (بن العوام) |
| ٤٢٤، ٣٥٣ | الزبير بن بكار |
| ٣٨١ | أبو الزناد |
| ٥٦، ٢١ | الزهري |
| ٢٤٩، ١٩٤ | زهير بن أبي سلمى |
| ٣٩٣ | زياد (بن أبيه) |
| ١٦٩، ١٦٨ | زيد بن الخطاب |
| ٤٣٦، ٤٢٥، ٤٢٤ | زيد بن عمرو بن نفيل |
| ٤٦٥ | زينب بنت جحش |
| ٤٣٣ | زينب بنت رسول الله ﷺ |
| ٢١٣، ١٥٨، ١٢٣، ١١٣، ٩٣ | سابق البربري |
| ٣٨١ | سالم بن عبدالله |
| ٢٣٤ | السامري |
| ٢٧٦ | السدقي |
| ٤٣٠، ٤٢٩، ٤٢٨، ٤٢٦ | سطيح الغساني |
| ٤٥٥ | سعد بن عبادة |
| ٤٥٥ | سعد بن معاذ |
| ٣٣١، ٢٩٥ | سعد بن أبي وقاص |
| ١٢٤ | أبو سعيد |
| ٥٥ | سعيد بن جبير |
| ٣٦٣ | أبو سعيد الخدري |

| | |
|---|-----------------------------------|
| ٢٣٩ | سعيد بن العاص |
| ٢٦١ | سعيد بن عمرو |
| ٣٥٧، ٥٢ | سعيد بن المسيب |
| ٤٥٥، ٤٣٩، ٣٠٤ | أبو سفيان |
| ٢١٦، ١٥٣، ١٥١، ٩٤ | سفيان الثوري |
| ٤٧٨ | أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب |
| ١٧٥، ١٤٤ | سفيان بن عيينة |
| ٢٣، ٧٢، ٧٤، ٧٩، ١٣٩، ١٨٢، ٢١٧، ٢٦٩، ٢٧٣، ٢٩٧، | سقراط |
| ٤٠٢، ٣٧٦، ٣٠٣ | |
| ١٩٦ | سلم بن نوفل الديلي |
| ٢٩٧، ٢٤٧ | سلم الخاسر (سلم بن عمرو) |
| ١٩٣ | سلمان الفارسي |
| ٣٩٩ | أبو سلمة بن عبد الرحمن |
| ٣٤٩، ٣٣٥، ١٩٥، ١٦٣، ١٣٣، ١٢٧، ٩٤، ٥٥ | سليمان عليه السلام |
| ٣٦٢، ٣٣٥، ١٨٤، ١٥١، ١٤٦، ٩٤ | أبو سليمان الداراني |
| ٢٢٦ | سليمان بن سعد |
| ٢٠٥، ٢٠٤، ١٨٣، ١٤٧، ١٤١، ١٤٠ | سليمان بن عبد الملك |
| ١١٢ | سليمان بن علي |
| ١٧٧ | سليمان بن وهب |
| ١٤٠ | ابن السماك |
| ٤٤٧ | سمعان |
| ٣٧٨ | ابن أبي سنان |
| ١٤٨، ١٢٠، ٦٩ | سهل |
| ٢٢١، ١٥٤، ١٢٣ | سهل بن عبد الله التستري |
| ٤٤٠ | سهلة بنت سهيل |
| ٤٣٣ | سودة بنت زمعة |
| ٣١٣، ٩٢ | ابن سيرين (محمد) |
| ٤١٩، ٤١٧، ٤١٦ | سيف بن ذي يزن |
| ٣٥٦، ٢٦١، ٢٦٠، ٢٤٥، ٢٠٩، ٧٥، ٧٤، ٥١، ٣٩ | الشافعي (محمد بن إدريس) |
| ٥٢ | الشبلي |
| ٢٠٥، ١٢٩ | شبيب بن شبة |

| | |
|---|-------------------------------|
| ٣٩٨ | شريح القاضي |
| ٣٥٨ | الشريد بن سويد |
| ١٤٦ | شريك |
| ٤٧١، ٣٦١، ٣١٥، ٣١٠، ٢١٥، ١٩٩، ١٩٦، ٥٤، ٣٨ | الشمعي |
| ٤٣١، ٤٣٠، ٤٢٩ | شق |
| ٤٦٨ | شقران |
| ٣٢٦، ٣٢٥ | أبو شبال الأسدي |
| ٢٠٠ | شمس المعالي (قابوس بن وشمكير) |
| ٣١٣ | الصاحب |
| ٢٤٨ | صالح |
| ٢٩٠، ٢٦٣، ٢٤٣، ٧٨، ٧٤، ٤٣ | صالح بن عبد القدوس |
| ١٣١ | صالح المري |
| ٤٨١، ٤٨٠ | صفية بنت عبد المطلب |
| ١٤٤ | الضحاك |
| ٤٥٦ | الضمار (صنم) |
| ٤٦٣، ٤٦٢، ٤٦١، ٤٤٠، ٤٣٣، ٤٣١، ٤٢٠، ٢٢١ | أبو طالب بن عبد المطلب |
| ٣٤٤ | طاهر بن الحسين |
| ٤٣٣ | الطاهر ابن رسول الله ﷺ |
| ١٩٧، ١٨٣ | طاوس |
| ٦١ | ابن طباطبا |
| ٤٧٢ | أبو طلحة |
| ٣٣١ | طلحة (بن عبيد الله) |
| ٣٠١ | طلحة بن البراء |
| ٢٦٥ | طلحة الطلحات |
| ٤٣٣ | الطيب ابن رسول الله ﷺ |
| ٤٢٤، ٣٦١، ٣٥٩، ٣٢٣، ٣١٢، ٢٧٢، ٢٥٤، ١٤٤، ٨٢ | عائشة رضي الله عنها |
| ٤٧٤، ٤٧١، ٤٦٦، ٤٦٥، ٤٤٥، ٤٣٨، ٤٣٧، ٤٣٤، ٤٣٣ | |
| ٣٨١ | عائشة بنت عثمان بن عفان |
| ٤٠٢ | عائكة بنت يزيد بن معاوية |
| ٣٢٢ | أبو العالية |
| ٤٢٣ | عامر بن الحارث |

| | |
|---|--|
| ٤٢٥ | عامر بن ربيعة |
| ٩ | عامر بن عبد القيس |
| ٤٢١، ٣٧٤، ٢١٢، ١٣٧، ٩٠ | عامر العدواني |
| ١٥٥ | ابن عباد الخزاعي |
| ٤٧٤، ٤٦٦، ٣٢٣، ٣٩ | العباس (عم النبي ﷺ) |
| ١٢٢، ٦٥، ١٧ | العباس بن الأحنف |
| ١٧٤، ١٧٣ | العباس ابن الخليفة المأمون |
| ٢٠ | العباس ابن رائطة |
| ٤٦٨، ٤٥٦ | العباس بن مرداس |
| ٢٢٥ | أبو العباس المري |
| ٣٩٠، ١٩٣، ٧٤ | أبو العباس الناشئ |
| ٢٣٨ | عبدالله بن الأعرابي |
| ٤٧٧، ٤٧٤ | عبدالله بن أنيس |
| ٢٦١، ١٨٠ | عبدالله بن جدعان |
| ٢٥٨، ٢٥٧، ٢٥٦، ٢٣٤ | عبدالله بن جعفر |
| ٣١٥ | عبدالله بن الحجّاج |
| ٤٤٢، ٤٤٠ | عبدالله بن أبي ربيعة |
| ٤٣٣ | عبدالله ابن رسول الله ﷺ |
| ٤٢٤، ٣٨١، ٢٨٥، ٢٠ | عبدالله بن الزبير |
| ١٢٩ | عبدالله بن سلام |
| ٣٢٤ | عبدالله بن شداد |
| ٣٧٣، ٣٥٥، ٣١٥ | عبدالله بن صالح |
| ٤٢٤ | عبدالله بن صفوان |
| ٢٤٧، ٢٤٦، ٢٣٣، ١٥٩، ١٣٨، ١١٨، ١٠٨، ١٠١، ٥٣ | عبدالله بن عباس |
| ٤٢٦، ٤٢٠، ٤١٥، ٤٠٣، ٣٥٢، ٣٤٠، ٣٣١، ٣١٤، ٢٩٣ | |
| ٤٧٥، ٤٧٤، ٤٦٧، ٤٥٧، ٤٥٦، ٤٣٩، ٤٣٨، ٤٣٤، ٤٣٢ | |
| ٣٥٧ | عبدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهنلي |
| ٤٢٠، ٤١٦، ٤١٥ | عبدالله بن عبد المطلب |
| ٢٤٢ | عبدالله بن عتبة |
| ٣٩٤ | عبدالله بن عقيل |

| | |
|--|------------------------------------|
| ٤٧٤، ٤٧١، ٤٠٤، ٣٦١، ٢٩٣، ٢٢٠، ١٤٤، ٤٩ | عبدالله بن عمر |
| ٣٤٠ | عبدالله بن عمر بن عبد العزيز |
| ١٥٩، ١٥٥، ١٤٥، ١١٢، ٩٣، ٤٤ | عبدالله بن المبارك |
| ٤٦٦، ٣٢٥، ٣١٨، ٢٢٢، ١٧٧، ١٦٨، ١٥٧، ١٠٥، ٨١، ٦٥، ٦٣ | عبدالله بن مسعود |
| ٢٦٥ | عبدالله المطيع |
| ٢٦٣، ٢٦٢ | عبدالله بن معمر |
| ٢٤٢ | عبدالله بن منصور |
| ٥٦ | عبدالله بن وهب |
| ٣١٧ | عبدة بن الطيب |
| ٢٥١، ٢٣ | عبد الحميد الكاتب |
| ٢١٦، ٢١٥ | عبد الرحمن بن الأشعث |
| ٢٧٣ | عبد الرحمن بن حسان |
| ٣١٥ | عبد الرحمن بن عبدالله |
| ٣٣١، ٣٢٥ | عبد الرحمن بن عوف |
| ٤٢٧، ٤٢٦ | عبد شمس |
| ٢٩٤ | ابن عبد الصمد |
| ٦١ | ابن عبد العزيز |
| ١١٢ | عبد العزيز بن أبي دؤاد |
| ٤٢٩، ٤٢٨ | عبد المسيح بن عمرو بن حيان الغساني |
| ٤٢٠، ٤١٩، ٤١٨، ٤١٧، ٤١٦ | عبد المطلب بن هاشم |
| ٣٧٩ | عبد الملك الجزيري |
| ٣٨٦ | عبد الملك بن صالح |
| ٣٨٦ | عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز |
| ٤٢٤، ٤٠٢، ٣٩٢، ٣٢٦، ٢٤١، ٢١١، ٢٠٥، ١٧٦، ٣٩، ٣٠ | عبد الملك بن مروان |
| ٤٢٧، ٤٢٦ | عبد مناف |
| ٢٢٧، ٣١ | عبد الوهاب |
| ٤٣٩ | عبد اليل بن عمرو |
| ١٧٨ | عبيد بن أبي الجعد |
| ٣٢٦، ٣٢٥ | عبيد الله بن زياد التميمي |
| ١٢٤ | أبو عبيدة |
| ٣٦٨، ٣٥٦، ٣٤٨، ٢٧٣، ١٥٠، ١٣٥ | أبو العتاهية |

| | |
|--|-----------------------------|
| ٤٣٦ | عتبة بن ربيعة |
| ٢٣٥ | عتبة بن أبي سفيان |
| ٢٣٦ | عتبة بنت عفيف (أم حاتم) |
| ١١٢ | عتبة الغلام |
| ٤٧٣، ٤٧٢، ٤١٥، ٣٥٠، ٣٠٤، ٢٤٨، ١٧١ | العتبي |
| ٣٣١، ٢٨٧، ٢٠٥، ٢٠١، ١٧١، ١٥٩، ١٥٣، ١٢٨، ٨١ | عثمان بن عفان |
| ٤٧٥، ٤٧٤، ٤٤٠، ٣٨١، ٣٥٧ | |
| ٣٠٤ | عثمان بن أبي عنبسة |
| ٤٦٤ | عثمان بن مظعون |
| ٤٣٦ | عداس |
| ٢٣٣ | عدي بن حاتم |
| ٣٤٦، ٢٦١ | عدي بن الرقاع |
| ٣٦٩، ٤٣ | عدي بن زيد |
| ٢٥٩، ٢٥٨ | عرابة الأوسي |
| ١٢٩ | أبو العرب الصقلي |
| ٣٥٩ | عروة بن أذينة |
| ٤٣٧ | عروة بن الزبير |
| ٣٨٦ | عُزير عليه السلام |
| ٣١٥، ١١٨، ١٢ | عطاء |
| ٢٣ | عطاء بن يسار |
| ٤١٣ | عقبة بن عامر |
| ٤٢٦ | عقيل بن أبي وقاص |
| ٤٦٧، ١٨٩ | عكرمة |
| ٢٨٩ | علقمة بن علاثة |
| ٣٩١، ٣٨٨، ٢٣٤، ٢٠١ | علي بن الجهم |
| ٩٥، ٩٢، ٩١، ٧٣، ٦١، ٦٠، ٥٩، ٥٧، ٤٨، ٣٣، ٢٢، ١٧ | علي بن أبي طالب عليه السلام |
| ١٥٧، ١٣٦، ١٢٨، ١٢٥، ١١٨، ١١١، ١٠٤، ١٠٠، ٩٨ | |
| ٢٢٦، ٢٢٥، ٢١٩، ١٩٧، ١٩٣، ١٩٢، ١٨٩، ١٨٨، ١٨١ | |
| ٣١٨، ٣٠٨، ٣٠٢، ٢٨٧، ٢٧٠، ٢٥٨، ٢٤٥، ٢٣٨، ٢٣٣ | |
| ٣٩٩، ٣٨٩، ٣٦١، ٣٥٧، ٣٤٧، ٣٤٦، ٣٤٤، ٣٣٧، ٣٣١ | |
| ٤٦١، ٤٥٩، ٤٥٨، ٤٥٧، ٤٣٤، ٤١٠، ٤٠١، ٤٠٠ | |

٤٧٧، ٤٧٤، ٤٧٢، ٤٧٠، ٤٦٨، ٤٦٦، ٤٦٥

١١٢

علي بن عيسى

١٧٤

عمارة بن حمزة

١٢٧

عمارة بن عقيل

٣٦٢

أبو عمران السلمي

، ١٤٤، ١٣٢، ١١٥، ٨٩، ٨٦، ٤٢، ٣٩، ٢١، ٢٠، ١٥

عمر بن الخطاب

، ٢٢٤، ٢١٨، ١٩٨، ١٨٤، ١٦٩، ١٦٨، ١٥٩، ١٥٨، ١٥٠

، ٣١٨، ٣١٢، ٣٠٤، ٢٩٩، ٢٩٣، ٢٨٧، ٢٥٦، ٢٥٠، ٢٣٥

، ٣٩٨، ٣٩٧، ٣٩٦، ٣٦١، ٣٥٨، ٣٥٧، ٣٥٢، ٣٣١، ٣٢٥

، ٤٦٦، ٤٥٩، ٤٥٨، ٤٥٧، ٤٣٤، ٤٠٥، ٤٠١، ٤٠٠، ٣٩٩

٤٧٦، ٤٧٥، ٤٧٤، ٤٧٣، ٤٧١، ٤٦٨، ٤٦٧

٦٩

أبو عمر بن عبد البر (ابن عبد البر)

، ١٧٤، ١٧٠، ١٤١، ١٤٠، ١٣٦، ١٢٧، ١١٢، ٤٢، ٢١، ٢٠

عمر بن عبد العزيز

، ٣٦٣، ٣٦١، ٣٤٠، ٣٣٦، ٢٦٩، ٢٦١، ٢٥١، ١٩٥، ١٨٤

٣٩٥، ٣٨٦، ٣٨٠

٢٤٩، ٢٤٨

عمر بن هبيرة

٤٣٣

عمرو بن أسد

٤٤٤

عمرو بن أمية الضمري

٢٦٤، ١٩٤

عمرو بن الأهنم

٣٥٣

عمرو بن صفوان

٤٤٢، ٤٤٠، ٣٠٣، ١٦٧، ١٣٢

عمرو بن العاص

٢٢٧

عمرو بن عبيد

٣١١

عمرو بن ميمون

٣٣٣

ابن العميد

٣٠٤

أبو عنبة

، ٣٢٢، ٣٢٠، ١٥٨، ١٤٩، ١١٨، ١٠٤، ٩٠، ٧٤، ٧٣، ٦٦

عيسى عليه السلام

٤٤٤، ٤٤٢، ٤٣٦، ٤٣٢، ٤٢٥، ٣٦٦، ٣٣٥، ٣٢٥

١٨٩

عيسى بن حماد

٤٣٠

غالب بن فهر

٤٦٩، ٤٣٣، ١٩٧، ٣٤

فاطمة بنت الرسول ﷺ

| | |
|---|----------------------------|
| ٣٥٣ | أبو فراس (الحمداني) |
| ٣٤٠، ١٢٣ | أبو الفتح (البستي) |
| ٣٥١، ٢٩٠ | الفرزدق |
| ٣٣٤، ٣٢٥ | الفضل بن سهل |
| ٤٣ | الفضل بن العباس |
| ٢٤٢، ٢٣٦ | الفضل بن يحيى |
| ٢٤٢ | فُضَيْل (رجل عامي) |
| ، ٣١٧، ٣١٦، ٢٩٧، ٢٢١، ١٥٨، ١٤٨، ١٣٠، ١١٩، ١١٢ | الفضيل بن عياض |
| ٣٦٢، ٣٢٢ | |
| ٤٩ | القاسم |
| ٥٢ | ابن القاسم |
| ٤٣٣ | القاسم ابن رسول الله ﷺ |
| ٤٢٢، ٣٦٦، ١٣٢ | قتادة |
| ٢٠ | أبو قتيبة |
| ٤٦٨ | قثم بن العباس |
| ٤٥٢، ٤٥١، ٤٤٩، ٤٤٨، ٤٤٧، ٤٤٦، ٤٤٥، ٣٤٨، ٦٥ | قس بن ساعدة |
| ٤٢٣ | قصي بن كلاب |
| ٢١١ | القلمّس بن عوف |
| ٢٦١، ٢٤٧ | ابن قيس الرقيات (عبد الله) |
| ٢٥٨ | قيس بن سعد بن عبادة |
| ١٩١، ١٥٣ | قيس بن عاصم المنقري |
| ٤٠٢، ٣٥٣ | كثير |
| ٤٢٩، ٤٢٧، ٣٧٧، ٢٤١، ٢٢٥، ١٩٨، ١٩٠، ١٦٧، ١٣٧ | كسرى |
| ١٢٤ | كسرى بن هرمز |
| ، ٣١٥، ٣٠٠، ٢٨٩، ١٨٠، ١٧٨، ٨٧، ٨٦، ٨٣، ٣٣، ٢٣ | كعب الأحبار |
| ٤٧١، ٣١٦، ٣١٥ | |
| ٣٩٨ | كعب بن سور الأسدي |
| ١٨٣ | كعب بن عُجْرة |
| ٤٢٠ | كعب بن لؤي بن غالب |
| ٤٧٩ | كعب بن مالك |

| | |
|--|--------------------------|
| ٢٣٧ | الكلبي |
| ٤٣٣ | أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ |
| ١١٠ | كلثوم بن عاص |
| ٣٤٧ | الكميت |
| ٤٢١ | كنانة بن خزيمة بن مدركة |
| ٤٥٠، ٤٣٢، ٣٤ | اللات والعزى |
| ٣٩٤ | لؤلؤة |
| ٣٥٩ | ليد |
| ١٦٨ | ليد العجلي |
| ١٤٨، ١٣٥، ١٢٠، ١١٩، ١٠٥، ٨٨، ٥٥، ٥٤، ٣٩ | لقبان |
| ٣٦٣، ٣٥٠، ٢٤٥، ٢٢٧، ٢٢٤، ٢٢٠، ١٩٥، ١٨٩، ١٦٢ | |
| ٤١٠، ٤٠٩، ٣٨٩، ٣٧٧ | |
| ٢٦٢، ١٨٩، ١٢٨ | الليث بن سعد |
| ٣٩٦ | ابن أبي ليلى |
| ٢٢٩، ٢٠٤، ١٨٦، ١٧٤، ١٧٣ | المأمون (الخليفة) |
| ٤٣٣ | مارية القبطية |
| ٤٧٠، ٤٦٦، ٣٥٩، ٢٨٨، ٢٦٢، ٦٩، ٥٣، ٥٢ | مالك بن أنس |
| ٤٢١، ٣٨٢، ٣٨١ | مالك بن أوس بن حارثة |
| ١٥٤، ١٥١، ١١١ | مالك بن دينار |
| ١٦٩ | مالك بن نويرة |
| ٣٤١ | المبرد |
| ٢٠٦، ١٦٩ | متمم بن نويرة |
| ٣٦٧، ٣٦٤، ٣٠٣، ١٩٠، ١٨٢، ١٠٦، ٨٧، ٧٥ | المتنبى (أبو الطيب) |
| ٢٦٧ | مجاهد |
| ٤٢٢، ٣٣٥، ٣١٨، ٣١٤، ٩٥، ٨٠ | مجاهد |
| ٣٠، ٢٩، ٢٧، ٢٦، ٢١، ١٦، ١٥، ١٤، ١٣، ١٢، ٧، ٦، ٣ | محمد رسول الله ﷺ |
| ٥١، ٥٠، ٤٩، ٤٨، ٤٧، ٤٦، ٤٥، ٤٣، ٤٢، ٣٨، ٣٤، ٣٣ | |
| ٧٢، ٦٧، ٦٥، ٦٤، ٦٣، ٦٢، ٦٠، ٥٧، ٥٦، ٥٥، ٥٤، ٥٣، ٥٢ | |
| ١٠٩، ١٠٨، ١٠٧، ٩٨، ٩٥، ٩٢، ٩١، ٩٠، ٨٨، ٨٥، ٨٢، ٧٤ | |
| ١٤٠، ١٣٨، ١٣١، ١٢٨، ١٢٧، ١٢٤، ١٢٣، ١٢٢، ١٢٠، ١١٨ | |

١٤١، ١٤٣، ١٤٤، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٢،
 ١٦٣، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨١، ١٨٣، ١٨٧، ١٨٨،
 ١٩٣، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٥، ٢١٧، ٢٢٠،
 ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦،
 ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٥٤، ٢٥٥،
 ٢٧١، ٢٧٥، ٢٧٧، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩،
 ٢٩٦، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣١١،
 ٣١٢، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٨، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٢٨، ٣٢٩،
 ٣٣٢، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤٤، ٣٤٦، ٣٤٧،
 ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٦، ٣٩٠، ٤٠٣، ٤٠٨،
 ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٨، ٤١٩،
 ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٧، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤،
 ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٤، ٤٤٦،
 ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨،
 ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠،
 ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٩، ٤٨٢، ٤٨٨، ٤٩١

١٧٢، ١٠٩

محمد بن بشير

٣٩٤

محمد التغلبي

٦٩

محمد بن أبي حازم

١٩٧، ٣٦١، ٤٠٤

محمد ابن الحنفية

٣٥٣

محمد بن داود

١٩٨

محمد بن زياد

٢٢٧

محمد بن عبدالله بن حسن

٢١١

محمد بن عطار التميمي

٣٦١، ٤٠٤، ٤٢٢

محمد بن علي

٨١

محمد بن علي بن الحسن

٤٦٥

محمد بن قيس

١٩٦

محمد بن كناسة

١٥٣، ٢٦٩

محمد بن المنكدر

١٥٤

محمد بن واسع

٣٧٣

محمد بن يوسف (أخو الحجاج)

| | |
|--|------------------------------------|
| ٣٦٩،٧٢ | عمود الباهلي |
| ٢٩٥ | عمود بن عمير |
| ٣٧٨،٣٦٥،٢١٧،٩٥،٨٣ | عمود الوراق |
| ٤٢٧ | مخزوم بن هانى المخزومي |
| ٢٥٦ | المدائني |
| ١١٢ | المرادي |
| ٢٦١ | أبو مرثد |
| ٢٧٢،٢٥٩ | مروان بن أبي حفصة |
| ٤٤٤،٤٤٢ | مريم البتول عليها السلام |
| ١٦٩ | أبو مريم السلولي |
| ١٨٤ | مزااحم |
| ٣٧٥،٧٧ | المستوغر السعدي |
| ١٩٥ | أبو مسلم |
| ٢٥٣،٢٠٥ | مسلم بن قتيبة |
| ٢٤٠ | مسلم بن الوليد |
| ٣٩٥،٢٦٢ | مسلمة بن عبدالمك |
| ٢٨٥ | المسور بن مخرمة |
| ٣٠ | المسيب بن زهير |
| ٤٠٢،٣٨١،٢٤٧،٦٠ | مصعب بن الزبير |
| ٣٥٣ | المصعب الزبيري (عم الزبير بن بكار) |
| ٣٣٢،٣٢٨،٣١٨،٢٩٦ | معاذ بن جبل |
| ١٩٩،١٩٧،١٩٦،١٩١،١٨٣،١٨١،١٧٨،١٧٧،١٥٣،١٣٢ | معاوية بن أبي سفيان |
| ٣٠٥،٣٠٤،٢٩٩،٢٩٣،٢٤٩،٢٠٤ | |
| ٢٦٢ | معاوية بن عبد الرحمن |
| ٣١٢ | معاوية بن قررة |
| ٣٢٥ | معبد بن زرارة |
| ٢٢٧،٢٢١،١٦٨،١٣١،١١٠،٧٩،٧٥،٧٢،٦٦،٤٤،١٩،١٨ | ابن المعتز (عبدالله) |
| ٣٧٠،٣٠٧،٣٠٠ | |
| ٢٠٣،٢٠٢،٤٠ | المتعصم (الخليفة) |
| ٢٦٩ | المعتمر |

| | |
|--|--------------------------------------|
| ١٦١ | ابن المعذل (عبد الصمد) |
| ٤٠٣ | ابن المعذل (أحمد) |
| ٩٧ | معروف العجلي |
| ٣٤٦ | معن بن أوس |
| ٢٦٠، ٢٥٩، ١٩٨ | معن بن زائدة |
| ١٨٩ | ابن المغيرة |
| ٤٦٦، ٢٩٣ | المغيرة بن شعبة |
| ٣٦٠ | المفضل |
| ٣٩٠، ٣٧٧، ٢٤٨، ٢٢٤، ١٢٤، ١٢١ | ابن المقفع |
| ٣٥٩ | ابن أبي مليكة |
| ٢٢٨، ١٩٣ | المتصر (الخليفة) |
| ٤١٠، ٣٩٧، ٣٩٦، ٢٢٧، ٢٠٣، ١٤٥، ٣٠ | المنصور (أبو جعفر الخليفة) |
| ٨٣ | منصور بن إسماعيل المصري |
| ٢٥٠ | منصور بن زياد |
| ٣٨١، ٢٤٧، ١٤٦، ١٤٥ | المهدي بن أبي جعفر المنصور (الخليفة) |
| ٩٤ | ابن مهران |
| ٣٠٢، ١٩٤ | المهلب بن أبي صفرة |
| ٤٢٨، ٤٢٧ | المويزان |
| ٣١١، ٢٣٤، ٢٢٦، ١٨٤، ١٠٨، ١٠٣، ٥٦، ٥٢، ٤٧، ٣٦، ١٣ | موسى عليه السلام |
| ٤٣٦، ٤٣٥، ٣٧٥، ٣٤٣، ٤٤١، ٣٣٥، ٣٣٢، ٣١٦ | |
| ٢٠١، ١٧٤ | موسى الهادي (الخليفة) |
| ٤٣٢، ٤٣١ | ميسرة |
| ٣٨٦، ٢٢٤، ١٣٨ | ميمون بن مهران |
| ٣٩٤ | ميمون |
| ١٢ | ميمونة |
| ١٩٣ | الناطقة الجعدي |
| ٤٣٩، ٤٢٠ | نافع بن جبير |
| ٤٤٥، ٤٤٤، ٤٤٣، ٤٤٢، ٤٤١، ٤٤٠، ٣٣٥ | النجاشي (أصحمة) |
| ١٣٣ | ابن أبي نجيع |
| ٤٣١ | نسطور |

| | |
|--|---------------------------|
| ٢٦٢، ٣١، ٣٠ | نصيب |
| ٤٧٥ | النعمان بن بشير |
| ٤٢٨ | النعمان بن المنذر |
| ٤٣٦ | نفيسة بنت منبه |
| ١٤٨ | أبو نواس |
| ٤٢٣، ٤٢٢، ٧٢ | نوح عليه السلام |
| ٣٣٢ | هارون عليه السلام |
| ٤٣٧ | هلائع المخزومي |
| ٤٠٥ | ابن هبيرة |
| ٤٦٠، ٤٥٩، ١٣٢ | هرم بن حبان |
| ٢٢٥، ٧٦، ٣٠ | هرمس |
| ٤٧٤، ٤٥٤، ٤٤٥، ٤٣٨، ٣٩٠، ٣٣٩، ٣٩٤، ١٩٣، ٤٤ | أبو هريرة |
| ٢٥٥ | هشام بن العاص |
| ١٧٢، ١٧٦، ٣٩ | هشام بن عبد الملك |
| ٤٣٧ | هشام بن عروة |
| ٤٠١ | هشام بن مرة |
| ٨٧ | همام |
| ٤٨١ | هند بنت عبد المطلب |
| ٣٠٥ | هند (بنت عتبة، أم معاوية) |
| ١٧٧ | أبو وائل الثقفي |
| ٦٢ | الواتق (الخليفة) |
| ٤٤٠، ٣٣٥، ٢٧٠ | الواقدي |
| ٤٣٧، ٤٣٦، ٤٣٥ | ورقة بن نوفل |
| ٣١٥، ٢٦٨ | ابن وكيع |
| ٨٩ | أبو الوليد الباجي |
| ٢٠٥، ١٨٤ | الوليد بن عبد الملك |
| ٢٨٥ | الوليد بن عتبة |
| ٤٢٢، ١٧٨، ١٣١ | وهب بن منبه |
| ٧٢ | وهب بن الورد المكي |
| ٣١٥، ١٧٣ | يحيى بن أكرم |
| ٥٣١ | ١٨ * الذخائر والأعلاق |

| | |
|---------------------------------------|----------------------------|
| ٣٦٠، ٢٥٣، ٢٥٠، ١٩٦ | يحيى بن خالد |
| ٢٦٧ | يحيى بن زكريا عليها السلام |
| ٢٦٥ | يحيى بن طلحة |
| ٤٠٥، ٢٩٨، ١٥٨، ١٥٤، ١٤٩، ١٤٨، ١٤٤، ٩٩ | يحيى بن معاذ |
| ١٤٠ | يحيى بن منصور |
| ١٩٤ | يزيد بن الحكم |
| ٣٧٤ | يزيد الرقاشي |
| ٢٠٥، ٢٠٤ | يزيد بن أبي مسلم |
| ٤٢٤، ٢٩٣، ٢٠٤، ١٧٨، ١٧٧ | يزيد بن معاوية |
| ٢٦١، ١٢٥ | يزيد بن المهلب |
| ٢٢٤ | يزيد بن ميسرة |
| ٣٦٢، ١٢١، ٤٧ | يعقوب عليه السلام |
| ٣٦٢ | يوسف عليه السلام |
| ٧٦ | أبو يوسف القاضي |
| ٣٧٠ | يونس النحوي |

فهرس الأوامر والطوائف والجماعات

| | |
|--------------------|----------------------------|
| ٢٠ | أبناء الرشيد |
| ٢١٥ | أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث |
| ٢٤٧ | أصحاب المختار (الثقفي) |
| ٤٦٨، ٢٥٥، ٢٥٤، ١١٨ | الأنصار |
| ٢٠٣ | أهل البصرة |
| ٤٦١ | أهل البطائح |
| ٢٠ | أهل الحجاز |
| ٤٣٩ | أهل الطائف |
| ٤٥٧ | أهل الكوفة |
| ٤٤٧ | إياد |
| ٣١٦، ١٨٤، ١٥٨، ٣٦ | بنو إسرائيل |
| ٤١٩، ٢٤١، ١٧٢ | بنو أمية |
| ٤٥٣، ٢٦١، ٢٠٤ | بنو تميم |
| ٤٢٦، ٣٥٣ | بنو جحج |
| ٤٧٥ | بنو ساعدة |
| ٣٧٨ | بنو سعد |
| ٣٨٤ | بنو سليم |
| ٣٨٤ | بنو ضبة |
| ٢٣٥ | بنو عامر بن صعصعة |
| ٢٢٩ | بنو عباد (حكام إشبيلية) |
| ١٢٧ | بنو العباس |
| ٤٢٥، ٤٢٠ | بنو عبد المطلب |
| ٣٣٨ | بنو عبس |
| ٢٣٣ | بنو العنبر |
| ٤٦١ | بنو كنانة |
| ٣٢٥ | بنو مخزوم |
| ٤٤٧ | ثمود |
| ٤٢٣، ١٨٠ | جرهم |

| | |
|-----------------------------|------------|
| ٤٥٤ | جهينة |
| ٤٢٩ | الخبث |
| ٤٤٧ | الحواريون |
| ٤٥٤ | خنعم |
| ١٥٢ | الدهرية |
| ٤٥٦ | ربيعة |
| ٤٥٥ | سعد بكر |
| ٤٥٥ | سعد نجيم |
| ٤٥٥ | سعد فهد |
| ٤٣٠ | السوفيات |
| ٤٤١،٤٠٠،٣٤٦،١٤٩،٣٨،١٣ | الصحابه |
| ٢٣٩ | طبر |
| ٤٤٩،٤٤٥ | هد القيس |
| ٤٤٧ | عاد |
| ٤٢٣ | الصالحه |
| ١٨١ | فسان |
| ٣٧٧،٣٢٧،٢٢٢،١٦٧،١٠٦ | الفرس |
| ٣٤١،٣٣٥،٣٠٦،٣٠٤،٢٥٧،١٣٣،٣٤ | قريش |
| ٤٣١،٤٢٦،٤٢٥،٤٢٣،٤١٩،٤١٦ | |
| ٤٦٤،٤٦٣،٤٥٥،٤٤٠،٤٣٩،٤٣٣،٤٣٢ | |
| ٣٣٥ | قوح نوح |
| ٤٢٥ | المجوس |
| ٢٢٩ | الغرابطون |
| ٤٢٨ | المرابيه |
| ٤٥٦،٤٥٣،٤٠٨ | مُصر |
| ١٨٩ | ملوك الفرس |
| ٤٧٥،٤٦٨ | المهاجرون |
| ٤٢٥ | النصارى |
| ٢٤٨،٢٣٧ | هوازن |
| ٤٣٦،٤٣١،٤٢٥،٤١٨ | اليهود |

فهرس الأماعن والبلدان

| | | | |
|------------------------------|-----------------|--------------------|-----------------|
| ٤٢٩، ٤٢٧ | ساوة (بحيرة) | ٤٥٥ | أبو قيس |
| ٤٧٥ | سقية بني ساعة | ٣٥٣ | أجباد |
| ٤٢٨ ، ٤٢٤ ، ٤١٦ | الشام | ٢٢٩ | إشيلية |
| ٤٣٢ ، ٤٣١ ، ٤٢٩ | | ٤٣٠، ٤٢٩ | أنقى |
| ٤٧٥، ٤٣٦ | | ١٧٢ | الأنلس |
| ٤٥٩، ٢٠٣ | شاطح القرات | ٤٢٧ | إيران كسرى |
| ٢٣٦ | شحر عمان | ١٩٦ | باب الشام |
| ٤٣٩ | الطائف | ٢٤٦ | بئر زمزم |
| ٤٣٠، ٣٨٩ | عدن | ٤٣٢، ٤٣١ | بُغرى |
| ٣٢٦ | العراق | ٣٩٨، ٣٢٦، ٢٦٢، ٢٠٣ | البحرة |
| ٤٣٤ | غار حراء | ٤٦١ | البطائح |
| ٤١٦ | غصان (قصر) | ٣٨٩ | بلاد الروم |
| ١٧٢ | قرطبة | ٤٢٤، ٣٧ | بيت الله الحرام |
| ٤٣٨ | قون الثعالب | ٤١٣ | تبوك |
| ٤١٦ ، ٢٥٨ ، ١٧٠ | الكعبة | ٤٥٠، ٤١٨ | تامة |
| ٤٢٤ ، ٤٢٠ ، ٤١٩ | | ٢٠٧ | بئير (جبل) |
| ٤٥٤، ٤٢٥ | | ٤٧٤، ٤٥٤ | جبل جهنة |
| ١٧٢ | كورة جيان | ٤٢٩ | جرش |
| ٤٥٧ | الكوفة | ٤٢٤ | الجزيرة العربية |
| ٤٥٥ | المدائن | ٣٣٥ | الجودي (جبل) |
| ٣٥٩، ٣٥٧، ٢٨٥، ٢٥٧ | المدينة المنورة | ٤٤٣، ٤٤٢، ٤٤٠ | الحبشة |
| ٤١٥، ٤٠٠، ٣٨١، ٣٧١ | | ٢٣٦ | الحجاز |
| ٤٧٢، ٤٧٠، ٤٦١، ٤٥٦ | | ٣٤ | الحجر |
| ٤٧٤ | مسجد قباء | ٤٥٤ | الحيرة |
| ٢٦٢ | مصر | ٢١٦، ١٤٩، ١١١ | خراسان |
| ٤٢١، ٤١٥، ٣١٥، ١٨٠ | مكة المكرمة | ٤٢٧ | دجلة |
| ٤٣١، ٤٢٦، ٤٢٣، ٤٢٢ | | ٣٥٣ | ردم بني جمع |
| ٤٣٢، ٤٣١، ٤٢٣، ٤٢٢، ٤٢١، ٤٢٠ | | ٢٥٤ | الري |
| ٤٦٢، ٤٥٩، ٤٥٨، ٤٥٧ | | | |

| | | | |
|--------------------|------------|-----|--------------|
| ٤٢٩ | وادي سهاوة | ٤٣٠ | نجران |
| ٤٥١ | وادي سمعان | ٢٧٥ | نعمان (عرفة) |
| ٤٥٤، ٤٢٥، ٤٢٤، ٤١٩ | يثرب | ٤٣٦ | نينوى |
| ٤٣٠، ٣٣٢، ٢٣٦، ١٨٤ | اليمن | ٣٧٩ | هجر |
| ٤٥٧ | | | |

فهرس الأعوام والأيام

| | |
|---------------|-------------|
| ٤١٥ | عام الفيل |
| ٣٣٦، ٣٣٥، ١٣٦ | يوم بدر |
| ٢٥٤ | يوم اليرموك |
| ١٦٩ | يوم البيامة |

المجتب الوارطة فح متن المجتاب

| | |
|------------------------------|------------------------------|
| ٤٣٧، ٤٣٤، ٢٩٨، ٢٢٩ | الإنجيل |
| ٤٣٧، ٤١٥، ٣٤٣، ٣٠٠، ٢٣٩، ٢٢٩ | التوراة |
| ٢٢٩، ١٨٣، ١٦٥ | الزبور |
| ٤٣٤ | صحف إبراهيم |
| ٤٤٦ | الموطأ (للإمام مالك) |
| ٣٨٩ | التزهة والأخبار (لابن شاهين) |

فهرس التتھر

| الصفحة | القائل | عدد الأبيات | البحر | القافية | اول البيت |
|--------|--------------------|----------------|--------|-----------|--------------|
| ٤٤ | الباھلي الإشبيلي | ٤ | الطويل | للھوی | إذا شنت |
| ٣٩٠ | الناسخ | ١ | الطويل | الغنى | وجود |
| ١٦٨ | ابن المعتز | ١ | المجتث | ييقى | الدين بالملك |
| ٢٩٠ | صالح بن عبد القدوس | ٢ | الطويل | ماؤه | إذا قلّ |
| ٢٦٣ | صالح عبد القدوس | ٢ | الطويل | سخاؤه | ويظهر عيب |
| ١١٣ | سابق البربري | ١ | البيسط | الماء | الماء يغسل |
| ١٩١ | - | ١ | البيسط | إغضاء | للحلم شاهد |
| ٢١٣ | سابق البربري | ١ | البيسط | الداء | وليس للجھل |
| ٢٨٨ | - | ١ | الوافر | تشاء | إذا لم |
| ٢٨٨ | - | ٢ | الوافر | الحياء | ورب قبيحة |
| ٢٤٧ | ابن قيس الرقيات | ٣ | الخفيف | الظلماء | إنما مصعب |
| ٢٦١ | ابن قيس الرقيات | ١ | الخفيف | عطاء | والذي |
| ٣٣٣ | ابن العميد | ٢ | الكامل | الوزراء | هيئات |
| ٣٥٤ | بشار بن برد | ٣ | الطويل | لا تعاتبه | إذا كنت |
| ٣٦٥ | - | ٢ | الطويل | جانب | ومن عادة |
| ٣٥٣ | كثير | ٢ | الطويل | عاتب | ومن لم |
| ٣٤٩ | البحثري | ٢ | الطويل | لا تناسبه | يخونك |
| ٣٤٧ | الكميت | ١ | الطويل | معتب | ألا إن خير |
| ٣٠٣ | - | ٢ | الطويل | يُعصب | ولا تفشين |
| ٢٩٧ | - | ٤ | الطويل | مذاهبه | إذا ساء |
| ٢٣٨ | - | ٢ | الطويل | جديب | أضاحك |

| | | | | | |
|-----|-------------------|---|--------------|----------|-----------------|
| ١٣٧ | ابن الحارث | ١ | الطويل | تنوَّب | ولا خير |
| ٢٠١ | عثمان بن عفان | ١ | الطويل | الذنبُ | إذا ما امرؤ |
| ١٢٧ | عمارة بن عقيل | ١ | الطويل | يُحسبُ | ترى كل |
| ٩١ | - | ١ | الطويل | يتقلبُ | وما سقي |
| ٩٣ | الباهلي الإشبيلي | ٣ | الطويل | شوائبُ | إذا ما صفت |
| ٤٣ | الفضل بن العباس | ٢ | الطويل | ليبُ | لقد تحكم |
| ٦٠ | المهليبي | ١ | الطويل | معابية | ومن ذا |
| ٦٧ | الباهلي الإشبيلي | ٤ | البيسط | يُتخبُ | أجل ما |
| ٣٥١ | - | ٦ | البيسط | يُكسبُ | يخفي |
| ٨٧ | البحري | ١ | البيسط | سبُ | وربما كان |
| ١٤١ | - | ٥ | الوافر | الرحيبُ | إذا اشتملت |
| ٢٨٢ | - | ٢ | الكامل | جانبُ | تبا لمن |
| ١٥٣ | قيس بن عاصم | ٣ | الطويل | ثعلبا | يسودُ |
| ٢٥ | - | ١ | الطويل | صعبا | عليك بأوساط |
| ٢١٢ | - | ١ | الكامل | تلهباً | أمتن بعلمك |
| ٧٤ | الناشي | ٢ | الكامل | صواباً | وإذا بليت |
| ١٢١ | - | ١ | مجزوء الكامل | قلبا | العبد أصبر |
| ٣٤٣ | - | ٣ | مشطور الرجز | المهذباً | متى تصيب |
| ١٠١ | - | ٤ | الخفيف | أنا باً | أنت أهمت |
| ٣٤٨ | إبراهيم بن العباس | ١ | الطويل | وائبُ | صغيفك |
| ١٢٥ | الباهلي الإشبيلي | ٣ | الطويل | صاحبُ | إذا كنت صباراً |
| ١١٣ | - | ٤ | الطويل | قُرْبُ | فيا أيها العاصي |
| ٤١ | - | ٤ | الطويل | الربُّ | إذا شئت |
| ٥٢ | الشبلي | ٢ | الطويل | تجاربُ | لقاء |
| ٢٤ | الباهلي الإشبيلي | ٤ | الطويل | جانبُ | إذا كان |
| ٦٢ | - | ٢ | البيسط | أبُ | وللعلم فضل |
| ١٥٤ | - | ١ | البيسط | حسبُ | والمرء يخفي |

| | | | | | |
|-----|---------------------|----|--------------|----------|--------------|
| ٢٢٥ | أبو العباس المري | ١ | البيط | الكذب | إن التوم |
| ٢٢٥ | - | ٢ | البيط | الأدب | لا يكذب |
| ٣٤٩ | - | ٢ | البيط | تجريب | لا تمدحن |
| ٤٨٤ | الباهلي الإشبيلي | ٥١ | الوافر | التراب | محمد النبي |
| ٣٥٠ | ابن الرومي | ٢ | الوافر | الصحاب | عدوك |
| ٢٠٨ | - | ٢ | الوافر | الجواب | وماشيء |
| ٣٥٩ | ليد | ١ | الكامل | الأجرب | ذهب للذين |
| ٣١٣ | - | ٤ | الكامل | الكذاب | ما أتبع |
| ٢٥٢ | - | ١ | الكامل | المتغابي | ليس النبي |
| ٢٤٥ | البحري | ١ | الكامل | رؤيه | من لا يقوم |
| ١٣٢ | مروم بن حيان | ١ | الكامل | الصعب | الحكم زين |
| ٣٦٧ | المتبي | ٥ | السرير | شؤره | نحن بنو |
| ٢٢٧ | عبد الوهاب | ٢ | المنسرح | أدب | أدبت نفسي |
| ٢١٩ | - | ١ | المنسرح | المعطب | أصدق وإن |
| ٣١ | عبد الوهاب | ٢ | المنسرح | أدبه | ما واهب |
| ١٩ | ابن المعتز | ١ | المتقارب | ألباها | وما يُنتقص |
| ٨٨ | - | ٤ | مجزوء الكامل | النائب | كم نعمة |
| ٣٢ | الباهلي الإشبيلي | ١٠ | مجزوء الكامل | لطالب | للعقل |
| ٤٤ | - | ٢ | الوجز | باب | وقد أصاب |
| ١٩٣ | - | ١ | الرميل | الغضب | ليست الأحلام |
| ٢٩١ | - | ٢ | المتقارب | الوجيب | لقاء الحبي |
| ١٧٥ | - | ٣ | المتقارب | وجبه | تجيب |
| ٣٩ | الشافعي | ٢ | المتقارب | والصواب | إذا جال |
| ٣٥٨ | ابن الرومي | ٢ | الطويل | عطرات | أرى الشعر |
| ٩٦ | - | ٢ | الطويل | حياتها | وكم من قس |
| ٢٠٣ | تميم بن جميل الأوسي | ٩ | الطويل | لا أتلق | أرى الموت |
| ٢٠٨ | - | ٣ | الوافر | السكوت | إذا نطق |

| | | | | | |
|-----|-------------------------|---|--------------|---------|--------------|
| ٢٦٥ | الباهلي الإشبيلي | ٨ | الكامل | هبأته | إن الجواد |
| ٣٦٨ | أبو العتاهية | ٢ | السرّيع | القوّت | اسمع |
| ٣٦٩ | عمود الباهلي | ٢ | الطويل | تولّت | ألا إنما |
| ٣٥٦ | الشافعي أو أبو العتاهية | ٣ | الطويل | عشراتي | أحبّ من |
| ٢٦٤ | بكر بن النطاح | ٦ | الطويل | صلّاتيه | أقول لمرتاب |
| ١٢٨ | عثمان بن عفان | ٦ | الطويل | جلّت | خليليّ |
| ٣٨٥ | - | ٥ | البيسط | جنات | كنا كفصنين |
| ٣٤٥ | - | ١ | البيسط | المدارة | مادمت |
| ١٣٨ | الباهلي الإشبيلي | ٣ | مجزوء الكامل | الشامت | لا تمجّ عنّ |
| ١٤٠ | - | ٣ | الرجز | العلايت | من فاته |
| ٢٨٢ | - | ٢ | الكامل | حوادث | أخلق بمن |
| ٤٠٥ | - | ٢ | الطويل | يتقرّجا | واني لأدعو |
| ١٢٩ | ابن الرومي | ١ | الكامل | توجّه | وإذا أتاك |
| ٣٨ | ابن دريد | ١ | الرجز | نجا | وأفة العقل |
| ١٧٨ | - | ١ | الطويل | تروخ | وما العيش |
| ٣٢٧ | - | ١ | الطويل | تمدّح | وما شرف |
| ٧٧ | الباهلي الإشبيلي | ٢ | البيسط | جمّحا | ما زال من |
| ٢٠٠ | - | ٢ | مجزوء الرمل | صحيحا | فأصيحّ للعذر |
| ٢٤٠ | - | ٤ | الخفيف | الصلاحا | حسن ظني |
| ٣٠٣ | علي بن أبي طالب | ٢ | المقارب | نصيحا | ولا تُفش |
| ٣٥٣ | أبو فراس | ٢ | الخفيف | الصحيح | لم أواخذك |
| ٧٩ | - | ٢ | الرمل | صلخ | أدب المرء |
| ٣٥١ | - | ٢ | الطويل | مساعد | مهموم |
| ١٥٤ | - | ١ | الطويل | الأباعد | إذا قل |
| ٤٦٢ | - | ١ | الطويل | عمد | فشقّ |
| ١٠٩ | محمد بن بشير | ٣ | الطويل | شهيّد | مضى أمسك |

| | | | | | |
|--------|----------------------|---|--------------|----------|----------------|
| ١٠٦ | المتنبي | ١ | الطويل | فوائدُ | بذا قضت |
| ٢٩ | - | ٢ | الطويل | وتنفذُ | إذا المرء |
| ٣٩٣،٧٧ | الأفوه الأودي | ٢ | البيسط | سادوا | لا يصلح |
| ١٧٣ | امرأة في عهد المأمون | ٣ | البيسط | البَلْدُ | يا خير |
| ٣١٠ | أبو تمام | ٣ | البيسط | الحسدُ | اعذر |
| ٣٥٩ | عروة بن أذينة | ٢ | البيسط | أتردُ | إذا وجدت |
| ٣٤٧ | الخوارزمي | ١ | الكامل | فيحمدُ | عدوى |
| ٢٣٩ | ابن الرومي | ١ | الكامل | بجوادُ | إن الذي |
| ١٢٧ | - | ٣ | الرجز | يُحمدُ | رأيت عبء |
| ٣٩٨ | - | ٦ | مشطور الرجز | أرشدُه | يا أيها القاضي |
| ٣٠٧ | - | ٢ | السريع | يكمدُ | لا باد |
| ٤٧٩ | كعب بن مالك | ٥ | الطويل | المقلدا | وباكية |
| ١٤٠ | يحيى بن منصور | ١ | الطويل | غدا | وأهون |
| ٣٧٩ | عبد الملك الجزيري | ١ | البيسط | وَجَدَا | من لم يدق |
| ٢٨٥ | - | ٣ | مخلع البيسط | سهدا | أف لمن |
| ٤٨١ | هند بنت عبد المطلب | ٦ | الوافر | النجودا | أفاطم |
| ١٥٤ | أبو الدرداء | ٢ | الوافر | أرادا | يريد المرء |
| ٧٥ | الحارث بن حلزة | ٢ | مجزوء الكامل | جدًا | وعش |
| ٣٦٩ | عدي بن زيد | ١ | الطويل | تفتدي | كفى زاجراً |
| ٣٤٨ | - | ١ | الطويل | الشدايدِ | وكل أخ |
| ٣٤٦ | عدي بن الرقاع | ٢ | الطويل | الرددي | إذا كنت |
| ٢٦٤ | - | ٥ | الطويل | الورد | أيا بنت |
| ٤٦٤ | أبو أنس الدوسي | ١ | الطويل | محمد | وماحلت |
| ٢٦١ | عدي بن الرقاع | ٢ | الطويل | يزيد | ولم أر |

| | | | | | |
|-----|------------------|---|--------------|---------|--------------|
| ٤٣ | عدي بن زيد | ٢ | الطويل | الردى | إذا كنت |
| ٢١ | - | ٢ | الطويل | العهد | عليكم |
| ٤٧٨ | حسان بن ثابت | ٦ | البيسط | المهادي | تالله |
| ٤٧٨ | حسان بن ثابت | ٩ | الكامل | لم يفقد | إن الرزية |
| ١٣٦ | الحارث بن هشام | ٤ | الكامل | عزيب | الله يعلم |
| ١٤٥ | أبو تمام | ١ | الطويل | بزاهد | إذا المرء لم |
| ٢٠٢ | - | ٢ | الطويل | القلائد | وما تقتل |
| ٢٣٩ | - | ٢ | البيسط | مجهودي | عنا إن أبالي |
| ٢٥١ | - | ١ | البيسط | الجود | لا تفسدون |
| ٣٠٧ | - | ١ | البيسط | عمود | عمسدون |
| ٣٤٠ | بشار بن برد | ١ | البيسط | عمود | لا تنكرون |
| ٣٧٤ | - | ٣ | الكامل | ليد | نصي |
| ٣٥٢ | الربيع | ٢ | الكامل | الأحقاد | طار |
| ٣٥٠ | - | ٢ | الكامل | تفقد | أبلى الرجال |
| ٣٠٧ | أبو تمام | ١ | الكامل | حسود | وإذا أراد |
| ١٤٦ | الباهلي الإسيطي | ٣ | الكامل | مشهد | رحم الإله |
| ٤٥٦ | - | ٣ | الكامل | المسجد | قل للقيائل |
| ٧٢ | عمود الباهلي | ٢ | مجزوء الكامل | كنه | لا تعجبين |
| ١٩١ | المتنبي | ١ | الخفيف | الميلاد | وإذا الحلم |
| ٤٢٦ | كعب بن لؤي | ٤ | الطويل | نهارها | نهار |
| ٣٦٢ | أبو عمران السلمي | ٢ | الطويل | يفغر | وأي لآتي |
| ٣٥١ | الفززدق | ١ | الطويل | الذخائر | لعمرك |
| ١٤٨ | - | ٢ | الطويل | تسير | ومن عجب |
| ١٣٥ | أبو العتاهية | ٢ | الطويل | أكبر | ترى الشيء |

| | | | | | |
|-----|--|---|--------------|-----------|---------------|
| ١٢٨ | أبو الربيع بن ضبيح أو عثمان بن عفان | ٢ | الطويل | الفقرُ | غنى النفس |
| ٧٦ | - | ٢ | الطويل | قبرُ | وفي الجهل |
| ٨٤ | محمود الوراق | ٤ | الطويل | الشكرُ | إذا كان شكري |
| ٤٢ | - | ٢ | الطويل | سترُ | إذا المرء |
| ٥٨ | الباهلي الإسيطي | ٦ | البيسط | نمرُ | يا طالب |
| ١٢٣ | سابق | ١ | البيسط | القنترُ | اصبر على |
| ١٥٩ | عثمان بن عفان | ٢ | البيسط | العازُ | تفى |
| ٣٣٦ | - | ١ | البيسط | معتبرُ | إن السعيد |
| ٣٦٣ | - | ٢ | البيسط | مقدورُ | جرى القضاء |
| ٢٤٦ | الرياشي | ٢ | الوافر | شكورُ | يد المعروف |
| ١٢٥ | - | ١ | الكامل | لا يهبرُ | وإذا هرتك |
| ٣٦٨ | أبو العتاهية | ٢ | الكامل | يفاخزه | يا مؤثر |
| ٣٦٥ | محمود الوراق | ٢ | السرير | يذبرُ | الدهر لا يبقى |
| ٤٨٢ | حسان بن ثابت | ٣ | المنسرح | نشروا | ثلاثة |
| ٢٤٩ | - | ٢ | المنسرح | كثروا | أصلحك |
| ٣٣٨ | - | ٣ | المنسرح | تشاوره | أصغف |
| ٤٤٨ | قس بن ساعدة | ٩ | الخفيف | نهارُ | عاود |
| ١١٣ | - | ٢ | مجزوء الخفيف | يضرها | لي نفس |
| ١٩٣ | الناطقة الجعدي | ٢ | الطويل | أن يكتروا | ولا خير |
| ٢٠٠ | - | ١ | الطويل | عُدرا | إذا ما |
| ٣٤٢ | ابن الرومي | ٢ | الطويل | قترا | وما الخفي |
| ٣٥٤ | - | ٢ | الطويل | حزرا | إذا شئت |
| ٣٦٧ | - | ١ | الطويل | هجرأ | ألا إنها |

| | | | | | |
|----------|-----------------------|----|--------------|---------|------------|
| ٣٠٤ | - | ٢ | مجزوء الكامل | مَرَّة | احذر عدوك |
| ٢٨٤ | - | ٣ | السريع | أوزارا | يا ناكث |
| ٩٥ | محمود الوراق | ١ | السريع | الآخرة | من شرف |
| ٤٢١، ٣٨٢ | أوس بن حارثة | ٩ | الطويل | الحجر | شهدت |
| ٣٦٩ | - | ٤ | الطويل | أمر | تفتن |
| ٢٦٣ | - | ٣ | الطويل | تفكري | أنوح |
| ٢٤٢ | - | ٢ | الطويل | الشكر | لعمرك |
| ٢٣٦ | - | ٢ | الطويل | البشر | إذا ما |
| ٢٠١ | - | ١ | الطويل | الأجر | فإن كنت |
| ١٩٨ | محمد بن زياد | ٢ | الطويل | التهاجر | تخالهم |
| ١٤٧ | - | ١ | الطويل | لا يدري | رأيت أبا |
| ١٣١ | ابن المعتز | ١ | الطويل | الصبر | ولا بأس |
| ١٢٤ | أبو سعيد | ١ | الطويل | الصبر | وإني لصبار |
| ١٠٢ | - | ١ | الطويل | البدر | إذا أنت لم |
| ١١٢ | المرادي | ٢ | البيسط | القدر | علمي بأن |
| ١٢٨ | تنسب لعلي بن أبي طالب | ٣ | البيسط | الأثر | إني رأيت |
| ١٧٧ | - | ٣ | البيسط | الأثر | الملك جسم |
| ٤٠٢ | - | ١ | البيسط | بأطهار | قوم إذا |
| ٤٣٥ | ورقة بن نوفل | ١٢ | البيسط | غير | يا للرجال |
| ٣١٦ | - | ٣ | الوافر | أنجر | تنح |
| ٣٣٧ | - | ١ | الوافر | يدري | وكم من |
| ٣١٥ | ابن وكيع | ٢ | الوافر | نار | ينم بسر |
| ١٩٩ | - | ٢ | الوافر | مؤيد | إذا اعتذر |
| ١٢٤ | - | ١ | الكامل | الصبر | اصبر إذا |

| | | | | | |
|-----|----------------------|----|--------------|---------|--------------|
| ٢٤٧ | سلم الخاسر | ٢ | الكامل | جعفر | قد بايع |
| ٢٧٢ | - | ٢ | الكامل | المبصر | أخِي |
| ٢٧٣ | أبو العتاهية | ٢ | الكامل | ظهري | أسدى البخيل |
| ٣٤٨ | حماد | ٣ | الكامل | يُسِر | كم من |
| ٨٧ | - | ١ | الرجز | كاره | كم مرّة |
| ٣٤٢ | الباهلي الإشبيلي | ٣ | السرّيع | أوعار | قل للذي |
| ١٣٦ | - | ٢ | السرّيع | الوزر | يا عجباً |
| ١٣٣ | رجل من قريش | ٢ | السرّيع | للقادر | الخلق للخالق |
| ٢٧٨ | - | ٣ | المنسرح | مصطير | وصادق الود |
| ٢٩٧ | سلم بن عمرو (الخاسر) | ١ | المنسرح | الخير | لا تسأل |
| ٢٠٠ | - | ٢ | الخفيف | أجري | اغتر زلتي |
| ٢٠١ | علي بن الجهم | ٣ | الخفيف | الأحرار | إنّ ذلّ |
| ٤٤٩ | قس بن ساعدة | ٥ | مجزوء الكامل | بصائر | في الذاهبين |
| ٤٤ | ابن المعتز | ١ | الرمّل | يستشاز | لم يفرّج |
| ٣٦٨ | أبو العتاهية | ٢ | المتقارب | الغَيْر | هي الدار |
| ٤٨٢ | الباهلي الإشبيلي | ٣٠ | المتقارب | البشر | سقى الله |
| ٤٦١ | - | ٧ | المتقارب | المطر | لك الحمد |
| ٣٤٢ | - | ٢ | الكامل | لباس | إن العيون |
| ١٢٣ | أبو الفتح | ١ | الطويل | لابس | ولم أر |
| ٢٤٧ | - | ١ | البيسط | الناس | من يفعل |
| ٧٨ | صالح بن عبد القدوس | ٣ | السرّيع | نفسه | ما تبلغ |
| ٣٤٧ | أبو بكر الخالدي | ١ | الكامل | مخلص | ما في زمانك |
| ٢٣ | - | ٢ | المتقارب | شخصه | وكم من |
| ١٢٧ | أبو نغم | ١ | الكامل | عوضاً | ما عوض |

| | | | | | |
|-----|--------------------|---|--------------|----------|----------------|
| ٤٠٦ | - | ١ | الطويل | صانع | وإني لأرجو |
| ٣٠٠ | ابن المعتز | ١ | الطويل | قاطع | ولا يستوي |
| ٤٧٧ | عبدالله بن أنيس | ٥ | الطويل | جامع | تطاول |
| ٢٦٠ | - | ١ | الطويل | شخيع | أبها جوه |
| ١٥١ | - | ٢ | الطويل | يوضع | لما توذن |
| ١٥٩ | الباهلي الإشبيلي | ٤ | البسيط | الخشع | مع التهافت |
| ٣١٧ | عبدية بن الطيب | ٢ | الكامل | المتنع | الحسن الذي |
| ٤٧٦ | عمر بن الخطاب | ٨ | الكامل | أثوق | حازلت |
| ٣٦٧ | - | ١ | الكامل | لا يتجدع | أحلام |
| ٢٧٣ | عبد الرحمن بن حسان | ٢ | الكامل | تشبعوا | لهم رأيت |
| ١٦٧ | - | ٢ | مجزوء الكامل | الجميع | يا أيها الملك |
| ١٢١ | ابن دويد | ١ | الكامل | تفتح | والنفس راغبة |
| ١٨ | علي بن أبي طالب | ٣ | المخرج | مسرور | والهت |
| ٧١ | - | ٧ | المتقارب | أجمع | أعاقو |
| ٣٣٩ | حاتم الطائي | ١ | الطويل | أجمعا | فإنك مها |
| ٢٤٧ | عتبة بنت عفيف | ٣ | الطويل | جانعا | لعمري |
| ٢٥٩ | الحسين بن مطير | ٣ | الطويل | مضجعا | فيا قبر |
| ١٥٧ | علي بن أبي طالب | ٣ | الوافر | القناعة | الفتحي القناعة |
| ٢٩٣ | الحصين الرقاشي | ٢ | الكامل | فأضاعها | إن المروءة |
| ٢٦٨ | - | ٤ | الرملي | واصطنعا | إني المال |
| ٩٠ | أبو الوليد الباجي | ٢ | المتقارب | كساعة | إني كنت أعلم |
| ٢٩٠ | - | ١ | الطويل | فأصنع | إني بهم |
| ١٢٢ | العباس بن الأحنف | ١ | الطويل | طابع | وإني إذا |
| ١٣٠ | الباهلي الإشبيلي | ٣ | البسيط | الجرع | عليك بالصبر |

| | | | | | |
|-----|---------------------|---|----------|---------|----------------|
| ١٣٨ | - | ٢ | البيسط | بمرتجع | لا تحز عنّ على |
| ٢٣٤ | - | ٢ | الكامل | المصنع | إن الصنعة |
| ١٧ | العباس بن الأحنف | ٢ | السرّيع | أوجاعي | قلبي |
| ٣٧٠ | - | ٣ | الطويل | أراف | جزى الله |
| ٢٣٨ | - | ٢ | البيسط | السرف | لا تبخلنّ |
| ٣٥٤ | الباهلي الإشبيلي | ٢ | المقاروب | أضعافه | عذرت |
| ٤٥٥ | - | ١ | الطويل | مخالق | فإنّ يسلم |
| ٤٥٥ | - | ٣ | الطويل | الغطارف | فيا سعد |
| ٦٢ | - | ٣ | المنسرح | الشرف | يا فاخر |
| ٤٦٤ | عثمان بن مطعون | ٧ | الطويل | واتق | ولا أرب |
| ٣٠٣ | المتبي | ٢ | الطويل | أحمق | إذا المرء |
| ٢٦٤ | عمرو بن الأهم | ٦ | الطويل | خليق | ذوي |
| ٤٥١ | قس بن ساعدة | ٣ | البيسط | خرق | يا ناعي |
| ٤٣ | صالح بن عبد القدوس | ١ | الكامل | أحمق | ولأن يعادي |
| ١٠٢ | - | ١ | الخفيف | الطريق | قلت للنفس |
| ٢٢٤ | - | ١ | الطويل | يصدّقاً | كذبت |
| ٢٢٤ | - | ٢ | الطويل | منافقا | وكن صادقاً |
| ١٤١ | صليمان بن عبد الملك | ١ | الطويل | مفارق | وقفت على |
| ١٤٨ | أبو نواس | ١ | الطويل | صديق | إذا امتحن |
| ٢١٨ | - | ٢ | الطويل | المفارق | عليك بقول |
| ٤٠٧ | - | ١ | البيسط | إشفاق | الله الّطف |
| ٣٠٤ | - | ١ | البيسط | العُتي | وقد أجود |
| ٣٥٠ | - | ١ | الوافر | الصدّيق | ولين تنفك |
| ٣٥٣ | - | ١ | الوافر | صديق | أغضض |

| | | | | | |
|-----|----------------------------------|---|-------------|---------|------------|
| ٤٣ | - | ١ | الوافر | الفسوق | ويغضك |
| ٧٥ | الشافعي | ٢ | الكامل | الأحقق | ومن الدليل |
| ١٣٥ | ابن الرومي | ١ | الكامل | مطاق | إن البلاء |
| ٣٤١ | - | ٤ | مجزوء الرجز | الطريق | يا لابساً |
| ٢٩٨ | الباهلي الإشبيلي | ٤ | المتقارب | اعتلق | إذا قدّم |
| ٤٠ | - | ١ | الكامل | هواكا | واعلم بأنك |
| ١٥٠ | أبو العتاهية | ٢ | الرجز | يكفيكا | إن كان |
| ٤٥٠ | - | ٩ | مشطور الرجز | ينبيكا | روسنان |
| ٣٧٣ | - | ٢ | الطويل | هنالك | فحسي |
| ٤٥٥ | - | ٣ | الطويل | تارك | شهجت |
| ٣٢٧ | - | ١ | البيسط | الماليك | صمعت |
| ٤٤٩ | - | ٨ | مشطور الرجز | الأراك | يا راقداً |
| ٣٤٤ | طاهر بن الحسين | ٢ | المتقارب | يعجبك | إذا أعجبتك |
| ٣٨٨ | علي بن الجهم | ٣ | الطويل | تعذل | هي النفس |
| ٤٣٥ | ورقة بن نوفل | ٤ | الطويل | مرسل | فإن يك |
| ٣٧٠ | ابن المعتز | ٣ | الطويل | مراحل | نسير |
| ٣٦٧ | - | ١ | الطويل | زائل | ألا إنها |
| ٣٤٦ | معن بن أوس | ١ | الطويل | يعقل | إذا أنت لم |
| ٢٦٩ | الحارثي | ١ | الطويل | جميل | إذا المرء |
| ٢٧٠ | إسحاق الموصلي | ٦ | الطويل | سبيل | وأمره |
| ٢٥٠ | أبو تمام | ١ | الطويل | أنامله | تعود بسط |
| ٢٤٩ | زهير بن أبي سلمى | ٢ | الطويل | فواضله | وأبيض |
| ٣٩ | عبدالمك بن مروان أو ابنه هشام | ١ | الطويل | مقال | إذا أنت لم |

| | | | | | |
|-----|-----------------------------|---|--------------|----------|---------------|
| ٣١ | الباهلي الإشبيلي | ٢ | الطويل | دلأئلُه | إذا تم |
| ٦٩ | ابن دريد | ١ | الطويل | مقائئلُه | ومن كان يهوى |
| ٧٥ | البحثري | ١ | الطويل | الجهلُ | أرى العلم |
| ٧٣ | ابن دريد | ١ | الطويل | جاهلئةُ | جهلت |
| ٥٩ | - | ٢ | الطويل | جاهلُ | تعلمَ فليس |
| ١٢٣ | - | ٤ | الطويل | يزوؤُ | أعزَّ نفوس |
| ١١٠ | ابن المعتز | ١ | الطويل | شاملُ | وما أبح |
| ١٤١ | - | ٤ | الطويل | معوؤُ | تعزَّ فإن |
| ١٩٤ | زهير بن أبي سلمى | ١ | الطويل | جاهلُ | إذا أنت لم |
| ٢٦٨ | - | ١ | البيسط | والبخلُ | بخلاً علينا |
| ٣٠٥ | - | ١ | البيسط | مبنوؤُ | لا يحفظ |
| ٤٧٨ | أبو سفيان بن الحارث | ٩ | الوافر | طوؤُ | أرقت |
| ٢٤٦ | إسحاق بن إبراهيم الموصلي | ٣ | الكامل | رجالُ | يبقى الشاء |
| ١٣٠ | - | ٣ | مجزوء الكامل | قائلُ | اصبر على |
| ٣٠٩ | - | ٦ | الرمل | أملئةُ | أيها الأمل |
| ٢١٧ | محمود الوراق | ٢ | السريع | العقلُ | القول ما |
| ٢٤٣ | صالح بن عبد القدوس | ٢ | الخفيف | بُجُلُ | لا تجد |
| ١٩٢ | الخريمي | ١ | الطويل | فاعلةُ | أرى الحلم |
| ١٢٩ | أبو العرب الصقلي | ٢ | الطويل | الأناملا | كان بلاد الله |
| - | - | - | الطويل | جهلا | أرى الدهر |
| ١٩ | - | ١ | الطويل | عقلا | إذا طال |
| ٥٨ | الباهلي الإشبيلي | ٤ | البيسط | فعلا | يا طالب |
| ٢٧٣ | - | ٢ | البيسط | علا | الله يعلم |

| | | | | | |
|-----|-------------------|---|-------------|----------|----------------|
| ٣٠٨ | - | ١ | البيسط | أسفلة | ولو بنى |
| ٢٥٩ | مروان بن أبي حفصة | ٤ | الوافر | تالا | مضى بسيله |
| ١٧٣ | - | ٤ | الوافر | مستقلا | أبيت اللعن |
| ٧٥ | المتبي | ١ | الكامل | صَقَلا | وحلاوة |
| ٤٠١ | - | ٦ | مشطور الرجز | ذلولاً | عدت |
| ٤٤٥ | الجارود بن المعلي | ٩ | الخفيف | قالا | بانيحي |
| ٢٩٥ | الأحنف | ٢ | المختارب | واصلا | فظو أنا |
| ٢٢٥ | - | ٢ | | حيلة | في حيلة |
| ٣٣٧ | - | ١ | الطويل | القتل | كرهت |
| ٣٢٧ | - | ٣ | الطويل | كماله | لعمرك |
| ١٩٦ | - | ١ | الطويل | نوفلي | يسود أقوام |
| ١٩٣ | الناشئ | ٣ | الطويل | بالجهلي | إذا كان حوني |
| ١٩٢ | محمد بن كنانة | ٢ | الطويل | المواصل | ولاني لأخضي |
| ١٢٩ | - | ١ | الطويل | حامل | كان بلاد الله |
| ٤٦٣ | أبو طالب | ٦ | الطويل | فاضل | أشتم |
| ٩١ | - | ٢ | الطويل | باطلي | إذا المرء أعطى |
| ٤٦٠ | - | ٤ | الطويل | الطفلي | أئيناك |
| ٤٦١ | أبو طالب | ٤ | الطويل | للأرامي | ولبيض |
| ٨٧ | المتبي | ١ | البيسط | بالعَلِي | لعل عتبك |
| ١٦٧ | أبو بكر بن الملح | ١ | البيسط | الحتلي | لو كان للشمس |
| | أحيحة بن الجلاح | ٢ | البيسط | المال | رزقت |
| ٢٩٥ | - | ٢ | الوافر | المعالي | إذا ما المرء |
| ٤٢ | - | ٢ | الوافر | الرجال | إذا ما المرء |
| ١٩ | - | ٢ | الوافر | الليالي | لئن |

| | | | | | |
|--------------|---------|----------------|---|----------------------------------|-----|
| وما بقيت | العقول | الواقف | ٢ | - | ٣٥٠ |
| والناس مهمهم | خيال | الكامل | ٢ | الأخطل | ١٠٥ |
| وأنا الدليل | مال | مجزوء الكامل | ٤ | علي بن أبي طالب | ١١١ |
| وإذا هممت | فاعجل | الكامل | ١ | - | ٢٢٠ |
| لما تعرض | إغفال | الكامل | ٢ | الباهي الإشبيلي | ٢١٢ |
| وقضى خلا | خال | مجزوء الكامل | ٢ | علي بن الجهم | ٢٣٥ |
| وإذا الرجال | آمل | الكامل | ٢ | - | ٢٣٦ |
| ليس بالمغبون | بال | مجزوء الرمل | ٣ | أبو الحسن الموسوي | ٢٤١ |
| تعجل الذنب | قابل | السرير | ٢ | - | ١١٠ |
| الصبر والصدق | أمله | المنسرح | ٣ | - | ٢٢١ |
| أيها العالم | نوال | الخفيف | ٥ | الباهي الإشبيلي | ٦٣ |
| إذا ما بدأت | حملة | المتقارب | ٣ | - | ٧٩ |
| وأعلم أن | الدليل | المتقارب | ٢ | عبد الصمد بن المعذل | ١٦١ |
| لو كان العلم | الجميل | مشطور الرجز | ٢ | - | ٧٠ |
| زهدي | الحجل | مشطور الرجز | ٤ | - | ٣٩٨ |
| إن لها | رجل | مشطور الرجز | ٣ | كعب بن سور الأسدي | ٣٩٨ |
| بكيه | الأم | مجزوء المتقارب | ٤ | عمود الوراق | ٣٧٨ |
| ولم أر | مغانم | الطويل | ٤ | أبو تمام | ٣٥٨ |
| إذا اجتمعت | صميمها | الطويل | ٣ | أبو طالب | ٤٦٣ |
| سألزم نفسي | الجرانم | الطويل | ٥ | الخليل بن أحمد أو عمود الوراق | ١٩٢ |
| وما سقطت | ذميتها | الطويل | ١ | المستوخر | ٧٧ |
| ذو العقل | ينعم | الطويل | ١ | ابن المعتز (المتبي) | ٧٥ |
| وإن عناء | أعلم | الطويل | ١ | صالح بن عبد القدوس | ٧٤ |

| | | | | | |
|-----|------------------|----|--------|-----------|---------------|
| ٢٠٨ | - | ١ | الطويل | يشتم | وللكف عن |
| ١٩٤ | يزيد بن الحكم | ١ | الطويل | لا يتحلّم | وليس يتم |
| ١٨٤ | رجل من اليمن | ١ | البيسط | مظلوم | أمرت من |
| ١٣٩ | - | ٢ | البيسط | أعوام | لا تجزعن |
| ٤٧٣ | - | ٢ | البيسط | الأكم | يا خير |
| ١٤٦ | الباهلي الإشبيلي | ٦ | البيسط | حلّم | تبا لطالب |
| ٢٩٠ | الفرزدق | ١ | البيسط | يتبسم | ينغضي |
| ٢٠٠ | - | ١ | الوافر | الكريم | ولا تنزل |
| ٤٧٥ | - | ١٨ | الوافر | كلام | أجذك |
| ٤٧٩ | - | ١ | الكامل | مذموم | الصبر |
| ٤٧٩ | - | ١٢ | الكامل | هو ما | دهني |
| ٦٦ | - | ٦ | الكامل | التعليم | يا أيها الرجل |
| ١٨٢ | المتنبي | ١ | الكامل | لا يظلم | الظلم من طبع |
| ٢١٠ | - | ٢ | الكامل | مليم | وإذا عتبت |
| ٢٧٩ | - | ٢ | الكامل | معدوم | قد توجد |
| ٣٦٩ | الباهلي الإشبيلي | ٥ | الكامل | ترجم | نطق الزمان |
| ٣٥٢ | - | ٢ | الكامل | الخضرم | لا توحشك |
| ٣٥٩ | أشجع السلمي | ٢ | الكامل | الإظلام | وعلى عدوك |
| ٣٧٩ | أبر تمام | ١ | الكامل | نعيمها | والحادثات |
| ٢٤٧ | علي بن أبي طالب | ٢ | الطويل | واجبا | أخوك الذي |
| ٣٩١ | علي الجهم | ٤ | الطويل | أخجبا | يقولون لي |
| ٤٥٢ | قس بن ساعدة | ٧ | الطويل | كراكمبا | خليتي |
| ٢٠٥ | الحسن بن رجاء | ٢ | الطويل | مجرما | صقوح عن |
| ٦٥ | - | ١ | الطويل | تعلمبا | فلم نر |

| | | | | | |
|-------|--------------------|----|-------------|-----------|----------------|
| ٦١ | ابن عبد العزيز | ٢ | الطويل | وأخذنا | ولم أتبدل |
| ٧٦،٥٤ | - | ٢ | الطويل | (أعلما) | عجبتُ |
| ٥٤ | - | ١ | الكامل | تفهما | وإذا تكلم |
| ٣٣٧ | بشار بن برد | ٣ | الطويل | حازمٍ | إذا بلغ |
| ٤٠٨ | - | ١ | الطويل | الخواتمِ | وللناسِ |
| ٢١١ | - | ٦ | الطويل | جلمِ | إذا أنت جاوبت |
| ١٨٢ | - | ١ | الطويل | بظالمِ | وما من يدٍ |
| ١٦١ | - | ٢ | الطويل | بدائمِ | ألا إنها |
| ٣٩ | - | ١ | الطويل | المحرّمِ | إذا ما أجبِت |
| ٥٩ | الأعور وينسب لزهير | ٢ | الطويل | التكلمِ | وكائنُ ترى |
| ١٣١ | - | ١ | البيسط | بالنّعمِ | قد ينعم |
| ١٩١ | - | ٢ | البيسط | لأقوامِ | لا يدرك المجد |
| ٢٥٢ | أبو تمام | ١ | البيسط | دمي | وما أبالي |
| ٣٠٠ | - | ٢ | البيسط | وَصَمِ | إني ليمنعني |
| ٢٦٠ | معن بن زائدة | ١ | الوافر | اللاثمِ | دعيني أنهب |
| ٢٩٨ | - | ٢ | الكامل | الأرحامِ | وإذا رأيت |
| ٢١٢ | عامر العدواني | ٢ | الكامل | علمي | إني غفرت |
| ١٨٥ | - | ٢ | الكامل | لم تسلّمِ | إياك والدنيا |
| ٤٥٤ | - | ١٢ | مشطور الرجز | الأحلامِ | يا أيها الناس |
| ٧٤ | الشافعي | ٢ | الطويل | الغنمِ | أنتثر |
| ٤٥٠ | - | ٧ | مشطور الرجز | سجّمِ | يا أيها الهاتف |
| ٣٤٨ | أبو العتاهية | ٢ | المقارب | يذمِ | وشرّ |
| ٣٧٩ | الرضي | ١ | المقارب | العدمِ | فحسن العلا |
| ١١٠ | - | ٢ | المقارب | النّعمِ | إذا كنت في |

| | | | | | |
|-----|------------------|----|-------------|----------|---------------|
| ٤٠٢ | ابن أبي جمعة | ٢ | الطويل | يزينها | إذا ما |
| ٢٧٣ | - | ٣ | الطويل | يقين | كفى لأمة |
| ٢٦٩ | - | ٢ | الطويل | وأمين | إذا كنت |
| ٣٤٠ | أبو الفتح البستي | ٢ | البيسط | خسران | يا خلعهم |
| ١٣٠ | - | ٣ | مخلع البسيط | يعين | الصبر مفتاح |
| ٣٦٤ | التنبي | ١ | الوافر | الزمان | يقولون الزمان |
| ٢١٠ | - | ١ | الوافر | الظنون | ولا تسجل |
| ٥٩ | - | ٣ | الوافر | المهوان | وأنت العز |
| ٣٥٤ | الباهلي الإشبيلي | ٥ | الكامل | الشيطان | له في عني |
| ٣٩٠ | - | ١ | الطويل | تصاونا | ومن كان |
| ٦١ | ابن طباطبا | ١ | الطويل | يخسونه | فيا لاعمي |
| ٢٨١ | - | ٣ | البيسط | إيانا | يا حافتاً |
| ٢٥١ | - | ١ | الزافر | سكونا | إنما هبت |
| ٢٥٦ | - | ١٠ | الرجز | الجنة | يا عمر |
| ٦٥ | العباس بن الأحنف | ١ | الوافر | كارهينا | أقمنا |
| ٢٠ | - | ٢ | الوافر | السنينا | رأيت |
| ٨٧ | - | ١ | الكامل | كامة | كم مة |
| ٢١٧ | - | ١ | المقارب | الشامينا | كمال للرومة |
| ٣٥٣ | محمد بن داود | ٣ | الطويل | عهدتي | لقد زعم |
| ٤٠٦ | - | ٢ | البيسط | بالقنين | لا تضرهن |
| ٣٥١ | أبو تمام | ٣ | البيسط | إخواني | ذو الود |
| ٣٤٣ | - | ٢ | البيسط | بالحسن | إنما حريت |
| ٢٦٩ | - | ٣ | البيسط | ديني | البخل داء |
| ١٢٥ | - | ٢ | البيسط | الزمني | ما عطني |

| | | | | | |
|-----|-------------------------------|----|--------------|-----------|-------------|
| ٢٦٥ | طلحة الطلحات | ٢ | الوافر | ودّعوني | أرى الإخوان |
| ٢٤٦ | - | ٣ | الكامل | بالأثمان | ولقد حدثت |
| ٢٤٣ | البحثري | ١ | الكامل | إبانته | واعلم بأن |
| ١٩٤ | - | ١ | الكامل | لا يعنيني | ولقد أمرت |
| ١٣٢ | الباهلي الإشبيلي | ٦ | الكامل | القرآن | الصبر أوثق |
| ١٢٢ | الباهلي الإشبيلي | ٢ | الكامل | ناتئين | اصبر على |
| ٧٦ | - | ٤ | الخفيف | بالخسران | يا أختا |
| ٢٥١ | - | ٣ | الخفيف | الإحسان | ليس في |
| ٦٩ | محمد بن أبي حازم | ١ | الخفيف | الامتحان | من تحلّى |
| ٤٠٣ | ابن المعتدل | ٣ | الطويل | ثمن | أنافس |
| ٤٢٨ | عبد المسيح بن عمرو الغساني | ١٢ | مشطور الرجز | اليمن | أصم |
| ١٣٩ | - | ٣ | البيسط | الله | إذا ابتليت |
| ٣١٥ | عبد الله بن الحجاج | ٢ | الوافر | فاه | لحى الله |
| ٢٦٨ | ابن وكيع | ٢ | الوافر | حماه | لثيم |
| ٢٠٤ | إبراهيم بن المهدي | ٣ | مجزوء الكامل | منه | ذني إليك |
| ٧٣ | علي بن أبي طالب | ٢ | الهنزج | وإياه | ولا تصحب |
| ٣٤٨ | أبو العتاهية | ٢ | مجزوء الرمل | أخوه | أنت ما |
| ٤٠٧ | إبراهيم بن الشافعي | ٢ | مجزوء الرمل | رجاه | أوثق |
| ٢٢ | علي بن أبي طالب | ٣ | البيسط | ثانيها | إن المكارم |
| ٩٣ | سابق البربري | ٢ | البيسط | تماديا | إذا زجرت |
| ١٥٩ | سابق البربري | ١ | البيسط | ما فيها | النفس ترغب |
| ١٥٧ | علي بن أبي طالب | ٢ | الخفيف | يكفيها | فنعّ النفس |
| ٢١٣ | بعض الأنصار | ٤ | الوافر | فيه | تجرد ما |

| | | | | | |
|-----|---------------------|----|--------------|--------|---------------|
| ٢٠٩ | الشافعي | ٣ | الوافر | الفقيه | إذا غلب |
| ٢٢٧ | - | ٢ | مجزوء الكامل | عليه | حَسْبُ الكذوب |
| ٤٠٧ | - | ٤ | مجزوء الرمل | عليه | حسي |
| ١٣٣ | - | ٢ | الطويل | كُفُو | أما والذي |
| ٢٩٤ | - | ٢ | مخلع البسيط | عدوة | من فارق |
| ٢٨٠ | الباهلي الإشبيلي | ٤ | الطويل | تجافيا | إذا كنت |
| ٤٨١ | صفية بنت عبد المطلب | ٦ | الطويل | باكيا | وكانت لنا |
| ٤٧٧ | علي بن أبي طالب | ٧ | الطويل | مناديا | الأطرق |
| ٤٨١ | صفية بنت عبد المطلب | ٤ | الطويل | جافيا | ألا يا رسول |
| ٢٩٢ | أفنون التغلبي | ١ | الطويل | واقيا | لعمرك ما يدري |
| ٣٤٦ | جرير | ١ | الطويل | ليا | وإني لأستجني |
| ٤٣٧ | ورقة بن نوفل | ٢ | الطويل | حاميا | رشدت |
| ٤٨٠ | صفية بنت عبد المطلب | ١٠ | الخفيف | حيا | ما لي عني |
| ٧٣ | الخليل بن أحمد | ٢ | الخفيف | الغبي | لا يكون |

المحتويات

مقدمة المؤلف ٣

الباب الأول

في ترجيح العقل وخصائصه ، وتجويع الهوى ونقائصه

- فصل في تسمية العقل وماهيته ومحلّه ٨
- فصل في اشتقاق أسماء العقل ٩
- فصل في كنه العقل وماهيته ١٠
- فصل في محل العقل ١١
- فصل في الأمور التي شبهوا بها العقل ١٤
- فصل في أقسام العقل وما يحتاج إليه من الأدب والتجربة ١٧
- فصل فيما يجب أن يكون في الإنسان من العقل حتى يستحق اسم الإنسانية ٢٤
- فصل في ذكر ما ركبت منه النفس من القوى ٢٥
- فصل في أقسام حالات الإنسان ٢٦
- فصل في درجات العقل ٢٦
- فصل في أقسام إرادة النفس ٢٩
- فصل في شرف العقل وفضله على جميع الأوضاع ٣٣
- فصل في أن من ثمرات العقل المعرفة بالله والاستدلال عليه ٣٤
- فصل في تجويع الهوى ونقائصه ٣٥
- فصل في جهاد النفس وأنه أرفع درجات المؤمن ٤٢

الباب الثاني

في اكتساب العلم وفضائله ، واجتناب الجهل وحامله

- فصل في أن علم الأنبياء لا يدرك بطلب ولا حيلة بل إنما هو اختصاص من الله تعالى ٤٦
- فصل في وجوب طلب العلم على كل مسلم ٤٧
- فصل أن العلم متقدم الوجود على العمل ٤٨
- فصل في شروط العلم التي لا يتوصل إليه إلا بها، وهي عشرة ٥٠
- فصل في كثرة أنواع العلوم والمعارف ، وكون بعضها أشرف من بعض ٥٧
- فصل في عظم العلم في نفسه ، وعزة حامله في قومه ٦٠
- فصل في فضل العمل ٦١
- فصل في حقيقة العلم ٦٤
- فصل في أنه لا يدعى عالماً من حفظ الأساطير وهو لا يفهم معانيها ٦٨
- فصل في فضل كلمة «لا أدري» ٦٩

| | |
|---------|--|
| ٧١..... | فصل في اجتناب الجهل وحامله |
| ٧٥..... | فصل في الواجب على من عري من الأدب والمعرفة ان يلزم الصمت |
| ٧٨..... | فصل في الجهل |

الباب الثالث

في استصحاب الطاعة بكاملها ، واستجناب المعاصي ومآلها

| | |
|----------|---|
| ٨٥..... | فصل في أن الإيثار نوعان |
| ٨٩..... | فصل في عدم استحباب المعيد طاعة ربه إلا برفض الدنيا |
| ٩٠..... | فصل في أن ترك الدنيا إنما يكون باطراح الفكرة في أحوالها وترك التمني للذاتها |
| ٩١..... | فصل في أن جهاد النفس لا يكون إلا بالتدرج |
| ٩٧..... | فصل في الشروط التي تبني عليها الطاعة |
| ١٠٠..... | فصل في أسباب الطاعة |
| ١٠٢..... | فصل في وجوه العمل بالطاعة |
| ١٠٥..... | فصل في أن الاستسلام لقضاء الله والرضا بأحكامه من تمام أحوال المطيع |
| ١٠٧..... | فصل في اجتناب المعاصي ومآلها |
| ١٠٨..... | فصل في أن من أشد ما أغرق أهل المعاصي في بحر الذنوب اتكالمهم على سعة الرحمة |
| ١١٣..... | فصل في أنه من الحق اللازم لكل إنسان أن يفارق من تليس بمعاصي الله ويمتنع |

الباب الرابع

في حسن الصبر وعواقبه ، وقبح الجزع ومعايبه

| | |
|----------|---|
| ١١٧..... | فصل في ثناء الله على عباده بالصبر |
| ١١٨..... | فصل في أن الصبر أصل لفروع البر والإحسان، وأساس لقواعد الطاعة والإيمان |
| ١٢٠..... | فصل في أقسام الصبر، وأن جميع أحوال الدنيا مفتقرة إليه |
| ١٢٦..... | فصل في وجوه الصبر ومذاهبه |
| ١٣٤..... | فصل في أن أفضل أنواع الصبر، الصبر على الأذى مع القدرة على الانتصار |
| ١٣٤..... | فصل في قبح الجزع ومعايبه |

الباب الخامس

في إثبات الزهد والورع ، والإقصار عن الرغبة والجشع

| | |
|----------|---|
| ١٤٧..... | فصل في أن الفرق بين الزهد والورع |
| ١٤٥..... | فصل في صفة الزهد |
| ١٤٧..... | فصل في أن أرفع درجات الزهد ترك الظهور وإثبات الخمول |
| ١٥٠..... | فصل في وجود الزهد |
| ١٥٢..... | فصل في ماهية الزهد |

- فصل في الاقتصار عن الرغبة والجشع ١٥٦
 فصل في أن القناعة ليست في المطعم والملبس والمسكن فقط ١٦٠
 فصل في فضول الحواس ١٦١

الباب السادس

في حب العدل وفضله، وبغض الجور وأهله

- فصل في حقيقة العدل ١٦٦
 فصل في فضل العدل ١٦٨
 فصل بالعدل استقام الدين ١٧٠
 فصل في أن العدل لازم لكل انسان ١٧٩
 فصل في بغض الجور وأهله ١٧٩

الباب السابع

في استجلاب الخلم ومصالحه، واطراح السفه ومقابحه، وحقيقة كل منهما

- فصل في حد الخلم ١٩٠
 فصل في أن الخلم يحسبه السفينة من ضعف المنة ١٩١
 فصل في قبول العذر ١٩٩
 فصل في اطراح السفه ومقابحه ٢٠٧
 فصل في أن السفه جهل ٢٠٩

الباب الثامن

في إظهار الصدق ومنافعه، وإنكار الكذب ومصارعه

- فصل في أنه لا جنة أوقى من الصدق وحكاية الحجاج عند قتل أصحاب ابن الأشعث ٢١٥
 فصل في فضل الصدق ٢١٨
 فصل في إنكار الكذب ومصارعه ٢٢٣
 فصل في دواعي الكذب وما فيه من العار ٢٢٨

الباب التاسع

في مدح الكرم وأربابه، وذم البخل وأسبابه، وحقيقة كل منهما

- فصل في أن قلما يفارق الكرم حسن الصورة، وما قيل في ذلك ٢٤٠
 فصل في حدود الكرم ٢٤٣
 فصل في أنه لا يحسن الكرم إلا إذا ساق إليه اطبع وما يتبع ذلك ٢٤٣
 فصل في تمام حدود المعروف ٢٤٤
 فصل في وجود الكرم وأسبابه الباعثة علي ٢٥٢
 فصل في أن الإيثار على النفس مع الحاجة أعلى مراتب الجود ٢٥٤

- ٢٦٦..... فصل في ذم البخل وأسبابه
 ٢٦٨..... فصل في أن من رذائل البخل امتناع البخيل من اقتراف الحسنات مع افتقاره إليها
 ٢٧١..... فصل في حدود البخل
 ٢٧٢..... فصل في حب الدينار والدرهم

الباب العاشر

في الوفاء بالعهد والامانة، والانتفاء عن النكث والخيانة، وحد كل منهما

- ٢٧٨..... فصل في الوفاء
 ٢٨١..... فصل في الانتفاء عن النكث والخيانة

الباب الحادي عشر

يشتمل على خمسة فصول متعلقة بالأفعال الشرعية

- ٢٨٧..... فصل في الحياء، وفضله
 ٢٨٨..... فصل في وجود الحياء
 ٢٩١..... فصل في المروءة
 ٢٩٣..... فصل في اسباب المروءة
 ٢٩٦..... فصل في حسن الخلق
 ٢٩٩..... فصل في صلة الرحم
 ٣٠٢..... فصل في كتمان السر

الباب الثاني عشر

يشتمل على خمسة فصول لا يرتضيها الشرع، وقد ورد منها المنا

- ٣٠٦..... فصل في الحسد ودناءة وخيث طباع صاحبه
 ٣٠٧..... فصل في أن الحسد أصل كل عداوة
 ٣١٠..... فصل في وجوه الحسد
 ٣١١..... فصل في الغيبة
 ٣١٤..... فصل في النميمة وسوء طباع صاحبها
 ٣١٧..... فصل في الرياء
 ٣١٨..... فصل في وجوه الرياء
 ٣٢٢..... فصل في العجب

الباب الثالث عشر

يشتمل على فنون الأداب، وضروب من النظم والثر من كل باب

- ٣٣٠..... فصل في الخلافة، وشروطها وآدابها
 ٣٣١..... فصل في القضاء وشروطه وآدابه

| | |
|-----|---|
| ٣٣٢ | فصل في خطة الوزارة والشروط التي لا بد منها للوزير |
| ٣٣٤ | فصل في الكتابة وآدابها |
| ٣٣٥ | فصل في آداب المرء في ذاته |
| ٣٤٠ | فصل في احتياج النفس إلى الاستراحة والفرغ في بعض الأحيان |
| ٣٤١ | فصل أن لكل وقت من أوقات العمر أدب لازم |
| ٣٤٢ | فصل في طلب القصد والاعتدال في جميع الأحوال |
| ٣٤٤ | فصل في أن على الإنسان أن يأخذ نفسه بحسن الصحة مع جميع إخوانه |
| ٣٤٩ | فصل في اختلاف المذاهب في طلب الاستكثار أو الاستقلال من الإخوان |
| ٣٥١ | فصل في حسن الظن بالصاحب |
| ٣٥٥ | فصل في ترك التعريض بالصاحب |
| ٣٥٧ | فصول جامعة لحكم وأخبار في مكارم الأخلاق |
| ٣٦٦ | فصل في أن الأدب أدبان أدب شريعة وأدب طبيعة |
| ٣٧٠ | فصل في حكايات عن بعض العرب الوعاظ |
| ٣٧٨ | فصل في وصايا بعض الحكماء |
| ٣٨١ | فصل في حكاية أوس بن حارثة لما احتضر، ووصية أمامة بنت الحارث لبيتها يوم زفافها |
| ٣٨٦ | فصل في التعازي وما ورد فيها من كلام العرب |
| ٣٨٨ | فصل في وصايا بعض الحكماء عند إقبال النوائب، وحلول المصائب، ومسألة العدو |
| ٣٩٤ | فصل في المواعظ |
| ٤٠٣ | فصل في فضل الدعاء وما ورد فيه من الآثار، وشذور من أدعية العرب |

الباب الرابع عشر

يختص بلمع من كلام رسول الله ﷺ وأخباره

| | |
|-----|--|
| ٤١١ | فصل في حكم رسول الله ﷺ وجوامع كلمه |
| ٤٢٠ | فصل فيا ورد عن كعب بن لؤي جد رسول الله ﷺ في تفرسه أن تكون في عقبه الدولة |
| ٤٣٨ | فصل فيما روي عن أبي هريرة من انكباب الأصنام عند بعثته ﷺ |
| ٤٦٠ | فصل في بعض مآثر النبي ﷺ وبرهانه |
| ٤٧٠ | فصل فيما روي عن علي بن أبي طالب يوم موت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما |
| ٤٧١ | فصل فيما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما احتضر |
| ٤٨٢ | فصل في قصائد نبوية للمؤلف |
| ٤٨٢ | خاتمة المؤلف |
| ٤٩٢ | الفهارس العامة |

